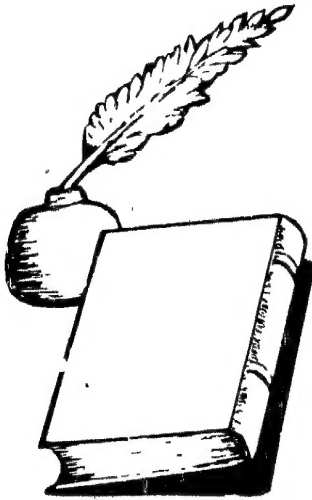


موسوعة التاريخ الإسلامى

٧

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق
من مطلع الاسلام حتى الآن

- نجد والحجاز حتى قيام المملكة العربية السعودية .
- تاريخ المملكة العربية السعودية منذ قيامها حتى الآن .
- سلطنة عمان وامتداداتها وانكماشها حتى الآن .
- اليمن من العصر الجاهلى حتى الآن .
- الخليج العربى ومشكلاته ودوله : دولة البحرين - دولة قطر
- دولة الامارات العربية - دولة الكويت .
- العراق فى جميع العصور .
- أحداث العراق والكويت (١٩٩٠ - ١٩٩١) دراسة محايدة .



تأليف
الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)

استاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

والهائز لوسام « العلوم والفنون » من الطبقة الاولى
لكتابات فى التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية



مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

الطبعة الخامسة
مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة



0101959



Bibliotheca Alexandrina

مؤسسة

التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٧

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق
من مطلع الإسلام حتى الآن

- نجد والحجاز حتى قيام المملكة العربية السعودية .
- تاريخ المملكة العربية السعودية منذ قيامها حتى الآن .
- سلطنة عمان وامتداداتها وانكماشها حتى الآن .
- اليمن من العصر الجاهلى حتى الآن .
- الخليج العربى ومشكلاته ودوله : دولة البحرين - دولة قطر - دولة
الإمارات العربية - دولة الكويت .
- العراق فى جميع العصور .

- أحداث العراق والكويت (١٩٩٠ - ١٩٩١)

تأليف

الهيئة العامة لدراسة محيىة، مكتبة الإسكندرية
رقم المصنف ٩٠٩١٦/٦٧
تسجيل ٧/٢٢٧٧٨

الدكتور أحمد شنبى

دكتوراه من جامعة كمبردج (إنجلترا)
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



مطبعة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
رأىها حسن محمد وأولاده
٩ شارع - مصر باشا بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا

(سورة الممتحنة الآية الرابعة)

التاريخ ♦ ♦ ♦ ♦

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧

الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢

الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦

الطبعة الرابعة سنة ١٩٩٠

الطبعة الخامسة سنة ١٩٩٢

خطة البحث في هذه الموسومة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة « التاريخ الاسلامي » خطة جديدة ومريحة ، ويسرني ان ابرزها في التخطيط التالي ليعرف القارئ كنهها ، وليسهل عليه متابعتها .:

دراسة زمنية في هذه	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
الأجزاء الثلاثة إذ	ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
أن العالم الإسلامي	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامي انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامي ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالي :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامي للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : أيران — أفغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ملايزيا — اندونيسيا — الفلبين — الهند — سنغافورة .	الكويت — العراق الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان — اليمن ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين —	التيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربي . وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . مخطاها الاسلام حتى الآن : الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ	مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر الحروب الصليبية : دواعيها — ادوارها — نتائجها الاجبراطورية العثمانية (تركية) منذ ظهورها حتى الآن	الأنفلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر السنوسية : مبادئها وتاريخها

وتختتم الموسومة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :
الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
عصر المظالم والهزائم
الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : أنور السادات : شخصيته وعصره

كتب المؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الاسلامى كله ،
من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
حققتها الدول الاسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الرابعة عشرة)

الجزء الاول : السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين .

الجزء الثانى : الدولة الاموية وانصاف تاريخها .

الجزء الثالث : الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الاول .

الجزء الرابع : الاندلس الاسلامية ، انتقال الحضارة الاسلامية منها الى
أوربا .

تاريخ المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا من مطلع
الاسلام حتى الآن .

الجزء الخامس : تاريخ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن - الحروب
الصليبية - تاريخ الامبراطورية العثمانية .

الجزء السادس : الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ
دخلها الاسلام حتى الآن : موريتانيا - السنغال -
جامبيا - غينيا - مالى - النيجر - نيجيريا - تشاد -
السودان - الصومال - جيبوتى .

الجزء السابع : دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن .
المملكة العربية السعودية - اليمن - عمان - دولة الامارات
العربية - قطر - البحرين - الكويت - ثم العراق -
(أحداث العراق والكويت : ١٩٩٠ - ١٩٩١ دراسة
محايدة) .

الجزء الثامن : الدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران - افغانستان -
الباكستان - بنجالاديش - مالايزيا - اندونيسيا -
الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين .

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم .

عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم .

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والتشريعية والقضائية والعسكرية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك ... (الطبعة العاشرة)

- الجزء الاول :** موجز عام للحضارة الإسلامية - المناهج الإسلامية :
أصولها الصحيحة - انحرافات - وجوب تصحيحها .
- الجزء الثاني :** الفكر الاسلامي : منابع وآثاره .
مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية .
- الجزء الثالث :** السياسة في الفكر الاسلامي - مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .
- الجزء الرابع :** الاقتصاد في الفكر الاسلامي - مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة .
- الجزء الخامس :** التربية والتعليم في الفكر الاسلامي .
- الجزء السادس :** المجتمع الإسلامي : تكوينه وعلاج مشكلاته .
- الجزء السابع :** الحياة الاجتماعية في الفكر الاسلامي : نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالافراح والمآتم والموسيقى والغناء .
- الجزء الثامن :** التشريع والقضاء في الفكر الاسلامي .
- الجزء التاسع :** العلاقات الدولية في الفكر الاسلامي .
- الجزء العاشر :** رحلة حياة : تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية .

ثالثا : التفسير الميسر للقرآن الكريم .

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم اذا قرأته أو سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

كتب للمؤلف

رابعاً : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المصادر بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة العاشرة)

– دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية – أنبياء بنى إسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرايين ...

– مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، برونو كولات حكماء صهيون .

– اليهود في الظلام : الاغتيال ، التجسس ، الماسونية ، الروناري ، اللونز – شهود يهوه ، البابية والبهائية .

– من صور التشريع في اليهودية .

الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة العاشرة)

– المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

– بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

– شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، الجامع ، طبيعة المسيح والكرام فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الديني ونتائجها ونقدها .

الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة العاشرة)

– الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام ، آراء المفكرين الغربيين في الاسلام ورسول الاسلام .

الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة العاشرة)

« الهندوسية – الجينية – البوذية » .

– تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان في الهند .

– دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتا .

– اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والزفانا ، وحدة الوجود .

– تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب للمؤلف

خامسا : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ - كيف تكتب بحثا أو رسالة •
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه •
(الطبعة الثانية والعشرون - مع ثلاثة ملاحق مهمة)
- ٢٦ - الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن :
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الاسلامي عبر
العصور •
- ٢٧ - أحداث العراق والكويت : ماذا أبرزت من مشكلات ؟ وما السبيل
للتغلب عليها ؟ دراسة تاريخية نفسية محايدة (الزهراء للاعلام العربي)

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية	ISLAM : Belief - Legislation - Morals	— ٢٨
	History of Muslim Education	— ٢٩
	وباللغة الفرنسية :	
	Islam : Croyance - Législation - Morale	— ٣٠

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)	Nearag dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٣١
	Masyarakat Islam	— ٣٢
	Hukum Islam	— ٣٣
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	1 — ٣٤
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	11 — ٣٥
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	111 — ٣٦
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٧
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٨
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٩
	Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha)	— ٤٠
	Sadjarah Pendidikan Islam	— ٤١
	Politik dan Ekonomi Dalam Islam	— ٤٢
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam	— ٤٣
	dan Masehi	
	Perang Salib	— ٤٤
	Kurikulum Islam Dalam	— ٤٥
	Perkembangan Sedjarah	— ٤٦
	Pengajian Al Quraan	— ٤٧
	Sedjarah Kehakiman Dalam Islam	— ٤٨

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٩ - تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى ، مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز الطالب الى مرحلة متقدمة في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامي والعربي اختلفت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .

٥٠ - قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفذت ولن يعاد طبعتها

- ٥١ - في قصور الخلفاء العباسيين :
- أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء الثالث من موسوعة التاريخ .
- ٥٢ - مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء التاسع من موسوعة التاريخ .
- ٥٣ - الحكومة والدولة في الاسلام :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء الثالث من موسوعة الحضارة .
- ٥٤ - الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامي فيها .
- وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الجزء الرابع من موسوعة الحضارة .
- ٥٦ - الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء التاسع من موسوعة الحضارة .

كتب المؤلف

سابعاً : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ، يقرؤها كل فرد من أفراد الأسرة ظهر منها ٧٢ جزءاً كالتى :

المجموعة الاولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءاً)

وتشمل سيرة الرسول ﷺ وجوانب منها 'تدوّن لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ أجزاء)

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)

نزول القرآن وتدوينه - القرآن والعلم - فضائل القرآن -

اعجاز القرآن - الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم (٧ أجزاء)

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ أجزاء)

لماذا انحرف تدوين التاريخ الأموى ؟ مدعو التشيع وسمومهم -

قمم أموية .

المجموعة السادسة : شخصيات اسلامية (٥ أجزاء)

صقر قريش - هارون الرشيد - الخليفة المأمون - الناصر لدين الله -

عبد الرحمن الناصر . . .

المجموعة السابعة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء)

- من شهداء الاسلام .

- الحروب الصليبية: بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الان

(٣ أجزاء فى مجلد)

- شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه (جزآن فى مجلد)

المجموعة الثامنة : الاسلام والمرأة (٥ أجزاء)

حالة المرأة فى الحضارات غير الاسلامية - ماذا قدم الاسلام للمرأة؟

نماذج من السيدات المسلمات: من بيت النبوة «السيدة زينب والسيدة

سكينة » ونماذج فى السياسة والآداب والعلوم والفنون - زيجات

شهيرة فى التاريخ : « زبيدة - بوران - قطر الندى » .

- مكة المكرمة : من التهيئة لاستقبال دين جديد الى التنكيل بمن

اتبعه (٣ أجزاء فى مجلد واحد)

- الميراث فى الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة .

- تاريخ الطب فى الإسلام .

- حركات فارسية ضد الاسلام والمسلمين عبر العصور

(٣ أجزاء فى مجلد واحد)

- تطوير دراسة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ودور دار العلوم

فى هذا المجال .

- الصحوة الاسلامية : مظاهرها - معوقاتهما - الصحوة تستعيد نشاطها .

- السلفية : نماذج رائعة للسلفية وتعثّر السلفية أحياناً .

- عواصم إسلامية مقدسة : مكة - المدينة - القدس : عبر العصور .

(الأجزاء التالية ستظهر قريباً ان شاء الله)

الموضوع	صفحة
مقدمة الطبعة الأولى	١٧ - ٢٠
مقدمة الطبعة الخامسة	٢٠

الجزيرة العربية

في صدر الاسلام والعهد الأموي والعصر العباسي

الجزيرة العربية في عهد الرسول	٢٣
الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين	٢٤
الجزيرة العربية في العصر الأموي	٢٩
الجزيرة العربية في العصر العباسي	٣٢
التفكك الفكري في الجزيرة العربية	٣٦
اتجاهات مصر الاستقلالية وصلتها بالجزيرة العربية	٣٧
العثمانيون في الحجاز والجزيرة العربية	٤٢
العثمانيون ولقب الخلافة	٤٣
مصر بالحجاز خلال العهد العثماني	٤٥

نجد

من مطلع الاسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية

غموض تاريخ نجد ومحاولة التغلب عليه	٤٧
حدود نجد وتعريف سريع بها :	٤٨
مناطق الخصوبة في نجد ٤٩ - مناطق الجفاف في نجد ٥٠	
قسوة الطبيعة في بعض المناطق ٥١ - صراع القبائل الذي	
لا يتوقف ٥٢ - كثرة الأوبئة والقحط والغلاء ٥٤ -	
مظاهر الجمال في نجد ٥٥ .	

مفتاح تاريخ نجد :

١ - الحياة القبلية في نجد	٥٧
(١) القبائل البدوية المتجولة	٥٨
من مشاهير العلماء في نجد	٥٩
٦٤	

الموضوع الصفحة

(ب) مزيد من الدراسات عن تاريخ نجد وتاريخ القبائل المستقرة وتاريخ بعض مدنها :	٦٩
عنيزة	٦٩
قضاة عنيزة وعلمائها	٨٢
العيينة	٨٩
قضاة العيينة وعلمائها	٨٩
حائل	٩١
٢ - زحف من الداخل	١٠٢
٣ - زحف من الخارج على نجد :	١٠٥
من الشرق ١٠٦ - من الغرب ١٠٩	

نجد وآل سعود والدعوة الإصلاحية

السعوديون :

الأمير سعود والدولة السعودية الأولى	١١٧
أمراء السعوديين وملوكهم في الدولة السعودية الأولى والثانية والثالثة	١١٨
الدولة السعودية الأولى - والامام محمد بن سعود	١٢٠
الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته	١٢١
فقه الدعوة واتجاهها العقائدى	١٣٠
عبد العزيز بن محمد بن سعود	١٣٨
سعود الكبير	١٤٠
القوى المضادة للسعوديين	١٤٤
الزحف المصرى على الحجاز والجزيرة العربية :	١٤٩
طوسون يقود الحملة الأولى ١٤٩ - محمد على يقود الحملة الثانية	١٥٠
الصلح وشروطه من مصادر سعودية	١٥١
نقض الصلح وغزوة « محرش » من المصادر السعودية	١٥٢
ابراهيم باشا يقود حملة للرد على نقض الصلح	١٥٤
نهاية الدرعية ونظرة شاملة لهذا الصراع	١٥٧
الدولة السعودية الثانية والصراع الداخلى	١٦٢

المملكة العربية السعودية

١٦٩	الدولة السعودية الثانية (دولة البطولة والاستقرار والتقدم)
١٧٠	الملك عبد العزيز وجهوده ونتائج كدحه
١٧٢	وقفة عند المواقع التاريخية
	أخطر المعارك التي خاضها الملك اليباسل :
١٧٥	الأحساء والعثمانيون
١٧٨	آل الرشيد
١٨٢	عسير والإدارسة
١٨٦	الأشراف
٢٠٨	الآخوان
٢١٢	رحلة الى الغطف
٢١٤	نهاية البطل
٢١٤	الملك سعود
٢١٨	الملك فيصل :
٢١٩	مآثر الملك فيصل
٢٢١	فيصل وحرب رمضان
٢٢٣	نهاية الملك فيصل
٢٢٥	الملك خالد : بيعة ونهاية
٢٢٥	الملك فهد وجهوده
٢٢٦	ملايين النسخ من القرآن الكريم
٢٢٦	لقب الملك : خادم الحرمين الشريفين
٢٢٦	جسر الملك فهد الى البحرين
٢٢٧	أقسام المملكة العربية السعودية وأهم بلدانها
٢٣٢	حضارة المملكة العربية السعودية
	التصحيح الفكرى ٢٣٢ - وحدة المملكة ٢٣٢
	القيادة الرشيدة ٢٣٣ - الأمن ٢٣٣ - الإدارة ٢٣٤
	محاربة الاعداء الثلاثة ٢٣٤ - النهضة العلمية ٢٣٥
	الصحة ٢٣٦ - مقارنات ٢٣٦ - الزراعة ٢٣٨ -
	ال عمران والحرمين الشريفان ٢٣٩ - الصناعة ٢٤٠
٢٤٣	عدوان على المسجد الحرام
٢٤٥	عدوان إيراني بالمسجد الحرام
٢٤٥	عدوان عراقي على السعودية

سلطنة عمان

٢٤٩ تقديم
٢٤٩ موقع عمان على خريطة العالم
٢٥٢ تسمية عمان
٢٥٣ أهم المدن في عمان
٢٥٧ عواصم عمان السياسية
	صحار ٢٥٩ - الرستاق ٢٦٥ - مسقط ٢٧٠ - نزوى ٢٧٩
٢٨٨ هل تعد عمان من دول الخليج أو لا تعد ؟
٢٩٢ اقتصاد عمان
٢٩٦ جولة تاريخية عن عمان
٢٩٧ سكان عمان
٢٩٩ عمان الاسلامية :
	في عهد الرسول ٢٩٩ - في عهد الخلفاء الراشدين ٣٠٠
	في العهد الأموي ٣٠٢ - عمان والمذهب الإباضي ٣٠٤
	عمان في العصر العباسي ٣٠٦ .
٣٠٨ عصور الحكم في عمان عبر التاريخ الاسلامي :
٣١٠ عصر الأئمة الإباضية
٣١٢ العصور المظلمة
٣١٥ ملوك آل نبهان
٣١٩ عمان هدف لعدوان خارجي (فارسي ثم برتغالي)
٣٢١ اليعاربة وتعريف بأشهر أئمتهم
٣٣٠ من مآثر اليعاربة
	آل بوسعيد :
٣٣١ المستشار أحمد بن سعيد وخلفاؤه
	الانقساتات والتفكك ٣٣٦ - فصل ساحل الصلح عن
	عمان ٣٣٧ - القاب الحكام ٣٣٨ - عمان والقوى
	الأوربية ٣٤١ - السعوديون وعمان ٣٤٣ - البوسعيديون
	في شرقى افريقية ٣٤٦ .
٣٤٨ تعريف بأشهر سلاطين البوسعديين :
٣٥٠ سلطان بن أحمد ٣٤٩ - سعيد بن سلطان
٣٥٣ السلطان قابوس وعصره :

الموضوع	صفحة
مقاطعة ظفار ٣٥٦ - حضارة عمان	٣٥٩
صلات شخصية بعمان	٣٦٢
العقل العماني المتفتح :	
مازن بن غضوبة والصنم الذي تكلم !!	٣٦٣

اليمن

- ١ - الجمهورية العربية اليمنية
- ٢ - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

حدود اليمن	٣٧٣
أقسام اليمن الطبيعية	٣٧٥
كلمة عن تاريخ اليمن قبل الاسلام وحضارته	٣٧٥
الاسلام في اليمن :	

عهد الرسول ٣٨١ - عهد الخلفاء الراشدين ٣٨٣
الأسود العنسي ٣٨٤ - الأشعث بن قيس ٣٨٥

زبيد :	٤٠٠ - ٤٠١
الفتوحات الاسلامية وأهل اليمن	٣٨٧
اليمن بين عثمان وعلى	٣٨٨
اليمن في العهد الأموي	٣٨٨
مقارنة بين اليمن وحضرموت	٣٩١
اليمن في العصر العباسي	٣٩٤
أقاليم اليمن والدول التي قامت بها	
بنو زياد ٤٠٣ - بنو نجاح ٤٠٦ بنو المهدي	٤٠٨

صنعاء :	٤١١
بنو يَغْفَر ٤١٣ - القرامطة ٤١٥ - بنو صليح	٤١٧
مكانة الفاطميين في دولة بنى صليح	٤٢٠
الهمدانيون	٤٢١

صعدة :	٤٢٣
الشيعة في صعدة ٤٢٣ - الرس والائمة الزيديون	٤٢٨

عدن :	٤٣٧
بنو زريع	٤٣٨

الموضوع	صفحة
مصر في اليمن :	٤٤١
مطلع الدعوة الفاطمية في اليمن	٤٤١
الأيوبيون في اليمن	٤٤٤
بنو رسول	٤٤٩
بنو طاهر	٤٥٦
اليمن يمنان	٤٥٩
مماليك مصر الشراكسة في اليمن	٤٦١
العثمانيون في اليمن	٤٦١
المرحلة الأولى للغزو العثماني ٤٦٤ - المرحلة الثانية	٤٦٦
المرحلة الثالثة	٤٦٧
آل حميد الدين	٤٦٩
عهد الامام يحيى ٤٦٩ - عهد الامام أحمد ٤٧٥ - الامام البدر	٤٧٦
الجمهورية العربية اليمنية	٤٧٧
عبد الناصر واليمن ٤٧٧ - ثورة جديدة في اليمن	٤٨٠
العقيد على عبد الله صالح	٤٨٢
الشيخ زايد يجدد سد مأرب	٤٨٢

اليمن الجنوبية قبل وبعد اعلان الجمهورية

مناطق اليمن الجنوبية قبل اعلان الجمهورية	٤٨٤
عدن حتى الاستعمار البريطاني	٤٨٧
المقاطعات الشرقية حتى الاستعمار البريطاني	٤٨٨
المقاطعات الغربية حتى الاستعمار البريطاني	٤٩١
الحياة السياسية والاجتماعية بحضر موت قبل الاستقلال	٤٩٢
بريطانيا والجنوب اليمنى	٤٩٥
اتحاد الجنوب ٤٩٧ - الاستقلال التام وخطواته	٤٩٨
عبد الناصر وحركات التحرير	٤٩٩
قيام الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية	٥٠٢
وحدة اليمن الشمالية والجنوبية	٥٠٥
جهود الحضارمة في نشر الاسلام	٥٠٧

الخليج العربى والدول العربية الواقعة عليه

٥١٣	تسمية الخليج
٥١٨	أهمية الخليج وأهمية منطقته
٥٢١	ساحل الخليج (البحرين)
٥٢٣	الاسلام فى منطقة الخليج
٥٢٦	الردة والصراع ضد المرتدين
٥٣٠	البحرين فى العهد الاموى
٥٣٠	الخوارج فى منطقة الخليج
٥٣٥	البحرين فى العصر العباسى
٥٣٨	حركة الزنج فى البحرين وخطوات الثائر
٥٤٤	مقاومة حركة الزنج
	القرامطة ودولتهم :
٥٥١	التاريخ للقرامطة ٥٤٨ - الباطنية وأثرهم فى القرامطة ..
٥٥٥	تسمية القرامطة ٥٥٤ - من الأهواز الى حمدان
٥٥٩	عقائد القرامطة ٥٥٨ - من حركة دينية الى مذهب سياسى
٥٦١	أبو سعيد الجنايى وأولاده وتعريف بهم
٥٧٦	القرامطة والفاطميون ٥٧١ - مصر والقرامطة
٥٨٣	نهاية القرامطة ٥٨٠ - نظم القرامطة السياسية والاقتصادية
٥٨٧	العيونيون فى البحرين
٥٨٩	فارسيون فى البحرين
٥٩٠	نفوذ مصر فى البحرين
٥٩١	صراع النفوذ ابتداء من القرن السادس عشر
٥٩٣	البرتغاليون ٥٩٢ - الفرس والانجليز والهولنديون
٥٩٤	العرب ضد القوى الاستعمارية
٥٩٨	دول المنطقة بعد الاستقلال
٦١٢ - ٥٩٩	دولة البحرين
٦٠٥	تاريخ جزر البحرين ٦٠١ - الخطوات نحو الاستقلال
٦٠٨	ايران والبحرين وتجدد محاولات ايران للسيطرة على البحرين

الموضوع	صفحة
مواجهة المحاولات الايرانية :	
١ - جسر الملك فهد	٦١١
٢ - جامعة الخليج العربى	٦١٢
دولة قطر	٦١٣ - ٦٢٣
لمحة تاريخية ٦١٥ - آل ثانى فى قطر	٦١٦
قاسم بن محمد آل ثانى وخلفاؤه	٦١٧
قطرى بن الفجاءة	٦٢٢
دولة الامارات العربية المتحدة	
٦٢٥ - ٦٤٥	
الامارات كانت جزءا من عمان ٦٢٧ - مشكلات الامارات	٦٢٩
تعريف بالامارات واحدة بعد واحدة	٦٣٠
قيام دولة الامارات وجهودها فى مختلف الميادين	٦٤٠
دولة الكويت	
٦٤٧ - ٦٧٥	
معلومات عامة عن الكويت ٦٥٠ - تاريخ الكويت	٦٥٣
أمراء الكويت وكلمة تاريخية عن أهمهم ٦٦١ - اقتصاد	
الكويت ٦٦٧ - الحياة فى الكويت	٦٦٨
الكويت والعرب	٦٧٠
غنى الكويت والفقر حولها ، وآثار ذلك	٦٧١

العراق

أرض الحضارة فى التاريخ الوسيط	
ومقر الرشيد والمأمون وبيت الحكمة	٦٧٩
نبذة عن تاريخ العراق القديم	٦٨٠
الموقع والسطح والسكان	٦٨٠
العراق فى صدر الاسلام	٦٨٤
كلمة عن البصرة والكوفة والموصل	٦٨٧
الفرس احتلوا أرض السواد أكثر من ألف عام	٦٨٥
العراق فى العهد الأموى	٦٩٢
العراق فى العهد العباسى	٦٩٥
المغول :	
التتار والمغول ٧٠١ - أصل المغول ٧٠١ - ديانات المغول	٧٠٢
أشهر زعماء المغول	٧٠٥

الموضوع	صفحة
جنكيزخان : الياسا ٧٠٣ - جنكيزخان وأرض الاسلام	٧٠٥
الدولة الخوارزمية والمغول	٧٠٥
جلال الدين 'منكبرتي'	٧١٠
المغول يتجهون صوب العراق	٧١١
تحالف المغول مع الصليبيين	٧١٣
المغول والاسماعيلية	٧١٣
هولاكو وسقوط بغداد	٧١٤
دفاع عن ابن العلقمي	٧١٨
الاسلام يغلب المغول	٧١٩

العراق ابتداء من عهد المغول

المغول الايلخانيون	٧٢١
الجلائريون	٧٢٤
تيمورلنك وآل جلائر	٧٢٥
الدولة الجلائرية. بعد تيمورلنك	٧٢٦
القرهقوينلو (التركمانية الاولى)	٧٢٧
الاق قوينلو (التركمانية الثانية)	٧٢٩
علاقة الاق قوينلو مع القوى المجاورة :	
علاقاتهم مع التيموريين ٧٣٢ - مع العثمانيين	٧٣٢
الصفويون في العراق	٧٣٥
العثمانيون في العراق	٧٣٧
الادارة التركية في العراق ٧٣٩ - ولاية العراق في العهد التركي	٧٤٠
دولة المماليك في العراق	٧٤٥
قائمة المماليك وتعريف بأشهرهم ٧٤٦ - نهاية المماليك	٧٥١
مصر ومصير ممالك العراق - اصلاحات المماليك	٧٥١
باشوات بغداد بعد المماليك	٧٥٤
العراق من القرن التاسع عشر للقرن العشرين	٧٥٦
بريطانيا والعراق	٧٥٧
الاستعمار والملكية بالعراق	٧٥٨

الموضوع	صفحة
ثورات العراق الاستقلالية والاصلاحية :	
ثورة ١٩٢٠ : ٧٦٠ - ثورة ١٩٤١ : ٧٦١ - ثورة ١٩٥٨ ونهاية الملكية واعلان الجمهورية ٧٦٤ - ثورة ١٩٦٣ : ٧٦٦ - ثورة ١٩٦٨ : ٧٦٧ - صدام رئيسا للجمهورية ٧٦٩ - الحرب مع ايران	٧٧٠
أحداث العراق والكويت : دراسة تاريخية نفسية محايدة	٧٧٣ - ٧٨١
ثبت المصادر والمراجع	٧٨٢ - ٧٨٨

فهرس الخرائط والمخططات

الدول التى ستدور حولها الدراسة فى هذا الجزء	١٩
مناطق القبائل التى اتجهت لها جيوش أبى بكر	٢٦
عنيزة بالقصيم وعيينة بالعارض وحائل بجبل شمر	٨١
مخطط رؤساء وملوك الأسرة السعودية	١١٩
أمرء وملوك آل عون (من الأشراف)	١٩١
سلطنة عمان ومقاطعاتها	٢٥١
أهم المدن فى سلطنة عمان	٢٥٥
قلعة صحر	٢٦٤
مسقط مدينة الأبراج	٢٧٥
مسقط مدينة الأبراج	٢٧٦
حصن جبرين فى نزوى	٢٨١
مخطط أسرة آل بوسعيد	٣٣٥
مناطق اليمن الرئيسية والأسر الحاكمة بها	٤٠٠ - ٤٠١
أهم المناطق التى تكونت منها جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	٤٨٦
غارات المغول على العالم الإسلامى	٧١١

مقدمة الطبعة الأولى

في مسيرتنا من الغرب إلى الشرق لدراسة تاريخ العالم الإسلامي انتهينا من الدول الإسلامية بإفريقية شمالى الصحراء وجنوبها ، ودرسنا منطقة سوريا ونحن ندرس تاريخ مصر لطول ارتباط سوريا بمصر على مر التاريخ ، كما درسنا تركيا منذ ظهورها حتى الآن ، ووقفنا بذلك عند البحر الأحمر ، وعند الحدود الفاصلة بين سوريا وتركيا من جانب وبين العراق من جانب آخر ، متطلعين لقطاع جديد من قطاعات العالم الإسلامي ليكون موضوع جزء جديد من أجزاء هذه الموسوعة •

ومتابعةً لمسيرتنا نجدنا في هذا الجزء أمام منطقة مهمة للغاية ، هي الجزيرة العربية وامتداداتها إلى الشمال الشرقى حيث العراق ذو التاريخ الإسلامي المجيد •

والجزيرة العربية مهد الاسلام ، وفيها انبثقت الحضارة الإسلامية التي سرعان ما أصبحت حضارة إنسانية ، وقد ظلت الجزيرة العربية رديفاً من الزمن ترسل الإشعاعات الفكرية في اتجاهات متعددة حتى تسلمت دمشق فبغداد فالقاهرة مشعل النور ، ولكن الإسلام كان قد ربط بالحجاز ركنا من أركان الإسلام هو الحج حيث يلتقى كل عام مئات الآلاف من القادرين على تكاليف الرحلة ومشاقها ليؤدوا فريضة الحج ، وليجتمعوا في مهبط الوحي ليتدارسوا مشكلات المسلمين ، وليرسّموا الطريق لعلاج هذه المشكلات ، وعلى هذا لم يفقد الحجاز جلاله الدينى عندما ضعف جلاله السياسى •

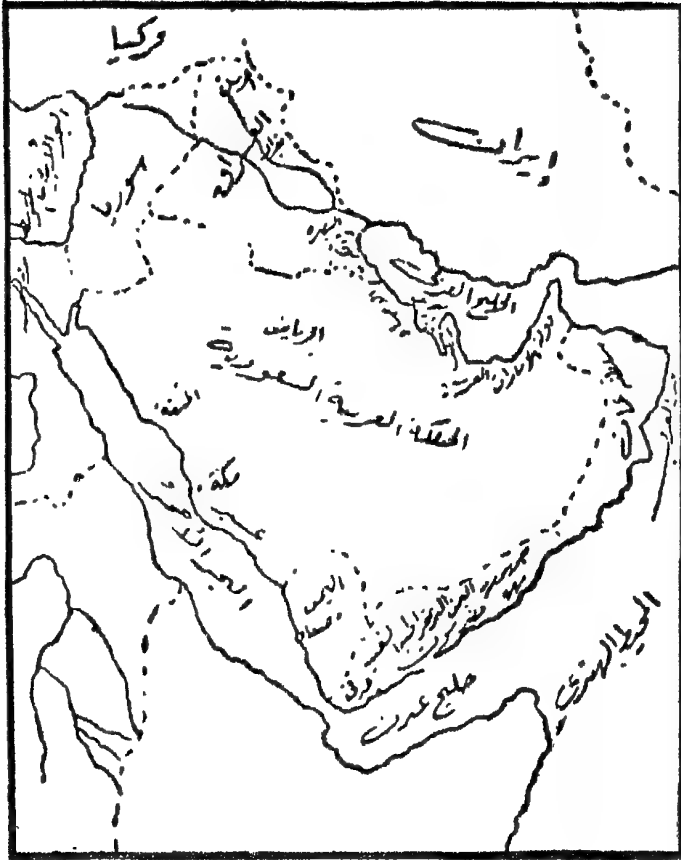
وفي الجزيرة العربية كذلك توجد المدينة المنورة حيث مثوى سيدنا رسول الله ، وكثير من خلفائه وصحبه ، وزيارة سيدنا رسول الله بالمدينة هدف تحرص عليه الغالبية العظمى من الحجاج •

ومن أجل هذا نجدنا في هذا الجزء على صلة وثيقة بمنزل الوحي ، وبالعنصر العربى الذى تلقى الإسلام وفهمه ، وحمله للبشر ، وذاد عنه عندما تصدى له أعداء الحرية والعدالة والمساواة ، وتخطى به المخاطر والحدود ، وحارب من أجله المعارضين المعتدين ، ولو كانوا أولى قربى أو أصحاب تيجان وعروش ، وعلى هذا فإننا نؤكد أن انتشار الإسلام كان انتشارا حضاريا ، وأن تفوقه على العقبات التى وقفت فى طريقه كان بسبب رجحانه فكريا على الحضارات أو أشلاء الحضارات التى واجهته .

ومن الواضح أن هذا الجزء يرتبط بالجزء الأول من هذه الموسوعة ارتباطا وثيقا ، ففى الجزء الأول تحدثنا عن العرب قبل الإسلام ، وعن السيرة النبوية العطرة ، وعن الدعوة الإسلامية وفلسفتها ، وعن عصر الخلفاء الراشدين ، وقد كانت الجزيرة العربية مسرح الأحداث فى تلك الفترة ، ويرتبط هذا الجزء كذلك بالجزء الثانى من هذه الموسوعة حيث الصراع بين الحجاز والأمويين ، ويرتبط أيضا بالجزء الثالث حيث قامت الخلافة العباسية فى العراق ، وسنلم هنا إلمامات موجزة بالتاريخ الذى أوردناه فى الأجزاء السابقة ، ثم نصل القول فى الأحداث التى لم تشملها تلك الأجزاء حتى نصل بهذه الأحداث الى العهد الحاضر .

ومن الملاحظ أننا إذا نظرنا إلى خريطة المنطقة التى سيثملها هذا الجزء يتضح لنا أنها الآن تشمل الدول الآتية :

- ١ — المملكة العربية السعودية .
 - ٢ — سلطنة عمان .
 - ٣ — جمهورية اليمن الشمالية .
 - ٤ — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .
 - ٥ — دولة الامارات العربية .
 - ٦ — قطر .
 - ٧ — البحرين .
 - ٨ — الكويت .
 - ٩ — العراق .
- وقد اتحدت الدولتان (مايو ١٩٩٠) وسنكلم عنهما فيما بعد كدولة واحدة



الدول التي ستدور حولها الدراسة في هذا الجزء

ومن الواضح أن الغموض يكتنف فترات طويلة من تاريخ هذه الدول ،
وأن الإقدام على دراسة تاريخها السياسى والحضارى دراسة متصلة
يحتاج الى جهد جهيد ، وصبر طويل ، حتى ندفع تاريخ هذه المناطق الى
النور ، أو ندفع النور لها ، فتاريخ الجزيرة العربية يدخل فى نطاق
غموض لم تكشفه بعد أبحاث ذات بال ، فأكثر ما كتب عن هذه المنطقة
مجلدات هى الى الدعاية أقرب ، وأمثلة هذه المجلدات قد تخدم أغراضها
فى مجال الدعاية ، ولكنها لا تخدم البحث والدراسة ، ومن هنا فهى
لا تزيد اللبس والغموض بصفة حقيقية •

فاللهم نضرع إليك أن تلهمنا السداد والرشاد ونحن نقتحم هذا
العمل الكبير ، فكل صعب يهون إن شملنا تأييدك ، وكل ضباب يتلاشى إن
كان معنا عونك ، وكن يارب معنا لنكمل العمل الذى بدأناه باسمك ، وسرنا
فيه بتوفيقك فعليك اعتمادنا ، ومنك وحدك ما حققناه ، ونحققه من نجاح
لخدمة الإسلام والمسلمين •

يارب ••••• يارب

المعادى فى يناير سنة ١٩٧٧.

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة الرابعة

يسعدنى أن أقدم الطبعة الرابعة من هذا الكتاب بعد أن أدخلت عليه
إضافات عن الأحداث التى جرت بعد آخر طبعة منه ، وبعد أن أدخلت
عليه بعض التحسينات والتحقيقات •

والله المسئول أن ينفع به قارئه ومؤلفه ، وهو نعم المولى ونعم
النصير •

المعادى فى ابريل سنة ١٩٩٠

دكتور أحمد شلبى

الجزيرة العربية

في صدر الإسلام والعهد الأموي والعصر القباسي الأول

الجزيرة العربية في صدر الإسلام

في عهد الرسول :

في الجزء الأول من هذه الموسوعة ذكرنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام — بعد أن انتصر على قريش في بدر ثم هادنهم في العام السادس من الهجرة ، وبعد أن انتصر على اليهود في العام الثانی والرابع والخامس والسابع للهجرة — راح يتطلع لنشر الإسلام في نواحي الجزيرة العربية ، فأرسل مبعوثين من قبله يحملون كتبه لرؤساء القبائل والامارات بالجزيرة العربية ، بل كذلك للماوك والرؤساء بالأقطار المحيطة بالجزيرة ، وأوردنا هناك أسماء هؤلاء المبعوثين ، ونتائج هذه البعثات ، والمهم هنا أنه عن هذا الطريق انتشر الإسلام انتشارا واسعا بالجزيرة على وجه خاص .

وفي العام التاسع قدمت وفود عربية للرسول من كل جهة ، ولذلك سمى العام التاسع للهجرة عام الوفود ، وقد أوردنا في الجزء الأول أسماء هذه الوفود ، وأشرنا الى ما عرف من شعرهم وخطبهم .

ومن الذين وفدوا على الرسول ضمن هذه الوفود وائل بن حجر الكندي وكان أمير بلاد الشاطئ من حضرموت فأسلم ، وأقره النبي على امارته ، كما جاءت وفود حمير من اليمن تعلن إسلام هذه المناطق ، وكانت هذه الوفود بقيادة الحارث بن طلال وأخويه نعيم والنعمان .

وكتب فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على من يليهم من العرب إلى الرسول بإسلامه ، وأرسل بعض الهدايا ، فلما عرف الروم عنه هذا التصرف قبضوا عليه وسجنوه ثم قتلوه ، وقد أشرنا إلى هذا في الجزء الأول من هذه الموسوعة .

ومن بين الوفود وفود تميم وربيعة وقحطان وثقيف وأسد والأزد وغسان ومهرة ونجران ومذحج وخثعم وغيرهم .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام عماله على المناطق المختلفة التي أسلمت ، كما أرسل الدعاة والمعلمين ليعلموا الناس مبادئ الإسلام وليقرئوهم القرآن •

الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين :

وذكرنا أيضا في الجزء الأول من هذه الموسوعة أن من العرب من دخل الإسلام دون دراسة ، ودون إيمان عميق ، ومنهم من دخل الإسلام تجنباً لخوض الحروب ضد المسلمين الذين حققوا انتصارات واسعة في معاركهم ، ومنهم من دخل الإسلام طمعا في مغنم أو جاه ، والمهم أن وفاة الرسول أتاحت الفرصة لهؤلاء ليظهروا ما في نفوسهم ، أو ليثوروا على حُصْر الرئاسة في جماعات قريش ، ومن هنا ظهر من يعرفون في التاريخ بالمتنبئين والمرتدين ومانعي الزكاة ، وهي أسماء مختلفة ولكنها تعبر عن مدلول واحد هو التمرد بدليل أن الأشعث بن قيس كان من مانعي الزكاة ثم انضم للمرتدين ، وكانت كندة مع الأسود العنسي مدعى النبوة فلما قتل انضمت للمرتدين ، وكان أهل اليمامة من المرتدين فلما علا شأن مسيلمة انضموا له (١) وهكذا •

ولكن أبا بكر وقف موقفا رائعا ، وحمل المسؤولية بكفاءة ممتازة ، فأرسل رسله بكتب مفتوحة إلى هؤلاء المرتدين يوضح لهم ما خفى عليهم ، ويرد على ما أظهروه قادة الضلال من انحراف ليعودوا من جديد إلى الإسلام والتمسك به (٢) ، ثم انتفى يدفع بالقوة من لم تنفع معه الحسنى ، فأعد جيوشا جبارة أوصاها بقوله : من حرص على الموت في الحرب وهبت له الحياة • فكانت هذه الوصية خير ضمان للنصر ، وكانت جيوش أبي بكر التي أعدها لهؤلاء كالآتي :

(١) صالح بن حامد العلوي : تاريخ حضر موت ج ١ ص ١٤٧ و ١٥٧ •

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ص ١٨٨١ وما بعدها • وانظر كتاب أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها •

خالد بن الوليد الى طليحة بن خويلد ومالك بن نويرة ومسيلمة
عكرمة بن أبي جهل الى مسيلمة حتى جاء خالد بن الوليد
المهاجر بن أبي أمية الى الأسود العنسي بصنعاء
حذيفة بن محصن الى أهل عمان
عرفجة بن هرثمة الى أهل مهرة
سويد بن مقرن الى تهامة اليمن
طريف بن حاجز الى بنى سليم وهوازن
عمرو بن العاص الى قضاة
المعلاء بن الحضرمي الى البحرين
خالد بن سعيد الى مشارف الشام

وكانت جولة خالد بن الوليد أعظم هذه الجولات فقد اتجه إلى
قبيلة بنى أسد التي كانت تنزل في « عين بزاخة » بالقرب من مكة (١)
وقد حاربهم خالد وانتصر عليهم ، وأسر طليحة ، وأرسله إلى المدينة ،
ولكنه أعلن توبته وعاد بصدق إلى الإسلام ، وانتقل خالد بأمر أبي بكر
إلى بنى حنظلة (من أهم بطونها تميم) وكانت هذه القبائل تقيم في المنطقة
الممتدة بين المدينة والخليج العربي ، حيث كان مالك بن نويرة قد توقف
عن دفع الزكاة ، وقد هزّم خالد العشائر التي قاومته ، وقتل مالك بن
نويرة وتزوج امرأته ، وقد دار نقاش طويل حول خالد مرتبطا بهذه
الزيجة ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن خالد تزوج هذه المرأة بعد أن
فصلت الردة بينها وبين زوجها مالك ، وكان مالك متهما بالردة مع قطع
الزكاة ، أو كان قطع الزكاة وعدم الاعتقاد بوجوبها نوعا من الردة (٢) .

وسار خالد بعد ذلك إلى أرض اليمامة ، وهي قريبة من البحرين (٣)
وتسكنها قبائل كثيرة أهمها بنو حنيفة التي كانت مشهورة بكثرة العدد

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٣ ، ياقوت : معجم
البلدان ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) انظر الاحكام السلطانية للماوردي ص ٤٧ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٥١٥ .



مناطق القبائل التي اتجهت لها جيوش أبي بكر

وشدة البأس ، وكان مسيلمة كاهنا ادعى النبوة ، وقد بدأ ادعائه قبل وفاة الرسول ، وكتب للرسول أن يعترف بالمشاركة بينهما ، وقد استطاع مسيلمة قبل أن يصل له خالد أن يهزم جيش عكرمة بن أبي جهل ولكن خالد أنزل به عدة هزائم وقضى عليه في « حديقة الموت » حيث سقط آلاف من بني حنيفة ، وعدد كبير من المسلمين ، منهم مجموعة من حفظة القرآن الكريم ، وسمى هذا اليوم ، « يوم القيامة »^(١) وقد زرت الدرعية موطن مسيلمة وأهلها يقولون أن الله طهر بلادهم بظهور محمد بن عبد الوهاب بها بعد أن دنسها مسيلمة ورفاقه .

واتجه خالد بعد ذلك إلى البحرين ليمساعد عاملها « العلاء بن الحضرمي » في صراعه ضد المرتدين الذين كان يقودهم رجل اسمه « الحطم » ، وكان كثير من سكان البحرين من عناصر فارسية أو من اليهود والنصارى^(٢) وقد هزم خالد هؤلاء المرتدين وقتل « الحطم » .

وهكذا جالت الجيوش الإسلامية جولة في الجزيرة العربية أعادت خلالها التأثير إلى الاستسلام ، والصال إلى الهدى ، وعادت الجيوش إلى المدينة ، وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضالة إلى السيف ، ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سبيلا .

ثم قسم أبو بكر الجزيرة ولايات ، وعين على هذه الولايات عماله كالآتي :

عقاب بن أسيد	عاهلا على مكة
عثمان بن العاص	» » الطائف
المهاجر بن أمية	» » صنعاء

(١) الميداني : معجم الأمثال ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان - ٢ ص ٧٤ .

زياد بن ليبيد	» »	حضر موت
يعلى بن أمية	» »	خولان
أبو موسى الأشعري	» »	زبيد
جرير البجلي	» »	نجران
عبد الله بن ثور	» »	جرش
العلاء بن الحضرمي	» »	البحرين

وفي أواخر عهد أبي بكر بدأ الصراع ضد قوى الشمال ، ضد الفرس والروم ، وزحف الإسلام بحضارته وفكره فلم تستطع دولتا الشمال أن تتقفا في وجهه ، فقد كان كثير من العراقيين والسوريين والفرس يحسون أن الإسلام دين الجميع ، وأن الانضمام اليه ليس هزيمة وإنما هو فرار من العسف والظلم والانحراف الى حضارة الاسلام وروح الاسلام التي سمعوا بها ، وترقبوا يوم الخلاص مما يعانون ليعتقوها ، ومن هنا كان جنود الفرس والروم يفرشون من جيوشهم وينضمون للمسلمين ، حتى اضطر قادة الفرس والروم أن يقيدوا الجنود بالسلاسل حتى لا يفرروا ، وقد عرفت هذه المعارك بمعارك ذات السلاسل ، وقد تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذه الموسوعة .

وعلى هذا فالتوسع الاسلامي ليس كما تعود المؤرخون أن يصفوه بالفتح والغزو والانتصارات ، وإنما هو في الحق صراع بين حضارة نضبت وانهارت ، وحضارة انبثقت وعلا شأنها وهي دعوة من الله لكل الناس ، يثشكر منهم من قدمها وذاد عنها ، ويثشكر من استقبلها فأحسن استقبالها .

وكلمة أخيرة عن الجزيرة العربية قبل أن نترك عهد الخلفاء الراشدين هي أن منها كان يثحكم العالم الاسلامي في أكثر سنوات هذه الفترة ، فقد كانت المدينة المنورة هي عاصمة الدولة الاسلامية خلال عهد الرسول ، وعهد الخلفاء الثلاثة بعده ، ومطلع عهد الإمام على كرم الله وجهه ، حتى انتقل منها إلى الكوفة سنة ٣٦ هـ .

الجزيرة العربية في العصر الأموي

في كلمة موجزة نقرر أن الجزيرة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين نعمت بشيئين مهمين هما :

- ١ — كانت بها عاصمة الدولة الإسلامية كلها •
- ٢ — أبنائها هم حملة الدعوة والمدافعون عنها •

وقد أكسبها هذا الوضع امتيازات أدبية ومادية بعيدة المدى ، وفي العهد الأموي فقدت الجزيرة العربية الصفة الأولى فلم تعد عاصمة الدولة الإسلامية إذ أصبحت دمشق هي العاصمة ، ولكن الصفة الثانية بقيت لها ، فإن الأمويين كانوا يكرمون العرب ، ويعتمدون عليهم في كل شئونها ، فلما جاء العصر العباسي فقدت الجزيرة الصفة الثانية كما فقدت الأولى ، إذ قوى نفوذ الفرس والترك في بغداد ، وانتهى الأمر بأن أسقط المعتصم العرب من دواوين العطاء ، فقلَّ شأن الجزيرة واستسلمت للمهجول •

تلك فكرة موجزة تحتاج إلى بعض التفاصيل والإيضاح :

في العهد الأموي انتقلت العاصمة — كما قلنا — إلى دمشق ، وتركت الجزيرة العربية ، التي يمكن أن نقسمها في هذا العصر قسمين مختلفي الملامح ، القسم الأول الحجاز ، والقسم الثاني يشمل باقى الجزيرة العربية ، ولنرجى الكلام عن الحجاز لنبدأ الحديث عن باقى الجزيرة ، فنقرر أن انتقال الخلافة الى دمشق أبعد السلطة التي كانت تُرغم القبائل على الخضوع والتبعية ، وكانت أغلب بقاع الجزيرة تموج بالقبائل التي كانت بطبيعتها تكره الخضوع لسلطات مركزية ، وترى ذلك تدخلا في حريتها وسيادتها ، ومن أجل هذا استعادت القبائل تقريبا حياتها الأولى التي كانت عليها قبل الاسلام ، فأصبح لكل قبيلة شأنها ورياستها واستقلالها ، وفي بعض المناطق قامت حركات استقلالية بقيادة بعض الأمراء الطموحين الذين كانت الخلافة عينتهم ، ولكن الحياة القبلية كانت تهدد هؤلاء أيضا ، ومن أجل هذا اشتد التنافر في أرجاء الجزيرة العربية

بين أمير وأمير ، وبين قبيلة وقبيلة ، كما كانت الحال قبل الاسلام ، ولعل الأمويين أرضاهم ذلك حتى تنشغل هذه القبائل بهذا الصراع ، فيكون في ذلك السلامة للخلافة التي كانت ثورات الجزيرة العربية أخطر ما تخافه ، وأصبح تاريخ أغلب المناطق بالجزيرة العربية هو تاريخ الحياة القبلية أو قل ان الجزيرة أصبحت بدون تاريخ .

وكان الأمويون يحاولون أحيانا أن يمدوا نفوذهم إلى بعض المناطق الحساسة بالجزيرة العربية ، فيضمون نجد إلى ولاية العراق أو البحرين ، ويضمون عسير إلى الحجاز أو إلى اليمن ، ويضمون البحرين إلى البصرة ، ولكن الوالى هنا أو هناك لم يستطع غالبا أن تكون له سيطرة فعلية ثابتة على القبائل .

أما القسم الثانى وهو الحجاز ، فقد أدرك الأمويون أن الخطر يتهددهم منه أكثر من غيره ، ففيه الطامعون الذين لم يخضعوا لمعاوية إلا كارهين ، والذين وقفوا موقفا صلبا ضد ابنه يزيد ، وضد الحجاج عامل عبد الملك بن مروان ، ثم ان بالحجاز توجد الأماكن المقدسة حيث ينساب الحجيج كل عام لإداء فريضة الحج ، وحيث يتدفق الناس للعمرة ولزيارة مثوى سيدنا رسول الله بالمدينة ، ومن أجل هذا لم يكن في وسع الأمويين أن يتغاضوا عن الحجاز كما تغاضوا عن الأماكن الأخرى بالجزيرة ، بل وجَّهوا له عناية كبرى لمنع الحركات فيه من جانب ولتيسير شئون الحج من جانب آخر ولهذا عينوا لحكمه مجموعة من الأفذاذ وخيرة الرجال من بنى أمية ، مثل عتبة بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص وابنه عمرو ، وخالد بن العاص ، وعمر بن عبد العزيز ، وقد تولى بعض هؤلاء مكة ، وتولى بعضهم المدينة ، وجمع لبعضهم الحجاز كله .

ويمكننا على كل حال أن نقرر أن التفكك شمل الجزيرة العربية ، وأن المدنية الإسلامية أدارت للجزيرة ظهرها ، وأن كبار الرجال بها من

قادة وعلماء استقروا حيث طاب لهم المقام في الشام او العراق او مصر ، وفيما عدا الحجاز استسلمت هذه المنطقة بوجه عام إلى الظلام والقبليّة والمجهولة .

ومن أوضح ما يدلنا على مدى التفكك الذي انتاب الجزيرة العربيّة ابتداء من العهد الأموي أن ابن الزبير وأعوانه بمكة لم يهبوا لمساعدة المدينة عندما كان مسلم بن عقبة المري يكدّسها ويبيحها لرجاله ، وبالتالي لم تتقدم المدينة لمساعدة مكة عندما دمرها الحجاج ورمى الكعبة بالمنجنيق ، ومعنى هذا أن التفكك شمل سكان المدينتين المقدستين مع ما شمل من مناطق الجزيرة .

على أن ثورة المدينة من جهة ، وثورة ابن الزبير بمكة من جهة أخرى جعلت الدولة الأموية تقف موقف الحذر من الحجاز ، وتقلل من استخدام أبنائه ، فانصرف الجيل الجديد إلى الفن والشعر ، وتخلّى عن عالم السياسة والطموح (١) .

وينبغي أن يكون واضحاً أن عناية الأمويين بالأماكن المقدسة لم تقلّ بسبب سخط الأمويين على أهل الحجاز ، فقد أمر عبد الملك بن مروان قاتله الحجاج بأن يبنى الكعبة عقب نهاية الصراع بينه وبين ابن الزبير (٢) ، وعمّر عبد الملك المسجد الحرام عمارة حسنة ، فرفع جدرانها وسقفه وجعل في رءوس الأساطين خمسين مثقالاً من الذهب في رأس كل أسطوانة (٣) وفي عصر الوليد بنى عمر بن عبد العزيز المسجد النبوي سنة ٨٨ هـ ووسعه بأن أدخل فيه بيوت زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام إلا بيت عائشة حيث مثوى الرسول وصاحبيه (٤) وأمر الوليد عمر بن

(١) أنظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة ص ٦٩ - ٧١ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٤) الطبري ج ٨ ص ٦٥ .

عبد العزيز أن يبنى الفوارة التي يشرب منها أهل المدينة ، كما أمره بتسهيل السبل ما بين الحرمين وتمهيد الثنايا الواقعة بها ^(١) وبالنسبة للمسجد الحرام فقد زاد الوليد في زخرفته ، ونقل له أساطين الرخام ، وهناك اصلاحات علمية وعمرانية كثيرة عرفها الحجاز في العهد الأموي .

وفي أواخر العهد الأموي قامت محاولة ضد الأمويين ترمى إلى الاستيلاء على الحجاز ، وقد قام بهذه المحاولة عبد الله بن يحيى الكندي الحضرمي ، الذي استولى سنة ١٣٩ هـ على حضرموت ثم أنفذ المختار ابن عوف الأزدى أحد قواده ، فاحتل مكة والمدينة ولكن جيوش مروان ابن محمد سرعان ما قضت على هذه المحاولة .

ومعنى هذا أن التفكك الذي شمل الجزيرة أو أكثرها كان على وشك أن يبتلع الحجاز ، لولا ما للحجاز من أهمية دينية جعلت كل الخلفاء في مختلف الأعهود يهتمون به ، ويحرصون على الحفاظ عليه .

وهناك نقطة خطيرة هي أن بعض خلفاء الأمويين كان لا يعلم عن موطن آبائهم وأجدادهم إلا ما يسمعه من الناس ، فقد أصبحت دمشق وطنهم ، ومقر أمجادهم ، أما مكة حيث أمجاد أبي سفيان ومنشأ معاوية ، فقد أصبحت للأمويين ولغيرهم من المسلمين ، مدينة مقدسة فقط ، يحج لها بعضهم ، وينشغل آخرون حتى عن أداء فريضة الحج أو العمرة لها .

الجزيرة العربية في العصر العباسي

قلنا من قبل إن الجزيرة العربية فقدت في العهد العباسي عاملي الرخاء وهما العاصمة والقيادة ، وهذا القول يحتاج إلى مزيد من التفصيل ، فالعاصمة العباسية (بغداد) زادت بعدا عن الجزيرة العربية ، فقد كانت دمشق قريبة الصلة بالخط التجاري في رحلتى الشتاء والصيف ،

(١) الطبري ٨ : ٦٦ والأزرقي : أخبار مكة ص ٣٠٩ .

ولكن بغداد لم تكن كذلك ، ثم أن دمشق كان وجهها عربيا ، ولكن عاصمة العباسيين لم تكن كذلك على الرغم من حزم بعض الخلفاء ، ففي العصر الأول كانت فارسية الوجه ، فأبو مسلم الخراساني ، وأبو سلمة الخلال ، والبرامكة ، وبنو سهل * كان لهم النفوذ الكبير ، وبعد العصر الأول زاد وجه العاصمة العباسية بعدا عن العروبة *

ويرى بعض الباحثين أن الصراع بين الأمين والمأمون كان صراعا بين العرب والفرس ، وقد انتصر فيه المأمون بجيشه الذي زحف به من خراسان بقيادة طاهر بن الحسين ، ولا شك أن المأمون حاول عقب انتصاره أن يعيد للعرب بعض النفوذ ولكن الزمن كان أقوى منه ، وجاء المعتصم ففضى على هذه المحاولة عندما أسقط العرب من قوائم العطاء *

وينبغي أن نبرز هنا ما سبق أن ذكرناه من أن العرب الذين كانوا يقودون الجيوش ، ويتولون المناصب ، وينشرون الإسلام في مختلف البقاع لم يعودوا الجزيرة العربية ، بل استوطنوا البلاد التي نزلوا بها ، وأقاموا بها أَسْرًا جديدة ، فتوقف تدفق المال على الجزيرة ، وأصبحت كبيت رحل أهله عنه ، فعادت القهقري في الفكر والسياسة ، وبالتالي عادت الحياة القبلية تستشري فيها من جديد ، وتم ذلك مع نهاية العصر العباسي الأول *

ومع هذا فقد حظيت منطقة الحجاز بعناية الخلفاء العباسيين كما حظيت من قبل بعناية الخلفاء الأمويين بسبب الأمانة المقدسة ، وحرصا على سلامة الحجاج الموافدين إلى الحجاز *

وقد حاول بعض الخلفاء العباسيين أن يستعيدوا النفوذ في أكثر مناطق الجزيرة العربية ، ولو على الأقل من الناحية الاسمية ، فكان أمير الحجاز يُعَدُّ أميرا على أكثر مناطق الجزيرة ، فأبو العباس السفاح ولي سنة ١٣٣ هـ خاله زياد بن عبيد الله الحارثي على الحجاز ، وجعل الطائف

والإمامة تابعيتين له ^(١) وداود بن علي كان واليا على الحجاز في عهد المنصور وكانت الإمامة تابعة له ^(٢) .

ولكن نفوذ هؤلاء الولاة خارج الحجاز كان محدودا للغاية ، وبخاصة ما دامت لم توجد بتلك المناطق ثورات تهدد الخلافة .

ومن الأعمال التي تنسب للعباسيين أن أبا العباس السفاح أنشأ القلاع على طريق الحج للحراسة الحثاج من هجمات البدو ، كما أنشأ بيوت الضيافة في محطات الاستراحة ، وينسب لأبي جعفر المنصور أنه زاد في الحرم المكي زيادة كبيرة سنة ١٣٩ هـ ، وكان من اصلاحات المهدي أن أخذ عددا كبيرا من أولاد الأنصار وأقطعهم الأملاك الواسعة بالعراق ، وأكثر بناء الخانات على دروب الحج ، ووسع في بناء المسجد الحرام ، وأدخل فيه دورا عديدة من جهة المسمى ، وينسب لزوجته الخيزران ، أنها — عندما حجت — ابتاعت بعض الأماكن التاريخية ، وأنشأت فيها مساجد ، ومنها المكان الذي ولد فيه سيدنا رسول الله ، ومنها دار الأرقم ابن أبي الأرقم ، أما السيدة زبيدة فمن منشأتها « عين زبيدة » بمكة التي أجرت إليها الماء من وادي النعمان على بعد عشرة كيلو مترات من مكة ، كما أنها مهدت طريق الحج من العراق الى الحجاز عبر الصحراء ، وبنت عليه المرافق والمنازل ، وحفرت الآبار ، وما زال يعرف باسم « درب زبيدة » ^(٣) .

ولكن كان هناك عامل مهم باعد بين العباسيين وبين الحجاز ، فمنذ مطلع الدولة العباسية ظهر الحجاز مناوئا للدولة الجديدة ، وقامت به مجموعة من الثورات العلوية ذكرناها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ^(٤) ، وفي قمته ثورة النفس الزكية ، والحسن بن علي بن الحسن بالمدينة ، ومحمد الديباج بمكة ، كما أنه خرج من الحجاز مناوئون

(١) الطبري ج ٩ ص ١٤٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٨٨ .

(٣) أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي ج ٣ ص ٢ .

(٤) انظرها في ص ٢٩٦ وما بعدها .

آخرون زعزعوا أركان الدولة في أرجاء أخرى من العالم الإسلامي ، فمن الحجاز خرج ابراهيم بن عبد الله الذي سار الى الديلم بعد موقعة (فسخ) وكون هناك حركة رآها الرشيد خطرا عليه ، وبذل جهدا كبيرا ليتحاشاها ، ومن الحجاز كذلك خرج إدريس بن عبد الله الذي أخذ طريقته الى المغرب ، وكون دولة الأدارسة وهي أول دولة تنتسق على العباسيين من العالم الذي كان يدين لهم بالولاء .

ولم تقتصر ثورات الحجاز على الثورات السياسية ، بل امتدت الثورات في الحجاز الى مدى آخر ، فقد هب بنو سليم وأشجع بالمدينة في ثورة سلب ونهب وتدمير ، وامتد أذاهم الى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، وتغلبوا على جند الموالي ، وكان ذلك في عهد الموائق ، فأرسل لهم الخليفة جيشا بقيادة بغا الكبير فأوقع بهم وأخذ عددا كبيرا من الأسرى (١) .

والذي ينظر في تلاحق ثورات الحجاز على العباسيين يدرك أن الحجاز كان مصدر خطر على الدولة العباسية مما جعل هذه الدولة لا تعنى بالحجاز الا بالقدر الذي يرتبط بالأمكنة المقدسة ، وسلامة الحجاج ، والتغلب على صور التمرد ، وفيما عدا ذلك انضم الحجاز للأمكنة الأخرى بالجزيرة العربية من حيث الفراغ والنسيان والعودة للمجهول والحياة القبلية .

بقى من الجزيرة العربية أن نتكلم كلمة عن عمان وعن اليمن ، وهذان القطران قامت بهما في عصور التاريخ الاسلامي دول وممالك ، ولكن الحياة القبلية كانت نشطة بهما نشاطا لم يتوقف ، ومنافسات للأمرء وحركات التنفك لم تنقطع كما سنرى عند عرض تاريخهما بالتفصيل فيما بعد .

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٢٠ .

التفكك الفكرى فى الجزيرة العربية

وصفنا من قبل التفكك السياسى الذى أصاب الجزيرة العربية ولكن هذه الجزيرة أصيبت بانحيار آخر هو التفكك الفكرى فقد اجتمعت بالجزيرة بقايا المذاهب المختلفة ، وتعمق التعصب فاتضحت صورته فى التعصب المذهبى الذى يصفه المقدسى ^(١) بقوله : « ومذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء سنّة ، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية ، وبقية الحجاز وأهل الرأى بعمان وهجر وصعدة شيعة ، وجماهير عمان وصعدة وأهل السهوات وسواحل الحرمين معتزلة ، والغالب على أهل صنعاء اتجاهات أبى حنيفة ، وبالمعافر مذهب أبى المنذر ، وفى نواحي نجد اليمن مذهب سفيان ، والأذان بتهامة ومكة يرجع على مذهب مالك ، ويكبر فى العيدين على قول ابن مسعود ، والعمل بهجر على مذهب القرامطة » .

وفى الجزيرة العربية وبخاصة فى منطقة الخليج العربى ظهرت حركات مدمرة ، وانحرافات متعددة ، ستكون موضع اهتمامنا عندما نصل فى دراستنا الى هذه المنطقة ، ولا شك أن القرامطة كانوا من أبرز هذه الحركات ، وقد بعث القرامطة الذعر ، ونشروا الخوف فى الجزيرة العربية مدة قرن من الزمان ، فكانوا بانحرافهم الفكرى مثالا واضحا لما أصاب الجزيرة من تدهور وانحلال .

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٩٦ .

اتجاهات مصر الاستقلالية

وصالتها بالجزيرة العربية

لمصر تاريخها الطويل العريض قبل الإسلام ، فعلى ضفاف النيل نبتت أقدم وأعظم حضارة عرفت البشرية (١) ، وشعب مصر ورث هذه الحضارة الرائعة جيلا عن جيل ، وجو مصر جو ممتاز طيلة العصور . وهواء مصر عبق ، ونيلها ساحر ، ورخاؤها غامر ، وآمالها عراض ، وقد فتحت مصر ذراعيها للإسلام ورحبت بفكره وحضارته ، وحذق اللسان المصرى لغة القرآن وبلاغة القرآن ، وتكونت بمصر مدرسة إسلامية عظيمة الشأن منذ العهد الأول ، وكان من دعائهما وافدون من الجزيرة العربية جنبا إلى جنب مع الذين نبتوا على أرض مصر ، وسرعان ما أصبحت المدرسة الإسلامية بمصر من أعظم المدارس التى تخدم الإسلام والفكر الإسلامى (٢) ، فلما ضعفت الجزيرة العربية سياسيا وفكريا ، وسقطت الدولة الأموية ، واصطُرعت بعاصمة العباسيين قوى البغى ، تطلعت مصر إلى مكان الصدارة ، وفى العهد الطولونى تحقق لمصر استقلال يكاد يكون تاما ، ومن مظاهر هذا الاستقلال نمو الثروة المصرية فى عهده نموا كبيرا بسبب الإصلاحات الشاملة التى قام بها (٣) ، وتكوين جيش ضخم يحمى البلاد ويحقق الأهداف العسكرية (٤) ثم صراعه ضد الموفق أخى الخليفة والمسيطر على دار الخلافة ، وهذا الوضع يجعل مصر على قدم المساواة مع بغداد وينفى التبعية التى كانت موجودة من قبل ، وطمع ابن طولون فى أن يجذب لمصر الخليفة المعتمد المغلوب على أمره ، وكتب له يقول : وقد جمعت عندى مائة ألف عنان ، وأرى لسيدى

(١) انظر حديثنا عن هذه الحضارة فى كتاب « الفكر الإسلامى » أحد أجزاء موسوعة الحضارة الإسلامية للمؤلف .

(٢) اقرأ عن هذه المدرسة فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الإسلامى للمؤلف .

(٣) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٦٨ .

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتحان الى نهاية العز ، ولا يتهيأ لأخيه فيه شيء مما يخافه (١) .

ووصل الاتجاه الاستقلالي في ذلك العهد الى أن ابن طولون عزل « الموفق » وأن كان هذا العزل بطبيعة الحال لم يتم .

وبعد أن كانت مصر تابعة للمدينة أو دمشق أو بغداد أصبحت مصر ذات سلطان واسع ، فيه استقلال لها ، وفيه امتداد الى الخارج ، فقد اتسعت دولة ابن طولون من العراق شرقا الى برقة غربا ، ومن آسيا الصغرى الى بلاد النوبة ، كما أسهم ابن طولون في الدفاع عن الثغور الشمالية المواجهة للروم ، حتى خشي امبراطور الروم بأسه ، وترضاه بأن أطلق بعض أسرى المسلمين الذين كانوا عنده (٢) .

ولما كان الحجاز قبلة للعالم الإسلامي ، ومطمع الحكام الأفذاذ فقد كان من الطبيعي أن تحاول مصر أن تمت نفوذها الى الحجاز ، وقد حاول أحمد ابن طولون ذلك ، ونازل قوات الموفق في مكة (٣) .

وقامت الدولة الأخشيدية بعد ذلك بمصر ، واتجهت نفس الاتجاه الاستقلالي الذي بدأ في العهد الطولوني ، وكما حارب ابن طولون الموفق فقد حارب الأخشيد ابن رائق أمير الأمراء الذي كان مسيطرا على الخلافة العباسية في عهده (٤) ، وكما دعا ابن طولون الخليفة المعتمد ليحلحق بمصر ، وليتخذ منها عاصمة للخلافة ، فقد دعا الأخشيد الخليفة العباس (الراضي) ليحيى الى مصر حتى يتخلص الخليفة من نفوذ أمير الأمراء وكما اتسع سلطان مصر في عهد ابن طولون ، فان سلطان مصر في عهد الأخشيد كان أكثر اتساعا ، فقد شمل مصر واليمن والشام ، وقد ذكرنا

(١) البُلُوى : سيرة ابن طولون ص ٢٨١ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٣٢ .

(٤) المرجع السابق : ج ٨ ص ١١٧ .

من قبل أن ابن طولون تطلع للسيطرة على الحجاز لمكانة الحجاز في العالم الإسلامي ، وأنه نازل جند الموفق في مكة ولكن الاخشيد كان أكثر توفيقا من ابن طولون في هذا الاتجاه ، فقد امتد نفوذه الى الحجاز كله (١) .

ولابد في الحديث عن الاخشيديين أن نرجع الى الوراء قليلا ، لنذكر أن الخلافة الفاطمية قامت بنونس سنة ٢٩٧ هـ وهي خلافة لا تعترف بالخلافة العباسية ، وتتقف منها موقف المنافسة وتحاول أن تقضى عليها ، وبينما كانت الخلافة الفاطمية قوية في مطلع حياتها وقمة قوتها ، كانت المخلافة العباسية تترنح تحت ضغط القوى التي استولت على السلطة في بغداد متماثلة أولا في الأتراك ثم البويهيين .

ومن الطبيعي أن يكون الحجاز محل صراع بين العباسيين والفاطميين ، فللحجاز مكانه المقدس عند هؤلاء وأولئك وسيكون لمن يستولى عليه مكان أرفع لدى كافة المسلمين ، وقد أدرك العباسيون ألا قبل لهم بالمصراع ضد الفاطميين الذين كانوا يندفعون بقوة تجاه مصر وتجاه الحجاز ، وبخاصة أن مصر كانت في حالة اضطراب بعد نهاية الطولونيين ، كما كانت الحجاز تمر بفترة سيئة اثر تدخل القرامطة وانتزاع الحجر الأسود من مكانه .

في ضوء هذه الظروف لم يجد الخليفة الراضى بدا من اللجوء الى قائد عرف عنه الحزم والحكمة هو محمد بن طنج الاخشيدى الذى كان واليا على دمشق ، وكانت مصر تابعة له بصفة مؤقتة ، فجعل الراضى ولاية مصر لمحمد بن طنج الاخشيدى ولاية أصيلة ، وأمره بالانتقال لها ، ليعيد إليها حياة الاستقرار ، فجاء ابن طنج الى مصر سنة ٣٣٣ هـ (٢) ثم ضمت الحجاز لدولة الاخشيديين وظلت الحجاز مرتبطة بمصر عدة قرون بعد ذلك خلال العهد الفاطمى والأيوبي وخلال عهد المماليك حتى

(١) الكندى : تاريخ مصر وولاتها ص ٢٨٨ - ٢٩١ .

(٢) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الفتح العثماني (أى من سنة ٩٤٥ الى سنة ١٥١٧) ما عدا فترات قصيرة جدا ، وكان حكام مصر يولون الولاية على الحجاز ليدون لهم الحكم والسياسة ، ويوافقون على تولية الأشراف الذين سنتكلم عنهم فيما بعد ، والذين كانوا يباشرون الأمور الدينية ، وفي بعض الأحوال كان الشريف يختار ليتولى شئون الحكم والسياسة مع عمله الديني تابعا لحكام مصر ، وكانت مكانة الشريف تعلو أو تهبط حسب كفاءته من جانب ، وافتهازا لفرص ضعف أو اضطراب بمصر من جانب آخر .

وقد حاول بعض ولاية الحجاز من قبل مصر أن يمدوا نفوذهم الى مناطق أخرى بالجزيرة العربية ، ولكن هذه الفترات كانت قصيرة العمر ، وكانت الحياة القبلية تتشط من جديد فتستعيد السلطة من هؤلاء الولاية .

وعلى هذا ليس صحيحا ما تذكره بعض المراجع ^(١) من أن ارتباط الحجاز بمصر بدا بعد وفاة كافور الاخشيدى عندما رحل عن المدينة المنورة محمد بن جعفر الحسينى ، ودخل مكة ودعا للفاطميين ، لأن ارتباط الحجاز بمصر بدأ فى مطلع عهد الاخشيديين ، وكان بموافقة العباسيين .

وهكذا ارتبطت الحجاز بمصر حوالى ستة قرون ، ولم يقصمها الا تدخل العثمانيين ، واستيلائهم على السلطة فى البلاد العربية ، وقد حاولوا اضعاف مصر لأنهم تصوروا أن الخطر ضدهم يكمن فى مصر ، ولكن مصر على كل حال استطاعت فى عهد العثمانيين أن تستعيد مكانتها بالحجاز من الناحية الأدبية ، وقدمت الى الحجاز أسمى المساعدات دون أن تنتظر تعليمات من العثمانيين كما سنرى بعد قليل ، فلما تحقق لمصر

(١) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١١٥ .

استقلالها عن العثمانيين ابتداء من سنة ١٨٠٥ (عهد محمد على) حاولت مصر أن تستعيد مكانتها بالحجاز كاملة كما كانت عبر القرون الماضية (١) .

ماذا فعلت مصر للحجاز ؟

في اعتقادي الذي أؤمن به بناء على الدراسات الدقيقة أن مصر قدمت للحجاز أكثر مما قدمت لنفسها ، تطاعت الى الأماكن المقدسة بعناية فائقة من الناحية العمرانية والثقافية ومن ناحية الأمن داخل الحجاز أو في الطرق الموصلة اليه ، ومن ناحية كبح جماح الطامعين والمتمردين ، ومن ناحية دور الايواء والإحسان ، وقد استوى في ذلك الطولونيون والاختشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك ، ولست أورد تفاصيل ما فعلته مصر في الحجاز فليس ذلك بخاف على أحد .

والذي دفعني الى هذا الاتجاه ما لا حظته من بعض المؤلفين الذين يميلون الى أن يبخسوا مصر حقها ، بل يميلون الى أكثر من ذلك ، يميلون إلى إخفاء اسم مصر ، ومحاولة الكلام عنها ضمن ما أسموه « ملوك الطوائف » وهي تسمية خاطئة في مجال التاريخ ، ويوم يعمد عربى الى إخفاء اسم مصر فانه يحفر قبره بيده .

لماذا اتجه هؤلاء المؤلفون هذا الاتجاه ؟

لقد خطر لهؤلاء المؤرخين — كما أوجت بذلك عباراتهم — أن مدح مصر يسيء إلى المملكة العربية السعودية ، وقد كتبت مؤلفاتهم مهداة إلى ملوك هذه المملكة ، وتزينت بصورهم وحملت أعرق الأدعية لهم ، ولكننى أعتقد أن التوفيق لم يحالف هؤلاء المؤلفين ، فملوك المملكة العربية السعودية لا يخدعهم هذا الزيف ، وهم يعرفون لمصر قدرها ، وتعرف مصر لهم أقدارهم بكل العمق والتقدير ، ويوم يكتب التاريخ بهذا الاتجاه يضر كثيرا ولا ينفع أحدا ، وحسبى هذا دون أن أذكر

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

هؤلاء المؤلفين ، وإن كنت أرثى لحالهم ، وبخاصة إذا لاحظنا أن نشاط مصر بالحجاز الذى نتحدث عنه الآن حصل قبل بدء الدولة السعودية بمدى طويل ، فقد بدأ كما قلنا فى القرن الهجرى الرابع وظل حتى الفتح العثمانى فى القرن العاشر الهجرى ولم تكن الإمارة السعودية قد بدأت بعد فليس مما يضر ملوك السعوديين أن ننسب لمصر ما قامت به من أعمال جليلة فى الحجاز حيث القبلة التى يتجه إليها المسلمون فى صلواتهم ، وحيث الأمكنة المقدسة التى يفد إليها الحجاج من كل ربوع العالم الإسلامى ، وليت ملوك العالم الإسلامى ورؤساءه يتسابقون دائماً لخدمة هذه الأمكنة المقدسة وإعلاء شأنها .

العثمانيون فى الحجاز والجزيرة العربية

عندما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) تطلعوا لاستعمال الدين وسيلةً لتثبيت سلطانهم فيما فتحوه من البلاد الإسلامية ، ووسيلةً لتيسير توسع جديد باسم الدين ، ولذلك عمد السلطان سليم بعد فتح مصر إلى شيئين مهمين :

الأول : نقل الخليفة العباسى وأهله إلى القسطنطينية ، لتصبح القسطنطينية بذلك مقر الخلافة ، ويرتبط بهذا موضوع يثار دائماً ، وهو ما يشاع من أن السلطان العثمانى أمر الخليفة العباسى فتنازل له عن الخلافة وهو موضوع سنحققه بعد قليل .

الثانى : أنه حرص بسرعة أن يمد نفوذه إلى الحجاز ، وكان ذلك سهلاً حيناً لأن الحجاز كان تابعاً لمصر ، وسقوط مصر كان معناه استلام ما يتبعها من أقطار .

وكان بالحجاز من الأشراف رجال اسمه بركات ، وأكثر الأشراف بعد المرعيل الأول ، لم يكن لهم — للأسف — أية مبادئ ، وكانوا مستعدين

ليصادقوا أو يعادوا تبعا لمصالحهم لا لأفكارهم : ولذلك نجد الشريف
بركات يسارع فيقدم مفاتيح الحرمين الشريفين الى السلطان سليم اعترافا
بسلطانه ، ويثبتة السلطان على ذلك بأن يقره في مكانه •

ويتحقق للعثمانيين بذلك ما أرادوا ، فقد كان فتح الأقطار الإسلامية
بعد ذلك سهلا بل تقدمت بعض الأقطار الإسلامية من تلقاء نفسها تطلب
أن تشملها سلطة العثمانيين •

العثمانيون ولقب الخلافة :

كان السلطان سليم قد قابل الخليفة المتوكل في سوريا ، وعاد به
إلى استانبول بعد فتح مصر لتصبح استانبول مقر الخلافة (١) أما ما بشاع
من أن السلطان طلب من الخليفة أن يتنازل له عن لقب الخلافة فلا يقوم
عليه دليل ، ويرى المرحوم الأستاذ ساطع الحمصى أن هذا التنازل ليس
صحيحا بدليل أن ابن إياس وهو معاصر لهذه الفترة وقد دوّن في كتابه
« بدائع الزهور » تفاصيلها لم يذكر شيئا عن هذا التنازل ، وكذلك لم
تورد « اليوميات » التي ألفها « فريدون بك » أى ذكر لهذا التنازل ، مع
أنها أوردت تفصيلات عن أشياء بسيطة جدا ، ومثل هذا يقال عن كتاب
« تاج التواريخ » وقد كتبه ابن شيخ الإسلام الذى رافق السلطان
سليم الأول في رحلته إلى مصر •

بل نتحدث « اليوميات » المشار إليها عن تحركات المتوكل العباسى
واصفة إياه بأنه الخليفة ، كما يتحدث ابن إياس عن تولية خلفاء آخرين
من العباسيين (٢) •

والحق أن السلطان سليم ، والسلطان سليمان من بعده لم يحتاجا
إلى أن يتنازل الخليفة المتوكل لهما عن الخلافة ، فإن الحاكم العثماني

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ج ٣ ص ١٤٧ •

(٢) انظر : البلاد العربية والدولة العثمانية للاستاذ ساطع الحمصى
ص ٤٢ وما بعدها •

بعد الانتصار على مصر شرع من تلقاء نفسه في مباشرة سيطرات الخلفاء دون حاجة إلى هذا التنازل .

ومع أن هذا التنازل ليس ثابتا بصفة شكلية إلا أنه حدث بصفة واقعية ، فإن الخليفة المتوكل كان قد سلم إلى السلطان العثماني شارات كانت تعتبر من شارات الخلافة كالبردة التي كان يلبسها الخلفاء في المناسبات الرسمية ، وكالذخائر النبوية ، وهي العصا والخاتم وخصلة من الشعر يقال إنها من شَعَر الرسول صلوات الله عليه : وقد أودعت هذه المخلفات السراي الكبير في استانبول (١) .

أما استعمال السلاطين العثمانيين للقب الخليفة فعلا فقتشير إليه بعض أحداث لعل أولها رسالة السلطان سليمان إلى شريف مكة التي يخبره فيها بوفاة والده السلطان سليم ، وأنه تسلم بعده سدة السلطنة ، وأصبح « مستقر الخلافة » وقد أجابه شريف مكة مهنتا إياه على تسلمه العرش ، وعلى منصب الخلافة (٢) وكان شريف مكة في ذلك — كالعهد بأكثر الأشراف — ملكيا أكثر من الملك كما يقولون فصرح بما لم يصرح به السلطان ، فإذا كان السلطان قد اكتفى بأن يصف نفسه بأنه « مستقر الخلافة » فإن شريف مكة يثبت الخلافة بصراحة إلى السلطان .

وعلى كل حال فإن هذا اللقب لم يظهر في وثيقة رسمية إلا عندما ضعف العثمانيون وراحوا يبحثون عن مصادر للقوة ، وكان لقب الخلافة والظهور بمظهر من يمثل المسلمين من بين هذه المصادر ، ففي معاهدة كوتشك كينارجى بين الروس وبين الأتراك سنة ١١٧٤ لقب السلطان بلقب خليفة المسلمين (٣) .

(١) فيليب حتى : لبنان في التاريخ ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٢) فريدي باي : مجموعة منشآت السلاطين ص ٥٠٠ - ٥٠٢ .
وانظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٦٧٢ من الطبعة الثالثة .

History of the Arabs Vol. 3 p. 831.

(٣)

عودة إلى علاقة العثمانيين بالجزيرة العربية :

المهم الآن أن سلطان العثمانيين امتدَّ إلى الحجاز ، وتطلع العثمانيون إلى المناطق الساحلية حول الجزيرة كما سنرى فيما بعد ، ولم يبدوا اهتماماً يذكر بقلب الجزيرة فلم يكن بها ثراء يغريهم ، أو قوة تخيفهم ، وتركوا هذه المناطق كما كانت قبلهم تعيش بها القبلية ، وتتناحر الرياسات ، ويعتشش الجهل ، ولا يتوقف الصراع بين القبائل بعضها والبعض ولا يتوقف الصراع بين البدو من جانب والحضر من جانب آخر .

وقد وجه العثمانيون في هذه الفترة عناية كبيرة للحرمين ولسكان الحرمين ، فالصدقات أصبحت تصل بانتظام إلى السكان ، والمحمل والأكسية للكعبة كانت موضع العناية ، وأرسل السلطان سليمان القانوني للحرم المكي منبراً بديع الصنع من الرخام ، لا يزال موجوداً حتى الآن كما عني بإصلاح سقفه الكعبة المشرفة ، وجلب الماء للحجاج في قنوات بناها لثأتى بالماء من عين زبيدة ، وبنى أسوار جدة .

مصر بالحجاز خلال العهد العثماني :

وأعيد بناء الكعبة في زمن السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وكانت مصر هى التى قامت بالبناء وبتكاليفه ، وكان ذلك فى شهر شوال سنة ١٠٣٩ هـ ، ويروى أنه فى ذلك العام نزل مطر عظيم جرف ما وجده أمامه ، ودخل بيت الله الحرام فبلغ طوق القناديل المعلقة حول المطاف ، ودخل الكعبة المشرفة بارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة ، وقد سبب هذا سقوط الجدار الشمالى ، وتصدعت باقى الجدران وجمع المشرفون على البيت القناديل المرسعة بالأحجار الكريمة والذهب ، فى بيت سادن الكعبة وأرسلوا هذا النبأ إلى مصر ، وطلبوا تبليغه إلى استنبول .

وبادر والى مصر بالعمارة قبل أن يجيء أمر من الأستانة ، وفى كتاب « أخبار مكة » للأزرقى يذكر شاهد عيان قائمة طويلة بالآلات

والمؤن التي وردت من مصر لهذه العمارة ، وهي كميات هائلة وقيمة الغاية ، كما يورد تفاصيل سير العمارة من يوم إلى يوم ، وبعد تمام العمارة كتّيب محضر إلى وإلى مصر به شهادة المكين بحسن عمارة البيت المعادة (١) :

وهكذا ارتبطت أكثر الحركات بدائر الجزيرة العربية ، أى بمناطق الحضر فيها ، وربما امتدت قليلا إلى الداخل عن طريق ضمم بعض المناطق الداخلية لولاية دائر الجزيرة ، ومن هنا لزم أن نولى قلب الجزيرة بعض العناية فننتجه لدراسة تاريخ نجد ، ذلك التاريخ الذى لم يتضح بعد للباحثين ، وذلك ما سنحاوله فيما يلى :

(١) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج١ ص ٢٤١ - ٢٥٤ .

نجد

من مطاع الإسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية

تشغل نجد أكبر منطقة في الجزيرة العربية ، ومع هذا لم تأخذ حظها من الدراسة ، ولا مكانها في تدوين التاريخ ، حتى أصبح من الحقائق المعروفة أن « الباحث في أية ناحية من نواحي التاريخ تتعلق ببلاد نجد قبل ثلاثة قرون من الزمن تعوزه المصادر »^(١) ولم يتجه علماء نجد إلا إلى هذه القرون الثلاثة الأخيرة • ويستوى في ذلك الشيخ حسين بن غنام والشيخ عثمان بن بشر والشيخ إبراهيم بن صالح •

وفي جولاتي التاريخية باحثاً ومعلماً ومؤلفاً طالما قابلت حقبا وبلاداً يكتنف تاريخها الغموض ، ولكنى لم أعرف اليأس ، وظللت أكدح حتى حققت نتائج مرضية ، وعندما وصلت نجداً في هذه الجولة التاريخية الطويلة هالني أن أرى الفرق الواسع بين ماض غامض وبين حاضر ناصع ، فاستعنت بالله ، واتجهت بكل العزم للألقى شعاعاً من الضوء على تاريخ هذه البلدة ، فما كان لى أن أدع نجداً بدون تاريخ ، وسألتهم الوسائل العلمية لأحقق بعض ما أتطلع إليه ، ويتطلع له الناس حول تاريخ نجد التي أصبحت بمكانتها في العالم العربي الإسلامي وبثرائها تشغل المفكرين ورجال المال ، وبهذا أصبح من الضروري أن نتعرف على ماضى هذه البلاد ، فالحاضر لا بد أن يكون له ماض عميق الجذور ليرتفع الحاضر عليه ويباهى به •

ويزعم بعض الناس ، أن أمريكا مثلاً لا ماضى لها ، ولا يضر ذلك بحاضرها ، ونجيب بأن الذين بنوا حاضر أمريكا هم نازحون من أوروبا بتاريخهم ونهضتهم ، فهم في أمريكا امتداد للفكر الأوربي ، وليس الحال كذلك في نجد ، فناسها في الحاضر هم أحفاد شعبها ، فلما أن يكون

(١) مقدمة كتاب « تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد » للشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى •

لهم تاريخ أو لا يكون ، وهذا يجعل من المحتّم أن نتعرف على تاريخ نجد .

وفي اعتقادي أنه ليس من العسير إبراز تاريخ نجد في حدود الاطار العلمى التاريخى الذى يرسم المدى الذى يسعى له المؤرخ وهو يدرس تاريخ القبائل أو المدن أو الدول ... وسنتبع تاريخ نجد فى ضوء هذا الاطار العلمى .

وقد كان من الوسائل التى أطمع أن تعيننى لتحقيق أملى ، صلتى الطويلة بالتاريخ الإسلامى أستاذًا ومؤلفًا ، وملتى الدقيقة بالمراجع التى كتبها الباحثون والرحالة من الشرق أو الغرب من الجزيرة العربية ، وزياراتى المتكررة لمناطق متعددة فى نجد ، زيارات باحث يتعرف على وسائل الحياة فى الحاضر تلك التى تعين على فهم ما غمض فى الماضى .

وفي هذا الضوء وبهذا الأمل أخطو طالبًا العون من الله ودوام التأييد .

حدود نجد وتاريخ سريع بها :

حدود نجد ليس متفقًا عليها تمامًا ، ولكنها على العموم تشمل الأراضي الممتدة من قرىيات الملح شمالًا إلى وادى الدواسر جنوبًا ، ومن حدود الأحساء شرقًا إلى حدود الحجاز غربًا وتشمل المناطق التالية من الشمال إلى الجنوب :

قرىيات الملح — الجوّف — جبل شمر — القصيم — سدير —
الوشم — العارض — الخرج — الحريق — الأفلاق — وادى
الدواسر .

ويبلغ امتداد نجد من الشمال إلى الجنوب ثمانمائة ميل (٨٠٠ ميل)
ويبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب حوالى ٢٢٠ ميلاً .

ومن الواضح أن المناخ يختلف في هذه المناطق حرارة وبرودة ،
ولكنها على العموم قليلة الأمطار ، مما سبب الجفاف في أكثر بقاعها .
وتكثر العيون في بعض المناطق فيستقر بعض السكان حولها ، أما
الأكثرية الغالبة فيعيشون حياة البسداوة ، وينتقلون من مكان إلى
مكان (١) .

عشائر نجد :

والعشائر النجدية يمكن بوجه عام ترتيبها كالآتي :

في الشمال	: شمّر
في الشمال الغربي	: عتيبة ومطير
في الشمال الشرقي	: عنزة وحرب
في الغرب	: سبّيع
في الشرق	: آل مرة وبنو خالد والمجمان
في الجنوب والجنوب الشرقي	: قحطان

مناطق الخصوبة في نجد :

ينبغي علينا أن نتعرف على مناطق الخصوبة والجفاف في نجد ،
فإن ذلك سيسيطر أمامنا الأرض التي نحاول أن ندرس تاريخها ، ويهد
لشرح العلاقات بين السكان والأرض ، ومن الخطأ أن يظن ظان أن نجداً كلها
بلاد صحراوية قاحلة الآن فيها مناطق شديدة الخصوبة سخية في إنتاجها
الزراعي ، وتعد العارض من أكثر بلدان نجد خصوبة ، وفيها يقع وادي
حنيفة الذي يمتد حوالى ٦٠ ميلاً ابتداء من الجبيلة حتى الرياض
عاصمة المملكة العربية السعودية ، ثم إلى ما بعد الرياض ، وهذا الوادي كثير
العيون ، وتجتمع فيه الأمطار ، فيكوّن ما يشبه النهر عدة شهور في العام ،

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين من ٥٢ - ٥٣ .

وقد عشت في هذا الوادي ردحا من الزمن بين نخيله الباسقة وأشجاره المفيانة وزراعته الخضراء ، وهو ينتج محصولا هائلا من التمر بالاضافة إلى بعض الحاصلات الأخرى ، وقد سميت الرياض بذلك الاسم لأنها تكون فعلا مجموعة من الرياض التي تعد منحة لهذا الوادي ، ومن أشهر بلدان العارض الجبيلة سلفة الذكر ، والعثينة مسقط رأس المصلح الديني الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والمدريثة التي سنتناولها أحاديثنا فيما بعد ، وحريملة •

ومن مناطق الخصوبة في نجد منطقة القصيم ، وهي منطقة فسيحة تقع بين الوشم وعثية وجبل شمر ومزارعها كثيرة ، وحدائقها فسيحة ، ومن أشهر مدنها بريدة وعنيزة ، وفي شهر يناير سنة ١٩٧٧ افتتحت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض إحدى الكليات التابعة لها في بريدة ، وحضرت حفل الافتتاح ، وأتاحت لي هذه الفرصة أن أعيش في القصيم فترة من الزمن ، وأن أرى ما بها من خصوبة ، ورياض فينانة ، ولا تزال هناك منافسات بين بريدة وعنيزة حتى العهد الحاضر ، وهي منافسات انحدرت من الحياة القبلية المصاحبة ، ومع أن هذه وتلك أصبحتا ضمن المملكة العربية السعودية التي انصهر فيها المواطنون مكونين دولة واحدة ، فإن آثار الماضي لا تزال لها بقايا ، وإن كانت هذه البقايا تتجه الآن إلى الأحسن ، فإذا كانت هناك كلية في بريدة فإن عنيزة تطمح أن تكون بها كلية مماثلة وسنعيش مرة أخرى مع بريدة ، وعنيزة فيما بعد •

ومن أشهر مدن القصيم بالاضافة إلى بريدة وعنيزة الرس والخبر والمعيون •

مناطق الجفاف في نجد :

تلك هي أهم مناطق الخصب والنماء من نجد ، تضاف لها بعض الواحات والمناطق الصغيرة التي يوجد بها آبار ومزارع محدودة المساحة ،

مثل قفار وتيماء والجوف ، وفيما عدا ذلك فالصحراء فسيحة الامتداد لا تقع العين على آخرها ، والصمت هائل مخيف والتربة فقيرة ، مكوَّنة أساسا من حصباء أو رمال ، والمراعى القليلة تظهر وتختفى وفي بعض الأحيان تنعدم الآبار تقريبا كالحال في الرشح الخالي وصحراء النفود ، وتقول الليدي أن بلنت (١) : إن صحراء النفود ليس هناك ما يفوقها في العالم ، ولقد سمعنا عنها تقارير عجيبة ، وسمعنا عن الناس الذين فقدوا فيها ، والرحلة من بلاد الجوف عبر صحراء النفود إلى حائل تستغرق عشرة أيام على الأقل وليس هناك الا بئران على الطريق ، الأولى في نطاق مسيرة اليوم الثاني ، والأخرى في اليوم الثامن وعلى من يقوم بهذه الرحلة أن يكون حريصا مزودا بقدر كاف من الماء والتمر ، ومعه دلائل خبير وإلا أكله الطريق الذي طالما اختفى فيه عابروه ، وفي هذه الصحراء تعيش القبائل الرحل التي لا تستقر في مكان وتسير مع الدروب وخلف الآبار ، وهؤلاء هم الذين يسمون البدو ، وما يزال بعضهم يمارس نفس الحياة وإن كان الكثيرون منهم قد جذبتهم مناطق النفط ، أو تركوا الجمال ليمتلكوا السيارات الفارهة ، وليعملوا عليها سائقين ينقلون الناس من مكان إلى مكان داخل المدن ، أو عبر الصحراء من مكان إلى مكان .

قسوة الطبيعة في بعض المناطق :

تتحدث الرحالة الانجليزية « أن بلنت » عن ريح شديدة قابلت ركبهم في يوم من أيام ديسمبر ، وكانت برودتها تنفذ من خلال جبَّيهم المصنوعة من الفراء ، وكانت هذه الريح هوجاء لدرجة أنها منعتهم من الكلام ، بل كما تقول الكاتبة حرمتهم التفكير ، وفي يناير التالي كان البرد قاسيا للغاية والصقيع شديدا ، حتى تجهد الماء في الدلاء ، وتتحدث كذلك عن العواصف الرملية التي يقال إنها تدفن القوافل أحيانا ، وقد شرح لها دليلها ذلك قائلا : ان الرمل لا يدفن القوافل ، لأن بقايا القوافل تظهر

على سطح الرمل ، والخطر الوحيد على القوافل هو أن العاصفة تستمر كثيرا في بعض الأحيان فتنفذ المأوى والمياه إذ لا تستطيع القافلة أن تتحرك عند هبوب العاصفة ، وعندما ينفذ مأوها ومؤونها تتعرض للمهلك ، وقد حدث ذلك لكثير من القوافل التي كانت تعبر الصحراء ، ومن هذه القوافل بعض الجنود الأتراك الذين كانوا يتجهون إلى دمشق عبر الصحراء ، ونفذ مأوهم ، ولما يئسوا من عدم الحصول على الماء اضطجعوا تحت بعض الأشجار الصحراوية حيث لاقوا نهايتهم المحتومة .

وبجانب البرد القارس الذى أضرنا له ، تقتبس الكاتبة من رحالة آخر هو « بلجريف » حديثا عن لهب الصحراء الذى يصبح فى بعض الأيام نارا متأججة ، يقول بلجريف : إن المسافر فى بعض الأيام بصحراء الجزيرة العربية ، يجد نفسه كما لو كان سجيناً فى حفرة رمالية ضيقة محاطاً بأسوار لاهبة من كل جانب ، وأحيانا يجد نفسه كأنما يطل على بحر واسع من النار تتصاعد تحت ريح موسمية شديدة (١) .

صراع القبائل الذى لا يتوقف :

إن الذى يطالع تاريخ الحياة القبلية فى نجد ، قبل قيام المملكة العربية السعودية ، يهوله ما فى هذه المناطق من قتل وسلب وحرق وتدمير ، لقد كانت الحياة سلسلة متصلة من سفك الدماء ، ليس فقط بين العدو وعدوه ، ولكن بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، وبين أولاد العم ، وأولاد الأخوال ، بعضهم البعض ، وقد أورد الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى من ذلك صورا يشيب لها الولدان ، ولمنا ندري ماذا نقتبس منها وماذا ندع ، وكنموذج قصير نذكر أن موسى بن ربيعة يحتال على قتل أبيه ربيعة ابن مانع المريدى ويجرحه جراحات خطيرة ، ولكن الرجل يفلت من هذه المؤامرة ، ويلجأ إلى رئيس العيينة يطلب حمايته ، ثم يندفع موسى هذا برجاله من المردة والموالفة وغيرهم ويصبح بهم آل يزيد فى النعمية

(١) صفحات ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ١٤٠ ، ٩٩ على التوالى .

والوصيل ، ويقتل منهم أكثر من ثمانين رجلا ، ويستولى على منازلهم ويدمرها ، ولم يقيم لهم بعد هذه الواقعة قائمة ، وهى التى يضرب بها المثل فى نجد فيقال : « صَبَحَهُمْ فُلَانٌ صَبَاحَ الْمَوَالِفَةِ لَأَلِ يَزِيدٍ » (١) .

ويتحدث ابن صالح عن زحف قاسٍ قام به عريعر بن وجين استطاع به أن ينتصر على بريدة وعنيزة ، ولكنه مات بعد ذلك بشهر فتولى بعده ابنه بَطْنين ، ولكن أخويه سعدون ودُجَيْن قتلاه خنقا ، ثم تولى دجين . فسقاه سعدون سما وقتله (٢) .

وإذا سرنا صفحة أخرى (٣) مع هذا المؤلف وجدناه يتحدث عن وقعة « أَكَيْتَال » بين الظفير والفضول بنجد سنة ١٠٨١ هـ ، وعن وقعة أخرى تسمى وقعة الملتبهة فى نفس العام بينهما أيضا ، كما يتحدث عن اختلاف بين بنى خالد أدى إلى قتال بينهم سقط فيه كثيرون ، منهم محمد بن حسين ابن عثمان وآخرون ، وفى نفس الصفحة يورد حديثا عن مسيرة رئيس بلد الجلاجل ومعه آل تميم من بنى خالد ، وسطا هؤلاء على مانع بن عثمان وصارت رئاسة بلد الحصون لبنى خالد .

وهكذا يروى الباحث والقارىء بالدم الذى كان يسفك ، والمنازل التى كانت تَحْرَق وتدمر ؛ والرحم الذى كان ينتهك ، ومن الواضح أنه لم يكن هناك أمن لأحد ، ولا أمل لمن يصبح أن يمسى ولا لمن يمسى أن يصبح ، وسنرى صورا من ذلك فيما بعد حتى بين السعوديين بعضهم والبعض فى الدولة السعودية الثانية كما سنرى فيما بعد .

ولم تكن هذه الوقائع أخذا بثأر فقط ، بل كان سفك الدماء يوشك أن يكون هدفا لذاته ، وهواية يحاول كل انسان إشباعها ، أو كان لأتفه كسب يمكن أن يحصل عليه الإنسان ، وتحدث Anne Blant عن هجوم جماعة

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦ .

(٣) ص ٦٤ .

من البدو عليها هي وزوجها بطريق مفاجيء ، وأن هؤلاء المهاجرين أصابوها هي وزوجها بضربات من رماحهم ، وأخذوا البندقية من زوجها وكسروها على رأسه ، واستولوا على مهریهما ، ولكن بعد قليل اتضح أن الكاتبة وزوجها في حماية ابن شعلان وهو شخصية مهيبة الجانب لا يستطيع البدو العدوان على من يسير في حمايته ، فردوا ما أخفوه وهم في أشد الغيظ لضياع هذه الغنيمة (١) .

كثرة الأوبئة والقحط والغلاء :

ونتيجة لقسوة الطبيعة التي تحدثنا عنها ، ونتيجة للصراع الذي لم يكن يتوقف بين القبائل بعضها والبعض ، عانت مناطق نجد ألوانا مريعة من الأوبئة والقحط والغلاء في كثير من الأوقات ، فالطبيعة في كثير من الأحوال كانت تدمر المزارع والمراعي ، والحروب كانت تقوم بنفس الدور وأقصى منه ، وسنعطي فيما يلي لمحات عن هذه الآلام :

في سنة ١٠٧٦ هـ حدث قحط عظيم بنجد امتد إلى الحجاز ، واشتد الغلاء اشتدادا هائلا ، وقل الطعام حتى هلك كثير من الناس جوعا ، وحتى أكلت الميتات والكلاب ، ويسمى هذا القحط « صلهام » وقد كانت شدته زائدة في مكة المكرمة ، حتى باع بعض الناس أولادهم طابا للقوت .

وفي سنة ١٠٩٨ هـ هبت ربيع عاصفة في منطقة سدير فأسقطت من نخيل المنطقة نحو ألف نخلة .

وفي سنة ١١٣٥ وقع بنجد قحط عظيم سمي (سحى) وامتد في السنة التالية إلى الشام واليمن ، وبلغ غاية قسوته حينما غارت الآبار حتى هلك الناس عطشا وجوعا وتشردا ، وقد وصفه بعض الأدباء بقصائد باكية تمثل الناس بين مشرد وجائع وفقيد .

(١) رحلة إلى نجد ص ٣٧ - ٤٠ باختصار .

وفي مطلع سنة ١١٣٧ هـ عُدِمَت الأقوات تقريبا ، ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ^(١) انه في هذا القحط أكلت جيف الدواب ، ومات كثير من الناس جوعا ، وزاد البلاء عندما اشتد البرد فماتت الزروع بسبب ذلك ، ثم جاء جراد أكل غالب الثمار •

وفي سنة ١١٣٩ وقع وباء في بلدة أشيقر توفى فيه خلق كثير ، يحدد الشيخ ابراهيم بن صالح بعضهم ، ومثله الوباء الذي حصل في بلدان سدير سنة ١١٧٥ هـ •

وفي سنة ١١٨١ هـ بدأ بنجد قحط شديد وغلاء هائل سُمِّي (سوقه) وقد مات فيه خلائق كثيرة جوعا ووباء ، وجلا فيه كثير من أهل نجد إلى البصرة والحسا •

وفي سنة ١٢٨٧ هـ و ١٢٨٨ وقع بنجد غلاء وقحط كان من نتيجته كما يقول الشيخ ابراهيم بن صالح ^(٢) ان أكلت الميتات والجيف ، وان قتل الناس بعضهم بعضا طلبا للقوت مما ضاعف الفتن والمحن ، وقد مات في هذا القحط كثير من الناس جوعا •

تلك لحظة سريعة عن صور من الآلام عانتها نجد خلال تلك العصور نتوقف عن مثيلات لها كثيرة ، وقد كانت كلها نتيجة للطبيعة من جانب ، والمصراع المدمر من جانب آخر •

مظاهر الجمال في نجد :

وإذا كنا قد تحدثنا عما يوجد في نجد من رياح وعواصف وبرد قارس وحر ملتهب ، فإن من الحق علينا أن نتحدث عما في نجد من جمال وروعة ، وطالما وقفت في رحلاتي بنجد لأطل على واحة يضوع منها

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٩٧ •

(٢) المرجع السابق ١٨١ •

الشذى ، وتمثل ابتسامة طيبة ، كأنها نابغة من فم حسناء ، وبساتين النخيل تتحدث بروعتها وبجمال ثمرها ، وفي بعض فصول العام تبدو الصحراء رائعة حتى انها طالما أوحى للشعراء بأروع القصائد ، وأجمل الأناشييد ، ويقول « ولفريد » زوج الرحالة « آن » بعد أن رأى جبل « شمر » انه يموت بعد ذلك سعيدا لأنه رأى مكانا فريدا في جهاله تقريبا ، وكلماته هي « ان كل مكان يمكن أن يماثله مكان آخر الا شمر فلا شيء يشبهه إلا أن يكون جبل سينا » (١) .

وبعد ، ذلك تعريف بنجد ييسط أماننا المنطقة التي نتدارسها ، وذلك العرض السريع لها سيساعدنا على الخوض في تـاريخها ، أملا في أن تأخذ نجد مكانها اللائق بها في ضوء التاريخ .

مفتاح تاريخ نجد

ان الشكوى من غموض تاريخ نجد مصدرها — فيما أعتقد — فقدان مفتاح هذا التاريخ ، ويوم نعثر على هذا المفتاح ، ونتمسك به نرى كل شيء متفهما ومشرّضا للغاية ، وهذا المفتاح هو أن نعرف طبيعة المنطقة التي نطمس تاريخها أو ندونه ، فلا بد أن يكون هناك فرق واضح في التاريخ للأمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس وبعد الكشف ، ولا بد أن يكون هناك فرق في التاريخ للأرض الألمانية وهي حافلة بالدويلات المستقلة ، والدوقيات والامارات والمدن الهانسية التي كانت تعد بالعشرات والتي كان لكل منها تاريخ مستقل تقريبا ، وبين التاريخ الألماني الموحدة التي تكونت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ونمت بعد ذلك حتى أصبحت من دول القمم ، ومثل ذلك يقال عن التاريخ لقبائل متناثرة في نجد لا توجد بينها روابط ، أو توجد روابط عدائية ؛ وبين الدولة السعودية التي سنراها فيما بعد تضم هذه الأشتات بوسائل متعددة وتقيم من هذه القبائل دولة ذات شأن •

ولا بد أن يكون هناك فرق واضح بين التاريخ لدولة وبين التاريخ لقبيلة ، ففي الدولة هناك جماعات يربط بينهم وطن وقوانين ، وهناك استقرار داخلي وألوان من الحضارة والنظم السياسية والعلاقات الخارجية ، أو قل هناك الأرض نؤرخ للحياة فوقها ، ولكن الحال في القبيلة يختلف ، لأن القبيلة أسرة كبيرة يربط بين أفرادها الدم ، وكثيرا ما تنزح من مكان إلى مكان ، مما يجعلنا لا نؤرخ لأرض تدب فوقها نظم ، بل نؤرخ لجماعة من البشر لا يرتبط أكثرهم بأرض أو يرتبطون بها ارتباطا غير طويل ، وتحكمهم العادات والتقاليد وعلاقاتهم بمن حولهم علاقات عدائية ، ومما يزيد تاريخ الحياة القبلية غموضا كثرة الحروب التي كانت تدور بينها ، وكثرة هذه الحروب تدمر أية آثار عمرانية أو حضارية قد تقيمها قبيلة من القبائل ، ومما سبب الغموض كذلك عدم

الاهتمام بالتاريخ فقد اتجه علماء نجد الى دراسة الفقه والتفسير
ولم يعنوا بتدوين السير والتاريخ (١) .

وعلى هذا فالذى يؤرخ لنجد لا بد أن يكون فى يده المفتاح التاريخى
الذى يعرف به طبيعة المنطقة التى يؤرخ لها ، وبهذا المفتاح لا نتوقع فى
التأريخ لنجد قبل المملكة العربية السعودية مثل ما نتوقعه للتأريخ للدول ،
فالتأريخ لنجد قبل هذه المملكة له نهج خاص سنشرحه ونتبعه فيما يلى :

محاوَر تاريخ نجد :

إن حياتى مع نجد باحثا وزائرا تجعلنى أعتقد أن تاريخ نجد قبل
قيام المملكة العربية السعودية ينضوى تحت ثلاثة محاور هى :

١ — الحياة القبلية .

٢ — زحف من الداخل تقوم به قبيلة ما وتسيطر على مجموعة من
القبائل ، وكان هذا النوع قصير العمر ، ولم يكوّن دولة بالمعنى المعروف .

٣ — نفوذ أو زحف من الخارج يمتد الى نجد من شرقى الجزيرة
أو من غربها .

وسنتدارس هذه المحاور فيما يلى :

١ — الحياة القبلية فى نجد

إن الحياة القبلية هى السمة العامة للحياة فى نجد قبل المملكة العربية
السعودية ، وهى السمة الضرورية ، والطبيعية لهذه البلاد ، والذى يريد
أن يدرس تاريخ نجد قبل السعوديين يتحتم عليه أن يعيش فى نجد ، فإن
الصحراء الشاسعة ، والجبال الشاهقة ، والأغوار والوديان والرمال والفرارغ
سترسب له معالم هذا التاريخ ، ويمكننا أن نرسم هنا بالكلمة صورة لنجد

(١) ابن بشر : عنوان المجد ص ١٤ .

قبل السعوديين لتساعد القاريء على تصوثر هـذا البلاء والفقر الغالب ،
وبالتالى تصوثر المدى الذى يمكن أن يكون عليه تاريخها .

وقد سبق أن قلنا إن امتداد نجد من الشمال الى الجنوب يصل الى
٨٠٠ ميل وأن عرضها من الشرق للغرب يزيد عن ٢٢٠ ميلا وهى بذلك
بلاد فسيحة ، فاذأ أضفنا الى ذلك أن هذه المساحة لم يكن بها طريق
مرصوف ولا معبد ، وأن منابع المياه لم تكن متوافرة فى الطريق ، وأن
وسائل المواصلات حتى العهد السعودى كانت مرتبطة بالجمال ، وأنه لم
تكن هناك إذاعة ولا مذياع ، وبالأحرى لم تكن هناك صحافة ولا كتاب ،
إذا تصورنا ذلك أدركنا أن نجد كانت أشبه بمحيط رملى هائل ، تبرز فيه
بعض الجزر الصغيرة ، وهذه الجزر الصغيرة تمثل القبائل المتناثرة التى
لا يربط رباط بين إحداها والقبائل الأخرى ، وأن كلا من هذه القبائل
كان أشبه بدولة مستقلة ، وتقول Lady Anne Blant : حيث توجد
الآبار بقدر كاف من الماء تظهر المدن والقرى ، تحاط بالبساتين ، وهذه
على أية حال كثيرا ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة
بلاد العرب ، وعلى هذا فكل مدينة منفصلة عن جاراتها إلى درجة كبيرة ،
وتحيط بها الصحراء من كل جانب ، فهى منعزلة بالمعنى الحرفى لهذه
الكلمة ، ومن هذه الحقيقة تنبع الفردية السياسية التى ظلت العناية
مركزة دائما لرعايتها ، إذ كانت كل مدينة تمثل دولة مستقلة (١) .

وقد سرت فى نجد أشواطا طويلة فى سيارة من السيارات الفارهة
وعلى طرق مرصوفة ناعمة ، وظهرت لنا الصحراء خالية إلا من قرى
صغيرة متباعدة تنام وسط الصحراء ، وقد كانت هذه القرى قبل السيارات
والطرق والمملكة يخاف بعضها بعضا بدليل « المراقب » التى تنتشر حول
كل قرية ، أو توجد فى الأماكن التى يخشى منها هجوم على القرية ،
وكان يعيش فى هذه المراقب حرس يتناوبون حراسة القرية لينذروا قومهم

إذا حاولت قبيلة أخرى أن تدهم قريتهم ، وهذا يؤكد الانفصال الشديد بين قرية وأخرى •

وإذا تركنا القرى التي تعرف نوعا من الاستقرار والاستقلال واتجهنا إلى البدو الرحل نجد أن هناك قبائل تتجول كل منها في منطقة معينة بالجزيرة العربية بحثا عن الكلاء للرعى ، وهؤلاء مبالون للحرب وأكثر عددا من سكان المدن ، وهم يسيطرون على كل الطرق بين مدينة وأخرى ، مما يمكن معه أن نصفهم أنهم كانوا عوامل انفصال لا عوامل اتصال (١) •

ومما يؤكد الانعزالية بين القبائل أن كل قبيلة لها صفات جسمانية يغلب ألا تتخلف ، وتروى Lady Anne Blant أنها سألت « الدليل » قائلة : كيف يسهل على أبناء القبائل أن يحددوا نسب آخرين يقابلونهم في الصحراء ؟ فأجاب : أن كل قبيلة لها خصائص في الملبس والملاح معروفه جيدا للجميع ، وعلى ذلك (فثمر) بصفة عامة طوال الإقامة ، و (السبعة) قصار إلا أن رماحهم طويلة ، و (حرب) سود الوجوه كالعبيد تقريبا ... (٢) •

نظام الحكم في القبيلة ودستور الحياة بها :

كيف كان نظام الحكم في القبيلة ؟ وما دستور الحياة فيها ؟ في الإجابة عن هذا السؤال يمكننا أن نقول إن نظام الحكم في القبيلة بعد الإسلام كان امتدادا لنظام الحكم فيها قبل الإسلام ، وكل ما ظرا عليها بالإسلام هو دخول الدين ، أما نظمها السياسية فقد تركت لها ، فمن الواضح أن شيخ القبيلة عندما كان يفد إلى المدينة معاناً إسلامه ،

(١) المرجع السابق ص ٢٠٨ •

(٢) Pilgrimage to Nejd p. 115

كان الرسول يقره على مكانته في قبيلته ، كما ذكرنا من قبل (١) . ومن أجل هذا نجد أبا بكر عندما عين ولاته على مناطق الجزيرة التي ذكرناها فيما سبق لم يعين أيًا منهم على هذه القبائل اكتفاء برؤسائها •

ونجى لهذه القبيلة لنذكر أنها كانت تكون وحدة سياسية يربط الدم والعصبية بين أفرادها ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجأون للقبيلة ويعيشون في جوارها وحماتها ، ولو لم يكن بينهم وبين القبيلة صلة دم •

والقبيلة العربية تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، وخلاصة هذا الدستور أن يحس الفرد برابطة القبيلة ، ويلتزم بتأييد مصالحها والعمل لها بكل ما يملك من قوة ، وأفراد القبيلة جميعا متضامنون فيما يجنيه أحدهم تضامنا حازما ، تلقى مسئوليته على سيد العشيرة الذي عليه أن يتحمل التبعة ، ومن أجل هذا له حق الطاعة على أفراد القبيلة •

وسيد القبيلة يختار من بين من تجمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم والحلم ، أو قل إن الامتياز في هذه الصفات يفرض صاحبه ليكون سيدا للقبيلة ، وقد يجيء لرئيس القبيلة ابن يعدله في الشرف والسؤدد وحينئذ يستطيع أن يرث مكان أبيه ، وإذا تكررت رئاسة القبيلة في بيت ببيتها عرف البيت بالمجد والجاه •

ومسئوليات سيد العشيرة أو رئيس القبيلة أكثر جدا من حقوقه فهو في السلم جواد كريم مسئول عن إكرام الضيوف الوافدين ، وإغاثة المحتاجين من أبناء القبيلة ، وإجارة المستجير ، وهو في الحرب يتقدم الصفوف ويساعد من لا عتاد له ، وهو يتحمل باسم القبيلة تبعة ما قد يرتكبه أي فرد من أفراد القبيلة من أخطاء ، ولكن إذا ارتكب فرد من

(١) الميدان : مجمع الأمثال ج٢ ص ١٧ •

أفراد القبيلة جرماً ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه ، أو أخطأ في حق قبيلته نفسها فإنه يطرد منها ، ويسمى الطريد خليعاً •

أما حقوق رئيس القبيلة فهي الطاعة المطلقة على كل أفراد القبيلة ، وليس لدى رئيس القبيلة قوة مادية يرغم بها أفراد القبيلة على الطاعة ، وإنما هي التقاليد والعرف ، وللبدوى أن يتمرد على أى قرار يتخذه رئيس القبيلة ، ولكن عليه في هذه الحال أن يدع القبيلة وأن يهجرها هجراً تاماً ، وكثيراً ما لجأ البدوى إلى هذا المتصرف ، فإن أهم ما يمتاز به البدو عدم الخضوع ، فالحرية عند البدوى هي خير ما يعتز به ، ولا يستطيع أن يتنازل عن أى جزء منها لقاء أى شيء ، فما نعرشه في العصر الحديث من أن كل فرد ينبغي أن يتنازل عن جزء من حريته لتحقيق الحرية للمجموع ، هذا الاتجاه كان البدوى يعتبره خدعة ، ولا يقبله ، والموت أو الهجرة عن الوطن أيسر على البدوى من فقدان حريته •

والدارس لتاريخ البادية ونظام الحكم بها يجد أن تمرد أفراد من القبيلة على حكم رئيسها كان كثير الوقوع ، وكانت الحرية المطلقة ، والأناية المفرطة ، والأثرة من أهم العوامل التي تتحرك في نفوس البدو ، فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ، ويؤثرون أن يخلعوا أنفسهم ويهيمنون على وجوههم مع نظرائهم من الخلعاء (١) •

وعدة الدين ووحدة اللغة :

ويخطر بالبال سؤال مهم في هذا المجال هو : وحدة الدين قبل الإسلام وبعده ، ووحدة اللغة ، فقبل الإسلام كانت الوثنية منتشرة في الجزيرة وإن اختلفت الأوثان والأصنام ، وبعد الإسلام انتشر الدين الإسلامي في جميع أرجاء الجزيرة العربية وإن أصاب القوم انحراف قليل أو كثير ، كما سنرى فيما بعد ، وكانت اللغة العربية هي السائدة

(١) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة للمؤلف •

قبل الإسلام وبعده ، وربما خطر بالبال أن حياة الانعزالية التي كانت تعيشها القبائل كانت تستدعى اختلاف الدين واللغة ، كالذي يحدث في مناطق مماثلة في العالم ، فلماذا حافظت الجزيرة العربية على وحدة الدين واللغة ؟

الاجابة على هذا في تقديري ترجع إلى الكعبة المشرفة التي كانت تنفذ لها وفود العرب من كل مكان للحج ، فكان هناك لقاء سنوى تتقارب فيه وجهات النظر من ناحية الدين ، وتكون اللغة العربية هي لسان الجميع في جميع اللقاءات ، كما كانت أسواق العرب في الجاهلية كسوق عكاظ ومجنة وذى المجاز من أهم الأسباب التي وحدت الدين واللغة •

وليس معنى هذا أنه كان هناك اتفاق تام في الدين واللغة ، فقد كان الاختلاف في عبادة الأصنام مظهرا من مظاهر الاختلاف بين القبائل العربية • إذ كان لكل قبيلة صنم تعبدونه ولا تعبد سواه ، فقد كانت « اللات » صنم ثقيف المفضل ، وكانت « العزى » أعظم صنم عند قريش بعد « هبل » وكان « وَدَّ » صنم كلب وقضاعة و « نهم » صنم مزينة وهكذا (١) .

وبعد الإسلام أخذ الأولياء والقباب وبعض الأشجار ••••• مكان المقداسة ، وتعددت هذه المقدسات حتى قامت دعوة الإصلاح فقتضت عليها كما سنرى فيما بعد •

ومن ناحية اللغة قامت في بعض الفواحي لهجات بعدت كثيرا أو قليلا عن اللغة الفصحى ، وقد التقيت في رحلاتي بنجد ببعض السكان في القرى والبادية وكنت لا أعرف من كلامهم إلا النذر القليل ، واضطر بعض الذين كانوا يرافقوننى من آل الأسطك (الشيخ على وأبو محمد عمر والسيد منير) إلى أن يترجموا لى كلامهم إلى اللغة العربية التي أفهمها ،

(١) انظر كتاب « الأصنام » لابن الكلبي في عدة صفحات وانظر الجزء الأول من هذه الموسوعة •

وقد طالت جلستنا مع شيخ في المغطط أكرهنا أيما اكرام ، واخذنى لـم
أستطع أن أتحدث اليه بطريق مباشر •

علماء نجد ودورهم :

كانت هناك صلات بين علماء نجد تتمثل في موقفهم طلابا أو معلمين ،
فأحدث هؤلاء نوعا من الارتباط بين البلاد ، إذ كان يحج لهم الطلاب
للاخذ عنهم ، أو كانوا ينتقلون بعلمهم من مكان إلى مكان •

وقد ازدهرت نجد بمجموعة من العلماء والفقهاء كان بعضهم يرتبط
ببلدة من بلاد نجد ، وكان آخرون ينتقلون بين البلاد فاعلم لا وطن له ،
وسنذكر فيما يلي مجموعة من مشاهير العلماء وما عرف لبعضهم من
مؤلفات :

من أشهر علماء نجد شهاب الدين أحمد بن يحيى بن عطوه التميمي
النجدى الحنبلى وقد عاش في أواخر القرن التاسع الهجرى والنصف
الأول من القرن العاشر الى أن توفي سنة ٩٤٨ هـ في بلدة الجبيلة بوادى
حنيفة ودفن ضجيعا لزيد بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد أخذ ابن عطوة
العلم عن عدة مشايخ منهم الشيخ شهاب الدين أحمد العسكري الذى
كثيرا ما كان يروى عنه ، وكان له مطارحات ومدارسات مع معاصريه من
العلماء أمثال القاضى أجود بن عثمان ، والقاضى عبد القادر بن بركيد ،
والقاضى منصور الباهلى وغيرهم ، وله مصنفات كثيرة منها التحفة البديعة
والروضة الأنيسة ، وقد أخذ عنه كثير من العلماء في بلاد نجد منهم الشيخ
أحمد بن الأشيقرى وغيره (١)

ومن علماء نجد المشاهير الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله بن بسام ،
وهو من بلدة أشيقر — وقد انتقل منها الى « القصب » قاضيا لها سنة ١٠١٠
هجرية ، ولكنه لم يرغب فى الاستمرار فى القصب فطلبه أهل بلد مكلتهم

(١) ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة بنجد ص ٤٧
بتقديم وتأخير •

قاضيًا لهم ، فانتقل لها قبل تمام السنة المذكورة وفي سنة ١٠١٥ انتقل من ملهم إلى العبينة ، وكان عالما فاضلا تلقى العلم عن الشيخ محمد بن أحمد ابن إسماعيل في أشيقر وعن غيره من علماء نجد ، كما تلقى عنه عدد كبير من فقهاء نجد منهم الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب المشرفي ، وتوفي الشيخ ابن بسام سنة ١٠٤٠ هـ .

ومن علماء نجد كذلك الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل ، وقد أخذ الفقه عن أحمد بن محمد بن مشرف ، وأخذ عنه جماعة من العلماء الذين ظهوروا بعده ، وتوفي سنة ١٠٥٩ هـ .

وعندما نصل إلى القرن الثاني عشر الهجري تبرز لنا في ميدان العلوم الإسلامية أسرة المصلح الديني الشيخ محمد عبد الوهاب وهي أسرة عرفت بالعلم والمعرفة في عدة أجيال منها ، ولا تزال ترعى العلم والمعرفة حتى العهد الحاضر ، وسنعتقد بابا خاصا للحديث عن المصلح الديني الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعن شيوخه ومعاصريه ومريديه .

ومن علماء نجد في القرن الثاني عشر العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن خميس أبو بطين وكان فقيها واسع المعرفة ألّف كتابا في الفقه اسمه « المجموع فيما هو كثير الوقوع » وقد توفي في سدير سنة ١١٢١ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ أحمد بن محمد المنقور ، وله كتاب مفيد جمع فيه فتاوى فقهاء نجد ، وجملة من فتاوى غيرهم ، ومن تلاميذه الشيخ عبد الله بن زهران ، ومن تلاميذه ابنه إبراهيم بن أحمد المنقور ، وقد توفي الشيخ أحمد في حوطة سدير سنة ١١٢٥ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ أحمد بن محمد بن مبارك قاضي (الجمعة) وقد أخذ الفقه عن عدة مشايخ منهم عبد القادر العديلي ومحمد بن عفالق ، وتلقى عنه محمد بن سلوم الفرضي ، وعثمان بن عبد الجبار الذي تولى قضاء الجمعة بعد شيخه وغيرهم وقد توفي الشيخ أحمد سنة ١١٩٤ هـ .
(م ٥ - التاريخ ج ٧)

ومن علماء نجد الشيخ بن عبد الله بن عبيدان قاضي حريملاء ،
والشيخ عبد الرحمن بن زهران من قضاة العارض وقد توفي سنة ١٢٠٢ هـ
والشيخ حميدان بن تركي من عفيزة وقد توفي بالمدينة المنورة سنة ١٢٠٣
والشيخ عبد الوهاب بن محمد بن فيروز مؤلف كتاب « زاد المستنقع في
الفكر » وقد توفي سنة ١٢٠٣ هـ •

ومن علماء نجد العلامة أحمد بن ناصر بن معمر ، وهو من تلاميذ
الامام محمد بن عبد الوهاب ، وهو أيضا من تلاميذ الشيخ سليمان بن
عبد الوهاب والشيخ حسين بن غنام ، وكان قاضيا في الدرعية ، ثم أرسله
سعود الكبير الى مكة قاضيا ، وتوفي بها سنة ١٢٢٥ هـ •

ومن علماء نجد الشيخ عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر بن
معمر ، وهو من المعامرة أهل العيينة ، وكان أدبيا لبيا ورعا وله قصائد
جميلة ، وقد توفي سنة ١٢٤٤ في البحرين ورثاه أحد أصدقائه الشيخ
بن علي بن مشرف بقصيدة مشهورة •

ومن علماء نجد الشيخ إبراهيم بن حمد بن عيسى قاضي بلدان
الوشم ، وقد توفي في شقرا سنة ١٢٨١ هـ •

وفي العام التالي توفي الشيخ عثمان بن عبد العزيز قاضي سدير •

تلك نبذة عاجلة عن فقهاء نجد وعلمائها ممن ترتبط بهم بعض
المؤلفات أو الأحداث ، وبجانب هؤلاء ، كانت هناك مجموعة وافرة من
العلماء تتردد أسمائهم قضاة ومعلمين في مختلف المناطق، بلاد نجد لم
نذكرهم لقلّة ما حول أسمائهم من أفكار ومعارف •

مزيد من الدراسات التفصيلية عن تاريخ نجد

أوردنا فيما سبق بعض دراسات تاريخية عن نجد ، ونريد فيما يلي أن نعطي مزيدا من الدراسات التفصيلية عن تاريخ نجد ، لعلنا بذلك نغذّي رغبة الذين يتلهفون إلى تاريخ مدون لهذه البلاد .

ولكننا نذكر هؤلاء بما سبق أن كررناه من أن الحياة القبلية كانت الحياة السائدة في نجد ، وأن كل قبيلة ، كانت تعيش في حياة منعزلة عن القبائل الأخرى ، سواء كانت هذه القبيلة مستقرة في بلدة أو متنقلة بحثا عن المراعى ، وبهذا كانت القبيلة أو المدينة وحدة سياسية مستقلة تماما .

وفي ضوء هذا الواقع الذى لم يتخلف تجيء دراساتنا التاريخية عن نجد ، بمعنى أنه من المحتتم أن ندرك أن نجدا كانت تحوى عشرات الدول الصغيرة المستقلة المتعادية ، فإذا أردنا أن ندرس تاريخ نجد كان علينا أن ندرس تاريخ هذه الوحدات أو هذه الدول أن جاز أن نسميها دولا ، وليس هناك من سبيل آخر لدراسة تاريخية عن نجد ، اللهم الا ما سنراه فيما بعد من محاولات زحف داخلى أو زحف من الخارج كما أشرنا من قبل .

وعلى هذا فتاريخ نجد هو تاريخ هذه البلدان أو هذه القبائل ، وقد اتجهت بكل الجهد والصبر لجمع تاريخ أشهر هذه البلاد ، من المراجع المختلفة ، ومن أهمها :

- معجم البلدان لياقوت ثم المستدرك عليه .
 - تاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام .
 - عنوان المجد في تاريخ نجد للشيخ عثمان بن بشر .
 - الجزيرة العربية في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة .
- وقد كتبنا تاريخ نجد ابتداء من سنة ١١٥٧ هـ فقط

- تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب لجون فيليبى ، وكل كلامه يتصل بالحركة السعودية فى عصورها المختلفة •
- تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد للشيخ ابراهيم بن صالح •
- رحله إلى نجد لليدى أن بلنت •

وهناك مراجع أخرى كذلك ولكن أهم ما ساعدنى على هذا العمل أننى قمت بدراسة ميدانية ، ورأيت الحاضر الذى أوحى بالخير عن الماضى كما سيرى القارىء فيما يلى من صفحات ، ومن تتبع الأحداث تجمع لى زاد وفير ، ثم عرضت هذه المعلومات للنقد التاريخى فتبين لى أن هناك بينها تشابها كبيرا كالغارات والنصر والهزيمة ، وتبين لى من جهة أخرى عدم جدوى ايراد التفاصيل المتشابهة وبخاصة أنه لم يوجد دور حضارى ذو بال لأى منها ، وما كان يمكن أن يوجد مثل هذا الدور الأيية وحدة صغيرة من وحدات نجد ، إذ كان كل الجهد متجها للحراسة من جانب وللإعداد لهجمة من جانب آخر ، وتأثرا بذلك رأيت أن أورد نماذج لبعض بلاد نجد تمثل تاريخا مفصلا لها طيلة عدة قرون ، وقد حاولت أن أختار بلادا تمثل العارض والقصيم وجبل ثمر لعلنا نتدارس أهم مناطق نجد • ويمكن القول إن هذه النماذج هى أحداث يمكن أن تنطبق على جميع بلدان نجد تقريبا •

وستبدأ دراستنا عن أية بلدة منذ إنشائها ما أمكن ذلك ، وإنشاء بلدة يمثل فى نجد تكوين دولة ، وسفسير مع تاريخ هذه البلدة حتى نراها جزءا من المملكة العربية السعودية التى أنشأها المعاهل العظيم الملك عبد العزيز آل سعود ، حيث ذابت هذه البلاد كما ذابت القبائل فى المملكة الفتية ، فلنأخذ فى الأمر :

عنيزة

عنيزة من أهم بلدان القصيم ، والكلام عن عنيزة يحتاج إلى مقدمة عن منطقة القصيم التي تعد من أهم مناطق نجد وأكثرها خصوبة كما ذكرنا من قبل ، ومنطقة القصيم يحيط بها جبل شمر في الشمال والغرب ، وصحراء النفود في الشمال ومنطقة الوشم في الجنوب الشرقي ، ومنحدرات عتيبة في الجنوب الغربي .

وقرى القصيم حوالى خمسين قرية متناثرة في المنطقة الشاسعة ، وأشهرها بُرَيْدَة وعنيزة والرس والخبراء والعيون والبكيرية ، وبريدة أعظم مدن القصيم ولذلك تسمى أم القصيم ، وتقع بريدة على مرتفع رملى بالجانب الأيسر لوادى الرمة ، ويقول ياقوت عن بريدة انها تصغير برد (١) ، ونقول المراجع عنها إنها أعظم سوق للإبل ، وقد زرتها في العصر الحديث فوجدت أنها يمكن القول إنها من أعظم أسواق السيارات في العالم ، فامتداد معارض السيارات بها فسيح للغاية .

وتقع القصيم في الطريق بين الحجاز والشرق ، وبسبب وقوعها على الطريق كانت معرضة أكثر من غيرها من بلاد نجد لغزوات أشراف الحجاز ، ومن هنا كذلك كانت من البلاد التي مسها الصراع بين محمد على باشا وبين السعوديين في العارض كما سنرى فيما بعد ، وبسبب موقع القصيم وخصوبة المنطقة نشطت التجارة بها نشاطا عظيما ، وهن هنا كان أهل القصيم أكثر النجديين اتصالا بالعالم الخارجى ، وهذا أضفى عليهم قدرات طيبة وجعلهم يستمتعون بمواهب ممتازة ، ورقة طبع وكرم خلق (٢) .

وينبغى أن يتضح أن أكثر قرى القصيم كانت متنافسة متصارعة ، وأن الصحراء الفسيحة تقف حاجزا بينها فلم يتكون منها وحدة قبل عهد

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) انظر جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ص ٦٩ .

المملكة العربية السعودية ، وطالما شهدت بريدة وعنيزة هجوما من احداها على الأخرى •

وبعد هذا التعريف بالمنطقة نجىء للكلام عن عنيزة ، وأول ما يطالعنا كلام ياقوت الذى يدل على قدم هذا الموقع ، وعلى أن مدينة عامرة كانت به قبل الإسلام وفى مطلع الإسلام ، ويحددها بأنها تقع فى بطن الرمة وهى لبنى عامر بن كريز ، ويروى قول امرئ القيس :

تراعت لنا يوما بسفح عنيزة وقد حان منها رحلة وقلوص

وقول خاله مهلهل بن ربيعة :

غداة كأننا وبني أبينا بجنب عنيزة رَحِيًا مدير

ويؤخذ من كلام ياقوت أنها كانت تابعة للأمير البصرة فى العصر العباسى ، إذ يروى عن أبى عبيدة السكونى قوله : استخرج عنيزة (أى حصل على خراجها) محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس وهو أمير على البصرة (١) •

وفيه من كلام المهلهل أن حروبا طاحنة دارت فى هذا الموقع ، ولعل هذا يرتبط بيوم بريدة الذى عناء ياقوت بقوله « ويوم بريدة يوم من أيام العرب فى الجاهلية (٢) » •

ويبدو أن هذه الحروب دمرت عنيزة تماما وأزالها من الوجود وهو ما كان يحدث كثيرا فى بلاد نجد ، بدليل أننا نقرأ عن تأسيس جديد لها فى القرن السابع الهجرى ، ففى الملحق الثانى لكتاب « تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد » أن عنيزة أنشئت سنة ٦٣٠ (٣) ، وهذا

(١) معجم البلدان ج٦ ص ٣٣ - ٢٣٤ •

(٢) معجم البلدان ج٢ ص ١٥٩ •

(٣) ص ٢٣٢ •

سيفسر لنا السبب في تغلب اسم « عنيزة » على أسماء القرى التي كانت موجودة قبل إعادة إنشاء عنيزة في التاريخ الهجري السابق .

ونستمر مع الملحق الذي أشرنا إليه والذي يقرر أن منشئ عنيزة هذه المرة هو زهرى بن جراح الثوري ، وكانت عند انشائها هذه المرة قرية صغيرة ضمن القرى الواقعة في هذه المنطقة وهي قرى الضبط والخربة والمكينة والعقيلية ، ولكن سرعان ما غلب اسم عنيزة على هذه القرى جميعا لمكانتها التاريخية السابقة كما ذكرنا آنفا ، وبقيت هذه القرى بأسمائها تمثل كل منها محلة أو حيا من محلات المدينة الشاملة « عنيزة » وقد أصبحت عنيزة امارة بعد حوالي ٢٥٠ سنة من انشائها أى في أواخر القرن التاسع ، وأول أمير لها هو عقيل بن ابراهيم بن موسى من أحفاد زهرى بن جراح الذي سبق ذكره .

ونستطيع بعد ذلك أن نسير مع عنيزة لنروى أهم الأحداث التي تتصل بها :

في سنة ١٠٩٧ أغار الشريف أحمد بن زيد بن محسن على نجد ، ونزل عنيزة ودمر العقيلية (محلة من محلات عنيزة) وفعل بأهلها القبيح والفساد (١) .

وفي سنة ١١١٠ هـ سطا آل غنام والبكر على فوزان بن حميدان أمير عنيزة ، وكان يقيم في المليحة ، وأخرجوه من بلدة عنيزة وذلك ردا للغدر التي قام بها فوزان ضد بريدة في العام السابق .

وفي سنة ١١١٥ هـ هجم آل جناح على عنيزة وقتلوا أميرها فوزان ابن حميدان الملقب ابن معمر واستولوا على عنيزة كلها .

وفي سنة ١١١٦ غرقت عنيزة بسيل جارف غمرها وتسمى هذه الحادثة « غرقة السليمي » وهو رجل أعمى دخل السيل بينه وأغرقه فعُرف

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد

سيل هذا العام باسمه • ويروى الشيخ إبراهيم بن صالح ^(١) أنه اطلع على بعض وريقات في التاريخ تثبت أن غرقة السليمي كانت سنة ١٠٨٠ هـ •

وفي سنة ١١٢٨ سطا ادريس بن شايح بن صعب شيخ آل جناح من بنى خالد على المليحة في عنيزة وملكها •

وفي سنة ١١٣٣ حدثت « ذبحة آل جناح » في دارهم بالخريزة في بلدة عنيزة •

وفي سنة ١١٤٠ عمر آل عفالق وهم من قحطان بلدة الخبراء في القصيم وكان مسكنهم قبل ذلك في عنيزة •

في سنة ١١٥٥ قُتِلَ حسن بن مشعاب رئيس بلدة عنيزة ، واستولى عليا آل جناح من بنى خالد والشخنة من المشاعيب من آل جراح ، وقد استولى هؤلاء على عنيزة كلها ، وكان الشخنة ينزلون « الجادة » في عنيزة ، وفي نفس العام غرس نخل « الجادة » في عنيزة •

وفي سنة ١١٥٦ حاصر آل شماس ومعهم رشيد بن محمد رئيس بلد عنيزة حيّ الدريبي في بريدة ، ونهبوا جنوبى البلد ، ثم صارت الغلبة للدريبي وهزمهم •

وفي سنة ١١٦٠ حدثت « ركدة عنيزة » ، ويقتصد بها استقرار ماء الآبار وثباته ، وقد ساعد ذلك على غرس الأشجار •

وفي سنة ١١٧٤ قُتِلَ رشيد رئيس بلدة عنيزة وهو من آل جراح ، وقُتِلَ فراج رئيس آل جناح من بنى خالد ، قتلهم عيال الأعرج من آل أبو غنام ومعهم آل زامل وذلك في مجلس عنيزة •

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٥ •

وفي سنة ١١٧٩ انتقل حمد بن ابراهيم بن عبد الله بن بسام من بلدة « حرمة » الى عنيزة وسكنها هو وأولاده .

وفي سنة ١١٨٠ تقريباً بنيت « البكيرية » من بلدان القصيم وليست بعيدة عن عنيزة .

وفي سنة ١١٨٢ قام سعود الكبير ومعه راشد الكبير وراشد الدريبي رئيس بلدة بريدة بغزو بلدة عنيزة ونزلوا بالقرب من باب شارخ ، وحصل بينهم وبين أهل عنيزة قتال قتل فيه من أهل عنيزة ثمانية رجال ، منهم عبد الله بن حمد بن زامل ، واستولى آل سعود على عنيزة والقصيم .

وفي سنة ١١٩٢ أصيبت بلدة عنيزة بسيل عظيم أغرقها ، ومحا بعض منازلها ، فخرج أهل عنيزة الى الصحراء ، وبنو فيها بيوت الشعر ، وقعدوا بها حتى عمروا منازلهم .

وفي سنة ١١٩٥ سطا آل « أبو غنام » وآل جناح على العقيلية في بلدة عنيزة واستولوا عليها .

وفي سنة ١١٩٦ أجمع أهل القصيم على نقض البيعة لآل سعود وعلى حربهم ، ما عدا أهل بريدة والرس والتنومة ، وأجمعوا على قتل من كان عندهم من المعلمين ، وأرسلوا الى سعدون بن غرير آل حميد الخالدي رئيس الحسا والقطيف يستحثونه على القدوم اليهم ، فأقبل اليهم بجنوده ، فلما قرب من القصيم قام أهل كل بلد بقتل من عندهم من المعلمين ، فقتل أهل الخبرا امامهم منصور أبا الخيل ، وثنيان أبا الخيل ، وقتل أهل الجناح رجلا عندهم يقال له البكري وصلبوه ، وقتل أهل الشماس أميرهم على بن حوشان ، وحاصر سعدون بلدة بريدة ، أربعة أشهر ^(١) جرت خلالها عدة وقعات ، ثم ارتحل عنها سعدون ونزل

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح : المرجع السابق ص ١١٩ وروايته بعد ذلك غير واضحة .

قربيا من الزلفى ، وأقام هناك أياما ، ووفد عليه كثير من رؤساء بلدان نجد الذين لم يدخلوا فى طاعة آل سعود ، وحقق نصرا فى القصيم والعارض ، وأعاد الروضة الى رؤسائها آل ماضى ، وكان الامام السعودى قد فتحها عنوة وفر منها هؤلاء الرؤساء ، ثم رحل سعدون راجعا الى وطنه (١) .

وفى سنة ١٢٠٢ غزا سعود بن عبد العزيز بلدة عنيزة وأجلى آل رشيد منها ، وعين عبد الله بن يحيى أميرا لها .

وفى سنة ١٢٢٩ توفى ابراهيم بن عفيصان فى عنيزة وكان سعود ابن عبد العزيز قد جعله أميرا لها بعد عزله عن الاحساء وهو من آل عفيصان المعروفين فى الخارج .

وابتداء من هذا العام (١٢٢٩) بدأت أحداث الصراع فى نجد بين محمد على باشا وبين آل سعود وعانت منطقة القصيم ألوانا من مرارة هذا الصراع ، وسنذكر تفاصيل ذلك عندما نصل فى دراسائنا الى وصف هذه الحروب .

وفى سنة ١٢٣٤ سالت عنيزة وبعض بلدان نجد خريفا ، وأصبح وادى الرمّة روضة طيبة .

وفى سنة ١٢٥٧ حدثت وقعة « بقعا » بين أهل القصيم وبين أهل رشيد وصارت الهزيمة على أهل القصيم ، وقتل منهم عدة رجال منهم يحيى السليم أمير بلدة عنيزة .

وفى سنة ١٢٥٩ قدم فيصل بن تركى الى جبل شمر من مصر ، فقام معه رئيس الجبل عبد الله بن رشيد وسارا الى عنيزة واستجاب لهما أهل عنيزة وتحرك الجميع الى الرياض وحاصروا عبد الله بن ثنيان حتى

(١) محمد بن عبد الله الأنصارى : تحفة المستفيد ص ١٣٠ - ١٣١ .

ظفروا به وحبسه الأمير فيصل حتى توفى فى الحبس ، واستقل بالملك
فيصل بن تركى .

وفى سنة ١٢٦٠ أغار عبيد بن على بن رشيد على بلاد عنيزة وأخذ
أغنام الناس ومتاعهم ففزعوا ضده وحصلت بينهم وقعة فى «مقطاع
الوادى» وهزم أهل عنيزة فى هذه الوقعة وقتل منهم عدد كبير .

وفى هذا العام والعام التالى توفى فى عنيزة وفى القصيم مجموعة
من الأفاضل والشيوخ منهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد القاضى فى عنيزة
والشيخ قرناس بن عبد الرحمن فى الرس ، وحمد السليمان فى عنيزة ،
وفى سنة ١٢٦٣ هاجم الحميدى بن فيصل الدويس حبيج القصيم .
واستولى على كثير من متاعهم .

وفى نفس السنة أغار الشريف محمد بن عون على نجد ووصل
عنيزة ، فأرسل اليه الامام فيصل هدية مع أخيه جلوى بن تركى ، فقبلها
وعاد الى مكة .

وفى سنة ١٢٦٥ استعمل الامام فيصل بن تركى أخاه جلوى أميراً
على عنيزة .

وفى سنة ١٢٧٠ هب أهل عنيزة على جلوى هذا وأخرجوه منها ،
ف قصد الى بريدة فلما علم الامام فيصل بذلك ، أرسل ابنه عبد الله لمحاربة
أهل عنيزة فسار هذا حتى نزل القصيم ، فقطع جملة من نخيل الوادى ،
وجرت بينه وبين أهل عنيزة وقعة ، قتل فيها بعض الرجال ، ثم وقع
الصلح بين المتحاربين سنة ١٢٧١ ، ورحل عبد الله وعمه جلوى الى
الرياض ، وركب عبد الله آل يحيى السليم الى الامام فيصل بالرياض ،
واستقر الصلح بينهم .

وفى سنة ١٢٧٣ اعترض ابن مهيلب الحجاج من عنيزة وحبسهم عن

المسير الى الحجاز ، وطلب منهم أشياء معينة ، فرفضوا إعطائها له ولكنه استطاع أن يأخذها منهم •

وبين سنتي ١٢٧٩ و ١٣١٨ استؤنف الصراع بين آل سعود وبين آل عنيزة ، وصارت الهزيمة على آل عنيزة في الواقعة التي تسمى « وقعة المطر » •

وفي سنة ١٣٠٨ شهدت منطقة القصيم صراعا على السلطة بين آل رشيد وآل سعود ، وقد استطاع آل رشيد أن ينتصروا في موقعة « القرعا » و « المليدا » وقتل من أهل القصيم خلائق كثيرة منهم زامل العبد الله أمير عنيزة ، وقد انتهت هذه المعارك باستيلاء آل رشيد على بادية نجد ، وجرت محاولة أخرى سنة ١٣١٨ ساعد فيها الأمير مبارك ابن صباح من الكويت ولكنها لم يقدر لها النجاح أيضا وظل آل الرشيد أصحاب السلطة في نجد حتى العام التالي (١٣١٩) حيث بدأ يتألق نجم آل سعود على يدى البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن كما سنرى فيما بعد ، وفي عهده الزاهر أصبحت عنيزة جزءا من المملكة الفتية « المملكة العربية السعودية » وغمر الضوء تاريخها كما غمر باقى أجزاء المملكة •

من أمراء عنيزة :

ذكرنا من قبل أسماء أمراء عنيزة الذين كان لهم السلطان حتى بدء الصراع بين ابراهيم باشا وبين السعوديين ، وأشرنا الى هذا الصراع الذى دار بالمنطقة والذى اشترك فيه آل الرشيد وآل سعود ومحمد على باشا ، وكان المنتصر يعين لعنيزة أميرها ، ونذكر فيما يلى أمراء عنيزة بعد الأميرين عبد الله بن يحيى ومحمد بن عفيصان اللذين عينهما الامام سعود بالتوالى أميرين على عنيزة أيام أن كانت عنيزة تابعة له ، وأمراء عنيزة بعد ذلك هم (١) :

(١) نقلا عن الشيخ ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٢٣٦ وما بعدها •

عبد الله بن حمد الجميعة من سبيع وقد ولاه ابراهيم باشا على
عنيزة عندما قدم الى نجد سنة ١٢٣٢ •

وفي سنة ١٢٣٦ تأمر في عنيزة محمد بن حسن الجمل باتفاق من
أهلها ، ثم تأمر الجميعة الى أن قتله يحيى بن سليمان المعروف بسليم •

ولما تمكن الامام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود في الرياض
أمّر في عنيزة خير الله تابع سعود بن عبد العزيز ، ثم أمر محمد بن
ناهض ثم صالح القاضي •

ولما قتل تركي تأمر يحيى السليم ، ثم قتل يحيى في بقعاء سنة ١٢٥٤
في أثناء حربه مع ابن رشيد ، فتأمّر أخوه عبد الله السليم ، فلما قتل
بالجوا سنة ١٢٦١ هـ تأمر ابراهيم السليم ، ثم عزله الامام تركي وأمر
ناصر بن عبد الرحمن السحيمي •

وفي سنة ١٢٦٥ تأمر في عنيزة جلوي بن تركي بن عبد الله بن محمد
ابن سعود ، ثم خرج من عنيزة سنة ١٢٨١ وتأمر عبد الله آل يحيى السليم
وتوفي سنة ١٢٨٥ فتأمر على السليم ولم يكن له الا اسم الامارة فقط
وحقيقتها لزامل العبد الله السليم ثم تأمر زامل حتى قتل في المليدا
سنة ١٣٠٨ •

ثم تأمر من قبل الرشيد عبد الله آل يحيى الصالح الغانم ، ثم
تأمر أخوه صالح ، ثم تأمر حمد العبد الله آل يحيى الصالح •

ثم زالت دولة الرشيد ، فعادت امارة عنيزة الى أهلها بمساعدة
الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وأصبحت جزءا
من المملكة السعودية ، وأول أمير لها في هذا العهد كان عبد العزيز العبد الله
آل يحيى السليم •

قضاة عنيزة :

جمع الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع قائمة بقضاة عنيزة ، وقد وردت هذه القائمة في الملحق الثاني لكتاب الشيخ ابراهيم بن صالح ونحن نقتبس بتصرف ما يلي عن هؤلاء القضاة :

قبل القرن الثاني عشر لم يكن في القصيم علماء مشهورون ، وكان مركز العلماء بنجد في أشيقر وسدير والعارض ، أما أهل القصيم فكان عندهم « مطوعون » وهم الذين يصلون بالناس ويعلمونهم القرآن ، وربما لجأ أهل القصيم الى قضاة المناطق المجاورة اذا ألم بهم أمر ذو بال .

وفي سنة ١١١٠ طلب أهل عنيزة الشيخ عبد الله بن أحمد بن عضيبي ليكون قاضيا لهم ، وكان قبل ذلك في « المذنب » فاستجاب لهم ، وجاء الى عنيزة ، وهو الذي حفر لهم البئر العذبة التي يستقون منها ، وقد توفي في « الضبط » وقبره معروف حتى اليوم في مقبرتها .

ثم تولى القضاء بعده تلميذه الشيخ سليمان بن عبد الله بن زامل سنة ١١١٦ .

- ثم تولى بعده الشيخ محمد بن ابراهيم أبو الخيل .
- ثم الشيخ عبد الله بن حمد بن اسماعيل .
- ثم الشيخ محمد العلي بن زامل الملقب أبو شامة .
- ثم الشيخ صالح بن عبد الله الصائغ .
- ثم الشيخ عبد الله بن سويلم سنة ١٢٢٠ .
- ثم الشيخ غنيم بن سيف ، وبعدة أخوه الشيخ عبد الله .
- ثم الشيخ عبد الله الفائز أبو الخيل .
- ثم الشيخ عبد الرحمن بن محمد القاضي .

ثم الشيخ عبد الله أبا بطين • وقد ولاه الامام تركى بن عبد الله ثم رجع الشيخ عبد الله الى بلدة نسقرا ، فلما استشهد الامام تركى وتولى الامام فيصل ركب أمير عنيزة ومعه جماعة الى الشيخ عبد الله وجاءوا به مع عائلته ، ومعه زوج ابنته الشيخ محمد بن عبد الله بن مانع وهو أول من سكن عنيزة من آل المانع ، وكان ذلك حوالى سنة ١٢٥١ ، واستمر الشيخ عبد الله قاضيا عشرين سنة تقريبا •

وبعده جاء الشيخ على المحمد من بلدة الزبير التى كانت آهلة بفقهاء الحنابلة •

ثم الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع •

ثم الشيخ عبد الله بن غائض حوالى سبع سنوات ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ^(١) انه قبل ولاية الشيخ عبد الله بن غائض كان يأتى الى عنيزة أحيانا الشيخ صالح بن الشيخ قرناس من أهالى الرس ويقولى القضاء ، كما يذكر رواية تفيد أن الشيخ العلامة عبد العزيز بن حمد سبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب تولى قضاء عنيزة فترة من الزمن ، وكان هذا ضمن الوفد الذى أرسله الامام سعود بن عبد العزيز الى مصر لمفاوضة محمد على باشا ، وقد اجتمع به الجبرتى وأثنى عليه •

وكلمات الجبرتى عنه هى : وقد اجتمعت مرتين بعبد العزيز بن حمد وبمبعوث آخر معه اسمه عبد الله فوجدت فيهما أنسا وطلاقة لسان ، واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق ، وحسن الأدب فى الخطاب ، والمتفقه فى الدين ، واستحضار الفروع الفقهية ، واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف ، وكان عبد العزيز أكبر حسا ومعنى من عبد الله ^(٢) •

ونعود لقضاة عنيزة بعد الشيخ عبد الله بن غائض ، فهم :

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤ •

(٢) تاريخ الجبرتى : ج٤ ص ٢٢٩ •

- الشيخ ابراهيم بن حمد الجاسر سبع سنوات وهو من أهالي بريدة .
- ثم الشيخ صالح بن عثمان واستمر قاضيا سبعة وعشرين عاما .
- ثم الشيخ عبد الله بن محمد بن مانع مدة عشر سنوات .
- ثم الشيخ محمد العبد المحسن من أهل بريدة مدة تسعة أشهر .
- ثم الشيخ عبد الرحمن بن عودان من أهالي شقرا مدة تسع سنوات .
- ثم الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل سنة ١٣٧١ .
- ثم الشيخ محمد بن عبد العزيز سنة ١٣٧٥ ، وقد نقل الى عنيزة من الجمعة .

اشهر القبائل في عنيزة الآن :

كتب الشيخ ابراهيم بن صالح بعض الفوائد في خاتمة كتابه عن تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، وفي قمة هذه الفوائد أنساب بعض الأسر النجدية ومحال اقامتها ، ويهمنا منها هنا الأسر الموجودة في عنيزة وهي :

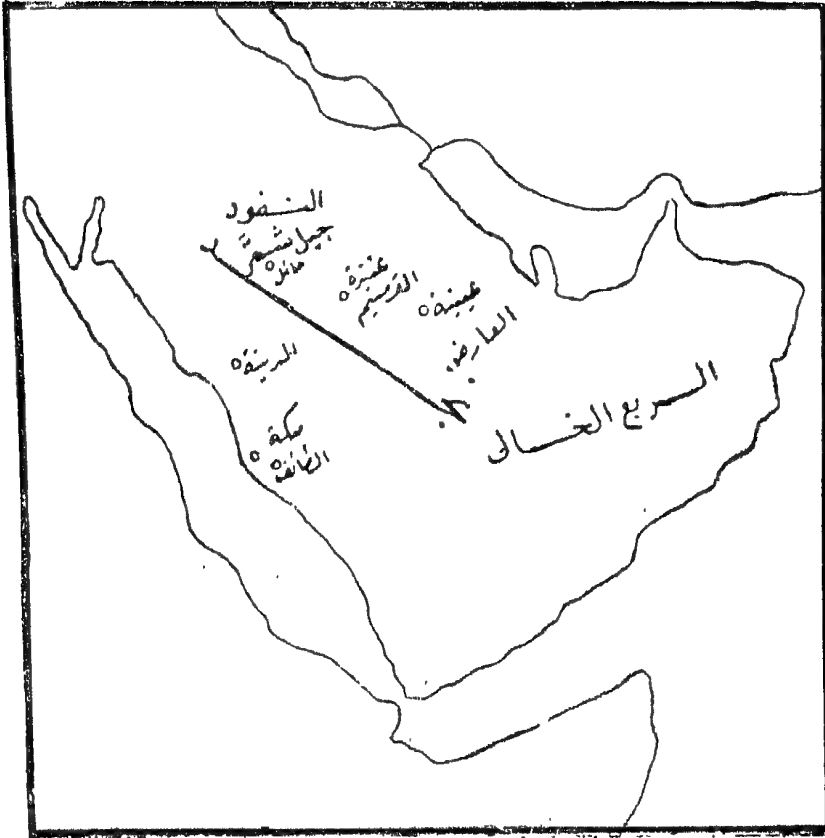
آل بسام ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله جد آل بسام بعنيزة وينتهي نسب آل بسام الى مالك بن حنظلة بن مالك ... حتى معد بن عدنان .

ومن آل بسام ينحدر آل القاضي المعروفون في عنيزة وآل حسن الذين في أشيقر ، ويوجد من آل بسام فروع في أشيقر وفي الدرعية وفي بريدة .

وفي عنيزة كذلك آل شبل الذين منهم الخروب وهم من المشارفة ، وكذلك آل شبل آخرون في عنيزة وهم من العنابر .

وفي عنيزة كذلك آل مستند ، وآل ضبيب ، وآل سلوم (١) .

(١) انظر الكتاب السابق : اقتباسات من ص ٢٠٥ الى ٢٢٦ .



حائل بجبل شمر وعقيزة بالقصيم وعيينة بالعارض

المينة

إن الحديث عن العيينة يقتضى أن نتحدث عن المنطقة الواسعة التى تقع فيها العيينة وهى « العارض » والتى كانت تعرف قديما بالعروض أو اليمامة ، وتقع هذه المنطقة بين سدير شمالا والخرق والحريق جنوبا ، وهى تمثل الجزء الأوسط من طَوَيْق ، ويقع وادى حنيقة فى قلب العارض ، ولوادى حنيقة تاريخ شهير فى التاريخ الاسلامى سنعرض له بعد قليل .

ويقول ياقوت عن العارض انه اسم للجبل المعترض ، ومنه عارض اليمامة وهو جبلها ، وفيه أودية كثيرة ، ولا نعلم جبلا يسمى عارضا غير عارض اليمامة ، والمسافة بين طرفى العارض مسيرة شهر (١) .

وإذا كنا ذكرنا عن القصيم أنها أكثر بلاد نجد اتصالا بالعالم الخارجى ، فإن بلاد العارض كانت أميل بلاد نجد الى العزلة ، وعدم الامة تراج بالآخرين ، وإذا كانت بلاد القصيم تهتم بالتجارة فإن الحرب كانت تمثل الاهتمام الأول لأهل العارض .

ومما يدل على جانب المتعصب فى بلاد العارض ، وجانب الانتصار للقبيلة فى كل الأحوال ما يروى أن مسيلمة الكذاب عندما ادعى النبوة وقدم قرآنه الذى يعارض به القرآن الكريم ، أدرك أهله زيف ما عرض ، ولكن واحدا من بنى قومه صاح قائلا ، أشهد أنك كاذب ، ولكن كذب حنيقة خير من صدق مضر . واتبعه قومه وأيدوه بحماسة شديدة .

ومن أجل ما عُرِف به أهل العارض من الشجاعة والافتداف والبطولة الحربية ، اعتمد عليهم آل سعود فى كثير من المواقف الحرجة واستندوا عليهم عندما كانت تشتد بهم الكروب .

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٥٨٥ .

وأشهر بلدان المعارض الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، ومقر آل الشيخ ، والدريه التي كانت العاصمة الأولى لآل سعود ، والجنبيلة والبيينة . وهما بلدتان متجاورتان كثيرا ما شملهما حديث واحد ، ومِلَّهم وحريملاء ^(١) ، ومنفوحة بلد الأعشى الشاعر .

معارك التنبؤ في وادي حنيفة :

ومن أعنف المواقف التي شهدتها وادي حنيفة معارك الردة والتنبؤ التي وقعت في عصر الصديق أبي بكر ، وكانت هذه المعارك بقيادة مسيلمة الكذاب وهو من بنى حنيفة باليمامة ، وكان قد وفد على الرسول عليه الصلاة والسلام ضمن بنى حنيفة في عام الوفود (٩ هجرية) راعن إسلامه ، ولكنه كان يضمر التردد والغدر ، فما إن عاد إلى اليمامة حتى ارتد عن الإسلام وادعى النبوة ، وكتب للرسول ، يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا لا ينصفون والسلام عليك .

فكتب له الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى ^(٢) .

وبدأ الصراع في حياة الرسول ، ولكنه بلغ قمته في عهد الصديق أبي بكر ، وقد سبق أن قلنا أن بنى حنيفة قوم أشداء يحبون الحرب ، ولا يخافون الموت ، وقد دفعهم اعتزازهم بالنفس ورغبتهم في العزلة إلى وأن ينفصلوا عن المجتمع الإسلامي الذي ساد الجزيرة ، وأن يثملوا لذلك حربا ضروسا ، وكانت قيادة المسلمين في يد خالد بن الوليد ، وشهدت منطقة الجبيلة حربا مريعة سقط فيها عدد كبير من الجانبين

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٥٥ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٧ - ٩٨ .

وكان بين قتلى المسلمين عدد كبير من حفظة القرآن الكريم ، وقد
أورد ابن كثير أسماء كثيرين من هؤلاء الحفاظ ^(١) ، ولما أحس مسيلمة بأن
كففته شالت تراجع ودخل حديقة فسيحة لها سور مرتفع ، ولحق به
أصحابه ، ليحتموا بهذه الحديقة ولكن المسلمين تسوروها عليهم ، ودارت
بها معركة شرسة سقط فيها آلاف من الفريقين ، حتى سميت حديقة
الموت ، وقتل مسيلمة بعد جهد كبير ^(٢) .

وقد زرت منطقة الجبيلة والمعشينة مع أصدقاء لى من آل الأسطل
خلال شهر فبراير ١٩٧٧ ، وأمضيت بتلك المنطقة التى تقع على بعد حوالى
عشرين ميلا من الرياض يوما كاملا وتتبعنا فيه آثار المعركة بين المسلمين
وبين مسيلمة وذويه ، ورأينا المنطقة التى تسمى حاليا « وادى الدم »
لكثرة من سقط فيها من القتلى ، ورأينا بقايا سور ، قيل لنا أنه بقايا
سور حديقة الموت ، كما رأينا الأرض الخصبة التى تعد منحة لوادى
حنيفة ، والتى لا تزال حتى الآن عامرة بالزراعة والنخيل ، ومما شاهدناه
فى هذه البقاع آثار مقابر الشهداء ومن الواضح أن تعاليم المصلح الدينى
محمد بن عبد الوهاب لم تدع أثرا للقباب التى أقيمت لشهداء معركة
اليمامة ، وكان من أهمها مقبرة زيد بن الخطاب ، ومع زوال هذه الآثار
فإن الوادى لا يزال يحتفظ بفتحات فى جوفه يمكن مشاهدتها بسهولة
ويقولون عنها إن كلا منها كان بقايا اللحد الذى دفن فيه أحد الشهداء .

وقد كان اليوم الذى أمضيناه بوادى حنيفة يوما طويلا ، وهذه
الكلمة ليست ارتجالية لأنه فى الحق كان يوما شاقا ، فقد اتجهنا بسيارتنا
الى أعماق الوادى محاولين أن نتعرف على جوانب المكان الذى دارت به
أعنف معارك المرتدين والمتنبئين ، ووصلت السيارة الى مكان كانت رماله
كالدقيق الناعم ، فغاصت عجلاتها فى أعماق هذه الرمال وكنا نخشى أن
تمسنا لعنة مسيلمة ، فالمكان كان موحشا حولنا ، ورفع السيارة كان

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٣٤ - ٣٤٠ .

وانظر هامش ص ٦٧ من « العواصم من القواصم » لأبى بكر العربى .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٠٤ وابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٤ ،

عملا لا أمل فيه لاتساع حجمها وثقل وزنها ، وقد اضطررنا أن نستعمل آلة الرفع لنرفع عجله إثر عجلة ، ونضع تحتها قدرا من الحجارة مختلفة الأحجام ، ثم ندير جهاز السيارة ونحاول الاندفاع بها الى الخلف ولكنها بعد حوالى نصف متر كانت تغوص مرة أخرى ، فنكرر العملية ، ولم ننج من وادى حنيقة الا بعد أن أوْشك أن ينفد صبرنا ويصينا الإعياء ، ومع هذا فإن ما حصلنا عليه من معلومات ، وما شاهدناه من مناظر كان معيننا لنا على هذا الجهد ، وكان مبعث متعة علمية عظيمة .

وبعد هذه المقدمة عن العارض ووادى حنيقة ، نعود للحديث عن العيينة ، ويبدو من المراجع التى بين أيدينا أن العيينة كانت موجودة منذ أمد طويل ولكن خرابا ألم بها الأسباب متعددة ويشير الشيخ حافظ وهبة ^(١) إلى قصص كثيرة عن أسباب هذا الخراب وعن هجر الناس لها ، ويتحدث الشيخ ابراهيم بن صالح عن العيينة فيقول :

فى سنة خمسين وثمانمئة اشترى حسن بن طوق جد آل معمر العيينة من آل يزيد من بنى حنيقة ، ورحل حسن عن ملهم ونزل العيينة عقب ذلك ، وتداولتها ذريته من بعده ^(٢) .

وهذا القول يفيد وجود العيينة قبل ذلك التاريخ ، وأن ما فعله حسن بن طوق كان مزيذا من التعمير والتجميل .

وبعد حسن بن طوق أصبحت رياسة العيينة الى ابنه حمد وهو الذى احتفى به ربيعة بن مانع المريدى عندما اعتدى عليه ابنه موسى ، واضطره الى الفرار ، فسار الى العيينة حيث وجد بها الكرم والتكريم ، ومما يذكر أن موسى بن ربيعة قُتل فى العيينة سنة ١١٣٩ .

ومن أحفاد ابراهيم بن موسى وطَبَّان الذى نزل أولاده العيينة ، وقد حدث صراع طويل بينهم وبين يحيى بن سلامة رئيس الرياض .

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين : ص ٥٩ .

(٢) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد : ص ٣٥ .

وفي سنة ١٠٥٦ توفي أمير العيينة أحمد عبد الله بن معمر ، وهو حاج ، وفي سنة ١٠٥٧ نزل الشريف زيد بن محسن على « بيان » على مشارف الرياض وهدد العيينة فدفن له أهلها مبالغ كثيرة وثلاثمائة جمل .

وفي نفس السنة قتل ناصر بن عبد الله بن معمر صاحب العيينة قتله ابن أخيه دواس بن محمد بن عبد الله ، وتولى دواس العيينة ، ولكن قتل في العام التالي ، وتولى العيينة محمد بن حمد بن عبد الله .

وفي سنة ١٠٧٠ تولى عبد الله بن أحمد بن معمر رئاسة العيينة .

وفي سنة ١٠٧٢ سار عبد الله هذا الى بلد « ألبير » وكان أهلها قد استولوا على قافلة لأهل العيينة ، وقد سار مع عبد الله جنود كثيرة ، فبات بعضهم تحت جدار من جدران بلد : « ألبير » فسقط الجدار عليهم ، فمات منهم خلق كثير ، وتدخل القاضي سليمان بن علي للإصلاح بين أهل العيينة وأهل ألبير ، وقد تم ذلك ، ورجع عنهم ابن معمر .

وفي سنة ١٠٩٦ تولى عبد الله بن محمد بن معمر رئاسة العيينة في حياة أبيه ، وصار له فيها شهرة عظيمة ، وكبرت العيينة في زمنه وترخرفت ، وكثر أهلها وزادت عمارتها ، وحج أبوه محمد بن أحمد ثلاث السنين .

وفي سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله هذا على بلد « العمارية » وفي العام التالي أغار على حريملة وقتل من أهلها عدة رجال ، وقد تسبب عن هذا أن هبت حرب بينه وبين أهل الدرعية الذين جاءوا لمساعدة العمارية .

ومن المفاخر التي تنسب الى العيينة أن ولد بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الديني الكبير ، ونشأ بها قبل أن ينتقل أبوه الى حريملاء .

وفي سنة ١١١٦ نزل على العيينة سيل خرب منازلها .

وفي سنة ١١٢٦ أغار سعدون بن محمد آل غرير رئيس الحسا والقطيف هو وعبد الله بن معمر رئيس العيينة على اليمامة من بلد الخرج ونهبوا بعض منازلها .

وفي سنة ١١٣٧ قام صراع بين آل معمر في العيينة وبين أهل العمارية وقد انهزم أهل العيينة في هذا الصراع وقتل منهم حوالي عشرين رجلا .

وفي سنة ١١٣٨ حل بالعيينة وباء أفنى الكثيرين من سكانها ، ومن مات في هذا الوباء رئيسها عبد الله بن محمد بن معمر الذي لم يذكر في زمنه ولا قبله في نجد من يدانيه في الرياسة ، وسعة المملكة والعدد والعقارات والأثاث ، وتولى في العيينة ابن ابنه محمد بن حمد بن عبد الله الملقب « خرفاش » .

وفي سنة ١١٣٩ غدر خرفاش هذا بزید بن مرخان صاحب الدرعية ، وبدعيم بن فايز السبيعي وقتلها ، وذلك أنه لما أصاب الوباء المذكور أنفا العيينة وفنى رجالها ، وقتل رئيسها ، طمع زيد بن مرخان وأتباعه في أموالها ، وأرادوا نهبها ، فساروا إليها بآل كثير وبوادي سبيعي وغيرهم ، فلما وصل الجميع « عقربا » أرسل خرفاش إلى زيد من يقول له : انه لا ينفعك نهب البوادي ، وأنا مستعد أن أعطيك وأرضيك ، فأقبل إلى أكلملك من قريب وأنجيك ، فسار إليه زيد في أربعين رجلا ، ومعهم محمد بن سعود وغيره ، ثم أدخل رجالا من قومه في مكان وطلب اليهم أن يرموا زيدا بالبنادق ففعلوا ومات زيد ، وتقبه أصحاب زيد ، فتحصنوا في مكان بالقصر ولم ينزلوا منه الا بأمان الجوهرة بنت عبد الله ابن معمر ورجع محمد بن سعود بمن معه من أهل الدرعية .

وفي سنة ١١٤٢ قتل محمد بن حمد (خرفاش) رئيس العيينة قتله آل نهبان من آل كثير ، وتولى العيينة أخوه عثمان .

وفي سنة ١١٦٠ هـ غزا عبد العزيز بن محمد بن سعود ومعه عثمان بن معمر رئيس العيينة بلدة « سرمد » وتمت الهزيمة على أهل سرمد ، وقتل منهم حوالي سبعين رجلا وتسمى هذه الواقعة وقعة « البطين » لأنها حدثت في « بطين سرمد » •

ويمتاز عهد عثمان بن حمد بن معمر بخطوة هامة ترتبط بالمصالح الدينية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فإن الشيخ بعد جولة علمية طويلة اتجه الى مدينة حريملاء التي كان والده قد عين قاضيا بها ، وظل الشيخ مع والده حتى توفي ذلك الوالد ، فجهر الشيخ بأرائه ، وحينئذ تجمع بعض الجماهير في حريملاء للعدوان على الشيخ ، وهذا دفعه الى أن يعود الى العيينة مسقط رأسه ، وأن يدعم صلته برئيسها عثمان ابن حمد الذي رحب به وبالتع في اكرامه ، وزوجه قرييته « الجوهرة » وبدأ الشيخ يرفع صوته بدعوته ، فهدم القباب التي كانت قد أقيمت على قبور شهداء موقعة اليمامة ، ومنها القبة التي أقيمت على مقبرة زيد بن الخطاب ، وبهذا كانت العيينة أول مكان يحقق الشيخ فيه أهدافه ولكن عثمان بن حمد لم يستطع أن يظل على حمايته للشيخ كما سنرى فيما بعد ، فنصح الشيخ بترك العيينة ، فانتقل منها الى الدرعية ، كما سنرى عند الحديث عن الشيخ ودعوته •

وفي سنة ١١٦٣ قتل عثمان بن حمد رئيس العيينة ، وتولى مشاري ابن معمر رياستها •

وفي سنة ١١٦٤ أغار عبد العزيز بن محمد بن سعود ومشاري بن معمر رئيس العيينة على أهل سرمد مرة أخرى وحدث قتال بين الجانبين هزم فيه أهل سرمد وتسمى هذه الواقعة ، وقعة « الوطنية » والوطنية موضع بين سرمد ومراة • وقد ذكر ابن غنام وابن بشر أن هذه الواقعة حدثت في سنة ١١٦٣ هـ •

وقد ظلت العيينة بعد ذلك وثيقة الصلة بالحركة السعودية ، وشديده
الولاء لها حتى قامت المملكة العربية السعودية في عهد البطل عبد العزيز
ابن عبد الرحمن •

من قضاة العيينة وعلمائها :

كانت العارض منطقة تزدحم بالعلماء والفقهاء ، ومن العلماء
المشاهير بها أسرة الامام محمد بن عبد الوهاب الذين ورثوا العلم كابرا
عن كابر ، والذين تولوا مناصب القضاء والفتوى في أكثر بلدان العارض ،
قبل الشيخ وبعده ، وكان منهم أبو الشيخ الذي تولى القضاء في العيينة
وفي حريملاء ، ومنهم الشيخ الذي ارتفع صوته بالمعرفة في حريملاء
والعيينة والدرعية ، ومنهم أولاد الشيخ وأحفاده ومريدوه وهم كثير
تولوا أكثر المناصب الدينية في بلاد العارض قبل المملكة العربية السعودية •
وفي ربوع المملكة بعد قيامها ، ونذكر منهم الشيخ حسن بن محمد بن
عبد الوهاب وأبناءه وأحفاده السذين ازدهوا في مواقع كثيرة بالدولة ،
والشيخ حسين ومن أبنائه علماء مبرزون كذلك •

ومن علماء العارض أيضا الشيخ سايما بن موسى الباهلي والشيخ
محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله من المشارفه ، والشيخ محمد بن علي
ابن عبيد ، والشيخ موسى بن عامر قاضي الدرعية •

فإذا جئنا الى العيينة وجدنا مجموعة من قمم العلماء والفقهاء
تردهى بهم ، منهم الشيخ ابن عفالق قاضي العيينة الذي توفي بها سنة
١٠١٩ ، ومنهم الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب قاضي العيينة الذي أخذ
الفقه عن الشيخ منصور البهوقي ، والشيخ أحمد بن محمد بن بسام ،
وقد توفي سنة ١٠٥٩ •

ومن علماء العيينة كذلك الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله سالف الذكر
الذي كان مريداً لأبيه ، ووارثاً لعلمه وفضله وكان أستاذا لمجموعة من
العلماء منهم الشيخ سيف بن عاز ، وتوفي سنة ١١٢٥ •

ومنهم الشيخ العلامة سليمان بن علي التميمي الذي توفي بالعيينة
سنة ١٠٧٩ •

ومنهم الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ سليمان بن علي قاضي العيينة
الذي عزله خرفاش رئيس العيينة سنة ١١٣٩ ، وقد انتقل عقب ذلك من
العيينة الى حريملاء •

ومنهم الشيخ أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب الذي عينه خرفاش
قاضيا عقب عزله للشيخ عبد الوهاب بن سليمان سالف الذكر •

وهناك كثيرون غير هؤلاء من العلماء والفقهاء الذين كانوا ينتقلون
قضاة ومعلمين بين بلدان العارض •

حائل

مدينة حائل عاصمة جبل شمر ، ومن هنا كان من الأوفق أن نبدأ بالحديث عن جبل شمر لنعرف به ، وبعد ذلك نذئني متحدثين عن حائل .

وجبل شمر يقع شمال نجد والى الجنوب من صحراء النفود ، وهو يتكون من سلسلتين متوازيتين من الجبال هما « أجا وسلمى » جبلاطىء ويتجه الجبلان من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وفى جبل شمر توجد منابع عديدة للمياه تستخدم فى أرض السهل الخصبة التى تنمو بها شتى أنواع المزروعات ، وبخاصة النخيل ، كما تهطل على الجبل أمطار غزيرة فى الشتاء ، فتكثر المراعى التى ترتادها الخيل والتى يشتهر بها الإقليم فضلا عن الإبل والغنم (١) .

و (شمر) أحد أجداد العرب فى الجاهلية ، وهو ابن أئد بن خزيمة من طى ، واليه ينسب هذا الجبل ، اذ يعيش بطن من بطون شمر فى هذا الجبل منذ أمد طويل ، هناك بطون أخرى من هذا الجسد تعيش فى العراق وفى سورية .

وتتحدث Lady Anne Blant عن هذا الجبل فتصفه بأن منظره رائع ، وأنه سلسلة طويلة بدیعة تمتد من الشرق الى الغرب ، وبه عدة قمم شاهقة متميزة عن السلسلة الرئيسية ، وهو يذكر من رآه بأروع الجبال فى أسبانيا المسماه « جودا راما » (٢) ومنظر الجبل يفوق الوصف ، فهو سهل كامل الاستواء يتدرج فى الارتفاع ، وتنبثق منه صخور وتلال كأنها جزر فى محيط ، وبعض صخوره قرمزية اللون شاهقة ، تشمخ على الجميع ، وهى تهدى من يقصد جبل شمر قبل أن يصله بعدة أيام ، ومعالم جبل شمر لها روعة غريبة ، والمرتفعات به تكوّن ذراً وقبابا تاركة بينها

(١) أحمد عطية الله : القاموس الاسلامى ج٤ ص ١٤٢ .

(٢) آن بلنت : رحلة الى نجد ١٦٩ .

كوى تستطيع من خلالها أن ترى السماء ، وبعض صخوره كانت على شكل
جمل ، وهى تخدع أى شخص لا يعلم أن الجمال ليس فى استطاعتها أن
تتسلق تلك القمة. (١) •

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن ولفريد زوج الرحالة ليدى آن بلنت قال
عندما رأى جبل شمر إنه يموت الآن سعيدا لأنه رأى هذا المنظر البديع
الذى ليس هناك مكان آخر يشبهه الا أن يكون جبل سينا •

وأهم البلاد فى جبل شمر « حائل » العاصمة التى سنتحدث عنها فيما
بعد ، و « فيد » التى تقع فى جنوب حائل و « قفار » وهى بلدة فى
الجنوب الغربى من حائل ، ثم قنا وعقدة وتيماء ، ولدينا معلومات ذات
بال عن البلدان الثلاثة الأخيرة ينبغى أن نوردها هنا لمزيد من التعريف
بالمنطقة :

« قنا » قرية صغيرة جميلة تشهد باب جبل شمر المن يأتى عبر
صحراء النفود ، وبها حقول خصبة ، تزرع بها الحبوب وتكثر الأشجار •

« وعقدة » تقع على بعد عدة أميال من حائل ، وكانت قلعة حصينة
فى الجبل ، وقد اختير لها مكان تخصصته القوى الطبيعية ، وأضيفت لها ألوان
من التحصينات التى صنعها الإنسان ، وعقدة عبارة عن مجموعة من قرى
منتشرة فى مزارع النخيل فى الجنوب الغربى من حائل ، ومن هذه القرى
قرية الروضة وغزالة والمستجدة •

وتيماء واحة كبيرة فى الشمال الغربى لنجد ، وأرضها خصبة صالحة
للزراعة ، وبها أشهر عين ماء فى بلاد العرب ، وقد عثرت بها على نقوش
يُظن أنها من القرن السادس قبل الميلاد وتنسب الى (تيماء) أحد أبناء
اسماعيل وتقع تيماء فى منخفض من السهل المرتفع ، ولتيماء مكان مهم فى

التاريخ الإسلامى ، اذ كانت إحدى قرى اليهود فى الشمال من المدينة ، وقد كونت هى وبلدان اليهود الأخرى فى وادى القترى وفسدك وخبير خصما عنيدا للإسلام والمسلمين ، وقدم هؤلاء مساعدات لمن حاصروا المدينة فى غزوة الخندق ، ولذلك نجد الرسول يزحف على تلك المناطق فى العام السابع للهجرة ، بعد أن تم صلح الحديبية بينه وبين قريش ، وحاصر المسلمون خبير ، فتساقطت حصونها ، واستسلم أهلها واتفق معهم المسلمون ، اتفقا سمحا ، فقد تركهم الرسول يزرعون الأرض ، ولهم شطر الزرع والثمار نظير عملهم ^(١) ، وعقب سقوط خبير طلب يهود فدك الصلح فصالحهم الرسول على نصف الثمر ونصف الأرض ، أما يهود وادى القري وتيماء فقد حاربوا المسلمين ، ثم حلت بهم الهزيمة ، وبعد ذلك تركهم المسلمون على نظام خبير ^(٢) .

وفى عهد عمر بن الخطاب عندما تقدمت جيوش المسلمين الى الشمال رأى عمر أنه ليس من الحكمة أن تكون جيوش المسلمين بين عدوين : الروم فى الشمال واليهود فى الجنوب فأخرجهم من الجزيرة العربية ، على أن يحملوا ما يستطيعون حمله ، وأن يدفع المسلمون ثمن أى متاع لا يحملونه معهم ^(٣) .

ونجى الآن الى حائل العاصمة لنروى ما يمكن من حديث عنها :

تقع حائل على مرتفع هائل بجبل شمر إذ يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ٣٥٠٠ قدم ، وهى تقع على الطريق الصحراوى الذى يربط الحجاز بالعراق وايران وبلاد الشرق ، وعلى هذا فهى تقع على طريق مطروق وبخاصة فى موسم الحج ، ومن هنا كانت مركزا تجاريا مهما بين الشرق والغرب كما أن هذا الموقع ضمن لها ولضواحيها ربعا

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٩ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧ .

(٣) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة .

طيبا فقد كان كثير من الحجاج يشتررون منها الماعز والخراف التي يقدمونها هديا في حجهم ، ففي موسم الحج كان الرعاة يفدون الى حائل بقطعانهم لبيع بعض ماشيتهم الى حجاج الفرس والعراق ، كما كانوا يفدون ليعملوا على تسهيل مهمة الحجاج وتقديم بعض الخدمات اليهم .

وبالإضافة الى موقعها الذي جلب لها أنواعا من الثراء عن طريق التجارة والمقاول فإن مدينة حائل تقع في منطقة خصبة تجود فيها بساتين النخيل والتين والرمان والتفاح ، وتحيط بها حقول واسعة يزرع بها الشعير والقمح والخضر ، وفي الجنوب الشرقي من حائل تكثر بساتين النخيل والرمان واللييون الحلو والنارنج والبرتقال والتفاح والبرقوق والمياه اللازمة لهذه البساتين تستخرج من آبار عمقها حوالي ٩٠ قدما ، وفي شمال المدينة توجد مزارع النخيل .

ويتحدث ياقوت عن حائل فيذكر أنها موضع باليمامة ، وهو واد أصله من الدهناء ، ويستمر ياقوت متحدثا عن حائل بما يفيد أنها كانت دائما بلاد الزهر والخير ، فيذكر أن بدويا من حائل ذهب الى « الحضرة » ولكنه سرعان ما اشتاق الى حائل وحن اليها وقال فيها قصيدة رائعة منها :

لعمري لنور الأقصوان بحائل

ونور الخزامى في ألاء وعرفج

أحب الينا يا حميد بن مالك

من المورد والنعمى ودهن البنفسج (١)

وكانت حائل في هذا المكان التجارى الزراعى من جهة والشاهق النائم من جهة أخرى محمية بموقعها وبطولات أهلها ، فان استقلال حائل واستقرارها كانا يعودان بالخير والبركة على جميع السكان بقري جبل

(١) معجم البلدان : ج ٣ ص ٢٠٥ .

شمر ، الذين ذكرنا من قبل أخبار وفادتهم على حائل متاجرين أو عاملين ، وعلى هذا لم تكن القرى المجاورة لحائل منافسة لها بقدر ما كانت تابعة ، ولا كانت حائل هدفا لهجمات ذات بال من الخارج بسبب هذا الموقع ، وهذا الوضع قلل الصراع حولها ، ذلك الصراع الذى رأيناه مستمرا دون توقف فى عنيزة ومثيلاتها •

وتشتهر حائل بخيولها الأصيلة ، وقد كانت هذه الخيول تمثل السبب الذى دفع الرحالة أن بلنت لتقوم برحلتها الى بلاد نجد اذ كانت هذه الرحالة مهتمة بتربية الخيول العربية ، وكانت تملك مزرعة بها حظيرة حافلة بأمر الخيول ، وقد تحدثت فى كتابها عن خيول آل الرشيد ، وأبرزت أن فى حائل مجموعة ممتازة من الخيل ، وأن ابن الرشيد كان يعنى بهما أحسن عناية ، حتى انه كان يذهب بخيوله كل ربيع الى الصحراء لتعيش فى الهواء المطلق ، ولتمارس تدريبا دقيقا على السرعة والكر والفر ، وفى خلال الصيف كان يترك أكثر خيوله مع القبائل لتستمر فى التدريب ولا يبقى معه فى حائل الا القدر اللازم للاستعمال فى المدينة •

وسنرى فيما بعد أن خيول آل رشيد كسبت له بعض الجولات العسكرية ، وحققت النصر لجانبه •

وقد دخلت حائل فيما دخلت فيه مناطق نجد فأصبحت جزءا من دولة آل سعود الأولى ، وعيّن آل سعود عبد الله بن الرشيد أميرا على حائل ، فلما سقطت الدولة السعودية الأولى وجاءت الدولة السعودية الثانية بما فيها من اضطرابات وفتائل أعلن عبد الله بن رشيد استقلاله بجبل شمر ، بل أخذ يوسع سلطاته حتى أصبح آل الرشيد هم أصحاب السيادة على أكثر ربوع نجد معظم القرن التاسع عشر كما سنرى فيما بعد •

وسنذكر فيما يلى بعض الأحداث التى اشتركت فيها حائل ، حتى نصل الى مطلع المملكة العربية السعودية •

مطلع عهد آل الرشيد :

في سنة ١٢٩٤ هـ حمل محمد بن عبد الله بن علي الرشيد راية الغزو مستقلا بها عن متابعة آل سعود ، وهو أول من حملها مستقلا بها من بيت آل الرشيد وكان قبل ذلك أميرا في حائل تابعا لآل سعود خلال دولتهم ثم اتجه بعد حمل راية الاستقلال الى غزو بادية عتيبة ، وهذا الوضع فتح الباب لصراع بينه وبين آل سعود (١) .

وفي سنة ١٣٠٠ هـ حدث أول قتال بين آل سعود وآل الرشيد وقصة ذلك أن الامام عبد الله بن فيصل خرج من الرياض لغزو المجمععة فنزل على عربان عتيبة في الحمادة المسماة « أم العصافير » ولما علم بذلك أهل المجمععة أرسلوا الى محمد بن عبد الله الرشيد يستجدونه فتجهز لذلك وخرج في أهل حائل ، ومعه قبيلة ثمر ، وانضم اليه حسن بن مهنا رئيس بريدة بمن معه من أهل بريدة ، والتقى الجمعان في « أم العصافير » واقتتلوا ، فانهزم الامام عبد الله بن فيصل ، وقتل منهم خلق كثير من المشاهير منهم تركي بن عبد الله بن تركي ، وفهد بن سويلم ، وفهد بن سلطان ، ومحمد بن عثمان والشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد الله بابطين ، ورجع الامام عبد الله الى الرياض ، وأقام محمد الرشيد في الحمادة عدة أيام ، وأحضر رؤساء بلدان الوشم وسدير وعيكن في كل بلد من بلدانهم أميرا ، ثم رجع الى بلاده ، وبهذه الموقعة امتدت أطماع محمد بن الرشيد الى الاستيلاء على جميع بلدان نجد ، وكان سلطان آل سعود آنذاك يتجه الى الضعف .

وفي سنة ١٣٠٣ خرج أولاد سعود بن فيصل (محمد وسعد وعبد الله) على عمهم عبد الله بن فيصل ، أمير الرياض وقبضوا عليه وسجنوه وبلغ ذلك محمد بن عبد الله بن رشيد ، فانتهر هذه الفرصة ليمنع نفوذهم الى الرياض عاصمة آل سعود ، فأظهر الإنكار والسخط على أولاد سعود لاعتدائهم على عمهم ، وتجهز وقصد الرياض ، ولما قرب منها تلقاه وقد

(١) الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري : تحفة المستفيد ص ١٧٦ وما بعدها

من أهلها على رأسهم الامام عبد الرحمن بن فيصل (والد جلالة الملك عبد العزيز) وفاوض الوفد ابن الرشيد لمعرفة قصده ، فأخبرهم أنه جاء لتخليص الامام عبد الله من السخط فقط ، ولما عرف أولاد سعود ذلك ، وعلموا من أنفسهم العجز عن مقاومته ، خرجوا اليه ، وطلبوا منه الأمان لأنفسهم ، فأمنهم ، فخرجوا من الرياض الى الخرج ، ودخل محمد بن عبد الله الرياض ، وأطلق عبد الله بن فيصل من السجن ، وبعد ذلك بأيام خرج من الرياض ومعه الامام عبد الله وعبد الرحمن ابنا فيصل ، وعشرة آخرون من آل سعود ، ورجع بهم الى بلده ، وجعل سالم السبّهام أميراً له في الرياض •

وقد قام أولاد سعود الذين سبق الحديث عنهم بألوان من الهجمات ضد ابن رشيد ، واتخذوا من الخرج مركزاً لهم ، ورأى ابن الرشيد ان يتخلص منهم ، فأوعز الى سالم السبّهان أمير الرياض بأن يهاجمهم في غفلة منهم ويقضى عليهم ، ففعل سالم ذلك ، وعندما ضج أهل نجد لهذه الخيانة ، تظاهر ابن رشيد باستنكارها وعزل سالم السبّهان عن الرياض ، وجعل مكانه فهد بن رخيص وهو من أهل حائل •

وفي سنة ١٣٠٧ دبر ابن رشيد حيلة للتخلص من زعماء آل سعود الموجودين عنده ، فيقال انه قدم القهوة وفيها شيء من السم بطيء النتائج للامام عبد الله بن فيصل وأخيه عبد الرحمن ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يحس بذلك فتخلص من هذه القهوة ، ولكن عبد الله شرب القهوة فبدأ السم ينساب في جسده ، وأراد ابن الرشيد أن يخفى هذا فسمح للامامين بمغادرة حائل الى الرياض ، ولم يكن يعرف أن عبد الرحمن لم يشرب القهوة المسمومة ، وكان يريد هما أن يموتا بعيدا عنه ، وسرعان ما توفي الامام عبد الله في الرياض (١) •

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ - ١٧٨ •

ولم يقنع ابن الرشيد بذلك ، بل أراد أن يقضى على البقية الباقية من آل سعود بنفس الطريقة المغادرة ، وكان سالم السبهان خير معين له في ذلك الاتجاه ، فأعاده الى امارة الرياض وأوعز اليه أن يقضى على زعماء آل سعود ، وبدأ سالم يدبر المكيدة لذلك ، ففي يوم عيد الفطر أرسل سالم للامام عبد الرحمن يخبره أنه يرغب في زيارة آل سعود للتهنئة بالعيد وطلب منه أن يجمع أفراد الأسرة في قصره لهذا الغرض ، إذ يتعذر عليه أن يزور كل واحد في مقره ، ففطن الامام عبد الرحمن لاتجاه الغدر ، وأمر رجال آل سعود أن يحضروا بسلاحهم وأن يكونوا على حذر ، ثم جاء سالم السبهان بأعوانه وهم مدججون بالسلاح ، وبعد قليل بدرت من سالم بواذر الغدر فهب السعوديون للدفاع عن أنفسهم ، وتغلبوا على جماعة سالم ، وأسروه هو نفسه ، وأودعوه السجن ، وعادت امارة الرياض للامام عبد الرحمن •

ولم يسكت ابن الرشيد على هذا النصر الذي أحرزه السعوديون ، فزحف بجيوشه الى الرياض ، وتحصن أهل الرياض بمدينتهم ، وفي الوقت نفسه كان أهل القصيم قد غضبوا على آل الرشيد ، وكتبوا للامام عبد الرحمن أنهم على استعداد لمناصرتهم ، وعلى هذا أحس ابن الرشيد بضعف موقفه فطلب المفاوضة ، وخرج له زعماء آل سعود ، وتم الصلح على أن يكون المعارض وما حوله تحت سلطة الامام عبد الرحمن ، وأن يثطلق آل سعود الأمير سالم السبهان ، وتم ذلك ورجع ابن الرشيد الى بلده •

وقد سبق أن ذكرنا أنه كان هناك تعاون بين محمد بن عبد الله الرشيد وبين أمير بريدة حسن بن مهنا ، وكان ابن الرشيد قد طمع في أن تكون علاقة بريدة به علاقة تبعية لا علاقة تحالف ، بل اتسعت أطماعه فأراد ضم القصيم كله اليه ، ولم يكن أهل القصيم يريدون ذلك فتجمع جيش من أهل بريدة بقيادة حسن بن مهنا ، ومن أهل عنيزة بقيادة زامل السليم ، والتقى هذا الجيش بجيوش ابن الرشيد في المليدا ، وقامت حرب ضروس

بين الجماعتين لعبت فيها خيول جيش حائل دورا هائلا ، فتحقق النصر لابن الرشيد ، وقتل زامل السليم ، وعاد حسن بن مهنا الى وطنه بعد هذه الواقعة ، ويقال انه قتل من أهل القصيم في هذه المعركة ألف رجل . وقد جىء بحسن بن مهنا الى ابن الرشيد فأرسله الى حائل وسجن هناك ، واستولى ابن الرشيد بذلك على القصيم .

وكانت هذه الواقعة شديدة الأثر على السعوديين في الرياض فإن عبد الرحمن بن فيصل خرج من العارض ليسانعده أهل القصيم ، ولكن خبر الهزيمة قابله فتراجع الى الرياض ، وتفرق جنده ، ولكنه أدرك أن ابن رشيد سيتابعه الى الرياض فخرج عنها الى بادية العجمان ^(١) .

وتم استيلاء ابن رشيد على الرياض وعلى بادية نجد سنة ١٣٠٨ .

وفي سنة ١٣٠٩ حاول عبد الرحمن بن فيصل محاولته الأخيرة ضد آل الرشيد ، وكان يساعده ابراهيم بن مهنا وجند كثيرون ، وقصدوا مدينة الرياض ، ولكن ابن الرشيد خرج من حائل بحشد كبير من الجند والنقى بهؤلاء عند حريملاء وهزمهم ، وقتل ابراهيم بن مهنا ، ودخل الرياض ، وهدم سورها ، وأحس أن الأمر قد استقر اليه .

أما الامام عبد الرحمن فقد أمضى فترة مترددا بين قبيلة العجمان وبين قطر والاحساء وانتهى به الأمر الى اللجوء الى الكويت .

وفي سنة ١٣١٥ توفي الأمير محمد بن علي بن عبد الله بن رشيد في حائل ، وتولى بعده ابن أخيه عبد العزيز المتعبد ويقول عنه الشيخ محمد عبد الله الأنصاري ^(٢) : انه كان شجاعا قاسيا لا يعرف من السياسة الا القهر والغلبة ، فطمع في الاستيلاء على الكويت التي تحمي آل سعود ، وقد نتج عن هذا أن قامت سنة ١٣١٨ محاولة سعودية كويتية لاسترداد

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح : ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) تحفة المستفيد ص ١٩٤ .

الرياض ، واسترداد مدن القصيم ، وقد حقق أمير الكويت نصرا مبدئيا على جند ابن الرشيد ، وانتصر الإمام عبد الرحمن على أمير الرياض من قبل ابن الرشيد ودخلها ثم ترك بها ابنه عبد العزيز (الملك عبد العزيز فيما بعد) وذهب لينضم الى جيش الكويت ولكن الأمير عبد العزيز بن الرشيد علم بذلك فسار بجيش كبير ، وحقق نصرا في مناطق القصيم وانهزم أمير الكويت والإمام عبد الرحمن بن فيصل ، وجاء خبر الهزيمة الى من بالرياض من آل سعود فخرجوا منها ، ولجأوا الى الكويت مرة أخرى .

وفي العام التالي (١٣١٩) اندفع البطل عبد العزيز فاحتل الرياض وقتل الأمير عجلان أمير الرياض من قبل آل الرشيد ، وبدأ نجم السعوديين في التآلق وراح نجم آل رشيد يتجه الى الأفول كما سنرى فيما بعد .

وهكذا بدأ دور حائل في الصراع بنجد متأخرا ، ولكنه عندما بدأ كان عنيفا وطموحا ، وسنعود لدراسته فيما بعد عند الكلام عن آل الرشيد .

وهكذا نقرر ونكرر أن (نجد) في أكثر تاريخها كانت تتكون من وحدات سياسية مستقلة تماما ، وبعض هذه الوحدات كان يتمثل في القبائل التي تقيم حول آبارها خلال شهور الصيف ، ثم تبدأ تجوالها مع سقوط المطر لترعى ما ينجم عن المطر من عشب ، وتجوال القبيلة يكون في نطاق محدد لا تتعداه ، وتعرف الأرض الخاصة بكل قبيلة بالديرة .

وبعض هذه الوحدات يتمثل في المدن الموجودة في الأودية والتي يظهر فيها الاستقرار البشرى .

والقبيلة التي تستقر وترحل من جانب ، والمدينة بأحد الأودية من جانب آخر ، تلتها الصحراء الفسيحة ، وتكاد تكون منقطعة عن غيرها ، ومن هنا كانت تكون وحدة سياسية مستقلة تماما ، فتاريخ نجد قبل المملكة

العربية السعودية هو تاريخ هذه القبائل وتلك المدن التي أعطينا نماذج لها •

وكانت الغارة والنصر والهزيمة هي أسلوب الحياة ، ومن هنا لم تقم مع القبائل ، ولا في المدن حضارات ذات بال ، وأشعة النور بها كانت منحصرة في الفقهاء الذين يتعلمون العلوم الدينية ، ثم يعلمون ما تعلموه في دورات لا تتخلف من ناحية الفكر أو المنهج ، وقد تحدثنا عن كثيرين منهم •

وإذا كانت القبيلة أو المدينة هي الوحدة السياسية بوجه عام كما ذكرنا ، فإن هناك نوعين آخرين من الحكم والسيادة ظهرا في نجد من حين إلى حين ، وقد أشرنا لهما من قبل ^(١) وهما :

— زحف من الداخل تقوم به قبيلة أو مدينة وتسيطر على مناطق أخرى أو مدن أخرى •

— نفوذ أو زحف من الخارج يمتد إلى نجد من شرقى الجزيرة أو من غربها •

وقد آن لنا أن نتكلم عن هذين النوعين بشيء من التفصيل •

٢ — زحف من الداخل

تحدثنا آنفا عن الحياة المستقلة التي كانت تعيشها القبائل الرحل أو المدن بنجد ، وكانت القبائل على كل حال أكثر ميلا للحرب وأكثر عددا من سكان المدن ، وأكثر قدرة على قطع الصلات بين سكان المدن وبين العالم •

وسكان المدن كانوا في حاجة للاتصال الخارجى لبيعوا انتاجهم وليشترؤا ما يلزمهم ، ولذلك اتفقت كلمتهم فى الجاهلية على تحريم الغارات والحرب خلال الأشهر الحرم ^(١) ، وجرى عرفهم بعد ذلك على أن سكان المدن يتفقون مع عاهل بدوى واسع النفوذ فى قبيلته وفى « الديرة » على أن يضمن لهم السلامة داخل حدود دائرته ، وتدفع المدينة أتاوة (أخاوة) نظير ذلك ، ويحصل هذا عندما تكون هذه القبيلة قوية ، نفوذها واسع ، وحدود هذا النفوذ تبلغ مئات الأميال ، وتضم مدنا كثيرة على هذا النسق ^(٢) •

ذلك نوع من النفوذ الداخلى ، ولعل هدفه طيب ، ولكن هناك أنواع من النفوذ هدفها السيطرة من قبيلة على قبيلة ومن مدينة على مدينة ، ومن هذا زحف آل الرشيد الذى تحدثنا عنه من قبل ، ومنه كذلك زحف آل سعود فى دولتهم الأولى والثانية ، إذ لم تكن الدعوة الإصلاحية قد اختمرت فى النفوس واتضحت أهدافها الإصلاحية ، فاعتبر الزحف السعودى فى خلال هاتين الدولتين وبسبب سوء فهمه لونا من الألوان التى ألفتها نجد فى هذا المجال •

على أن الزحف الرشيدى والزحف السعودى خلال هاتين الدولتين لم يكونا دولة بالمفهوم العلمى المعروف ، وكل ما كان يفهم منه هو نوع

(١) انظر الكلام عن الأشهر الحرام فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ١٢٢ وفى الطبرى ج ٢ ص ١٥ •

(٢) انظر رحلة الى نجد للرحالة آن بلنت ص ٢٠٨ •

من الاعتراف بالسلطة السعودية أو الرشيدية ، وتدخل الحاكم السعودي أو الرشيدى فى اختيار رئيس المدينة أو القبيلة وهو فى الغالب من أهلها المواليين للحكم الجديد ، ودفع الاتاوة لآل سعود أو آل الرشيد ، وفيما عدا ذلك فالقبيلة أو المدينة تعيش حياتها الاستقلالية •

والزحف السعودى ومن بعده الزحف الرشيدى كانا يتجهان للاستيلاء على نجد كلها تقريبا ، ولكن كان هناك زحف آخر لا يتوقف تقوم به مدينة على مدينة ، ومن هذا النوع نذكر بضعة أمثلة :

فى سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله بن معمر رئيس العيينة على بلدة « العمارية » وقد تسبب عن هذا أن هبت حرب بينه وبين أهل الدرعية الذين جاءوا لمساعدة العمارية ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك ^(١) •

وفى سنة ١١٢٣ استولى أهل حريملاء على بلدة « ملهم » •

فى سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله بن معمر رئيس العيينة على بلدة « جالجل » على بلدة « روضة سدير » وعلى منزلة آل أبو هلال ، ومنزلة آل أبو سليمان ، ومنزلة آل أبو سعيد ^(٢) ، وأخرج العبيد من حوطة سدير ، وأسكن فيها أهلها آل أبو حسين من بنى العنبر ، وكانوا قد جلوا عنها ^(٣) •

وهناك نماذج كثيرة من هذا النوع يقابلها الباحث دون عناء ، فقد كانت هذه الحالة هى شريعة نجد قبل قيام المملكة العربية السعودية •

(١) انظر ص ٨٦ من هذا الكتاب •

(٢) (أبو) تستعمل مرفوعة فى المراجع فى جميع الأحوال •

(٣) الشيخ ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد

ص ٨٩ و ٩٤ •

وينبغي أن يتضح أن هذا الزحف لم يستقر غالبا ، فكثيرا ما كان يُواجه بمقاومة تقضى عليه ، وأحيانا تجعل الغالب مغلوبا •

وينبغي كذلك أن يتضح أننا نقصد هنا الزحف الذي يتطلع للاستقرار والسيادة ، أما الزحف الذي يرمى الى السلب والنهب دون محاولة استقرار فهو عمل كان كثير الوقوع بسبب وبدون سبب في مختلف الأرجاء ببادية نجد وقد تحدثنا عنه من قبل •

٣ — زحف من الخارج على نجد

تحدثنا من قبل عن القبائل والمدن في نجد وقلنا ان كلا منها كانت تكون وحدة سياسية مستقلة ، وان العلاقات بينها كانت علاقات عدوانية ، والى الشرق من نجد والى الغرب منها قامت قوى اقرب ما تكون الى الدولة سواء كان ذلك في منطقة الأحساء أو في الحجاز ، فقد كانت هنا وهناك جيوش وعقادات وادارة ، مستقلة أو تابعة لقوة أعظم ، وشهد التاريخ ألوانا من الزحف على نجد من الشرق ومن الغرب •

ولم يكن هذا الزحف يرمى الى ضم مناطق نجد الى الشرق أو الغرب ، فليس ذلك بمستطاع بسبب الصحراء الفسيحة التي تحيط بكل مدينة وبكل قبيلة ، مما يجعل تكاليف هذه المحاولة غالية الثمن وليست هناك فائدة تدعو لها ، وعلى هذا كان الهدف من حملات الشرق والغرب على نجد ينحصر في أمرين :

١ — التهديد حتى لا تحاول قوى نجد أن تقوم بأعمال ضد سيادة النظم بالشرق أو الغرب •

٢ — التبعية العامة ودفع إتاوة كانت تسمى الزكاة غالبا وقد تسمى خراجا أو إتاوة ، وتكون نقدا أو حاصلات عينية •

أما الحكم السياسي للمدينة أو القبيلة فيظل — كما ذكرنا من قبل — بالاعتراف بشيخها أو بتعيين شيخ آخر منها يكون أكثر استجابة للتعاون مع الغزاة ، ولم يحصل أن حكمت هذه المدن أو القبائل حكما مركزيا ، وما كان ذلك ممكنا •

ويلاحظ أن أطماع الشرق كانت مبكرة عن أطماع الغرب اذ قام بالشرق طيلة القرون الهجرية الأولى قُوًى علا شأنها وعظمت قوتها في بعض الأحيان كالخوارج وبنو الأخيضر والزنج والقرامطة ، وكان لهؤلاء أطماع في نجد بل أحيانا أطماع وصلت الى الحجاز عبر نجد ، أما الحجاز

في الغرب فكان تابعا لمصر منذ عهد الأخشيديين ولم يكن لولائه أطماع في نجد ، فلما تمكن نفوذ الأشراف في العهد العثماني ، بدأ هؤلاء الأشراف يتطلعون الى نجد في النطاق الذي شرحناه من قبل •

وستتحدث فيما يلي عن زحف على نجد من الشرق ، ثم عن زحف مماثل من الغرب •

زحف على نجد من الشرق :

كانت بلاد الأحساء منطقة مهمة لاتصالها بالخليج الذي كان يمثل منطقة اقتصادية هائلة ، ولاتصالها كذلك ببلاد فارس على الجانب الآخر من الخليج ، وقد قامت في منطقة الأحساء دول كبيرة شديدة الأطماع ، وقد امتد نفوذها الى مناطق متعددة في الجزيرة العربية وخارجها ، وكانت نجد من أهم الأماكن التي تطلع لها حكام الأحساء ليضموها ولأهلها ، أو ليحتوا أبطالها على مشاركتهم في المغارات التي كانوا يقومون بها • وستندأرس فيما بعد منطقة الخليج ، ونتحدث عن نشاط الدول التي قامت بها ، ونكتفي هنا بلمحات عن زحف دول الأحساء على نجد •

لقد تطلع الخوارج الى نجد واستطاع النجدات احدي فرق الخوارج أن يستولوا على اليمامة ، وأرسل نجدة سريعة الى « الخط » فظفر بأهله ، وامتد نشاط الخوارج بوادي نجد وأخذ نجدة الصدقة من أهلها ووصل في زحفه الى الطائف •

وبعد نجدة سار أبو فديك في هذا الاتجاه كما سار فيه مسعود العبدى الذى استطاع أن يستولى على اليمامة (١) •

أما بنو الأخيضر فقد ظهروا في الحجاز بقيادة محمد بن يوسف في منتصف القرن الثالث الهجرى ، فحاربهم العباسيون وهزموهم ، ففروا

الى اليمامة وملكوها ، ومن اليمامة مدوا نفوذهم الى بعض النواحي في نجد ، وظلوا يحكمون هذه المناطق في المدة من سنة ٢٥٣ هـ الى سنة ٣١٧ هـ ونشروا بها مذهب الشيعة الذي عاش بتلك البقاع فترة طويلة (١) .

وعندما قامت دولة الزنج في هجر انسابت للمنطقة كلها تقريبا ، وكانت لها تطلعات في نجد وسواها ، ولكنها لم تحقق ما حققه الخوارج قبلها ولا القرامطة بعدها .

أما القرامطة فقد اتسع نفوذهم في مناطق كثيرة بنجد ، ووصل هذا النفوذ الى أرض الحجاز واستطاع هؤلاء أن يأخذوا الحجر الأسود من مكة وأن ينقلوه الى عاصمتهم بالخليج ، وقد اتسع نطاقهم اتساعا هائلا ، فلم يتوقف عند نجد ، وانما امتد الى دمشق وحماء ومعة النعمان وبعلبك .

وعندما قامت الأسرة العيونية بالبحرين تطلع كثير من أمرائها الى نجد وكان بعض أمرائها شديدي الاهتمام بالبرارى لتعقب المفسدين ، والضرب على أيدي الأعراب ، كما كان منهم من امتد نفوذه الى نجد تماما مثل الأمير محمد بن أحمد بن عبد الله وستشمله أحاديثنا فيما بعد .

واذا قفزنا فترة الاحتلال الفارسى والمغولى في البحرين ووصلنا الى القرن السادس عشر ، وجدنا محاولات واضحة لازحف على نجد من الأحساء ، فإن العثمانيين الذين غزوا منطقة الأحساء في القرن السادس عشر لم يأبهوا في بادئ الأمر بالجزيرة العربية ، ولكنهم سرعان ما اتجهوا لها وحاولوا تمكين نفوذهم في أهم مناطقها (٢) ، وأصبح ذلك دستور السياسة في منطقة الأحساء ، أى أن يتطلع حكامها الى مد نفوذهم الى نجد ، وسنروى فيما يلى نماذج من زحف قادة الأحساء إلى نجد .

(١) دكتور منير عجلانى : تاريخ المملكة العربية السعودية .

(٢) جون فيلبى : دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب ص ٧ .

وفى سنة ١٠٨١ غزا براك بن غريز الخالدى رئيس الحسا والقطفيف
بلاد نجد وعين لها ولاية من قبله •

وفى سنة ١٠٨١ عين سلامة بن صويط رئيسا لبوادرى الظفير •

وفى سنة ١٠٩٨ أغار محمد آل غريز صاحب الأحساء على منطقة
سبييع فى العارض وانتصر على سكانها ، وفى السنة التالية نزل هذا منطقة
الخرج وحارب آل عثمان رؤساء الخرج حربا شديدة ، ولكنهم صالحوه
فرجع عنهم •

وفى سنة ١١٢٦ أغار سعدون بن محمد آل غريز رئيس الحسا
والقطفيف هو وعبد الله بن معمر رئيس بلد العيينة على اليمامة ونهبوا
منها بعض المنازل وفى سنة ١١٣٣ عاد سعدون هذا الى نجد وأمضى فصل
الصيف فى العارض ، كما سار الى عقرب وإلى الدرعية ، ونهب كثيراً من
البيوت •

وفى سنة ١١٨٨ سار عريعر بن دجند آل حمد الخالدى رئيس
الحسا والقطفيف بالجنود العظيمة من الحاضرة والبادية ، وقصد بلدة
بريدة ، وأخذها عنوة ونهبها ، وقبض على أمير بريدة عبد الله الحسن
وجعل راشد الدريبي أميراً لها •

وفى سنة ١١٩٦ استعان أهل القصيم بسعدون سالف الذكر ضد
آل سعود ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما قبل ويضيف الشيخ محمد عبد الله
الأنصارى معلومات ذات بال عن هذه الغزوة ، إذ يقرر أن سعدون هذا
حاصر بلدة بريدة ، ونزل قريبا من الزلفى وأقام عليها أياما ، ووفد
عليه كثير من رؤساء بلدان نجد يعلنون الطاعة والتعاون ، كما أرسل
فرقا من جنده الى مناطق متعددة فى نجد ، فأحرزت نجاحا كبيرا (١) •

وهكذا تعرضت بلاد نجد إلى ألوان من الزحف من الشرق في فترات متتالية على مر القرون .

زحف على نجد من الغرب :

ونجى الآن للحديث عن الزحف الذى عانته نجد من الغرب ، أى من الحجاز ، وقد سبق أن ذكرنا أن أطماع الشرق كانت مبكرة عن أطماع الغرب ، ولكن يبدو أن يمين النظر أن الحجاز سبق الأحساء في تطلعاته الى السيادة على مناطق نجد ، ففى مطلع الإسلام وفى حياة الرسول نفسه دخلت أرجاء الجزيرة العربية فى الإسلام وكان الرسول — كما قلنا من قبل — يقر رؤساء المدن والوفود على مكانتهم ، وقد بدأ نوع من التمرد فى أواخر حياة الرسول فى بنى حنيفة كما ذكرنا من قبل ، وبعد وفاة الرسول اتسع نطاق هذا التمرد فشمّل بقاعا مختلفة فى الجزيرة وحمل هذا التمرد لواء الردة والتبؤ ومنع الزكاة وقامت العاصمة الإسلامية بواجبها فى ردع هذا التمرد والقضاء عليه حتى عادت الجزيرة العربية الى الطاعة (١) .

وقد حرصت الحجاز بعد ذلك على القيام بهذا الدور كلما حصل تمرد فى الداخل بشرط أن تكون الحجاز نفسها قادرة على مقاومة هذا التمرد .

وفى بعض الحالات شغلت الحجاز بصراع مع الخلافة الأموية أو العباسية ، فأتاح هذا الصراع فرصة الاستقلال التام للوحدات السياسية بنجد ، ففى عهد ثورة عبد الله بن الزبير ضد الأمويين أو ثورة الامام محمد النفس الزكية وخلفائه ضد العباسيين تم استقلال وحدات نجد عن الحجاز ، ولكنها بدأت تتعرض لزحف الشرق الذى أشرنا اليه آنفا ، فقد انتهزت الأحساء فرصة الضعف بالغرب ، وكان بالأحساء قوى تعتبر

(١) انظر حديثنا عن الصراع فى الجزء الأول من هذه الموسوعة .

متمردة على الخلافة كالزنج والقرامطة ، فانجبت هذه القوى الى غزو نجد ، على ما ذكرنا من قبل . وبخاصة أن الحجاز عقب ذلك أصبح تابعا لمصر في أكثر الأحوال ، ولم يعد له تطلعات بقلب الجزيرة العربية ، مما أتاح لقوى الشرق أن تستبدّ بمحاولة الزحف على نجد .

ومع ظهور الأتراك العثمانيين تم فصل الحجاز عن مصر ، ثم قوى نفوذ الأشراف الذين كانوا يتولون أمر الحجاز باسم العثمانيين . وعندما أحس الأشراف بنفوذهم ، تطلّعوا الى مناطق نجد وأصبحوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية من الجزيرة كما يقول جيون فيلبى ، وكانوا يقومون بالاغارة على هذه المناطق بغية تأديب أهلها حيناً ، وللماء حزائنها بالمال حيناً . وأولى هذه الغارات فيما يذكر ابن بشر تلك التى وقعت سنة (٩٨٦ هـ - ١٥٧٨ م) عندما وصل الشريف حسن أبو ندى الى الرياض بجيش عدته خمسون ألفاً من الجنود ، ورابط هناك طويلاً يقتل وينهب ، وحين هم الشريف بمغادرة البلاد عين من لدنه رجلاً اسمه محمد ابن فضل أميراً عليها وارتهن عدداً من الزعماء سجنهم عاماً ، ولكنه عاد فأطلق سراحهم بعد ذلك شريطة أن يدفعوا له جزية سنوية معينة ، وبعد انقضاء ثلاث سنوات عاد الشريف نفسه فغزا نجداً ، وقد وجه اهتمامه هذه المرة الى مقاطعة الخرج ، فاحتل مدنها الرئيسية والمواقع الاستراتيجية فى المرتفعات المحيطة بها ، ثم عاد الى بلاده تاركاً من ينوبون عنه فى إدارة شئون المنطقة (١) .

وبعد وفاة الشريف حسن تولى ابنه ادريس ، وفى عهده غزا شقيقه أبو طالب نجد سنة (١٠١١ هـ = ١٦٠٣ م) وانضم له ادريس فى هذه الغزوة فحقق انتصاراً كبيراً ، ومات ادريس فى جبل شهر ، وتولى بعده ابن أخيه محسن إذ كان ادريس قد أشركه فى الإمارة يوم تولّاها ، فلما مات ادريس استبد بها محسن دون أبناء عمه ، فقد كان أقوى رجل فى

(١) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية : ص ٧ وتاريخ بعض الحوادث الواقعة بنجد لابراهيم بن صالح ص ٤٨ .

الأشراف آنذاك ، وقد غزا نجد سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٦ م ووصل الى قرية قصب في شعييب فاحتلها وأعمل السيف في رقاب أهلها بوختية ، وقد استطاع الشريف محسن أن يصل في غزواته الى قرب الأحساء ، ويقول ابن بشر أنه لم يتفق لأحد من القادمين من الغرب أن يصل الى الأحساء غير الشريف محسن (١) .

وقد توفي محسن بعد غزوة الأحساء بفترة وجيزة ، فخلفه ابن عمه سعود بن ادريس ، ولكن اماره هذا لم تطل فخلفه زيد بن محسن سالف الذكر ، وقد طالمت مدة زيد حتى توفي سنة ١٠٧٦ هـ = ١٦٦٥ م ، وفي عهده قام بغزو نجد عدة مرات ففى سنة ١٠٥٧ هجرية نزل روضة سدير ، وقتل أميرها ، وعين أميراً يحكم باسمه من آل أبو سعيد ، وكان قاسياً بأهل البلاد قسوة بالغة الحد ، وفي نفس العام نزل (بيان) على مشارف الرياض فسلب منها وقتل . وفي أثناء عودته زار العينينة وأخذ من أهلها مالا كثيرا وثلاثمائة جمل . وفي سنة ١٠٦٩ هجرية هاجم نجدا مرة أخرى . ونزل بين التويم وجالجل .

وفي سنة ١٠٨٤ هـ غزا الشريف بركات مناطق (حَرَب) وانتصر انتصارا كبيرا على أهلها . ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ان خنادقهم التى حفروها لم تتفهم ، وكانت قبورا لهم واستبيجت أموالهم وديارهم ، ونهبت أموالهم ، وقتل خيارهم (٢) .

وفي سنة ١٠٨٨ هـ غزا الشريف محمد الحارث منطقة « الظفير » وقتل غانم بن كاسر رئيس الفضول ، وتسمى هذه الغزوة (مناخ الضلفة) والضلفة ناحية من نواحي القصيم .

وفي سنة ١١٠٥ هـ هاجم سعد بن زيد صاحب مكة بلاد نجد ، ووصل

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد - ج٤ ص ٤٠٣ .
(٢) تاريخ بعض الحوادث بنجد : ص ٦٥ بالهامش .

الى منطقة الحمادة ، وفي سنة ١١٠٧ هـ غزا الشريف سعد بلاد نجد ،
ونزل روضة سدير •

وفي سنة ١١١٣ هـ هاجم الشريف الحارث منطقة « الظفير » ووقعت
وقعة « السبّيع والبترا » وكان النصر فيها للشريف •

وفي سنة ١٢٠٥ هـ غزا الشريف غالب بن مساعد بلاد نجد ونهب
(ضربة) وهدمها ، وهاجم (الشّعرا) و (البرود) ولكنه لم يحقق
فيهما وطرا •

وفي سنة ١٢٦٣ هـ غزا الشريف محمد بن عون بلاد نجد ووصل الى
عنيزة ، فأرسل اليه الامام فيصل بن تركي هدية مع أخيه جلوى فقبلها
ورجع الى مكة •

ويمكن أن يعد الزحف المصرى على نجد الذى سنتحدث عنه فيما
بعد ، لونا من ألوان زحف الغرب على قلب الجزيرة العربية ، فإن محمد
على احتل الأحجاز أولا واتخذ مكررا لزحفه على نجد •

ولعل من آثار الزحف الخارجى على بلاد نجد تلك الكتابات الأثرية
التي توجد في عدة مناطق بنجد ، وتوحى بأنها بقايا زحف ، أو بقايا
كشف على أحسن تقدير ، وقد أشارت ليدى بلنت^(١) الى بعض هذه
الكتابات الأثرية في رحلتها بنجد فذكرت أن هناك في النفود بقايا بعض
حروف قديمة محفورة على الصخور من نفس النوع الذى يوجد في
سيناء ، وهناك أيضا في بلدة « عقدة » صخور من الجرانيت التي توجد
كثيرا بجبال سيناء ، وعلى واحدة من هذه الصخور نُقِشت كتابة عربية
غير جيدة الوضوح هي : « هذه خربة سنحاريب^(٢) » وليس من المؤكد

(١) رحلة الى نجد : في صفحات متعددة •

(٢) سنحارب ملك آشور (٧٠٥ - ٦٨١ ق م) •

أن سنحاريب اتخذ يوما طريقه الى نجد ، وبخاصة أنه لم يكتب بلغته المسمارية .

وتتحدث كذلك هذه الرحالة عن ثل عجيب بالقرب من حائل ينتصب وحيدا في السهل ، وهو من الصخر الرملي مغطىً بنقوش وصور طيور وحيوانات ، وبه كتابة تمتاز بالوضوح والتناسق وهي بالحروف الفينيقية القديمة ، ولعل هذه الكتابات كما تقول الرحالة كانت لجماعة من الفينيقيين التجار الذين كان من عاداتهم اقتحام هذه الفيافي لعرض تجارتهم ، أو للتعرف على إنتاج هذه المناطق ، وكانوا يتوقفون على الطريق فينقشون أسماءهم اذا وجدوا صخورا لينة ، ويرسمون بعض الحيوانات .



وهكذا تعرضت نجد إلى زحف من المغرب كما تعرضت إلى زحف من الشرق ، ولكنه كان زحفا كما حددناه من قبل لا يقصد إلا التهديد أو ضمان التبعية العامة ودفع الزكاة ، وفي كل الأحوال كانت وحدات نجد تتمتع باستقلال ذاتي ، عندما ترتبط بقوة قاهرة ، ولكن هذه الوحدات كانت تعمل على أن تستعيد استقلالها التام ، وتتخلص من كل قوة دخيلة ، فبلاد نجد — كما تقول ليدي آن بلنت — لم تخضع لحكم أجنبي ، ولم تدخل قط ضمن نطاق الامبراطوريات التي كانت تحيط بها ، وقد ظل الحرص على الاستقلال دستور الحياة في نجد حتى جاء الاسلام فخضعت نجد للدولة الاسلامية ، ولكنها كانت أسرع أجزاء الدولة الاسلامية للعودة لاستقلالها القديم (١) .

وهكذا نجد أن تاريخ نجد في تلك الفترة الطويلة هو تاريخ القبائل بما بها من استقلالية وصراع ، وقد أعطينا نماذج منه يمكن أن تنطبق على باقى مناطقه ، فليس تاريخ نجد مجهولا الآن هذه هي ملامحه التي

(١) رحلة الى نجد : ص ٢٠٩ و ٢١٠ .

(م ٨ - التاريخ ج ٧)

لم تتخلف ، وليس تاريخ نجد معروفا لأن هذه المعرفة لا تبعث الضوء
بقدر ما تبعث الأسى *

وبعد ، لقد سرنا مع نجد في مسيرتها التاريخية عبر عدة قرون ،
ورأيناها تموج بالصراع والدم والقلق ثم انبثقت بها الدعوة الإصلاحية
التي نادى بها الامام محمد بن عبد الوهاب ، وآزرتها سيوف آل سعود ،
وقد آن لنا أن نتحدث عن نجد في ظل هذا العهد الجديد فنصف ما شاهده
نجد من مد وجزر حتى أقام الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية
ثابتة الأركان ، رفيعة البنیان ، قعمرت البلاد بالأمن والاستقرار ، وتكونت
الدولة بمفهومها العلمى الدقيق *

نجد وآل سعود والدعوة الإصلاحية

أشرنا فيما سبق إلى أن العثمانيين كانوا قاننين من الجزيرة العربية بالحجاز وبيعض المواقع المهمة بدائر الجزيرة ، ولم يثبدوا اهتماما يذكر بنجد ، وفي القرن الثامن عشر الميلادى انبثقت بنجد حركة جديدة استدعت قلق العثمانيين أو اضطرتهم لتغيير خططهم تجاه حكم الجزيرة العربية ، فقد ظهرت حركة دينية رفع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بها صوته والتقت هذه الدعوة الدينية بإحدى القوى الناشئة فى نجد وهى قوة السعوديين واستجاب السعوديون لدعوة الإصلاح ، وقويت الدعوة بسلطة الأمير السعودى ، وقوى الأمير السعودى بالدعوة الجديدة التى نقلته من قائد حركة قبلية ككل الحركات العربية ، إلى دعوة إصلاحية بعيدة المدى ، وحركة كهذه أقضت مضاجع العثمانيين لأنها تتنافسهم السلطان ، ولأنها أيضا وصلت لهم ولأهل الحجاز مشوّهة الصورة ، وقد تسبب عن تشويه صورة الدعوة الجديدة أن قام شريف مكة سعود بن سعيد سنة ١١٦٢ هـ باعتقال الحجاج النجديين (الموحدين) حتى لا ينشروا معتقداتهم بين أهل الحجاز وبين الحجاج الآخرين ، وقد توقف حجاج نجد بعد ذلك ، أو قلّ منعوا عن أداء فريضة الحج فترة من الزمن .

وفي سنة ١١٨٣ هـ حدثت مناوشة بين النجديين وبين فرقة عسكرية تابعة لأشراف الحجاز ، واستطاعت القوة السعودية أن تعتقل رئيس فرقة الأشراف واسمه (الشريف المنصور) ، ولكن الأمير السعودى عبد العزيز أطلق سراحه بدون فدية مما دعا الى تحسين العلاقات بعض الشيء بين حكام نجد وأشراف الحجاز ، فأذن شريف مكة بالحج لأهل نجد ، بل أرسل شريف مكة أحمد بن سعيد الى السعوديين يطلب فقيها وعالما من جماعتهم ليتناقش مع شيوخ مكة حول حقيقة الدعوة ، فاختارت السلطة فى نجد الشيخ عبد العزيز الحصين ليقوم بهذا العمل ، وسافر الى مكة حيث التقى بعلمائها ، ودارت مناقشة فى أمور ثلاثة هى :

- ١ — ما نسب للموحديين من التكفير العام للمسلمين •
- ٢ — هدم القباب التي على القبور •
- ٣ — إنكار شفاعة الصالحين •

وقد استطاع الشيخ عبد العزيز أن يشرح اتجاه الموحديين شرحا وافيا فاعترف علماء مكة باستقامة حججه ولكنهم جحدوا (١)

وقد كان هذا التصرف من الشريف أحمد بن سعيد مثيرا للعثمانيين ولبعض الأشراف ، مما دعا الى خلع الشريف أحمد بعد سنتين من ولايته وتعيين شريف آخر هو سرور بن مساعد ١١٨٦ هـ ورأى العثمانيون أن لابد من التدخل بالقوة لمنع الزحف السعودي على الحجاز إذ كان الحجاز بطبيعة الحال شديد الأهمية في نظر الأتراك العثمانيين ، وبدأ بذلك صراع طويل بين السعوديين وبين العثمانيين جعل العثمانيين يحاولون مد سلطانهم إلى نجد ، وكانوا ينتصرون أحيانا ويترجعون أحيانا ، ويتخذون من مصر والعراق والحجاز مراكز لهجومهم على نجد ، أو يتخذون أحيانا بعض القوى القبلية بالجزيرة أداة ضد السعوديين ، كما أصبح السعوديون أكثر من قوة قبلية ، بل دعوة إصلاحية كبرى تعمل على مد نفوذها ونشر مبادئها في الجزيرة العربية وخارجها

ولتوضيح هذا الصراع يجدر بنا أن نتجه بحديثنا إلى القوة السعودية التي ستصبح لها الغلبة في النهاية ، لنرى كيف انبثقت هذه القوة ، وأدوار الحياة التي أحاطت بها ما بين عسر ويسر ، وماذا حدث بينها وبين العثمانيين وسواهم من القوى التي صارعتهم بالجزيرة العربية

السعوديون *

الأمير سعود :

يستمد السعوديون تسميتهم من جدهم سعود بن محمد بن مقرن ، ويؤكد سعود هذا هو المؤسس الأول للأسرة السعودية ، على أن مقرن جد الأمير سعود ينسب له حادث مهم هو الاستقرار في وادي حنيفة ، وكان لأجداد السعوديين ارتباط ببلدة « داريا » على الخليج ، ولهذا أطلقوا على مقرهم الجديد في وادي حنيفة اسم « داريا » وقد عرفت فيما بعد باسم « الدرعية ^(١) » .

وكانت الأسرة قبل أن يستقر مقرن في « داريا » تتحرك في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية طلبا للماء والكلا فزلت حيناً خير وحيناً تيماء ، ومداخن صالح والمدينة المنورة ، ونواحي مختلفة في نجد ، ثم استقر مقرن في الدرعية ، ولا يعد مقرن مؤسساً للملك السعودي ، لأن استقراره كان أشبه باستقرار القبائل الذي يحصل من حين إلى حين ، أما الأمير سعود فقد ثبت استقراره في الدرعية ، وبنى بها دار إمارة ،

- * هناك مراجع كثيرة عن تاريخ السعوديين منها :
- | | |
|-------------------------------------|--|
| حافظ وهبة | جزيرة العرب في القرن العشرين |
| صلاح الدين المختار | تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها |
| فؤاد حمزة | قلب جزيرة العرب |
| حسين غنام | تاريخ نجد |
| عثمان بن بشر | عنوان المجد في تاريخ نجد |
| محمد طارق الافريقي | المملكة العربية السعودية بين الأمس واليوم |
| جمال الدين الشعراني | التاريخ السياسي للمملكة العربية السعودية |
| محمود شكرى الألوسى | تاريخ نجد |
| John Philby | تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب |
| | السلفية . |
| محمد عسه | معجزة فوق الرمال |
| كارل توتشل | المملكة العربية السعودية |
| ابراهيم بن صالح | تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد |
| (١) تقويم البلدان الإسلامية ص ٢٨٧ . | |

ومدة نفوذه الى ما جاورها من واحات ، وكان ذلك أساس الملك السعودي
فلا عجب أن تستمد هذه الدولة اسمها من هذا الأمير الذكى الطموح .

وأمرء السعوديين وملوكهم هم الآتى :

الدولة السعودية الاولى :

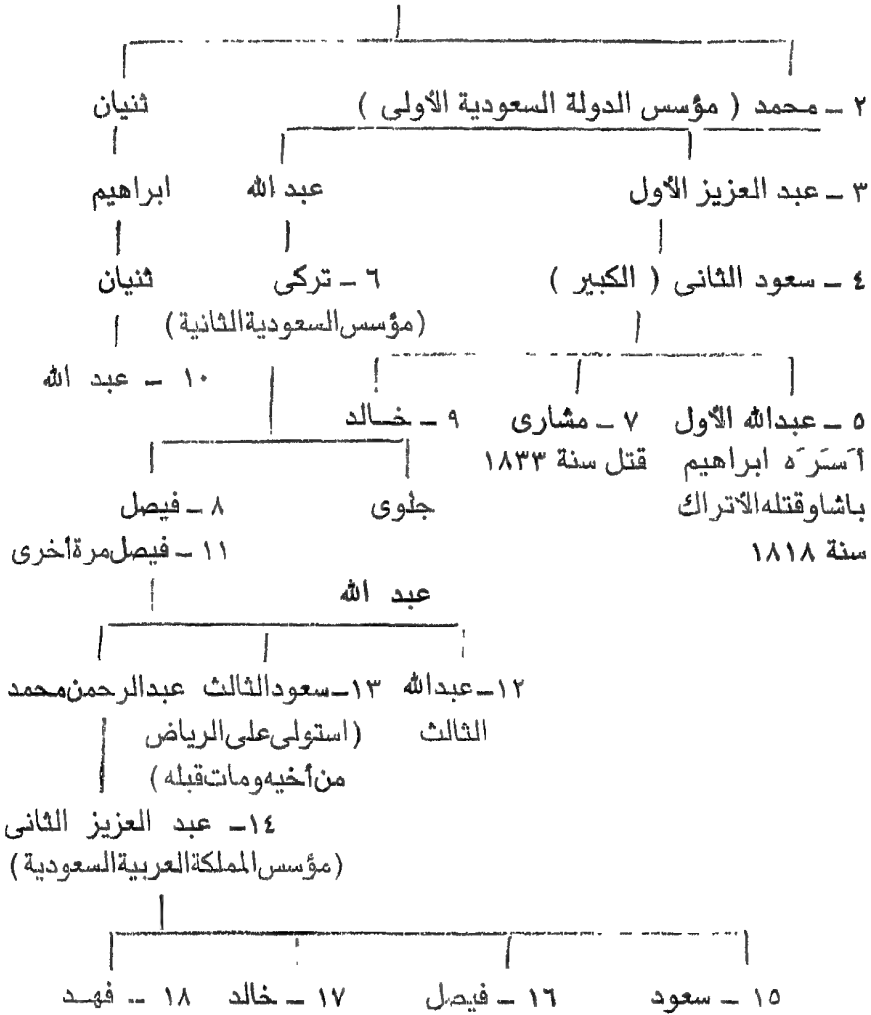
- | | |
|----------------------------|---------------------|
| ١ — سعود | إلى ١١٣٧ هـ |
| ٢ — محمد بن سعود | من ١١٣٧ هـ = ١٧٢٤ م |
| ٣ — عبد العزيز الأول | من ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥ م |
| ٤ — سعود الثانى (الكبير) | من ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م |
| ٥ — عبد الله الأول | من ١٢٣٠ هـ = ١٨١٤ م |

الدولة السعودية الثانية :

- | | |
|------------------------|--|
| ٦ — تركى | من ١٢٣٤ هـ = ١٨١٨ م |
| ٧ — مشارى | من ١٢٤٩ هـ = ١٨٣٣ م |
| ٨ — فيصل | من ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م |
| ٩ — خالد | من ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م |
| ١٠ — عبد الله الثانى | من ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م |
| ١١ — فيصل (مرة أخرى) | من ١٢٥٩ هـ = ١٨٤٣ م |
| ١٢ — عبد الله الثالث | من ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ م |
| ١٣ — سعود الثالث | (استولى على الرياض فترة من
أخيه عبد الله ثم مات قبله) |

الدولة السعودية الثالثة :

- | | |
|-------------------------|---------------------|
| ١٤ — عبد العزيز الثانى | من ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م |
| ١٥ — سعود بن عبد العزيز | من ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٣ م |
| ١٦ — فيصل بن عبد العزيز | من ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م |
| ١٧ — خالد بن عبد العزيز | من ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م |
| ١٨ — فهد بن عبد العزيز | من ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م |



وقد كتب على هؤلاء السعوديين أن يصارعوا في عدة جبهات ، وأن يحققوا أحيانا نجاحا معجزا ، وتنزل بهم أحيانا هزائم قاصمة ، ولكنهم بقوا وانتهى الآخرون ، وامتد ملكهم فابتلع المملكة الحجازية والإمارة الرشيدية ، والإمارة الادريسية ، وإمارات آل عائض تلك الإمارات التي تخلفت بالجزيرة عن عهد الأتراك العثمانيين كما سنرى •

وهكذا ورث تيار الحياة السعودي الجميع ، وعاش يتدفق في حين نضبت الفروع الأخرى ، وهوت الى الأبد •

الدولة السعودية الأولى

محمد بن سعود :

إذا كان الأمير سعود هو الذى وضع الأساس للمملكة السعودية فإن الذى رفع البناء هو ابنه محمد أو قل بوجه أدق هو الارتباط بين القوة السعودية والفكر الإصلاحى الذى حمل لواءه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فعندما لجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية واعتنق محمد بن سعود مذهبه تغير وجه الزحف السعودى فأصبح دينيا فكريا بعد أن كان قبلها ، ويقول الأستاذ حافظ وهبه (١) : قبل سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) وهى السنة التى وفد فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الكبير على محمد بن سعود لم يكن لآل سعود شأن كبير في نجد ، ولم يكن لهم دور يذكر في شؤون الجزيرة ، بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية ، وكانت الجزيرة العربية مقسمة الى مناطق عدة ، لكل منطقة أمير يمتد نفوذه أو يقصر ، حسب كفاءته الشخصية وهمته ، والأمراء البارزون في ذلك هم أمراء الحجاز وبنو خالد في الأحساء وما والاها على الخليج ، وآل معمر في العيينة ، والسعدون في العراق ، وإمام صنعاء في اليمن ، والسادة في نجران ، والبوسعيديون وسواهم في

مسقط وعمان ، وبعد أن تعاهد محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب على تطهير جزيرة العرب من البدع والخرافات التي كانت شائعة بها ، وعلى نشر كلمة التوحيد وقفت نجد أو بالأحرى وقفت الدرعية ضد سائر المدن والإمارات الأخرى ، وبدأت حرب دينية دامية كان النصر فيها لجيوش التوحيد ودعاة الإصلاح •

ويجدر بنا أن نتوقف هنا لنتعرف على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأفكاره :

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته

إذا كانت مصر سنيّة تعتنق مذهب الإمام الشافعي غالبا ، وإذا كان الشمال الأفريقي سنيا يتبع مذهب الإمام مالك غالبا ، وإذا كانت إيران شيعية •• وهكذا فإن الجزيرة العربية مهد الإسلام لم تكن على هذا المذهب أو ذلك ، بل عشت بها بقايا أفكار وحنالة اتجاهات ، يقول Gerald de Gaury (١) : كانت الجزيرة العربية أكثر البقاع الإسلامية بعداً عن المذاهب الإسلامية وجريا خلف التطرف من أي اتجاه ، ويصدق هذا على نجران والجوف ، والأحساء ونجد وغيرها •

وقد سبق أن اقتبسنا من المقدسي تصويره للتفكك الفكري بالجزيرة العربية ، وكيف عشت بها بقايا المذاهب المتطرفة والاتجاهات الشاذة ، ونتجه الآن لمؤرخي نجد لنقتبس منهم مزيدا من التفصيل عن الانحرافات الفكرية في نجد والجزيرة العربية حتى قيام دعوة الإصلاح •

يقول الشيخ حسين بن غنام :

كان كثير من المسلمين في مطلع القرن الثاني الهجري قد اركسوا في الشرك وارتدوا الى الجاهلية ، وانطأ في نفوسهم نور الهدى لغلبة

الجهل عليهم ، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعدلوا إلى عبادة الأولياء والمصلحين ؛ أمواتهم وأحيائهم ليستشفوا بهم في النوازل ويستعينوهم على قضاء الحاجات ، وتفريج الشدائد ، بل إن كثيرا منهم كان يرى في الجمادات كالأشجار والأحجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر (١) .

وكان في بلاد نجد من ذلك أمر عظيم وهول مقيم ، كان الناس يقصدون قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة يدعونه لتفريج الكرب ، وكشف ألنوب ، وقضاء الحاجات ، وكانت في الدرعية قبور بعض الصحابة ، وقد عكف أهل البلاد على عبادتها وصارت هذه القبور في صدورهم أعظم من الله خوفا ورهبة (٢) .

وتحدث المؤلف عن نظائر لذلك في شعيب وبليدة والطرفية وعن غار أسفل الدرعية ، وبعض الطواغيت ممن كانوا يتعدشون أولياء (٣) .

وانثنى إلى الحرم المكي ليذكر أن ما يفعل به يزيد على غيره ، فإن جماعات الأعراب يأتون فيه بألوان من الفسوق والضلال (٤) .

وتحدث عما يفعل عند قبة أبي طالب وقبر ميمونة بنت الحارث في سكر ، وقبر عبد الله بن عباس في الطائف وقبر الرسميل في المدينة من ضلالات وانحرافات (٥) .

ولم يكتف الشيخ حسين بن غنام بنجد والحجاز ، بل تكلم عن انحرافات وأضاليل مشابهة في كثير من الأقطار الإسلامية وأفاض في

- (١) تاريخ نجد ص ١٠ .
- (٢) المرجع السابق ص ١١ .
- (٣) المرجع السابق ص ١١ - ١٢ .
- (٤) المرجع السابق ص ١٣ .
- (٥) المرجع السابق ص ١٤ .

الكلام عما يتبع عند قبر الإمام على كرم الله وجهه ، ومشهد الإمام الحسين ، ومشهد الإمام الكاظم قد

ويقول الشيخ عثمان بن بشر النجدي ^(١) :

كان الشرك قد فشا في نجد وغيرها ، وكثر الاعتقاد في الأسجار والأحجار ، والقبور والبناء والتبرك بها والندى لها ، والاستعانة بالجن والذبح لهم ، ووضع الطعام لهم في زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم ، وكثر الحلف بغير الله ، وغير ذلك من الشرك الأصغر والأكبر ، ويذكرون من أمثلة ذلك أنهم كانوا في الجبيلة يقصدون قبر زيد بن الخطاب باعتباره مؤثلاً يحسن الأحوال ، ويجيب في الملمات ، كما كان سكان بلدة « منفوحة » عندهم فحل نخل تؤمه العوانس ليتزوجن ، وكن يهتفن به : يا فحل الفحول أريد زوجاً قبل الحول •

هذا من الناحية الدينية ، أما من الناحية السياسية فقد عادت الجزيرة العربية الى فرقة الجاهلية الأولى ، وتجددت فيها الحياة القبلية ، وعادت الحروب تأكل كل البشر والحيوان والنبات ، ولم تكن هناك شريعة أو قانون الا ما تقتضى به أهواء الأمراء وعملهم •

وكان هذا مؤثلاً حقا أن يصير الموطن الأول للدعوة الإسلامية على هذا النمط ، فقيض الله فكر الشيخ وسيف الأمير للقضاء على هذا الباطل •

مولد الشيخ وتحركاته :

وقد ولد الشيخ محمد سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) في بلدة العيينة بنجد ، وكان والده الشيخ عبد الوهاب من العلماء ، وكان قاضياً للعيينة في عهد أميرها عبد الله بن معمر ، وحفظ الشيخ محمد القرآن الكريم في مطلع العمر ، وقرأ على أبيه كثيراً من الكتب في العلوم الإسلامية ، ولما

استد عوده راح يطوف بالبلاد ليلتقى بالعلماء وليأخذ عنهم ، فذهب الى مكة حاجا وطالب علم ، كما سار الى المدينة حيث جلس في حلقة الشيخ عبد الله بن ابراهيم من آل سيف رؤساء بلدة « الجمعة » بالقرب من سدير (١) ، كما أخذ العلم عن العلامة محمد المدني ، ثم ذهب إلى البصرة وقرأ على الشيخ محمد الجموعى في بلدة « المجموعة » في ضواحي البصرة ، وامتدت رحلاته العلمية فشملت بغداد وكردستان ، وهمدان واصفهان ، ودرس الشيخ — كما يقول الأستاذ أحمد أمين (٢) — فلسفة الإشراق والتصوف ثم رحل إلى « قم » حيث التقى كذلك بعلمائها •

وعندما كان الشيخ في البصرة أحس أنه أصبح على درجة من العلم يستطيع بها أن يتكلم وأن يعطى بعد أن أخذ كثيرا ، فبدأ بجهر ناقدا الضلال الذى يراه هنا وهناك ، والانحراف الذى يتبعه الناس عن الدين الصحيح بل بدأ يقرر أن الدعوة للحق إلزام ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، وأن السكوت على هذا الإثم إثم كبير •

وأثار هذا الاتجاه الناس على الشيخ ، وتجمع أهل البصرة عليه ، وألحقوا به الأذى وطردوه •

وكان هذا أول امتحان يمر به الشيخ فيما أن يصمد وإما أن ينهار ويستسلم ويكتفى بالسخط بقلبه وهو أضعف الايمان ، ولكن الشيخ رحب بالأذى وقرر أن يدخل المعمة ، فيما أن ينتصر وإما أن يموت في سبيل الله •

وغادر البصرة حيث استكمل جولاته ، ثم هبط إلى نجد بعد المعناء الطويل الذى تعرض فيه للبطش والعدوان ، ونزل في الاحساء على الشيخ عبد الله بن محمد الشافعى الأحسائى ثم رحل الى بلدة « حريملة » التى اتخذها أبوه مقرا له بعد أن ترك العيينة إثر خلاف بينه وبين واليها ،

(١) الشهاب : لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ص ١١٤ •

(٢) زعماء الاصلاح ص ٧ •

وفي الحريملة عاد الشيخ محمد يتدارس مع أبيه علوم الدين ، ويجهر بضرورة تغيير الحال المنحرف في تلك البقاع ، وتوفى والده سنة ١١٥٣ هـ (١٧٤٠ م) فأصبحت التبعة الفكرية ملقاه على الشيخ محمد الذي منعه إجلاله لأبيه أن يسبقه في حياته إلى الجهر بدعوة يعتنقها جميعا •

وكان في حريملة ظروف دعت إلى سرعة الجهر بالدعوة ، فقد كانت تعيش فيها قبيلتان دون أن يكون بالبلدة رئيس عام ، واحدى القبيلتين تملك طائفة من العبيد الذين أظهروا العدوان وأكثروا الفسق والفجور ، فصرخ الشيخ بأن هذا منكر ينبغي القضاء عليه ، فثار عليه العبيد وقرروا الفتك به ، ولكن بعض الناس حموه وساعدوه على الخروج من حريملة سالما (١) •

ومن حريملة اتجه الشيخ الى العيينة مسقط رأسه ، فرحب به رئيسها عثمان بن حمد بن معمر ، وزوجه قرييته (الجوهرة) وعرض الشيخ على عثمان فكره وقرر له حقيقة التوحيد وحدوده ، وما ينقضه ، ودعاه إلى اعتناق هذا الاتجاه وقال له : أرجو إن قمت بنصرة لا إله إلا الله أن يظهر الله وتملك جميع بلاد نجد ، فقبل عثمان دعوته ووعدته بالعون والمساعدة ، وجهر الشيخ بدعوته فاعتنقها عدد كبير من الرجال بالبلدة ، واتجهت جموع الشيخ الى القباب التي كانت على شهاداء معركة اليمامة فهدمها وبخاصة التي كانت على زيد بن الخطاب ، كما قطع الشيخ وأعوانه أشجارا كان الناس يعظمونها وينذرون لها ، وشرع الشيخ في إقامة الحدود الشرعية وكانت معطلة ، ففضى بالإعدام رجما على امرأة زنت واعترفت بالخطيئة دون أن تكره عليها •

وأمر الشيخ عثمان بن معمر بإحياء الصلوات مع الجماعة وعُيِّن للمتخلفين عقوبات ، وألغى الشيخ الضرائب الجائرة والرسوم التي كان

(١) الشيخ حسين بن غنام : عنوان المجد ص ٧٨ وصلاح الدين مختار تاريخ المملكة العربية السعودية ص ٣٧ •

يأخذها الأمراء من الرعية ، ولم يسمح الا بأخذ الزكاة فقط على أن تصرف في مصارفها ، واستجاب عثمان بن معمر لهذه الاتجاهات القويمة وعمل على نشرها (١) .

ولكن الرواة والمعرضين شوهوا هذه الدعوة ونقلوها مشوهة إلى حاكم الأحساء سليمان بن محمد الذي كان سلطاناً قد امتد إلى كثير من بلاد نجد بما في ذلك العيينة ، وكان لابن معمر مرتب سنوي عنده باعتباره أميراً تابعاً له ، فكتب إليه يقول : « ان المطوع الذي عندك قد فعل كذا وكذا من المنكر فاقتله ، فإن لم تفعل قطعنا خراجك » ، واضطرب أمير العيينة لرسالة الأحساء ، وأحس الشيخ بذلك فاتجه إلى الأمير يقول له إن هذا الذي قمت به ودعوت له هو ركن الإسلام ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وان أنت تمسكت بذلك وأظهرته ، فإن الله يظهرك على أعدائك . فلا تنزعج بقول سليمان ولا تفزع منه .

ولكن عبد الله بن معمر لم يصنع إلى الشيخ ، وان كان لم يقتله . وأرسل له يقول : ان سليمان أمرنا بقتلك ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره لأنه لا طاقة لنا بحربه وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا ، فثأرك ونفسك ونخل بلادنا .

وهكذا لم يستطع عثمان أن ينفذ الأمر أو يرفضه فلجأ إلى الحل الوسط بأن أوغز إلى الشيخ بالهرب فاتجه الشيخ إلى الدرعية ونزل دار تلميذه محمد بن سويلم العريني ووصلت أخباره إلى رئيس الدرعية محمد ابن سعود بن مقرن ثانی أمراء السعوديين وعرفت زوجة الأمير (موسى بنت أبي وطبان) خبر مجيء الشيخ إلى الدرعية وكانت ذات عقل وروية ، فأشارت على زوجها بمقابلة الشيخ وإيوائه ومؤازرته ، فقبل نصيحتها وزار الشيخ ، وقال له أبشر ببلد خير من بلدك وأبشر بالعز والمنعة ، فأجابه

الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين لأن من قام بنصر الحق فهو منصور وكلمة لا إله إلا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك العباد . فبسط محمد بن سعود له يده وبايعه على النصرة والمنعة والجهاد في سبيل الله (١) .

السيدة موسى :

وقبل أن نتجه إلى أفكار محمد بن عبد الوهاب يجدر بنا أن نقول عن السيدة الفاضلة حرم الإمام محمد بن سعود ، إنها كانت نقطة انتقال بالفكر الإصلاحى من الضعف إلى القوة مما يدل على أننا يوم نعلم النساء سنكسب كثيرا ، فالمرأة العاقلة لها تأثير عظيم على زوجها وعلى أولادها .

أفكار محمد بن عبد الوهاب :

بعد هذا الحديث عن شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتكوينه العلمى ، ينبغى أن نقف وقفة قصيرة نعطي فيها مزيدا من التعريف بأفكار الشيخ ، وعلى العموم كان الشيخ يتخذ من ابن تيمية رائدا له ، ولهذا يجل بنا أن نعود الى كتب ابن تيمية لنستقى منها صورة للأفكار التى اقتبسها محمد بن عبد الوهاب ، وسار على هديها بنفس التشدد الذى سار عليه ابن تيمية ، بل بأكثر منه فى بعض الأحوال ، وأبرز اتجاهات ابن تيمية من أقواله هى :

أولا — بنى ابن تيمية فقهه على الكتاب والسنة ، واتجاهات السلف الصالح ، فقد فكر فى القرآن الكريم ، وتعلم على مائتته ، واجتهد فى استخراج فقهه ومعانيه ، وتعرف أحكامه ومراميه ، ولجأ الى محمد صلوات الله وسلامه عليه فى شرح كتاب الله ، كما اعتمد على من تخرجوا عليه ، ونهلوا من ينبوعه وهم الصحابة والتابعون ، وبهذا لم يتبع من الرجال

(١) تحفة المستفيد للشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى ص ١٢٦ و ١٢٧ وعنوان المجد لابن بشر من ص ١ الى ص ١١ وتاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام .

إلا السلف الصالح ، وهو في ذلك يقول : « إن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفة من المغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم ، بل الكتاب والسنة دلائل الخلق وهداياهم الى البراهين والأدلة المبيّنة لأصول الدين ^(١) ويقول كذلك في مناظرته في العقيدة : قد أمهلت من خالفني في شيء ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة الأولى يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن رأيي ^(٢) .

وعلى هذا كان ابن تيمية — كما يقول الشيخ أبو زهرة — حر التفكير من كل قيد إلا الكتاب والسنة ، وآثار السلف الصالح ، كان في نشأته حنبلياً ، ولكنه ما إن شب عن الطوق حتى درس المذاهب الإسلامية كلها . واقتبس منها ، وأضاف لها ^(٣) .

ثانياً — اهتم ابن تيمية اهتماماً كبيراً بقضية التوحيد ، وتشدد فيها ، ورأى أن الوحدانية لله سبحانه وتعالى تشمل وحدانية الذات والصفات ، كما تشمل وحدانية العبادة ، وذكر أن وحدانية العبادة تقتضي أن نعبد الله ولا نشرك به سواه ، وقرر أن الدعاء من جملة العبادات ، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم كان مبتدعاً في الدين مشركاً برب العالمين ، متبعاً غير سبيل المؤمنين ، ومن سأل الله بالمخلوقين أو أقسم عليه كان مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ^(٤) . وبنى على هذا منع التقرب الى الله بالصالحين والأولياء ، والتوسل بالموتى وزيارة القبور ، ويروى في هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « انه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » وذكر ابن تيمية أن الطلب من الأنبياء والصالحين لم يفعله

(١) رسالة معراج الوصول في مجموعة الرسائل الكبرى ص ١٨٣ .

(٢) العقيدة الواسطية ج ٢ ص ٤٠٩ من مجموع الرسائل .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ٢١٤ .

(٤) ابن تيمية : قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ١٠٢ .

أحد من السلف ، وهو ذريعة إلى الشرك بخلاف الطلب من أحدهم في حياته فإنه لا يفضى إلى الشرك (١) .

وربط بين هذا وبين النذور فانطلق يقول : ومن اعتقد أن في النذور والقبور نفعا أو أجرا فهو ضال جاهل ، وإن من يعتقد أنها تكشف الضرر وتفتح الرزق فهو كافر مشرك يجب قتله (٢) .

ثالثا — يتجه ابن تيمية إلى ترك الغلو في الرسول صلوات الله وسلامه عليه والاكتفاء بالاهتداء بهديه ، ويجيز زيارة قبره صلوات الله عليه لأن زيارة القبور بوجه عام جائزة للعبرة والاعتاظ ، ولكن على ألا تتجه الزيارة للتمسح والطلب ، فقد عدّ ذلك نوعا من الشرك .

ويذكر الشيخ حافظ وهبة أن الوهابيين تكاد تعليماتهم تكون مطابقة لما كتبه ابن تيمية ، وأنهم لا يختلفون معه إلا في بعض الفروع ، وتشدد الوهابيون في تفسير التمسح بالقبور ، وعدّوا ذلك شركا ، كما عدّوا الاستشفاع بالرسول والهتاف بالأولياء لرفع غمة شركا ، وحاربوا الموالد وألزموا بجهد من يعمل هذه الأثماء ، وفنبروا قول الرسول عليه السلام « من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم ماله ودمه » بأن ذلك مشروط بالعمل الذي تستلزمه هذه الشهادة ، أما إذا قال ذلك وعمل بسواه أى استشفع بالأنبياء ، أو دعا الموتى فهو كافر حلال الدم (٣) .

وأعلن الشيخ الحرب على البدع الشائعة في الأمصار مثل قراءة مولد الرسول والزيادات في الأذان ، وخروج النساء وراء الجنائز وإحياء موالد الأولياء ، ومثل ما يفعله بعض الدراويش من الأذكار مع الدف والمزمار (٤) .

(١) ابن تيمية : قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ١١٣ .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٥٥ .

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣٣٩ إلى ٣٤١ .

(٤) حافظ وهبة : جزيرة العرب ص ٢٤٠ - ٣٤١ .

(م ٩ - التاريخ ج ٧)

ودعاة هذه الدعوة يحرصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام الشريعة مثل تحريم لبس الحرير للرجال ، وتحليتهم بالذهب ، كما يحرمون التدخين والتصوير ، ويكرهون الموسيقى (١) .

وعلى العموم لقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب في أصولها سلفية حنبلية ، وكانت في إجمال دقيق ترى التوحيد أساس الإسلام ، وترى اللجوء للقباب والأضرحة شركاً عم بلاؤه وانتشر ، وهناك نوع آخر من الفكر عدّه الشيخ شركاً ، أو قريباً من الشرك وهو التشريعات الباطلة . ومن هذه التشريعات الذبح للقبور والنذور لها ، والتوسل إلى الله بها . ومثل هذه التشريعات المنحرفة لابدّ أن ترفض لأنها بعيدة عن العقيدة الصحيحة ورأى الشيخ أن خضوع نفوس المسلمين إلى هذه المعبودات النافهة ، وانحناءها لها خائسة طائعة هو الذى دفع هذه النفوس الضعيفة لتتحنى أمام الحكام الظالمين ، وتقبّل كل جورهم وانحرافهم ، وليس هذا وذاك من التعاليم الإسلامية في شيء .

ومن أجل عناية الشيخ بالتوحيد سُمّي هو وأتباعه « بالموحدين » أما اسم « الوهابية » فقد أطلقه عليهم خصومهم حتى يحرموهم من اللقب الذى يمثل اتجاههم .

مزيد من التفصيل

عن فقه الدعوة واتجاهها العقائدى

بقى بعد ذلك أن نذكر بعض التفاصيل عن الاتجاهات المحددة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في المجالات الفقهية والعقائدية ،

المذهب الفقهي :

كان الشيخ يستمد مذهبَه الفقهي من الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح ، وكان في الفروع الفقهية يتبع مذهب الامام أحمد بن حنبل ، ولكنه كان إذا وجد حديثاً صحيحاً يخالف مذهب الامام ابن حنبل ، فإنه يتبع الحديث ، ولا يقدم عليه قولَ باحث ، وهو في ذلك يقول : وأما مذهبنا فمذهب الامام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، وذلك في الفروع ، ولا ندعى الاجتهاد ، وإذا بانَّت لنا سنة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عملنا بها ، ولا نقدم عليها قول أحد كائننا من كان (١) .

وعن علاقته بفكر ابن تيمية وابن القيم يقول : الامام ابن القيم وشيخه إماماً حقاً من أهل السنة ، وكتبهما عندنا من أعز الكتب ، إلا أنا غير مقلدين في كل مسألة (٢) .

العقائد :

يتبع الشيخ في العقائد مذهب السلف ، وهو إقرار ما ورد من الصفات الإلهية في القرآن والأحاديث الصحيحة ، والإيمان بظواهره مع نفى الكيفية ، وهو في هذا يتبع مذهب ابن تيمية الذي يقول : ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه رسول الله صلوات الله عليه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وقد عبر الامام مالك عن رأى السلف أدق تعبير عند تفسير قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة (٣) .

(١) سليمان بن سحمان : الهدية السنية ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٣) الشيخ نعمان خير الدين الأتوسي : جلاء العينين ص ٢١٢ وانظر

محمد بن عبد الوهاب للأستاذ مسعود الندوي ص ١٨٣ - ١٨٤ .

التوحيد :

يقول الأستاذ مسعود الندوى ^(١) : لقد اهتم الشيخ اهتماما بالغاً في جميع كتبه ورسائله بالتوحيد ، بل إن كتبه كلها ليس بها إلا التوحيد ، فقد كان شعاره (لا إله إلا الله) وكان يوضح معاني هذه الجملة لكل إنسان ويسعى إلى ترسيخ حقيقتها في الأذهان ، ولذلك سميت الدعوة بدعوة الموحدين •

وبناء على اتجاه التوحيد يرى الشيخ أن الأمور الآتية تبعد عن التوحيد وتقرب من الشرك وهي :

- ١ — دعاء غير الله في المصائب أو دعاء غير الله مع الله •
- ٢ — الاستغاثة أى طلب العون من غير الله •
- ٣ — التوسل الى الله تعالى بالأنبياء والصالحين ، فهذا التوسل كأنه يحلف على الله بهؤلاء ، وليس ذلك مأثورا •
- ٤ — الاستعاذة : أى لا يجوز الاستعاذة بشيء من المخلوقين أو المخلوقات ، وتكون الاستعاذة بالله وأسمائه وصفاته فقط •
- ٥ — الحلف بغير الله فذلك ينافي التوحيد •
- ٦ — زيارة القبور لدعاء الموتى وللشفاعة بهم ، أما زيارة القبور للعظة والعبرة فهي مأثورة •

ومما يتصل بذلك عدم جواز بناء المساجد على القبور ، ولا بناء القباب عليها ، فهذا منكر يوجب الشيخ إزالته ، وقد سبق أن شرحنا ذلك •

(١) المرجع السابق ص ١٨٦ وما بعدها بإيجاز •

نقد دعوة الإصلاح :

اتجه كثير من الناس إلى نقد الدعوة الإصلاحية ، واشتط بعضهم في نقدها شططا قاسيا ، ولم يكتف بعض الناس بالنقد بل اختلقوا الاتهامات والأكاذيب ضد الدعوة ، وقد سماع عن دعوة الإصلاح أنها متشعبة ، تكفر الكثيرين من المسلمين وترى في زيارة القبور للاستشفاع كفرا واضحا ، ويدافع أحد دعاة الموحدين عنهم بقوله (١) : لم يكفر شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إلا عبادة الأوثان من دعاة الأولياء والصالحين وغيرهم ممن أشرك بالله وجعل له أندادا ، بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة ، وبعد أن بدأوه بالقتال فحينئذ قاتلهم ، وسفك دماءهم ، ونهب أموالهم •

وقد سبق أن اقتبسنا من الشيخ حسين بن غنام ، ومن الشيخ عثمان ابن بشر وصفهما لبعض أهل نجد الذين كانوا يعظمون مقبرة زيد بن الخطاب وسواها ويقفون منها موقف العبادة ، ولا شك أن الشيخ تأثر في أحكامه باتجاهات هؤلاء ، ومن الحق أن أقرر بتجربة قمت بها في مصر مرتبطة بالوفود التي تزور الصالحين في مصر كالامام الحسين والسيدة زينب وغيرهما ، وقد سألت كثيرين من هؤلاء الرواد عن مدى اعتقادهم في مكان صاحب الضريح وإمكان أن ينفع وأن يضر ؟ فأتضح لى أنهم جميعا بدون استثناء بعيدون كل البعد عن الشرك بالله ، وأنهم مؤمنون تماما بوحداية الله ، وأن الله وحده هو الذي ينفع ويضر ، ولكنهم يستشفعون بصاحب الضريح ، أخذا من قوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » (٢) فهم يأملون أن يكون صاحب الضريح ممن يؤذن لهم في الشفاعة ، وإذا كان هؤلاء مخطئين في هذا الإمل فإن ذلك لا يدفعهم إلى نطاق الشرك ماداموا بعيدين تماما عنه ، ومؤمنين بوحداية الله وبأنه وحده الذي يدبر الأمر •

(١) الشيخ سليمان بن سحمان : تبرئة الشيخين الإمامين ص ٨٦ •

(٢) آية الكرسي من سورة البقرة •

وعلى كل حال فقد تعرضت دعوة الإصلاح الى هجوم قاس من أعدائها وألّف بعضهم الكتب والرسائل في مناقشة المسائل التي أثارها الشيخ وتفنيد اتجاهاته . وقد كان منهم أخو الشيخ (سليمان بن عبد الوهاب) الذي عارضه بقسوة ، وألّف في الرد على مبادئ الشيخ كتابا اسمه (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية) ولكنه عاد وتاب وأتاب سنة ١١٩٠ هـ كما يقول ابن غنام (١) .

وفي ختام هذه الدراسة نورد نقداً أوردّه المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى وفيه يقول :

« الفكرة التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب في أصلها وفي جوهرها فكرة صحيحة ، ولكنه غلا فيها وتشدد ، حتى صار أساسها تكفير كل من لم يأخذ مأخذه ، أو يتبع تعاليمه ، واعتباره مشركا بالله ، ومن هنا جاءت تسمية الوهابيين للمخالفين لهم (مشركين) ومثل هذه الدعوة قد تصادف نجاحا ، وتجذب لها الأتباع في بلاد فطير أهلها على الخسونة والبداءة ، ولكنها تتعارض ومقتضيات الحضارة والعمران ، ومن تعاليم الوهابية تحريم لبس الحرير ، وشرب الدخان والتبّاك ، وكذلك تحريم إقامة المزارات ، ونصب القباب على القبور ، واعتبارها مخالفة لأحكام الدين ، ثم الدعوة إلى هدمها ، وغير ذلك من التعاليم المنطوية على التشدد والغلو . على أن هذا الغلو لم يسيء إلى الدعوة الوهابية ، بمقدار ما أساء إليها الإسراف في القسوة ، وأرتكاب الفظائع مع المخالفين في المذهب والعقيدة (٢) » .

ومن النقد الهادىء لدعوة الإصلاح ما ذكره الأستاذ أحمد أمين بقوله :
« لم ينظر محمد بن عبد الوهاب الى المدنية الحديثة ، وموقف الاسلام منها ، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد

(١) تاريخ نجد : ج ٢ ص ١٨٠ .

(٢) عصر محمد علي ص ٢٨ - ٢٩ .

على ، وانما اتجه إلى العقيدة وحدها ، والروح وحدها ، وعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسادا فسد كل شيء ، وطبيعي أن يكون هذا هو الفرق بين الرئيس الديني في نجد ، ورئيس الحكم في مصر (١) * .

ونضيف كذلك أن هذه الدعوة لم يكن بها دراسات عن حضارة الإسلام واتجاهاته في الفكر والسياسة والاقتصاد والتربية وغيرها ، لأن مجتمع الجزيرة آنذاك لم يكن في حاجة الى مثل هذه الدراسات ، وكان حسب الشيخ أن يعود بالمجتمع الله ، ولترك أنواع الشرك به ، سواء ارتبطت بحجر كالجاهلية الأولى ، أو بقباب وشجر كالجاهلية التي شاهدها الشيخ .

مؤلفات الشيخ وجهوده :

ترك الشيخ مجموعة مهمة من المؤلفات بعضها يرتبط بدراسات إسلامية عامة ، وبعضها يرتبط بالمسائل التي عنى بها لشرح مبادئه واتجاهاته الفكرية ، ومن أشهر مؤلفاته : كتاب التوحيد ، وكشف الشبهات ، وكتاب الكبائر ، وكتاب الإيمان ، ومختصر الإنصاف ، والشرح الكبير ، ومختصر تفسير ابن كثير ، ومختصر الفتوح ، ومختصر سيرة ابن هشام ، وكتاب المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية ، ومختصر زاد المعاد ، وله كثير من الرسائل والأجوبة ، وله كتاب في الأصول الثلاثة : معرفة الله ، ومعرفة الاسلام ، ومعرفة الرسول .

وبالإضافة إلى الكتب التي كتبها عنى الشيخ بحلقات الوعظ والدرس ، فكان يقيمها دون انقطاع ، وكانت حلقاته تمتد من الصباح الى المساء ، وكان يفد إليها الكثيرون من مختلف ألبقاع ، وكانت هذه الحلقات جذابة ممتعة تخرج فيها كثيرون من المريدين والعلماء ، وحملوها إلى بقاع مختلفة .

تلاميذ الشيخ :

ومن الشيوخ الذين أخذوا عنه : الشيخ محمد بن ناصر بن معمر والمد الشيخ عبد العزيز مؤلف « منحة القريب المجيب في الرد على عبثاء الصليب » ومنهم عبد الله بن محمد الناصري ، والشيخ عبد الرحمن بن خميس إمام مسجد الدرعية ، والشيخ عبد الرحمن بن غامى الذى تولى القضاء بالأحساء ، والشيخ محمد بن سلطان وقد تولى قضاء الأحساء أيضا ، والشيخ حسن ابن عيدان ، وكان قاضيا في حريملاء ، والشيخ عبد العزيز بن سويلم وكان قاضيا في القصيم ، والشيخ محمد بن راشد العريبي وكان قاضيا في ناحية سدير •

وفي قمة من تأثر بالشيخ وحمل دعوته إلى الآفاق أبناءه وأحفاده ولا يزالون يباشرون هذا الجهد بهمة عالية ونجاح موفور •

رسائله وبعوثه :

وعنى الشيخ كذلك بإرسال الكتب والبعوث للرؤساء والقضاة بنواحي نجد ، فاستجاب البعض له ، واتجه آخرون للتكفل لمحاربة دعوته الجديدة ، وحيث أعلن الشيخ أن الجهاد للدعوة شيء واجب ، وتعاونت الكلمة مع القوة في الزحف الجديد ، وأصبح حملة الدعوة جنود الله بعد أن كانوا جنود ابن سعود ، وهذا الاتجاه ضمن للزحف كثيرا من النجاح ، ويقول بعض المفكرين : إن الامتزاج بين القوة السعودية والدعوة الإصلاحية كان تاما لدرجة أن صار وصفاً وهابى ونجدى مستخدما للدلالة على معنى واحد (١) •

وفاة الشيخ :

توفي الشيخ في ذى القعدة سنة ١٢٠٦ هـ (يوايو ١٧٩٢) ، وله من العمر أكثر من تسعين سنة هجرية بعد أن اشتغل بالدعوة والارشاد مدة خمسين سنة متتالية ، وقد عظم شأن الشيخ في حياته ، ولكنه مع هذا ظل

زاهدا راضيا بالقليل ، وقليل من الناس من قنع بمثل هذا الاتجاه
القويم •

والآن بعد أن اتحدت الفكرة والقوة نستطيع أن نتابع هذا الزحف
الواعى وهو يحقق صورا عظيمة من النجاح •

عودة الحديث عن محمد بن سعود :

عندما شاعت مبادئ الامام محمد بن عبد الوهاب فى الدرعية ،
وزاعت بيعة الأمير محمد بن سعود له بدأ أهل الدرعية يفدون له مؤيدين
مبايعين ، وسرعان ما أصبحت الدرعية مركزا قويا للدعوة الجديدة ،
وعرف أهل العيينة ذلك فانتقل منها إلى الدرعية كثيرون من تلاميذ الشيخ
ومريديه الذين التفوا حوله إبان إقامته بها ، بل إن عثمان بن معمر أسف
على ما حدث منه ، وكتب للشيخ يعتذر له ، ويطلب منه العودة إلى
العيينة مسقط رأسه ، ولكن الشيخ لم يستجب له •

واتجه الشيخ ومريده إلى نشر الدعوة خارج الدرعية وسرعان ما
التحق بها أمير العيينة وعاهد الشيخ على إقامة الحدود الشرعية (١) ،
كما جاء أهل حريملاء إلى الشيخ وبايعوه أيضا •

وعنى الشيخ عناية كبيرة بشرح الإسلام الصحيح للمريدين الذين
توافدوا عليه من كل البقاع ، فأصبح بيته أشبه بمعهد علمى يتربى فيه
دعاة الإسلام وتلاميذ الدعوة الجديدة ليخرجوا منه إلى مختلف البقاع
ما استطاعوا لذلك سبيلا •

صراع من أجل الدعوة :

وبجانب نشر الدعوة بالفكر والموعظة الحسنة ، قام محمد بن سعود
وابنه عبد العزيز فى حياة أبيه ، بألوان من الصراع ضد الذين هددوا
الدعوة أو حاولوا خنقها ، ففى ١١٦٠ هـ غزا عبد العزيز بن محمد بن

(١) لم يخلص عثمان للدعوة إخلاصا تاما ، بل إنه تمرد أحيانا
عليها كما يقول مؤرخوها •

سعود ومنعه عثمان بن معمر رئيس العيينة منطقة ثرمدا ، وهزموا أهلها ،
وتسمى هذه الوقعة وقعة البطين •

ولما قتل عثمان بن معمر سنة ١١٦٣ هـ ، وتولى مكانه مشارى بن معمر
رئاسة العيينة ظل على ولائته للدعوة ، وأشترك مع عبد العزيز بن محمد
ابن سعود سنة ١١٦٤ هـ في معاودة الهجوم على ثرمدا التي وقفت من
الدعوة موقف المعارضة ، وتسمى هذه الوقعة وقعة (الوطنية) وقد قتل
فيها عدد كبير من أهل ثرمدا •

وفي سنة ١١٧٧ هـ أي قبل وفاة الأمير محمد بن سعود بعامين
استطاع عبد العزيز بن محمد أن يستولى على بعض بلدان « سدير » •

على أن أشد معركة عاناها آل سعود في حياة الأمير محمد بن سعود ،
كانت معركتهم ضد أمير الرياض « دهام بن دواس » الذي كان يبتلى
الموحدين في الرياض ومنفوحة بأنواع المصائب والحن وما كان لهم أي
ذنب سوى أنهم انخرطوا في سلك دعوة التوحيد واتبعوا الشيخ في
دعوته • فاضطر الشيخ والأمير إلى المقاومة ، وقد دام الصراع بين القوتين
فترة طويلة ، ولم تسقط الرياض في أيدي آل سعود إلا بعد وفاة الامام
محمد بن سعود ، كما سنرى عند الحديث عن ابنه وولى عهده عبد العزيز •

عبد العزيز بن محمد بن سعود :

من الواضح للباحث في تاريخ آل سعود أن هناك نوعا من التداخل ،
بمعنى أن الصراع الذي دار في عهد الأمير محمد بن سعود كان في حالات
كثيرة بقيادة ابنه عبد العزيز ، ومثل هذا حدث بالنسبة لعبد العزيز وابنه
سعود ، فإن الأمير سعود طالما قاد جيوش أبيه ، وكسب النصر للدعوة
الجديدة ، في عهد أبيه ثم في عهده هو بعد ذلك •

وهناك شيء يلحظه الباحث مرتبطا بالعلاقة بين الشيخ محمد بن
عبد الوهاب وآل سعود ، بعد هيل أو جيلين ، ذلك هو الاتجاه نحو اختفاء

الازدواجية إذ نشأ جيل ينحدر من الاثنين بسبب المصاهرة التي قامت بين
الركنين السياسى والدينى *

وفى عهد عبد العزيز كان اتساع الدولة السعودية سريعاً وواسع
المدى ، ففي سنة ١١٨٢ هـ غزا سعود بن عبد العزيز بلدة عنيزة وانتصر
عليها ، وفى السنة التالية توجه عبد العزيز نفسه إلى القصيم ونزل بلدة
الهلالية وأخذها عنوة ، وبأيعه أكثر أهل القصيم على السمع والطاعة *

على أن أكبر نصر أحرزه آل سعود فى نجد فى هذه الفترة كان
استيلاؤهم على الرياض بعد حرب استمرت حوالى ثلاثين عاماً ، وانتهت
سنة ١١٨٧ هـ عندما يؤسس دهايم بن دواس من مقاومة آل سعود فخرج من
الرياض واتجه الى الأحساء ، واستولى عبد العزيز بن محمد بن سعود
على الرياض وذلك بعد قتال مرير ووقائع عديدة ، وكان سقوط الرياض
فى يد آل سعود يشعبر خاتمة المقاومة العنيدة فى نجد ، فلم تستطع أقاليم
نجد بعد ذلك أن تقاوم دعوة الإصلاح وسيوف آل سعود ، ففي سنة
١١٨٩ هـ تم النصر على بريدة ، وفى سنة ١١٩٠ هـ أغار عبد العزيز على
عربان آل مرة فى الخرج ، وفى سنة ١١٩٣ هـ استولى سعود بن عبد العزيز
على بلدة حرمة ، وفى سنة ١١٩٦ هـ أخذ سعود بن عبد العزيز المصبة
من مطير وفى سنة ١٢٠١ هـ هدم عبد الله بن رشيد أمير بلدة عنيزة « الجناح »
فى عنيزة تجملاً مع ابن سعود بسبب خروج أهل الجناح على دعوة
الإصلاح ، وفى سنة ١٢٠٥ هـ أغار سعود بن عبد العزيز على شمر
ومطير وانتصر عليهما *

ومن الواضح أن انتصارات آل سعود كانت تعترتها نكسة أحياناً
فتراجع ، ولكنها سرعان ما كانت تنشط من جديد وتستعيد الزمام *

وعندما توفى الإمام محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦ هـ كانت نجد
كلها تقريباً خاضعة لآل سعود ، وتابعة لدعوة الإصلاح *

وقد بدأ عبد العزيز بعد أن امتد سلطانه على نجد يغير على المناطق المحيطة بنجد ، وقد شملت غاراته هذه الاحساء والعراق وعمان وغيرها ، فقد استولى سعود بن عبد العزيز سنة ١٢٠٧ هـ على الحساء والمقطيف ، بهد وقعة « الشَيْط » وزال ملك آل حميد من بنى خالد عن الحساء والمقطيف ، وكانوا قد استولوا على هذه المناطق سنة ١٠٨٠ هـ .

وفي سنة ١٢١٧ قصد عبد العزيز أرض كربلاء ونازل أهلها واستولى عليها .

أما عن الحجاز فقد شهدت سنة ١١٩٧ هـ توقيع صلح بين الأمير عبد العزيز والشریف سرور بن مساعد الذى جاء بعد أحمد بن سعيد الذى سبق أن ذكرنا أنه استدعى بعض علماء نجد لمناقشة علماء الحجاز حول الدعوة الإصلاحية وبمقتضى هذا الصلح سُمحَ للنجديين بأداء فريضة الحج ، ويقول ابن غنام « فشمر المسلمون وانتهزوا فرصة هذه الرخصة فحجوا ذلك العام ، وكانوا نحو ثلاثمائة من الأنعام ^(١) » .

وهكذا كان مثلك السعوديين عندما مات الأمير الثانى عبد العزيز بن محمد بن سعود (١٢١٨ هـ = ١٨٠٣) واسع الرقعة ممتد الأطراف ، وقد تحققت بعض هذه الانتصارات على يده ، وتحقق الكثير منها بقيادة ابنه الأمير سعود الذى كان خير عونٍ لأبيه فى صراعه السياسى والعسكرى ، وكانت وفاة الأمير عبد العزيز غيلة ، فقد قتله أحد شيعه العراق انتقاما لما قام به الأمير من هجوم على الأماكن المقدسة لدى الشيعة بالعراق .

سعود الكبير :

استكملت الدولة اتساعها فى عهد الأمير سعود ، ولذلك اصطلح على تسميته سعود الكبير ، إذ دانت له عمان واليمن واستولى على تيماء وخيبر وفتح الحجاز ، ووضع الحرمين تحت حمايته وكان احتلاله لمكة سنة ١٨٠٦

(١) روضة الأفكار : ج ٢ ص ١٣٤ .

ميلادية وأبقى الشريف غالب ، في مكانه (١) • وامتد سلطانه الى نجران وعسير •

ووصلت دولة السعوديين بذلك الى أقصى اتساعها ، وهددت بلاد الشام •

وفي الحجاز واجهت الدعوة الجديدة كثيرا من الأماكن المقدسة ، ونفكّت دون تسامح منهاجها كاملا ، فهدمت القباب الأثرية بمكة ، كتبة السيدة خديجة ، وقبة المكان الذي ولد فيه النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي المدينة أخذ السعوديين الحلى والذخائر التي كانت في ضريح الرسول ، ودمروا القباب ، وأزالوا المصاطب بقبور البقيع ، وقد أحس كثير من المسلمين بالأسى لهذا التصرف ، وإن اختلف سبب حزنهم ، فمنهم من كان حزنه لضیاع معالم التاريخ ، ومنهم من كان حفيّا بالفن الإسلامي ، ومنهم من رأى في ذلك جرحاً لعاطفته الدينية •

بيد أن الذي يقرأ عن الاشراف بالحجاز في هذه الفترة ، وعن أعمالهم لا يبسه إلا أن يحس بضرورة الحركة الإصلاحية لإزالة الآثام التي كانت سمة العصر بالأرض المقدسة ، وكان الجبرتي معاصرا لهذه الأحداث ، وهو يقول عنها : وفي هذه الأيام أيضا وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسألة الشريف غالب للوهابيين ، وذلك لشدة ما حصل بالحجاز من المضايقة الشديدة ، وقطع الجالب عنه من كل ناحية حتى وصل ثمن الأردب

(١) أشراف الحجاز في هذه الفترة هم :

أحمد بن سعيد	١١٨٤ هـ
عبد الله بن حسن	١١٨٤ هـ
أحمد بن سعيد (مرة أخرى)	١١٨٤ هـ
سرور بن مساعد	١١٨٩ هـ
عبد المعين بن مساعد	١٢٠٢ هـ
غالب بن مساعد	١٢٠٢ هـ
يحيى بن سرور	١٢٢٨ هـ

المصري من الأرز ٥٠٠ ريال ، والأردب من البر ٣١٠ ، وقس على ذلك السمن والعسل وغير ذلك ، فلم يسع الشريف إلا مسألتهم والدخول في طاعتهم ، وسلوك طريقتهم ، فأخذ دعائهم العهد عليه ، وألزموه بأن يأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها ، ومنع شرب الأراجيل في المسعى بين الصفا والمروة ، كما ألزموه بأن يأمر بملازمة الصلوات في الجماعة ، ودفع الزكاة ، وترك لبس الحرير ، والمقصبات ، وإبطال المكوس والمظالم ، وكان الأشراف قد خرجوا عن الحدود في ذلك حتى أن الميت كان يتحتم أن يدفع عليه إتاوة حتى يسمح بغسله ودفنه ، كما ظهرت أنواع أخرى من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثها الأشراف على المبيعات والمشتريات ، على البائع والمشتري ، وكثرت مصادرات الناس في أموالهم ودورهم حتى كان الشخص يفاجأ وهو جالس في داره بأنها أصبحت ضمن أملاك الشريف وعليه إخلاؤها حالا ، إلا أن يصلح عليها بمقدار ثمنها أو أكثر ، وقد التزم الشريف غالب أن يترك ذلك كله ويتبع ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز ، من إخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابية والتابعون ، والأئمة المجتهدون آخر القرن الثالث وترك ما حدث في الناس من الالتجاء إلى غير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد والملمات ، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف ، وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور وغيرها ، وعمل الأعياد لأصحاب هذه القباب وما يتبع ذلك من اختلاط الرجال بالنساء في هذه الأعياد ، وتعهد الشريف غالب بهدم القباب المبنية على القبور والأضرحة ، والقضاء على كل المستحدثات (١) .

وبسيطرة السعوديين على الحجاز امنت السبل ، وانقطع قطاع الطرق الذين كانوا ينتشرون في طرق الحجاز ، وتبع ذلك أن انخفضت الأسعار

وكثرت الأطمعة ، وعاد النشاط الاقتصادي الى طبيعته ، ومع ذلك فقد ظل الشريف غالب يأخذ العشور من التجار ، وكان إذا نوقش في ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين (١) .

وهكذا اهتم آل سعود بنشر العقيدة الإسلامية والقوانين الإسلامية السلفية في كل المناطق التي خضعت لنفوذهم ، ومن ثم اختفى من هذه المناطق شرب الخمر والسرقة وقطع الطريق ، وكانت وسيلة الأمير سعود للوصول إلى الأمن والنظام أن ألقى مسؤولية الجرائم التي تقع في أية منطقة على شيخ القبيلة التي تقع هذه المنطقة تحت نفوذه ، ومن هنا جد شيوخ القبائل في الضرب على أيدي المفسدين وكف أذاهم ، وبهذا نعم الناس بأمن لم يحاموا به منذ أمد بعيد ، فأقبلوا على الدعوة الجديدة وأيدوا الحكم السعودي .

ولكن يد الإصلاح لم تمتد الى الحياة العقلية أو الاجتماعية بل ربما عارض الشيوخ أى تطور من هذا النوع ، وقد ظل موقفهم كذلك حتى عهد الملك عبد العزيز آل سعود الذى تغلب على هذا الاتجاه خطوة خطوة فأخذت مظاهر المدنية تعرف الطريق إلى الجزيرة العربية .

وقبل أن نترك دعوة الموحدين نذكر أن صداها انتشر الى عدة أقطار إسلامية ، وكان موسم الحج أعظم مناسبة لذلك ، فسرعان ما ترددت أفكارها في الهند على يد زعيم اسمه الحاج أحمد ، وحملها السنوسى إلى شمال أفريقية وعننى الشوكانى باليمن بدراستها وشرحها .

على أن صوت الامام محمد عبده بمصر كان من أعلى الأصوات بأفكار هذه الدعوة ، ولكنه ضم لمحاربة البدع الأخذ بوسائل المدنية الحديثة ، فكان صوته بذلك يناسب مصر ، ويناسب البلاد التي فتحت أبوابها للمدنية الحديثة .

القوى المضادة

لا شك أن هذا النجاح العظيم أثار ألوانا من السخط في جبهات مختلفة ، كان في مقدمتها العثمانيون الذين كان انتزاع الحجاز من سلطانهم يعد تهديدا خطيرا لمكانتهم كخلفاء المسلمين ، ثم ان السعوديين أرادوا أن ينفذوا تفكيرهم مع المصريين والأتراك ، فرفضوا قبول المحمل ومنعوا الطبول والاحتفالات التي كانت تتبع مع تسليم كهوة الكعبة ، وعدوا ذلك من الانحراف ، وتسبب عن ذلك توقف الحجاج المصريين والسوريين ، ويقول ابن بشر ^(١) : ان سعودا حشد جيوشا عظيمة لمنع الحجاج القادمين من الشام وإستانبول ، لأن سعودا خشى مكاييد الشريف غالب بمكة ، وأخرج سعود ذلك العام من كان في مكة من الأتراك ، كما أخرج منها من كان بها من العساكر التركية .

وقد أثار هذا التصرف السعودي الأتراك ، واعتبر ذلك تمردا وبخاسة بالنسبة للحجاز فهو مكان مقدس لدى المسلمين ، ولا تستقيم لهم الخلافة الإسلامية بدونه ، ثم إن الدولة السعودية ضربت العراق وتطلعت إلى الشام ، وكل هذا أقض مضجع العثمانيين ودفعهم لمقاومة عنيدة ، وقد دخلوا هذا الصراع بقواهم المباشرة ، وتطلعوا لا إلى استعادة الحجاز فحسب بل إلى الاستيلاء على نجد والقضاء على السعوديين ، ودخلوا هذا الصراع بقوى غير مباشرة ، فدفعوا محمد علي باشا حاكم مصر للاستيلاء على الحجاز وضرب السعوديين ودفعوا سليمان باشا والي العراق للهجوم على نجد ، فأرسل لها عدة حملات ، إحداهما بقيادة تويني بن عبد الله والأخرى بقيادة الوزير علي كخيا ، كما حركوا القوى العربية المنافسة للسعوديين بالجزيرة وأمدوها بالمال والسلاح والخبرات لتثور على السعوديين وتستولي على بقاع من أملاكهم ، ومن هؤلاء صاحب عمان ومسقط ، والشريف غالب أمير مكة ، وآل معمر أمراء العيينة ،

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد حوادث سنة ١٢٢١ هـ .

وانضم أهل الحجاز للقوى المعادية للسعوديين ، لأن توقف الحجاج المصريين والسوريين والأتراك أضر بمصالحهم واقتصادهم ، وبقي على الولاء للسعوديين من أمراء الجزيرة صالح بن علي أمير حائل وزعيم شمر ، فقد عقد صلحا مع الأمير تركي السعودي أكسبه نفوذا قويا على أكثر الجبل وعلى القصيم •

وكان من الأسلحة التي أطلقها العثمانيون ضد هذه الدعوة ، الدعاية القاسية التي جندت لها بعض الأعلام وبعض الألسنة ، فصوّرت الدعوة على أنها بدعة منكرة ، وانحراف خشن ، وأنها حركة ضد وحدة العالم الإسلامي ، وضد المقدسات الإسلامية •

وهناك خصم عنيد آخر ظهر في الجو وهو الاستعمار البريطاني الذي كانت له مصالح هائلة في الخليج ، وكان لا يخشى على هذه المصالح ما دامت السلطات الحاكمة في الجزيرة سلطات ضعيفة ، فلما بنى السعوديون دولتهم الكبيرة القوية التزم الاستعمار البريطاني أن يتدخل لحماية مصالحه بالسياسة والخداع ان كَفَّتْ السياسة والخداع ، وبالتهديد والحروب عند اللزوم ، وعلى هذا تم تحالف بين الاستعمار البريطاني وبين سعيد بن سلطان صاحب مسقط ، وامتد نفوذ الانجليز إلى البحرين •

على أن الهجوم المصري كان أشد هجوم نزل بالسعوديين ، أما القوى العربية التي ثارت بالجزيرة فلم تكن في الغالب الا امتدادا للهجوم المصري وتنفيذا لتدبيره •

لماذا قامت مصر بزحفها على الحجاز ونجد ؟

هل كان ذلك استجابة لتعليمات الأستانة كما استجابت مصر لها فأشعلت حربا ضد اليونان ؟

أو كان رغبة من مصر لتستعيد الحجاز امتدادا للقرون الطويلة التي كان فيها الحجاز تابعا لمصر ؟ كما فعلت مصر في زحفها الى الشام لنفس الغرض وعلى الرغم من إرادة الأستانة ؟

أو كان الرغبة في التوسع كالزحف المصرى الى السودان وقلب افريقية ؟

إن بعض الباحثين يميلون للرأى الأول ، ويعتقدون أن الأستانة أرادت أن تتخلص من القوتين العربيتين : المصرية والسعودية فضربت هذه بقلك (١) ، ولكن هذا الرأى ليس بشئ لأن العثمانيين ألگبوا قوى مختلفة فى داخل الجزيرة وخارجها ضد السعوديين ، ولأن العثمانيين كذلك دفعوا محمد على لحرب اليونان دون أن يكون الهدف التخلص من قوتين عربيتين كما يتجه هذا الرأى الذى نراه ساذجا ، ولأن محمد على وافق على الصلح مع السعوديين دون أن يستشير سلاطين الأستانة ، وكان اتجاه الصلح أن يرفع السعوديون أيديهم عن الحجاز وأن ترفع مصر أيديها عن نجد وسفرى ذلك فيما بعد مقتبسا من المراجع السعودية ، ولعل ذلك يقطع دابر هذه الفرية التى تتجه الى القول بأن الباب العالى سخر مصر ليتخلص من القوتين العربيتين .

والذى نراه وتدل عليه اتجاهات التاريخ ، أن مصر كانت تتجه لتستعيد نفوذها فى الأماكن التى كانت تابعة لها خلال حقبة طويلة ، وبخاصة فى الحجاز الذى سيكسب مصر قوة معنوية كبيرة ، وقد سبق أن ذكرنا أن صلة مصر بالحجاز كانت طويلة المدى ، بدأت من عهد الاخشيديين واستمرت حتى العهد العثمانى ، وقد كان العثمانيون حريصين على حرمان مصر من الاتصال بالحجاز ، ولذلك جعلوا الحجاز ولاية مستقلة تابعة للأستانة بشكل مباشر ، ولكن مصر مع هذا ظلت فى العهد العثمانى تُعتبر المسئولة الأولى عن الحجاز ، وقد رأيناها تهب لتبنى الكعبة المشرفة عند ما تلقت الأنباء بانهايار هذا البناء المقدس ، ولم تنتظر تعليمات أو أوامر من تركيا فى هذا الشأن .

(١) فؤاد حمزة : قلب الجزيرة العربية ص ٣٠٦ وقد اقتبس الاستاذ سعيد عوض باوزير رأيه وكلماته ص ١١٨ فى كتابه : معالم تاريخ الجزيرة العربية .

وكان مما ألتهب العواطف ضد السعوديين ما سبق أن أشرنا إليه أخذاً عن ابن بشر أن سلطات السعوديين بالحجاز منعت حجاج الشام وتركيا ومصر من الدخول إلى الأرض المقدسة ابتداء من سنة ١١٢١ هـ وقد وضع ابراهيم بن صالح أن هذا التصرف استمر بعد ذلك فقال : ان سعود بن عبد العزيز حج بالناس سنة ١٢٢٢ هـ ومنع الحاج الشامي من الحج وفي سنة ١٢٢٣ حج سعود بالناس مرة أخرى ، ولم يحج أحد من الشام ومصر وتركيا تلك السنة (١) .

ويذكر الجبرتي (٢) أنه في شهر صفر سنة ١٢٢٢ هـ وصلت ثلاث سفن من جدة إلى السويس فيها أتراك وشوام وأجناس آخرون وذكروا أن الوهابي نادى بعد انقضاء الحج ألا يأتى الى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن ، وتلا في المناداة قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٣) .

ويحدد المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى أسباب الزحف المصرى على الحجاز بقوله : أن الحرب ضد الوهابيين كانت وسيلة لتوطيد مركز محمد على كما كانت وسيلة لرفع شأن مصر وإعلاء مكانتها وبخاصة أن فكرة الانفصال عن تركيا ، وتحقيق استقلال مصر كانت تملك على محمد على مشاعره ، وليس هناك من وسيلة تتعلى مكانة مصر ، وتبيلها مركزاً ممتازاً ، وتكسيبها عطف الشرق والعالم الاسلامى مثل الحرب الحجازية التى أذاع محمد على أنها ترمى إلى إنقاذ الحرمين الشريفين من تحكم فرقة به ، وترمى إلى إعادة مناسك الحج وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها .

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٣٠ وانظر الجبرتي

ج ٥ ص ٥ .

(٢) تاريخ الجبرتي ج ٤ ص ٥٤ - ٥٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ٢٩ .

ويسنمّر هذا المؤرخ فيقرر : أن محمد على خاض هذه الحرب لا لمصلحة تركيا بل تثبيتاً لمركزه وإعلاءً لشأن مصر ، وقد حققت الأيام صدق نظره ^(١) وقد ظلت مصر في الحجاز وفي غيرها من بقاع الجزيرة العربية إلى أن اضطربت الأحوال السياسية سنة ١٨٤٠ ، واضطرت مصر إلى سحب جنودها كما وضعنا ذلك عند الحديث عن تاريخ محمد على في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

تلك هي الأسباب الحقيقية لهذا الزحف وسنسير مع الزحف المصرى لنصوّر بإيجاز خطواته ونتائجه :

(١) عصر محمد على : ص ١٢٥ - ١٢٦

الزحف المصرى على الحجاز والجزيرة العربية

بدأ الزحف المصرى على الحجاز سنة ١٢٢٦ هـ = ١٨١١ ، وقد اشترك فى قيادة الجيوش المصرية فى هذا الزحف الأمير طوسون بن محمد على ، ثم سافر محمد على نفسه لإدارة المعارك ، وبعد أن عاد محمد على وعاد ابنه طوسون سافر ابراهيم باشا لإكمال الشوط ، وسنتابع فيما يلى مسيرة الجيوش المصرية فى الحجاز ونجد بشيء من الوضوح والإيجاز .

طوسون يقود الحملة :

أقفلت السفن تحمل الجنود من ميناء السويس فى سبتمبر سنة ١٨١١ قاصدة ينبع ، أما الفرسان بقيادة طوسون فقد غادروا القاهرة فى أكتوبر ، وكان يصحب الحملة طائفة من الصناع وأربعة من العلماء يمثلون المذاهب الأربعة .

وقد أحسن أهل الحجاز استقبال الجيش المصرى لأن قلة الحجاج ضيق عليهم أرزاقهم ، كما رحب الشريف غالب بالجيش المصرى لأن نفوذ السعوديين قد قضى على سلطانه .

وقد احتلت الحملة ينبع دون مقاومة تذكر ، ومن ينبع سارت الحملة برا فاحتلت وادى بدر وزحفت إلى وادى الصفراء ، وفى وادى الصفراء وقعت الموقعة الأولى المهمة بين الجيش المصرى والسعوديين وقد هُزم فيها الجيش المصرى بسبب اختلاف قواده وتقصير بعضهم من الأرنؤوط ، وقد أرسل طوسون الى أبيه بخبر هذه الهزيمة وبأسبابها ، وطلب مددا جديدا وقد تلقى محمد على هذه الأخبار برباطة جأش كما يقول الجبرتى (١) ، وأرسل المدد والأموال الى ابنه ، فاستطاع المدد الجديد

(١) عجائب الآثار : ج٤ ص ١٤٦ ويعلق المؤرخ عبد الرحمن الرافعى على ما ذكره الجبرتى بقوله : إن الجبرتى كان يعطف كثيرا على الوهابيين ، ويدافع عنهم ، وينتقد الحملة عليهم وهو الاتجاه السائد بين كثير من المفكرين .

أن يستولى على الصفراء وأن يتابع سيره إلى المدينة المنورة ، وقد استطاع في ذى الحجة سنة ١٢٢٧ هـ أن يستولى على قلعة المدينة حيث نزل أميرها على حكم طوسون ، ثم تقدم المصريون فاحتلوا الحنايكة شمالي المدينة ، وعاد طوسون بعد ذلك إلى ينبع ، وسار جنوبا إلى جدة فأخذها ، واستقبله بها الشريف غالب ، ومنها سار إلى مكة فدخلها دخول الظافر وقد عاونه في ذلك الشريف غالب وقبائل عرب الحجاز ، وكان ذلك في شهر صفر سنة ١٢٢٨ (١٨١٣) ، ومما يذكر أن الأمير سعود الكبير كان قد حج في الموسم الذي سبق هذا الشهر ، وكان الشريف غالب في معيته ، وهذا يدلنا على تذبذب الشريف ، واختلال أمره ، وبعد دخول المصريين مكة اتجهوا إلى الطائف واستولوا عليها في العام نفسه •

وفي تربة حصل لقاء هزم فيه الجيش المصري ، واعتصم طوسون وجيشه بمكة والمدينة وجدة وينبع ، وأرسل إلى أبيه بذلك ، وطلب منه مزيدا من المدد •

محمد على يقود الحملة :

لم يجد محمد على بدا من أن يسافر بنفسه ليقود ذلك الصراع وقد درس محمد على ظروف الجزيرة دراسة دقيقة ووضع خطة حاسمة لتقوده إلى الفوز ، وأبحر بجيش المدد إلى جدة ، ثم قصد مكة حيث أدى فريضة الحج ، وكان من أوائل الأعمال التي قام بها محمد على أن اعتقل الشريف غالب لأنه إرتاب في إخلاصه ، وأحس أنه يعمل لصالحه هو ، ويتمنى تدمير القوتين المتصارعتين •

وحقق محمد على ألوانا من النصر فاحتل القنفذة ، وأخذ يستعد لمزيد من التقدم ، وفي هذه الأثناء مات الأمير سعود الكبير ، وخلفه في الإمارة ابنه عبد الله •

ثم حدثت موقعة فاصلة في «بِيسَلْ» وهو وادٍ شرقي الطائف وكانت بين محمد علي وبين فيصل بن سعود ، وصارت الهزيمة على فيصل أخى الأمير عبد الله ومن معه ، وقتل منهم خلق كثير (١) ، واستولى محمد علي على بيشة ورانية ، وفي الوقت نفسه زحف طوسون إلى الرس إحدى مدن نجد المهمة وهي تقع على نحو ٢٧٠ ميلا في الشمال الشرقي من المدينة المنورة ، وقد استطاع أن يستولى عليها ، ثم أخذ الشبيبية الواقعة على طريق الدرعية ، كما استولى على الخبرا والبلاد الواقعة حولها (٢) .

وتجمعت لذلك الأسباب للوصول الى حل وسط ، فوجود محمد علي من جانب ووفاة الأمير سعود من جانب آخر ، وما تلا ذلك من انتصارات للجيش المصرى ، كل هذا دعا القوة السعودية أن تطلب الصلح وقد تم هذا الصلح سنة ١٢٣٠ هـ وهذا الاتجاه للصلح ساعد محمد علي على العودة لمصر حيث كانت تتطلبه أسباب داخلية ، فعاد محمد علي إلى مصر قبل إتمام الصلح بقليل .

أما نصوص هذا الصلح فنقتبسها من المؤلفين السعوديين :

يقول الشيخ عثمان بن بشر : في سنة ١٢٣٠ وقع صلح بين عبد الله ابن سعود وبين طوسون على وضع الحرب بين الفئتين ، وأن المصريين يرفعون أيديهم عن نجد وأعمالها ، ويرفع عبد الله بن سعود يده عن الحجاز وأن السابلة تمشى آمنة من الفريقين ، فالترك وأهل مصر والشام يمشون إلى نجد وجميع ممالك عبد الله ، والكل يحج آمنا ، وكتبوا بذلك سجلا ، ورحل جند طوسون من نجد متجهين الى المدينة ، وبعث عبد الله بن سعود بكتاب الصلح الى مصر مع وفد مصرى ، ومعهم عبد الله بن محمد صاحب الدرعية ، والقاضى عبد العزيز بن حمد ليعرضوه على محمد علي

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٤٠ . وانظر الجبرتى : عجائب الآثار ج٤ صفحات ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٧٢ ، ٢١٢ .

(٢) محمد بن عبد الله الأنصارى : تحفة المستفيد ص ١٤١ .

صاحب مصر ، فوصلوا مصر ورجعوا منها وانتظم الصلح ^(١) .

ويقول الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري ^(٢) : ان طوسون بعد أن احتل الرس والخبر وميسكه والبوصير . . . جنح الفريقان الى الصلح ، فوقع الصلح بين الامام عبد الله وأحمد طوسون على أن تتسحب القوات المصرية من جميع بلدان نجد ، وعلى ألا يتعرض الامام عبد الله للحجاز ولا لأحد من رعايا الأتراك والحكومة المصرية وكتبوا بذلك عهدا ، ورحل الجيش المصرى من الرس وتوجه إلى المدينة .

ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ، وفي سنة ١٢٣٠ قَدِمَ أحمد طوسون ابن محمد على بالعساكر العظيمة ، ونزل الرس والخبر ، وكان عبد الله ابن سعود إذ ذاك في المذنب ، فلما علم بذلك رحل من المذنب ، ونزل في بلد عنيزة ، وكانت آنذاك تابعة له ، واتخذ مزارع الحنفاوى مركزا له نحو عشرين يوما ، وكان يصابر عساكر محمد على ويجادلهم ، ثم ان الصلح وقع بين أحمد طوسون وبين عبد الله بن سعود على وضع الحرب ، وأن عساكر مصر ترفع أيديها عن نجد ، ويرفع عبد الله بن سعود يده عن الحرمين ، وكل منهم يحج آمنا . وكتبوا بذلك سجلات ، ورحل أحمد طوسون ومن معه من العساكر في غرة شعبان من هذه السنة ، وتوجهوا الى المدينة المنورة ^(٣) .

ذلك هو الصلح وتلك هى بنوده من المراجع السعودية ، فماذا حدث بعد ذلك ؟ وما الأسباب التى أدت الى نقضه ؟ .

في الاجابة عن هذا السؤال نعود للمراجع السعودية أيضا :

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد : ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ .

(٣) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ١٤١ .

يقول الشيخ عثمان بن بشر : في سنة ١٢٣١ هـ سار عبد الله بجموع رعيته وقصد ناحية القصيم ، ونزل على بلدان الخبرا وهدم سورها وسور البكيرية عقوبة لهم على ما تقدم من استدعائهم محمد على ، وأقام عبد الله أياما على الخبرا ، وقتل شاعرا من أهلها اسمه عميان قتله عبد الله بن حجيلان ، ثم سار منها متجها الى الحجاز ، وبعث جيشا أغار على الحرة بالقرب من المدينة ، وأخذوا أغناما كثيرة وشيئا من الابل ، وقبض على ثلاثة من رؤساء أهل الرس وسار بهم الى الدرعية ، ويستمر الشيخ ابن بشر قائلا ان هذه الغزوة سُميت (غزوة مكرّث) لأنه حدث النقض بسببها ، وقد ركب رجال من أهل القصيم والبوادي وزخرفوا القول لصاحب مصر ، فتلقى قولهم بالقبول ، وشمر في تجهيز العساكر إلى نجد (١) .

أما الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري فينقل رواية ابن بشر ولكنه يضيف لها جملا ذات بال ، ومن أجل هذا يجدر بنا أن ننقل كلماته : في سنة ١٢٣١ هـ سار الامام عبد الله رحمه الله بجموع من المسلمين من الأحساء وعلان ووادي الدواسر والجبل ، والجوف ونجد ، من الحاضرة والبادية ، وقصد ناحية القصيم ، ونزل قرية الخبرا وهدم سورها وسور البكيرية عقوبة لهم لأنهم دخلوا في طاعة القائد المصري ، وتأديبا لهم لئلا يعودوا لئلاها ، وقتل شاعرا من أهل الخبرا يسمى عميان ، ثم توجه إلى الحجاز ، وبعث جيشا أغار على أعراب في الحرة ، فركب رجال من أهل القصيم إلى مصر ، وشكوا إلى محمد على ما فعله بهم الإمام عبد الله ، وأنه نقض بذلك الصلح ، فشمر محمد على في تجهيز العساكر إلى نجد (٢) .

ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح : وفي سنة ١٢٣١ هـ سار عبد الله بن سعود بجنوده من البادية والحاضرة وقصد القصيم فنزل الخبرا وهدم

(١) عنوان المجد : ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ - ١٤٢ .

سورها وسور البكيرية وربط ثلاثة من رهوس الرس والخبرا ، ومنهم الأمير شارخ الفوزان أمير الرس ، وسار بهم الى الدرعية بسبب تعاونهم مع الجيش المصرى ، وسميت هذه الغزوة « غزوة محرّش » لأنه انتقض بسببها الصلح الذى بين محمد على وبين عبد الله بن سعود ، وسار رجال من أهل القصيم الى مصر وأكثروا القول عند محمد على ، فتلقى قولهم بالقبول وشمر في تجهيز العساكر إلى نجد (١) .

وبكل الحيدة يستطيع المؤرخ أن يبرز بعض النقاط من هذه المقتبسات :
أولا : كانت هناك بلدان في نجد لا تزال تحرص على وضعها الاستقلالى الذى أشرنا له من قبل ، وتعارض زحف السعوديين لها ، ومن هذه البلاد الخبرا والرس والبكيرية وغيرها من مدن القصيم .

ثانيا : تعجل الأمير عبد الله فى القيام بهذه الغزوة بعد عام واحد من الصلح وأنزل الضر بمن تعاونوا مع مصر إبان زحفها ، ويتحتم أن نتذكر أن هذا التعاون مع مصر لا يعد من الخيانة لأن كل بلدة وكل قبيلة كانت حتى ذلك الحين تحرص على استقلالها كما ذكرنا من قبل .

ثالثا : لم يقنع الأمير عبد الله بالمهجوم على بلاد نجد ، بل ترك أتباعه يقتلون ويسلبون .

رابعا : امتد زحف الأمير عبد الله الى الحجاز الذى كان الجيش المصرى معسكرا فيه بناء على الصلح السابق .

إبراهيم يقود جيش مصر إلى نجد :

ذكرنا من قبل أن محمد على عاد إلى مصر سنة ١٢٣٠ بسبب أحداث داخلية رأى أنها تستلزم عودته ، وبعد الصلح مع السعوديين عاد طوسون

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد : ص ١٤٢ .

أيضا في نفس العام ، وفي العام التالي مات طوسون وعلى هذا كان الشوط الجديد بقيادة ابراهيم باشا ، وقد نزل ابراهيم باشا المدينة المنورة وضبط ثغورها واستولى على ما حولها من القرى ، ثم سار الى الحنايكة فانحازت اليه البوادي من حرب ومطير وعتيبة والدهامشة من عنيزة ، وخرج الإمام عبد الله من الدرعية ومعه جموع غفيرة من أهل نجد وقصد الحجاز ، وجرت حروب بين الجيشين ، فانوزم الأعراب الذين كانوا مع عبد الله ، وتتابعت الهزيمة في جميع الجيش كما بقول الشيخ عبد الله الأنصاري ^(١) ، ثم سار إبراهيم من الحنايكة إلى الرس وحاصرها ولكن أهلها قاوموا الحصار وكتبوا الى عبد الله وهو مقيم في عنيزة يقولون له : اما أن يناجز ابراهيم باشا ويفك عنهم الحصار واما أن يأذن لهم في المصالحة ، وعندما لم يستطع عبد الله المناجزة تم الصلح بين أهل الرس وبين ابراهيم ، ثم دخل ابراهيم بلدة عنيزة فقابله أهلها بالطاعة والتسليم ، ووصل ابراهيم من عنيزة الى بريدة فسلمت له البلاد ، وكان كلما فتح بلدا أخذ رئيسه معه خوفا من الخيانة ، ثم حاصر بلد شقراء مدة أسبوع ، ثم تم صلح بينه وبين أهلها ودخل جميع أهل الوشم في هذا الصلح ، وسار ابراهيم باشا في بلاد نجد يفتحها صلحا وحربا حتى انتهى الى الدرعية سنة ١٢٣٣ = ١٨١٧ م ^(٢) .

وفي الدرعية واجه ابراهيم جيشا باسلا يتخذ مواقعه في حصون تحيط بالمدينة ، وكانت المدينة مسورة ، وقد حاصر ابراهيم الدرعية أكثر من شهرين ، وكان الجنود السعوديون يدافعون عن أنفسهم بجسارة وقوة ، ثم حدث أن هبت نار التهمت مستودع الذخيرة المصري ، فأصبح موقف الجيش المصري حرجا ، ويقول المؤرخون ^(٣) ان ابراهيم قابل تلك الكارثة بشجاعة وجلد ، وخطب في جنوده قائلا : لقد فقدنا كل شيء ،

(١) تحفة المستفيد : ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) الشيخ محمد عبد الله الأنصاري : تحفة المستفيد ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ص ١٦٠ .

ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا ، فلنتذرع بها ، ولنهاجم العدو بالمشاح
الأبيض ، وأخذ يشجع الضباط والجنود ، وفي الموقت نفسه أرسل يطلب
الذخيرة من المواقع التى قد تم فتحها كالشعراء وبريدة وعنيزة ومكة
والمدينة •

وقد انتهز السعوديون قلة الذخيرة لدى الجيش المصرى ، فهجموا
هجمة قوية عليه ، ولكن ابراهيم أحكم خطة القتال ، فأمر جنوده
بالاقتصاد فى استعمال الذخيرة ، واستطاع بذلك أن يرد هجمة السعوديين •

وبعد فترة وردت إلى إبراهيم الذخيرة التى طلبها من المواقع المختلفة ،
وجاءت رسالة من أبيه بأنه أمدّه بمدد باسل بقيادة خليل باشا ، ولكن
ابراهيم قرر أن يكسب النصر قبل وصول هذا المدد حتى لا يشاركه خليل
باشا فى شرفه ، فشدّد هجومه على الدرعية التى أخذت أحياءها تتساقط
الواحد بعد الآخر ، ورأى عبد الله بن سعود ألا أمل فى المقاومة فأرسل
فى سبتمبر سنة ١٨١٨ (أواخر ١٢٣٣ هـ) رسولا إلى ابراهيم باشا يطلب
وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح ، يقول المؤرخ عبد الرحمن
الرافعى : فابتهج ابراهيم باشا بهذه الرسالة ابتهاجا عظيما ، وأذن بوقف
القتال ، ثم جاء عبد الله بن سعود نفسه إلى معسكر ابراهيم باشا ، فلقاه
القائد العظيم بالحفاوة والإكرام ، وتمّ الاتفاق بينهما على أن تتسلم
الدرعية إلى ابراهيم ، وأن يتعهد بالإبقاء عليها ، وألا يرفع بالسعوديين أو
ينالهم بضرر ، وأن يذهب عبد الله بن سعود إلى مصر ثم إلى الأستانة
كرغبة السلطان ، فقبل عبد الله بن سعود هذه الشروط حماية لشعبه وبلاده ،
واستولى الجيش المصرى على الدرعية بعد حصار دام ستة أشهر ، وبعد
فتح الدرعية لم تلبث المدن الأخرى من نجد أن خضعت لما خضعت له
العاصمة (١) ، وتبعاً لهذه الشروط جىء بعبد الله بن سعود الى مصر
فأحسن محمد على استقباله ، وأكرمه ، وسفرى ذلك مفصلاً بعد قليل

تبعاً لرواية الجبرتي ، ومن مصر أرسل عبد الله الى الأستانة حيث أعدم هناك ، رحمه الله ، وسقطت بذلك الدولة السعودية الأولى .

نظرة شاملة لهذا الصراع :

في ختام هذه الدراسة نقدم بعض تعليقات حول هذا الصراع .
أولاً : إن المعروف أن الحرب تضعف المنتصر والمهزوم ، وإذا كانت هناك روابط عديدة بين الدول العربية ، فينبغي أن نصل إلى وضع حاسم بمنع أن يراق دم عربى بيد عربية ، فالقاتل والمقتول سبببان ضعفا للجسم العربى كله ، وقد قدمت مصر في معارك الجزيرة العربية فيضاً من الدماء وفيضاً من الأموال ، وكانت الفيافي والعواصف تهاك الرجال والأخائر والمؤز . ولولا ما عرف عن محمد على وابنه ابراهيم من العزم ورباطه الجأش لكان من الممكن أن تكون نتيجة هذه الحروب على غير ما كانت ، وقدم السعوديون كثيراً من التضحيات في الأنفس والأموال ، وليس لهذه التضحيات من هنا أو هناك أى طائل ، وقد استطاعت الأجيال الحاضرة أن تتناسى أهوال الماضى لأن الروابط بين مصر والسعودية أعمق وألزم للطرفين من أن تهتز بسبب هذه الأحداث ، فالحاضر والمستقبل يحتاجان الى وصف عربى واحد يتقدمه تعاون وثيق بين مصر والسعودية .

ثانياً — لقد أنصفت المراجع السعودية مصر ، وكان مؤلفوها في قمة الحياد ، والدقة التاريخية ، ولم يذكر الجبرتي ولا سواه من المؤرخين المصريين ، شيئاً عن غزوة المحرش ، وعن نقض الجانب السعودى للصالح الذى كان قد تم بين السعوديين والمصريين ، ومن هنا استحق هؤلاء المؤرخون كل تقدير واعجاب ، أما الجبرتي المؤرخ المصرى الذى عامر هذه الحرب فلم تصله آنذاك أخبار هذه التحركات بدقة ، ومن هنا لم يدون عنها شيئاً ، وعلى نهجه سار المؤرخون المصريون المتأخرون ، بل المؤرخون في العالم كله .

ثالثاً — لقد ذكرنا من قبل مذهب الشيخ محمد عبد الوهاب الذى

اعتنقته الساطة السعودية وتصرفت بمقتضاه ، فهاجمت كربلاء ومنعت حجاج الأتراك والمصريون من الحج — وتحرشت بالشام ، ولو أن قادة السعوديين آنذاك فعلوا ما فعله البطل المحنك العظيم « الملك عبد العزيز » لما قامت هذه الحروب ، فالملك عبد العزيز اعتنق فكر محمد بن عبد الوهاب ، ونفذه في بلاده ، وقدمه للآخرين دعوة خالية من العنف أو الغزو ، فلتبق المشاهد في كربلاء ، ولتبق في مصر ، والمهم أن الحج مفتوح للجميع ، وليس للحاج عندما يصل الى الديار السعودية أن يتمسح بالمشاهد أو القبور ، ولكن لا تكفير لأحد ولا منع لأحد من الحج ، والدعوة سلمية تسير دون سيف ودون إكراه ، وقد سار سيرة الملك عبد العزيز أبناؤه الملوك من بعده .

رابعا : لم تكن كل البلاد النجدية التي امتلكها السعوديون الأوائل تعد نفسها جزءا لا يتجزأ من الدولة السعودية ، بل كانت تتبعها بحكم الغزو ، كما كان يحدث دائما في الجزيرة العربية ، بدليل ما ذكرناه من قبل من أن أهل القصيم أجمعوا سنة ١١٩٦ على نقض بيعتهم للسعوديين واستعانوا برئيس الحسا والقطيف وقتلوا من عندهم من المعلمين ... فما كان أخرى السعوديين الأوائل بأن يثبتوا معتقداتهم وسلطانهم في بقاع نجد قبل التفكير في الخروج بهذه المعتقدات الى خارج نجد .

خامسا : دمر ابراهيم باشا بلدة الدرعية عاصمة السعوديين ، فقد اختار لجيشه ربوة مرتفعة تجعل الدرعية هدفا قريبا المنال ، وقد زرت هذا المكان سنة ١٩٧٦ ورأيت أنقاض الدرعية ، وإحساسنا في الجهد الحاضر يصور تصرف ابراهيم في الدرعية عنفا وقسوة ، ولكن المؤرخ ليس عادلا اذا حكم بإحساس اليوم على عمل جرى منذ أكثر من قرن ونصف ، وبخاصة إذا وضعنا في الميزان ما يقال من أن تصرف ابراهيم كان رد فعل لتصرفات مماثلة ارتكبتها القوات السعودية ضد القوات المصرية في ساعات تراجعها أو هزائمها .

سادسا : عن معاملة مصر للأسرى السعوديين نسوق دراسة أغفلها

كثيرون من الذين يعنون بإثارة الغبار ، ونعتمد في ذلك على الجبرتي وهو مؤرخ ثقة عاصر الأحداث ، وبخاصة أنه لم يكن راضيا عن الزحف المصرى على الجزيرة العربية ، وكان متعاطفا مع الفكر الذى قال به الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكان في الوقت نفسه سىء الصلة بمحمد على باشا وهذا يجعل كلامه جديرا بالقبول :

يقول الجبرتي في أحداث السابع عشر من المحرم سنة ١٢٣٤ هـ (نوفمبر ١٨١٨) :

وفيه وصل عبد الله بن سعود ، فدخل من باب النصر راكبا هجينا ، فذهبوا به الى بيت اسماعيل باشا بن محمد على باشا ، فأقام به يومه ، ثم انتقلوا في الصباح التالى الى بيت الباشا بشبرا ، فلما دخل قمام له محمد على وقابله بالبشاشة ، وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له ما هذه المطاولة ؟ فقال عبد الله : الحرب سجال • قال الباشا : وكيف رأيت ابراهيم ؟ قال : ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما كان • فقال الباشا : أنا إن شاء الله أترجى فيك عند مولانا السلطان • فقال الأمير : المقدر يكون ، ثم أجلسه الباشا خلعة ، وعاد الأمير الى مقره ببيت اسماعيل باشا •

ويواصل الجبرتي يومياته عن هذا الموضوع فيذكر أن الأمير عبد الله ابن سعود سافر يوم التاسع عشر من المحرم ١٢٣٤ الى الاسكندرية ومنها إلى دار السلطنة بالأستانة ، ومعه عدد من خدمه حسبما طلب •

وقد ذكرنا آنفا أن الأستانة قضت باعدام الأمير ونفذت ذلك القضاء ، وهو تصرف ليس غريبا على الأستانة التى كان القتل فيها عقوبة كثيرة الوقوع ، ولم يشجّر معها ما تقدم به محمد على من رجاء ، ولا شك أن الباحث يجد الفرق شاسعا بين المعاملة التى لقيها الأمير في القاهرة ، وبين تلك التى قوبل بها في الأستانة ، وهو فرق ينبىء عن صلة الدم

والعروبة بين مصر والجزيرة العربية ، فان محمد على أنزل الأمير السعودي
فد منزل يليق به ، وأحسن استقباله ، وحادثه ببشاشة ، ووعدده بالعون
لدى السلطان ، وخلع عليه ، وأحسن له ولذويه * وتلك صفات قلما نجدها
بين المنتصر والمهزوم *

أما باقى الأسرى فیتحدث عنهم الجبرتی بقوله : حضر بواقى
السعوديين والوهابية بحريمهم وأولادهم ، وكانوا نحو أربعمئة نسمة ،
وأُسكنوا بالقرب من الأزبكية من غير حرج عليهم ، وطفقوا يذهبون
ويجيئون ويمشون فى الأسواق ويشترون البضائع والاحتياجات ، وتردد
كثير من مشايخ الوهابية على العلماء والشيوخ بمصر واستمعوا إليهم
واستفادوا من علومهم (١) *

ويرى بعض المفكرين أن اللقاء العلمى بين أتباع الشيخ محمد
عبد الوهاب وبين علماء مصر أثرى الفكر الوهابى وهدأ نوعاً ما من
غلوئه ، وهذا هو السبب فى الفرق الذى اتضح فيما بعد بين هؤلاء من
جانب وبين « الإخوان » الذين سنتحدث عنهم فيما بعد من جانب آخر ،
فإن هؤلاء « الإخوان » ظلوا نشأة بدوية أميل إلى الخشونة والجفوة ،
وكانت تعارض كل إصلاح وتراه بدعة ، مما اضطر الملك عبد العزيز إلى
مصارعتهم والقضاء عليهم *

أما اللقاء السياسى بين قادة مصر وقادة السعوديين فقد برهن على
أن العلاقات بين مصر والسعوديين لها جذور طيبة ، ولا تشابهها أو تقرب
منها العلاقات بين السعوديين والعثمانيين ، أو بين السعوديين والأشراف *

سابعاً : نعيب على محمد على باشا أنه أرسل عبد الله بن سعود
إلى الأستانة ، واكتفى بالوعد بأنه « سيترجى فيه السلطان » فمحمد
على يعترف قسوة السلاحين وسهولة إراقة الدماء عندهم ، وقد كان لمحمد

(١) تاريخ الجبرتي ج٢ صفحات ٣٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ .

عَلَى وَزْنِهِ آنَذَاكَ ، وَلَوْ اَعْتَبِرَ مُحَمَّدٌ عَلَى الْإِمِيرِ السَّعُودِيِّ لَاجْتِئَا لَهُ لَكَانَ
مِنَ الْمُمْكِنِ فِيمَا نَعْتَقِدُ أَنْ يَنْقَضَ الْإِمِيرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْضَعُ فِي مِيزَانِ
الْحَسَنَاتِ لَهُ .

وَهَكَذَا زَالَتِ الدَّوْلَةُ السَّعُودِيَّةُ الْأُولَى ، وَلَكِنَّمَا وَضَعْتَ الْإِسْلَامَ الَّذِي
لَمْ يُمْكِنَ إِزَالَتُهُ ، وَعَلَى هَذَا الْإِسْلَامَ بَدَأَتْ تَقُومُ الدَّوْلَةُ السَّعُودِيَّةُ الثَّانِيَّةُ
الَّتِي آتَى الْأَوَانُ لِنَتَكَلَّمَ عَنْهَا .

الدولة السعودية الثانية

فترة صراع من سنة ١٨٢١ الى ١٨٨٩

تمكن محمد علي من الاستيلاء على الحجاز ونجد وبلاد عسير ، ولم يتقدّم هذه البلاد إلى العثمانيين بل شرع في إدارتها على وجه الاستقلال كما لو كانت خاضعة لحكمه المباشر (١) .

ولم يطل بقاء المصريين في نجد التي سيطروا عليها في سنة ١٨١٨ ، فلم تجيء سنة ١٨٢١ حتى كانوا قد بدعوا الانسحاب منها مكتفين بالحجاز وقانعين من نجد بالاعتراف الاسمي بسلطانهم ، وهكذا يؤكد وجهة النظر التي ترى أن الزحف المصري على الجزيرة العربية لم يكن استجابة لتعليمات الأستانة بقدر ما كان لدافع داخلي هو الرغبة في إعادة ربط الحجاز بمصر ، وهو ما حدث في أكثر فترات التاريخ الإسلامي .

ونقطة أخرى تؤكد هذا الاتجاه ، تلك هي بروز الصراع السافر بين محمد علي وبين الأستانة بعد ذلك ، وقد انتضح في هذا الصراع أن محمد علي حريص على أن يكون الحجاز لمصر تماما ، ولكن الدولة العثمانية كانت تدرك أن ذلك يضعف مكانتها الدينية في العالم الإسلامي ، وقد طلبت تركيا تدخل روسيا وأوروبا في هذا الصراع ، وكانت انجلترا تخشى التطور السياسي والديني للقوة الناشئة في مصر ، فأخذت جانب الأتراك مع الآخرين ، وأثرغم محمد علي على إخلاء الحجاز سنة ١٨٤٠ م وضاعت سدى تلك الدماء العربية التي أريقَت على الأرض المقدسة من المهاجرين أو المدافعين وانتهت بذلك علاقة مصر بالحجاز .

وهكذا انسحبت مصر من نجد سنة ١٨٢١ وبقيت بالحجاز حتى سنة ١٨٤٠ م ثم انسحبت منه أيضا كما قلنا ، وقد خلفهم الأشراف في الحجاز

يحكمونه باسم العثمانيين (وسنتكلم عن الأشراف فيما بعد) أما نجد فإن انسحاب مصر منها ترك بها فراغا هائلا واضطرابات جمة كتلك التي تحصل دائما وقت المحن ، فقد حاول السعوديون استعادة مكانتهم ، ولكن الصراع كان قد طحنهم ، وجعل جبهتهم مقصدعة حافلة بالفتن ، كما كانت هناك قوى أخرى في نجد وفي الأحساء نافست السعوديين ومن أهمها قوة آل الرشيد التي نمت وأصبحت خطرا على السعوديين وقد تحدثنا عنها من قبل (١) .

على أن أشق ما عاناه السعوديون كان الفتن الداخلية بين أمرائهم ، وقد سقط في هذه الفترة عدد من الأمراء كان بعضهم خفيف الوزن لا يستحق الذكر ، وكان بعضهم بطلا ولكن الظروف كانت أقوى منه ، ومن هؤلاء الأبطال الأمير تركي الذي استعاد الرياض ، واستعاد كثيرا من ملك آبائه بمعاونة ابنه فيصل ، ثم قُتل تركي غدرا بيد ابن عمه مشاري بن عبد الرحمن بن سعود ، مع أن الأمير تركي أكرم مشاري هذا عقب عودته من مصر ووفادته عليه ، ولكن الهزائم والاضطرابات تخلق الفتن ، وتخرّب الذمم ، وقد دفع هذا القاتل رأسه ثمنا لغدره ، فقد قتله فيصل بن تركي ثارا لأبيه ، وراح فيصل في إمارته الأولى (١٨٣٤ — ١٨٤٨) يواجه التفكك الذي كان لا يزال سائدا في نجد ، وكان كجده محمد بن سعود في لينة أحيانا وشجاعته أحيانا ، وقد استطاع أن يستعيد نجد كلها وينشر بها الأمن والسلام ، وأخذ يتطلع للحجاز التي كانت لا تزال تابعة لمصر ، فتصدت له مصر ، وكان مع مصر بعض النجديين بقيادة خالد بن سعود وأرسلت مصر حملة بقيادة خورشيد باشا سنة ١٨٣٨ م ولم يستطع فيصل أن يطيل أمد مقاومته لها ، فاستسلم وأرسل إلى مصر مع أخيه جلوي وولديه عبد الله ومحمد وعيكت مصر خالد بن سعود مكانة ، وبعد نهاية حكم مصر في الجزيرة العربية أي

(١) انظر حديثنا عن آل الرشيد وموقفهم من الدولة السعودية الثانية فيما كتبنا آنفا .

بعد سنة ١٨٤٠ خلع أهل نجد وولوا عبد الله بن ثنيان ، ولم يدم حكمه كذلك فترة ذات بال ، فإن مصر أطلقت فيصل فعاد هذا إلى نجد واستعاد الإمارة ، وظل بها بقية عمره ، وقد ساعده على الاستقرار نهاية النفوذ المصرى بالجزيرة ، وحسن الصلة مع الأتراك الذى عمل له فيصل ، وبعد وفاة فيصل هبت حقبة جديدة من الحروب الأهلية فى هذا العهد متمثلة فى الصراع بين ولدى فيصل عبد الله الثالث الذى تولى الإمارة أولا ، وسعود الثالث الذى اغتصب الإمارة من أخيه عبد الله فترة ، ولكنه سرعان ما مات واستطاع أولاده أن يقبضوا على عمهم ويأسروه وأن يتولوا السلطة فى الرياض ، وقد أضعف هذا الصراع شأن السعوديين وقوى جانب منافسهم محمد بن رشيد فى حائل * وانتهاز ابن الرشيد فرصة سنحت له ، فإن عبد الله الثالث استنجد به ليفك أسرهم ، فهب ابن الرشيد للرياض وفك أسر عبد الله وأخذه إلى حائل ، وقتل كثيراً من السعوديين ومكن لنفسه فى الرياض ، وأقام بها عاملاً من قبله بجوار عبد الرحمن بن فيصل (والد جلالة الملك عبد العزيز) الذى اختاره ابن رشيد أميراً للرياض ولكن عبد الرحمن لم يقبل أن يحكم الرياض فى ظل ابن رشيد ، ودار صراع فى التقسيم بين الأمير عبد الرحمن وأمير عنيزة وأمير بريدة من جانب وبين ابن رشيد من جانب آخر ، وكانت الغلبة لابن رشيد وكانت هذه آخر محاولة يستطيعها الأمير عبد الرحمن ، فلما فشلت حمل متاعه إلى الكويت حيث نزل فى ضيافة آل صباح سنة ١٨٩١ وولى ابن الرشيد محمد بن فيصل بن تركى ليحكم الرياض تحت سلطانه ، ولما مات محمد هذا استبد ابن الرشيد بالأمر ظاهراً وباطناً (١) ، وانتهت بذلك الدولة السعودية الثانية التى كانت حافلة بالاضطراب والفوضى .

ذلك تصوير سريع لتاريخ نجد من مطلع الإسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية التى آن لنا أن نتحدث عنها وعن أمجادها ، والتى

(١) سيأتى حديث خاص عن آل الرشيد فيما بعد .

كوّنت دولة حقيقية بالجزيرة العربية ، ذابت فيها المدن والقبائل ، واخفتت الميول المتعارضة ، وأصبح الكل يفخر بالانتماء لها ، وليست بها سيطرة لمدينة على مدينة ولا لقبيلة على قبيلة ، وانما السلطة للقانون ولشريعة السماء التي اتخذتها الدولة دستوراً لها ، وقد عملت المملكة العربية السعودية على الربط الشامل بين هذه الأصقاع بواسطة الطرق المرصوفة ، وبواسطة الطائرات التي تنتشر مطاراتها في مختلف النواحي بالبلاد ، بواسطة الصحافة والإذاعة •

وسيطول حديثنا عن المملكة العربية السعودية وعمّا حققت لإنسانها بوجه خاص وللإنسان العربي والمسلم بوجه عام •

المملكة العربية السعودية

الدولة السعودية الثالثة

من سنة ١٩٠١ م

دولة البطولة والاستقرار والتقدم

يرتبط قيام الدولة السعودية الثالث بشخصية تعددت فيها نواحي التفوق والجلال ، تلك هي شخصية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، لقد كان الرجل شجاعا لا يعرف التردد ، ونبيل لا ينسى وعده ولا يغدر فيه ، وكراما شديد الرغبة في العطاء ، وعبقريا يحسب خطواته بدقة .

وقد خلقت المحن هذا البطل ، ودفعته الأقدار ليلعب دورا يشبه الأبطال والأساطير .

والجزيرة العربية في مطلع القرن العشرين كانت بها قوتان كبيرتان هما السلطنة العثمانية والامبراطورية البريطانية ، وكانت هناك قوى عربية كثيرة تعبش في ظل القوتين الكبيرتين . ففي ظل العثمانيين كانت تعيش قوى الداخل ، وفي ظل الانجليز كانت تعبش القوى التي تقطن ساحل الخليج ، وبوجه الدقة كان الأشراف بالحجاز ، وآل الرشيد بمحائل والرياض ، ونائف الهزال في عنيزة ، ومحمد أبو الخيل في بريدة ، كل هؤلاء كانوا يدينون بالولاء للعثمانيين ، أما آل الصباح بالكويت ، وأمراء البحرين فكان ولاؤهم للإنجليز .

في هذا الجو وصل عبد العزيز إلى عهد الشباب ، وحمل مسئولية الصراع ، واتجه بكل قوته إلى مسقط رأسه وعاصمة أجداده إلى الرياض ، وأول معركة خاضها عبد العزيز في هذا الشأن كانت تلك المعركة التي أعد جيشها أمير الكويت واشترك فيها آل سعود ضد آل رشيد ، ولم تنجح هذه المعركة ، كما ذكرنا من قبل وكأنما أحس عبد العزيز أن نجاحها

سينقل الرياض من سلطة آل الرشيد إلى سلطة آل الصباح ، وهو يريد الرياض بجهده خالصة له ولآله ، ولأجل هذا المهدف كان لابد من خطة تجمع بين المغامرة والدقة ، بين المفاجأة والتنظيم ، ووضع عبد العزيز هذه الخطة ، وهى كما قلنا من قبل شئ أشبه بالأساطير •

لقد خرج هذا الشاب يريد تحقيق هذا الهدف الكبير بمجموعة صغيرة المدونة العنية ، ولكنها كبيرة القلوب والآمال ، لقد كان عددها سنتين شخصا ، ولكنهم كانوا من الرجال الأتداء المخلصين ، كانوا من بنى قومه ومن خلصائه ، كان منهم أخوه محمد وابن عمه عبد الله بن جلوى وعبد العزيز بن مساعد ، ووصل بهم مكانا اسمه « ذيل عشب » بضواهى الرياض فى الرابع من شوال سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١) وعسكر بهم فى مكان لا يلفت الأنظار •

وبعد أن استراح قليلا ترك منهم عشرين فارسا فى هذا المكان لحراسة مؤخرتهم ، وقال لهم اذا لم تأت لهم أخبار منه خلال أربع وعشرين ساعة فإن عليهم أن يذهبوا إلى الكويت ويخبروا والده أن ولده عبد العزيز ومن معه قد قضاوا نحبهم ، أو سقطوا أسرى بيد ابن الرشيد •

وتتقدم بالعدد الباقي قاصدا الرياض ، وقبل أن نواصل الكلام عن هذا الزحف الهادئ الهائل يجدر بنا أن نتعرف على الحالة فى الرياض آنذاك لنرى ظروف هذه المدينة التى سيقفز لها هؤلاء العمالقة •

كان ابن الرشيد قد بنى حصنا بالرياض سماه (المصمك) وأنزل به جماعة من رجاله الأتداء ، وعين لإدارة الرياض واليا من الأبطال اسمه عجلان ، وكان هذا الوالى يخاف انتفاضة الرياض ، أو يخاف أى هجوم على الرياض من الخارج ، ومن أجل هذا كان يمضى ليله فى هذا الحصن بين الجنود ، ولا يأوى إلى بيته إلا مع إشراقة الصباح وكان هذا التصرف سرا لا يعرفه إلا خاصته ، وبالتالى لم يعرفه عبد العزيز آل سعود ولا

صحبه ، وقد استلزم ذلك أن تدور المعركة على نحو غير النحو الذى خططت له ، ولبيان ذلك نعود إلى الجماعة المهاجمة بقيادة عبد العزيز لنعايشها لحظة لحظة فى تلك الأمسية التى غيرت وجه التاريخ فى هذه المنطقة .

عندما وصل عبد العزيز وصحبه الأربعون إلى سور الرياض أبقي ثلاثون بجوار السور برياسة شقيقه محمد انتظارا لتعليماته وتقدم بالعشرة الباقين ، فاستطاع بهم أن يتخطى الأسوار حتى وصلوا إلى بيت مجاور لبيت الأمير عجلان عامل ابن الرشيد ، وكان هذا البيت مملوكا لتاجر ، فعرفت زوجة التاجر عبد العزيز وأوشكت أن تصبح بين الخوف والترحاب ، ولكن عبد العزيز أمرها بالصمت الشامل ، وهدد بأن أى صوت سيجلب الضرر على صاحبه ، ولضمان الصمت دفعهم عبد العزيز إلى إحدى غرف المنزل وأقفلها عليهم ، وتسلق عبد العزيز وصحبه إلى بيت آخر مجاور لبيت الأمير عجلان ، وفيه وجد امرأة وزوجها نائمين ، فأغلق عليهما الباب كما فعل مع أصحاب البيت الأولى ، وأصبح عبد العزيز بذلك قريبا من المعمة التى كان يتوقعها ، وحينئذ أرسل إلى أخيه وإلى من معه الذين تركهم عند أسوار المدينة ليلحقوا به ، وعندما اجتمع جمعهم بدعوا يتسلقون أسوار قصر عجلان ، وكان عبد العزيز يعنفد أنه سيواجه عجلان بقصره ففضى عليه نائما أو مستيقظا ، ولكنه عرف وهو بالقصر أن عجلان لا يبيت فى المنزل ، وقد أخبرته بذلك زوجة عجلان ، ولكنه هدها بالويل والثبور إن رفعت صوتها ، وجلس عبد العزيز وصحبه يتربصون لحظة خروج عجلان من الحصن مع إشراقة الصبح .

وفتح باب الحصن وخرج منه عجلان بين عشرة من رجاله ، فدفع عبد العزيز بعض صحبه ليدخلوا الحصن وليواجهوا من بداخله ، واندفع هو ومنه بعض رفاقه لمواجهة عجلان ، ودار صراع مرير ، صراع حياة أو موت بين عبد العزيز وعجلان ، وحاول الأخير أن يرتد إلى الحصن ولكن عبد العزيز حال دون ذلك فى أول الأمر ، ولكن عجلان استطاع

على الرغم من إصابته برصاصة من بندقية عبد العزيز أن يصل إلى داخل الحصن ، بيد أن عبد الله بن جلوي لحق به وقضى عليه ، وفي هذه الأثناء كان الرصاص يندفع من كلا الطرفين ، وعندما عرف أتباع ابن الرشيد أن الأمير عجلان سقط قتيلا ضعفت قوتهم وهانت عزائمهم ، وكان عددهم حوالي الثمانين قتل أكثرهم واعتصم الباقون في برج من بروج الحصن فأمنهم عبد العزيز فاستسلموا *

ومما يذكر عن الملك عبد العزيز أنه كان لا يحب سفك الدماء إلا للضرورة القصوى ، وكان يؤمن من طلب الأمان ، ولا يعرف التاريخ أنه غدر في أمان أعطاه *

ومع إشراقة الشمس نادى المنادى بأن آل سعود عادوا إلى الرياض بقيادة عبد العزيز ، وأن عامل ابن الرشيد قد قتل كما قتل بعض رجاله واستسلم الباقون ، فضجت المدينة بالفرح والبشرى بسبب ما عاناه السكان خلال حكم ابن الرشيد ، وامتلا الجو بأهازيج الأغاني ، وزحفت جموع المهنيين تعلن الفرح والتأييد ، وقد قتل في هذه المعركة اثنان من أتباع عبد العزيز ، وجرح أربعة (١) *

وسرعان ما أخذ عبد العزيز يحصن الرياض ، ثم استدعى أباه وذويه وأتباعه ، وفي فترة قصيرة أصبحت الرياض قوة سعودية هائلة ، وقفت بصلابة أمام المحاولات المتعددة التي قام بها ابن الرشيد ليسلبها مرة أخرى ، وكانت وفود الأبطال تأتي إليه من كل الجهات تدعم جبهته وتقوى بنيانه *

وقفه عند المواقف التاريخية :

في يناير سنة ١٩٧٧ زرت « المصمك » ورأيت أبراجه ، وعشيت

(١) روى الملك عبد العزيز قصة هذا الصراع وقد تلقاه عنه عدد كبير من السامعين ودونته عدة مؤلفات *

ردحا من الزمن في المكان الذي شهد هذه المعركة التي غيرت تساريف المنطقة ، ورأيت بقايا الحراب بباب الصمك ، وقد تأسف لأن أكثر المعالم من الأسوار والهازل التي شهدت هذه الأحداث التاريخية قد أزيلت ، وحلت محلها عمارات معاصرة ، ولو كان الحس التاريخي قويا لاشتد الحرص على هذه المواقع التاريخية ، أو على أن الناس لا يحسبون بقيمة مثل هذه المواقع وهم على مقربة زمنية من الأحداث ، ولكن إذا بَعُدَ الزمن ظهرت القيمة التاريخية لهذه المواقع ، وكما أتمنى أن تعود هذه المنطقة الى ما كانت عليه ، فذلك كسب عظيم للتاريخ .

عبد العزيز يواصل جهوده :

بعد فترة رأى عبد العزيز أنه آن الأوان ليخرج من الرياض مستفيدا الملك السليبي ، فبدأت حملاته تشق الطرق ، وتبعث الضجيج في نجد ، وهاجم مقاطعات نجد واحدة بعد أخرى حتى استعادها جميعا على النظام التالي :

- في عام ١٣٢٠ هـ ١٩٠٣ م احتل واحتق الخرج والأهلاق .
- وفي عام ١٣٢١ هـ ١٩٠٤ م احتل السدير والوشم .
- وفي عام ١٣٢٢ هـ ١٩٠٥ م احتل عنيزة .
- وفي عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م احتل بريدة .

على أن المعارك التي دارت حول بريدة كانت بعيدة الأثر في حياة عبد العزيز ، وفي حياة منطقة نجد ، ففي موقعة (روضة مهنا) قرب بريدة سنة ١٩٠٦ سقط ابن الرشيد قتيلًا ، وتضعفت بموته سلطة قومه ، وتضعفت بموته كذلك أطماع العثمانيين الذين كانوا يصارعون عبد العزيز في نجد بواسطة آل الرشيد ، ولم يجد العثمانيين بدا من محاولة إجراء نوع من المصالحة بينهم وبين عبد العزيز الذي بدأ فارس الميدان وبطلًا نجد ، ولكن عبد العزيز كان لا يثق فيهم ومن هنا مرت فترة بين المشدة

والأمن ، ولكن اتجاه عبد العزيز إلى ضرورة المنصر جعل المعركة في هذه الآونة لا تهتم إلا بالسيف وهن أجل هذا كان على عبد العزيز أن يخوض في الجزيرة العربية جولات أبعد مدى ، وأشدّ قسوة ، ومناطق هذه الجولات هي :

الأحساء : حيث كان يعسكر العثمانيون •

حائل : منطقة آل الرشيد •

عمير : حيث إمارات الادريسيين وآل غانص •

الحجاز : حيث سلطة الأشراف •

وفي الصفحات التالية سنفندارس هذا الصراع منطقة إثر منطقة ، لنرى النتائج التي حصل عليها الملك البطل :

الأحساء

تضبط الأحساء بفتح الهمزة ، ويقول ياقوت (١) إنها جمع « حيس » بكسر الحاء وهو ماء المطر يهبط على أرض تنكسوها الرمال ، وتحت الرمل أرض صلبة ، فإذا نزل المطر سرعان ما يختفى بين الرمال حتى يصل إلى الأرض الصلبة فتحجزه ، ويمكن الحصول عليه بحفر الآبار ، ويكون غنيا بارداً .

ويذكر ياقوت أن البادية بها عدة أحساء وأن من أشهرها أحساء الخليج في منطقة البحرين .

ومنطقة الأحساء هذه منطقة مهمة من مناطق المملكة العربية السعودية ، وكان يحكمها الفرس قبل الإسلام ، وكان يسكن بها جماعات من عبيد قيس وبكر وتميم ، وقد أرحل لها الرسول العلاء بن عبد الله الحضرمي ، فدخلت الإسلام على يديه ، وفي الأحساء قامت دولة القرامطة ، وبعد القرامطة تنازعها الأيدى الحاكمة ، وعثت بها أيدي البدو ، وتم فتحها السعوديون في دولتهم الأولى ، ثم انفردتها منهم المصريون بعد دخولهم الدرعية سنة ١٨١٨ ، وعادت للسعوديين في دولتهم الثانية في عهد الأمير فيصل ، وظلت تحت حكم السعوديين حتى عهد ابنه عبد الله حيث استولى عليها مدحت باشا سنة ١٨٧١ باسم الأتراك وألحقها به لاية البصرة ، وأخيراً كان فتحها الثالث على يد عبد العزيز آل سعود سنة ١٩١٣ (٢) .

وقد اتبع عبد العزيز تخطيطاً دقيقاً لفتح الأحساء ، فقد سار في إحدى ليالي الربيع في سبعة آلاف من رجاله الأقوياء قاصداً المنطقة الشرقية ، واتجه إلى الهفوف مركز الإدارة العثمانية ، وقد استعان

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٣٦ .

(٢) حافظة وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٨٣ .

عبد العزيز بأعوانه من آل القصيبي ويوسف الذين كتبوا له عن مواطن الضعف وعن أصلح الأماكن للهجوم ، وقبيل الفجر كان عبد العزيز يحاصر بقواته المهائلة حامية العثمانيين ، التي فوجئت بهذا الحصار ، فلجأ عدد من الحامية وعائلاتهم الى مسجد هناك وتحصنوا فيه ، فحاصرهم عبد العزيز وهددهم فاستسلموا ، وأمنهم عبد العزيز على حياتهم وأسلحتهم الخفيفة ان خرجوا من غير قتال ، فقبلوا ذلك ، فرحلهم عبد العزيز الى (العقير) ومن هناك أعد لهم سفنا نقلتهم إلى البحرين ، ولم يسمح لهم بنقل الأسلحة الثقيلة التي كانت موجودة في الهفوف . وبسقوط الهفوف لم تستطع الحامية العثمانية في القطيف أن تقاوم ، فاستسلمت للقوة التي أرسلها لها عبد العزيز ، وسلكت الحامية العثمانية في العقير نفس المسلك (١) .

وكان فتح الأحساء ذا شأن كبير من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية ، فقد وضع السعوديون أقدامهم على ساحل الخليج مرة أخرى ، وذلك يحقق لهم مكانة سياسية واقتصادية هائلة ، ثم ان هذه المنطقة هي التي انفجرت منها كنوز البترول ، تلك الكنوز التي دفعت الخير والترف إلى مملكة آل سعود .

وتاريخ فتح الأحساء يضع مؤشرا خطيرا ، فإن الحرب العالمية الأولى كانت على الأبواب ، ووجد العثمانيون ألا مناص من وضع حد لهذا الصراع حتى يتفرغوا للخطر الأعظم الذي كان يهدد العالم آنذاك ، فاعترف العثمانيون بعبد العزيز واليا على نجد ، ومتصرفا على الأحساء ، على أن تكون ولاية نجد من بعده لأولاده وأحفاده ، ومن الواضح أن العثمانيين لم يكونوا مخلصين في هذا الاتجاه ، ولكن الضرورة ألجأتهم له ، بدليل أنهم كانوا في نفس الوقت يشجعون آل الرشيد ويمدونهم بالسلاح لمهاجمة نجد ، ومناضلة السعوديين . ولم يكن البترول قد تدفق آنذاك في منطقة الأحساء ، وهذا سهل على العثمانيين التضحية بالمنطقة .

ومن نتائج انتصار السعوديين على الأحساء كذلك أن بريطانيا بدأت تتصل بعبد العزيز ، وتدخل معه في مباحثات سياسية إذ كانت بريطانيا في ذلك الحين تحتل الكويت وتستعد كذلك لخوض الحرب العالمية الأولى ، وقد نتج عن هذه المباحثات أن عٌقدت معاهدة (العقير) بين عبد العزيز وبين بريطانيا ، وكان في هذه المعاهدة تأكيد لعبد العزيز من القوة العظمى ، وفي نفس الوقت كانت تحوى بعض القيود ضد استقلال الدولة السعودية ، ومن أجل هذا حرص الملك عبد العزيز فيما بعد على أن يتخلص من هذه القيود عندما توطدت أقدامه وساعدته الظروف على ذلك •

الحرب العالمية الأولى وأثرها على المنطقة :

انتهى عبد العزيز من الأحساء سنة ١٩١٣ كما رأينا ، وقبل أن يواصل صراعه في المناطق الأخرى بالجزيرة اندفعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فشغلت العالم كله ، ويبدو أن الدول الكبرى أرغمت الدول الصغرى على عدم إثارة المشكلات في فترة الحرب العالمية الحرجة ، فكان من الضروري أن تؤجل — إلى حين — خطوات الصراع الذى كان على السعوديين أن يخوضوه •

وكان عبد العزيز خلال الحرب العالمية الأولى حسن الصلة بالانجليز ، لأن الصلة بينه وبين العثمانيين لم تكن طيبة ، ثم ان انتصار العثمانيين كان معناه استمرار استغلال هؤلاء للإسلام للسيطرة على البلاد العربية ، وذلك ما لم يكن عبد العزيز ولا العرب يريدونه ، وانتهت هذه الحرب بهزيمة العثمانيين وبالتالي بجلائهم عن البلاد العربية كلها ، ومن ضمنها الجزيرة العربية وقد قفز على أثر ذلك شريف الحجاز يطمع في أن يحل محل العثمانيين في الجزيرة ، كما كانت هناك منطقتا حائل وعسير تنتظران جولة السعوديين ، وسنواصل فيما يلى وصف الصراع الذى عاناه الملك عبد العزيز ضد هذه القوى حتى تتضح النتائج النهائية •

آل الرشيد

في مطلع القرن التاسع عشر الميلادى كانت جبال شمر ، عاصمتها حائل خاضعة للأمير محمد بن عبد المحسن بن على ، ولكن كان هناك منافس يتطلع للسلطة ، ذلك المنافس هو عبد الله بن على بن الرشيد من عشيرة جعفر .

ولم يقو عبد الله بن الرشيد على الصراع ، فترك المنطقة ، ولجأ إلى الرياض التى كان الأمير تركى يعيد إنشائها بعد انسحاب الترك والمصريين منها ، وتقرب عبد الله بن الرشيد من فيصل بن تركى ، وصاحبه فى غزواته فى حياته أبية ، ولما قتل مشارى ابن عمه الامام تركى واستولى على الامارة بالرياض ، كان الأمير فيصل بن تركى آنذاك فى إحدى غزواته بالقطيف فعاد بسرعة الى الرياض ومعه عبد الله بن الرشيد ، وبذل هذا جهدا كبيرا للثأر للإمام القتيل ، واستقرت الإمارة لفيصل بن تركى الذى كافأ عبد الله ابن الرشيد بأن عينه حاكما على جبال شمر محل منافسه .

ولكن عبد الله بن الرشيد لم يستطع أن يحتفظ بإمارته طويلا ، فقد استعادها منافسوه بمعونة الترك ، وأرغموه على الفرار ، فأتخذ بعض القرى الصغيرة مركزا لنشاطه ، ثم حدث أن انصرف الترك والمصريون عن آل على ، فجدد ابن الرشيد صراعه ضد آل على ، ثم جاءت قوة عسكرية مصرية برياسة خورشيد باشا سنة ١٨٣٨ فقابله عبد الله بن الرشيد وأعلن له خضوعه ، وقدم له هدايا وفيرة ، فاطمأن له خورشيد وأجلسه على كرسي الامارة فى حائل ، وفر أميرها من آل على تجاه المدينة المنورة ، فقتل فى الطريق ، واستقر الأمر لآل الرشيد فى حائل ، واستطاع أن يضم لإمارته منطقة الجوف (دومة الجندل) فى وادى السرحان ، كما استطاع أن يضم بعض الواحات الشمالية ، وقد حكم عبد الله هذه الولاية حتى وفاته سنة ١٨٤٧ ، تاركا ثلاثة أبناء هم طلال ومثعب ومحمد ، وإذا كان عبد الله بن على بن الرشيد هو الذى أسس هذه الإمارة فإن طلالا ابنه

خطا بها خطوات كبيرة للأمام ووصلت القمة في عهد محمد الابن الثالث لعبد الله •

وتفصيل ذلك أنه في عهد طلال استطاع هذا أن يضم لها خيبر وتيماء بعد انسحاب الترك منهما ، وبعد طلال جاء عهد ملهى بالاضطرابات والمقتن والصراع بين أبناء طلال ومعهم متعب ، ثم قفز إلى السلطة محمد الابن الثالث لعبد الله بن على ، وقد استطاع أن يتخلص من كل منافسيه فخلا له الجوى ، وساعدته الظروف فامتد سلطانه امتدادا واسعا حتى سيطر على كل البلاد النجدية من وادى السرحان إلى وادى الدواسر ، ومن تيماء وخيبر إلى قرب الخليج وكثيرا ما امتد سلطانه إلى تدمر وجبال حوران (١) •

ثم سنحت له فرصة فاهتبلها ، وقد أشرنا لها من قبل وهى أن صراعا دار في البيت السعودى بين أولاد فيصل بن تركى ، واستتجد به عبد الله بن فيصل فذهب إلى الرياض ودخلها ثم ثبت بها أقدامه ، واثارت القصيم وعنيزة وبريدة على حكمه وتجمعوا حول عبد الرحمن بن فيصل ابن سعود ، ولكن محمد بن عبد الله بن الرشيد هزمهم ، فقد كانت الدنيا آنذاك قد أدارت ظهرها لآل سعود ، وقد اعترف عبد الرحمن بذلك فأخلى الرياض لآل الرشيد كما قلنا من قبل ، ولجأ ضيفا على أمراء الكويت سنة ١٨٩١ م •

وكان محمد شديد القسوة ، وقد قضى على أعدائه ومنافسيه بوحشية شديدة ، وتقول ليدى آن بلنت : إن تصرفه ذلك نشر الرعب في طول البلاد وعرضها ، ولم يعد أحد يجرؤ على معارضته ، أو إثارة الرعب في إمارته ، ومن هنا اختفى قسطنطع الطرق ، وأصبح المسافر يستطيع أن يتجول في أى جزء من الصحراء بأمان وأطمئنان ، كما اختفى اللصوص

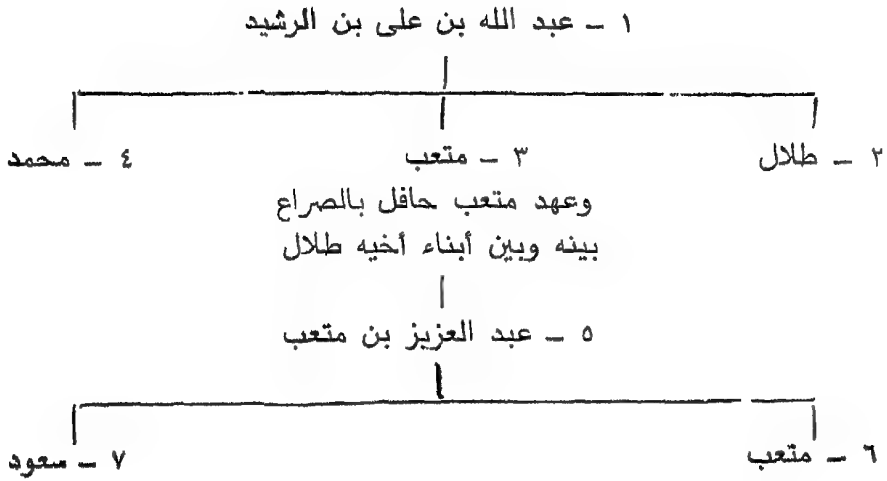
(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٥٢ بتصرف •

من المدن ، وكان يوارى قسوته بالكرم ، لعله يجلب رضا الناس عنه ، ولم ينجب محمد أولادا ، ولذلك هبت بعد موته صراعات مريرة ^(١) .

وبعد محمد بدأت الأمور تتغير ، فآل الرشيد دب بينهم خصام وصراع ، وآل سعود هب من بينهم بطل مغامر ذكى هو المرحوم الملك عبد العزيز ، وقد استطاع هذا أن يستعيد الرياض سنة ١٩٠١ كما ذكرنا من قبل ، ثم أخذ يوسع إمارته رويدا رويدا على حساب الحروب الداخلية التى هبت بين أمراء آل الرشيد الذين لا يستحقون أن نذكر أسماءهم أو نقف عندهم ، وبعد الحرب العالمية الأولى ، وبعد أن فقد آل الرشيد حماية الأتراك العثمانيين وعونهم أصبح سهلا على الملك عبد العزيز آل سعود أن يقضى عليهم ، وأن يضم إلى مملكته آخر قلاعهم فى حائل سنة ١٩٢١ م .

(١) رحلة إلى نجد ص ١٦٣ .

وأشهر أمراء آل الرشيد هم :



منطقة عسير

تذكر الوثائق والمراجع التاريخية ^(١) أحاديث فيها كثير من الغموض عن إمارات صغيرة قامت جنوب الحجاز في عسير وفي الجنوب منها إلى حدود اليمن ، وسكان هذه المناطق ليسوا شيعية ، ولذلك حرصوا على عدم الاندماج في الدولة الزيدية باليمن ، ولكنهم في الوقت نفسه حرصوا على ألا تشملهم شرافة مكة ، ويمكن القول ان هذه الامارات الصغيرة كان يشملها التفكك الواسع الذي لف الجزيرة كلها منذ آمد بعيد ، ومع الطابع الاستقلالي لهذه الإمارات فإنها كانت تعترف بشكل ما بسلطة الحكومة ، التركية بعد الزحف التركي الى الحجاز ، إذ كان الأتراك لهم سلطان فعلي على منطقة القنفذة بالساحل ، وبذلك كانت تهاجم هذه الإمارات وكان الأشراف في بعض عهود قوتهم يمدون نفوذهم الى هذه المناطق أو أكثرها فيعترف الأمراء بسلطانهم وبمكانتهم •

وأقدم هذه الإمارات إمارة أبو عريش التي ظهرت على أثر دخول العثمانيين مصر والحجاز ، واتفقت واختلفت مع العثمانيين ثم انقطعت أخبارها حتى مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأت تظهر من جديد ، وتشارك في الأحداث التي قامت بها مصر والسعوديون والعمانيون في هذه المناطق ، وقد حل الادريسيون محل آل أبي عريش ، والادريسيون جديرون بكلمة أوسع بالنسبة للمكانة التي حققوها في هذه المنطقة ردحا من الزمن ، وجدد الأدارسة رجل من أهل العلم والصلاح جاء من المغرب الأقصى ، وعاش في صبيا في رحاب آل عريش فترة نافس فيها الزيدية في الجنوب ، والوهابية في نجد ، فالتف حوله كثير من الناس ، فلما ضعف آل عريش كان الأدارسة في وضع يهيئ لهم أن يرثوا السلطة في هذه الإمارة ، وكان أول من أعلن قيام الأدارسة هو السيد محمد على الإدريسي •

(١) في هذا الموضوع توجد وثائق لدى وزارة الخارجية السعودية ووزارة الخارجية البريطانية ، كما توجد عدة كتب مثل تاريخ بلاد العرب لهوغارت ، وظهور أئمة صنعاء لتريتون ، وتاريخ المخلاف السليماني لفهد بن أحمد بن عيسى •

والسيد محمد على الإدريسي ولد في صبيا وتعلم في مكة وفي الأهر الشريف ، وزار واحة الكفرة مركز السنوسية ، وزار السودان ، ثم عاد إلى صبيا ، وقد استفاد من هذه الرحلات تجارب مهمة ، ثم إن الفترة كانت تمنح الفرص لأنها فترة السلطان عبد الحميد ، وما مارسه من أعمال المكر والحيل ، ولم يضيع الإدريسي الفرصة فأعلن استقلاله بمنطقة صبيا ، وأرسلت له الحكومة العثمانية قائدا يتعرف حاله ، فاستطاع الإدريسي أن يخدعه وأن يظهر الولاء للدولة فنال رضا ذلك القائد ، وثبته في صبيا وأبى عريش .

ولم يدم هذا الوفاق طويلا فإن الإدريسي أخذ يوسع دائرته ويهاجم ولاية العثمانيين ، وأعلن الانفصال عن الدولة العثمانية سنة ١٩١٠ م ، ولكن الشريف حسين شريف مكة أبدى استعداداه بالنيابة عن العثمانيين في كبح جماحه ، وسار فعلا ولكنه لم يحقق نجاحا يذكر ، وبعد عودة جيش الشريف اتفق الإدريسي مع إيطاليا ، وأخذ منها بعض أسلحة ، وكان الصراع بينها وبين العثمانيين قد بدأ ، واستطاع أن يثبت أقدامه في منطقته ، وقامت الحرب العالمية الأولى فاتفق الإدريسي مع الانجليز ، وعقد معهم معاهدة سنة ١٩١٧ اعترفوا فيها بسيادته على تهامة حتى اللحية في الجنوب والقنفذة في الشمال ، وبلغت دولة الأدارسة في عسير بذلك أقصى اتساعها فشملت قبائل قحطان بالقسم الجنوبي من عسير ، والقسم الأكبر من تهامة من البرك حتى الحديدية ، ويبلغ طول هذه المنطقة من الشمال للجنوب ٣٥٠ ميلا وعرضها ٧٠ ميلا ، وشملت ما كان معروفا بالمخلاف السليمانى وجيزان وغيرها ، ومنطقة أبى عريش ، ووصلت جنوبا إلى اللحية ، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى ترك له الانجليز الحديدية التي احتلوها خلال الحرب اعترافا بخدماته التي قام بها ضد الأتراك ، وقد استطاع الإدريسي أن يتحالف مع سلطان نجد (الملك عبد العزيز) وبهذا وقف في وجه الشريف حسين في الشمال والامام يحيى في الجنوب .

وعقب وفاة السيد محمد الادريسي الكبير سنة ١٣٤١ (١٩٢٢ م) اغتتم الامام يحيى ملك اليمن الفرصة فاستولى على الحديدية وبعض مناطق الساحل ، وثار السكان ضد الأمير الادريسي الجديد على بن محمد الذى لم يستطع حماية إمارته فهرب هذا إلى السعودية إبان فتح الحجاز . ولم يستطع الأمير الحسن شقيق الادريسي الكبير أن يحتفظ بإمارته وقتنا طويلا على الرغم من ألعيب السياسة التى اتبعها ، فأرسل للملك المسعودى يطلب حمايته ، ويقول حافظ وهبة : اجتمعت بمندوب الادريسي ووضعنا معا معاهدة الحماية سنة ١٩٢٦ لإنقاذ ما بقى من ملك الأدارسة (١) .

وفى سنة ١٩٣٠ طلب الأمير الادريسي أن تنضم البلاد إلى مملكة جلالة الملك عبد العزيز لتصبح جزءا لا يتجزأ من هذه المملكة ، وقد تم إعلان ذلك ولكن الادريسي أراد سنة ١٩٣٣ أن يتراجع فثار في عسير تهامة ، فاغتنم الامام يحيى باليمن الفرصة ، فهاجم منطقة عسير ، واستولت جيوشه على نجران ، فأرسل الملك عبد العزيز ابنه الأمير فيصل في مايو سنة ١٩٣٤ على رأس قوات كبيرة نزلت جيزان ثم زحف بقواته إلى ذبيري واستولى عليها ، وخضع له سكان اللحية وقبائل « مور » ثم تقدم فاستولى على الحديدية وخضعت له قبيلة الزرائق ، وفى أثناء وجوده فى الحديدية نزلت بها قوات مسلحة بريطانية جاءت على ثلاث سفن حربية بدعوى حماية الرعايا البريطانيين الهنود الذين كانوا فى اليمن ، ووصلت سفينتان حربيتان ايطاليتان لرعاية الطليان ، وقد استطاع الأمير فيصل أن يجرى مفاوضات مع هؤلاء وأولئك انتهت بانسحابهم من هذه المناطق ، وقد انتهى الصراع بين اليمن والسعودية بتوقيع معاهدة الطائف سنة ١٩٣٤ على أن تكون الحديدية لليمن ، وعسير تهامة ، وعسير السراة للسعودية .

وبقى من هذه الإمارات الصغيرة إمارة آل عائض فى عسير ، وعاصمتها أبها ، وقد نشأت هذه الإمارات فى النصف الثانى من القرن

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٥٠ .

الثالث عشر الهجرى ، ويقال ان عائض كان جنديا باسلا أظهر كفاءة حربية في النضال ضد الجنود المصرية ، فأوصى به قائده على بن مجثل إلى ابن سعود ، فثبته هذا في الإمارة بعد ابن مجثل (١) .

بلغت إمارة آل عائض قمته في عهد محمد بن عائض ، فقد امتدت مملكته إلى عسير السراة وقسم من الحجاز وغامد وزهران ، وقسم كبير من تهامتي عسير واليمن حوالى سنة ١٨٨٠ ، وقد خافت الدولة العثمانية نتيجة هذا التوسع نقضت عليه ، ولكنها عادت فاستعملت حسن بن على ابن محمد بن عائض إبان الفتن التي هبت بهذه المناطق حوالى سنة ١٩١٠ ليكون مساعدا للوالى التركى ، وبعد الحرب العالمية وزوال الأتراك من الجزيرة العربية عاد فاستقل بإمارته ، ولكن الزحف السعودى تقدم وضم هذه المناطق إلى الدولة الأم .

وانتهت بذلك هذه الإمارات التى قصدنا الإيجاز فى الحديث عنها ، فلم تكن إلا حركات لم تصل إلى القاع ، وليست لها أهداف حضارية تخلد لها أية ذكريات .

أما الصراع الطويل المريب فقد كان فى الحقيقة بين السعوديين وبين الأشراف الذين كانوا يرون أنهم أصحاب الحق فى أن يخلطوا العثمانيين ويصبحوا سادة العالم العربى ، ولم تكن للأشراف بالمنطقة كفاءات أو تاريخ يساعد على تحقيق هذا الأمل ، ولكنه الغرور القاتل ، وسنفسح المجال للحديث عن الأشراف منذ مطلع نفوذهم بالجزيرة حتى القضاء على هذا النفوذ على يد الملك عبد العزيز .

الأشراف

نقرر أولا أن الاصطلاح السائد في الحجاز هو أن يطلق اسم « الشريف » على نسل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، واسم « السيد » على نسل الحسين رضي الله عنه .

ونقرر ثانيا أن آل البيت لهم بيننا مكانة سامية لصلتهم بالأرومة الطيبة التي كان سيدنا رسول الله رائدا لها ، ولكن على أن يكونوا قد انتفعوا بما جاء به نبي الاسلام من فكر وأخلاق ، فإن حادوا عن ذلك حملوا مسئولية ذلك ، فلقد هتف نوح مناجيا ربه : رب إن ابني من أهلي .

فأجابه الحق جل وعلا : إنه ليس من أهلك .

فالانحراف عن الحق لا يغني معه دم ولا نسب ، ولا شك أن الكثيرين منهم قد استقاموا على الطريقة ، وكانوا جديرين بالانتساب لهذه الأرومة الطيبة ، ولكن وجد من بينهم من كان النسب هو كل بضاعته ، وحاول أن يستغل هذا النسب لتحقيق أغراض شخصية ، وذلك ما لا يتفق مع الإسلام ، وتماذى بعضهم فتمرد على كل القيم والشرائع ، فوجد منهم من لم يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته في سبيل الحكم ، بل يورد الأستاذ حافظ وهبة (١) صورا من قسوة بعضهم بأهله تقشعر الأبدان لذكرها .

واعتدى الكثيرون منهم على الحجاج لسلب أموالهم ، بل كانوا يغتالون أحيانا الحجاج النازلين في بيوتهم (٢) .

ونقرر ثالثا أن الحسن بن علي كان حكيما عندما تنازل عن الخلافة

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٧ .

لمعاوية لجمع كلمة المسلمين ، ولم يتشبث بها خوفا على دماء المسلمين أن تراق ، وعلى أموالهم أن ينزل بها الضر ، ولكن هذا المثل السامى لم يتكرر كثيرا ممن طمعوا فى السلطان من نسله ، فقد حرص كثيرون منهم على السلطان بأى ثمن •

ونقرر رابعا أن آل البيت كانوا يطمعون فى الخلافة منذ مطلع الإسلام ، فلما أفلتت الخلافة من أيديهم الى أبى بكر وعمر وعثمان ثم إلى الدولة الأموية فالعباسية •• قنعوا بالحجاز يباشرون الشرافة عليه ولو تحت ظل الآخرين •

وفى ضوء هذه المقدمات نستطيع أن نتحدث عن الأشراف بمكة ••

كانت المدينة المنورة هى حاضرة الحجاز منذ عهد الرسول حتى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى بصرف النظر عن المحاولة التى قام بها عبد الله بن الزبير بمكة إذ لم يكتمل نجاحها •

وينسب إلى جعفر الحسنى أنه أول من جعل مكة عاصمة الحجاز ، فلقد ثار على الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ — ٩٣٢ م) واحتل مكة وأيده الزاطميون فى ذلك فاستقر أمره ودعا للفاطميين (١) وأصبحت المدينة تابعة لمكة ، وأصبحت الحجاز تابعة لمصر بوجه عام منذ ذلك الحين •

وهناك رواية أخرى تقول إن الفاطميين أرسلوا جيشا إلى مكة ليخلصها من القرامطة وأتباعهم ، وكان جعفر أحد رؤساء هذا الجيش فاستولى على مكة باسم الفاطميين (٢) ، ثم استقر بها ، وكون أسرة الأشراف ، وكان حكم جعفر من سنة ٣٥٥ إلى سنة ٣٧٠=٩٦٥ إلى ٩٨٠م •

(١) Gerald de Garury : Rulers of Mecca p. 59

(٢) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٣ — ٣١٤ •

وجاء بعد جعفر ابنه عيسى (٣٧٠ — ٣٨٤ = ٩٨٠ — ٩٩٤ م) •

ثم جاء أخو جعفر واسمه أبو الفتوح الى سنة (٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م)
فابنه محمد من بعده •

وقد شغل أبو الفتوح وابنه محمد بصراع طويلا ضد جبهتين : الجبهة الأولى الأمراء الحسينيون في المدينة الذين حاولوا استعادة السلطان بالمدينة وجعل مكة تابعة لهم •

والجبهة الثانية : أمير حسنى اسمه الفاتكى استعان بالزيدية باليمن ليأخذ السلطة من أسرة جعفر ، وقد استطاعت أسرة الفاتكى أن تغلب في النهاية لانقراض أسرة جعفر ، إذ مات أميرها الأخير دون أن يكون له نسل من الذكور •

ثم قفزت للسلطة جماعة ثالثة من آل الحسن تسمى « الهواشم » (١) ، ودار صراع بين الفاتكين والهواشم ، تغلب هؤلاء مرة وأولئك مرة أخرى ، فلما سقطت أسرة الفاطميين أزال صلاح الدين الجماعتين ، وعهد لفرع حسنى جديد ليكون منه الأشراف بمكة ، فكان رابع فرع حسنى يتولى هذه المهمة •

وفي أواخر القرن السادس الهجرى كانت المظالم قاسية على أهل مكة وعلى الحجاج ، وكان الأشراف منهمكين في الملذات ، فاستغاث الناس بالشريف قتادة وهو من فرع خامس (٢) من فروع بنى الحسن ، فاستجاب لهذا الهتاف وكان يسكن في جهات ينبع ، فزحف إلى مكة مع أعوانه ، واستولى عليها سنة ٥٩٨ هـ ، ثم مكن لنفسه في الحجاز ، واستقرت أسرته

(١) الجماعة الحسينية الاولى هى جماعة جعفر والثانية هى جماعة الفاتكى •

(٢) يرى الاستاذ حافظ وهبه (ص ١٦٦) أن قتادة مطلع الفرع الرابع فكانه لا يعترف بالفرع الذى أسلمه صلاح الدين السلطة ويرى انه امتداد للفرع السابق •

فى هذه المكانة حتى نهاية الأشراف بالحجاز ، واستطاع أن يمد سلطانه على كافة الأرض الحجازية من خيرير شمالاً حتى القنفذة جنوباً ، كما أنه حاول أن يكون حسن الصلة بكل الأطراف الإسلامية ومنفذاً للتعليمات المصرية ، ولكن أولاده لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذا الوضع مما عرضهم أحياناً للهجوم عليهم ، وإخضاعهم ، وبخاصة فى عهد المماليك بمصر الذين عينوا حكماً لحماية الحجاج وتنفيذ أوامر القاهرة ، وتركوا الأشراف بدون سلطان حتى أنهم تركوا مكة أحياناً إلى « وادى فاطمة » إذ لم يبق لهم دور فى الحكم والسياسة (١) .

ومن أهم الأشراف من نسل قنادة أبو نمى الأول ، وكل معاصراً للظاهر بيبرس ، وقد ظهر عليه مرة ميل للتمرد ، وكان الظاهر بيبرس لا يغفر هذا الاتجاه ، فكتب إليه يقول : « أما بعد يا شريف فإن الحسنة فى نفسها حسنة ومن بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ومن بيت النبوة أسوأ . قف عند حدك ولا أعمدنا فىك سيف جدك » فانهار الرجل وأجاب : إن العبد مقر بذنبه ، نائب إلى ربه ، فإن تؤاخذ فيك الأقوى ، وأن تعف فاعفو أقرب للتقوى (٢) .

ومنهم كذلك الشريف أبو نمى الثانى الذى سافر إلى مصر لإعلان تسليم الحرمين للسلطان سليم العثمانى سنة ٩٢٢ هـ ، وقد انتهز أبو نمى الثانى فرصة اكتفاء العثمانيين منه بالولاء ، وقراءة اسم السلطان فى الخطبة فوسع سلطاته ، ووضع قواعد عديدة للشرافة والأشراف تعرف بقانون أبى نمى ، وكان هذا القانون يشمل سقا وثلاثين مادة أهمها جعل الإمارة إرثاً فى أسرة أبى نمى ، ومنع الأشراف من الاشتغال ببعض المن ، وحقوق الأشراف بالنسبة إلى غيرهم ، وذلك بأن جعل الشريف أربعة أمثال حق غير الشريف (٣) .

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٥ - ٣١٦ بتصرف .

(٢) ابن فهد : اتحاف الوردى ص ٦٧٥ .

(٣) حسين محمد نصيف : ماضى الحجاز وحاضره ص ١٧ - ١٨ .

ومع وجود الفرمان العثماني بتعيين الأشراف ، ومع وجود قسانون
أبى ندى ، فإن حق مصر فى الحجاز الذى باشرته عدة قرون ظلم يتضح
حتى فى العهد العثماني كما ذكرنا من قبل ، فلقد كان لوالى مصر أكبر
قسط من النظارة على شئون الحجاز ، وأحيانا كان أمراء الحج من مختلف
الأقطار يتدخلون فى سلطة الأشراف ويمنعونهم من مزاوله كثير مما
يريدون •

وقد ظهرت فروع ثلاثة من أسرة أبى ندى الثانى وهى :

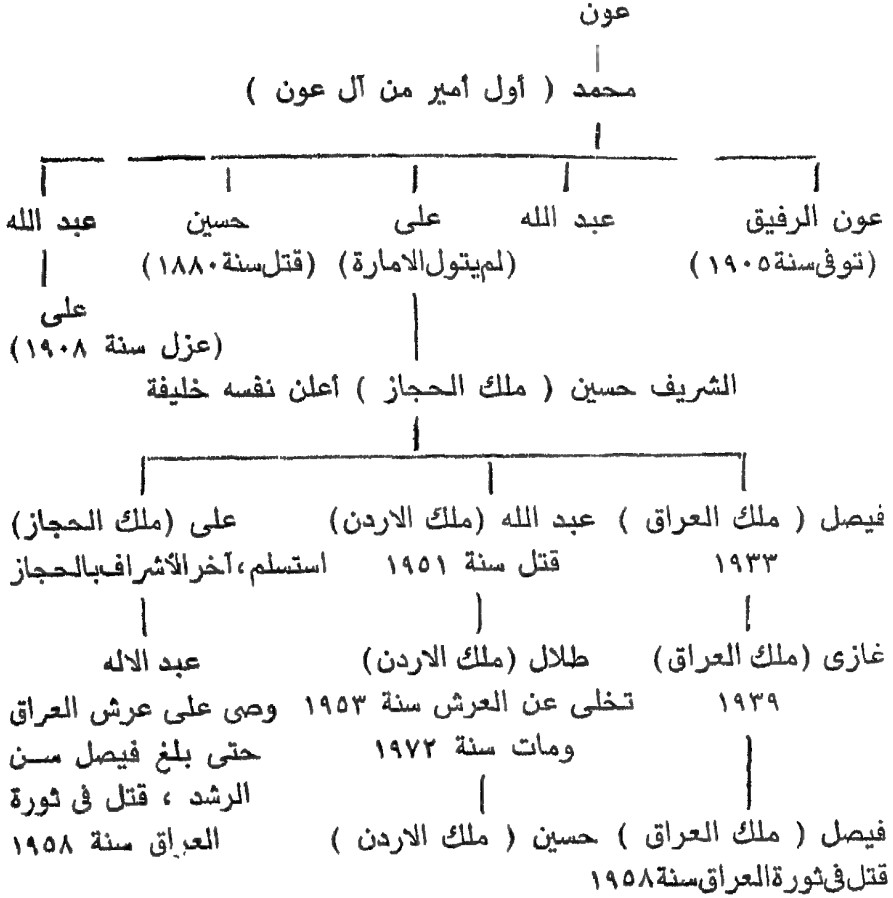
آل بركات — وآل زيد — وآل عون •

وقد استبد آل بركات بالشرافة حوالى مائة سنة (القرن العاشر
الهجرى) ثم ظهر فى الجو آل زيد ونافسوهم أحيانا ، وهزموا أحيانا ،
ثم كانت لهم الغلبة حتى فتح محمد على الحجاز فانتقلت الشرافة الى
آل عون وبقيت فيهم حتى أزيلت •

ومن أشهر أمراء آل زيد الشريف سرور ، وقد استطاع أن يخضع
الأشراف الآخرين بمكة الذين كان كل واحد منهم يعد نفسه أميرا ، وصاحب
نفوذ على السكان وعلى الحجاج ، وقد أحبه أهل مكة لذلك جدا ، وكان
بالإضافة إلى ذلك يميل للبساطة والتواضع والكرم ، مع الشجاعة النادرة
والذكاء المتوقد •

ويلى سرورا فى الشهرة الشريف غالب ، وإن كان دونه فى حب العدل ،
وفى أيام غالب غزا السعوديون الحجاز ، كما أنه فى أيامه أيضا غزا المصريون
الحجاز ونجد ، وقد قبض عليه محمد على باشا ، ونفاه الى سلاتيك حيث
مات هناك ، كما ذكرنا من قبل ، ونقل محمد على الشرافة الى آل عون •
وفيما يلى شجرة تسلسل الملوك والأمراء من آل عون :

الأمراء والملوك من آل عون



وقد ضعفت قيمة الأشراف ابتداء من الزحف المصرى ، ولم يسترد الأشراف مكانتهم التامة بعد أن أخلى المصريون الحجاز سنة ١٨٤٠ ، فقد أرسل العثمانيون واليا على الحجاز تكون له قيادة الجيوش وإدارة المصالح بجوار الشريف الذى يتولى الأمور الدينية ، وقد أحدث هذا كثيرا من الاضطراب والارتباك فى البلاد ، وعم الشر والفساد لأن كلا من الحاكمين كان يلقي المسئولية على الآخر •

الشريف حسين :

وفى وسط هذه الفوضى اختارت الأسنانة الشريف حسين لمنصب الشرافة وتركت له الأمور الدينية والمدنية ، وقد تسلم عمله سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وحاول أن يكون حسن الصلة بالممالك الكبرى ذات النفوذ فى المنطقة كالانجليز فى مصر ، بالإضافة إلى محاولته أن يكون على صلة طيبة بالدولة العثمانية التى اختارته لهذا المنصب ، وعلى هذا فالرجل كان يتمتع بقدر من الذكاء وحسن التدبير لتنفيذ مصالحه الخاصة ، وقد أحست الدولة العثمانية أن ولاءه موضع شك فعينت معه القائد وهيب باشا لمراقبه ولينفذ ما يراه حول إدارة الحجاز ، ولكن إعلان الحرب العالمية الأولى أحدث كثيرا من التغيرات فى المنطقة على النحو الآتى :

— غادر وهيب باشا الحجاز ليقوم بدوره فى هذه الحرب ، وبهذا أزيل هذا الكابوس عن الشريف حسين •

— كانت البلاد العربية تثن تحت حكم العثمانيين ، وكانت تتطلع إلى قيادة تقودها للتخلص من الاستعمار ، واتجه الشريف حسين ليكون ذلك القائد •

— بمجرد دخول الحكومة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا اتجه الشريف إلى :

١ — تأمين سلامة المواصلات البريطانية بين الهند والبحر الأبيض المتوسط بطريق البحر الأحمر وقناة السويس •

- ٢ — إثارة المتاعب ضد الحكومة العثمانية داخل البلاد التي تحكمها •
٣ — إثارة المسلمين بوجه عام والاحجاز بوجه خاص ضد العثمانيين
للقضاء على الفكرة التي كان الأتراك يذيعونها بأنهم سيثعلون نار حرب
مقدسة ضد الانجليز وأعدائهم •

وكانت البلاد العربية توافقة إلى الاستقلال والتخلص من الحكم
العثماني ، ولذلك رحب العرب بهذا البريق الخداع دون أن يتصوروا
العواقب الوخيمة التي ستقلهم من استعمار مغلف إلى استعمار سافر ،
ولعل من الحق أن نقرر أن الشريف حسين كان من أسباب هذه النتائج
السيئة لأنه كان شديد الرغبة في أن يصبح ملكا وكان شديد الثقة بالانجليز
وبخاصة أن علاقاته كانت قد ساءت مع الأتراك كما شرحنا من قبل •

وبدأت المشاورات بين الشريف حسين وبعده أبناءه على وعبد الله
وفصيل وبين الانجليز ، وقد أدرك الانجليز أنهم أمام مفاوض سهل يرضى
بالتقليل ويعطى الكثير ، فقدموا له بعض المال (٤٠٠.٠٠٠ ر.) جنيه كل
عام) كما جاء في بيان اللورد كروفورد في مجلس اللوردات سنة ١٩٣٢ (١) ،
وقدموا له بعض الوعود الساذجة غير الدقيقة ، وكان ذلك كافيا ليعلم الشريف
ثورته في شعبان ١٣٣٦ هـ (١٩١٦ م) ، وقبل أن تسير مع ثورة الشريف
نؤكد ما ذكرناه من قبل أن بريطانيا وعدت بالتقليل ، فقد كان الاتفاق أن
يقوم العرب بالثورة على الترك مقابل اعتراف بريطانيا باستقلال العرب ،
بدون تعيين حدود البلاد التي يشملها هذا الاستقلال ، واستثنت بريطانيا
المناطق التالية :

- ١ — المناطق الواقعة غرب الخط من حلب وحماة وحمص ودمشق
حتى البحر •

(١) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم
الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ج ١ ص ٢٢٣ و :
Geraled de Gatty : Rulers of Mecca p. 265.

٢ — المناطق التي لا تستطيع أن تتصرف فيها مستقلة عن حليفتها
فرنسا •

٣ — منطقة عدن •

٤ — ولاية البصرة •

٥ — المناطق العربية التي لا تستطيع أن تتصرف فيها من تلقاء
نفسها (١) •

والناظر إلى هذه الشروط يجد أن ما وعدت بريطانيا باستقلاله
كان ضئيلاً جداً لا يتعدى منطقة الحجاز وبعض مناطق الجزيرة ، وإذا
كان هذا هو حال الوعد عند ضرورة الحرب فما بالك بالتنفيذ بعد انتهاء
الضرورة •

ولكن هذه المفاوضات كانت سرية ، فلما هب الشريف حسين يعلن
ثورته ضد تركيا ، واتخذ بكل قوة جانب إنجلترا وحليفتها ظن أكثر
الشباب العربى أن هناك ارتباطات قوية وآمالاً واضحة ، باستقلال
العرب ، ولذلك ساعدوا الشريف وانضموا بكل قوة لحركة المقاومة ضد
العثمانيين •

وانتصرت إنجلترا والحلفاء ، ووضعت الحرب أوزارها ، وجاء يوم
الحساب ، فقابل العرب حقيقة مرة هى أنهم انتقلوا من تبعية كان الاسلام
بخفف مشكلاتها الى استعمار صليبي سافر ، وحاول الشريف أن يجنى
أية ثمرة لجهوده فلم يجد شيئاً ذا بال •

وكان الشريف قد تعجل الملك والجاه ، فأعلن نفسه « ملك العرب »
عقب ثورته ، ولكن الانجليز منعه من ذلك لأن ذلك سيثير ثائرة حكام
العرب الآخرين ، ولكنه كان شديد الحرص على لقب « ملك » ، فاكتمل

بأن أعلن نفسه « ملك الحجاز » ^(١) ، ولما خرج من المعركة صفر اليدين حاول توسيع سلطانه على حساب العرب والمسلمين بعد أن فشل أن ينال ما تحت يد الإنجليز والفرنسيين ، فقد انتهاز الشريف حسين فرصة إلغاء الخلافة من تركيا وطرد الخليفة العثماني الأخير عبد المجيد من تركيا فجر الرابع من مارس سنة ١٩٢٤ فأعلن نفسه خليفة على المسلمين في المكان الذي خلا ، وكان ذلك في ١١ مارس سنة ١٩٢٤ ، ولكن تصرفه هذا أساء إليه ، فقد أثار ضده كل زعماء المسلمين واتهموه بأنه يبحث عن مصالحه الشخصية ، ويحاول تحقيق أطماعه دون اهتمام بمصالح المسلمين ^(٢) ، وعلى كل حال فإن هذا الاعلان لم يكن ذا نتيجة فإن البلاد الإسلامية لم تعترف به ^(٣) .

على أن إدعاء الشريف حسين الخلافة كان حدثا قصير العمر ، وزوبعة في فئان كما يقولون ، ولذلك ينبغي أن نتخطاها لنعود للعلاقات بين الشريف والملك عبد العزيز ، أو قل بين الطموح الذي لا أساس له ، وبين الطموح الذي تدعمه الدعائم القوية والتاريخ .

عندما أدرك الشريف حسين فشله في السياسة اتجه للحرب فأخذ يهاجم واحتى تربة والخرمة ، وكان أهلها تابعين للسعوديين ، وقد فشل فشلا مريرا في هذه المحاولة كما سنرى ، وراح بعد ذلك يتخبط يمينا وشمالا ، ولكن الحقيقة المرة اتضحت له ، فقد اضطربت الأحوال داخل الحجاز ، واستفزت أعماله عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، فقرر الزحف على الحجاز ، وكما قام مثلك الشريف بسرعة وبدون أساس فإنه هوى بسرعة ، وانضم إلى ملك السعوديين .

(١) lipid p. 274.

(٢) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ج١ ص ٢٣٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

وفيما يلي بعض التفاصيل عن سير العلاقات بين الشريف حسين والملك عبد العزيز آل سعود :

العلاقة بين الشريف والملك :

بدأ الصدام بين عبد العزيز والشريف حسين حين استسلمت الحامية التركية في المدينة للشريف سنة ١٩١٨ ولم يخفف هذا الصراع تلك التهيئة الرقيقة التي بعث بها الملك عبد العزيز مهنتا الجيش العربى بالانتصار على فلول العثمانيين واقتحام المدينة ، فإن الشريف سرعان ما أرسل خطابا شديد اللهجة لابن سعود يطالبه فيه بالاعتراف به ملكا على البلاد ، ويطالبه أيضا بإخلاء واحة خرمة وعدم التعرض لأهلها بنى عتيبة .

وكان رد الملك ساخرا ، فقد أرسل بعثة من علماء نجد لنشر مبادئ دعوة الإصلاح بين قبائل عتيبة ، وقد رحب الناس بهذه المبادئ ، وتحمسوا لها مما آذن بصراع عسكرى بين عبد العزيز والشريف حسين ، وقد ابتدأ هذا الصراع حول واحتى تربة وخرمة على النحو التالى :

تربة وخرمة منبت الصراع :

تقع واحة تربة على بعد خمسة وسبعين ميلا جنوبى جبل حضن . وتتقع واحة خرمة على بعد خمسين ميلا شرقى هذا الجبل ، وهما بذلك أبرز مكانين فى الحدود الفاصلة بين نجد والحجاز ، ومن أجل هذا كانتا محل نزاع دائم بين حكام نجد وحكام الحجاز ، وكان من يتسلط عليهما يحظى بموقع استراتيجى يدفع الطرف الآخر لمنافسته ومصارعته .

وقد بدأ الصراع العسكرى سنة ١٩١٩ فقد أعد الشريف حسين بن على حملة كبيرة يقودها ابنه الأمير عبد الله لإخضاع قبائل تربة والخرمة التى ثارت على الحكم الحجازى وأعلنت انضمامها للسعوديين ، وقد تصدى أتباع السعوديين لهذه الحملة بقيادة سلطان بن بجاد متعاونين مع قبائل

تربة والخرمة ، وهاجموا جيش الأمير في الليل فتفككت عراه وتمزق شر ممزق ، وأفلت الأمير من موت محقق تاركا أسلحته ومتاعه وعددا كبيرا من القتلى ، وانتضح أن بقاء المملكة الحجازية سيكون مثار متاعب بالجزيرة العربية وبخاصة أن هؤلاء الحكام ليست لهم أعماق في هذه البقاع ، ولا يعرف عنهم إلا صفة الانتهازية ، ولكن السعوديين لم يواصلوا زحفهم على الحجاز ، فاسم « ملك العرب » كان لا يزال يدوي ، وعلاقة الانجليز بالشريف كانت لا تزال قوية ، وقد تلقى ابن سعود رسالة من الوكيل السياسي البريطاني في جدة يطلب منه عدم التعرض للحجاز (١) .

ولكن أسبابا حدثت فجعلت بالصراع ، فبينما كان الشريف حسين يطمح في توسيع سلطانه ، وكانت الأطماع تتخيل له كائنها حقائق ، كان ابن سعود يوسع سلطانه فعلا ، فلقد ضم بلاد حائل ، واستولى على تيماء وخيبر والجوف ووادي السرحان ومهد نفوذه فشمل بلاد عسير .

وكان رد الفعل من الشريف حسين يثير حفيظة الناس ، فقد ضيق على أهل نجد ، وحرّمهم من القدوم لأداء فريضة الحج كما تعاون الشريف مع سلطات العراق وشرق الأردن لتطويق ممتلكات السعوديين .

واقترحت بريطانيا عقد مؤتمر بالكويت لتسوية الأحوال التي تثير الخلاف ، وعقد المؤتمر في ديسمبر ١٩٢٣ وفشل المؤتمر لأن الشريف حسين كان يريد أن تعود عقارب الساعة للوراء ، فطالب بإعادة الأوضاع في الجزيرة العربية إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، أي أراد أن يلزم السعوديين بإعادة الجوف ووادي السرحان لشرق الأردن ، وإعادة تيماء وخيبر وتربة والخرمة إلى الحجاز ، وإعادة آل الرشيد إلى حائل ، وآل عائض إلى عسير ، وكان هذا مطلباً ساذجاً لا يحتمل التنفيذ ، فانهارت عليه آمال المؤتمر .

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ص ١٢ .

بين سياستين :

تعتبر السنوات الأولى من العقد الثالث من هذا القرن سنوات حاسمة بالنسبة لتاريخ الحجاز ، وقد أتضح لنا التنافس القوى بين الإشراف وبين السعوديين في هذا المجال ، ولكن سياسة الملك السعودي كانت دقيقة وحكيمة ، وكانت سياسة الشريف حسين فيها كثير من المشرق والفوضى ، كان الملك السعودي يأخذ الأمر أهميته من كل ناحية ، فهو من الناحية الداخلية عميق الصلة بشعبه ، يبعث جيشا نظاميا مدربا على أحدث الأسلحة ، وهو — فيما يتعلق بالجزيرة العربية — يخفى خطته خلف جدار من الصمت والهدوء ، وهو بالنسبة للعالم الخارجى كان يحاول أن يخرج من عزلته ، ويكون حسن الصلة بالعالم الإسلامى ، وقد أولى مصر مزيدا من الاهتمام لكانتها العربية والإسلامية فأرسل برقية تهنئة للملك فؤاد بمناسبة افتتاح أول برلمان مصرى ، ومن الواضح أن هذا الحدث كان بعيدا آنذاك عن الفكر بالجزيرة العربية ولكن الملك السعودي كان يتلمس الوسائل ليظهر رغبته في حسن الصلة بمصر ، واستمر الملك السعودي في هذا الاتجاه فتبنى رأى مصر عقب سقوط الخلافة الإسلامية وكانت مصر ترى أن حل مسألة الخلافة الإسلامية ينبغى أن يكون بمؤتمر إسلامى عام يعقد في القاهرة •

وأدرك الملك السعودي ذعر الرأى العام المصرى من احتمال وقوع الحجاز تحت سلطة السعوديين ، لأن ذلك ارتبط عند المصريين بهدم القباب وإيقاف المحمل المصرى ، وبالتالي وضع عقبات في طريق الحجاج المصريين — تلك الأحداث التى انتهجها السعوديين إبان الدولة السعودية الأولى عندما صار لهم الحكم في الحجاز ، وقد أوعز الملك لكثير من رجال الرأى أن يؤكدوا أن الحج حق لجميع المسلمين ، وأنه ليس من الممكن أن يمس أحد القبة النبوية بالمدينة بأى سوء وقد اعتبر ذلك حلا لمشكلة كانت تشغل الجماهير (١) •

(١) اقرأ كتاب « الوهابيون والحجاز » •

وكانت سياسة الوفاق بين الملك السعودي وبين الانجليز ثابتة تبعا للمعاهدة التي عقدت سنة ١٩١٥ ، وقد رأى الملك الإبقاء على هذه السياسة وتلك المعاهدة حتى لا ينضم الانجليز الى خصومه •

وبينما كان الملك السعودي ينهج هذا النهج ، كان الشريف يتخبط ، ويتصرف كأن قوى الأرض تدين له ، وأنه غالب لا يقهر ، فقد كان داخل الحجاز بعيدا عن الجماهير ، هؤلاء الذين ذاقوا ألوانا من الولايات على أيدي الأشراف كما ذكرنا من قبل ، وكان جيش الأشراف مجموعات من المرتزقة لا تربطهم أواصر دم أو فكر بالحكام ، ولذلك كانوا يطالبون بالمال في أخرج الأوقات ، ويتوقفون عن أداء واجبهم حتى يقبضوا المال •

وفي الجزيرة العربية كان الشريف يمثل حركة استفزاز وتسلط على كل النواحي ، ولذلك كانت كل بقاع الجزيرة تخشى شره •

وكانت علاقات الشريف بالعالم العربى والاسلامى غير طيبة ، فهو مرة يعلن نفسه ملك العرب ، وهو لقب واسع ، ومرة يعلن نفسه خليفة المسلمين ، ويحدث هذا وذاك منه دون استئذان العرب ودون شورى من المسلمين ، كأن العناية الالهية اختارته ملكا أو خليفة ، وعلى الناس أن يستجيبوا ، ولكن الناس فى الحالتين رفضوا وقاوموا •

واتسعت آمال الشريف فراح يخلق الامارات والممالك الأولاده فى ظل الانجليز ، فخلق إمارة شرق الأردن وعين الأمير عبد الله أميرا لها ، وعين فيصل ملكا على سوريا ، فلما لم تنجح هذه الأمنية حبل فيصل ليصبح ملكا على العراق ، وقد خلق هذا التصرف استياء عاما فى النفوس العربية التى أحست أن الشريف يمد نفوذه لصالحه وصالح أبنائه دون نظر لرغبات الشعوب وحقوق الشعوب •

على أن الزلة الكبرى التى تردى فيها الشريف هى سياسة الجفاء التى بدأت بينه وبين الانجليز أولياء نعمته ، أو الذين أمدوه بالمال

والسلاح والنفوذ ، وقد حسب الشريف أن وعود الانجليز له خلال الحرب وعود حقيقية ، فلما انتهت الحرب وظهر الانجليز على طبيعتهم من الغدر بالعرب ، والسعى لصالح الاستعمار وصالح اليهود فكر الشريف في نوع من الاعتداد بالانفس فكان في ذلك حتفه •

لقد امتنع الشريف عن حضور بعض المؤتمرات التي نسقها الانجليز لتنظيم الحدود بين دول الجزيرة ورفض معاهدة قدمها له الانجليز ، احتجاجا على بعض بنودها ، وظهرت الجفوة في كثير من التصرفات فأدت الى قطع المعونة البريطانية سنة ١٩٢٤ و آذن ذلك بتقويض الركن القوى الذي بنى الشريف عليه آماله وطموحه •

وهكذا كانت سياسة الملك السعودي تقفز به للأمام وكان حمق الشريف يدفعه إلى التدهور والمتهقر ، وفي ضوء هذا تهيأت الظروف لفتح الحجاز كما سنرى فيما يلي :

فتح الحجاز :

إزاء الموقف السابق كان لابد من الصراع للتخلص من الأشراف فوجودهم بالحجاز مثار للفتن ، فسارت حملة عسكرية من تربة حتى الأخيضر ، ومنها الى الطائف في أوائل صفر سنة ١٣٤٣ هـ (٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤) وكان يقودها خالد بن لؤى ، وسلطان بن بجاد ، فاحتلت الطائف دون مقاومة تذكر ، ثم اشتبكت مع جيش للأشراف الذي يقوده على بن الملك حسين في معركة الهدى HADA ، وقد اندحرت قوات الأشراف في هذه المعركة وقد حدثت هذه المعركة في ٢٦ صفر سنة ١٣٤٣ هـ (٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م) وتقدم الجيش بعدها فحاصر المدينة • أما جند الشريف فقد فروا في حالة من الفوضى والاضطراب ، ويصف جون

فيلبى موقف على بن الحسين قائد الجيش بقوله : وقد سار على إلى جدة
مخلفا مكة وراءه معتبرا الحكمة فوق شجاعة الشجعان (١) .

ومن العجب أن آمال الشريف حسين انهارت تماما بعد هذه المعركة :
وانكسرت الرجل على وجهه بعد أن كان منذ عام واحد يحاول أن يملأ شريطه
في مؤتمر الكويت ، ولم يستطع صبرا ، فتنازل عن العرش لابنه على ،
وسافر الى ميناء العقبة ومعه ثروته الضخمة ، ومن هذه الميناء أبحر الى
قبرص وبقي بها حتى مات سنة ١٩٣١ م .

أما على بن الحسين فقد بقى في جدة ليشهد أفول المملكة التي بناها
أبوه في الخيال .

واستمر التقدم السعودي دون توقف ، ففي ١٧ ربيع الأول سنة
١٣٤٣ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م) دخلت قوات السعوديين مكة م
احتلوا القنفذة والليث ورابع .

وتقدم الجيش السعودي الى جدة فحاصرها ، واستمر الحصار مدة
عام تقريبا ، وفي خلال هذا الحصار نشطت الوساطة لإيقاف الممارك
في الأرض المقدسة ، وقد اشتركت في هذه الوساطة دول وهيئات مختلفة ،
فجمعية الخلافة الاسلامية في الهند كانت تنادى بحكومة جماعية للحجاز
أشبه بالنظام الجمهورى ، ومصر كان ملكها (الملك فؤاد) يطمع في الخلافة ،
وقد أرسل الى الحجاز بعثة في أغسطس سنة ١٩٢٥ اشترك فيها الشيخ
محمد مصطفى المراغى وعبد الوهاب طلعت ، وكان الملك عبد العزيز يحرص
على إرضاء مصر مع حرصه على أهدافه الخاصة ، ولذلك قدم للوفد المصرى
مقترحات مطاطة ترضيهم من جانب ، ولا يبعد عن أهدافه من جانب آخر (٢) .

(١) تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٢٥ .

(٢) انظر هذه المقترحات في فيلبى .

وتتقدم للوساطة كذلك « سان جون فيليبى » خبير المخابرات الانجليزى الذى كان متخصصا فى الشئون العربية ، كما تقدم لها كذلك أمين الريحاني أحد المسيحيين السوريين وهو مفكر عربى معروف •

على أن صوت الحجاز كان مدويا آنذاك ومتمثلا فى الحزب الوطنى برئاسة محمد الطويل ، وكان هذا الصوت لا يوافق على فكرة الحكومة الجماعية خشية أن تتدخل فى حكم البلاد جنسيات غير عربية لا تعرف التقاليد العربية كالفرس والهنود ، ولا توافق على التبعية لمصر لأن الحجاز عانى ألوانا من الاضطراب فى بعض فترات الحكم المصرى له ، ولذلك كان يميل الحزب الوطنى فى أثناء الحصار على الإبقاء على حكم الملك على بن الشريف حسين •

ولكن صوت السلاح كان أقوى من كل هذه الأصوات فقد زمجر هذا الصوت وحسم هذه القضية ، حتى اضطرت جدة الى التسليم فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ بعد حصار دام عاما كاملا ويعد أن لاقى المحاصرون ألوانا من العناء ، وفى نفس الوقت سلمت المدينة المنورة الزمام للسعوديين كذلك •

ولم يجد الملك قصير العمر على بن الحسين بدءا من توقيع اتفاقية تنازل فيها عن الحجاز ، وسافر من جدة عقب ذلك ، ودخل الحجاز فى ملك السعوديين ، وتحققت آمال البطل عبد العزيز آل سعود ، وكان دخول الحجاز تحت سلطان الملك عبد العزيز وسيلة مهمة لذيوع صيت الرجل ، وبروز اسمه فى العالم الاسلامى كله •

وأسرع الملك عبد العزيز فأوضح بنفسه أن الحجاز ستبقى وديعة لكل المسلمين فى العالم ، وأنها ترحب بجميع المسلمين سواء جاءوها حجاجا أو طالبى معاش ، على شرط أن يقبلوا بها الشريعة الاسلامية نبراسا لحياتهم ومعاملاتهم المشروعة فى كل شيء (١) •

(١) جون فيليبى : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٤٣ •

وتطلعت بعض قوى الوساطة التي تحدثنا عنها آنفا أن تستعيد نشاطها بعد زوال الحكم الهاشمي ، ولكن الملك عبد العزيز حسم الموضوع ، وجذب إليه أعيان مكة ، كما جذب رجال الحزب الوطني الذين كانوا من قبل يؤيدون الملك « على » ، ونادى هؤلاء في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ (٨ يناير سنة ١٩٢٦) بابن سعود ملكا على الحجاز فأصبح لقبه : ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها •

وفي ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٢٥ هـ (٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦) بسط حمايته على تهامة عسير المعروفة بالمقاطعة الإدريسية كما ذكرنا من قبل •

وفي ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هـ (١٦ يناير سنة ١٩٢٧) صدر قرار بأن يصبح لقب جلالته • ملك الحجاز ونجد وملحقاتها •

وفي ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م) صدر مرسوم ملكي ، وحد أجزاء المملكة جميعا ، فأصبحت مملكة واحدة باسم : المملكة العربية السعودية ، وأصبح لقب عبد العزيز هو ملك المملكة العربية السعودية •

الملك عبد العزيز بين عهدين ،

قبل أن نطوى صفحة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود يجدر بنا أن نوضح التطور الخطير الذي حدث في علاقة الملك بالشريف حسين ، وسنعتمد في بيان هذه الحقيقة على كتب رسمية أرسلها عبد العزيز عندما كان أميرا لنجد ، إلى الشريف حسين الذي لم يكن فقط حاكم الحجاز ، وإنما كان — كما توحى به هذه الرسائل — واسع النفوذ في الجزيرة العربية كلها ، مما جعل السكان في كل مكان يلجئون إليه اذا أحسوا ظلما من أميرهم ، وكان الأمراء لهذا يتملقونه ويعملون على نيل رضاه ، فكأنما كان ممثلا للأتراك في الجزيرة العربية كلها ، وليس في الحجاز وحده ، وبعد هذا بحوالي خمسة عشر عاما أنهار كل شيء ، وزحف أمر

نجد في جيش صاحب ، فقضى على ملك الشريف وأمجاده ، وأصبح الرجل الذي كان يتملق الشريف منذ أعوام قليلة صاحب الحول والطول في أكثر الجزيرة العربية ، كما أصبح الحجاز جزءا من المملكة الكبيرة التي امتد لها سلطان العاهل السعودي •

وفيما يلي هاتان الرسالتان اللتان تحملان عبارات الإجلال والتقدير من أمير نجد إلى الشريف حسين (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأفخم يمين الشيم أمير مكة المكرم سيدنا الشريف حسين باشا بن السيد على دام مجده وعلاه آمين •

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطرکم العاطر ، لا زلتم بكمال الصحة والسرور حايذين الأوصاف الحميدة •

أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم سعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين • ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو هممكم وأنظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز عبد الله السعود لوجب خدمتكم وأحببنا المصاوغه معه لوجب التبرك باقدامكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمداني وكحيلان ، ولا والله قصدنا في إرسالها لأنكم بحاجة ، ولا شك في غاييتنا نبغى نقرّب أنفسنا منكم ، فإننا هنا حاسبين أنفسنا من خواصكم ، والله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رعوسنا وما تحت أيدينا ، ولكنها هي صوغه للأولاد الكرام ، وحررنا هذا الكتاب لوجب التعرض لخدمتكم ، وما يبدو منه اللازم ، والا أمرك علينا تام على

(١) ننقل هاتين الرسالتين بنصهما مع ما فيهما من أخطاء نحوية وضعف في الأسلوب ، فالرسالتان صورة لعصرهما من الناحية السياسية والناحية الثقافية •

على كل حال ، ومهما تفعلونه معنا وتحطون أنظاركم علينا تجدونه إن شاء الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة ، هذا ما لزم تعريفه ، والولد برسم الخدمة مع إبلاغ السلام حضرة الإخوان المسادات الكرام على وفيصل وزيد ، ومن عندنا أولادنا محمد وسعود وكافة السعود يسلمون ودمتم محروسين •

١٨ ن سنة ١٣٢٨ هـ خادم الدولة والملة والوطن
(سنة ٩١٠ م) أمير نجد ورئيس عشائرها
(التاريخ هكذا في الأصل) عبد العزيز السعود
(ختم)

والخطاب الثانى هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأجد الأفخم بهى الشيم أمير مكة المكرمة سيدنا الشريف حسين باشا ابن السيد على دام مجده وعلاه آمين •

بعد اهداء مزيد السلام التام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطرکم العاطر ، ولا زلتم بكمال الصحة ووافر السرور حائزين الأوصاف الحميدة ، أحوالنا من كرم الله جميلة ، بأشرف وقت أخذنا مشرفكم المكرم ، فسرنا ما تضمنه من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان لدى ابنكم معلوم خصوصا ما عرف جنابكم من جهة عتيبة والقصيم ، وأنهم يلقون اليكم من الأكاذيب الذى ليس لها حقيقة ، ويتظلمون عند حضرتكم ، فنحن نقول عما قالوا : سبحانك هذا بهتان عظيم فأما وجهة نظرکم علينا وعليهم فهذا هو شأن مثلکم وهو مقامکم العزيز ، وأحن متيقنين ان حنا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتکم وأدنى جواب يصدر منکم الينا بمنع السو عنهم اذا كان

صادر منا شيء فنحن نمثل به لوجب رضا الله ثم لخدمة سعادتكم مع
إني ما والله أعلم أن أحد من أهل نجد يطلب مني مثقال حبة من خردل
من ظلم إلا أن كان عدو ضعيف جاني ، ولجنايته سبب ، وقول العدو ما
يؤخذ في عدوه ، والا أدام الله وجودكم نجد يوم جيته ما فيه من جميع
مأموريته أحد كلها مناصب لابن رشيد ، وولانا الله عليه بهداية الله ثم
هدايتكم ، وأمرنا كل في منصبه فمنهم من أطاع واستقر والى الآن بمكانه ،
ومنهم من ظلم الرعية ، وبنا غدر وأعانا الله عليه وأحسننا فيه ، فالآن
ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ثاني نفسه سامع مطيع لله ثم لحضرتكم
لأدنى واحد من أهل القصيم أو عتيبة يدعى على بادني شيء منه ظلم ،
فكما تأمرون أفعل امتثالا لأمر الله ثم أمركم ، وجميع ما زوروه على
حضرتكم دواء الكذب للقابل ، فإن كنت المجرم فأنا تحت امركم كما
تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم ، فإن كانوا هم الكاذبين وتحقق عند جنابكم
ذلك ، فنحن قد دمنا لهم من الزلات أكثر ، وحقا على جنابكم أن تكونوا
على حذر من أقوال الغاشين للإسلام والمسلمين ، وأنا والله وبالله وتالله
أن رضاكم وامتنال خدمتكم عندي أعز من رضا عبد الرحيم وخدمته
ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله ، أني ولد لك سامع ومطيع ، ما
أخالف شؤفتك في جميع أمر ، وأنا تحت أمركم أن كان تريدون المقابلة
بينى وبين المزورين في أى وقت تحبونه أحضر ، فإن كان تحبونه من بعيد
فالمرابعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم ، وانما لا يزورون على
حضرتكم أني مستغزى أهل نجد ، قصدى محاربتكم أو مكابرتكم لا والله
لا والله والله ، اني ما استغزيتهم إلا لوجب بنى خينا وبعض الفساد الى
ما يخفى جنابكم ، ولا يقطع عقلكم أن قدومى بها المحل قصدى محاربة
أو أمر يغضب خواطركم إلا انما هو تقرب لخدمتكم وعن البعد الذي

يحصل به الاتحاد للأعداء ، ويزورون أعظم مما زوروا سابق ، واجبنا تعجيل الطارش لموجب رد جوابكم العزيز ، ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم ، وتحت الأمر هذا ما لزم ، والرجاء ابلاغ سلامنا للإخوان السادات الكرام ، ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين •

خادم الدولة والملة والوطن

١٥ ل ١٣٢٨ هـ

أمير نجد ورئيس عشائرها

(سنة ١٩١٠ م)

عبد العزيز سعود

(ختم)

مرة أخرى نقرر أن هذين الخطابين صورة واضحة للتحول الضخم الذى تم فى الجزيرة العربية ، ولا شك أن الحرب العالمية الأولى ونتاجها كانت أكبر وسيلة لتحقيق هذا التحول •

والآن وقد حقق الملك عبد العزيز هذا النجاح الساحق فى ميدان السياسة والحرب بجدة يتجه بحماسة وإصرار إلى تقوية الجانب الحضارى فى هذه المملكة الفسيحة لتستعيد مكانها بين دول العالم الإسلامى ، فقد كانت مهبط الوحي ومركز الثقافة والفكر فى مطلع الإسلام ، ومنها شمع الضوء على العالم ، فكيف بها تتخلف عن الركب وتنزوى بعيدا عن التقدم ، وسنراه هو وأولاده من بعده يصارعون فى هذا المضمار ، فيفتحون المدارس والجامعات وينشئون المدن ، ويمهدون الطرق ، ويعنون بالصحة •

وقبل أن ندع الملك عبد العزيز ونتجه الى أولاده وخلفائه يجدر بنا أن نخصص مساحة ولو قصيرة لدراسة صورة من صور الصراع خاضها الملك العظيم ، ضد رفاق الأمس ، ضد من يسمون « الإخوان » •

الإخوان

كلمة الإخوان في الحجاز خلال العقد الثاني والثالث من القرن العشرين كانت كلمة تثير الذعر ، وتملأ الجو بالخوف والفرع ، وقد ارتبطت هذه الكلمة بمشروع تحضير البادية الذي بدأ سنة ١٩١١ إذ اتجهت عناية الملك الى توطين البدو ومنحهم الأرض والآلات لزرعها ، وقد أقيمت كثير من القبائل على هذا الاتجاه ، فتركت سكنى الخيام ، وبنت لها بيوتاً في تجمعات اختيرت لها الأمكنة المناسبة ، وأطلقت كلمة هجرة على كل تجمع من هذه التجمعات ، واستعملت كلمة هجرة إشارة الى أن هؤلاء هجروا حياة البادية بما فيها من جهل وتعصب وصراع ، وأول هذه الهجرات هجرة الأرطاوية ، ثم الغطف ، ثم دخنه ، وقد بلغت هذه التجمعات ستين هجرة •

وقد حاول البدو أن يقربوا من الاسلام الصحيح ، فانتهجوا لدراسة هذا الدين في تجمعاتهم الجديدة ، وبالغوا في اتجاهااتهم التحضرية ، فباع بعضهم إبله وغنمه •

ولكن خطراً جديداً داهمهم ، فإن الذين جلسوا من الاخوان مجلس المعلمين كانوا أنصاف متعلمين ، وكانت ثقافتهم ضحلة ، وبناء على ذلك اتجه التفكير في هذه الهجرة الى أنهم وحدهم المؤمنون ومن عداهم بعيدون عن الإيمان ، فالبدو الذين لم يقبلوا على الهجرة أعراب يصدق عليهم قوله تعالى « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ^(١) » وقوله : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ^(٢) » وسكان الحضر ككفرة بعيدون عن مبادئ الاسلام وتعاليمه ، وعلى الاخوان أن يجاهدوا في سبيل الله هؤلاء وأولئك لتعلو كلمة الله ، وعدّ الاخوان ارسال سعود

(١) سورة التوبة الآية ٩٧ •

(٢) سورة الحجرات الآية ١٤ •

ولى العهد إلى مصر عملا منافيا للدين الآن مصر — فى نظرهم — بلاد شرك ، كما انتقدوا الملك عبد العزيز لتسامحه مع الشيعة وعدم إلزامهم بالدخول فى الاسلام كما يروونه .*

وظن الاخوان أن معارفهم هى وحدها الدين ، وكانت هذه المعارف عبارة عن أمور ضئيلة ، فمثلا أصبح لبس العمامة هو السنتنة ، ولبس الميقل بدعة منكرة ، أو — عند بعضهم — لباس كفار ، واتجهوا الى أنه لا اسلام لمن لم يسكن الهجرة ، كما اتجهوا الى إساءة الظن بالحضر ، والاستعداد لهاجمتهم لأنهم أهملوا الإسلام كما يروونه ، وشاع عندهم أن الثوب الطريل إسراف يجب القضاء عليه ، فكانوا اذا وجدوا ثوبا طويلا قصوه معتمدين على فهم خاص للحديث الذى يقول « فضل الازار فى النار » ثم خطوا خطوة أخرى عارضوا بها كل وسائل الإصلاح فى الدولة ، ورأوها كفرا وانحرافا ، فعارضوا مدّ أسلاك التليفون بحجة أنها تنقل الأصوات بواسطة الشياطين ، وعارضوا ركوب الدراجة وسموها عربة الشيطان ، كما أنهم اتجهوا للعبادة ولم يهتموا بالفلاحة والإنتاج مما جعلهم عبئا على الخزانة السعودية ومصدر استهلاك لا إنتاج .

وهكذا كرّس الإخوان جماعات ليست أقل من البدو فى حمقتها وخطورها ، وان اختلفت مع البدو فى أسباب هذا الخطر .

ويصفهم الأستاذ حافظ وهبة بقوله : إنهم لا تعرف الرحمة قلوبهم ، ولا يفلت من تحت أيديهم أحد ، فهم رسل الموت أينما حلوا (١) .

ويطراً دائماً سؤال عن مدى العلاقة بين العلماء من نسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس حركة التوحيد وبين الاخوان ، ويحيب بعض الباحثين عن ذلك بقوله : إن هؤلاء العلماء قالوا بضرورة طاعة الامام

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣١٤ .

(م ١٤ - التاريخ ج ٧)

في مسائل الحكم كإقامة الحصون وإعداد الجيوش ، وتوقف هؤلاء العلماء عند مسألة المخترعات الحديثة ولم يبدوا فيها رأيا قاطعا ، وأظهروا تعاطفا مع الإخوان في بعض المسائل كإرسال المعلمين لتعليم الشيعة حتى يدخلوا في الإسلام ، ويمنع المحمل ما دام مصحوبا بما أسموه مظاهر الشرك (١) .

وهكذا يتضح لنا أن العلماء الوهابيين كانوا أكثر تطورا من الإخوان ، وكان استعدادهم لفهم أنضج وأقوى ، أما موقفهم من المخترعات الحديثة فلعله كان موقفا شائعا عند كثيرين من العلماء المسلمين بالعالم ، لأن الدراسات الإسلامية حتى مطلع القرن العشرين كانت متعثرة ، ولم يكن لعلماء الدراسات الإسلامية حظ يذكر من العلوم المدنية .

وانتهت الحال الى الصراع بين الملك وبين الإخوان عندما لم تبق وسيلة غير الصراع ، وكان فيصل الدويش أهم قائد من قواد الإخوان قد خر جريحا في إحدى المعارك سنة ١٩٢٩ ، وأشفق الملك عليه . ولكنه عندما أحسّ ربح العافية هبّ من جديد يصارع الملك ، وضيق الملك عليه حتى استسلم للانجليز الذين سلموه بدورهم للملك الذي عفا عنه بعد أن قلّتم أظافره ، ويروى أن الملك عندما انتهى من ثورات الإخوان قال : « من اليوم سنحيا حياة جديدة » ، مما يدل على أن الإخوان كانوا عائقا للتقدم والحضارة .

وبسبب ثورات الهجر توقف مشروع تحضير البادية سنة ١٩٣٠ .

الإخوان والجيش السعودي :

كان الإخوان يكونون النواة الأصلية للجيش السعودي ، وبهم خاض الملك عبد العزيز كثيرا من المعارك ، وحقق كثيرا من الانتصارات

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ص ٢٨ .

فبهم اقتحم الملك الأحساء ، وأخذها من الأتراك العثمانيين ، وبهم قضى على ابن رشيد ، وضم إمارة حائل ، وبهم اقتحم واحتى تربة وخرمة ، وبهم دخل مدينة الطائف •

ولكن الهجر كوَّنت للاخوان قوة وقيادات أثرتنا لها فيما سبق ، فقد أصبحت لجموع الهجر فلسفات بعدت قليلا أو كثيرا عن آراء الامام ، كما ظهرت بين الاخوان قيادات تمردت على توجيهاته كما رأينا في فيصل الدويش ، ولعل الخلاف بين الاخوان وبين الكويت كان نذير خطر أدركه الملك السعودي ، فقد جاء بعض الاخوان من قبيلة مطير وقرروا بناء هجرة عند بئر قريب من ساحل الكويت ، وأدى ذلك الى صراع مسلح بين الإخوان وأمير الكويت « سالم الصباح » الذى لم يكن حسن الصلة بالحركة النجدية التى يقودها الملك عبد العزيز ، وقد تدخل الملك بحكمته حتى لا يتفاقم هذا الصراع ، وساعد على الوصول لهذه النتيجة الطيبة تولية أحمد الجابر إمارة الكويت خلفا للشيخ سالم الذى توفى فانكمشت بوفاته هوة الخلاف •

ثم جاء دخول الطائف فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، وفى الطائف أفلت زمام بعض الإخوان أو قل نفذوا اتجاههم الذى كان يرى من سواهم مشركين لا حرمة لهم ولا لأموالهم فأكثروا القتل والسلب •

وبجانب هذه الفوضى قاوم الاخوان استعمال الآلات الحديثة ، وكانت الجيوش فى العالم قد عرفت آلات حربية لم تعرفها من قبل •

من أجل هذا بدأ الملك عبد العزيز يعد فرقا جديدة من الشبان لتكون نواة جيشه ، فاختار جماعات تدين له بالولاء الكامل ، وتلتزم بالطاعة التامة لولى الأمر ، ودرب هذه الجماعات على استعمال الأسلحة الحديثة التى استنكر الاخوان استخدامها •

وعندما لم يبق إلا القوة حكما بين الملك وبين المتمردين من الاخوان اقتحم الملك بجيشه النظامى تجمعات مطير الثائرة بقيادة فبصل الدويش وعملت السيارات المصفحة والآلات الحديثة عملها ، فهزمت جموع الثائرين شر هزيمة ، وأسلم قائدها نفسه للانجليز كما سبق .

وأصبح الجيش السعودى منذ ذلك اليرم جيشا نظاميا موحد القيادة سواء انحدر جنوده من الإخوان أو من الحضر .

رحلة الى القطط :

فى الرابع من شهر فبراير ١٩٧٧ قمت ومعى بعض الأصدقاء برحلة إلى القطط وهى قرية قريبة من مدينة المراحمية التى تبعد عن الرياض بحوالى ثمانين كيلوا مترا .

والقطط الآن بقايا قرية واسعة تقع فى أحضان منطقة خصبة كثيرة الزرع والنخيل ، وقد دققنا باب شيخ (مطوَّع) له صلة بأحد رفاقنا فى الرحلة ، وقد أحسن المطوع استقبالنا ورحب بنا ودعانا لجلسة فى نخيله على بعد حوالى ميلين من المنزل ، وقد هتف بآبانه أن يحضر بعض البلح فأسرع الابن باحضار عدل كبير ، وكنا نظن أننا سنأكل منه فقط ، ولكن الرجل أسرع فأفرغه كله فى سيارتنا وسار معنا إلى حديقة النخيل على حافة القطط وجلس يحدثنا عن أحداث الاخوان هناك .

وكان الرجل يهمس فى حديثه كأن الحديث عن الاخوان خطير مثل خطر الاخوان أنفسهم ، وذكر الرجل أن مؤامرة أعدوا الاخوان ضد الملك عبد العزيز ، فقد أرسلوا له يدعونه للقاء ، ولكنهم كانوا يضمرون الغدر ، وقد استطاع أمير المنطقة (ماجد بن خثيلة) أن يعرف خبر المؤامرة فأرسل بأخبارها سرا الى الملك عبد العزيز الذى أخذ حذره ، وبعد أن انكشف خبر المؤامرة أعان الإخوان عن عصيانهم ، وكانوا قد أعدوا قريتهم إعدادا يناسب التمرد ويواجه الحصار ، وقد زرنا بقايا القرية حيث وجدنا الاستحكامات

والاستعدادات ، فأماكن للتجمع والدفاع والهجوم ، وآبار عامة وآبار خاصة تساعد على احتمال ما يمكن من حصار ، وأسوار ومراقب ، ثم أن الغطط متصلة تماما بمناطق زراعية وحدائق واسعة يمكن الاختباء فيها ، ويمكن الانتفاع بثمارها وزرعها مهما طاللت المقاومة •

وقد اتخذ الملك كل الوسائل ليردع الإخوان وليعودوا إلى الطاعة ، ولكن هؤلاء كانوا قد ألفوا الحروب وتكفير الناس ، وبالتالي استحال أمرهم ، فلم يعودوا يقنعون بما تنبته الأرض أو تقدمه الدولة •

وبدأت المعركة ويبدو أنها كانت شرسة ، وقد رأى الملك ضرورتها ليحمي الدولة التي بناها بالعرق والجهد ، ولم يبدأ الملك المعركة إلا بعد محاولات واسعة ليتراجع هؤلاء إلى الطاعة ، ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى غاية الشطط ، بل إنهم بدءوا بإشعال نار الحرب ، فدارت الدائرة عليهم بعد أن أظهروا بطولات هائلة وصمودا عظيما ، وقد قتل منهم عدد كبير وجرح وأسر كثيرون ، وأغضى الملك الطرف عن مئات منهم ليهربوا ، ويختفوا هنا وهناك وينمأوا بالمجتمع رعاة وزراعا وعمالا ، ويتحدث (المطوع) سالف الذكر عن حميه الذي كان واحدا من هؤلاء ، فاختمى في مزارع أهل المطاع ولحقت به أسرته وكنتموا أمره ... شأن كثيرين من أمثاله . كان الملك يدرك ذلك ويرضى عنه ولكن دون أن يعلن ذلك ، فإنه كان حريصا على تقليل أظافرهم والقضاء على خطرهم ، ولكنه لم يكن قط حريصا على دمائهم ، ولو كان يريد قتلهم بعد هزيمتهم ما نجا منهم أحد لأن سطوته كانت غالبية •

وقد سرت مع رفاقي نجوب أطلال القرية الكبيرة ، وقد دمرت تدميرا تاما خلال المعركة ، ودمر ما تبقى من منازلها بعد المعركة ، وصدرت الأوامر ألا يعاد بناؤها لتظل هكذا تذكّر من تراوده نفسه بالعصيان ، ولم يعمّر من أبنيتها إلا المسجد الذي أعيد بناؤه على أحسن حال ، وهو يقف شامخا يمس الأطلال وإن كان لا يوجد من يصلّي فيه إلا القليل النادر من المنطقة من الناس •

نهاية البطل

كل شيء في هذه الدنيا له نهاية ، والملك عبد العزيز أمضى نصف قرن في صراع عسكري رأيناه واجتماعي سنراه ، وآن له أن يستريح بعد ما بذل من جهد وحقق من أهداف تعزّه على الكثيرين ، وقد سعدت روح الملك إلى بارئها في ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ (الموافق ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٣) تاركاً أجل الأعمال ، وأخذ الذكريات • رحمه الله رحمة واسعة ، وأحسن جزاءه كفء ما قدم للإسلام والمسلمين من خير وعون •

مآثر الملك عبد العزيز :

إن الدراسة السابقة تبرز المآثر السامية للملك العظيم عبد العزيز آل سعود ؛ فلقد خلق مملكة عظيمة من الأثنيات التي كانت متصارعة ، وأقام دولة شامخة متماسكة إنماع فيها الجميع وافتخر بها الجميع ، وذلك وضع قل أن وجد في هذه البقاع ، ولا شك أن كل حبة من حبات الرمان بالجزيرة العربية أحست بعرق الملك وجهده •

ولما كوّن الملك هذه المملكة الفسيحة فتح أبوابها للحضارة والمجد ، ورهياً لها لتأخذ مكانها العظيم في التاريخ •

وسنعود فيما بعد للحديث عن حضارة المملكة العربية السعودية •

الملك سعود

كان الملك عبد العزيز قد عين ابنه الأكبر « سعودا » ولياً للعهد ، وأخذ البيعة له في مارس سنة ١٩٣٢ ، كما عين ابنه الثاني « فيصل » ولياً للعهد لابنه الأكبر ، فلما مات الملك عبد العزيز نفذ الأمراء والعلماء رغبة الملك الراحل ، فأصبح « سعود » ملكاً ، وأصبح فيصل ولياً للعهد بالإجماع •

وكان التعجيل بتعيين فيصل وليا لعهد الملك سعود نابعا عن حقيقة كانت واضحة هي أن فيصل كان يمثل اتجاهها هاما ، ولا يمكن أن يتدبر أمر المملكة بدونه ، فقد كان الملك سعود يمثل الاتجاه التقليدى المحافظ فى الحكم ، وكان ولى العهد يمثل الطبقة المثقفة المستنيرة ، وكان ذلك سببا لصراع خفى حيناً أو بارزا حيناً آخر بين الشخصيتين الكبيرتين ، فالملك سعود يريد أن يكون فى مكان أبيه له السلطان كله ، ولكن الملك سعود لم يكن فى كفاءة أبيه ، ولم تكن له جهود أبيه لخلق هذه المملكة الواسعة •

أما ولى العهد فمع ثقافته وخطته الإصلاحية لم يكن يريد الصدام مع أخيه حرصا على مكانة الدولة من جانب ومكانة الأسرة من جانب آخر ، وسارت أمور الصراع الخفى والمظاهر على النحو التالى :

— ١٩٥٧ ترك فيصل المملكة إلى الخارج تفاديا للصدام مع الملك ، — ظهر اضطراب اقتصادى فى المملكة بسبب ما عانته فى السنوات التى تلت توقف الملاحة فى قناة السويس بسبب الاعتداء الثلاثى سنة ١٩٥٦ ، فأحدث هذا حرجا فى موقف الملك فاستدعى الملك أخاه الأمير فيصل ، وترك له تشكيل وزارة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٥٨ • وفى هذه الوزارة وضع الأمير فيصل أسسا اقتصادية وسياسية سرعان ما ضاق بها الملك ، كما ضاق بها الذين تأثروا بها اقتصاديا ، وأدرك فيصل أن مناورات تدبر ضد موقفه فى الخفاء ، فأثر التخلّى مرة أخرى عن السلطة ، فترك رئاسة مجلس الوزراء سنة ١٩٦٠ •

وشكل الملك سعود الوزارة عقب ذلك برياسته ، ولكن مجلس الوزراء الجديد لم ينجح فى اقرار الأمور ، ثم قامت باليمن ثورة السلاسل ، فخاف الملك عواقبها فلجأ مرة أخرى إلى أخيه ليتولى السلطة من جديد •

— نوفمبر ١٩٦٢ فيصل يعود للسلطة من جديد ، وفى هذه المرة وضع برنامجا واسعا للإصلاح يلخص فى الآتى :

فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية :

- وُضِعَ ميثاق يجمع بين الدول الإسلامية في دائرة تضامن وتعاون •
- محاربة بقايا الاستعمار في كل البلاد الإسلامية •
- التعاون الصارم ضد الصهيونية ولصحة فلسطين •

وفي المجال الداخلي :

- أصدر فيصل قرارا بإلغاء الرق إلغاء تاما على أساس تعويض الملاك •
- سن تشريعات تضمن حقوق العمال •
- تزويد البلاد بأحدث الأجهزة في ميادين المواصلات والصحة والتعليم •

وسافر الملك سعود إلى نيس بفرنسا للاستشفاء ، وهناك اتصل به أنصاره يخوفونه من إصلاحات ولي العهد التي ستقضى على حكم الملك وتربط البلاد بولي العهد •

وسرعان ما عاد سعود محاولا استرداد سلطته والاستبداد بها ، وكان معنى هذا هو العودة بعقارب الساعة إلى الوراء ، ولذلك فشل ولم تمكنه الظروف من ذلك مما اضطره إلى مغادرة البلاد تاركاً خلفه جرحاً حافلاً بالغموض والاضطراب •

وكان لابد من وضع حد لهذا الغموض ، فصدر في ٢٣ مارس سنة ١٩٦٤ فتوى وقعها علماء السعودية طلبوا فيها من الملك سعود أن يقوم فيصل بتصريف جميع شئون الدولة الداخلية ، الخارجية وأن يبقى الملك سعود ملكاً بالاسم فقط ، وأيد مجلس الوزراء فتوى العلماء • ووافق الملك على ذلك ، وعلى نقل جميع سلطاته إلى الأمير فيصل •

— خطا العلماء وأفراد أسرة آل سعود خطوة أخرى ، فقرروا في أواخر أكتوبر سنة ١٩٦٤ خلع الملك وطلبوا إلى الأمير فيصل أن يتولى الملك ، وفي الثامن من نوفمبر ١٩٦٤ قرر مجلس الوزراء السعودي الاستجابة لقرار العلماء والأمراء ، فخلع الملك سعود وباع الأمير فيصل ملكا شرعيا على البلاد ، وقبل فيصل هذه المبايعة فتم له الأمر •

— في الثاني من يناير سنة ١٩٦٥ أى بعد شهرين من عزل الملك سعود أعلن الملك السابق (سعود) موافقته على ما ارتآه أهل الحل والعقد فكتب للملك فيصل خطابا نصه كما يلي :

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى جناب الأخ
جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز سلمه الله •

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، بناء على ما أقرته الأسرة والعلماء بتنصيبكم ملكا على البلاد فإننا نبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله ملكا للبلاد راجيا لكم التوفيق ، وللشعب السعودي الرفاهية والازدهار والتقدم والسلام •

وتوفي الملك السابق سعود سنة ١٩٦٩ ونقل إلى الرياض حيث دفن بها •

الملك فيصل *

لم يكن الملك فيصل جديداً على الحكم ولا على الحياة الدولية ، فقد كان ساعد أبيه في نضاله ، وكانت مواهبه الادارية واضحة وعالية ، وفيما يلي أبرز المناصب والأعمال التي باشرها فيصل قبل أن يصير الملك إليه :

— اصطحب أباه في هجومه على ابن رشيد في حائل سنة ١٩٢٠ •

— اشترك في حصار جدة بعد أن استولى السعوديون على الطائف ،

في سنة ١٩٢٧ أصدر الملك عبد العزيز (التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية) وعين فيصل نائبا عاما للملك في الحجاز ورئيسا لمجلس الشورى ، وكان عمره آنذاك عشرين عاما •

— في مايو سنة ١٩٢٧ كان فيصل نائبا عن والده في المباحثات التي جرت بين المملكة وبين الانجليز الذين كان يمثلهم الجنرال « كلايتون » لتعديل معاهدة العقير التي سبق أن وقّعت في أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ ، وكان بها بعض القيود التي تتنافى مع الاستقلال الكامل للبلاد ، وقد انتهت المفاوضات بإبطال معاهدة العقير واستقلال البلاد استقلالاً تاماً •

— شغل منصب رئيس مجلس الوكلاء الذي كان يدير أكثر الشؤون بالبلاد ، والذي صدر به مرسوم سنة ١٩٣٢ •

— وكان أول وزير للخارجية عندما أنشئت هذه الوزارة •

— وقد أنشئ مجلس الوزراء في أكتوبر ١٩٥٣ في عهد الملك

(*) من مراجعنا للحديث عن جلالة الملك فيصل الكتب التالية :

(١) خطب الملك فيصل بن عبد العزيز في وفود الحجاج المسلمين •

(٢) فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وافعاله للدكتور صلاح الدين

المنجد •

(٣) معجزة فوق الرمال للاستاذ أحمد عيسى •

عبد العزيز ، على أن يكون الأمير سعود رئيساً لهذا المجلس والأمير فيصل نائباً للرئيس ، ولكن الملك عبد العزيز توفي في الشهر التالي (٩ نوفمبر) قبل أن يباشر هذا المجلس سلطاته ، ولما أنشئ هذا المجلس في عهد الملك سعود كانت الرئاسة الفعلية لولى العهد (فيصل) ولو أن الرئاسة الاسمية كانت للملك سعود .

— وقد رأينا جهده العظيمة في خلال عهد الملك سعود ، تلك الجهود التي رجحت بكفته ونقلت الملك إليه .

وإذا كان الملك عبد العزيز قد أسس الدولة ووجدها ووضع أسس نهضتها فإن الملك فيصل رفع شأن البناء ، ونقل المملكة من عصر إلى عصر ، ومن حال إلى حال ، وقد برهن جلالته بحق أنه قمة من قمم العروبة ، ورائد من أعظم رواد الإسلام ، وفتح جديد بين الرجال .

ماثر الملك فيصل :

وقد اتجهت جهود الملك فيصل إلى كل اتجاه ، فله في الميدان الداخلي جهد يذكر فيشكر ، وله كذلك جهود عظيمة في الميدان العربي والإسلامي ، وكذلك في الميدان الدولي .

وتشعبت جهوده الداخلية فشملت الجانب الثقافي والاقتصادي والاجتماعي ، كما شملت حركات التقدم والعمران وتقوية الجيش .

ففي مجال العلم والمعرفة فتحت الجامعات في مختلف العواصم بالمملكة ، وشيدت مئات المدارس والمعاهد والكليات لتستوعب مئات الألوف من الطلاب ، كما ارتفع عدد المبعوثين من أبناء المملكة إلى الخارج ارتقاء عظيمًا .

وقد أصبح عدد الطلاب يقترب من المليون في جميع مراحل التعليم .

وارتفعت مخصصات تعليم الفتيات في عهده إلى ٤٨٥ مليون ريال ، أى ٢٤٢ ضعفا عما كانت عليه سنة ١٩٦٠ ، حينما بدأت سياسة تعليم الفتيات في السعودية ، وكان فيصل وقتئذ رئيسا للوزراء ، وهو الذى أصدر هذا القرار ، وتحمل كل آثاره من جانب العقول المتعصبة الرافضة لتعليم الفتيات .

وفضلا عن ذلك دخلت المملكة السعودية عصر التصنيع على يديه ، فبدأت خطوات جديدة تستهدف الانتقال بهذه البلاد من مجرد الاعتماد على ثروتها الطائلة من البترول إلى بلد يسير نحو الصناعة ، وتطوير الزراعة .

كما صاحب ذلك حركة مماثلة في ميدان الصحة ، حيث انتشرت المستشفيات وظهرت قلاع علمية طبية تستفيد من أحدث المنجزات العلمية في هذا الميدان ، وتجذب إليها أعظم الخبراء في هذا المجال .

وفي الميدان العربى كان الملك ضمان ود عند الأزمات ، وكان دائما كبير القلب مستعدا أن يمد يده لكل العرب وأن يتعاون معهم ، يمشى للرؤساء العرب أو يستقبلهم ، وكان مستعدا — من أجل المستقبل — أن ينسى إساءات الماضى التى تنسب لبعض الرؤساء ، وكانت الميزانية السعودية على استعداد أن تقدم المال كلما احتاجت الأمور للمال ، وبخاصة للمنظمات الفلسطينية التى تصارع لاستعادة كيائها .

وفي الميدان الإسلامى كانت هناك حقيقة تتمثل أمام الملك هى أن بلاده مشرق أنوار ، وأن الإسلام انبثق من الأرض المقدسة التى تقع ضمن نطاق مملكته ، وإذا كان الفكر الإسلامى قد اتخذ له عدة مراكز هنا وهناك فإن الحجاز ينبغى أن يظل مركزا مهما من مراكز الفكر بالإضافة إلى آيه مقدسه الآلاف من المسلمين كل عام للحج وزيارة مدينة رسول الله ، وقد اتجه الملك بعناية فائقة إلى ربط بلاده بأقطار العالم الإسلامى برباط من الود

الموثيق وتبادل المنافع ، كما اتجه إلى أن يكون من المسلمين قوة تقف أمام
الملايينية والإلحاد ، وتعمل على التعاون المثمر حتى تبقى كلمة الله خفاقة
عالية ، والذي يدرس تاريخ الملك فيصل في هذا المجال يجده سلسلة من
النشاط أثمرت أطيب الثمرات ، وعملت على أن تخلق من المسلمين قوة كبيرة
قوية متماسكة تتعاون في مختلف المجالات ، حتى تسهم كل دولة من الدول
الإسلامية برصيدا الفكرى أو البشرى أو الاقتصادى بهدف خدمة المجتمع .

ولا شك أن الملوك والرؤساء المسلمين استجابوا أقوى استجابة لدعوة
الملك فيصل للتضامن والتعاون ، فالتضامن والتعاون بين المسلمين من
أهم أسس الإسلام ، وعندما ينادى بهما صوت أو ترتفع بهما راية يتجاوب
المصدى في كل مكان ، وتجتمع حول الراية كل القوى بالحماس والثبات
والأمل .

فيصل وحرب رمضان ١٣٩٣ (أكتوبر ١٩٧٣)

من الحق أن نذكر أن الملك فيصل كان له دور فريد في حرب رمضان ،
وقد بدأ هذا الدور قبل اندلاع المعركة ، فقد صرح الرئيس أنور السادات
بأنه عرض على الملك فيصل قبل المعركة بفترة نيئة مصر نحو بدء الصراع
ضد إسرائيل ، ودعا الملك فيصل لمصر بالتوفيق ، ووعده بكل التأييد في جميع
المجالات ، كان له شرط واحد هو أن تكون المعركة طويلة ، فطولها فرصة
لثقة والجدية ، وبالتالي للتجمع العربى والتضامن ، ووعده أنور السادات
بذلك .

ومع بدء المعركة وصلت برقية إلى الرئيس السادات من الملك فيصل
يقول : « نؤكد لكم بأننا إلى جانبكم بجميع إمكانياتنا ، داعين للجيش
المصرى المظفر بالنصر والتأييد » .

• ودارت المعركة ، ووقف الرجل عملاقا هائلا كأنه في غرفة لعمليات الحربية ، ويقول الرئيس السادات عنه :

إن كل ما صدر بعد ذلك عن قضية البترول ، وعن مدّ مصر بكل ما تحتاج إليه ، وعن الموقف الصائب في المحيط الدولي ، وعن الدعم الكامل للتضامن العربى ... كل ذلك صدر من الملك فيصل دون أن يطلب أحد منه شيئا » •

وعلى هذا فسيظل التاريخ يذكر للرجل دوره الكبير في المعركة الناجحة •

ومن الواضح أن صدى قطع البترول عن أمريكا كان عنيقا للغاية ، فلقد أحس كل بيت وكل مصنع بهذه الصدمة الشديدة ، وانطلقت ألوان من التهديدات الثائرة ، ولكن الرجل كان أصلب عودا ، وكان كالجبل الأثمن ، فلم تتل منه هذه الترهات منالا ، وتراجعت التهديدات من تلقاء نفسها ، وسحبها أولئك الذين ظنوا أن صداها سيكون له تأثير على نفس الملك ، مع العلم أن الملك لم يقل شيئا يرد به على هذه التهديدات ، ولكن صمته كان أبلغ من كل كلام ، فالذين هددوا توقفوا عن التهديد ، ثم سحبوا هذا الشعار الزائف وتراجعوا ثم سلكوا الطريق الذى يرضى الصف العربى الذى نال من الملك فيصل قوة وثباتا وجلالا •

ولم يكن قرار فيصل عن البترول وليد انفعالات صاحبت المعارك العسكرية ، وإنما جاء تنفيذا لحكمه ولحساب دقيق ، ومن أجل هذا اجتمعت حول هذا القرار كلمة جميع الدول العربية المنتجة للبترول •

وكانت معركة البترول — ولا زالت — نموذجا لاستخدام الحكمة والدهاء والمرونة التى هزت أنماط التفكير الغربى من أساسه ، فبدأ يعيد الحسابات فى مواقفه نحو العالم العربى ، وكانت النتائج مذهلة :

— تحركت دول أوروبا الغربية لتصدر قرارا جماعيا تطالب فيه بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها •

— تخلت اليابان عن حيادها ، وأعلنت انحيازها وإيمانها بالقضية العربية ، وبدأت تشترك بصوت فعال في عمليات تنمية الدول العربية •

— ثم تحركت الولايات المتحدة ، وبدأت تبحث عن حل للأزمة الشرق الأوسط ، بعد انحياز كامل دام أكثر من ربع قرن نحو ربيتها المدللة

— وانتهت إلى الأبد حالة الملا حرب واللا سلم • وشرع كينسجر في رحلاته المتلاحقة لنزع الفتيل من الأرض المشتعلة والمهددة بالانفجار ، وما يستتبع ذلك من خطورة الموقف الدولي •

— أفاق العالم بأسره من غيبوبة اللامبالاة ، واعتناق أسطورة الدولة المسالمة التي يريد العرب إلقائها في البحر •

نهاية الملك فيصل :

وهذا الرجل الذي رفع شأن بلاده وأعز شأنها ، وأيد المعركة قبل أن تقوم ، ودعمها وهي مشتعلة ، وناصرها بحزم بعد أن توقفت ، سقط شهيدا في لحظة كان العالم العربي ، والعالم الإسلامي في أشد الحاجة إليه ، وكان موته غدرا بيد ابن أخيه المسمى فيصل بن مساعد بن عبد العزيز ، وقد أطلق عليه هذا الشاب الرصاص وهو يتظاهر بأنه يريد أن يقدم له التحية ، وفي لحظة سريعة أفرغ في جسد الملك رصاص مسدسه ، وسقط الرجل العظيم شهيدا في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٩٥ هـ (٢٥ مارس ١٩٧٥) وأحدث نبا اغتيال الملك فيصل دويا هائلا في العالم كله بوجه عام ، وفي العالم الإسلامي والعربي بوجه خاص •

وكان الشاب القاتل قد عاد حديثا من أمريكا ، ولا يستبعد أن يكون قد تأثر بالحنق الذي يذيعه الصهيونيون وعملاؤهم ضد الملك الراحل ،

فأقبل الشاب على فعلته الطائشة لهذا السبب أو لسواه ، وقد قيل عقب الحادث أن الشاب مختل العقل ، ولكن سرعان ما أثبت الأطباء أنه عاقل مسئول عما يفعل ، وبناء على ذلك قدم الشاب للمحاكمة ، وقد استغرقت محاكمته عدة أشهر ، ولما سئل أحد أولاد الملك الراحل عن القصاص قال : وماذا يجدى القصاص من ذلك الشاب بعد أن قضى بفعلته الشنعاء على رجل كان العالم الإسلامى يتطلع إليه ويرقب فضله :

ولكن القصاص على كل حال يحمى الأحياء من مثل هذا التصرف الإجرامى ، وهو المعنى الذى تشير له الآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة » .

وفى صبيحة يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٧٥ صدر حكم المحكمة الشرعية بإعدام القاتل الأثيم وتم تنفيذ الحكم فى نفس اليوم وصدر بذلك بيان رسمى يقول :

« تم تنفيذ الإعدام فى المجرم القاتل بناءً على حكم أصدرته صباح اليوم المحكمة الشرعية العليا لارتكابه جريمة قتل فقيد الأمة العربية والإسلامية المغفور له الملك فيصل ، وإن جلالة الملك خالد بن عبد العزيز قد صدق على الحكم فور صدوره وأمر بتنفيذه عقب صلاة العصر » .

وقال الراديو نقلا عن بيان للقصر الملكى أن القاتل اعترف خلال محاكمته بأنه قتل الملك لكى يضع حدا للإسلام ، وأن جريمته هى جزء من أهدافه لمحاربة هذا الدين . لعن الله هذا القاتل الأثيم .

ورحم الله الفقيد وأثابه على ما قدمه لبلاده وللعالم العربى والإسلامى من جهد وعون .

الملك خالد بن عبد العزيز

عقب وفاة الملك فيصل صدر عن الديوان الملكي السعودي بيان يقرر أن أفراد الأسرة المالكة وأولى الأمر بالمملكة بايعوا ولي العهد الأمير خالد بن عبد العزيز ملكاً على البلاد ، وبعد إتمام البيعة أعلن صاحب الجلالة الملك خالد ترشيح صاحب السمو الملك الأمير فهد بن عبد العزيز ولياً للعهد وقد أجمع أفراد الأسرة وأولو الأمر على ذلك ، ثم بايعت الجماهير والقوات المسلحة الملك وولى العهد .

ولئن سقط في الميدان بطل ، فهناك أبطال وأبطال يملئون الفراغ ويكملون مسيرة الذين رحلوا بعد أن أناروا الطريق ، ومهّدوا السبيل .

وفاة الملك خالد

لم تطل حياة الملك خالد بعد أن آلت له الأمور ، فقد هاجمته الأمراض ، وعجز الطب عن شفاؤه ، وأسلم الروح بعد حياة ملكية قصيرة ولكنها عامرة بالإيمان والخدمات العامة رحمه الله وأجزل ثوابه .

البيعة للملك فهد بن عبد العزيز

وآل الملك للملك فهد ، وهو من الملوك الأفذاذ ، فقد استطاع أن يعيد أمجاد أخيه الملك العظيم فيصل في قوته وكياسته وعمق تفكيره وحسمه للأمور ، عطر الله أيامه ، وجعل عصره من أزهى العصور للمملكة العربية السعودية وللعالم الإسلامي كله .

وللملك فهد مآثر رائعة بجديرة بالتسجيل مع الإجلال والتقدير ومن أهمها ما يلي :

تعاون وعون :

شهد هذا العصر تعاوننا وصل إلى القمة بين المملكة العربية السعودية

(م ١٥ - التاريخ ج ٧)

وبين دول العالم الإسلامى ، وفتحت المملكة خزائنها بقدر الطاقة لكل الدول التى طلبت عوناً أو مسّها الضر ، وعندما شمل التصحّش بعض الدول الإسلامية بإفريقية فى الثمانينات امتدت يد العون من السعودية فكانت بلسماً خفف آلام المنكوبين وأزال كربتهم ، : أحس الجميع أن الملك « فهد » واقف فى صفوفهم •

ملايين النسخ من القرآن الكريم :

وقامت المملكة بطبع ملايين النسخ من القرآن الكريم ووزعتها على العالم الإسلامى ، واختارت لهذه المصاحف أحسن الأوراق وأجود وسائل الطباعة •

وعندما هبت صحوة إسلامية فى الدول الإسلامية التى يشملها الاتحاد السوفييتى استغلت المملكة السعودية هذه الفرصة وأرسلت للمسلمين هناك ملايين من المصاحف ومن الكتب الإسلامية ، وكانت هذه الهدية مؤثرة تأثيراً عظيماً ، ولقطة إسلامية طيبة •

خادم الحرمين الشريفين :

وتنازل الملك فهد عن لقب « صاحب الجلالة » واختار بديلاً عن ذلك لقباً آخر هو : « خادم الحرمين الشريفين » •

جسر الملك فهد :

ومن أخطر الأعمال التى تمت فى هذا العهد الميمون « جسر الملك فهد » • وطوله ستة وعشرين كيلو متراً ، وهو الذى وصل « دولة البحرين » بأرض السعودية ، وقضى بذلك على الأمل الفارسى الذى كان يراود حكام إيران بأن تكون جزر البحرين جزءاً من إيران ، وسفرى عندما نتكلم عن البحرين محاولات الفرس للتسلل لهذه البلاد ، ولكن هذا الجسر قضى على الأطماع والمحاولات وثبتت البحرين دولة عربية عميقة العروبة •

أقسام المملكة العربية السعودية

وأهم بلدانها

بعد هذا الحديث عن المملكة العربية السعودية يتضح لنا أنها الآن تشمل أربعة أقسام رئيسية هي : نجد والأحساء والحجاز وعسير ، وأن نجدا تشغل المساحة العظمى بالمملكة ، وأما الأحساء فتطلق على المنطقة الممتدة على الساحل الغربى للخليج من حدود المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية إلى حدود قطر ، أما الحجاز وعسير فيشغلان شريطا موازيا للبحر الأحمر يضيق حيناً فيصل إلى عشرة أميال ، ويتسع حيناً فيصل إلى أربعين ميلاً ، ويقع الحجاز في الشمال وعسير في الجنوب وفيما يلي معلومات سريعة عن أقسام المملكة :

أولاً — نجد :

تحدثنا عن نجد حديثاً طويلاً فيما سبق ، وكل ما نضيفه هنا أن نجدا معناها الأرض المرتفعة وعكسها تهامة ، وأن نجدا تمثل همزة الوصل بين أقاليم المنطقة وهى التى تربط بينها ، وفي نجد مواقع أكثر المشاهير من شعراء الجاهلية ، ففي جبل السموأل بالقرب من حائل عاش حاتم الطائي وسجل أروع المكرمات ، وفي منطقة الوشم توجد بلدة جرير الشاعر ، وفي بلدة منفوحة عاش الأعشى الشاعر ، وهكذا ، وتعداد نجد حوالى مليونين

ثانياً — الأحساء :

الأحساء هى — كما سبق — الأرض الرملية التى يقرب الماء من سطحها ، وهى اليوم تطلق على المنطقة الممتدة على الساحل الغربى من الخليج العربى من حدود المنطقة المحايدة جنوب الكويت إلى حدود قطر ، وتلتقى بالربع الخالى فى الجنوب ، وكانت قديماً تسمى البحرين أو هجر ، ويقول أبو الفدا ، إن البحرين أو هجر ناحية تمتد على شط بحر فارس ،

والأحساء جزء فيها ، والقطيف بلدة على شاطئ بحر فارس من البحرين (١) وتعرف هذه المنطقة الآن بالمنطقة الشرقية •

ومنطقة الأحساء كثيرة العيون ، نضرة خضراء ، خصبة التربة تنمو بها زراعات الأرز وغيره من الحبوب ، ويكثر بها النخيل كما توجد بها أنواع مختلفة من الفواكه ، ولكن أعظم ما تشتهر به الأحساء هو حقول البترول الهائلة التي تمثل بحرا فيضاً بالذهب الأسود ، وتكثر البلدان المشهورة بالأحساء ، ومن أهمها البلدان التالية :

— الهفوف : كانت عاصمة الأحساء قبل اكتشاف النفط ، وهي مقر أسرتين من كبار التجار الأثرياء ، وهما القصيبي والعجاني ، ولأفراد هاتين الأسرتين قصور ضخمة تحيط بها حدائق فينانة ، والهبوف مدينة مسورة ، وبها سوق حافلة بأنواع البضائع والحاجيات ، وكانت الهفوف عاصمة المنطقة في العهد العثماني يوم كانت الأحساء لواء إداريا مستقلا •

— الظهران : هي مدينة حديثة تقع على أكمة مسماة بهذا الاسم ، وتبعد حوالي خمسة أميال عن الساحل ، والظهران مركز شركة الزيت العربية الأمريكية ، وقد أنشئت الظهران على نسق انبلاد الأمريكية ، ولها ميناء على الساحل وهو رأس تنورة ، ومنه يتدفق البترول إلى نواح مختلفة بالعالم •

— القطيف : واحة في الجهة الشمالية الشرقية من الأحساء ، وأكثر سكانها من الشيعة ، وهي تقع على الخليج على بعد ٣٦ ميلا من الظهران ، وهي كثيرة المياه العذبة ، وبها حركة تجارية واسعة •

— الدمام : تقع الدمام على الخليج ، وهي عاصمة الأحساء الآن ، وتبعد سبعة أميال عن مدينة القطيف وكانت الدمام قد خربت في القرن

(١) أبو الفدا : كتاب البلدان ص ٩٨ - ٩٩ •

التاسع عشر ، ثم أعيد عمرانها ، وفي الدمام تكثر الحداثق والآبار
الارتوازية ، وهى مركز اقتصادى هام ، ومركز رئيسى لشحن البترول ،
وأهم الموانئ السعودية على الساحل الشرقى ، وتبدأ منها سكة حديد
الرياض •

وسنتكلم عن تاريخ الأحساء فيما بعد ضمن حديثنا عن منطقة الخليج •

ثالثا — الحجاز :

طول الحجاز على ساحل البحر الأحمر حوالى ٧٠٠ ميل تبدأ من
خليج العقبة إلى عسير ، ويقدر عدد سكان الحجاز بحوالى مليونى نسمة ،
وهم يتكونون من حضر يسكنون المدن أو القرى ويشغلون بالتجارة أو
الزراعة ، ومن بدو يتنقلون طلبا للمراعى وبحثا عن الماء •

وتجارة الحجاز تنحصر غالبا فى البضائع التى ترد له من الخارج
والتى يشتريها الحجاج ويعودون بها إلى بلادهم ، وتصدّر الحجاز بعض
الحاصلات من التمر والجلود والحناء والصمغ ، وأهم مدن الحجاز مكة
والمدينة والطائف وجدة وينبع ، وسنتكلم كلمة عن كل من هذه المدن :

— جدة : جدة هى الميناء الأولى للمملكة العربية السعودية ، وينبع
هى الميناء الثانية ، وتقع جدة فى منتصف طول البحر الأحمر تقريبا ،
وبينها وبين مكة ٥٥ ميلا ، وقد أسست جدة فى عهد الخلفاء الراشدين
أسسها الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وكان بجدة قبر ينسب إلى حمراء أم
البشر ، وقد أزالته حركة الإصلاح ، إذ كان الحجاج يتمسحون به ،
ويتوسلون به إلى الله •

وتبعد جدة عن بور سودان الواقعة على الشاطئ الآخر بمقدار
١٩٠ ميلا ، وتبعد جدة عن السويس بمقدار ٧١١ ميلا ، وكانت تحصل
على ماء الشرب من تقطير مياه البحر ، ولكنها الآن تحصل على المياه
العذبة من منابع فى وادى فاطمة الذى يبعد عن جدة بمقدار ٥٠ ميلا •

— مكة : ومكة تسمى بكة وأم القرى ، وهى أشهر مدن الحجاز ، وتعتبر المدينة الأولى بالمملكة العربية السعودية ، تقع على ارتفاع يبلغ ١٤٠٠ قدم ، ولا يدخلها غير المسلمين ، وهى محاطة بالتلال الصخرية ، ومعرضة لحرارة الصيف الهائلة ، كما أنها تتعرض أحيانا لفيضان جارف وتتعتمد مكة على عين زبيدة فى الحصول على ماء الشرب ، وفى مكة يوجد المسجد الحرام أول مساجد العالم ، ولقد كان فى مكة كثير من الآثار التاريخية مثل المكان الذى ولد فيه الرسول ، وببيت السيدة خديجة ، وبيت أبى بكر وغيرها من الآثار ، ولكن الإخوان هدموا هذه الآثار مع ما هدموا من القباب والقبور ، ويقول المؤرخون للحركة السعودية الأولى إن مكة والمدينة فى أثناء الحكم السعودى فى القرن التاسع عشر قد أزيل منهما كل الآثار التاريخية التى كان يثبرك بها الحجاج (١) .

— المدينة : المدينة تسمى طيبة ويثرب ، وهى أول عاصمة إسلامية ، وتبعد المدينة عن مكة حوالى ٣٠٠ ميل ، وعن ينبع حوالى ١٣٠ ميلا ، وبها قبور الصحابة وآل البيت وأئمة الحديث والفكر ، وكانت تكثر بها القباب والمباني فوق هذه القبور ، ولكن الحكومة السعودية هدمت هذه القباب والمباني وسوّتها بالأرض ، وترتفع المدينة حوالى ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، وفى المدينة مياه غزيرة وافرة تساعد على زراعة الفواكه والخضر بكثرة تزيد عن حاجة السكان .

— الطائف : والطائف مدينة مسورة تقع على بعد ٧٥ ميلا من الجنوب الشرقى من مكة على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم من سطح البحر ، وهى مصيف العظماء والأغنياء ، وأمطارها غزيرة تسقط فى فصل الخريف ، وآبارها كثيرة ، وأرضها خصبة يكثر بها العنب والرمان والخوخ والليمون والمشمش ، كما تنمو بها أنواع مختلفة من الزهور والورد .

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٤ .

رابعاً — عسير :

تقع عسير إلى الجنوب من الحجاز بين الحجاز واليمن ، وتشمل سهول تهامة ، وفي عسير قامت إمارات متعددة تحدثنا عنها من قبل ، وكان بعضها تابعا للأتراك أو خاضعا لنفوذهم ، ولكن المملكة العربية السعودية شملت منطقة عسير فيما شملته من بقاع •

ويبلغ عدد السكان حوالى مليونين ، وهم شافعيو المذهب وهناك قلة في الشمال الشرقي تتبع مذهب أحمد بن حنبل ، ويشغل أغلب الأهالى بالزراعة ، والبدو الرحل قليلون جدا في عسير ، والاختلاط في الأنساب قليل فيها ، إلا ما كان في المدن الكبيرة ، وحدود القبائل معينة تعيننا دقيقا ، ليس له نظير في غير عسير (١) ، وعسير أغزر جهات السعودية مطرا •

وأهم مدن عسير هي جيزان وأبها والقنفذة — وصَبْيَا ، وأبو عَرِيش وترَبَّة ومَيْدَى •

وجيزان عاصمة تهامة في إقليم عسير ، وكانت ميناء الأدارسة في زمنهم ، وجيزان تقع على قمة خليج يكتنفه المد والجزر العنيف ، وبها مقر الحاكم ، يشغل سكان جيزان باستخراج اللؤلؤ •

وأبها كانت العاصمة القديمة في عهد الأتراك ، وموقعها جذاب ، وتقع على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم ، وهى محاطة بحقول وجبال خضراء •

والقنفذة أهم ميناء بعسير ، وهى على بعد حوالى ٢٠٠ ميل جنوب مكة ، وهى ميناء أبها •

وصَبْيَا كانت عاصمة الأدارسة ، وبها قلعة قديمة بنيت أيام الحكومة السعودية الأولى ، وقد أصلحتها الحكومة الحالية •

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٤٢ •

وأبو عريش أشهر بلدة في تهامة ولها تاريخ حافل في القرن التاسع عشر ، عصر النهضة الدينية الأولى •

حضارة المملكة العربية السعودية

لا يعرف ما حققه السعوديون من تقدم في المملكة العربية السعودية إلا الذي يعرف أو يتصور ماذا كانت عليه هذه المنطقة قبل السعوديين : وكيف عبّر سكان هذه البلاد مئات السنين في حياة جاهلية وقبيلية وصراع وتناحر وسلب ونهب وفوضى ، فلما قامت الدولة السعودية بها تغير كل شيء ، ومع هذا فإن شوطا طويلا لا يزال يترجى من القادة السعوديين ، فإن الإمكانيات الكبيرة المتاحة لهم تهيء لهم أن يلعبوا دورا واسعا لخدمة الإسلام والمسلمين ، ولكن هذا الأمل لا ينسينا أن نَصِفَ المتطور الهائل بين ما كان وما هو كائن فعلا ، وفي السطور الآتية نشير لهذا التطور الكبير •

التصحيح الفكرى :

في قمة ما حققه السعوديون في مملكتهم ذلك التصحيح الفكرى الذى انطلق به الإمام محمد بن عبد الوهاب وحمل القادة السعوديون لواءه ، وقد انتقل الناس بهذا التصحيح من جاهلية حمقاء وشرك أو ما يقرب منه إلى التوحيد الخالص ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق ، وأظهرنا أثره فى داخل البلاد وخارجها •

وحدة المملكة :

أصبحت هذه المنطقة الفسيحة تتكون منها دولة واحدة بعد أن كانت أشقائنا من القبائل والجماعات ، وخضعت هذه الدولة للشرعية الغراء بعد أن كانت تتبع شريعة الغاب • وكما استطاع الملك عبد العزيز وخلفاؤه من بعده أن يتغلبوا على الشعور القبلى الذى كان يهدد المملكة ، فقد استطاعوا كذلك أن يقضوا على التفكك الإقليمى الذى حدث بعد ضم الحجاز وغيره من المناطق إلى نجد ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ضعف

هذا التفكك ، وزال تقريبا ، ويمكن القول أن ما قام به السعوديون في هذا المجال عجز عنه غيرهم في الظروف المشابهة وكانت عدالة السلطة وحكمتها أعظم وسيلة لما وصلت له من وحدة حقيقية ، هذا بالإضافة إلى اتباع أحدث الوسائل لهذه الغاية كتمهيد الطرق بين نواحي المملكة ، وكبرامج التعليم ، وكالحزم عند الضرورة وغير ذلك من الوسائل •

القيادة الرشيدة :

عُرف عن ملوك السعوديين أنهم يحسنون اختيار بطانتهم ، وبطانة الخير تدفع للخير وتثعن عليه ، وفي الفترة الأولى من ظهور المملكة العربية السعودية كانت بطانة الملك عبد العزيز تختار من الكفايات العربية الإسلامية بدون ارتباط بالجنسية ، وعلى هذا ظهر بين مستشاري الملك شخصيات تنسب إلى العراق وسوريا ومصر ، ولما اتضحت الكفايات بين أبناء المملكة السعودية ، اتجه الاختيار إليهم ، وإن كانت المملكة لا تزال ننتفع بالخبراء وقمم المفكرين في مجالات مختلفة من أبناء العالم العربي والإسلامي •

الأمن :

عمّ الأمن تلك المناطق الفسيحة التي تكونت منها المملكة العربية السعودية ، وأصبح الحجاج من مختلف البقاع يسبغون رحلتهم إلى الأرض المقدسة في أمن وسلام وطالما تعرضوا من قبل للسلب والنهب والعدوان وهم في طريقهم لأداء فريضة الحج ، ومثل وفود الحجيج حظيت القوافل التجارية التي تجتاز الجزيرة العربية بمثل ذلك الأمن ، ولم تعد قوافل التجارة تحتاج لحراسة ، إذ اختفى العدوان في ظل المملكة العربية السعودية وقد سبق أن ذكرنا أن قادة السعوديين جعلوا قيادات المناطق مسئولة عن أي عدوان يقع في مناطقها ومن هنا حرص هؤلاء القادة على حفظ الأمن في مناطقهم خوفا من هذه المسؤولية ، وكان بعض القادة من قبل يشترك في التخطيط للعدوان ، وينال نصيبا موهورا من الغنائم المسلوكة

وهذا يوضح الفرق الكبير بين ما كانت عليه الأحوال قبل قيام المملكة العربية السعودية ، وبعد قيامها •

الإدارة :

خلق السعوديون للدولة الجديدة جهازا إداريا دقيقا ، وأخذ هذا الجهاز يتطور بتطور الظروف ، فقد كان الملك عبد العزيز يحكم البلاد كأنه أب لأسرة يحكم أسرته ، فثروة الدولة كلها كانت في يده دون فصل بين ما للدولة وما له الخاص ، وكان ينفق من هذه الثروة على الدولة وعلى الأسرة ، وكان هناك معاونون في العاصمة وخارجها لمساعدة الملك في مختلف الشؤون : وكان للملك بعض المستشارين يطلب رأيهم كلما عن له ذلك ، وكان هذا يكفي عن الوزارات والتقسيمات الفنية ، ثم اتجه الملك إلى نوع من التطور في هذا المجال ، فأنشأ وزارات متخصصة ، وكانت وزارة الخارجية أولى هذه الوزارات إذ أنشئت سنة ١٩٣٠ ، وجاءت بعدها وزارة المالية ١٩٣٣ ، فالدفاع سنة ١٩٤٤ ، فالداخلية سنة ١٩٥١ ، فالمراسلات والمعارف سنة ١٩٥٣ ، ثم أنشئ مجلس يضم هذه الوزارات سنة ١٩٥٣ قبل وفاة الملك بشهر واحد ، كما ذكرنا من قبل ، كما قسمت البلاد إلى مناطق متعددة ، وعين لها محافظون أكفاء أئداء ، ووجدت كذلك مجالس محلية ومجالس بلدية لإدارة المدن والمناطق ، كما وضعت التشريعات اللازمة للعمل وللمتأمينات الاجتماعية ، واتخذت من التشريع الإسلامى اتجاهاتها ومبادئها •

مكافحة الأعداء الثلاثة :

كان الفقر والجهل والمرض صورة للحياة العامة في الجزيرة العربية قبل قيام المملكة العربية السعودية ، وقد ذكرنا عند حديثنا عن نجد نماذج من الآفات الطبيعية والمجاعات التى كانت تنتاب البلاد من حين إلى حين ، وقد حارب السعوديون هذه الآفات قبل أن ينبثق البترول وبعده ، حتى وجد كل إنسان وسيلة طيبة للحياة والعلم والعلاج ، وسنعطى فيما يلى صورة سريعة لما حققته المملكة السعودية في مجال العلم والصحة ومكافحة

الفقر ، وقد ذكرنا بعض هذا التطور متصلا بالملك فيصل ، ولكننا هنا نتحدث عن الجهود العامة منذ إنشاء المملكة حتى العهد الحاضر .

النهضة العلمية :

إن عناية ملوك السعوديين بلغت غاية رائعة في مجال التعليم ، فالمدارس وجدت في القرى والنجوع ، والجامعات شيدت في الرياض ومكة والمدينة وجدة وأقيمت كليات تابعة لها في المدن الأخرى مثل بريدة وأبها ، ووجدت البنات طريقها للعلم ابتداء من سنة ١٩٧٠ ، والحق يقال إن الملك فيصل — كما أشرنا من قبل — واجه تذمرا واسعا عندما بدأ وهو رئيس للوزراء يفتح المدارس للفتاة السعودية ، وكان إقبال الأهالي على تعليم بناتهم محدودا ، ولكن سرعان ما زال التذمر ، وأدرك الناس يثمن هذه الخطوة وباركوها ، فتدفقت الفتيات على التعليم حتى أصبح للطابات ٤٦٤ مدرسة سنة ١٩٧٠ ، بعد أن كان عددها يعد على أصابع اليد الواحدة سنة ١٩٦٠ ، وتضاعفت المدارس والكليات بعد ذلك ولا شك أن النهضة العلمية تستحق التقدير والإعجاب .

والتعليم بالمملكة العربية السعودية بالمجان في جميع مراحلها ، ويقدم للتلاميذ ما يحتاجونه من كتب وعلاج ، وتقدم وجبة غذائية للتلاميذ في مراحل ما قبل الجامعة ، ولكل طالب في المدارس المهنية وفي الفروع العلمية من الجامعة وكلية البترول مرتب شهري يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ ريال سعودي .

وقد أنشئت أول مديرية للتعليم سنة ١٩٢٦ ، وجعلت تابعة لإدارة الشؤون الداخلية وفي سنة ١٩٥٣ أنشئت أول وزارة للمعارف في تاريخ شبه الجزيرة العربية ، وتولاها الأمير فهد بن عبد العزيز ، (الملك فهد الآن) ومنذ ذلك الحين تطور التعليم بالمملكة تطورا عظيما .

الصحة :

حقق السعوديون في مجال الصحة تقدما هائلا ، ففتحووا المستشفيات الكثيرة ، وبعض هذه المستشفيات ينافس في إعداده وأطبائه أعظم المستشفيات في العالم ، وأدخلوا نظم التحصين ، والعناية الصحية بمختلف أنوعها ، كما عنوا عناية كبيرة بالنظافة العامة ، وبتطهير الأماكن التي تكثر فيها التجمعات ، وبخاصة في موسم الحج ، متبعين أحدث الطرق للوقاية من ظهور الأمراض أو انتشارها •

مقارنات :

ولا يمكن أن نترك الحديث عن التقدم العلمي والتقدم الطبي اللذين أشرنا لهما آنفا بدون أن نعود إلى الوراء قليلا لنضع في ميزان المقارنة صورتين من الصور الفكرية والطبية التي كانت سائدة بهذه البلاد في مطلع عهد الراحل العظيم عبد العزيز آل سعود لنرى الجهد الكبير الذي بذله هذا الرجل وبذله خلفاؤه من بعده :

في المجال الأدبي نقتبس سطورا من الخطابين اللذين أرسلهما الملك عبد العزيز وهو أمير نجد سنة ١٩١٠ إلى الشريف حسين بمكة — والخطابان ركيكا الأسلوب ضعيفا البنيان ، وتكثر الأخطاء النحوية بهما ، وقد سبق أن أوردنا الخطابين عند الحديث عن الملك عبد العزيز بين « عهدين » ، وفيما يلي هذه المقتطفات :

من الخطاب الأول :

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر لازلتكم بكمال الصحة والسرور حايذين الأوصاف الحميدة ... أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب ، نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين ، ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو هممكم وأنظاركم العالية قدّمنا أخينا عبد العزيز

عبد الله السعود لوجب خدمتكم ، وأحببنا المصاوغة معه لوجب التبرك
بأقدامكم ٠٠٠

وفي الخطاب الثانى فى نفس العام يقول عبد العزيز آل سعود
للشريف ، بعد نفس المقدمة السابقة ما يلى :

أحوالنا من كرم الله جميلة ، بأشرف وقت أخذنا مشرفكم ، فسرنا
ما تضمنه من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان
لدى ابنكم معلوم خصوصا ما عرف جنابكم من جهة عثية والقصيم ،
وأنهم يلقون إليكم من الأكاذيب التى ليس لها حقيقة ، ويتظلمون عند
حضرتمكم ، ونحن نقول عما قالوا : « سبحانك هذا بهتان عظيم » فأما
من جهة نظركم علينا وعليهم فهذا شأن مثلكم ، وهو مقامكم العزيز ،
ونحن متيقنين ان حنا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتكم ، وأدنى
جواب يصدر منكم إلينا إذا كان صادر منا لشيء فنحن نمثل به ٠٠٠٠٠٠

ذلك هو مدى ما وصل له البيان فى مطلع هذا القرن ، ولو قارنا ذلك
بما تنعم به هذه البلاد من فصاحة القول ، وعمق الفكر الآن ، لاتضح لنا
التفاوت الواسع بين ما كان فى مطلع عهد الملك الراحل ، وما تم فى عهده وعهد
خلفائه من تطور مرموق عظيم ٠

وفى المجال الطبى يقرر الشيخ حافظ وهبة (١) أنه حتى العقد الثالث
من القرن العشرين كان الطب بالجزيرة العربية بدائيا وضارا أحيانا ،
ويذكر أن الملك ابن سعود نفسه عانى من ذلك ، فقد أصيب بدمل صغير
فى شفتيه ، فاستعملوا معه أنواع العلاج المستعملة فى نجد من كى وغيره
فزادت حالته خطرا ، وسبب تقيحا شديدا ، فارتفعت معه حرارة الرجل ،
وأوشك أن يقضى نحبه ، وفى حالة أخرى أصيب برمد حاد ولجا كذلك

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين للاستاذ حافظ وهبة ص ١٣٩ .

للطب المحلى الذى كان ضرره أكثر من نفعه ، وفى الحالتين كان اللجوء للطب الحديث ومشاهير الأطباء المصريين والأمريكيين هو مطلع العلاج الصحيح •

أين هذا مما حققه الرجل نفسه من تطور فى المجال الأدبى ، والمجال العلمى والطبى الذى شهدته مملكته فى عهده ، وفى عهد خلفائه فى مدى وجيز ؟ •

الزراعة :

تقدر المساحة الصالحة للزراعة بالمملكة العربية السعودية بحوالى ١٢٪ من مساحة المملكة ، ولكن المنزرع فعلا كان لا يتجاوز ١٪ فقط ، ومن أجل هذا تبذل جهود كبيرة للزحف الأخضر ، حتى تتكمش المساحات الجرداء ، وتنمو المساحات الخضراء ، ومن هذه الجهود بناء السدود ، والتعرف على المناطق التى تكثر بها المياه الجوفية لاستخراجها بأحدث الوسائل الميكانيكية والذى يزور مناطق المملكة العربية السعودية يثدرك قوة هذا الجهد ويرى انتشار الآلات فى أمكنة متعددة ، لتزحف الخضرة على الرمال ، وقد استطاعت السعودية بهذا الجهد أن تنتج ما تحتاجه من تمح وأن يكون عندها فائض •

ويرتبط بالزراعة موضوع مهم هو : توطين البدو ، الذى أشرنا له من قبل ، فقد اتجهت عبقرية الملك عبد العزيز إلى أن توطين البدو سيخلق استقرارا نفسيا ، واستعدادا لحمل المسئولية ، كما سيمسر التعليم والعلاج ، وعلى هذا أقطع جلالته الأرض للبدو ليزرعوها ، وأمدهم بما يحتاجونه من عون ، كما بنى لهم الدور والمساجد ، وكان ذلك اتجاها طيبا نحو تحضير البادية ، لولا الانحراف الذى ارتبط بهذا الأمر ، والذى درسناه فيما سبق تحت عنوان « الإخوان » •

على أن الظروف التى أتاحت للإخوان فرصة الثورة سنة ١٩٣٩ ، ١٩٣٠ قد زالت بعد حقبة من الزمن ، ولذلك جدد الملك عبد العزيز ، والملك

فيصل من بعده مشروع توطين البدو ، وساعد على ذلك وجرد النفط غير بعيد من مناطق هؤلاء البدو ، واجتذاب هذه الصناعة لكثير من الأيدي التي كانت تحويها البادية من قبل ، وكل هذا جعل نسبة البدو تتناقص من حين إلى حين ، حتى أصبحت أقل من ربع السكان .

ويبدو أن البدو استعادوا مكان الثقة من نفس الملك فيصل ، ولذلك كُتِبَ منهم جيشاً أسماه الشرطة ، وهذا الجيش شديد الولاء للملك ، وهو يخلق عملية توازن بالنسبة للجيش النظامي .

وقامت سياسة المملكة السعودية في عهد الملك فيصل وبعده بالنسبة للبدو على توطينهم حيث هم ، فلا ينتقلون لموطن جديد إلا للضرورة ، على أن يكون هذا الموطن أقرب ما يمكن لمناطقهم الأصلية ، فالمقصود التوطين لا التهجير ، وعلى أن يتاح لهم ما يحقق حياة مستقرة طيبة من خدمات علمية وصحية وفنية ، ولنجاح هذا الاتجاه وضعت مشروعات كثيرة في مجال تنمية البادية والتوطين ، منها البحث عن المياه ليكون وسيلة إلى الاستقرار ، وتوسيع المراعي طبيعياً وصناعياً ، لأنها لا بد منها في حياة البدو وتوسيع الأراضي الزراعية التي يعمل البدو فيها بدلاً من الارتحال ، وإنشاء الخزانات لشرب المواشي ، وإنتاج الأعلاف لها ، ومن أهم المشاريع التي قامت بها المملكة في هذا المجال : مشروع حرض ، ومشروع وادي جيزان ، ومشروع وادي السرحان (١) .

العمران والحرمان الشريفان :

يمكن القول أن المملكة العربية السعودية حققت نصيباً مرموقاً من التطور فيما يرتبط بالحضارة العمرانية ، فالمملكة ترتفع فيها العمائر الضخمة ، وتوجد بها المستشفيات الكبيرة والمدارس

(١) دكتور صلاح المنجد : فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وأعماله

والجامعات الفسيحة على نحو ما قدمنا ، كما ترتبط مدنها وكثير من قراها بشبكة مواصلات دقيقة ، وقد نال الحرمان الشريفان من عناية المملكة قسما كبيرا ، فقد وسّعا عدة مرات حتى ضم الحرم المكي المسعى بين جدرانها ، وضم الحرم المدني كثيرا من المساحات حوله ، وعلى كل حال فالذى يزور المملكة العربية السعودية من عام إلى عام يشهد درجات التطور التى تؤشك أن تكون مستمرة لا تتوقف ، قوية لا تتوانى •

الصناعة :

اتجهت المملكة العربية السعودية إلى ادخال بعض المصناعات بها ، فوجدت بها مصانع للحديد ، ومصانع للمصنّاع المعدنية ، والمدايع ، وصناعة البلح ، وتعبئة الغاز ، وقد بدأت المدارس المهنية تخرج عمالا مدربين على مختلف الاتجاهات الصناعية ، ولكن الصناعات المرتبطة بالبتروك أكثر نشاطا ، وأكثر جذبا للأيدى العاملة ، ومن هنا ينبغى أن نتحدث كلمة عن تاريخ النفط فى السعودية ، ومدى النشاط فيه ، لأن النفط يمثل أبرز العناصر فى اقتصاد هذه البلاد وفى تطوراتها المختلفة •

وقد جاء النفط أثر أزمة اقتصادية طاحنة مرت بالسعودية ، وشملت العالم كله فى مطلع العقد الرابع ، فكان النفط إنقاذا للبلاد •

وكان أول اتفاق عملى لاستخراج النفط السعودى مع شركة استاندارد أوف كاليفورنيا الأمريكية ، وقد أسست هذه الشركة فرعا خاصا للتنقيب عن النفط السعودى عرف باسم شركة أرامكو ، وأسهمت فيه شركة تكساس ، وعندما تدفق النفط فى منطقة الظهران أنشأت الشركة خطا للأنابيب يصل بين الآبار وبين ميناء الدمام على بعد خمسة أميال منها ، وصدرت باكورة الإنتاج سنة ١٩٣٩ •

بيد أن الحرب العالمية الثانية شبت عقب ذلك فترقف نشاط استخراج البترول السعودى ، ولم يستأنف إلا عقب نهاية الحرب ، وقد رأت الشركة

التي تقوم باستخراجه أن تضم لها شركتين أمريكيتين أخريين هما : نيوجرسي وسوكوني فاكوم لتضمن فتح أسواق جديدة لإنتاجها ، واتسعت أعمال التنقيب اتساعا واسعا ، ولم تقتنع هذه الشركات بموانئ السعودية على الخليج ، بل بنت خط المتابلاين الذي أمتهد ١٠٦٨ ميلا إلى البحر المتوسط ، وبذلك لم يحتج البترول السعودي إلى قناة السويس ليصل إلى أمريكا وغيرها •

وأنشئت شركات أخرى يابانية وفرنسية وأسبانية وغيرها للبحث عن البترول في مناطق أخرى غير تلك التي تعمل فيها أرامكو •

وتوصف المملكة العربية السعودية بأنها البلد البترولى الأول في الشرق الأوسط ، فإننتاجها من البترول يزيد عن إنتاج أى بلد آخر ، والاحتياطى من البترول يزداد برغم ازدياد الإنتاج ، بسبب الاكتشافات المستمرة الجديدة فيها ، وقد تجاوز هذا الاحتياطى ١٤٣ مليون برميل ، وتبلغ نسبة احتياطى السعودية من البترول — إحصاء ١٩٧١ — إلى الاحتياطى العالمى ٢٧٢٪ وإلى احتياطى الشرق الأوسط ٣٩٥٪ وهذا يجعل السعودية البلد البترولى الأول في العالم أيضا ، وبالتالي يزيد في مسؤولياتها ورعايتها •

وقد سبق أن ذكرنا أن النفط لعب دورا عظيما في خلال حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، فأصبح لأول مرة سلاحا خطيرا في المعركة ، فعندما قامت الحرب ، وظهرت انتصارات مصر وسوريا تشجع العرب فبذلوا كل ما عندهم لاستمرار الانتصار ، وكانت وحدتهم أولى الثمرات ، وبعدها أصدروا قرارات حاسمة في قضية النفط كان دويثها في العالم قويا ، هزه أرجاءه وزلزل أفكاره ، ومن أهمها تخفيض ضخ البترول بمقدار ٢٠٪ تتزايد ٥٪ كل شهر طيلة فترة الصراع ، ومنعوا تصدير البترول تماما إلى الولايات المتحدة وهولندا ، وهددوا بأن قرار المنع سيمتد إلى أية دولة أخرى تساعد إسرائيل ضد العرب •

وكان احتياطي النفط في الدول المستوردة قليلا ، ولذلك سرعان ما عانت هذه الدول من هذا القرار ، ودخل موسم الشتاء في أعقاب ذلك فقامت هذه الدول متاعب الظلام والبرد حتى أحس العالم كله بالمشكلة وبأن وجود إسرائيل وعدوانها سيعود على العالم كله بالضرر والخسران ، ولم تكن الولايات المتحدة تظن إمكان أن يقف العرب منها هذا الموقف ، ولذلك هزها هذا القرار هزا عنيفا ، وعندما أطلقت الولايات المتحدة وغيرها من الدول إشاعة عن الاستيلاء بالقوة على منابع الزيت كان رد العرب حاسما وقويا هو أن أعلنوا أن المتفجرات ستنسف آبار البترول قبل أن يستولى عليها أحد ، وستنسف كذلك أنابيب الضخ ، فتهاوت قوى التهديد وتلاشت •

واتخذت الدول المنتجة للبترول قرارا آخر بزيادة أسعار النفط زيادة كبيرة ضاعفت أثمانه ، وحجة العرب في ذلك أن المعركة تأكل كثيرا من ثرواتهم ، وتحتاج إلى نفقات باهظة ، ومعدات عسكرية كبيرة يشتريها العرب من الدول الغربية ، ولابد من مضاعفة أسعار النفط لتغطية هذه النفقات ، ووعدوا ببحث تخفيض الأسعار عقب تصفية العدوان الإسرائيلي •

وكلمة حق سجلناها من قبل ونعود لتسجيلها الآن ، هي أن جلالة الملك فيصل كان له موقف يذكر فيشكر في هذا المضمار ، وأن صوته كان أول صوت دوى بهذه الإجراءات ، واستجاب له الجميع في حماسة وقوة وإيمان •

وفي ختام أحاديثنا عن المملكة العربية السعودية يطيب لنا أن نبارك تقدمها ونثنى على تعاونها العميق مع العالم العربي والإسلامي وندعو الله لها باليمن والبركة ، وأن يكون التعاون بينها وبين العالم الإسلامي سبب عز ومجد لدولة الإسلام وللشعوب الإسلامية •

عدوان على المسجد الحرام

رثوع العالم الإسلامي في موسم الحج الذي يوافق العام الهجري الأول من القرن الخامس عشر الهجري (أواخر نوفمبر ١٩٧٩) بحادث مؤلم اهتزت له قلوب المسلمين في مختلف الأنحاء ، ذلك هو عدوان شرذمة من الرجال على المسجد الحرام وعلى الحجاج فيه •

وقد احتل المعتدون الذين كانوا مسلحين بأسلحة مختلفة أمكنة متعددة بالمسجد الحرام ، واحتجزوا مجموعة من الرهائن يحتمون بهم ، وقام خطبائهم بإلقاء مجموعة من الخطب العدوانية المثيرة ، وكان المسجد الحرام كعادته خاليا من جنود الحراسة مما مكن لهؤلاء المعتدين من الأمر ، وأحكم إلى حين سلطانهم على البيت الحرام وعلى من فيه ، واتخذوا هذا البيت المقدس والحجاج الذين وفدوا اليه من مختلف الأنحاء وسيلة لدعاية متمرده قاموا بها •

وقد هب العالم الإسلامي كله يستنكر هذا العدوان على بيت الله الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ويستنكر لذلك العدوان على الحجاج الذين وفدوا من كل فج عميق •

ومن الحق أن يقال إن مصر بكّرت في رد هذا العدوان واستنكاره وبعد ساعات قليلة من حدوث هذا التمرد ، وقف كاتب هذه السطور بالتلفزيون المصري يندّد بهذا العمل ويدينه •

وسنروي أحداث هذا الحادث من البيانات الرسمية السعودية التي صدرت عنه :

وصل المسلحون إلى المسجد الحرام في فجر يوم الثلاثاء في عدد من سيارات الأتوبيس بدعوى تأدية صلاة الفجر كأول صلاة في القرن الخامس عشر الهجري ، وعندما وصلوا إلى المسجد اتخذوا مواقعهم في الأماكن

الاستراتيجية وأخرجوا مسدسات ومدافع رشاشة من تحت ملابسهم ثم تقدموا إلى إمام المسجد ورقة مكتوبة ليقرأها على المصلين : ولكن إمام المسجد رفض قراءة الورقة كما رفض السماح لهم بتلاوتها من إذاعة المسجد الحرام . فاطلقوا عليه الرصاص وقتلوه في الحال وعند سماع أصوات طلقات الرصاص . انطلق الحراس الموجودون حول المسجد الحرام إلى داخل المسجد ليعرفوا ماذا يحدث ، ولكنهم فوجئوا بوابسل من طلقات المدافع الرشاشة . وسقط منهم عدد كبير من الجرحى والقتلى بينما فشل باقى الحرس فى السيطرة على الموقف .

وسرعان ما وفدت قوات سعودية ، وحدثت اشتباكات بينها وبين المتمردين ، ولكن المتمردين اندفعوا إلى بعض الأماكن بالمسجد وأخذوا معهم مجموعات من الحجاج كرهائن يحتتمون بها ، وتقول المصادر السعودية إنه كان من الممكن القضاء على هؤلاء المتمردين لولا الحرص على أرواح الرهائن ، ومن أجل هذا امتدت الأيام قبل أن ينتهى هذا العدوان ، وقد ذكرت المصادر السعودية أنه لم يتضح لديها أن العملية مخططة من أى جهة أجنبية ، بل إن المجموعة الكبيرة من أفراد هذه الشذمة من السعوديين . وإذا كانت هناك مجموعات تنتمى إلى جنسيات أخرى فهى أعداد قليلة .

وأعلن الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودى أن المسلحين الذين احتلوا المسجد الحرام من جنسيات مختلفة ولا ينتمون لأى جماعة سياسية محددة . وقال إنهم متعصبون فى أشد حالات الهياج وسيحاكمون طبقا للشريعة الإسلامية وأحكام القرآن الكريم .

وأوضح أن السلطات السعودية تسيطر على الموقف وأنه لم يعد هناك داخل المسجد سوى حوالى ثلاثين شخصا انزواوا واعتصموا بالأركان .

وبعد بضعة أيام أضاف الأمير سعود الفيصل أنه قد تمت السيطرة

على الموقف • وقال إننا نحاول الآن معرفة دوافع هذه الجماعة التي تضم حوالى مائتى شخص •

وذكرت وكالات الأنباء أن عدد المسلحين الذين اقتحموا المسجد الحرام يتراوح بين مائتين وخمسمائة ، كما يقدر عدد الرهائن بحوالى مائة وخمسين •

ويقال إن من الأسباب التي ألزمت هؤلاء المتمردين بالاستسلام أن الحكومة بدأت تغمر المسجد الحرام بالماء ، وأصبح الغرق لا مفر منه إذا لم يستسلم هؤلاء ، فكان الاستسلام أفضل لأنه يطيل هذه الأرواح الرخيصة ساعات أو أياما •

وقد علجت السياسة السعودية هذا الأمر بحكمة وكياسة ، واستسلم المتمردون بعد عدة أيام ، وحوكموا على فعلتهم الشنيعة حسب قوانين الإسلام •

عدوان إيراني بالمسجد الحرام

هناك سلسلة من الأعمال العدوانية على المسجد الحرام ، وهى هذه المرة ترتبط بإيران ، وقد بدأت هذه السلسلة بالعدوان الأول سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) ثم توالى هذه المرات فى سنة ١٤٠٣ و ١٤٠٤ و ١٤٠٥ هـ ، ثم كان العدوان الكبير سنة ١٤٠٧ هـ فقد سقط قتيلان فى هذا العدوان عدد من النساء والأطفال والكهول وكان تعدادهم ٤٠٢ بخلاف عدد كبير من الجرحى • وقد كتبت بالتفصيل عن ذلك فى مرجع آخر (١) •

العراق والسعودية :

من أخطر الأحداث التى مرت بالمملكة العربية السعودية تلك الأحداث

(١) انظر : حركات فارسية للمؤلف ص ٢٠٤ - ٢٠٨ •

التي شهدتها شهر أغسطس سنة ١٩٩٠ ، فقد غزت القوات العراقية دولة الكويت في مطلع هذا الشهر ، وأقامت بها حكومة لم تَعِشْ إلا بضعة أيام ، ثم أعلنت العراق اعتبار الكويت محافظة من محافظاتنا ، ولم تقنع العراق بالزحف على الكويت ، بل حشدت (١) قواتها على حدود المملكة العربية السعودية ، مما جعل الملك فهد يستتجد حدود المملكة العربية السعودية ، مما جعل الملك فهد يستتجد بالدول الإسلامية والصديقة لردّ العدوان المحتمل ، وقد هبّت الولايات المتحدة وبريطانيا ومصر للاستجابة لهذا الطلب وحشدت قواتها للدفاع عن المملكة .

إنه موقف يدعو لشدة الأسف أن تفعل العراق ذلك ، وألا تكون للدول العربية قدرة لحماية بعضها البعض دون حاجة للغرب ، ولست أدري ماذا تعنيه اتفاقية الدفاع المشترك مادامت تعجز عن الدفاع .

(١) سنتكلم عن هذا الموضوع عند حديثنا عن الكويت والعراق فيما بعد .

سَاطِنَةُ عُمَانَ

تقسيم :

في الكتابة عن عمان يحس الكاتب بغبطة وسعادة إذ يدفع بتاريخ هذه البلاد إلى الضوء بعد أن احتواها الظلام فترة طويلة حتى أصبحت منقطعة عن جيرانها ، وأصبحت في عداد الأقطار التي لا يعرف الكثيرون عنها شيئاً ، وعمان جديرة بمكان واضح على صفحة التاريخ ، فقد لعبت أدواراً عالمية في مجالى السياسة والاقتصاد ، ثم أدار لها الزمن ظهره ، وأوشكت أن يغمرها النسيان ، ولكن الجوهر الحر يستجيب لصاقله ، وسرعان ما يعود للبريق واللمعان .

موقع عمان على خريطة العالم :

تقع عمان في أقصى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة العربية ممتدة شمال بحر العرب ، وعلى طول خليج عمان حتى إمارة الفجيرة إحدى إمارات دولة الإمارات العربية ، وبعد إمارة الفجيرة توجد منطقة تابعة لعمان أيضاً وهى منطقة رأس مسندم الذى يقع على مضيق هرمز .

وتقع الجمهورية العربية اليمنية إلى الغرب من عمان ، وتقع المملكة العربية السعودية فى الجهة الغربية والشمالية منها ، كما تقع دولة الإمارات فى الناحية الشمالية الشرقية منها .

وعمان تطل على البحر من جهة ، وتطل على الصحراء من جهة أخرى ، ومن هنا يمكن تقسيم سكانها إلى طائفتين متميزتين هما الحضر والبدو ، والحضر هم الذين يسكنون الساحل وبخاصة مسقط ، وهم خليط متمازج من السكان أشد اتصالاً بالعالم الخارجى ، أما البدو فيعيشون فى المناطق الداخلية ، وهم أكثر فطرة وبساطة ، وهم شديداً المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم (١) .

(١) عمر رضا كحاله : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٤٤٣ .

ومساحة عمان حوالى مائة وعشرين ألف ميل مربع ، وهى مساحة انجلترا تقريبا ، وعدد سكانها حوالى مليونين ، وتنقسم هذه المساحة إلى عدة مقاطعات هى :

— مقاطعة الباطنة التى تطل على خليج عمان إلى الشمال من مسقط ، وهى سهل خصب •

— ومقاطعة عمان ، وهى المقاطعة الداخلية ، وتضم الجبل الأخضر ، كما تضم المناطق المحيطة بهذا الجبل والتى توجد بها العواصم القديمة والمدن الشهيرة مثل نزوى والرسناق وسمايل ، وفى الجبل الأخضر ، توجد أهم أنواع الفاكهة ، وتشمل هذه المنطقة منطقة الظاهرة ، وسميت بذلك لأنها أول ما يظهر من عمان للوافد من الجزيرة العربية ، ومنطقة الظاهرة أرض جبلية تتخللها الواحات والسهول الخصبة والوديان التى تعتبر مصدرا مهما من مصادر المياه فى الصحراء •

— والمقاطعة الشرقية وأهم نواحيها المضيبي ووادي بنى خالد •

— ومقاطعة جعلان ، واسمها مشتق من اسم سكانها القسدامى ، وأهمها بلاد بنى بو حسن وبو على وصور •

— والمقاطعة الجنوبية المسماة « ظفار » وتتألف من سهل ساحلى منبسّط تحاذيه الجبال •

وفصل بين مراكز العمران الرئيسية حواجز طبيعية تتمثل فى سلاسل الجبال الشاهقة ، وأهمها سلاسل جبال الحَجَر التى تمتد من الحجر الغربى إلى الحجر الشرقى ويفصل بينهما وادى سمايل الذى يعتبر الطريق الرئيسى بين الساحل وبين المناطق الداخلية ، وفى جبال الحجر الغربى تقع منطقة الجبل الأخضر التى تعتبر أعلى القمم فى سلسلة تلك الجبال ، إذ يصل ارتفاعها إلى عشرة آلاف قدم ، ويمكن مشاهدتها على بعد مئات الأميال من البحر •

وهناك مجموعة من الجزر تتبع سلطنة عمان وهى جزر كوريا موريا « الحلاتيات » وهى تقع فى بحر العرب مواجهة لمقاطعة ظفار ، وجزيرة « مصيره » وهى تواجه مقاطعة جعلان ، وجزيرة الغنم ، وتقع عند مدخل مضيق هرمز •

وعلى هذا يمكن القول بأن عمان تحتل أقصى الزاوية الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، وتلتف حولها مياه المحيط الهندى وخليج عمان ، وتشكل الصحراء العربية حركة الالتفاف حولها من الجهة الغربية ، ومن الطبيعى أن هذا الموقع له أهميته العظمى من الناحية الاستراتيجية ومن الناحية الجغرافية كما سيتضح ذلك فيما بعد •

تسمية عمان :

إن دولة عمان مرت بها تسميات مختلفة ، فكانت فى فترة من الفترات تسمى « مكرون » أو « مازون » وهو اسم يعود فى أصله إلى السومريين (بلاد ما بين دجلة والفرات جنوب الموصل) ، ويقال ان الفرس هم الذين أطلقوا هذا الاسم على عمان ، ويروون فى ذلك قول الشاعر :

« إن كبرى سمي عماناً مزوناً » (١) •

وقد وردت « مرون » فى المسعودى بالراء المهملة (٢) ولعل الاعجام أشهر :

ونقل السالمى أن قبيلة الأزدي اليمنية التى هاجرت إلى عمان بعد حادثة سيل العرم سنة ١٢٠ ق.م. الذى سبب انهيار سد مأرب ، هى التى أطلقت على هذه المناطق اسم « عمان » إذ كان هؤلاء يعيشون فى واد قريب من مأرب يدعى « عمان » فسموا الموطن الجديد باسم موطنهم الأصيل (٣) •

(١) انظر كشف الغمة الجامع لأحكام الأمة لأحد علماء الاباضية ص ٣٢ •

(٢) مروج الذهب ج١ ص ٩١ •

(٣) تحفة الأعيان ج١ ص ٥١ •

ولما انتقلت عاصمة البلاد من الداخل إلى الساحل واختيرت مسقط لتكون العاصمة سميت البلاد « عمان ومسقط » وظلت كذلك حتى العصر الحديث حينما كان السلطان يباشر نشاطه في مسقط وينيب عنه ممثلا في عمان ، وهذا أتاح الفرصة لبروز فكرة استقلال عمان عن مسقط ، فتوجد السلطنة في مسقط والإمامة في عمان ، وكانت الدولة على وشك أن تصبح دولتين حتى سنة ١٩٥٥ عندما هاجم السلطان عمان ، وأعاد توحيد البلاد وسنشر ذلك فيما بعد ، ومن أجل هذا وقف السلطان الحالي « السلطان قابوس » موقفا حاسما من هذه الازدواجية ، فجعل اسم البلاد هو « عمان » وهو الاسم المستعمل الآن ، ومسقط هي عاصمة البلاد .

أهم المدن في عمان :

وبمناسبة ذكر مسقط العاصمة ينبغي أن نعطي بعض المعلومات عن هذه المدينة المهمة وأن نعرف أيضا بالمدن المهمة بعمان ، ثم بعواصم عمان ، ويقول المؤرخون عن مسقط إنها تشتمل على كثير من خصائص عمان ، فهي تطل على البحر الذي يمتد امتدادا طويلا مع بلاد عمان ، وبها الصخور السوداء الفاتحة التي تنتشر في عمان ، وتصلها طريق ملتوية ضيقة إلى « مطرح » ومن ثم إلى داخل البلاد ، وعلى هذه المسقط تتمثل فيها الخصوبة والبحر والجبال ، وتلك هي أبرز مظاهر الحياة في عمان .

أما منظر مسقط من البحر أو الجو فهو منظر رائع إذ يمتد صف فوق صف من الجبال الجرداء مسافات طويلة ، وتتبع في الخليج الصغير الذي يلتقي عنده البحر بالجبال مدينة مسورة تطل عليها قلعتها القديمتان ، وقلما يوجد ركن في مسقط لا يمكن منه رؤية هاتين القلعتين ، ولم يكن القصد من بناء مدينة مسقط قديما أن تكون صالحة للسيارات على الإطلاق ومازال السير على الأقدام في أنحائها هو الطريقة الواقعية الوحيدة التي يمكن بواسطتها التعرف عليها .

أما خارج الأسوار فتوجد مسقط الحديثة الآخذة في النمو ، وهي

فسيحة الشوارع ، ضخمة المباني ، وتعد مسقط الآن أعظم مرفأ على خليج عمان ، ونشاطها التجارى واسع فهي تستورد الأقمشة القطنية والحريرية وتصدر اللؤلؤ والعاج والجلود والبلح والزبيب وغيرها ، ولها علاقات تجارية مع أكثر بلاد العالم وبخاصة مع الباكستان والهند وبلاد الخليج وبلاد فارس (١) .

على أن مسقط لم تكن دائما عاصمة عمان ، فقد ذكر الاصطخرى أن قصبة عمان هي صُحار ، وذكر أنها على البحر وبها متاجر ومرفأ للمراكب ، وهي أعمر مدينة بعمان ، وأكثرها مالا ، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس مدينة أكثر عمارة ومالا منها (٢) . ويقول ابن حوقل عن صُحار أنها قصبة عمان وتقع على البحر ، وبها من التجارة والتجار مالا يحصى كثرة (٣) ، ومن البلاد التي كانت عواصم لعمان كذلك « نزوى » وكانت عاصمة لعمان قديما ، وأحيانا كانت العاصمة هي مدينة « الرستاق » أو مدينة « ازكى » . وسنحدث بعد قليل عن « عواصم عمان » .

وفي عمان مدن كثيرة شهيرة ، يحمل بعضها آثار الماضى ومظاهره ، ودرج بعضها في طريق المدنية والحضارة الحديثة فتلاأت به الأنوار ، وظهرت المباني الضخمة ومظاهر المدنية المختلفة ، ومن هذه المدن مدينة « مطروح » وهي تقع على بعد ميلين إلى الغرب من مسقط ، وبها ميناء قابوس الجديد ، وتطل عليها قلعة عالية بناها البرتغاليون ، وقد ظلت هذه المدينة عدة قرون الميناء الذى يصل بين عمان والعالم الخارجى ، واسمها مأخوذ من طرح أى حط الرحال ، وأهم معالمها « سور اللواتيا » أو حى الخوجات ، وهي منطقة مسورة داخل المدينة ، والخوجات ، وجماعة من التجار من أصل سندي أصبحوا مواطنين عمانيين ، ولكنهم مازالوا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم .

(١) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٤٤٤ .

(٢) المسالك والممالك ص ٢٥ .

(٣) صورة الأرض ص ٤٤ .



ومن المدن الشهيرة في عمان مدينة « قلعات » التي زارها ماركوبولو في أواخر القرن الثالث عشر ، وراها كذلك الرحالة العربي ابن بطوطة ، وهي تبعد عن مسقط بحوالى ٨٢ ميلا إلى الجنوب الشرقى •

ومن المدن الشهيرة مدينة صور ، وقد زارها ابن بطوطة أيضا وكانت في يوم من الأيام الميناء الرئيسى في عمان ومركزا للتجارة مع ساحل أفريقيا الشمالى ، وكان سكانها من البحارة والتجار ، مما يوحى بارتباط بينها وبين مدينة صور الفينيقية •

ويقول الشيخ سالم بن حمود بن شلاس . . . : وجاء في بعض الرسومات التاريخية أن « صور » هي إحدى مدن الخليج التي استوطنها الفينيقيون وربما بنوها ، وما إن هجروا الخليج إلى البحر المتوسط لسبب من الأسباب حتى أنشأوا لهم هناك مدينة أطلقوا عليها الاسم نفسه : وأهل صور كالفينيقيين لهم مهارة في الأسفار البحرية ، ولهم بها ولع ، وهم أهل علم بأحوال البحر (١) •

ومن المدن المهمة بالداخل مدينة عبري وهي أكبر مدن مقاطعة الظاهرة وهي مركز منطقة كانت في وقت من الأوقات منطقة زراعية مهمة •

ومن المدن المهمة « الرستاق » التي كانت عاصمة لعمان في الماضي ، وهناك بلدتان تشبهانها ، ولكنهما أصغر منها قليلا هما بلدتا « العوابى » و « نخل » وهذه المدن الثلاثة تسيطر على ممرات الجبل الأخضر ، وتقع « العوابى » بين « نخل » و « الرستاق » وفي كل منها فكلج من الأفلاج العمانية الشهيرة ، وقد زارها الكولونيل « ماينز » وكتب عنها كتابة رائعة •

والآن نتجه إلى عواصم عمان عبر التاريخ لنعطيها مزيدا من الدراسة والاهتمام •

(١) سالم بن حمود : العنوان في تاريخ عمان ص ١١٨ •

عواصم عمان السياسية

مقدمة :

تعددت العواصم في عدة أقطار من عهد إلى عهد ، ففي العراق كانت « الكوفة » أول عاصمة للدولة العباسية ثم انتقل العباسيون إلى « الحيرة » وجعلوها عاصمتهم ، ثم إلى « الأنبار » (الهاشمية) وبقوا بها حتى بنوا « بغداد » ، ومع ما وصلت له بغداد من الشهرة والعظمة فقد انتقل منها المعتصم إلى عاصمة جديدة هي « سامراء » •

وفي مصر كانت أول عاصمة إسلامية هي « الفسطاط » وفي عهد الخلافة العباسية بنى العباسيون مدينة « العسكر » وجعلوها عاصمة مصر ، ثم أنشأ أحمد بن طولون عندما تولى السلطة في مصر مدينة « القطائع » وجعلها عاصمة له • فلما قامت الدولة الفاطمية أنشئت « القاهرة » وأصبحت العاصمة •

عواصم عمان :

وفي عمان حدث مثل ذلك أيضا ، بل حدث شيء آخر هو أن البلاد ظهر فيها حاكمان أو أكثر من حاكمين أحيانا في وقت واحد ، وأصبح لكل حاكم عاصمة •

ويتحدث ابن رزيق ^(١) عن أنه عندما بويح الإمام ناصر بن مرشد كان يمتلك « نخل » سلطان بن أبي العرب ، ويمتلك « سمائل » مانع بن سنان ويمتلك « سعد » علي بن قطن الهلالي ، وكان ملك « أبر » محمد بن جفير وكانت « ازكى » بيد بنى عزرة و « نزوى » بيد أهل العقير •••••

وتجمعت البلاد في عهد « اليعاربة » ثم تفرقت في نهاية ذلك العهد فلما

(١) الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ص ٢٦٣ •

بويح أحمد بن سعيد إماما على عمان وكان آنذاك واليا على صحار كانت هناك عواصم متعددة لمقاطعات كانت كل منها مستقلة فمضى أحمد بن سعيد من صحار إلى الرستاق ففتح حصنها ، ومضى إلى سمائل فاستخلصها ، ثم إلى ازكى فأذعن له ، ثم إلى نزوى فسلمت له الأمر ، ثم إلى بهلاء فطاعته (١) .

وأحيانا كان « الإمام » يتخذ عاصمة يمكن أن يطلق عليها العاصمة الدينية ، وفي نفس الوقت كان ملوك النماهة يتخذون لهم عاصمة أو عواصم أخرى .

وهكذا تعددت العواصم في عمان تبعا للزمن أو تبعا للطموح ، أو لوجود الأئمة في جانب والسادة أو السلاطين في جانب آخر ، وانتهى هذا التعدد في عمان ، وأصبحت مسقط عاصمة وحيدة للبلاد .

وفي الدراسات التالية سنتحدث حديثا موجزا عن عواصم عمان ، تلك العواصم التي تَكَابَعَتْ أو وُجِدَتْ في وقت واحد ، ونقول ان الدراسة ستكون موجزة لأن المادة التي بين أيدينا يمكن أن تكون حديثا طويلا ، ولكن الظروف الآن تقتضى الإيجاز .

(١) المرجع السابق ص ٣٤٩ .

صحار

تقع صحار إلى الشمال الغربي من مسقط بعد مطرح والسيب والخابورة ، وبين صحار ومسقط مائة وأربعة وخمسون ميلا (١) ويقول عنها ابن حوقل (٢) إنها قصبة عمان وتقع على البحر وبها من التجارة والتجار ما لا يحصى كثرة .

وذكر الاصطخري (٣) أن صحار أعمر مدن عمان وأكثرها مالا ، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس (!!) مدينة أكثر عمارة ومالا منها .

ويذكر المقدسي أن صحار مدينة طيبة الهواء كثيرة الخيرات والفاكهة ، واسعة ، ليس في تلك التواحي مثلها ، وهي قصبة عمان ، بلد عامر آهل ، حسن ، طيب ، نزه ، ذو يسار وتجار ، أسواقه عجيبة ، والجامع على الساحل له منارة حسنة ، والبلدة بها آبار عذبة وقناة حلوة ، وأهلها في سعة من كل شيء (٤) .

وبالإضافة إلى موقع صحار وأهميته يذكر الباحثون أن النحاس استخرج من مكان يقع بالقرب من صحار ، وكان ذلك في الألف الرابعة قبل الميلاد (٥) .

واستمر استخراج النحاس بعد ذلك ، وترتب على هذا أن قامت في مشارف صحار صناعة صهر النحاس ، عند الطريق الطبيعي إلى الداخلية ، وكان عمال النحاس يشغلون حيزا كبيرا في المدينة (٦) .

(١) حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) صورة الارض ص ٤٤ .

(٣) المسالك والممالك ص ٢٥ .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ج ٥ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٥) مال الله بن علي بن حبيب : ملامح من تاريخ عمان ص ٣ .

(٦) اندرو ويليامسون : صحار عبر التاريخ ص ٢٧ .

ومع صناعة النحاس كانت صحار دائما المركز الطبيعي للتطور الزراعي في اقليم الباطنة الساحلى ، وهى تنتج فائضا كبيرا من المنتجات الزراعية ، وبخاصة البلح والفواكه شبه الاستوائية .

ويصف بعض الكتاب الحالة الزراعية في صحار خلال فترة ازدهارها بأنها كانت تنتج كمية هائلة من البلح بالإضافة إلى الموز والتين ، وكان الزراع يتوسعون في زراعتها (١) .

وازدهار الصناعة في مشارف صحار ، وازدهار الزراعة حولها ، مع موقعها الساحلى الممتاز ، كل هذا هيا « صحار » لتلعب دورا كبيرا في مجال التجارة ، فقد نشطت تجارتها إلى الهند وإلى شرقى إفريقيا ، وقد ذكر عنها الاصطخرى وابن حوقل في هذا المجال أنها كانت مستودع العالم ، ولا توجد مدينة في جميع أنحاء العالم تضاهى صحار في ثراء تجارتها ، وإن جميع منتجات الشرق والغرب والجنوب والشمال تصب في هذه المدينة ، وتخرج منها إلى جميع المراكز التجارية في العالم (٢) .

وننتقل بالحديث عن صحار من وضعها الطبيعي إلى دورها السياسى وحظها في الاستقلال والاحتلال ، وجهود أهلها لدفع الاحتلال عنها .

وأول ما نذكره كتابان وردا من الرسول صلى الله عليه وسلم أحدهما إلى أهل عمان بوجه عام والثانى إلى « عبد » و « جيفر » ابنى « الجلندى » بوجه خاص ، وكانت لهما السيادة على عمان وكانا يقيمان في مدينة صحار .

ونص الكتاب الأول هو : من محمد رسول الله إلى أهل عمان ، أما بعد ، فادعوكم أن تقررشوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، وأن تعمروا المساجد .

(١) المرجع السابق ص ١١ و ٢٢ .

(٢) اندرو ويليامسون : صحار عبر التاريخ ص ١٩ و ٢٣ .

ونص الكتاب الثانى هو : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، أما بعد فإنى أدعوكما لدين الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة الأتذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين (١) •

وحمل هذه الرسالة عمرو بن العاص وقابل « عبدا » وهو أحكم الرجلين فأوصله إلى أخيه جيفر ، وإيجاز القول هنا أنهما أسلما وتبعهما قومهما ، ورفض الفرس الذين كانوا يقيمون بعمان أن يدخلوا الإسلام ، فاشتعلت الحرب بين المسلمين وبين الفرس ، وغلب الفرس وطلبوا الصلح على أن يخرجوا من البلاد ، وتم ذلك فخرجوا من عمان وبقيت أموالهم لأهل البلاد •

وهكذا حظيت صحار بأنها كانت أول مدينة في عمان ترحب بالإسلام وتدخله طوعية ، ثم حظيت بشرف طرد الأجانب منها لرغبتهم الإسلام •

وحظيت عمان كذلك بالاستقلال ، وكان بصحار الوالى الذى عينه الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده لتنظيم الزكاة ، وفى عهد الدولة الأموية تعرضت عمان لهجوم حربى من بعض خلفاء الأمويين ، ولكن عمان عادت فحصلت على استقلالها التام إبان العهد العباسى ، وبدأ بذلك العصر الذهبى لصحار (٢) •

صحار تحت سلطة البرتغال :

وفى مطلع القرن السادس عشر زحف الاستعمار البرتغالى إلى أرض عمان بعد أن نجح فاسكو دى جاما فى الدوران حول إفريقيا ، فيما عرف بطريق رأس الرجاء الصالح ، وبفتح هذا الطريق تحولت تجارة الشرق من

(١) الكتابان وردا فى مخطوطة عمانية مجهولة المؤلف حققها الدكتور سعيد عاشور وجعل عنوانها « تاريخ أهل عمان » ص ٤٠ وما بعدها •
(٢) عمان وتاريخها البحرى : اصدار وزارة الاعلام والثقافة ص ٣٤ •

الطرق البرية — البحرية إلى هذا الطريق البحري المتصل ، وحاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز للتموين والحراسة على طول الطريق ، فاتجهوا إلى عمان واحتلوا صور وقريات ثم مسقط وصحار سنة ١٥٠٧ ، واتجه القائد الجائر البوكيرك إلى تدمير السفن العمانية وإقامة القواعد والقلاع ليدعم مركزه ويقوى سيطرته على تلك المنطقة الاستراتيجية ذات الموقع الملاحى الممتاز (١) .

اليعاربة يحرقون صحار :

وقامت دولة اليعاربة ، وأعلن مؤسسها الإمام ناصر بن مرشد الحرب على البرتغاليين بعد أن وحّد البلاد ، وكانت أجزاء من عمان خاضعة لهرمز . وباتالى خضعت للبرتغال التي احتلت هرمز ، ولما تحررت هرمز بجهود مشتركة سنة ١٦٢٢ وأصبحت تابعة للفرس حاول الفرس أن يسيطروا على المناطق العمانية التي كانت تابعة لهرمز ومن أهمها صحار ، ولكن الإمام ناصر بن مرشد خاض حربا ضد الفرس ونجح في تخليص صحار وجلفار (رأس الخيمة) (٢) من السيطرة الفارسية .

وهكذا عادت الحرية لصحار بعد نضال طويل ، وأدى ذلك إلى توجيه حملات نحو صور وقريات ، فاستطاع الإمام تحريرها أيضا من البرتغاليين (٣) وكانت صحار قلعة المقاومة ضد الفرس وضد قوات العدوان على العموم .

وكانت صحار مقرا للأحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين والذي كان الإمام سيف بن سلطان قد ولاه صحار قبيل نهاية اليعاربة ، وعقب نهاية اليعاربة آل الأمر للأحمد بن سعيد واتخذ من صحار مركزا حرر منه مسقط وغيرها من الموانى .

(١) Stephan and Handy Ronald : Arab Civilization p. 396.

(٢) Boger : History of the Imams and Sayyids of Oman : The Introduction

وستأتى تفاصيل الاحتلال البرتغالى وطرده فيما بعد .

(٣) حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٢ ص ٣٨ .

وسنرى بعد قليل عندما نتكلم عن « الرستاق » انتهاء دور صحار كعاصمة ، ووجود عاصمتين في عمان ، عاصمة الإمامة في الرستاق ، وعاصمة سياسية في مسقط .

مكانة صحار العالمية :

كانت صحار قوة هائلة في الدفاع عن عمان كلما اتجه أعداء عمان اليها بسوء ، وكانت في الوقت نفسه تحظى بمكانة عالمية في مجال التجارة والبحرية ، ونعمت صحار بموقع فريد فتجمعت لها خصائص قل أن تجتمع لسواها ، ونعيد في هذا المجال قول الاصطخري إنها كانت مستودع العالم ، وان جميع منتجات الشرق والغرب والشمال والجنوب كانت تصب في هذه المدينة وتخرج منها إلى جميع المراكز التجارية في العالم .

وظلت صحار عاصمة لعمان فترة طويلة كما ذكرنا ، ففيها كان يقيم الولاة الذين كان الخلفاء يعينونهم ، وكانت صحار تمثل مرقعا مهما بالنسبة للسيطرة على المجتمع العماني ، وعندما اختار الجلنديون المناطق الجبلية الداخلية كقاعدة للحكم ظلوا يحتفظون ببعض التحصينات في صحار ، وظلت صحار تحتفظ بصلات وثيقة مع الخارج كالبصرة والهند وخراسان ، ولهذا فعندما تحولت السلطة السياسية عن صحار احتفظت صحار بطابعها الدولي كعاصمة اقتصادية لعمان .

وهكذا كانت صحار تمثل مركزا عمانيا مهماً بسبب ارتباطها ببقية المناطق العمانية وبسبب علاقاتها بالخارج .

وتشتهر صحار بقلعتها الشامخة التاريخية ، ومن صحار انطلقت السفن العمانية تجوب البحار والمحيطات متجهة للصين وغيرها من موانئ الشرق والغرب .



قلعة صحار

وموقع المعركة الحاسمة التي قادها أحمد بن سعيد لتحقيق استقلال عمان

وفي صحار الحديثة معالم نهضة وتطور ، ومنها مزارع شمس عمان
التي أنشئت سنة ١٩٧٢ وهذه المزارع تتسع أنشطتها فتشمل أنشطة صناعية
وزراعية وحيوانية •

ومن معالمها الحديثة كذلك التنقيب عن النحاس الذي نجح نجاحا عظيما
وتكوّن على أثره مصنع النحاس •

وفي صحار الحديثة مؤسسات تعليمية وصحية رائعة •

الرسّاق

ذكرنا فيما سبق أن « عمان » تنقسم خمس مقاطعات هي :

- ١ — مقاطعة الباطنة •
- ٢ — مقاطعة عمان •
- ٣ — المقاطعة الشرقية •
- ٤ — مقاطعة جعلان •
- ٥ — المقاطعة الجنوبية (ظفار) •

والذى يهمنا هنا هو مقاطعة عمان حيث توجد الرسّاق التى تبعد عن مسقط بحوالى ١٧٠ كم •

وعندما تغلب البرتغاليون على ساحل عمان أصبحت عمان خاضعة لثلاث سلطات هي :

- ١ — سلطة الأئمة فى الرسّاق ، وكان الإمام آنذاك هو محمد بن إسماعيل (٩٠٦ هـ) •
- ٢ — بعض ملوك بنى نبهان وتَتَبَّعَهُم بعض مناطق بالداخل •
- ٣ — البرتغاليون ويسيطرون على المدن الساحلية : صور ومسقط وقرىات وقلعات وصحار

أما القرى الساحلية التى تقع بين المدن الساحلية فكان ولاؤها للإمام فى الرسّاق •

وهكذا لم تخضع الرسّاق للبرتغال ، فما كان هؤلاء يستطيعون الاندفاع لداخل عمان ، ولو قد فعلوا لالتقطتهم أيدي العمانيين وأنزلت بهم الضر • فالعدو كان يعيش بالموانئ فى حراسة البوارج العسكرية وعلى صلة بالتموين من الخارج •

وكانت الرستاق عاصمة الأئمة الذين حرصوا — وبخاصة في فترات ازدهار الإمامة — على الحياة مع الشعب ووسط تجمعاته ، ولهذا فقد عقدت الإمامة للإمام ناصر بن مرشد بالرستاق سنة ٩٠٣ هـ (١٦١٥ م) وبدأت بذلك دولة اليعاربة ^(١) في هذه العاصمة المهمة .

ويقول كتاب « تاريخ أهل عمان » الذى لم يتعرف مؤلفه : ظهر الإمام ناصر بن مرشد بين أهل الرستاق ، بعد أن اشتدت المحن ، وكثر الشقاق ، فغشاور أهل الاستقامة فى الدين ، وبحثوا فيمن يكون أهلاً لقيادة الأمر ، فأجمعوا أمرهم أن ينصبوا السيد الأجل ناصر بن مرشد فمضوا إليه وطلبوا منه ذلك فاستجاب لهم ، وكان مسكنه فى بلد الرستاق فأظهر العدل ، ودلهم الجبل ^(٢) .

وجال الإمام جولته يضرب العصاة حتى اجتمع الكل إليه ثم رجع إلى الرستاق .

ومن الرستاق خرجت جيوش ناصر بن مرشد التى أوقعت أشد الهزائم بالبرتغاليين والفرس ، وأحرز ناصر انتصارات واسعة ، ولم يبق مع البرتغاليين إلا مسقط ومطرح ، وقد خرجت جيوش ابن عمه وخليفته سلطان بن سيف من الرستاق أيضا فأجهزت على الأعداء ، وحررت مسقط ومطرح .

وفى أواخر عهد اليعاربة شهدت الرستاق — كما سيأتى تفصيله — صراعا مريرا بين أفراد هذه الأسرة فلجأ أحد المتنافسين (سيف بن سلطان بن سيف) سنة ١٧٣٧ إلى نادر شاه ملك الفرس يطلب عونه ، وانتهاز نادر شاه هذه الفرصة فدخل عمان بجيوشه ، وسرعان ما ظهر أنه لا يعمل لحساب سيف بن سلطان بل يعمل لحساب نفسه .

(١) الشيخ سعيد بن على المغيرى : جبهة الاخيار فى تاريخ زنجبار ص ١٩٩ .
(٢) انظر كذلك حمد بن سيف : الموجز المفيد فى تاريخ البوسعيد ص ١١ .

وقد مات بالرستاق آخر أئمة اليعاربة ، وعند موته كانت هارس
تحتل بعض المناطق ومنها مسقط ...

واستقبلت الرستاق علما جديدا من أعلام السياسة والحرب ، هو
الإمام أحمد بن سعيد الذي انتخب إماما لعمان سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م)
وهو رأس الأسرة البوسعيدية التي لا تزال تحكم البلاد حتى الآن ، واستطاع
حكم البلاد من عاصمته الرستاق ، وأعاد للبلاد استقلالها بالحرب حينا
وبالخديعة حينا ، حتى خلّص البلاد من الاحتلال الفارسي ، وكانت
الرستاق في عهده عاصمة سياسية واقتصادية مهمة إذ عمل أحمد بن سعيد
على تنشيط التجارة وازدهار المال ، وأقام أحمد بن سعيد توازنا بين
الساحل والداخل وشجع التجارة وحقق الأمن والاستقرار للبلاد .

وتوفي الإمام أحمد بن سعيد بالرستاق في محرم سنة ١١٩٨ هـ ودفن
بها وقبره هناك معروف .

وبعد وفاة أحمد بن سعيد حدثت حركات سياسية وثورات جعلت ابنه
سعيد بن أحمد بن سعيد يقنع بالإمامة في الرستاق ، إذ ثار عليه ابنه
حمد واستولى على مسقط وجعلها عاصمة سياسية ، ومع أن حياة حمد بن
سعيد لم تطل إلا أن مسقط أصبحت العاصمة منذ ذلك التاريخ (١٢٨٣ م) (١)

ومنذ ذلك التاريخ الذي ثار فيه حمد بن سعيد على أبيه وانتقل
إلى مسقط وقنع أبوه سعيد بأن يبقى في الرستاق إماما ، منذ ذلك التاريخ
أصبح هناك إمام في الرستاق و « سيد » أو « سلطان » في مسقط ،
بتبعاً لذلك فإن سلطان بن أحمد بن سعيد الذي ثار على أخيه سعيد بعد
وفاة حمد اتخذ من مسقط عاصمة له .

وانتهى بذلك دور الرستاق كعاصمة سياسية ، وانتقل الأمر إلى

(١) مال الله بن علي : ملامح من تاريخ عمان ص ٢٤ .

مسقط التي ستكون موضوع حديثنا بعد الانتهاء من الكلام عن الجوانب الحضارية في الرستاق :

وتشتهر الرستاق بقلعتها العظيمة وكذلك بقلعة الحزم وجامع البياضة الذي تخرج منه عدد كبير من علماء عمان وأئمتها الأفاضل .

وتشتهر الرستاق كذلك بعين « الكسفة » التي تتدفق منها مياه حارة نقية .

وكانت الرستاق فيما مضى مركزا تجاريا مهما يعرض منتجات الجبل الأخضر من المشمش والرمان والخوخ والتين والعنب ، وكانت الدواب تتوافد على الرستاق تحمل هذه الفواكه من الجبل الأخضر ، كما كان أهل الباطنة يقدون إلى الرستاق يحملون إنتاج هذه المنطقة من الأسماك والموز والليمون ، فكانت الرستاق بذلك نقطة التقاء اقتصادي كما كانت نقطة التقاء سياسي .

ومن الصناعات التي برزت في الرستاق صناعة الطوى العمانية ، وصناعة المصوغات الفضية ، وتحظى الخناجر الرستاقية بشهرة بالغة إذ يضع الصائغ العماني في الرستاق بصماته الدقيقة على هذه التحفة الفضية الرائعة .

ومن الصناعات التي حظيت بالاهتمام في الرستاق صناعة التمور ، وهناك بالرستاق مصنع عظيم للتمور ، تشتهر فيه أجود التمور وتتم بمراحل مهمة لتعليبها رائعا للتمور مما جعل تمور عمان من أرقى أنواع التمور في العالم .

كلمة عن قلعة الرستاق وقلعة الحزم :

زرت هاتين القلعتين يوم ١٧/٥/١٩٩٠ وهما قلعتان شاهقتان ، وتقع

قلعة الرستاق على مرتفع يجعلها تطل على كل الجهات حولها ، وبهذه القلعة مساكن للإمام والأسرته ، ومساكن للحراس ، ومكان للمسجونين ليكونوا تحت رقابته ، ومكان آخر للمعتقلين السياسيين وبها مدرسة لتعليم القرآن الكريم وعلوم الإسلام ، ومكتبة يقال أنها كانت عامرة بأهم الكتب •

أما قلعة الحزم فيرجع بناؤها إلى سنة ١١٢٦ هـ وهي على طبيعتها عندما زرتها أى لم تدخلها يد التجديد والإصلاح •

وقيل لى إن هناك نفقا يربط بين القلعتين وطوله ٢٥ ك م •

ومما يذكر عن القلاع أن الولاة يجلسون بها الآن مرة كل شهر حيث يباشرون أعمال الولاية منها ، وذلك لربط الحاضر بالماضى •

مسقط

الحديث عن مسقط يحتاج إلى نفسٍ طويل ، فهي درة الخليج ، والنجم الساطع في هذا المكان من العالم ، وقد أُنِيج لى أن أزور مسقط عدة مرات ، وأن أُنَجْوِل في ربوعها ، وكانت تسحرني مظاهرها ، فالقلاع الشامخة تبهر الرائي والبحر يخلب الألباب ، وناسها ينعكس عليهم صفاء البحر فنافسوا الماء في النظافة والنقاء ، وانعكس عليهم صمود الجبال فظهروا كأجدادهم قوة وصلابة •

وأشهد أن مسقط جذبتني ، وتمنيت أن أصف مشاهدتها ، وأن أعيش مع تاريخها الأضيئ شيئا إلى ما كتب عنها ، وهأنذا أفعل ، ولكن ليس بالقدر الذي تمنيته بل بالقدر الذي تتحمله الظروف •

وقد كتب علماء الجغرافيا والرحالة شيئا عن مسقط ولكنه ليس كثيرا ، فهو لذلك لا يشفى الغلة ، وكتب الباحثون المحدثون دراسات تطول وتقتصر عنها ، ونحن نقتبس من هؤلاء وأولئك ما ينير لنا السبيل ، ثم نضيف بعض ما دوناه عنها خلال زيارتنا ودراساتنا •

يقول ابن الفقيه الهمداني (٩٠٢ م) عن مسقط : إنها تقع في نهاية عمان وعلى بعد مائتي فرسخ من « سيراف » وهي ميناء تُبحر منها السفن إلى الهند (١) •

أما أبو عبد الله المقدسي (٩٨٥ م) فيذكر أن مسقط أول ميناء ترسو فيه السفن اليمنية المتجهة للشمال في الخليج الفارسي ، ومسقط مدينة كثيرة الفواكه (٢) •

(١) كتاب البلدان ص ١١٧ •

(٢) أحسن التقاسيم ج ٢ ص ٦٣ •

ويتحدث ابن بطوطة عن مسقط فيقول : هي بلدة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ، وبعدها سافرنا إلى قريات ثم قلعات وهذه البلاد كلها من بلاد عمان (١) .

أما المؤرخ العماني الشيخ سالم بن حمود فقد كتب عن مسقط كلمات قصيرة أيضا بدأها بتصحيح ما ذكره عنها ياقوت الحموي ، ثم أضاف أن مسقط مدينة من أهم المدن على البحر العربي الفارسي ، علا شأنها وعظم مكانها منذ القرن الحادي عشر للهجرة حين حل بها البرتغاليون ، وبنوا بها حصنا لهم بل حصونا وسورها من النجبال بأسرار متينة ، حين صار ملك عمان بأيدي الطغاة من آل نبهان ، واستمر بها الحال أيام اليعاربة الأجلاء الذين يفتخر بهم الدين ، وثبتهم بهم الدنيا ، ثم اتخذها آل بوسعيد عاصمتهم الوحيدة ، وهكذا تطور الزمن بها حتى الآن (٢) .

ولعل العلامة الشيخ سالم كان في عجلة من أمره ، فلم يمنح مسقط ما تستحقه من عناية ، وربط علو شأنها بالبرتغاليين ثم اتجه بسرعة للحديث عن آل نبهان الطغاة ، واليعاربة الأجلاء ، وختم كلمته القصيرة ذاكرا أن آل بوسعيد اتخذوها عاصمتهم الوحيدة مع أن قمة البوسعديين « الإمام أحمد بن سعيد » كانت الرستاق عاصمتهم .

وعلى العموم فالعلامة سالم بن حمود تحدث طويلا عن مسقط وهو يسرد تاريخ عمان ، فإذا كان قد أوجز هنا ، فقد أعطى فيما بعد تفاصيل واسعة عنها وهي تصارع الأحداث .

وفيما يتعلق بأهمية مسقط ومطلع بروزها في التاريخ نتفق مع الرأي الذي يقرر أنه على الرغم من أن صحار كانت الميناء الرئيسي في عمان

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) عمان عبر التاريخ ج ١ ص ٦٢ .

إيان ما يسمى « العهد الذهبي لتجارة الخليج » ما بين سنة ٧٥٠ و ١٥٠٧ بعد الميلاد ، وارتبطت بعلاقات تجارية مع موانئ الخليج الهامة الأخرى كسيراف وهرمز ، فإن مسقط هي الأخرى كانت محطة هامة لتموين السفن واستقبال البضائع القادمة من موانئ الخليج والهند وشرقي إفريقيا ، وإن ظل دورها ثانويا في هذا المجال ^(١) .

وعلى هذا فقد كان لمسقط دور في التجارة العالمية بجوار صحار منذ القرن الثاني الهجري مع الاعتراف بأن دور صحار كان هو الدور الرئيسي .

ونستمر في مزيد من الاقتباسات للتعريف بمسقط ، ونحن الآن نقتبس من أحمد بن ماجد البحارة الشهير الذي كتب عن مسقط يقول :

« إنها ميناء شهير لا مثيل له في العالم ، وفيه أمور وأشياء لا يجدها المرء في أى مكان آخر ، وفي رأس الميناء صخرة عالية يراها القاصي والداني ، ويهتدى بها المسافر أينما كان ، ويستطيع أن يراها المسافر إلى الهند أو السند أو هرمز أو مكران أو الغرب ، وتوجد إلى القرب من الشمال الغربي جزيرة حمراء عالية اسمها (الفحل) وهي ظاهرة بارزة بروزا كافيا حتى يمكن للجاهل أن يهتدى بها ليلا ونهارا .

« أن مسقط هي الميناء الأول لعمان ، وتأتى إليه السفن وتتموّن فيه ، وفي مسقط تباع الأقمشة والخضروات والزيوت والحبوب ، ثم إن السفن حين تقصد مسقط تكون في مكان آمن من كل ريح ، وفي مسقط المياه العذبة ، وسكانها كرام لطفاء يحبون الغرباء » ^(٢) .

(١) سطور من مقال عن : مسقط : الحاضر والمستقبل للاستاذ عباس ابن غلام نشر في « أخبار شركتنا » .
(٢) المرجع السابق بتصرف ص ١٢ .

مسقط بين الاحتلال والاستقلال :

عانت مسقط احتلال الفرس ثم الاحتلال البرتغالي الذي وصلت به المحقة أن يعتبر أهل مسقط قراصنة ، وأنزل بهم أفسى ألوان العنت .
ثم تحقق لمسقط النصر المؤزر على يد ناصر بن مرشد وابن عمه سلطان ابن سعيد •

وعاد الفرس لاحتلال مسقط في آخر عهد اليعاربة ، ولكن البطل أحمد بن سعيد حرر مسقط وأذل المعتدين •

وكان أحمد بن سعيد قد جعل الرستاق عاصمة له ، ولكن حفيده حمد ابن سعيد (١٧٧٩ — ١٧٩٢) اتخذ مسقط عاصمة له كما سبق ، فانتقلت العاصمة إلى مسقط ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت مسقط عاصمة البلاد وواجهتها •

موضوعات ختامية عن مسقط

هناك موضوعات مهمة ترتبط بمسقط سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا وثقافيا ، وفيما يلي نتكلم عن هذه الموضوعات :

(١) اقتصاد مسقط :

من مشاهدات السير بارتر فرير أنه زار مسقط فشاهد الأسواق تتعجج بالحركة حيث تعرض السلع والمنتجات على اختلاف أنواعها مثل المنسوجات والأقطان والحريير والمجوهرات وأدوات المائدة واللحوم والأسمك •

وفي « رحلات عبر الجزيرة العربية » لكارستان يقول : تنتج مسقط الجبن والمشعير والعدس والعنب وتصدر كميات هائلة من البلح إلى الخارج •

(م ١٨ - التاريخ ج ٧)

وذكر G. T. Rinal أن مسقط تصدّر اللبان والمر والفضة والصمغ (١) .

وأهم دور اقتصادي قامت به مسقط هو أنها كانت محطة تجارية ومركزاً لتوزيع البضائع وشحنها ، فالخليج يتوسط شبكة من الطرق البحرية التي تربط الهند وجنوب شرقى آسيا والشرق الأقصى وإفريقية ، هذا الخليج كانت مسقط تمثل أهم ميناء بين موانيه ، وكان هذا الموقع يدرّس ربحاً عظيماً على البلاد وعلى العمال العمانيين .

وعلى هذا فمنتجات مسقط وموقعها الجغرافي جعلها لها عبر التاريخ مكانة اقتصادية مرموقة ، ولذلك كان يقال إن نفوذ مسقط في الخليج نفوذ غير منازع (٢) .

وكان لمسقط معاهدات سياسية واقتصادية مع بريطانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية (٣) .

ولكن انقسام الدولة العمانية إلى دولتين بعد وفاة سعيد بن سلطان أو سعيد العظيم كما كان يسميه الحكام الأوروبيون جعل عمان تفقد مكان الصدارة الذي كانت تحتله بين دول المنطقة بقوة أسطولها البحري العظيم ، كما فقدت مدينة مسقط أهميتها كميناء بحري هام ، وهكذا تداعت حياة النعيم والرخاء التي كانت تتمتع بها هذه المدينة العريقة .

وعندما جاء للحكم السلطان سعيد بن تيمور عام ١٩٣٢ استطاع هذا الحاكم تهدئة النزاعات القبلية ، ولكن البلاد كانت شبه منقسمة إدارياً ، فالإمام كان لا يزال الحاكم في داخلية عمان فهو الذى يعين الولاة والقضاة من مقره في « نزوى » على الولايات الداخلية ، بينما كان السلطان

(١) عمان في صفحات التاريخ ص ٧٤ ، ٣١ ، ٤٣ بالتوالى .

(٢) عمان وتاريخها البحري ص ٧١ .

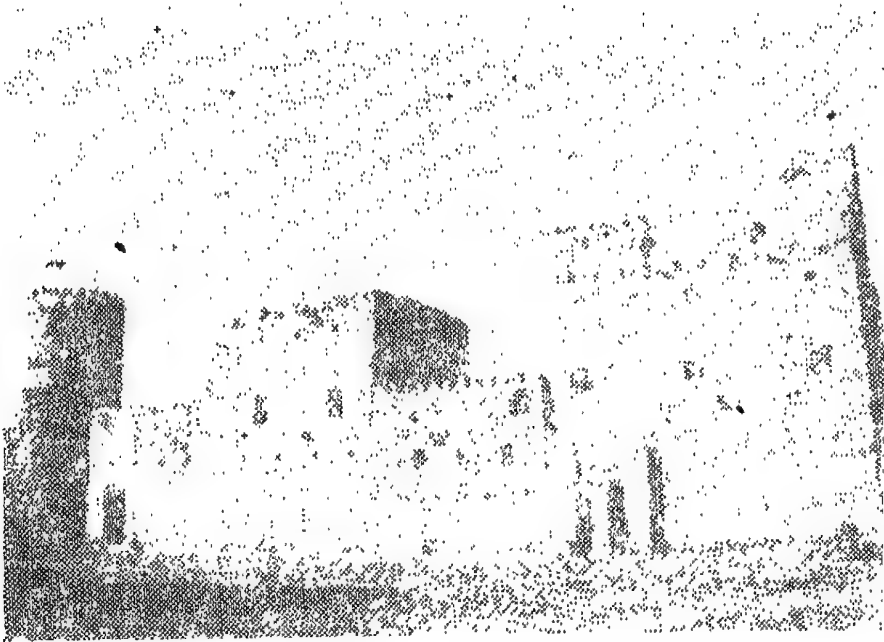
(٣) دكتور جمال ذكريا قاسم : الخليج العربى ص ٣٧٩ .

سعيد يسيطر على المنطقة الساحلية وهي الباطنة وعلى المنطقة الجنوبية من السلطنة • ولكن السلطان سعيد قضى على هذا الانقسام وأصبح الحاكم الوحيد •

وجاء عصر السلطان قابوس بدءا من ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٠ دون صخب ودون إعلام زائف عن الماضي والمستقبل فكان هذا العهد نورا كله ويثما كله في مختلف المجالات فوجد البلاد تماما ، وأصبح الحاكم الوحيد يعاونه وزراؤه ومستشاروه ، وكان النفط قد انبثق في الستينات فاستغل السلطان هذا المورد الجديد كما استغل مواهبه الخصبة السمحة في حركة عمران رائعة سننكم عنها عندما نتحدث عن مسقط المعاصرة •

(ب) مسقط مدينة الأبراج والقلاع :

تكثر الأبراج والقلاع والحصون في عمان ، وتقوم هذه عادة على



مسقط مدينة الأبراج

النلال البارزة ، ومهمتها الحراسة والدفاع عن مداخل المدن ، وأحيانا كانت القبائل المتنازعة تقيم الأبراج للحماية ضد بعضها البعض •

والقلاع والأبراج كانت منازل للحكام ، وأحيانا كانت توجد بداخلها مدارس ومكتبات ، ومكان للمساجين السياسيين حتى يكونوا تحت سمع الحاكم وبصره •

وفي مسقط مجموعة من الأبراج والقلاع تشرف على المدينة من ناحية البحر ، فمسقط كانت دائما يخشى عليها أن تضرب من البحر •

وفي مسقط قلعتان عظيمتان أقامهما البرتغاليون والقلعة الغربية تسمى « ميراني » ولعلها أخذت اسمها من الادميرال البرتغالي ، وكان البرتغاليون يطلقون عليها في الأصل « كابيتان » إذ كانت مقرا للقائد البرتغالي •

أما القلعة الشرقية فتسمى قلعة « جلالى » ولعل اسمها مقتبس من اسم أحد القادة الذين ارتبطوا بها •



(ج) مسقط المعاصرة :

إن الحديث عن مسقط المعاصرة يحتاج إلى دراسة طويلة لا تتسع لها هذه العجالة ويكفى أن نذكر أن عهد السلطان قابوس أقام جسرا هائلا بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فقد اتجهت عمان المعاصرة إلى المحافظة على القيم الأصيلة والتقاليد العربية مع تطعيمها بما يزيدها بهجة وجمالا دون تغيير في جذورها ، ثم اتجهت عمان إلى الحضارة الحديثة فأخذت منها قسطا كبيرا بحيث لا يتناقض مع القيم والآداب العربية والإسلامية ، ولا نستطيع هنا إلا تقديم إشارات سريعة لما جدد في مسقط من صور حضارية :

— امتداد الشريط الساحلى من مسقط إلى مطرح ، ويحس السائر فيه بروعة الطبيعة وقدرة الحضارة الحديثة •

— شق الطرق في الجبال الصلدة بحيث قربت المسافات إلى حد كبير وربطت بين أحياء العاصمة في سهولة ويسر •

— ظهرت للوجود مدن جديدة أو ما يسمى بالضواحي لمسقط ومن هذه مدينة قابوس الفاخرة ، ومدينة الإعلام التى تحوى محطة الإذاعة والتليفزيون ونادى الصحافة ومساكن العاملين ، والمدينة الديبلوماسية لرجال السلك السياسى ولسفاراتهم •

— المنطقة الصناعية بكل ما تحويه من أجهزة ومعدات •

— مجموعة من الفنادق الضخمة العالمية •

— المستشفيات التى أعدت أروع أعداد لاستقبال المرضى وعلاجهم •

— مطار دولى يستقبل أضخم الطائرات •

— ميناء قابوس الذى يستقبل أعظم السفن •

— جامعة قابوس وهى مفخرة عظيمة للعلم والمعرفة •

- التماثيل التي تزدان بها الميادين الرائعة المختلفة في العاصمة •
- ومن أهم ما يذكر لمسقط ولعمان الأمن الذي يسود العاصمة ويسود القطر كله ليلاً ونهاراً فوقوع الجريمة يعتبر شيئاً نادراً للغاية •
- وبعد ، إنني أرفع القلم عن الحديث عن مسقط ولا يزال هناك الكثير مما يمكن أن يدوّن عنها •

نزوى

تقع نزوى فى المنطقة الداخلية بعمان ، على بعد ١٨٠ كيلو مترا من مسقط ، وهذه المنطقة مهمة جدا وبخاصة بالنسبة لمؤرخ الإسلام ، وذلك لما تزدهر به من مساجد ، ولما قدمته للمجتمع العماني من أساطين العلماء ، ثم لأن هذه المنطقة بها حصون فخمة تتيه بجلالها ، وبعض الحصون شملت معاهد عليا ترعى العلوم والمعارف ، ولذلك فإننا قبل أن نتحدث عن نزوى كأحدى العواصم العمانية يجدر بنا أن نتحدث عن نزوى بلدة العلماء ونزوى منطقة الحصون •

نزوى بلدة العلماء :

حظيت نزوى بأن أطلق عليها « بيضة الإسلام » وذلك لوجود مدارس الفقه الإسلامى بها ، وعكوف العلماء والمريدين فيها على الدراسة والتأليف فى كل جوانب الدراسات الإسلامية ، وقد تخرج من معاهد نزوى مجموعة من جلة العلماء أنسابوا فى نواحي عمان يحملون العلوم والمعارف وسنذكر بعد قليل أسماء بعض هؤلاء العلماء ، وقد كان مناخها المعتدل من الأسباب التى جذبت حلقات العلم لاتخاذ نزوى مركزا للدراسة •

ونزوى من أوائل بلدان عمان التى احتضنت الإسلام ، ولذلك نجد مساجد نزوى تجمع فى عمارتها بين القديم والحديث ، وعلى سبيل المثال مسجد الشواذنة المنسوب لعيسى بن عبد الله بن شاذان ، وهو أول مسجد فى المنطقة وقد أعيد تجديده سنة ١٠٧ هـ •

وبمناسبة الحديث عن أول مسجد بنى فى منطقة نزوى ينبغى أن نقفز قليلا من نزوى إلى سمائل حيث نقابل الصحابى الجليل مازن بن غصوية ، وهو أول عماني اعتنق الإسلام ، وأسس مسجدا سُمي « مسجد الضمار » وهو أول مسجد أسس فى عمان ، وقد جددته السلطان قابوس على حسابه الخاص تكريما لهذه الذكرى المجيدة •

ونعود إلى نزوى لنكمل حديثنا عن مساجدها ، ففيها الجامع الذي لا يزال مقرا لدراسة الفقه والعلوم الإسلامية ، وجامع سعال الذي يقال أنه بنى في السنة الثامنة للهجرة ، ويوجد بنزوى كذلك مسجد العين ومسجد الشيخ ، وقد تخرج العديد من العلماء الفطاحلة من مساجد نزوى ومن هؤلاء الإمام الصلت بن مالك الخروصي والإمام جابر بن زيد « أبو الشعثاء » والشيخ محمد بن إبراهيم الكندي مؤلف كتب « بيان الشرع » والشيخ العلامة بشير بن المنذر ، والشيخ أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي وغيرهم كثيرون .

نزوى بلدة الحصون :

وتشتهر نزوى بالحصون والقلاع ، ومن أهم حصون نزوى قلعتها التاريخية التي بناها سلطان بن سيف ١٠٥٩ - ١٠٧٩ هـ (١٦٤٩ - ١٦٦٨ م) وقد استغرق بناء هذه القلعة اثني عشر عاما ، ويزيد طول قطر برجها الدائري الضخم عن ٣٧ مترا ، وهي تضم تحصينات متينة كما تضم أبراجا محصنة .

ويوجد بهذه القلعة أماكن للتعبد والصلاة والإدارة الحكومية وسبعة آبار للمياه العذبة .

وتتعدد الحصون في نزوى فمنها حصن « تنوف » الذي يقع على سفح الجبل الأخضر ويتحكم في مدخل الجبل الأخضر ، وتحيط به ثلاثة أبراج .

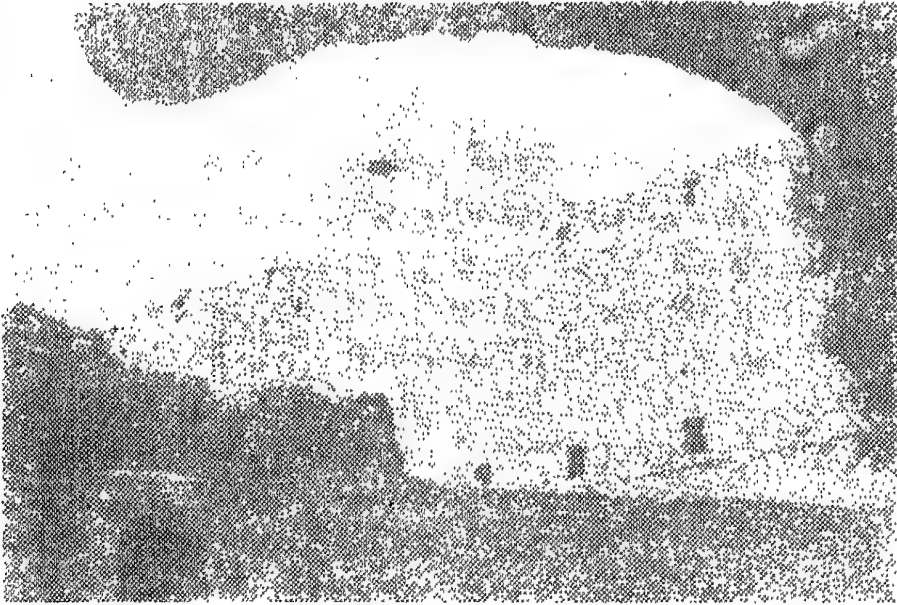
وهناك حصن الدويدة وله موقع استراتيجي ، إذ يقع في الشمال الغربي ، ويتحكم في مدخل الوادي المؤدى للجبل الأخضر ويخترقه فلج البركة (١) وقد أسسه محمد بن الإمام أحمد بن سعيد وولده هلال ، وبه قلعة الشهباء ويرج القرن (٢) .

(١) سلطنة عمان ومسيرة الخير : المنطقة الداخلية والوسطى ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ .

ومرة أخرى ونحن نتحدث عن الحصون — نقفز إلى حصن جبرين ،
ولجبرين صلة سياسية بنزوى سنتحدث عنها فيما بعد ، وحصن جبرين
(ويسمى أحيانا بـجبرين) يقع في ولاية بهلاء غير بعيد عن نزوى ، وهو من
أهم الحصون الأثرية في عمان • وقد بناه الإمام بلعرب بن سلطان ،
وأصل اسمه « أبو العرب » ثم نطق بلعرب اختصارا ، وهذا الحصن
هو أحد الآثار الكاملة الباقية ، وهو مزين بالنقوش الملونة ، وتنتشر فيه
السراديب ويطل على مدينة بهلاء ، وحوله أرض زراعية تنتشر فيها أشجار
النخيل ، وله فلج للمياه ، وهو مزود بشبابيك وفتحات تيسر مراقبة
الداخلين والخارجين منه (١) •

وبمناسبة الحديث عن حصن جبرين ينبغي أن نعود إلى تحفة الأعيان
لنروى عنه قوله :



حصن جبرين

حصن جبرين من أعاجيب الزمان ، وقد بنا . بلعرب من صلب ماله
لأن الأموال قد كثرت في أيامه وأيام والده قبله وذلك لبركة العدل وفضل
الجهاد ، ولذلك أقبلت الأمة على تشييد الحصون والمعقل وإجراء الأنهار
وغرس الأشجار ، وإحياء المواتات ليعيش الناس بأرغد عيش وأتم نعمة ،
فبنى والده قلعة نزوى وهى الشهباء ، وبنى هو حصن جبرين ، وبنى ابن
أخيه وهو سلطان بن سيف بن سلطان حصن الحزم والثلاثة من أعاجيب
الزمان حتى قيل إن حصن جبرين لا يستطيع أحد أن يصفه بجميع ما فيه
ولو بقى به شهرا كاملا ، وهو قصر عال يجرى فى بطنه نهر جاره وله
حيطان شاهقة ، ومن أعاجيبه أنه لو دخله داخل من غير أهله لم يستطيع
أن يبلغ أعلاه إلا بدليل من أهله (١) .

أشياء أخرى تشتهر بها نزوى :

وتشتهر نزوى أيضا بصناعة الحلوى العمانية التى برع فيها العمانيون
بصفة عامة وأهل نزوى بصفة خاصة ، وقد ساعد على ذلك توافر السكر الأحمر
بنزوى الذى تصنع منه هذه الحلوى .

وتشتهر نزوى كذلك بصناعة دبغ الجلود وتصنيع هذه الجلود بعد
دبغها ، كما تشتهر بالمشغولات الذهبية والفضية والخناجر وحلى الأعراس
والسيوف وغيرها من المشغولات التى تزدان بالنقوش المبدعة .

جولة تاريخية

اتحد الأئمة الإباضيون « نزوى » عاصمة لهم طيلة تاريخهم الطويل
فى فترة الإمامة الأولى التى بدأت سنة ١٣٥ هـ باختيار جلندى بن سعيد
إماما ، وامتدت إلى الإمامة الثانية التى بدأت سنة ١٧٧ هـ باختيار محمد
ابن عبد الله بن أبى عفان ، ثم فترة الإمامة الثالثة التى بدأت باختيار

(١) السامى : تحفة الاعيان ج ٧ ص ٧٧ وانظر كذلك جبهة الاخبار
لسعيد بن على ص ٢٠١ .

الخليل بن شاذان إماما سنة ٤٠٨ هـ واستمرت حتى مالك بن علي الحواري الذي توفي سنة ٨٣٣ هـ مع ملاحظة وجود فترات كان منصب الإمامة شاغرا ، أو وجود فترة ظلام سيطرت على البلاد •

وعادت الإمامة مرة أخرى باختيار عبد الله بن خامس بن عامر الأزدی سنة ٨٣٩ وظلت إلى نهاية بركات بن محمد بن إسماعيل في إمامته الثانية سنة ٩٦٨ هـ وكانت العاصمة تتأرجح بين نزوى وبهلاء (١) •

وفي خلال عهد الأئمة وبسبب الصراع الداخلي الذي اشتد وامتد ظهرت سلطات جديدة بعمان هم ملوك بني نبهان الذين كانوا إلى الشر والتخريب أميل ، وقد اتخذ هؤلاء عاصمتهم بهلاء أو مقنيات (٢) وأحيانا في نزوى (٣) •

وعندما أصبحت الإمامة لليعاربة كانت « الرستاق » غالبا هي العاصمة ، ولكن بلعرب أمضى فترة طويلة من حياته بين جبرين — التي شيّد بها حصنه الذي سبق الحديث عنه — وبين نزوى (٤) •

وقد ذكرنا من قبل أنه قبل قيام اليعاربة كان بعمان خمسة من صغار الملوك يحكمون في الرستاق والنخل وسمائل وسمد وأبرا •

ويقول الشيخ سعيد بن علي المغيرة (٥) عن « نزوى » إن الإمام العادل سيف بن سلطان توفي بها سنة ١١٢٣ ويصفها بأنها بيضة الإسلام وعاصمة الإمامة العمانية ، ويصفها السالمى بأنها كرسى مملكة العرب (٦) •

(١) انظر السالمى : تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان ج ١ ، ٢ وانظر كذلك زامبور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٩١ وما بعدها •

(٢) زامبور : المرجع السابق ص ١٩٤ •

(٣) تاريخ أهل عمان ص ١٠٣ •

(٤) تاريخ أهل عمان : مؤلفه مجهول ص ١٤٦ •

(٥) جبهة الاخبار في تاريخ زنجبار ص ١٩٦ •

(٦) تحفة الاعيان ج ٢ ص ٣١١ •

عواصم ثانوية مع نزوى :

وهكذا نجد نزوى قد نعمت بأن تكون عاصمة عمان فترة طويلة ، وفي عصور التفكك ظهر بجانبها كثير من العواصم الثانوية (بهلاء — جبرين — النخل — سمائل — سمع — ابرا) وقد ذكرناها جميعا حتى نلم بكل العواصم العمانية ، المهم منها وقليل الأهمية •

صلالة :

بقيت كلمة تقال عن « صلالة » فأغلب المفكرين العمانيين أو ربما كلهم لا يعدون « صلالة » في العواصم العمانية ، ومن المعروف أن جلالة السلطان سعيد بن تيمور أقام بها اثنتى عشر سنة إقامة متصلة ، ومنها كان يصدر تعليماته وتوجيهاته إلى وزرائه ورجاله بمسقط ، وإذا كان العرف قد جرى على اعتبار « الاسكندرية » مثلا عاصمة صيفية إذ يقيم بها الملك أو الرئيس شهرين في العام ، فإن من الممكن أن تعتبر صلالة أيضا عاصمة ثانوية بجوار مسقط •

أحداث تاريخية تتصل بنزوى :

وهناك أحداث تاريخية مهمة تتصل بالعاصمة نزوى ، ونحن نورد هنا فيما يلى :

أولا — احتلال فارسى قصير :

مرت بعمان — كما أشرنا من قبل — فترات فوضى واضطرابات وبخاصة في عهد ملوك بنى نبهان وكان الفرس يتحينون الفرص لمهاجمة عمان مستغلين أى اضطراب أو أى مظهر من مظاهر الضعف ، ولذلك نجد أنه في سنة ٦٧٤ هـ في عهد الملك عمر بن نبهان هاجمت شيراز عمان ، وكان المهاجمون عددا من الفرسان الأشداء ، واستطاعوا أن يحتلوا نزوى ، وأن يسلبوا أموال الناس ، وحاصروا بهلاء ، ولكنهم لم يستطيعوا فتحها فارتدوا على أعقابهم بعد احتلال لنزوى دام أربعة شهور •

ثانياً - خضوع نزوى بسهولة لناصر بن مرشد :

عقب البيعة للإمام ناصر بن مرشد سار بالبلاد ليقضى على الفرقة التي كانت سائدة ، وسرعان ما رحبت به سمائل ، ثم سار إلى نزوى ومعه القاضي خميس بن سعيد ، وفي الطريق نصرته قوة من أهل أركى ودانت له أركى بالطاعة ، ثم سار إلى نزوى فالتقاء أهلها بالكرامة ودخلها في حال من السلامة (١) .

ثالثاً - الإمامة في عهد الأخير بنزوى :

كان الإباضيون يرون أن بعض سلاطين آل بوسعيد لم يتم اختيارهم بالطرق التي يوافق عليها المذهب الإباضي ، ومن هنا لا يعتبر هؤلاء أئمة في نظرهم ، وقنع البوسعديون المتأخرون باللقب « السيد » أو « السلطان » ولم يتمسكوا بلقب الإمام ، وعلى هذا اختفت الإمامة طيلة القرن التاسع عشر وقبله بقليل وبعده بقليل أيضاً ، وكانت خلال ذلك تظهر أحيانا باهتة لا غناء فيها (٢)

وفي سنة ١٩١٣ م بدأت حركة قوية لبعث الإمامة ، فاجتمع زعماء الإباضية ومعهم الشيخ نور الدين السالمي واختاروا راشد بن سالم الخروصي إماماً ، وقتل هذا سنة ١٩٢٠ فبويع محمد بن عبد الله الخليلى إماماً لعمان ، وقد ظل يشغل إمامة عمان فترة طويلة حتى سنة ١٩٥٤ وحاول خلال هذه المدة أن يجعل من عمان الداخلية دولة شبيهة مستقلة عن مسقط ولكنه لم ينجح ، وعندما توفي سنة ١٩٥٤ اختير غالب بن علي إماماً وحاول هذا أن ينهج نهج سلفه ، ولكن هذه الازدواجية وذلك التقسيم لم يكن في مصلحة عمان ، ولذلك سار جيش من مسقط سنة ١٩٥٩ وقضى على هذه المحاولة تماماً ، واختفت بذلك الإمامة من نزوى إلى الأبد كما ذكرنا من قبل .

نزوى فى رأى العلامة سالم بن حمود :

فى ختام هذه الدراسة نذكر أن العلامة الشيخ سالم بن حمود يذكر نزوى بالكثير من التقدير والإجلال ، ولعله تلقى العلم فى معاهدها أو علّم فيها ، وعلى كل حال فالعلماء يجلسون معاهد العلم وملتقى الفكر ، ويسعدنا أن نقتبس منه هنا بعض كلماته عن نزوى :

تعرضت عمان من الفرس وقراصنة الهند **** إلى هجمات متعددة ، فرأى المسلمون تحويل عاصمة الإمامة من صحار إلى نزوى ، ورأى ذوو الشأن أن نزوى أمنع لهم وأحصن لزعامتهم وأقرّ لسلطانهم ، فاتفق نظرهم إلى أن يكون الإمام بها ، ولا يخرج منها إلا لهم يبدو أو لداعٍ يستدعى .

وأصبحت نزوى كرسى الإمامة فى عمان ، وكان مقام الإمام فى الحصن ، وفى عهد الإمام غسان سُميت تخت ملك العرب ، كما سُميت بيضة الإسلام .

والخلاصة أن نزوى كانت عرش الإمامة فى عمان ، وقد استوطنها الأئمة والعلماء والقضاة ، وكم حوت تربتها من إمام وفقه وزاهد .
ويختتم العلامة الشاعر كلامه عن نزوى بقصيدة طويلة نقتبس منها البيتين التاليين :

فإن تيامنّت الحوراء شاخته
لها مع السحب أكناف وأحضان
فحط رحاك عنها إنها بلغت
نزوى وطافت بها للمجد أركان

تلك هي العواصم العمانية بما حفلت به من أمجاد وما عانته من
صعاب واستبداد ، وقد سعدت وأنا أعيش معها ، وكانت تنعكس على
نفسى أحوالها فأفرح عندما أدوّن انتصاراتها العسكرية والفكرية ،
وأحزن عندما أراها تعاني من صراعات داخلية أو عدوان خارجي •

حمى الله عمان ورعى سلطانها العظيم الذي شاهدنا بصماته في كل
شبر من هذه الأرض الطيبة ، إنه طاقة من الخير والنور ، سطع على البلاد
فاستجابت له البلاد ، وخطت في ظله أوسع خطوات في طريق المجد
والسؤدد •

هل تعد عمان من دول الخليج ؟ أو لا تعد ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على اعتبار خليج عمان جزءاً من الخليج العربي^(١) ، أو ليس جزءاً منه ، فإذا كان خليج عمان جزءاً من الخليج العربي كانت عمان إحدى دول الخليج ، وكان الحديث عنها ينبغي أن يكون ضمن الحديث عن دول هذا الخليج ، أما إذا كان خليج عمان ليس جزءاً من الخليج العربي ، فإن عمان لا تكون إحدى دول الخليج ، وبالتالي يكون الحديث عن عمان مستقلاً كالحديث عن السعودية واليمن وغيرهما •

وإذا ذهبنا نتعرف عما إذا كان خليج عمان جزءاً من الخليج العربي أو ليس جزءاً منه ، نحس أن هذه القضية ليست موضع اتفاق ، أو قل إنها لم تطرح للبحث والتفكير من قبل ، ولهذا تكرر اضطراب عند بعض الكتّاب ، فالدكتور جمال زكريا له كتاب عنوانه « الخليج العربي » وفيه يتحدث عن عمان ضمن دول الخليج ، وله كتاب آخر عن « دولة بوسعيد » وفيه لا يجعل عمان إحدى دول الخليج العربي إذ يذكر في صفحة ٦ أن حدود عمان هو الخليج العربي شمالاً وبحر العرب جنوباً ، وخليج عمان شرقاً ، وصحراء الربع الخالي غرباً •

وهذا الاضطراب يتضح أيضاً فيما كتبه الدكتور سيد نوفل فهو مرة يجعل خليج عمان جزءاً من الخليج العربي ، إذ يقول عن جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها ما يلي : إن جنوب الجزيرة العربية يبدأ من مضيق باب المندب ويستمر شرقاً إلى عدن وحضر موت ، ثم يتجه شرقاً فشمالاً على بحر العرب ، فخليج عمان حيث عمان ومسقط ، ثم ندخل الخليج العربي من جانبه الغربي^(٢) فهو بهذا يجعل ما بعد خليج عمان جزءاً غربياً للخليج

(١) عن تسمية هذا الخليج سيجد القارئ دراسة شاملة فيما بعد عند الكلام عن الخليج ودوله •

(٢) الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ج١ ص ٤٠ •

العربى عادةً خليج عمان الجزء الشرقى لهذا الخليج ، ولكنه يعرود فى مكان آخر فيقرر أن خليج عمان ليس جزءا من الخليج العربى ، وهاك كلماته ^(١) « إن بريطانيا استطاعت أن تسيطر باسم سلطان مسقط على مدخل الخليج العربى فى مضيق هرمز » فهو بهذا يحدد مضيق هرمز ليكون مدخلا للخليج العربى مما يجعل خليج عمان ، ليس جزءا من الخليج العربى ، ويكرر المؤلف هذا الاتجاه فى موضع آخر فيقول : إن مضيق هرمز هو باب الخليج العربى ^(٢) .

وإذا ذهبنا لغير هذين المؤلفين أحسنا أن الموضوع غير مطروح ، ولا مدروس ، وبالتالي تختلف الآراء حوله كلما ورد له ذكر ، وكانت المراجع القديمة يتبع بعضها بعضا فى عدّ خليج عمان جزءا من الخليج العربى ، فالمسعودى وهو يتحدث عما أسماه بحر فارس جعل حدوده تمتد من البصرة حتى مسقط ^(٣) .

واتجه ياقوت هذا الاتجاه أيضا ، فقد جعل الخليج الفارسى تسعة من بحر الهند ^(٤) ، ومعنى هذا أنه ابتداءً به من المحيط الهندى وجعله يشمل خليج عمان .

واتجه النويرى ^(٥) هذا الاتجاه أيضا ، فقد حدد خليج فارس وجعله يشمل مضيق هرمز وخليج عمان ، ويمتد إلى بلاد مهرة .

وتحدث ابن الوردى ^(٦) حديثا واضحا عن بحر عمان بقوله : هو تسعة من بحر فارس ، وهو بحر كثير العجائب فيه مغاص اللؤلؤ ، ويخرج منه الحب الجيد .

(١) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٨١ .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٩١ - ٩١ .

(٤) معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٣ .

(٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب : ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٦) جريدة العجائب ص ٦٤ .

وذكر ابن خلدون ^(١) ان عمان إقليم منفرد يقع على بحر فارس •

ومن الباحثين المحدثين الذين قالوا بهذا الرأي الدكتور صلاح العقاد الذى خصص جزءا كبيرا للحديث عن عمان فى كتابه عن « التيارات السياسية فى الخليج العربى » •

وهناك لمحات أخرى تدعم هذا الاتجاه منها أن البلاد امتد لها الاحتلال الفارسى قبل الإسلام مع ما امتد له من دول الخليج ، وأن هذا الاحتلال ترك على المنطقة كلها بصمات متشابهة تربط بين نواحيها المختلفة •

ومن اللامحات كذلك أن الفرق الإسلامية التى عاشت بالخليج العربى امتد نشاطها إلى عمان ، وطبعت المنطقة كلها بطابع واحد تقريبا •

أما الاتجاه المضاد أى الذى يجعل خليج عمان ليس جزءا من الخليج العربى ، وبالتالي لا يجعل عمان جزءا من دول الخليج العربى فهو اتجاه له ثقله فيما نرى ، فعمان يقع جزء كبير منها على بحر العرب ، والمحيط الهندى ، مما يبعدها عن أن تكون محصورة فى نطاق هذا الخليج ، ثم ان عمان توصف فى المؤلفات العمانية ، بأنها الطريق البحرى بين الخليج والمحيط الهندى ^(٢) • وهى بذلك ليست من دول الخليج وقد ذكر Stephan and Handy Ronart ^(٣) حدود عمان فقرر أنها تمتد من ظفار إلى الشاطئ العمانى الذى يطل على بحر العرب وعلى خليج عمان شاملا رأس مسندم حتى مطلع الخليج الفارسى ، وهو بهذا يوضح أن الخليج الفارسى يبدأ من ناحية خليج عمان ، وبهذا لا تكون عمان من دول الخليج الفارسى •

(١) العبر : ج ٣ ص ١٩٧ •

(٢) سلطنة عمان ص ١٠ •

(٣) Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization p. 379.

وقد ورد ذلك الاتجاه بوضوح في تعريف بوغاز هرمز ذلك التعريف الذي أورده « علي رضا مرزا محمد » ونصه : وبوغاز هرمز يوصل خليج العجم ببحر عمان (١) .

وعدد رفاة الطهطاوى خلجان آسيا ، فذكر أنها عشرة ، وعدد الخليج العربى واحدا منها ، وخليج عمان واحدا آخر (٢) .

وذكر ابراهيم رفعت باشا حدود الجزيرة العربية فقال : انها يحدها البحر الأحمر غربا ، والمحيط الهندى جنوبا ، وبحر عمان والخليج الفارسى شرقا (٣) .

بقيت كلمة تحسم الموضوع فيما أرى هي أن السواحل المهادن أو سواحل الصلح كان جزءا من عمان (٤) ، وهذا الجزء يقع على الخليج العربى ومن هنا فعمان قيل أن تفقد هذا الجزء كانت تقع على خليج عمان والخليج العربى جميعا ، وأهل الذين عدوها من دول الخليج العربى لاحظوا وضعها القديم أيام كانت شاملة لدولة الإمارات . وفى أثناء التتبع الذى انتاب عمان وأخضعها إلى عدد من الطموحين والقبائل ظهرت هذه الإمارات وتلقفها الإنجليز عندما ظهروا فى الخليج العربى فثبتوا إبعادها عن الوطن الأم ، وتكرّنت منها أخيرا دولة الإمارات العربية كما سنرى فيما بعد .

ومن هنا فإن عمان الحالية تقع على خليج عمان وليست من دول الخليج العربى ، ولهذا يجدر بنا أن نتدارسها مستقلة قبل أن نتدارس هذا الخليج ودوله .

-
- (١) الخليج الفارسى عبر القرون والاعصار من ١٠٢ وانظر التحفة الأزهرية لاسماعيل على ص ٤٥٩ .
(٢) التعريفات الشافية ص ٢٦ .
(٣) مرآة الحرمين ج ١ ص ١٤٣ .
(٤) دكتور سيد نوفل : الأوضاع السياسية ج ١ من ١٥٤ و ج ٢ ص ٣٧ - ٣٨ .

صورة عمان بصفة عامة

لو أردنا أن نرسم صورة بالقلم لعمان لقلنا إنها بلاد تكثر بها
المفارقات ؛ فهي قمم شاهقة تطل على وديان منحدره ، وهي صخور جرداء ،
بجوار سهول البساتين والبيارات ، وهي بحر زاهر من جانب ورمال مترامية
بلا نهاية من جانب آخر ، وشعبها تبعا لذلك يشتغل بالرعى والزراعة كما
يعمل في صيد الأسماك ، ولكن بحر العرب وخليج عمان والموقع الاستراتيجى
قدّمت لشعب عمان مهنة أخرى هي السفارة التجارية ؛ فعمان تسيطر على
أقدم وأهم الطرق التجارية البحرية في العالم ، وهو الطريق البحرى بين
الخليج والمحيط الهندى ، وقد استغل أهل عمان الموقع البحرى أعظم
استغلال ، ودرسوا اتجاهات الرياح أعمق دراسة ، وراحوا بسفنهم
الشراعية تدفعهم الرياح الموسمية عبر بحر العرب إلى الهند ثم إلى ما
بعد الهند من أقطار ، وهناك كانوا يبيعون ما يحملون من سلع تحتاجها
هذه البلاد ، ويجمعون من منتجاتها ما يملئون به سفنهم ، وينتظرون حتى
موسم هبوب الرياح المعاكسة التى تدفعهم فى رحلة العودة إلى عمان ،
ومن عمان يبدعون رحلة جديدة داخل الخليج حتى حوض دجلة والفرات ...
وكان ذلك هو طابع الحياة لتلك البلاد فى العصور القديمة والوسيطة .

ويقول المؤرخون الغربيون إن موقع عمان الجغرافى كفّل لعمان أهمية
خاصة ، لأنها تحتلّ مركزاً مهماً بالنسبة للطرق الموصلة إلى الهند وإفريقية
والبحر الأحمر ، كما أن الرياح الموسمية كانت خير وسيلة للعمانيين
ليزاولوا هذه التجارة بين هذه المناطق (١) .

اقتصاد عمان

وبمناسبة الحديث عن التجارة البحرية التى كانت عمان تقوم بها

خلال قرون طويلة مضت ، نقرر أن هذه التجارة كانت وسيلة ربح وغير للعمانيين ، ليس فقط للذين يزاولون التجارة ، بل لعدد كبير غيرهم ، كالذين كانوا يعملون في بناء السفن ، ويقومون بشحنها أو تفريغها وكأولئك الذين كانوا يحرسون المخازن التي تودع فيها البضائع إلى أن تجيء السفن . . .

وهكذا شهدت الموانئ العمانية حركة تجارية نشطة للغاية ، وكان نشاط العمانيين أبرز نشاط ملاحى في المحيط الهندي قبل أن تظهر السفن التجارية الكبيرة ، واستتبع هذا النشاط أن قام أبناء عمان بدور واسع في إنشاء عدد من المدن البحرية على امتداد شواطئ إفريقيا الشرقية ، كما اتخذوا مراكز لهم في المدن الساحلية التي كانوا يفدون لها على طول المحيط الهندي وحتى شواطئ الصين .

وتقرر المراجع العمانية أن عمان كانت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تملك أسطولاً من السفن يقدر بنحو خمس عشرة سفينة من الطراز الغربى المربع الهيكل ، وثلاث سفن كبيرة ، ونحو ٢٥٠ سفينة سراعية أغلبها من سفن الشحن الكبيرة الحجم والحمولة ، إلى جانب مائة سفينة أخرى تتراول مختلف ألوان النشاط الملاحى ، وكانت السفن الكبيرة من هذا الأسطول التجارى تربط بين ميناء مسقط وميناء زنجبار من جانب ، وبين مسقط وكلكتا وجاكرتا من جانب آخر (١) .

ويتضح من التاريخ السابق أن النشاط التجارى العماني ضم إلى نفوذه كل المناطق التجارية التي كانت البرتغال تتصل بها ، فما إن أجلى العمانيون البرتغال عن بلادهم في النصف الأول من القرن السابع عشر حتى ورثوا معاقلهم ، وورثوا الخطوط البحرية التي كان البرتغاليون يزاولون فيها نشاطهم ، وفرضوا سيطرتهم على صفتى خليج عمان ، وامتد سلطانهم قويا عزيزا إلى ساحل إفريقيا الشرقية .

وهكذا كانت التجارة مصدر رزق وفير الأبناء عمان طيلة عدة قرون .

وبالإضافة إلى التجارة كانت الزراعة مصدرا مهما من مصادر الاقتصاد العماني ، بل إنها كانت المصدر الرئيسي الذي يعمل فيه حوالي ٨٠٪ من أهل البلاد ، وقد ساعد على نشاط الزراعة في عمان أن بها مساحات واسعة من الأراضي الخصبة ، كما أن بها بعض الواحات التي تكثر بها أنواع الفاكهة ، ويبرز في الحديث عن الزراعة بعمان منطقة الباطنة الساحلية ، ووادي سمايك حيث توجد المساحات الخصبة والماء الوفير ، وتنتج أرض عمان الحنطة والشعير والخضروات وقصب السكر ، كما تكثر بها فواكه المناطق الاستوائية كالمانجو والمان والجز ، وينمو العنب في منطقة الجبل الأخضر ، وتكثر أشجار جوز الهند في مقاطعة ظفار ، كما تكثر أشجار النخيل في الواحات ، وهي تنتج أنواعا متعددة من التمر تصل إلى مائتي نوع .

ويتصل بالإنتاج الزراعي تربية الحيوانات وتتنوع هذه الحيوانات بتنوع المناطق في عمان ، فالقبائل في الصحراء تهتم بتربية أجود أنواع الجمال ، وتكثر الأغنام في مناطق الرعي الجبلية ، ويوجد البقر في مقاطعة الباطنة ، وتكثر الجياد العربية في مقاطعة عمان .

ومن مصادر الاقتصاد العماني الثروة السمكية ، إذ تمتد سواحل عمان مساحات طويلة على المحيط الهندي وخليج عمان ، ويقدر طول الشاطئ العماني بـ ١٥٠٠ كيلو متر ، وقد اتجه الأهالي منذ عهد طويل إلى اتخاذ صيد الأسماك حرفة مهمة يعتمدون عليها في الطعام والتجارة ، كما يقومون بتجفيف الأسماك أحيانا ثم سحقها لاستعمالها سمادا أو غذاء للحيوان ، وساعدهم على ذلك أن الساحل العماني من أغنى البحار من حيث كثافة الأسماك وتنوعها ، إذ يشمل سمك « الثن » و « المارلين » وسمك « القرش » و « السردين » وغيرها من الأنواع ، ويستعمل صيادو

الأسماك القوارب والشباك وغيرها من الأنواع البدائية ثم المتطورة لتحقيق أهدافهم في صيد الأسماك •

ولعمان أطماع في أن تصبح الصناعة مصدراً من المصادر الاقتصادية بها ، وتدل البحوث على أن بأرض عمان مناجم للنحاس والفضة ، ومن الممكن أن تتحقق هذه الأطماع في المستقبل عندما تتجرى بعمان عمليات للتنقيب للبحث عن هذه الثروات •

على أن أكبر مصدر تعتمد عليه عمان في الوقت الحاضر هو البترول الذي انبثق في منتصف العقد السابع ، وبدأ تصديره سنة ١٩٦٧ ، ومع أن كمياته لا تزال قليلة نسبياً فهو قد فتتح لعمان باباً واسعاً من أبواب الخير يرجى أن يكون باب ثراء وبركة •

جولة تاريخية عن عمان

لمحة عن التاريخ القديم :

يتجه كثير من الباحثين إلى أن الحضارة البحرية الأولى ظهرت على مياه الخليج ، وأن هذه المنطقة جذبت لذلك جماعات الوافدين عبر البحر أو عبر الصحراء غزاة أو تجارا أو نازحين •

وبجانب الحضارة البحرية القديمة تدل الآثار على حضارة زراعية قديمة ارتبطت بمناطق الخصب والمياه في عمان ، وتدل عليها القنوات والسدود التي لا تزال آثارها واضحة للعيان •

وهناك مظاهر حضارية من الفخار ، ومن الأدوات الحجرية ، ومن نظام الري ، والأسلحة ، تدل على أن عمان كانت جزءا من الحضارة التي شملت مع عمان منطقة بلاد فارس وامتدادها إلى أفغانستان وغرب الهند في القرن الثالث قبل الميلاد ، وأن الإسكندر المقدوني حينما استولى على مصر أدرك أن مقامه بها غير آمن ما دامت الفرس تسيطر على المنطقة البحرية بالخليج العربي وامتداده في المحيط الهندي إلى المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وهذا هو الذي دفعه للزحف على امبراطورية فارس ، وامتدادها في أفغانستان وغرب الهند (الباكستان حاليا) •

وقد كان غزو الاسكندر لبلاد فارس وسيلة لتخليص منطقة الخليج ومنطقة عمان من الفرس فحصلت هذه المناطق على استقلالها في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد •

ولكن الفرس لم يقبلوا استقلال هذه المناطق عنهم ، فحاولوا من جديد فرض سلطانهم عليها ، بل حاولوا دفع جماعات من الفرس ليعيشوا بها ، ولكن العرب في هذه المناطق حرصوا على الاستقلال عن سلطان

الفرس ، ولم يقبلوا أن يعيش في بلادهم من الفرس إلا من يخضع لسلطانهم كما يعيش العرب على الشاطئ الشرقى تحت سلطان الفرس . وعلى هذا شهدت القرون الميلادية الأولى محاولات من الفرس للزحف ، وإصراراً من العرب لرد الزاحفين ، ولم ينته هذا الصراع إلا بمجيء الإسلام الذي استقرت في ظله عروبة هذه المناطق كما استقر استقلالها عن الفرس إلى حد بعيد (١) .

سكان عمان :

وبمناسبة الحديث عن عروبة عمان يجدر بنا أن نتحدث عن أصل العمانيين ، ويقرر التاريخ أن السواد الأعظم من أهل عمان يرتبط بهجرتين عربيتين كبيرتين ، أولاهما هجرة منذ زمن سحيق من قلب الجزيرة العربية إلى جبال عمان وشواطئها ، وقد وفد هؤلاء المهاجرون بسبب الجفاف في نجد وما حولها ، بحثاً عن أرض خصبة ، أو بحثاً عن الماء ولا يُعرف بالضبط تاريخ هذه الموجة من المهاجرين ، ويغلب أن يكون هؤلاء قد وفدوا على عدة دفعات ، وينتسب هؤلاء إلى قبائل نزار ، ويعرفون بالنزاريين .

وأما الهجرة الثانية فقد وفدت من جنوب الجزيرة العربية ، أى من مناطق اليمن ، وارتبطت هذه الهجرة بانتهاء سد مأرب سنة ١٢٠ ق.م. وقد بدأت هذه الهجرة مع بدء الانهيار في القرن الثاني قبل الميلاد ، وظلت تتوالى كلما تعرض السد إلى مزيد من التصدع حتى كمل هذا التصدع في نهاية القرن السادس الميلادي ، وبهذا تكون الهجرات اليمنية إلى عمان قد استغرقت ثمانية قرون ، ويعرف هؤلاء الوافدون باليمنيين أو القحطانيين ، ويقال أن إحدى موجات اليمنيين كانت بقيادة

Arian's History of Alexander's Expedition vol. I p. 108 (١)

وانظر الأوضاع السياسية لآمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة

للدكتور سيد نوفل ج ١ ص ٤١ - ٤٢ .

نصر بن الأزد ، وأن موجة أخرى يمنية كانت بقيادة مالك بن فهم وهو أيضا من بنى أزد •

ولا يزال سكان عمان حتى الآن ينتسب بعضهم إلى نزار ، وبعضهم إلى أزد ، أو بلغة أخرى يرتبط بعضهم بالشمال وبعضهم بالجنوب ، وهذا الانقسام عانى منه المجتمع العماني أحقابا طويلة ، وطالما هددت النزعة القبلية الاستقرار والسلام في المنطقة ، على أن النزعة الوطنية كانت تغلب على النزعة القبلية كلما هدد خطرٌ خارجي أرضَ عمان ، فحينئذ ينسى هؤلاء وأولئك مشكلاتهم القبلية ، ويتجمعون صفا واحداً للوقوف في وجه ذلك الخطر ، ولكنهم سرعان ما يعودون للصراع القبلي إذا تغلبوا على الخطر الخارجي ، وقضوا على الاعتداء الذي يهدد وطنهم •

وبالإضافة إلى عرب الشمال وعرب الجنوب الذين يكونون العنصر الرئيسي في عمان توجد هناك جماعات أخرى وفدت على عمان من خارج الجزيرة العربية ، واستقرت بها ، وأصبحت عمانيّة الجنس ، عربية اللسان ، تدين بالإسلام ، وبعض هؤلاء وفدوا من إفريقية إبان الارتباط الطويل الذي كان يربط زنجبار وساحل إفريقية الشرقي بعمان ، وأكثر هؤلاء يعيشون في مسقط ومطرح وغيرهما من المدن الساحلية ، وبعضهم وفدوا من شبه القارة الهندية عن طريق الارتباط التجاري الذي ربط شبه القارة الهندية بعمان قرونا طويلة ، وأكثر هؤلاء يعيشون في مطرح ، وبعضهم وفد من ساحل مكران في بلوخيستان (الباكستان الآن) وأصبحوا الآن جزءا من المجتمع العماني ، ويعيش أكثرهم في الظاهرة ، وبعضهم في المناطق الساحلية •

عمان الإسلامية

في عهد الرسول :

عندما جاء الإسلام كانت أكثر مناطق عمان تحت حكم أسرة الجبثندي الأردى ، وقد اشتهر من هذه الأسرة شخص عظيم هو « جيفر » وكان ينزل من قومه منزلة الملوك بين الرعية ، فبعث إليه الرسول عمرو بن العاص بن وائل السهمى فى العام السابع للهجرة بكتاب يدعوه هو وقومه إلى الإسلام فى نفس الوقت الذى كتب فيه الرسول بذلك إلى الملوك والرؤساء فى الجزيرة العربية وخارجها ، وقد أورد أبو عبيد نص كتاب الرسول إلى ملك عمان مع ما أورد من نصوص لكتب الرسول إلى الملوك والرؤساء (١) ، ويذكر الخثعمى السهيلي أن من الملوك من اتبع محمد صلى الله عليه وسلم كملوك اليمن وملك عمان (٢) ، وقد أسلم مع ملك عمان وجوه العشائر وبقية الناس .

ولم يكتف جيفر بإسلامه ، وإنما أرسل من قبلكه رسلا تحمل دعوة الإسلام إلى مهرة وغيرها من المناطق المجاورة لعمان ، وقد استجاب أكثر العرب فى هذه المناطق إلى الدعوة الجديدة ، ولكن الفرس الذين كانوا يقيمون بها رفضوا دعوة الإسلام ، فاجتمع الأرد إلى جيفر وقالوا له : لا يجاورنا العجم بعد هذا اليوم ، وأجمعوا على إخراجهم ، فدعا جيفر مرازية الفرس وقال لهم : إما أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تخرجوا من أرض العرب ، فرفضوا الاستجابة لأى من هذين الاتجاهين مما سبب صراعا شديدا بين الجماعتين ، كان النصر فيه لأهل عمان ، واضطر المرازية أن يطلبوا الصلح ، وتم الصلح على أن يخرج الفرس من عمان بأنفسهم وذرائعهم ، وعقب ذلك خلت عمان من الفرس الذين عادوا إلى بلادهم .

(١) الأموال لأبى عبيد ص ٢٠ - ٤٢ .

(٢) انظر الروض الأنف ج ١ ص ٢٥٠ .

وأقام عمرو بن العاص عاملا على عمان من قبيل الرسول فكان يجمع الصدقات ويوزعها ، ويعلم الناس مبادئ الإسلام ، ويقضى بينهم حسب تعاليم الدين الجديد ، وكان زعماء الأزد من بنى الجندى عوناً له في أداء مهمته ، وقد ظل كذلك حتى جاءت الأنباء بوفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فعاد عمرو إلى المدينة ومعه عبد الله بن الجندى وبعض بنى أزد ، وألقوا زمام الأمر إلى أبي بكر ليختار من يراه ليكون والياً على البلاد .

ويقرر المفكرون العمانيون أن الإسلام استطاع أن يوحد القوى انقبالية في عمان تحت لوائه ، فقد منحها شخصيتها الدينية كما أمدّها بنظام سياسي وتشريعي أقامت عليه دعائم مجتمعتها (١) .

عمان في عهد الخلفاء الراشدين :

يذكر السالمي (٢) أن أبا بكر استقبل عمرو بن العاص ووفد عمان بترحاب وتقدير ، وأن أبا بكر قال لهم : إنكم يا معشر أهل عمان أسلمتم طوعاً ، فجمع الله على الخير شملكم وبعث الرسول صلوات الله عليه لكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فأجبتموه إذ دعاكم ، مع بُعد داركم ، وأطعتموه إذ أمركم على كثرة عددكم ، فأقام فيكم عمرو مكرماً ما أقام ، وكنتم على خير حال حين أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظهرتم ما يضاعفاً فضلكم ، وقمتم مقاماً حمدناكم فيه وأقر أبو بكر جيفر وأخاه عبداً على ملكهما ، وجعل على الصدقات حذيفة بن محسن .

وفي عهد عمر عيّن على صدقات عمان عثمان بن أبي العاص وهو الذي أغرى عمر أن يعبر الخليج إلى بلاد فارس ، وظل جيفر وأخوه « عبد » يقومان بعملهما إلى أن ماتا في عهد عثمان ، فتولى السلطان بعدهما عباد

(١) عمان بالألوان (انظر المقدمة) .

(٢) تحفة الأعيان : ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

بن عباد الجلندی ، وأقره عثمان على ذلك ، وظل على حاله تلك طيلة عهد عثمان وعهد على كرم الله وجهه •

ولنعد إلى عهد أبي بكر الصديق لنذكر أنه حدث بعمان خلاله فتنة يختلف المؤرخون في سببها ومداه ، ومن المعروف أن حركات الردّة وادّعاء النبوة ومنع الزكاة ظهرت في مناطق مختلفة من الجزيرة في أخريات عهد الرسول ، ونشطت في عهد أبي بكر الصديق ، ويذكر ابن الأثير ^(١) أن إحدى هذه الحركات قامت بعمان بزعامة رجل اسمه ذو الناج (لقيط ابن مالك الأزدي) فقد ارتد هذا عن الإسلام ، ودعا الكثيرين إلى رأيه ، واتخذ من الزكاة وسيلة لإثارة الناس ضد مركز السلطة بالمدينة ، وكرر في هذا المقام التعبير الذي كان شائعا في هذه المناطق ، والذي قيل لعمر بن العاص وهو في طريقه من عمان إلى المدينة ، ونصه « إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة ، فإن أعفيتموهم من أخذ أموالهم فسنتستمع لكم وتطيع ، وإن أبينتم فلا تجتمع عليكم كلمة العرب » ^(٢) ، وبهذا استجاب الكثيرون من أهل عمان لهذا القائد ، وأرسل أبو بكر أحد جيوشه التي دكت الجزيرة العربية للقضاء على هذه الفتنة ، وكان الجيش الذي أرسل إلى عمان بقيادة حذيفة بن محصن من حمير ، وأرسل أبو بكر إلى عكرمة ابن أبي جهل بعد أن اشترك في القضاء على مسيلمة الكذاب أن يلحق بحذيفة ، ودارت معركة هائلة ، انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما ، وتسمى هذه المعركة موقعة « دبا » وقد انضم للمسلمين فيها بنو ناجية بقيادة الخريب بن راشد ، وبنو عبد القيس بقيادة سيحان بن صوحان •

ولكن المؤرخ العماني السالمى يهاجم ابن الأثير وروايته ، ويرى أن كلامه باطل لا أصل له ، ويقرر أن سبب هذه الواقعة أن امرأة من بني الحارث بن مالك بن فهد كان عليها أن تدفع الزكاة لعامل الزكاة ، ولكنها

(١) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ١٤٣ •

(٢) انظر هذا الحديث أيضا في تاريخ خضرموت لحامد بن صالح العلوي ج ١ ص ١٥٧ •

دفعت أقل مما كان يجب أن تقدمه ، فأخذ عامل الزكاة منها حق المسلمين غير مكترث برأيها ، فاعتبرت المرأة هذا غصبا وعدوانا ، وصرخت يا آل مالك ، وكانت دعوة جاهلية استجيب لها بعض الناس دون تمحيص وصارعهم حذيفة بن محصن الذى كان أمير الصدقات ، وقامت حرب ليست واسعة انتصر فيها الجانب الإسلامى ^(١) . وعلى هذا لم تكن بعمان حركة منع الزكاة وإنما هى حادثة فردية أزكاها الاتجاه القبلى الذى استجاب لنداء المرأة .

عمان فى العهد الأموى :

إن الحديث عن عمان فى العصر الأموى يحتاج إلى عودة للوراء لتتحدث عن الصراع الذى دار بين على بن أبى طالب وبين معاوية ، ففى هذه الحرب نشأت فرقة « الخوارج » وقد تحدثنا عنها حديثا طويلا فى الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الإسلامى ، وشمل حديثنا عنهم مبادئهم وحركاتهم ^(٢) والمهم أنه فى موقعة النهروان التى حدثت بين الإمام على وبين الخوارج سنة ٣٨ هـ لم يكتف من الخوارج إلا عدد قليل لم يتجاوز العشرة ، وأن هؤلاء تفرقوا فى البلاد ، واتجه أكثرهم إلى المناطق النائية ، فذهب اثنان منهم إلى عمان واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن ^(٣) ، وشهدت عمان نشاط الخوارج الذين تقدموا إليها ، فلما قتل على كرم الله وجهه بعد هذه الموقعة بحوالى سنتين ، وآل أمر الخلافة إلى بنى أمية أعلن الخوارج أن عداوتهم الحقيقية هو معاوية ، وأصبحت عمان أهم مركز بالجزيرة العربية لهذا العدا ، وتجمع ضد الأمويين السكان الأصليون ، وعدد كبير من الخوارج الوافدين ، ووجد أهل عمان فى ذلك فرصة لإعلان استقلالهم عن الحكم المركزى ، وهذا الاتجاه الاستقلالى واضح فيهم عبر التاريخ ، وساعدهم عليه مكان بلادهم النائية ، وانشغال الخلافة الأموية بكثير من

(١) تحفة الأعيان : ج ١ ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) ص ٢٢٩ - ٢٦٨ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل القسم الأول ص ١٠٧ .

المشكلات ، كما ساعدتهم عليه أن المجتمع العماني مجتمع قبلي ، لا يقبل بسهولة سيطرة الخلافة النائية ، ثم أن طبيعة عمان الجغرافية تجعل الاتصال بها والتغلب بداخلها أمرا عسيراً ، وعلى هذا فإن أية حركة انفصالية بعمان تجد أمامها فرصة معقولة للنجاح ^(١) وعلى هذا أصبح أمر عمان — كما يقول السالمى ^(٢) — بيد أهلها ، ولم يكن لمعاوية ، ولا لمن بعده سلطان في عمان حتى عهد عبد الملك * .

وفي عهد عبد الملك تغيرت الأمور ، فقد أصبح الحجاج صاحب السلطة في أرض العراق ، ومن هنا تطلع إلى الخليج ، وبالتالي إلى أرض عمان ، ورأى أن سلطانه بالعراق لا يتم إلا إذا امتد سلطانه إلى الخليج العربي وخليج عمان ، ومن هنا قام صراع طويل بين أهل عمان وبين جيوش الحجاج ، وانتصر الحجاج في نهاية الأمر ، وفرّ زعماء أسرة الجندى من وجه الحجاج إلى بلاد الزنج « زنجبار » وكانت لعمان صلة سابقة ببلاد الزنج ، فكتمت هذه الصلة ووضعت أساساً لصلة طالت وامتدت بعد ذلك بين عمان وساحل إفريقيا الشرقى ، واستعمل الحجاج على عمان الخيار بن صبر المجاشعي ، وعندما آل الأمر إلى الوليد بن عبد الملك عين هذا سيف الهمداني واليا على عمان ، ثم عين سليمان ابن عبد الملك على عمان صالح بن عبد الرحمن الليثي ، وبعده زياد بن المهلب بن أبي صفرة من أهل عمان * .

واتجه عمر بن عبد العزيز وبعثه الإسلامية ، فعين واليا صالحا هو عمر بن عبد الله الأتصاري ، فأحسن السيرة بين الناس ، ومن أجل هذا ظلّ مكرما محبوبا بين أهل عمان حتى وفاة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ، وحينئذ تنحى هذا الوالى عن الولاية ، وأعاد السلطة لزياد بن المهلب قائلاً له : هذه البلاد بلاد قومك فثأرك بها * وخرج عمر بن عبد الله من عمان ، وقام بالولاية زياد بن المهلب ^(٣) * .

(١) سلطنة عمان ص ٣٣ بتصرف * .

(٢) تحفة الأعيان ج ١ ص ٥٧ * .

(٣) السالمى : تحفة الأعيان ج ١ ص ٥٩ * .

عمان والمذهب الإباضي :

رأينا فيما سبق أن اثنين من زعماء الخوارج أخذوا طريقهما إلى عمان عقب موقعة النهروان ، وأن مذهب الخوارج بدأ ينتشر في هذه البلاد ، وزاد في تعميق جذوره أن السكان أخذوه وسيلة ليعلنوا به رغبتهم في استقلالهم عن السلطات المركزية البعيدة التي تجبى الزكاة وتفرض الولاية ، ورأينا كذلك أن الاتجاه الاستقلالي نجح في خلال عهد الخلفاء الأمويين الأوائل ، فلما جاء عبد الملك بن مروان صارع الخوارج بالعراق ، وكان يقودهم نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة وعبد الله بن إياض ، وانتصر عبد الملك ، فهرب بعض من نجا من الخوارج عبر الخليج العربي إلى عمان ليكونوا بمنأى عن العراق ، ولكن جيوش الحجاج لحقت بهم في عمان كما ذكرنا من قبل . . .

وعاش الخوارج في عمان ، وكان أكثرهم من أتباع عبد الله بن إياض ، وكانوا يضمرون ثورتهم حينئذ ويعلنونها أحيانا ، حتى جاءت الدولة العباسية فاستعاد أهل عمان سلطانهم كاملاً منذ مطلع هذه الدولة .

والذي نريد أن نقوله هنا أن تفاعلاً دقيقاً حدث في عمان بين الأماني الوطنية ، وبين المذهب الإباضي ، وكان المذهب الإباضي في طبيعته أقرب مذاهب الخوارج إلى أهل السنة . وقد قام الإباضيون في عمان بدور واسع في الصراع العسكري ضد النشاط الأموي ، ومن هنا امتزجت الحركة الاستقلالية العمانية بالفكر الإباضي . وانبثق عن هذا الامتزاج فكر جديد هو الذي ساد عمان منذ ذلك التاريخ حتى العهد الحاضر ، ومن هنا حق لأهل عمان أن يكرهوا أن يُقال عنهم أنهم خوارج ، ومما جعلهم يكرهون أن يسموا خوارج أنهم لا يريدون أن يرتبطوا بجماعة خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه ، ويفضلون أن يرتبطوا بعبد الله ابن إياض الذي خرج على عبد الملك بن مروان ، ثم إنهم من ناحية المذهب لم يشتهوا كما اشتت بعض الخوارج ، بل كانوا معتدلين جدا ،

واعتبروا أنفسهم ورثة للفكر الإسلامي الأصيل الذي جاء به القرآن الكريم .
يسنة الرسول ، وتبته الخلفاء الراشدون من بعده . وقد شرح هذا الفكر
إفصاحاً المؤرخ العماني أبو محمد عبد الله بن حميد السالمي (١) .

وجاء في كتاب سلطنة عمان (٢) ما يلي عن الامتزاج بين المذهب
الإباضي والدم العماني : كان المذهب الأباضي هو النبراس الذي أضاء
قلوب العمانيين ، ووحد بينهم في كفاحهم لنيل استقلالهم ، وكان العمانيون
في هذا الكفاح يستبسلون في الدفاع عن عقيدتهم وتقاليدهم .

سلايم الإباضية في عمان :

من أبرز التعاليم التي يعتنقها إباضية عمان أن لأي مجتمع إسلامي
أن يختار إمامه ممن تتوافر فيهم القوة والعلم والعدالة والفضل والورع ،
ولا يشترط أن يكون من قريش ولا من العرب ، ومن الممكن أن يمشي
الإباضيون بدون إمام فترة من الزمن ، ومن الممكن أن تتعدد الأئمة بتعدد
الاجتهادات الإسلامية ، وعلى الإمام أن يستشير ذوي الرأي فيما يتكلم من
أحداث ذات بال ، ومن الواضح أن هذه المبادئ كانت عميقة الاتصال
بالفكر الاستقلالي الذي اهتم به العمانيون .

ومن المبادئ الإباضية أن الله لا يثرى بالبصر ، وأن الثواب والمقاب
بديان ، والله يغفر الصغائر ، ولكن الكبائر لا تمحى إلا بالتوبة النصوح .

ومن المبادئ الإباضية أن القرآن والحديث هما مصدرتا الشريعة
الإسلامية ، ويقول الإباضيون بالرأي لا بالقياس ، ويعتبرون أبا بكر وعمر
القوة الطيبة بعد الرسول ، ويرون صحة مناكحة المخالفين من المسلمين
والتوارث معهم ، ويرون أن مخالفهم من أهل الإسلام دار توحيد ،

(١) تحفة الأعيان ج ١ ص ٦٠ - ٦٦ .

(٢) ص ٣٤ .

ويقبلون شهادة مبالغيتهم ويقولون إن أفعال العباد مخلوقة لله إحدائاً وإبداعاً ، ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولا يسمون إمامهم أمير المؤمنين (١) وبسبب هذه المبادئ الإباضية السمحة كان مذهب الإباضية هو الوحيد بين مذاهب الخوارج الذي عاش حتى العهد الحاضر .

والإمام عند الإباضية ينتخب عن طريق مجلس صغير من الشيوخ هم « العلماء » ثم عليه أن يتقدم إلى الشعب للحصول على موافقته (٢) وفي هذا الجمع العام يبايع الشعبُ الإمامَ ، ويتعهد الإمام بصيانة كيان الجماعة والذود عنه ، ولم يكن التجاء الإمام للشعب لفترةٍ للمجاملة ، بل كان لذلك نتائج مهمة ، فهناك حوادث مسجلة وثابتة رفض فيها الشعبُ الأشخاص الذين انتخبهم العلماء ، وكان الإمام المنتخب على هذا النحو يسمى « إمام بيعة » ولاء الشعب قابل للاسترداد إذا ظهر أن الإمام دون المستوى اللائق (٣) .

عمان في العصر العباسي :

لم تطل مدة ارتباط عمان بالخلافة العباسية ، بل كانت مدة قصيرة سرعان ما استقل أهل عمان بعدها بثبوتهم ، ويذكر الساملي أنه لما آل الأمر لبني العباس وولّى السفاح أخاه أبا جعفر شئون العراق الجنوبي استعمل هذا على عمان جناح بن عباد بن قيس بن عمر الهنائي ، فقدم إلى عمان عاملاً عليها ، وهو صاحب المسجد المعروف بمسجد جناح بصحار ، ثم عزله المنصور وولى ابنه محمد بن جناح ، وكان هذا سمحاً

(١) الملل والنحل : الشهرستاني - القسم الأول ص ٧١ و ١١٣ - ١١٤ ، والفرق بين الفرق للبغدادي ، والملل والنحل لابن حزم .

(٢) ذلك هو الاتجاه الاسلامي الذي وضعه كبار المفكرين المسلمين (انظر كتاب الاموال لأبي عبيد ص ٤ ، والخلافة لرشيد رضا ص ١٢ ، والاسلام والحضارة العربية لكرد على ، والسياسة في التفكير الاسلامي للدكتور أحمد شلبي ص ٤٩ - ٥٤ م) .

(٣) الساملي : تحفة الأعيان ج ١ ص ٦٠ - ٦٦ وسلطنة عمان ص ٢٣ .

عاقلاً أدرك رغبة العمانيين في أن يكون واليهم منهم ، وأن يكون لهم حق انتخابه بأنفسهم ، فوافقهم على ذلك ، فعقدوا الإمامة للجلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي ، وبدأت به الإمامة في عمان سنة ١٣٥ هـ ولكن أبا العباس السفاح أرسل جيشاً بقيادة حازم بن خزيمة الخراساني للقضاء على هذه الحركة الاستقلالية ، وانتصر العباسيون وقتل إمام عمان في المعركة التي دارت برأس الخيمة ، وسرعان ما مات السفاح وانشغل المنصور بعمه عبد الله بن علي ، وترك عمان بدون وال أو إمام حتى سنة ١٤٥ حيث عادت الإمامة .

وقد حاول العباسيون استعادة السلطنة على عمان ، حاول ذلك المنصور والرشييد والمعتضد ، ولكن هذه المحاولات لم تحقق نجاحاً على الإطلاق أو لم تحقق نجاحاً ذا بال^(١) .

(١) انظر تحفة الأعيان للمسلمي ج ١ ص ٧٤ و ٨٩ و ٢٠٦ - ٢٠٨ .

عصور الحكم في عمان عبر التاريخ الإسلامي

١ — الأئمة الإباضية : ١٣٥ هـ (٧٥٢ م) حتى القرن الخامس عشر الميلادي ،
مع تسلسل حيناً ، وانقطاع حيناً آخر ، ومع ظهور آل
نبهان الذين كوّنوا لهم ملكاً عدة قرون ، ومع قيام
أسر ملكية قصيرة العمر ، وحدث تمزق وتششت
في بعض الأحيان مما مهد لاحتلال البرتغاليين
لعمان سنة ٩١٤ هـ = ١٥٠٧ م .

وتشمل هذه الفترة ما يسمى « العصور المظلمة » في
عمان ، تلك التي بدأت بقتل الإمام عزان بن تميم
سنة ٢٨٠ هـ واستمرت حوالي ستة قرون .

٢ — عصر الاحتلال البرتغالي : من ٩١٣ = ١٥٠٧ م إلى سنة ١٠٣٤ =
١٦٢٤ م .

٣ — الأئمة من بني يعرب ، ١٠٣٤ — ١١٥٤ هـ (٦٢٤ — ١٧٤١ م) هبتدئين
بالإمام ناصر بن مرشد الذي خلّص البلاد من حكم
البرتغاليين ، وفي آخر حكم اليعاربة خضعت البلاد
لنفوذ الفرس .

٤ — البوسعيديون : ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) حتى العهد الحاضر ، وهؤلاء
هم الذين خلصوا البلاد من نفوذ الفرس .
:يلاحظ أن الإمامة في أكثر العهدين الأخيرين أصبحت بالوراثة ،
أو قل أن الحكم أصبح بالوراثة بدل الانتخاب .

وكانت الإمامة بالانتخاب هي القاعدة الإباضية التي سار عليها
الحكم في عمان ، وقد بلغ الأئمة المنتخبون ٣٤ إماماً ، أولهم الجلندي
ابن مسعود سالف الذكر ، ولكن نظام الإمامة تهيول من الانتخاب إلى

نظام الملكية الموروثة ثلاث مرات ، وذلك في عهد بنى نبهان واليمنية
والبنو هيديين (١) .

ومع التعرف على عصور الحكم بعمان النى أوردناها آنفا ، فإن
المصادر العمانية تبرز أن فترة غامضة طويلة مرت ببلادهم ، وإن عصورا
حالكة شملت تاريخ عمان عدة قرون ، وسنقتبس فيما يلى سطورا عن هذا
الغموض الذى لف البلاد وأخفى أهم معالم تاريخها :

١ — فى الجبل الأخضر توجد طريق غير معبدة تقع عليها بلدتان
سغيرتان هما سمد والمضيبي ، وللأولى مكانة تاريخية مهمة ، لأنها كانت
مكان معركة جرت فى منتصف شهر أبريل سنة ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) وقتل
فيها الإمام عزان بن تميم الخروصي ، وكان ذلك يوما كالحا أسود فى
تاريخ عمان ، إذ كان بمثابة علامة لنهاية حقبة من السلام ، وبداية فترة
من الحرب الأهلية أدت إلى الدخول فى « العصور المظلمة » فى تاريخ
البلاد .

ولسنا نجد اليوم فى التاريخ سجلا لما جرى فى عمان بين القرن
العاشر والسادس عشر بعد الميلاد ، فقد ضاع ذلك كله ، وتلك هى الحقبة
التي تعرف بالعصر المظلم (٢) .

٢ — بعد أن ازدهرت عمان فى رحاب الإسلام عاد الغموض يخيم على
تاريخها فيما بين القرن العاشر والسادس عشر الميلاديين ، ولم تعد عمان
للأضواء إلا عندما وصلت الدول الاستعمارية إلى المحيط الهندى باحثة عن
طريق تجارى بديل لذلك الذى سيطر عليه العثمانيون باستيلائهم على
القسطنطينية سنة ١٤٥٣ (٣) .

٣ — ومن القرن العاشر راحت عمان تغط فى نوم عميق ، حتى جاء

(١) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاملامية ج ١
ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) سلطنة عمان ص ٢٣ .

(٣) عمان بالكلوان (انظر المقدمة) .

التجار البرتغاليون ومن بعدهم الإنجليز والهولنديون والفرنسيين يطرقون أبواب سواحلها * * *

ومع هذا الغموض فإننا سنحاول أن نعطي لمحة تاريخية ما وسعتنا السبل عن عصور الحكم في عمان بما في ذلك تلك العصور المظلمة *

الأئمة الاباضية

وأول من يواجهنا من حكام عمان عقب الحركة الاستقلالية التي بدأت مع مطلع العصر العباسي الأئمة الاباضية ، وكان هؤلاء ينتخبون بواسطة أهل العلم على أن يوافق الجمهور على الاختيار ، كما ذكرنا من قبل ، ولم يكن هناك توارث ، وكان الإمام يعزل أحيانا ، والأئمة الاباضية الأئمة هم :

جلندى بن مسعود بن جيفر بن جلندى الأردى من ١٣٥ هـ
قتل بعد سنتين تقريبا من حكمه ، وكان مصرعه في حربه ضد الجيش العباسي *

ومرت عقب ذلك بعمان فترة شغور وفوضى *

محمد بن عفان الأردى ١٤٥ هـ

الوارث بن كعب اليعمدي ١٨٥ هـ

غسان بن عبد الله ١٩٢ هـ

عبد الملك بن حميد الأردى ٢٠٨ هـ

مهنا بن جعفر اليعمدي ٢٢٦ هـ

الصلت بن مالك الأردى ٢٣٧ هـ

راشد بن نصر (أو النظر) ٢٧٣ هـ

عزان بن تميم ٢٧٧ هـ (قبل سنة ٢٨٠ هـ) *

محمد بن الحسن ٢٨٤ هـ

عزان بن خضر ٢٨٥ هـ

عبد الله بن محمد ٢٨٦ هـ

الصلت بن القاسم ٢٨٧ هـ

• ٢٨٧

محمد بن الحسن (للمرة الثانية)

• ٢٨٧

الحسن بن سعد (١)

ونقفَ عند هذا الإمام دون أن نتبع سياسة زامباور الذي راح يسرد بعد ذلك عدداً من الأئمة دون أن يحدد تاريخاً لتعيين أكثرهم ، أو يذكر نهاية حكمهم أو مداه بسبب الدخول في عصر الظلام الذي أشرنا له من قبل ، والذي لم تعد تتبين فيه الحقائق •

وسنعود للحديث عن هذا العصر المظلم فيما بعد ، ولكن ينبغي قبل ذلك أن نقف هنا وقفة نتحدث فيها عن أهم الأحداث التي تتصل بقائمة الأئمة الذين أوردنا ذكرهم آنفاً •

وأول ما نذكره متصلاً بعهد هؤلاء الأئمة أن اختيار الإمام لم يكن يتم بالاجماع ، إذ كانت هناك جهات نظر متعددة ، وهذا كان يفتح الباب من حين لآخر لخلافه قد يتسع مداه ، ويكثر أن يتصدى الإمام المنتخب لمن كانوا يعارضون انتخابه ، أو أن يظل هؤلاء المعارضون على موقفهم دون أن يلتفتوا حول الإمام بعد انتخابه ، ومن هنا جاز لنا أن نقول إن الإمام لم يكن إماماً للجميع كما تقتضي بذلك تقاليد العصر الحاضر التي تجعل الرئيس رئيساً للكل ، من انتخابه ومن انتخب خصمه ، ويورد السامى صوراً من الصراع الذي حصل بين إمام منتخب وبين من عارضوا انتخابه ، كما يورد صوراً من الثورات التي كانت تشتعل لو سقط الإمام في صراعه مع معارضيه (٢) •

ثم إن كثيرين من الأئمة لم يكونوا محمودى السيرة ، وينسب المؤرخون لهؤلاء صفات غير طيبة ، فيقولون مثلاً عن محمد بن عفان إنه أساء

(١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ

الاسلامى ج ١ ص ١٩١ •

(٢) تحفة الاعيان ج ١ ص ٨١ ، وانظر كذلك ص ٨٣ •

الأسيرة ، وبدل وغير فعزله المسلمون حين لم يرضوا سيرته ولا مذهبه ، ويقولون عن عزان بن تميم إنه لم تحمد سيرته ، وإن التنازع قد كثر بين أهل الديار في عهده حتى انفض الناس عنه ، واختلفوا حول صحة إمامته ، وكانوا يقولون عنه إن عقده مشكلة (١) .

وحدثت أحداث خطيرة في عهد الصلت بن مالك ، ففي سنة ٣٥١ هـ نزل أمر عجيب في بدبدب والباطنة وسمائل وصنحار ، إذ حل بهم دوى وظلمة ، ثم انسكبت الأمطار ، واقتحمتهم السيول فهدمت المنازل وغرقت المزارع وأصبح القوم في ليلة واحدة أصواتهم خامدة ومنازلهم هادمة (٢) .

ويذكر المؤرخون عن راشد بن النضر أن عهده كان حافلا بالظلم ، فيعرف عنه أنه حبس الكثيرين من مخالفيه ، وأنزل بهم الضر وهم في سجونهم ، وكان كلما سمع عن جماعة يخالفونه في الرأي أوقع بهم ، وقد عرف عهده ما نعرفه الآن بالسل (٣) .

وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الأحداث التي جرت في عهد هؤلاء الأئمة ، والخراب والدمار الذي عرفته البلاد في عهدهم ، كل هذا كان من الأسباب التي مهدت للاضطراب والفوضى في العهد التالي .

العصور المظلمة

بدأت العصور المظلمة في عمان من نهاية القرن الهجري الثالث وامتدت إلى القرن العاشر (أي من القرن العاشر الميلادي إلى القرن السادس عشر) وتلك الفترة تعد محورا جديرا بأن ندير حوله دراسة دقيقة توضح لنا أسباب الظلام الحال الذي أحاط بها ، ومداه ، ونتائجه ، لعنا بذلك نملا فراغا تركه كثير من المؤرخين الذين كانوا يتخطون هذه

(١) تحفة الاعيان : ص ٨٤ ، ١٩٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٧٤ .

المقرون باعتبار أنها عصور مظلمة لا يشرف تاريخها ، وفيما يلي دراسة عن أحداث هذه العصور التي قادت إلى الظلام ، وقضت على صوت عمان وحضارته حيناً طويلاً من الزمان •

أولاً : لعل من أهم أسباب العصور المظلمة ، تلك الفترة السابقة التي تحدثنا عنها ، والتي خلفت دماراً أحدثته الطبيعة أو أحدثته الخلافات التي طال مداها بعمان خلال أكثر عهود الأئمة ، ومن الواضح أن الدمار العسكري يترك أثره على الاقتصاد ، لأن الاقتصاد لا يستطيع أن يعيش إلا في جو من الأمن والطمأنينة ، وإذا اضطرب الاقتصاد توقفت الزراعة وانكمشت التجارة أو اختفت ، فإن الفوضى يتسع مداها ، والاضطراب يتعمق أثره ، وعلى هذا فقد كان طبيعياً أن يبدأ عصر مظلم بعد عصور الاضطراب التي أسلفنا الحديث عنها •

ثانياً : شهدت العقود الأخيرة في القرن الثالث صراعا مريراً بين المجموعتين الكبيرتين اللتين تكونان المجتمع العماني ، وهما النزارية واليمنية ، وقد وصل هذا الصراع قمته في موقعة « القاع » التي حدثت في ثوال سنة ٢٧٨ هـ وانهزمت فيها النزارية هزيمة لم يرَ أقبح منها كما يقول الساملي (١) وأسر منهم خلق كثير وقتل منهم في المعركة ستمائة رجل بعضهم من القادة العظماء ، وقتل من اليمنية خمس وثمانون ، وقد فتحت هذه المعركة الباب لصراع طويل سنشير له فيما بعد •

ثالثاً : شهدت منطقة جنوب العراق ومنطقة الخليج صراعا فكريا مريراً طوال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وقد بدأ ذلك بثورة الزنج (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ) وما إن انتهت هذه الثورة بعد جهد كبير وتخسيعات واسعة حتى هبت ثورة القرامطة في نفس المنطقة ، وصاح أبو سعيد الجنابي (توفي سنة ٢٨٦ هـ) صيحته المدمرة التي استلزمت جهدا كبيرا من العباسيين لإيقاف نشاطها ، وقد اهتم الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) بمواجهته ، فاختر العباس العنوي أحد قادته الأشداء ،

(١) تحفة الاعيان ص ٢٠٢ •

وأمره بحرب القرامطة في البحر والمهم هنا أن نشاط الزنج والقرامطة قد امتدَّ من البحرين إلى عمان ، فأحدث في عمان مزيدا من الغموض والاضطراب .^(١)

رابعا : قام المعتضد العباسي بحركة مهمة من حركات العباسيين لاسترداد سلطانهم على عمان ، وقد ارتبطت حركة المعتضد بالصراع الداخلي الذي حدث في عمان بين النزارية واليمينية ، فإن النزارية عقب هزيمتهم في موقعة (القاع) توجه بعض زعمائهم إلى الخليج وقابلوا محمد بن بور عامل المعتضد ، وطلبوا منه الزحف على عمان ووعدوه بالتأييد ، وقد استأذن محمد بن بور الخليفة في ذلك فأذن له ، فسار في جيش كبير سنة ٢٨٠ وحارب عزان بن تميم وقتله ، وهزم جنده ، ثم هب أهل عمان ضده في معركة شرسة كان له النصر في نهايتها ، فأوقع بأهل عمان وأذلَّهم (١) .

خامسا — كان من عمال المعتضد على عمان محمد بن القاسم السلمي . وقد استطاع هذا أن يكون له دولة في عمان توارثها أبناؤه من بعده . ومن ملوكهم أحمد بن الخليل (٣٠٠ هـ) وعبد الخاتم بن ابراهيم (٣١٦ هـ) (٢) .

سادسا : قامت في بعض مناطق عمان أسرة حاكمة أخرى هي أسرة (بنى وجيه) وقد قويت شوكتها حتى تطلع ملوكها إلى السيطرة على البصرة ضد البريدي ، ولكن هذه المحاولة قد فشلت (٣) وملوك بنى وجيه هم كما جاء في رواية زامباور (٤) :

حتى سنة ٣٣٢

يوسف بن وجيه

٣٣٣

نافع (غلام يوسف)

(١) انظر السالمى ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) زامبارور : معجم الانساب - ج ١ ص ١٩٤ .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٣٠ (حوادث سنة

٢٣١) .

(٤) زامبارور : المرجع السابق ص ١٩٣ .

حتى سنة ٣٤٠

محمد بن يوسف

سابعاً : في سنة ٣٦٣ هـ حدثت بعمان أحداث مؤلمة يرويها ابن الأثير (١) بقوله : في هذه السنة استولى المطهر بن محمد وزير عضد الدولة على عمان ، وكان يتولى أمرها عمر بن نبهان الطائي ، ولكن الزنج غلبت على البلد ، وقتلوا ابن نبهان ، فأرسل عضد الدولة جيشاً كبيراً قتل ودمر ، واستطاع أن يستعيد النفوذ على البلاد بعد سيل من الدماء ، ودمار في البيوت والمزارع ، وكان أهل عمان يتبعون إماماً من أئمة الإباضية كان يقودهم في هذه المعارك .

ثامناً : وفي وسط هذا الصراع عرفت عمان سلطتين متعارضتين ، فكثيراً ما وجد بعمان سلطان أو ملك في منطقة ، وإمام في منطقة أخرى ، ويتحدث السالمى عن يوسف بن وجيه الذى كان قد ملك ناحية من عمان ، وكان معاصراً للإمام سعيد بن عبد الله (٢) ، وعن محمد بن مالك الذى كان ملكاً بعمان في عهد الإمام بن أبى المعالى (٣) ، ويتحدث السالمى عن صراع مستمر بين الأئمة والملوك .

ملوك آل نبهان

ظهر ملوك آل نبهان ولايةً للبويهيين في عمان في القرن الهجرى الرابع كما ذكرنا من قبل ، وساعات حالة عمان من جراء الأحداث التى ذكرناها آنفاً ، وأكتملت الفوضى والخراب من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فاستبد آل نبهان بالنفوذ في أكثر ربوع عمان ، ولكنه في الحق كان نفوذاً على الدمار والخراب ، فقد استبد بنو نبهان بما تبقى في البلاد من خير ، وتركوا الأهالى للضياع ، ويقول السالمى (٤) إن الملك انتقل إلى آل نبهان وذلك لما أراد الله إنفاذ أمره في أهل عمان لأنهم افترقوا فرقتين ، وصاروا

(١) الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) تحفة الاعيان ج ١ ص ٢٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٨٦ .

طائفتين ، فنزع الله دولتهم من أيديهم ، وسلط عليهم قوما من أنفسهم يسومونهم سوء العذاب ، وكانت دولتهم مبنية على الاستبداد بالأمر ، وقهر الناس ، ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا للملوكهم ذكرا

وعلى هذا فإننا نريد أن نقرر أن بنى نبهان ليسوا وحدهم المسئولين عن عصر الظلام كما يظن أكثر من كتبوا عن تاريخ عمان ، وإنما المسئول هو العوامل المتعددة التي ذكرناها فيما سبق ، فعصر الظلام هو نتيجة طبيعية للخلافات في عهد الأئمة الأول ، وللصراع الداخلي ، ولوجود الزنج والقرامطة ، ولهجمات العباسيين ، ولولاتهم الذين كثيرا ما استقلوا بعمان لبعدهم عن مركز الخلافة ، وكان من النتائج الطبيعية لذلك أن خربت البلاد وشملها ظلام دامس .

وأهم ملوك بنى نبهان هم أبو عبد الله محمد بن عمر بن نبهان واخوته والحسين أحمد ، وأبو محمد نبهان ، وأبو عمر معمر ، ثم أبو القاسم علي بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان ، وأبو الحسن ذهل ابن عمر وقد ذكر زامباري (١) ملوكا آخرين مثل الفلاح بن المحسن النبهاني ، وعرار بن الفلاح ، والمظفر بن سليمان ، ومخزوم بن الفلاح .

وقد ظلت حركة بنى نبهان حتى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حيث عاد معظم النشاط إلى الأئمة من جديد .

الأئمة خلال عهد آل نبهان وبعدهم

لم تنقطع محاولات انتخابات الأئمة بعمان بعد الحسن بن سعيد (٢٨٧) فحتى في أحلك العصور خلال حكم آل نبهان ظهر بعض الأئمة الاباضية ، ولكن سلسلتهم لم تكن منتظمة ، ولم تكن تواريخهم محددة ، وأحيانا تعدد الأئمة في وقت واحد ، وأحيانا خلت البلاد من وجود الأئمة

(١) معجم الانساب ج ١ ص ١٩٤ ، وانظر كذلك تاريخ الدول الاسلامية لأحمد السعيد ج ١ ص ٢٣١ .

سما ، وفي بعض الأحيان ظهرت فترات يقظة ووحدة لبعض الأئمة ، ومن الأئمة الجديرين بالذكر بعد الحسن بن سعيد نذكر :

٢٩٣ هـ	الحواري بن مطرف
٣٠٠ هـ	عمر بن محمد بن مطرف
٣٣٥ هـ	سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب
٣٣٨ هـ	رائد بن الوليد
٤٠٠ هـ	الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك
٤٤٥ هـ	حفص بن راشد
٤٤٥ هـ	رائد بن علي
٥٤٩ هـ	موسى بن موسى

ومن الواضح أن هناك فترات خلت من الأئمة في عهد بنى نبهان ، ولكن عندما زالت دولة آل نبهان بدأ الأئمة يظهرون من جديد ، في سلسلة متصلة تقريبا ، وقد أوردتها زامباور كالآتي :

٨٣٩ هـ	أبو الحسن عبد الله بن خامن بن عامر الأزدي
	عمر بن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان بن الصلت اليمامي
٨٥٥ هـ	
٨٩٦ هـ	عمر الشريف
٨٩٧ هـ	أحمد بن محمد
٩٠٥ هـ	أبو الحسن بن عبد السلام
٩٠٦ هـ	محمد بن اسماعيل
٩٣٦ هـ	بركات بن محمد بن اسماعيل
٩٦٧ هـ	عبد الله بن الهنائي
٩٦٨ هـ (١)	

وكما ان الأئمة اقتحموا على بنى نبهان حياتهم ولم يسمحوا لهم بالتفرد بالسلطة ، فإن بنى نبهان اقتحموا على الأئمة الذين ظهروا بعد بنى نبهان حياتهم ، وأرادوا سلب السلطة منهم ، فقد خرج سليمان بن سليمان النبهاني على عمر بن الخطاب ، وحاربه سنة ٨٨٥ ، وتم النصر للإمام بعد جهد جهيد ، وفي سنة ٩٦٤ ظهر ملوك بنى نبهان المتأخرون في نزوى وأصبح لهم جاء وسلطان ٥

وقد نشأ عن هذا الصراع تمزق شمل البلاد وقطع أوصالها ، فقبل قيام اليعاربة كان بعمان خمسة من صغار المراك يحكمون في الرستاق والنخل وسمائل وسهد وأبرا كما كانت بعض الحصون والمدن في قبضة عدد من رؤساء القبائل بالإضافة إلى الاستعمار الخارجي الذي بدأ يجثم على البلاد ، وسنتحدث عنه بعد قليل •

بقى أن نقول عن بنى نبهان كلمة تصور مشاكلهم وقسوتهم على الرعية ، ويسمهم السالى بالجبابرة دائما ، ويصف خردلة بن سماعة أحد ملوك بنى نبهان بقوله : إنه كان يأخذ أموال رعيته ظلما ، ويأكل أموال المساجد والمدارس والمقابر ، ويأخذ نصف مهر المرأة من العاجل إذا تزوجت ، وإذا طلقت خاصم للرجل ، وكان يأخذ نصف الحب والتمر ، ويكلف الناس العنت ، ويأخذ نصف حق المدعى ، ويختتم السالى كلامه عنه بقوله : لقد ابتليت به البلاد لتغير أهل عمان في الله (١) •

ويقول المؤلف العماني سالم بن الرزيق عن بنى نبهان : لم يكن بين حكم بنى نبهان إمام أو ملك واحد يرضى عنه الرحمن الرحيم ، بل كان الأمر على العكس ، فكلهم ظالم طاغية ، مما أدى إلى سقوطهم ، فلما شاء تعالى أن ينزل رحمته على أهل عمان مما أصابهم ، ولما شاء أن يضمم جراحهم ويشملهم بعدله ورعايته ، أرسل عليهم شعاعا من نوره خلصهم ، وبدد عنهم سحب الظلم والطغيان •

عمان هدف لعدوان خارجي

أسفرت هذه الفوضى ، وهذا التمزق بعمان عن استهانة الأعداء بها ، فأصبحت هدفا لعدوانين من الخارج ، وكان أولهما من بلاد فارس سنة ٦٧٤ هـ في عهد الملك عمر بن نبهان ، فقد هاجم أهل شيراز عمان وكانوا عددا من الفرسان الأشداء واستطاعوا أن يحتلوا نزوى وأن يسلبوا أموال الناس ، وحاصروا بهلى ولكنهم لم يستطيعوا فتحها فارتدوا على أعقابهم بعد احتلال دام أربعة شهور *

أما الاحتلال الثاني فكان احتلالا أوروبيا قامت به البرتغال في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، ففي القرن الخامس عشر استطاع الرحالة البرتغاليون ، أن يجدوا طريقا إلى الهند بالدوران حول إفريقيا وبدون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر كما ذكرنا من قبل ، ويعرفت الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من البحارة البرتغاليين في المحاولة التي أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائي على يد فسكودي جاما الذي بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ (١) .

وبفتح هذا الطريق بدأ الاستعمار الأوربي للشرق في العصر الحديث ، وتحولت تجارة الشرق من الطرق البرية — البحرية إلى هذا الطريق البحري المتصل *

وبفتح هذا الطريق اتصل البرتغاليون بالهند وبالشرق الأقصى ، وأخذوا يبنون لأنفسهم ملكا واسعا على يد مستعمرين معروفين ، وقواد ذوى خطر من أمثال (كيرو) (البوكرك) (Alfonso de Albuquerque) وأصبح المحيط الهندي والهادئ تحت سلطانهم وكانت تلك البحار مقصورة على ملاحى المسلمين من عرب وفارس (٢) *

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية المؤلف ج ٥ ص ٢١٣ .
(٢) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ص ٤٣ .

وحاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز للتموين والحراسة على طول الطريق ، فاتجهوا بوجه خاص إلى عمان التي كانت مركزا تجاريا مهما ، وكانت في الوقت نفسه تصلح لحماية الخط البرتغالي إلى أبعد حد ، ومن هنا اتجه البرتغاليون إلى عمان ، فاحتلوا صور وقريات ثم مسقط وصحار سنة ١٥٠٧ ، وكان البوكرك هو قائد الجيش البرتغالي الذي أسقط مدينة مسقط ، وسرعان ما اتجه هذا القائد إلى تدمير سفن مسقط ومبانيها (١) . واتجه المستعمر لإقامة القواعد والقلاع هنا وهناك ليدعم مركزه ويقوى سيطرته على تلك المنطقة الاستراتيجية ذات الموقع الملاحي الممتاز (٢) .

واستولى البرتغاليون كذلك على بعض الموانئ بشرقي إفريقية لتكون محطات لسفنهم في الذهاب إلى الهند والعودة منها .

وحاول البرتغاليون الاستيلاء على الطريق البحرية البرية القديمة لتصبح جميع المنافذ التجارية في أيديهم ، فاستولوا على خليج عمان وعلى جزيرة هرمز مدخل الخليج العربي سنة ١٥٠٧ ، ودمروا مدينة عدن وعقدوا محالفة مع الأحباش ضد مصر ، وكان من أساليبهم لضرب مصر أن يحاولوا تحويل مجرى النيل ، وعلى كل فقد كان صراعا صليبيا مريرا قاده آنذاك البرتغال ضد عدد من المواقع الإسلامية (٣) .

ولنعد للطريق الملاحى الجديد لنقرر أن الممالك لم يستطيعوا أن يتغلبوا على البرتغاليين وأن يعيدوا الأوروبيين إلى الطريق التقليدي القديم ، ولا استطاع ذلك السلطان سليم بعد فتح مصر (٤) . وكانت

(١) محمد صبيح : مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية ص ٤٦٧ .

(٢) Stephan and Handy Ronart : Arabic Civilization p. 396 .

(٣) شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامى ج ٤ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ للمؤلف

المشكلة بالنسبة لعمان مزدوجة ، فلم تتوقف عند ضرب الاقتصاد بل امتدت إلى احتلال الأرض ، ومن هنا أتجهت عمان لمصارعة الاستعمار الذى جثم على البلاد ، وكما يقولون إن المشكلة إذا استعصت على قوم خَلَقَت القيادة الرشيدة ، وسنحدث فيما يلى عن القيادة التى صارت البرتغاليين وطردهم من عمان ، وأعادت عمان إلى الاستقلال والضوء :

بنو يعرب (اليعاربة)

١٠٣٤ - ١١٥١ هـ = ١٦٢٤ - ١٧٣٨ م

قبيلة اليعاربة :

تتحدّر قبيلة اليعاربة من أصل أزدى ، فهى قبيلة غافرية شمالية ، وكانت هذه القبيلة قبل ظهور الزعيم ناصر بن مرشد قبيلة عادية بين قبائل عمان ، فلما سقطت البلاد ضحية التفكك والانقسام فى الداخل ، والهجوم الاستعمارى من الخارج ، ظهر ذلك الرجل العملاق الذى دفع قبيلته إلى القمة ، وقاد بلاده إلى السلامة ، وكأنما كانت البلاد تنتظر ظهور القائد لتلتف حوله لينقذها مما أَلَمَّ بها من ضيم ، فلما ظهر ناصر ابن مرشد سرعان ما بدا فيه امتياز ومواهبه وإخلاصه للمهمة الكبرى التى كانت تنتظره ، وكان فى « الرستاق » حيث ظهر ناصر عالم تقى صالح اسمه الشيخ خميس بن سعيد ، وكان هذا الشيخ مسموع الكلمة ، فلما اجتمعت الحلبة لاختيار الإمام ، قاد هذا الشيخ المناقشات والمشاورات ، فأجمع الكل على اختيار ناصر بن مرشد اليعربى إماما لعمان ، فبويع بالإمامة فى الرستاق سنة ١٦٢٤ م وبه بدأت إمامة بنى يعرب ، والأئمة اليعاربة هم :

١٦٢٤ = ١٠٣٤

ناصر بن مرشد بن سلطان بن مالك

١٦٤٩ = ١٠٥٩

سلطان بن سيف بن مالك

١٦٨٠ = ١٠٩١

بلعمر بن سلطان بن سيف

(م ٢١ - التاريخ ج ٧)

١٦٩٢ = ١١٠٤	سيف بن سلطان بن سيف
١٧١١ = ١١٢٣	سلطان بن سيف بن سلطان
١٧١٨ = ١١٣١	سيف بن سلطان بن سيف بن سلطان
١٧١٨ = ١١٣١	مهنا بن سلطان بن سيف
١٧٢١ = ١١٣٤	يعرب بن بلعرب
١٧٢٢ = ١١٣٥	سيف بن سلطان (للمرة الثانية)
١٧٢٤ = ١١٣٧	محمد بن ناصر بن غافر
١٧٢٧ = ١١٤٠	سيف بن سلطان (للمرة الثالثة)
١٧٣٨ = ١١٥١	سلطان بن مرشد
(١) الى سنة ١١٥٤ = ١٧٤١	

ويلاحظ على هذه القائمة أنها حصرت السلطة في أسرة اليعاربة مع أن الفكر الإباضي لا يرى التوارث في السلطة ، ولكن يلاحظ أن الأئمة الأوائل من اليعاربة كانوا قوما قيادية ، وكانت البلاد محتاجة لهم لطرد المستعمر ، وإعادة الوحدة ، فكانت بيعتهم الواحد بعد الآخر طبيعية . ثم أصبح التوارث عادة بعد ذلك في هذه الأسرة ، وفي أسرة البوسعيديين ، مما جعل هذا النظام شديد الشبه بالملك والسلطان ، ولهذا حاولت الإمامة أن تقوم من جديد مستقلة عن « السلطان » ولكن هذه المحاولة كانت قصيرة العمر كما سنرى فيما بعد .

وسنتكلم فيما يلي كلمة عن أشهر الأئمة اليعاربة .

الإمام ناصر بن مرشد

كانت بيعة الإمام ناصر بن مرشد عودة للفكر الإباضي المتأصل في عمان ، والذي غلب أمدا بين طيات الأحداث ، وقد وجد ناصر أن أمامه مشكلات كبرى ليعيد البلاد إلى الوحدة ، حتى يستطيع أن يواجه الغزاة

الأوروبيين ، ومن أبرز هذه المشكلات الملوك الصغار الذين كان كل منهم يحكم في منطقة من مناطق عمان ، ومن أبرزهم خمسة كانوا يحكمون في الرستاق والنخل وسمايل وسمد وأبرا ، كما كانت بعض الحصون والمدن في قبضة عدد من رؤساء القبائل ، أما البرتغاليون فكانوا يحتلون مسقط وغيرها من المناطق الساحلية كما ذكرنا من قبل ، كما كانوا يحتلون جزيرة هرمز حتى سنة ١٧٢٢ م ، وكانوا كذلك يمدون نفوذهم على ساحل إفريقيا الشرقية الذي تربطه بعمان روابط عميقة منذ زمن بعيد ، إذ يروى التاريخ أن حكام عمان الذين فروا من الزحف الأموي اتخذوا من الشرق الإفريقي موطناً لهم ، وكان ذلك أساساً لصلات القربى بين هذين الموقعين .

وخطا ناصر خطواته الأولى نحو توحيد البلاد تحت قيادة واحدة والقضاء على حكم المناطق ، فاستجابت له البلاد ، والتفتت تحت لوائه ، وتجمعت عمان تحت قيادة واحدة بعد فرقة امتدت أكثر من سبعة قرون ، واتجه ناصر عقب ذلك لمصارعة البرتغاليين الذين عاثوا بالبلاد ظلماً ، ونهبوا خيراتها أكثر من مائة عام .

ولقد كان ناصر بن مرشد بطلاً عظيماً بلا شك ، ولكن كانت هناك ظروف مهمة ساعدته على تحقيق أمله ، وأيدت خطواته ، ومن هذه الظروف أن البرتغال سقطت تحت سلطان أسبانيا فيما بين سنتي ١٥٨٠ و ١٦٤٠ وقد أيدت أسبانيا الاستعمار البرتغالي في الشرق ، ولكن حماسة البرتغاليين تحت الحكم الأسباني ضعفت ، واهتزت يدها ، مما هيكلاً للحركات التحريرية في المناطق المستعمرة أن تنجح .

ومن هذه الظروف كذلك أن الاستعمار البرتغالي لم يبق وحده دون منافس في مناطق الشرق ، ولم يبق الطريق الجديد وقفاً على مكتشفيه ، فسرعان ما ظهرت عناصر استعمارية أخرى نافست البرتغال ، وهي هولندا وبريطانيا ، فإن هولندا بعد أن تخلصت من حكم أسبانيا سنة ١٥٨٨ شجعها هذا الانتصار على خوض المجالات السياسية والاقتصادية الشائكة ،

فوجهت نشاطها التجارى نحو الشرق ، وأسست الشركة الهندية — الهولندية
في عام ١٦٠٢ •

واتجهت بريطانيا بحماس تجاه الشرق كذلك فأُسست شركة الهند
الشرقية الإنجليزية ، وقام صراع طويل بين هذه الدول الاستعمارية
بعضها مع بعض في مناطق الشرق كان نتيجه إضعاف جبهه البرتغال ^(١) •

جزيرة هرمز وأثرها في إضعاف البرتغال :

ومن الظروف التي أضعفت البرتغال ضياع جزيرة هرمز من يد
البرتغاليين ، مما نقل زمام القوة في هذه المنطقة من البرتغاليين إلى أيدي
أعدائهم ، وجزيرة هرمز تحتاج إلى مزيد من الإيضاح والدراسة يتحتم
أن نقوم به ، فقد كانت هذه الجزيرة تتخذ من موقعها في مدخل الخليج مركزا
خطيرا لها ، وهي بذلك تحتل موقعا استراتيجيا مهما للغاية •

هل كانت هرمز تابعة للفرس وجزءا من بلاد فارس ؟ •

يتجه الكتاب الإيرانيون المعاصرون إلى الإجابة عن هذا السؤال
بالإيجاب ^(٢) ولعل الاتجاه القومي والوضع المعاصر الآن هما من الأسباب
التي دفعت المؤرخين الفرس لهذا الرأي ، ويتابعهم في هذا

Stephan and Handy Ponart

الذي يقول إن البوكرك عقد مع الشاه إسماعيل امبراطور فارس
معاهدة لتصبح له مكانة خاصة في جزيرة هرمز التي كانت تابعة
للفرس ^(٣) •

وهناك نظرة تاريخية أخرى ^(٤) ترى أن هرمز لم تكن دولة
عربية أو فارسية ؛ بل كانت دولة إسلامية تضم مختلف الجنسيات الإسلامية

(١) لوريمر : دليل الخليج ج ١ ص ١٦ (الترجمة العربية) •

(٢) آدميات : البحرين ص ١٤ •

(٣) Encyclopaedia of Arabic Civilization p. 190.

(٤) دكتور صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي

التي تسكن دول الخليج من عرب وفرنس وهنود وغيرهم ، ولم تتخذ طابعا قوميا ، وإنما كان طابعها محليا ، ونشاطها تجاريا ، فقد حققت كثيرا من الثراء لسكانها ، واستلزم وضعها أن تبسط سلطاتها السياسية على أجزاء مترامية من شواطئ الخليج وجزره ، فشملت بعض سواحل عمان وجزر البحرين وجزءا كبيرا من الساحل الشرقي ، ويستدل هذا الرأي على أن هذه الدولة لم تكن جزءا من الفرس بأن الدولة الصفوية الفارسية لم تساعد هرمز عندما احتلها البرتغاليون ، وتركتها مدى طويلا تحت نير الاحتلال .

وعلى كل حال فقد تعاون الإنجليز والفرس ضد البرتغاليين ، وقدمت عمان للقوى المناضلة للبرتغال عوناً كبيراً أسفر عن تحرر هرمز سنة ١٩٢٢ وأصبحت هذه الجزيرة تابعة للفرس .

ومن الظروف التي ساعدت ناصر في نضاله ضد البرتغاليين الاتجاه الديني ، فقد ظهر التعصب الصليبي في تصرفات البرتغاليين ، وهذا دفع المسلمين للتجمع والحماسة فيما يمكن أن نسميه « الجهاد » ضد هذا الزحف الصليبي .

ومن هذه الظروف كذلك سوء معاملة البرتغاليين لكل المناطق التي نزلوا بها ، فقد اتسمت أساليبهم في الحكم بالاستبداد والجور .

وقد انتهز ناصر هذه الظروف فأعلن — بعد توحيد البلاد — الحرب لاستقلال بلاده ، ولما كانت أجزاء كبيرة من عمان تابعة لهرمز وبالتالي للبرتغاليين ، فإن هزيمة البرتغاليين في هرمز دفعت الإمام ناصر أن يعطن استقلال هذه الأجزاء ، وأن يطرد البرتغاليين منها ، ومن أهمها « صحار » وخاض ناصر حرباً ضد الفرس الذين حاولوا أن يرثوا البرتغاليين في سيطرتهم على البلاد فنجح في تخليص جالفار « رأس الخيمة » منهم (١) .

وانتجه ناصر بعد ذلك لمواجهة البرتغاليين في مراكزهم الرئيسية بعمان
أى فى مسقط ومطرح ، وقد حاصرهم ناصر حصارا طويلا ، ولكن الحامية
البرتغالية التى كانت متصلة بالبحر استطاعت أن تصمد لهذا الحصار ،
فاضطر الإمام أن يعقد صلحا يحقق له بعض الأهداف ، فعقد صلحا
التزم فيه البرتغاليين بدفع الجزية لعمان ، وألا يعترضوا نشاطهم
التجارى ، وأن يكفوا عن الاتيان بأية حركة عدائية ضد عرب عمان ،
وأن يهدموا التحصينات التى أقاموها فى سمند وقريات (١) .

وقد كسر هذا الصلح قوة البرتغاليين وأذلهم ، وترك ناصر لخليفته
وابن عمه أن يجهز على هؤلاء الأعداء كما سنرى .

سلطان بن سيف

بويج سلطان بن سيف سلطانا على عمان عقب وفاة البطل ناصر ،
وكان سلطان عونا لابن عمه فى أثناء حكمه ، ومن هنا كانت بيعته دفعة
لاستمرار النضال الذى بدأه ناصر ، ومن الواضح أن البيعة لسلطان
استمرار للفكر الإباضى الذى لا يمنع اختيار إمامين أو أكثر من أسرة
واحدة ما دام ذلك هو رأى أهل الحل والعقد ، وكان سلطان جديرا بالثقة
التي ارتبطت به .

واستمرارا للجهود التى بدأها ناصر استطاع سلطان أن يستعيد من
البرتغاليين كل ما كان قد تبقى بأيديهم من عمان ، فطردهم سنة ١٦٥٨
من مسقط ومطرح .

ولم يكتف سلطان بذلك بل راح يتتبعهم فى المراكز الأخرى التى
أنشئوها فى شرقى أفريقية أو فى الهند ، ففى أفريقية استطاع تخليص
جزيرتى بمبا وزنجبار ، ثم انتجه لحصار ممبسة مناء على استغاثة أهلها .

وتلقى سلطان بن سيف رسالة سرية من أهل الصومال يشرحون فيها ما يعانونه من استعمار البرتغاليين المسيحيين ، فأرسل لهم جيشا كبيرا يقوده بطل اسمه الأمير سالم الصارمي ، وقد حقق هذا الجيش كثيرا من الانتصارات ضد البرتغاليين ، وطردهم من الصومال ، ولم يكن لسلطان عمان مطامع في الصومال فغادرتها جيوشه عقب النصر بعد أن أسلمت الزمام للأهالي ، وهناك مخطوطة صومالية تصور النصر الذي أحرزه القائد العماني كما تصور فرح الصوماليين بالاستقلال (١) .

وفي الهند وصل أسطول سلطان إلى ساحل كوجرات بالهند واجتاحت عساكره (ديو) و (دامان) وقفلت بغنائم وافرة .

وكان سلطان بالإضافة إلى قدراته العسكرية رجل تعمير ، فقد وجه همهته إلى ترويج التجارة وعمارة الأسواق ، كما كان حسن السيرة في الرعية ، واتجه كذلك إلى تجديد القلاع والحصون وجلب الأسلحة حتى يحافظ على استقلال البلاد ومكانتها (٢) .

سيف بن سلطان

رأينا سلطان بن سيف يقضى نهائيا على الوجود البرتغالي في عمان ، ويحقق نصرا ضد البرتغال في المراكز التي أقاموها في الهند وفي شرقي إفريقيا ، وكانت عمان قوة واحدة خلال هذا الصراع فلما صفا الجو ، وتحقق النصر دب الخلاف وأطلت الأطماع ؛ ولذلك ما إن توفي سلطان ابن سيف حتى تطلع ابنه بلعرب وسيف إلى السلطة ، وكان بلعرب أكبر سنا فأخذ مكانة أبيه باسم السبق في السن ، ولم يكن ذلك وحده كافيا ، ومن هنا ثار عليه أخوه سيف ، وقام صراع داخلي طويل حسمه موت بلعرب فخلا الجو لسيف بن سلطان .

(١) اقرأ بعض ما جاء فيها في الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٥٧ .

(٢) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١٦٩ .

وهذه الحادثة تكررت في التاريخ العربي في مختلف العصور فإن العرب تجتمع كلمتهم عند الشدائد ، فإذا حققوا نصرا بسبب وحدتهم أسرعوا إلى الفرقة والخلاف ، وكان جديرا بهم أن يجنوا ثمار تعاونهم في تعاطف وابتهاج ، ولم ينل الأعداء من العرب أكثر مما نالوا هم من أنفسهم .

جهود سيف الموقعة :

وكان سيف من أبرز القادة والأئمة في تاريخ اليعاربة وقد وجه عنايته للقضاء على البرتغاليين في شرقي أفريقية ، فاستعاد الجزر التي كان البرتغاليون قد استردوها إبان فترة الخلاف الداخلي ، وخطا خطوته الحاسمة حينما استولى سنة ١٦٩٨ على ممبسة التي كانت تعد عاصمة المستعمرات البرتغالية بشرقي أفريقية ، والتي عز الاستيلاء عليها على من سبقه ، وقد استلزم الاستيلاء عليها حصارا دام ثلاثة وثلاثين شهرا بسبب حصنها المنيع ، ولكن قوة العمانيين كانت أعظم من مناعته ، وقد وضع سقوط ممبسة نهاية لتفوق البرتغاليين في شرقي أفريقية (١) وكان أساسا لانتهيار آمالهم في تلك المناطق .

واهتم سيف بالأسطول اهتماما كبيرا ، فقد كان الأسطول أهم وسائل الدفاع عن البلاد ، وأهم وسائل الهجوم على أعدائها ، وقع بلغ عدد سفن الأسطول ثمانية وعشرين سفينة كبيرة ، يحمل بعضها ثمانين مدفعا (٢) مما يدل على تقدم عمان في فن الملاحة ، وعلى القدرة في تسليح السفن ، وهو فن كان آنذاك جديدا .

وقد استطاع سيف بهذا الأسطول أن يحتل بعض الجزر القريبة من بومباي بالهند ، وأن يطرد البرتغاليين منها ، ومن بعض المدن التي كانت تحت سيطرتهم .

(١) Caupland : East Africa and its invaders pp. 67-77

(٢) السالمى : تحفة الاعيان ج ٢ ص ٨٩ .

وكان سيف كأبيه محبا للعموان يصفه الأستاذ سعيد باوزير ^(١) بأنه كان بصيرا بالإصلاح : شديد الاهتمام بمرافق البلاد ومصالحتها ، ابتكر حفر القنوات تحت الأرض ليجلب الماء من الأعماق ، مما سبب تطور الزراعة ، واعتنى بغرس النخيل حتى أصبح محصولا يدر على الأهالي كثيرا من الثراء .

سلطان بن سيف (الثاني)

تولى سلطان بعد أبيه ويعتبر آخر الأئمة العظماء ، وقد استطاع أن ينزع البحرين من أيدي الفرس الذين كانوا قد استولوا عليها سنة ١٦٢٢ عند طرد البرتغاليين من هرمز .

بعد سلطان

لم يعمر سلطان بن سيف (الثاني) طويلا ، وتفشت بعده الخلافات ، وكثر الطامعون في الحكم من أفراد الأسرة ومن خارجها وظهر الصراع القبلي بين العدنانيين والقطانيين ، وازداد هذا الصراع حدة عندما طعّم بالنزاع الطائفي فأصبح النزاريون من أتباع المذهب السني ، واعتنق اليمنيون المذهب الإباضي ، وكان ذلك يمثل زيتا جديدا يضاف ليشتهد^٢ المذهب .

وسقط كثير من القادة والجند في المعارك ، وأعمى الدم والحقْد العيون والقلوب ، فلجأ أحد المتنافسين (سيف بن سلطان بن سيف) سنة ١٧٣٧ إلى نادر شاه ملك الفرس يطلب عونه ، وكان هذا شديد الطموح ، فاستجاب لهذا النداء ، وزحف بجيوشه إلى عمان ، ولكن سرعان ما انتضح أن ملك الفرس يعمل لحسابه لا لحساب الذي استنجد به ، ولذلك ندم سيف على تصرفه ، وعقد صلحا مع منافسه ، واستعاد العمانيون أكثر بلادهم من الفرس ، ولكن منافسا جديدا اسمه (سلطان

(١) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١٧٠ .

ابن مرشد) ظهر في الجو ونجح في الاستيلاء على أكثر عمان . فعاد سيف يطلب عون الفرس مرة أخرى ، واستجاب الفرس كذلك . ولكن سيف الذي تولى الإمامة ثلاث مرات لم يعمر بعد ذلك ، ومات تاركاً البلاد غارقة في بحار من الدم والخلافات ، وتاركاً الفرس يحتلون بعض المناطق ومنها مسقط أعظم ميناء بعمان ، وقد هيا ذلك الجوش لتظهر أسرة مالكة جديدة تعمل لاستعادة الاستقلال والأمن للبلاد ، وستكون هذه الأسرة موضع حديثنا بعد قليل .

من مآثر اليعاربة

أنشأ اليعاربة جيشاً جراراً ضم حوالى ٢٠٠٠٠ مقاتل ، وأسطولا ضخماً باغ غاية مجده في عهد سيف بن سلطان كما أشرنا من قبل ، وشيدوا القلاع والحصون في كثير من المناطق الاستراتيجية ، واهتموا اهتماماً بالغاً ببناء البلاد وتعميرها بعد ما أحدثه البرتغاليون بها من إهمال ، وبعد التدمير الذي أصاب البلاد في فترات الصراع ضد هذا العدو ، واهتم اليعاربة بالزراعة فأحيوا البرارى والقفار وغرسوا عشرات الألوف من الأشجار المثمرة ، وشقوا الأفلاج (مجارى المياه) وحققوا منجزات معمارية رائعة في الفن الهندسى في نزوى وجبرين ، وبسطوا أيدي العمل في كل ناحية ، وأقاموا في قصر جبرين مدرسة فتحت أبوابها لطلاب العلم من عمان ومن سواها من الأقطار ، وأشاعوا مناخات من الاستقرار والأمن أسهمت في إشاعة الرخاء والتقدم والازدهار في جميع مرافق الحياة (١) .

(١) سالم بن حمود بن شاميس : العنوان في تاريخ عمان (مقتطفات) .

آل بو سعيد

١١٥٤ هـ = ١٧٤١ م حتى الآن

قبيلة آل بو سعيد :

قبيلة آل بو سعيد قبيلة هناوية جنوبية هاجرت من اليمن إلى عمان منذ عهد بعيد ، وكان اهتمامها محصورا في التجارة ، ولم يكن لها شأن سياسى ينبىء عن أنها ستصبح من أكثر القبائل شهرة في مجال السياسة ، سواء في الجزيرة العربية أو في العالم الخارجى بوجه عام (١) .

المستشار أحمد بن سعيد :

شهدت السنوات الأخيرة من حكم اليعاربة اضطرابا واسع المدى في عمان كما ذكرنا من قبل ، وقد شمل هذا الاضطراب صورا من التفكير الداخلى وصورا من تدخل الفرس العسكرى في شئون البلاد ، وقد كانت الأمور حول سيف بن سلطان الذى تولى الإمامة ثلاث مرات حافلة بالأكدار والدسائس من الداخل والخارج ، فأحس بحاجة إلى مستشار يلجأ لرأيه إذا اشتد الأمر ، فذكر له أحمد بن سعيد ، وقد كان شخصية لامعة له حول واسع في شئون التجارة والاقتصاد ، وهو فرع من قبيلة عادية ، فعينه مستشارا له ، وعهد إليه بإدارة ميناء صحار ذى الأهمية الكبرى ، وبدأ أحمد بن سعيد بذلك خطواته نحو المجد .

وسار أحمد في إدارة الميناء بيقظة بالغة وحزم قوى ، وكانت البلاد من حوله تموج بالفتن ، وتشن تحت ثقل الاحتلال الفارسى ، وتجاهد الخلاص منه ، وفي نفس الوقت برز شخص جديد ادعى الإمامة ، وحاول أن ينزعها من سيف بن سلطان ، ذلك هو سلطان بن مرشد ،

(١) عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى : من مطبوعات شركة الزيت العربية الامريكية ص ١٧٤ .

وقد حقق هذا ألوانا من النجاح دفعت خصمه سيف بن سلطان أن يفاوض الفرس لمساعدته على أن يترك لهم صحار ، واستجاب الفرس كعادتهم لهذه الدعوة وأرسلوا جيشا كبيرا غزا البلاد ، واستولى على أكثر مناطقها وظهر أنهم لا يعملون لحساب سيف وإنما لحسابهم هم كما ذكرنا آنفا ، وفي هذه الأثناء مات المتنازعان ، مات سيف حزينا كاسف البال ، ومات سلطان بن مرشد نتيجة جراح ألقت به في صراعه ضد الفرس ، ولم يبق إلا شخص واحد ، كان اسمه يلمع دون أن تمسه المثالب ، ذلك هو أحمد ابن سعيد حاكم صحار مستشار السلطان الراحل .

أحمد بن سعيد يقترع عمان :

في هذه الفترة نشط أحمد ليدافع عن بلاده ، وليعيد لها الوحدة والاستقلال ، وقد استطاع أن يحقق خطوات ثابتة في هذا المجال ، فقد سار من صحار التي حافظ على استقلالها حتى حاصر مسقط ، وهنا لعب الذكاء دوره أو لعبت الحظوظ دورها ، فإن مستشاري شاه إيران كانوا قد نصحوه ألا يستمر في الصراع مع العمانيين ، وأن يسلم مسقط إلى رجل من اليعاربة متعاون مع الفرس اسمه ماجد ، وهو بذلك يضمن استمرار الصراع الداخلي بين الطامعين في الحكم ، وبالتالي يجنى لنفسه ثمارا طيبة بدهن جهد كبير ، واستجاب الشاه لهذه النصيحة وأصدر أمره إلى الحامية الفارسية بمسقط أن تسلم المدينة إلى ماجد بن سلطان ، بيد أن هذا الأمر وقع بطريق المصادفة في يد أحمد بن سعيد الذي أرسل مندوبيه إلى الحامية الفارسية متظاهرين أنهم يمثلون ماجد بن سلطان ، وتسلموا منهم المدينة بناء على ذلك ، ولم يدع أحمد بن سعيد سفن الفرس تبحر إلى الموانئ الفارسية ، بل تصدى لها وأغرقها واستسلم له أكثر من كانوا بها .

ويرى كذلك أنه دبر وليمة دعا إليها الإيرانيين وفي أثناء الوليمة دفع بعض رجاله فهاجموا الإيرانيين وذبحوهم ، وانتهى بذلك أمر الفرس ببلاد عمان ^(١) وأصبح أحمد بن سعيد سيد الأمر كله بالبلاد ، وسارع أحمد فعمد

(١) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٧١ - ١٧٢ .

اجتماعا من الرؤساء وشيوخ القبائل لاختيار إمام للبلاد ، وكان من الطبيعي أن اقتُرح اسمه ؛ لأنه الذي خلص البلاد من استبداد الفرس ، وبايعه الحاضرون بالإمامة (١) .

وسنرى أن لقب الإمامة لم يطل بقاءه في بيته ، وأن أكثر قادة هذه الأسرة قنعوا بلقب « السيد » ويعيد بعض المفكرين ذلك إلى أن البيعة التي تمت لأحمد بن سعيد لم تكن على النمط الذي تعودده الإباضيون ، ومن الذين يرون هذا الرأي السالمى في كتابه « تحفة الأعيان » الذي يقول : إن عقد البيعة لأحمد جاء بعد فتنة ، وتغلب على الأمر ، ولم تتوافر فيه الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة (٢) .

ولكننا نرى رأيا يخالف السالمى لأن اليعاربة بويعوا في ظروف مدائية ، ولم يعترض السالمى على البيعة لإمامهم الأول ، ثم إن السالمى مشكوك فيه رأيه هنا ، لأنه لم يكن له ولاء لهذه الأسرة ، وقد اشترك في إعلان إمامة الخروصي كما سنرى فيما بعد ، فكان رأيه ضد إمامة أحمد بن سعيد متأثرا بميول شخصية .

وسلاطين أسرة آل بو سعيد بعمان هم :

أحمد بن سعيد	١١٥٤ = ١٧٤١
سعيد بن أحمد	١١٨٨ = ١٧٧٤
حامد بن سعيد	١١٩٣ = ١٧٧٩
سلطان بن أحمد	١٢٠٦ = ١٧٩٢
سالم بن سلطان وسعيد بن سلطان	١٢١٩ = ١٨٠٤
ثويني بن سعيد	١٢٧٣ = ١٨٥٦

(١) J. B. Kelly : Easter Arabian Frontiers p. 53.

(٢) تحفة الأعيان ج ٢ ص ١٦٣ .

١٨٦٦ = ١٢٨٣	سالم بن ثويني
١٨٦٨ = ١٢٨٥	عزان بن قيس
١٨٧٠ = ١٢٨٧	تركي بن سعيد
١٨٨٧ = ١٣٠٥	فيصل بن تركي
١٩١٣ = ١٣٣٢	تيمور بن فيصل
١٩٣٢ = ١٣٥١	سعيد بن تيمور
١٩٧٠ = ١٣٩٠	قابوس بن سعيد

وقد أشرنا من قبل إلى الجهود الكبيرة التي بذلها أحمد بن سعيد لينتظم شأن عمان ، وليؤسس أسرة مالكة جديدة في تلك البقاع ، وقد استحق أحمد بجهده أن يصبح إماما لعمان ، وأن تجتمع حوله الرايات .

بيد أن هذه البلاد كانت كما ذكرنا من قبل تجتمع كلمتها عندما تعصف بها الشدائد ، فإذا هب عليها ريح الرخاء عادت للتمزق والفرقة . وكانت فكرة الإمامة والاختيار لها ، من الأسباب التي تثير الخلاف ، فلم يكن القوم يحترمون رأى الأغلبية في ذلك الوقت ، وطبيعى أنه من الصعب أن يجمع كل السكان في أوقات السلم على رجل واحد ، ومن هنا كانت قضية الانتخاب تخلق دائما الفرصة لتعدد الولاة ، والذي يقرأ تاريخ آل بو سعيد ترعجه هذه الخلافات التي لم تهدأ على الإطلاق إلا عندما أصبحت السلطة بالوراثة في أخريات الدولة ابتداء من عهد تركي بن سعيد ، ومن هنا يحق لنا أن نقول : إن النظام الانتخابي يحتاج إلى احترام رأى الأغلبية ، وهذا يحتاج إلى عقلية متطورة لم تعرفها البلاد خلال حكم آل بو سعيد ، ولا حكم من سبقوهم ، فقد رأينا أن كل جماعة كانت تعين إماما أو ملكا ، ومن هنا كانت البلاد تحكمها الانقسامات والخلافات العميقة ، وسنرسم فيما يلي شجرة الأسرة البوسعيدية ، ونبين عليها أبرز الحركات الثورية والانفصالية التي ظهرت بعمان ، والتي وُجِدَت بين الابن وأبيه ، والآخر وأخيه ، ولنا بعد ذلك تعليق أوسع مدى على أبرز الأحداث التي وقعت خلال هذه الأسرة :

١ - أحمد بن سعيد (مؤسس الأسرة)

١١٥٤ - ١١٨٨ | ١٧٤١ - ١٧٧٤

- ٢ - سعيد بن أحمد
 - تأثر على أبيه
 - اتخذ الرستاق عاصمة له
 - وقنع بالامامة بها حتى مات سنة ١٧٧٩
- ٣ - حامد بن سعيد
 - تأثر على أبيه سعيد ، احتل مسقط ثم مات قبل أبيه
- ٤ - سلطان بن أحمد
 - تأثر آخر على أبيه أحمد
 - اتخذ مسقط عاصمة له بعد وفاة حامد
 - استبد ابنه سالم وسعيد بالسلطة في حياته
 - قتل قبل وفاة أخيه سعيد
 - وبعد وفاته و وفاة أخيه سعيد آل الامر لابنه :

٥ - سعيد بن سلطان

- ٦ - ثويني في عمان
 - ٧ - سالم : اتهم بالتآمر ضد أبيه وقتله
 - ٨ - عزان بن قيس : اختير اماما ، ثم زحف وأخذ السلطة من السلاطين
- ٩ - تركي بن سعيد : ثار على سالم بن ثويني هزم وأبعد للهند ثم عاد في عهد عزان وطرده ، واستولى على السلطة
- ١٠ - فيصل : هو الذي وقع معاهدة الحماية مع انجلترا سنة ١٨٩١ .
- ١١ - تيمور : تنازل عن السلطة لخلافاته مع الانجليز الذين زاد تدخلهم في الشؤون ولم يساعدوه ضد الحركات الانفصالية بالبلاد .
- ١٢ - سعيد : عهده عهد جمود وتخلف - عزله ابنه قابوس من السلطة واحتل مكانه
- ١٣ - قابوس : هذا السلطان نافذة خير لبلاد عمان - عهد استقرار وتطور .

الانقسامات والتفكك :

أشرنا في شجرة الأسرة التي أوردناها آنفا إلى ألوان من الانقسامات والتفكك التي انتابت هذه الأسرة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة ، فقد بدأت هذه الانقسامات في عهد أحمد نفسه ، فإن ثورات اليعاربة ظلت شوكية في ظهوره حتى اضطر أن يترك لهم بعض جوانب النفوذ ، وأن يدع تحت سيطرتهم قلعتين هما قلعتا نخل والحزم ، كما ظل أفراد من أسرة اليعاربة ينعمون بسلطات محلية اقطاعية ، وكان لهم في ممتلكاتهم بالجبل الأخضر سيطرة ونفوذ (١) .

وبجانب الثورات التي هبت في وجه أحمد من خارج أسرته هناك ثورات هبت ضده من أولاده ، ومن أهمها ثورة ابنه سعيد وسultan اللذين تمردا على أبيهما ، ولم يقنعا بما أعده لهما أبوهما من سطوة وسيادة .

ويبدو أن ثورة سعيد وسultan ضد أبيهما كانت فاتحة صراع طويل من هذا اللون ، وكانت نموذجا اتبعه كثير من أفراد هذه الأسرة ، فعندما تولى سعيد بن أحمد السلطة بعد أبيه ثار عليه ابنه حامد ، واتخذ مسقط عاصمة له ، وعجز أبوه عن إخضاعه ، ولم يرجع الأمر لأبيه في عاصمته بالهرستاق إلا بعد موت حامد نفسه ، على أن موت حامد أبرز شخصية أخرى في مدينة مسقط ، تلك هي شخصية سلطان بن أحمد الذي ثار على أبيه من قبل ، ثم ثار على أخيه سعيد بعد موت ابن أخيه حامد ، واستولى على مسقط ، وظل « سلطان » صاحب السلطة في مسقط من سنة ١٧٩١ حتى قتل في نوفمبر سنة ١٨٠٤ عندما كان عائدا من البصرة بواسطة البحر ، ومات بعده الإمام سعيد ، وبعد مناوشات آل الأمر إلى ابنه سعيد ابن سلطان سنة ١٨٠٦ الذي اتخذ زنجبار عاصمة له من سنة ١٨٣٢ والذي تخلى إلى حد كبير عن المناطق الداخلية بسلطنة عمان مقتنعا بالساحل .

وبعد وفاة سعيد بن سلطان سنة ١٨٥٦ انقسمت الدولة قسمين بين ولديه ماجد وثويني ، واستقر ماجد في زنجبار ، واستقل ثويني بعمان ، على أن يدفع ماجد جزية لأخيه ولكنه سرعان ما قطع هذه الجزية •

وثار تركي بن سعيد على أخيه ثويني ولكنه هزم في هذه الثورة وأبعد إلى الهند ، وثار كذلك سالم بن ثويني على أبيه ، واتهم بقتله ، وتردد الناس في البيعة له مع وجود هذا الاتهام ، ولكن الانجليز أيدوه ذاكرين أن التهمة لم تثبت عليه •

وقفز شخص طموح آخر من الأسرة اسمه عزان بن قيس ليغتصب الملك من سالم بن ثويني ، فاعتصب مسقط من سالم الذي فر من وجهه ، فعاد تركي من منفاه بالهند وأخذ السلطة من عزان •

فصل ساحل الصلح عن عمان :

وبسبب هذا التفكك وتلك الانقسامات فصل ساحل عمان (ساحل الصلح) عن عمان ، وقسم هذا الساحل إلى سبع إمارات حسب الحكام والقبائل بكل قسم ، وقد كان هذا الساحل جزءا من عمان كما ذكرنا من قبل ، وكان اليعاربة يعينون عليه حاكما من قبلهم ، فلما زالت دولة اليعاربة أعلن رحمة بن مطر الاستقلال ، واتخذ رأس الخيمة قاعدة له واعترف له بالاستقلال أحمد بن سعيد مؤسس دولة آل بو سعيد (١) ومنعطى مزيدا من التفاصيل عن هذا الموضوع عند الكلام عن دولة الإمارات •

وهكذا نجد أن أسرة البوسعيديين عاشت في صراع مستمر ، وكان العقوق من أبرز مظاهرها ، ولم تعرف الأسرة الاستقرار نوعا ما إلا في

(١) دكتور سبد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي ج ٢ ص ٦٣ •

السنيين الأخيرة بالقرن التاسع عشر ، ربما بعد أن أصبح الأمر للانجليز ، فلم يعد هناك أمل في نجاح ثورة ضدهم ، أو ضد من ينال تأييدهم من السلاطين وقد أصبح التوارث منهج القسوم في الحكم ، ولكن السلطة الحقيقية أفلتت من أيدي الحكام المتأخرين ، وصارت إلى أيدي الانجليز ، ولم يستعد السلطة حقيقة إلا السلطان الحالي قابوس بن سعيد •

لقاب الحكام :

قلنا فيما سبق إن الأصل في السلطة بعمان أن تكون بالانتخاب تبعا للمذهب الإباضي ، وقلنا كذلك إن نتائج الانتخاب لم تكن بالاجماع بطبيعة الحال ، وهذا خلق عددا من الأئمة في وقت واحد كما خلق ملوكا ورؤساء عشائر في أماكن مختلفة دون حاجة لانتخاب •

ولكن يتضح ابتداءً من أسرة آل بوسعيد شيء جديد أصبح بمثابة قاعدة ثابتة ، فقد كان الإمام يعيش في الرستاق ، واتخذت الثورات من مسقط مكانا مفضلا لها ، ولم يطمع حاكم مسقط في لقب الإمامة ، وفي نفس الوقت قنعت الإمامة بالمقاطعات الداخلية في عمان ، وبالمظاهر الدينية التي ترتبط بالأئمة ، وتركت السلطة لحاكم مسقط الذي كان يباشر الأمور السياسية وأكثر شؤون الحكم ، ومما زاد ذلك تأكيدا إن الإباضية كانوا قليلي العدد بالساحل ، وفي نفس الوقت كان سكان مسقط خليطا من الأجناس لا ينضوي أكثرهم تحت المذهب الإباضي ، إذ أن الكثيرين منهم وفدوا من بغداد أو البصرة أو الكردستان أو أفغانستان وسواحل مكران ، وأفريقية وغيرها ممن كانوا يرتبطون بالتجارة أو يعملون في المال •

وقد قلنا من قبل إن إمامة أحمد بن سعيد لم تتوافر فيها الشروط التي يراها أكثر المؤرخين والإباضيين ، فالرجل مع بطولته وجهاده لم تكن إمامته موضع اتفاق ، ثم إن الاتجاه للثورات قلل من الاعتراف بهؤلاء الحكام كأئمة . ونشأ عن ذلك حقد وانفصال بين الإباضية في الجبل الأخضر ونزوى وبهلا وازكى والرستاق وغيرها من مناطق الداخل ، وبين سلاطين

مسقط الذين كان يراهم الإباضيون بعيدين عن نهجهم ، ومن أجل هذا كله قنع سلاطين آل بوسعيد بلقب السيد ، وطرحوا لقب الإمامة ، وكان للقب « السيد » مكانة سامية في تلك المناطق فرأوا فيه ما يرضى اتجاهاتهم دون حاجة إلى الإمامة التي تستلزم البيعة ولا ترضى بالوراثة ، ثم اتخذ الحكام أخيرا لقب « سلطان » •

وأصبح الاتجاه لترك لقب الإمامة ضرورة لازمة عندما اتصل السلاطين بالقوى الخارجية الأوروبية واستعانوا بها ضد الأحداث التي صادفتهم ، فانتسعت الهوية بين الإباضية الذين استنكروا هذه الصلات ، وبين سلاطين آل بوسعيد •

وعلى هذا اختفت الإمامة أمدا طويلا يقرب من قرن ونصف قرن وكانت خلال هذه المدة تظهر أحيانا باهتة لا غناء فيها ، وفي سنة ١٩١٣ بدأت حركة قوية لبعث الإمامة ، فاجتمع زعماء الإباضية ومعهم الشيخ نور الدين السالمى واختاروا راشد بن سالم الخروصي إماما لعمان ، وأيد هذا الاختيار زعماء الغافرية والهناءية جميعا ، مما قوى مركز الإمام الجديد ، وأعلن زعماء الإباضية خلع السلطان فيصل بن تركي ، واعتبار وجوده في الحكم غير شرعى ، وتطلع الإمام إلى توسيع حكمه وإلى الزحف إلى الساحل لاستكمال السلطة على عمان كلها ، ولكن هذا الإمام قتل في سنة ١٩٢٠ قبل أن يتم الزحف وبويع محمد بن عبد الله الخليلى إماما ، وتدخل الانجليز لوقف أى محاولة زحف يقوم بها أتباع الإمام للساحل •

اتفاق السيب :

عقد « اتفاق السيب » في سبتمبر سنة ١٩٢٠ بين تيمور بن فيصل وبين ممثلى الإمام ، وخلاصة هذا الاتفاق تخفيف الضريبة التي يحصل عليها السلطان في الموانئ عند تصدير السلع العمانية ، وأن ترفع جميع القيود عن العمانيين الذين يمشون بمدن الساحل ، وأن يتمتع أهل عمان بالأمن والحرية بالمدين الساحلية ، ولا يتدخل السلطان في الشؤون الداخلية للمناطق

الداخلية ، وفي مقابل ذلك تتعهد القبائل بعدم مهاجمة مدن الساحل ، وإباحة الحرية لسكان الساحل في أن يباشروا التجارة الداخلية وأن يكون الشرع هو الحكم عندما يوجد خلاف بين تجار الساحل وبين أهل الداخل •

ويختلف المفكرون في قيمة اتفاق السيب ، فيرى البعض أنه يفيد اعتراف السلطان بوجود دولة مستقلة في عمان ، ويرى آخرون أنه عمل تنظيمي بين السلطان وبين بعض القبائل التابعة له •

وقد ظل محمد بن عبد الله الخليلى يشغل إمامة عمان فترة طويلة حتى سنة ١٩٥٤ ، وحاول في منصبه أن يبرز عمان في شكل الدولة المستقلة . فطالب الانضمام لجامعة الدول العربية ، وأصدر جوازات سفر ، ولكن ذلك لم يبرز عمان كدولة مستقلة ، ولم تقبل جامعة الدول العربية طلبه •

وعقب وفاة الإمام الخليلى سنة ١٩٥٤ اختير غالب بن على إماما لعمان في نفس العام (سنة ١٩٥٤) ، وفى عهده تفجر الخلاف بين الإمام والسلطان لأن الحكومة البريطانية احتلت وانحات البريمي باسم السلطان وبدأ الأمل في انتاج متدفق من البترول من هذه الواحة ، وطالب الإمام بجزء من عائد البترول ، وكل هذا هياً لنهاية حاسمة وضرورية للموضوع ، فزحف جيش السلطان سعيد بن تيمور بقيادته وبمعونة قوات إنجليزية قوية ، وهاجم نزوى وحاصرها مدة ثلاثة أيام ثم احتلها سنة ١٩٥٥ وألغى الإمامة ، وهرب غالب بن على إلى السعودية ، وذكر أن هذا اعتداء إنجليزى على الإمامة أخذ ثوب الشرعية ، بوضع القوات تحت قيادة السلطان سعيد بن تيمور ومن أجل هذه النظرة اندفع الإمام غالب وشقيقه طالب لإشعال ثورة جديدة ضد السلطان وكان ذلك في يوليو سنة ١٩٥٧ واستطاع أن يدخل نزوى وأن يرفع علم الإمام على مدن الجبل الأخضر ومقاطعاته ، ولكن السلطان سعيد قاد جيشاً قويا اقتلع به هذه الثورة من أصولها وأعاد سيطرته على الجبل الأخضر في يناير سنة ١٩٥٩ •

وقد اتجه بعض الباحثين آنذاك إلى مهاجمة السلطان سعيد واعتباره يبطش بيد بريطانيا ، وكان الإمام غالب يحظى لذلك بالعطف والتأييد من هؤلاء ، ولكن الزمن مر ، وأثبتت الأحداث أن التجمع خير من الفرقة وأن في تلك البقاع دولة واحدة هي عمان ، وأن مسقط عاصمة لها ، ولهذا أصدر السلطان الحالي قابوس بن سعيد قرارا بالألا تسمى البلاد سلطنة مسقط وعمان كما أتبع في عهد سلفه ، وأن تسقط هذه الازدواجية ، وأن تسمى البلاد سلطنة عمان فقط ، وتصبح مسقط عاصمة لها ، وكان هذا التصرف توحيدا لبلاد كانت على وشك أن يثبت تقسيمها ، والاتجاه للوحدة هو اتجاه المخلصين في الوطن العربي والوطن الإسلامي .

عمان والقوى الأوربية :

تعرضت عمان بحكم موقعها إلى محاولات من بريطانيا وفرنسا لتضمها هذه أو تلك إلى مناطق نفوذها ، وقد كانت بريطانيا أكثر حرصا وأكثر حاجة إلى عمان بسبب مكانة عمان في طريق المواصلات البريطانية إلى الهند ، ولما بدأ نابليون مغامراته في الشرق ودخل مصر سنة ١٧٩٨ أسرع بالنتطلع إلى عمان ، وكتب رسالة إلى سلطان مسقط يخطب وده ، ومن هنا زاد اهتمام بريطانيا بعمان ، واستطاعت أن تعقد معها أول معاهدة ، وكان ذلك في عهد سلطان بن أحمد وكانت المعاهدة بين السلطان وبين شركة الهند الشرقية البريطانية ، وتم توقيعها في أكتوبر سنة ١٧٩٨ وتعد هذه المعاهدة أول معاهدة عقدتها بريطانيا مع الأمراء العرب ، وأول تدخل إنجليزي في شؤون عمان ، وخلاصة هذه المعاهدة تقوية روح المودة بين عمان وبريطانيا ! ! ! والقضاء على النفوذ الفرنسي والهولندي بالبلاد ، وفي سنة ١٨٠٠ وقعت بريطانيا مع السلطان اتفاقية لتأكيد معاهدة ١٧٩٨ ، ونصت هذه الاتفاقية على أن يعين ممثل لانجلترا يقيم في مسقط ، ويتم عن طريقه الاتصالات بين الدولتين ، كما نصت على استثناء الانجليز من

القوانين المحلية المعمول بها في السلطنة ^(١) ونصوص هذه المعاهدة توضح الزحف البريطاني على سيادة عمان •

وقتل سلطان بن أحمد سنة ١٨٠٤ وقام صراع بين ولديه سالم وسعيد ورجحت كفة سعيد ابتداء من سنة ١٨٠٦ وقد حاول أن يتخلص من النفوذ البريطاني ، فعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٠٧ ثم عززت بأخرى سنة ١٨٠٨ وبمقتضى ذلك نزل بمسقط أول مقيم فرنسي •

واتجه سعيد كذلك لعقد معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية لإمداده بما يحتاجه من أسلحة وعون ، نظير منح الولايات المتحدة امتيازات سياسية واقتصادية مهمة ، وقد وقعت هذه المعاهدة سنة ١٨٣٣ م ، وخافت انجلترا أن تفلت عمان من نفوذها فعرضت استعدادها لتقديم ما طلبته عمان من الولايات المتحدة ، وعقدت عقب ذلك معاهدة سنة ١٨٣٦ وأصبحت عمان بذلك تحت الحماية البريطانية ، ثم عقدت معاهدة أخرى بنفس الروح سنة ١٨٩١ •

وفي سنة ١٩١٣ حدث خلاف على السلطنة عقب وفاة فيصل بن تركي وكانت ظروف الحرب العالمية الأولى تدعو للحذر ، فتدخلت بريطانيا في الحال واحتلت البلاد ، كما احتلت الدول العربية الواقعة على ساحل الخليج العربي ، وأخذت الدولة البريطانية على عاتقها أن تشرف على حكم بلدان الخليج وخفارتته بدل الامبراطورية العثمانية التي كان لها هذا الإشراف من قبل ^(٢) واستمر هذا الاحتلال حتى سنة ١٩٢١ •

وفي سنة ١٩٢٣ وقع أمير عمان تعهداً للحكومة البريطانية ألا يقوم بالبحث عن البترول أو استغلاله دون استشارة المقيم البريطاني ^(٣) •

Bombay Government Selection from the Records. See also (١) Kelly p. 58.

(٢) عمر رضا كحالة : جغرافية جزيرة العرب ص ٤٤٩ - ٤٥٠ •

(٣) محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الاسلامية ص ٣٣٤ •

وفي فبراير سنة ١٩٣٩ أبرمت آخر معاهدة بين عمان وبريطانيا ،
وجددت هذه المعاهدة سنة ١٩٥١ لمدة خمسة عشر عاما وبمقتضى هذه
المعاهدة قدمت بريطانيا مساعدات للسلطان سعيد ليستعيد نفوذه في عمان
وليقتضى على الإمامة سنة ١٩٥٥ ، وعندما رأت بريطانيا أن هذا التدخل
أثار ثائرة العرب بوجه خاص ، والعالم بوجه عام تراخت قبضتها عن
عمان ، وكان ذلك طبقا للسياسة البريطانية الجديدة بالنسبة إلى مناطق
ما أسمته « ما بعد السويس » تلك السياسة التي كانت مطلع زوال
الاستعمار البريطاني من العالم كله .

ويقول الدكتور سيد نوفل ^(١) إن بريطانيا عقدت مع عمان منذ أواخر
القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين أكثر من عشرين تعهدا واتفاقا
تمنح الرعايا البريطانيين امتيازات ضخمة ، وتقدمهم على غيرهم في
المعاملات التجارية ، وتقرر لهم في مسقط مقيمين ووكلاء في شئون
السياسة والاقتصاد ، ثم تمنع أيدي السلطة عن التصرف في أراضيها إلا
بموافقة بريطانيا ، وتطلق أيدي الانجليز في شئون البلاد ومواردها .

وبمرور الزمن تقلص هذا النفوذ الأجنبي حتى زال في العصر الحالي .

السعوديون وعمان :

تحدثنا عند الكلام عن المملكة العربية السعودية عن الموحدّين أتباع
الإمام محمد بن عبد الوهاب وشرحنا مبادئهم ، وذكرنا أن أمراء السعوديين
استجابوا لهذه الدعوة ، وتعهدوا بحمايتها ، والتقى بذلك فكر ابن
عبد الوهاب مع قوة آل سعود فتتمت الدعوة خطوات واسعة من النجاح ،
وأحيانا يسمى التكتل أو المزيج الذي تكوّن من الدعوة والقوة في نجد
باسم « الوهابيين » وهي تسمية غير مقبولة بالمملكة العربية السعودية وإن
اشتهرت خارجها ، وتسمى بالسعودية « دعوة التوحيد » .

ودعوة التوحيد ليست دعوة خاصة لحدود معينة، بل هي تتطّلع إلى

(١) الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي ٠٠٠ ج ١ ص ٦٣ .

الانتشار في العالم الإسلامي ، وإزالة الانحراف الذي كان سائدا ، وبخاصة في الجزيرة العربية ، ومن هنا سارت الدعوة تحت الخط ، وتدق الأبواب ، وتزيل الحواجز •

وكانت الجزيرة العربية تُحكم في الغالب بنظام قبلي ، إذ تتغلب كل قبيلة على منطقة من المناطق ، وكانت عمان قد انحلت خلال عهد البوسعيديين إلى مقاطعات ومناطق شبه مستقلة ، بسبب الصراعات الضخمة التي انتابت هذه البلاد ، وبسبب الخلافات الحادة التي سادت بين أمراء البيت الحاكم بعضهم والبعض أحيانا ، وأحيانا بين السلاطين وبين الطموحين الذين كانوا يبرزون من حين إلى حين ، ونتيجة لذلك استقلت عن عمان إمارات الخليج التي كانت جزءا من عمان كما ذكرنا من قبل ، كما استقلت بعض مناطق الظاهرة بعد أن تركزت سلطات مسقط في مناطق الساحل •

أضف إلى ذلك أن كثيرين من سكان الظاهرة ، وبعض المناطق الداخلية من عمان تجمعت لديهم لأسباب خاصة تدفعهم إلى التخلي عن سلطة البوسعيديين والانضواء في السلطة السعودية الناشئة في الجزيرة العربية ، ومن هذه الظروف أن كثيرين منهم ينحدرون من عرب الشمال ، وتربطهم بسكان نجد السعوديين رابطة الدم ، ومنها كذلك أن تنافسا خطيرا كان موجودا بين القبائل التي كانت تعيش في المناطق الداخلية وبين مناطق الساحل ، ومنشأ هذا التنافس أن بعض القبائل كانت تتبع المذهب السني ، وكانت في الوقت نفسه فروعاً من الغفارية ، وذلك مثل قبائل نعيم في البوريمي التي كانت على خلاف مستمر مع القبائل الهنادية الدم الإباضية التفكير ، ومثل القواسم سكان الشارقة ورأس الخيمة فقد كانوا كبنى نعيم سنيين غفارية (١) •

واحة البوريمي وصراع القوى :

ولكل هذه الأسباب وجد الوهابيون فرصتهم للزحف إلى واحة البوريمي

فاحتلوا لأول مرة سنة ١٧٩٥ ، كما واصلوا زحفهم حتى وصلوا إلى ساحل الخليج العربى فى عهد الأمير سعود والأمير عبد العزيز ، وسرعان ما أصبحت واحة البورىمى معقلا لهم ، فكان القائد السعودى يتخذ منها مقرا له ، وكان يجبى الزكاة من سكانها ومن سكان القرى المجاورة ، وكان جبى الزكاة رمزا للسلطة والتبعية •

وعندما اشتد ساعد الوهابيين كان المتصارعون على السلطة فى عمان يطلبون العون منهم ، ومن هؤلاء بدر الدين سيف بن أحمد بن سعيد « أحمد بن سعيد مؤسس الدولة » فقد حاول بدر هذا أن يخلع سلطان ابن أحمد ولكنه فشل فى محاولته ، فطلب العون من السعوديين ، مما فتح الباب للنفوذ السعودى فى عمان ، وبخاصة عقب مقتل سلطان بن أحمد ، وتولية بدر الوصاية على أبنائه (١) ومن هؤلاء كذلك ثوينى بن سعيد الذى استصرخ السعوديين عندما ثار عليه أخوه « تركى » الذى كان واليا على صحار ، وتطلع لنيل السلطة •

وتقول المصادر السعودية إنه بالنسبة لانتساع الصحراء العربية وقلة طرق المواصلات السريعة بها فإن الأمراء السعوديين اكتفوا بالروابط الاجتماعية والاقتصادية بينهم وبين البورىمى ، وكانت الزكاة تدفع للعمال السعوديين ، وكان أمراء البورىمى يعلنون ولاءهم للأمير نجد (٢) •

على أن تدخل محمد على والى مصر وخضوع الدرعية لإبراهيم باشا سنة ١٨١٨ أوقف نشاط السعوديين بواحة البورىمى ، وفى المناطق الواقعة حولها ، ولم يستطع حاكم البورىمى الذى كان يمثل السعوديين أن يستبقى السلطة فى يده ، فسلّم الواحة إلى سلاطين عمان (٣) على أن

(١) دكتور زكريا قاسم : دولة بوسعيد ص ٥٢ •

(٢) مشكلة البورىمى : من مطبوعات سفارة المملكة العربية السعودية

بجاكرتا •

J. B. Killy Ibid : p. 57.

(٣)

منافسيّن جديدَيْن ظهرا لعمان في امتلاك هذه الواحة ، أما المنافس الأول فهم بنو يباس الذين كانوا يعيشون في الداخل غير بعيد من البوريمة ، وكانوا يذهبون للساحل لصيد السمك أو اللالء ، فلما ظهر الماء في أبو ظبي سنة ١٧٦١ رحلوا لها واتخذوها وطناً لهم ^(١) والمنافس الثاني هو بريطانيا التي اهتمت بالخليج ابتداء من القرن السابع عشر ، ثم رجحت كفتها على كل القوى الأوروبية بالخليج العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعقدت معاهدات مع إمارات الخليج في القرن التاسع عشر أصبحت بمقتضاها تتحدث باسمهم ^(٢) فلما ظهرت بوادر البترول في البوريمة سنة ١٩٤٩ أعلنت بريطانيا أن السيادة على هذه الواحة من حق مشيخة « أبو ظبي » وسultan مسقط ، وهما خاضعان لحماية بريطانيا ، وأعلنت المملكة العربية السعودية آنذاك أن الواحة جزء لا ينفصل من المملكة وأن سكانها يدينون بالولاء للعاهل السعودي منذ زمن بعيد .

وتطورت المشكلة ووصلت إلى درجة خطيرة سنة ١٩٥٣ فقبل الطرفان (بريطانيا والسعودية) إجراء تحكيم دولي لحل المشكلة ، وعقدت لإجراء التحكيم اتفاقية في ٣٠ يوليو سنة ١٩٥٤ ولكن بريطانيا لم تنتظر نتيجة التحكيم ، وأوعزت لسلطان مسقط أن يزحف بجيشه ، وكان أكبر قواده من البريطانيين فاحتل هذا الجيش منطقة عمان وواحة البوريمة ، واثارت ثائرة السعودية ، بيد أن الأمر قد سوى بعد ذلك بين الأطراف العربية ، وكان أساس هذه التسوية اعتبار الدعوة إلى التوحيد منطلقاً فكرياً ، وأن اتّباع هذه الدعوة لا يستلزم تبعية سياسية .

البوسعيديون في شرقي إفريقيا :

رأينا من قبل الجهود الكبيرة التي بذلها اليعاربة لطرد البرتغاليين

Ibid. p. 51. (١)

Ibid. p. 35. (٢)

من شرقى إفريقيا ، ولكن اليعاربة اكتفوا بالسلطة الاسمية على هذه المناطق لشدة ارتباطهم بالجزيرة العربية وحراسة أملاكهم بها ، وعينوا على المناطق الإفريقية أمراء يحكمونها باسمهم ، فعينوا أسرة الحارث لجزيرة زنجبار ، وأسرة النبهانيين لحكم بانقا ، وأسرة المعمودى لحكم ممبسة ، وثلاثها أسرة المزروعى ، وكانت هذه الأسر خاضعة خضوعا اسميا لأئمة عمان ، وعندما سقطت أسرة اليعاربة فى عمان ، وقامت على أثرها أسرة بو سعيد (البوسعيدية) اكتمل سلطان أئمة عمان على الساحل الإفريقى ، وعلى الجزر المواجهة له ولم يقبل البوسعديون أن ينافسهم الأمراء فى حكم هذه الجزر وبخاصة الأمراء من أسرة المزروعى الذين كانوا قد حاولوا الاستقلال بجزيرة ممبسة ، ولعل السبب فى اهتمام البوسعديين بالمناطق الإفريقية أن نفوذهم تقلص فى المناطق الآسيوية ، وتقلت بعض أجزاء عمان عن حكم الدولة ، فأتجه البوسعديون إلى إفريقيا بأكثر نشاطهم ، بل نقل سعيد بن سلطان (١٨٠٦ — ١٨٥٦) عاصمته ملكه من مسقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ مما يشير إلى أن البوسعديين كانوا يتجهون إلى جعل القسم الإفريقى عماد دولتهم واستطاع سعيد أن يفرض العشور على التجارة الداخلية والخارجية وأن يجعل زنجبار مستودعا هائلا للتجارة ، تخزن فيه البضائع التى تأتى من أنحاء كثيرة بإفريقية ، ومنها توزع على التجار العرب الذين يحملونها إلى سواحل شبه الجزيرة ، وإلى المناطق المختلفة بآسيا وإفريقية ، كما توزع على التجار الأوروبيين والأمريكيين الذين يحملونها إلى بلادهم (١) .

وبالإضافة إلى الحركة التجارية والنشاط الاقتصادى اتسع نفوذ زنجبار السياسى فى عهد السلطان سعيد ، فشمّل مسافة على الساحل تقدر بأكثر من ألف وستمئة كيلو متر ممتدة من جنوب مقدشيو شمالا إلى سفالة وتونجى جنوبا ، كما امتد نفوذه أيضا داخل القارة حتى وصل إلى

(١) دكتور صلاح العقاد ، والدكتور جمال قاسم : زنجبار ، وانظر موسوعة التاريخ الاسلامى للدكتور أحمد شلبى الجزء السادس ص ٤٠٨-٤٠٩ .

حدود الكونغو وأوغندا وروديسيا ، وانتشرت في هذه الأجزاء كلها شبكة من خطوط القوافل تربط بين الساحل وبين شواطئ فيكتوريا وتنجانيقا ونياسا ، وتابع سعيد توغله في الأجزاء الشرقية من الكونغو وعلا صيته حول البحيرات العظمى حتى كان يقال : إن الناس على شواطئ البحيرات يرقصون على أنغام زنجبار (١) .

وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحا كبيرا على الرغم من أن عصر الاستعمار الأوربي كان قد بدأ ، واتجهت القوى الأوربية لمصارعة السلطان المسلم في هذه المنطقة (٢) .

وعقب وفاة السلطان سعيد انقسمت دولته إلى سلطنتين مستقلتين ، إحداهما إفريقية حكمها ماجد بن السلطان سعيد وقد تكلمنا عنها ، وعددنا سلاطينها عند الحديث عن الدول الإسلامية بإفريقية في الجزء السادس من هذه الموسوعة ، والثانية آسيوية عاصمتها مسقط حكمها ثويني ابن السلطان سعيد وهي التي نتحدث عنها الآن .

تعريف بأشهر سلاطين البوسعيدين

لقد تعرفنا خلال الدراسة السابقة على سلاطين هذه الأسرة وتكلمنا بشيء من التفصيل عن مؤسسها أحمد بن سعيد ، ويبقى بعده سلاطين جديرون بشيء من التفصيل كذلك ، وهؤلاء هم :

سلطان بن أحمد	(١٧٩١ — ١٨٠٤)
وسعيد بن سلطان	(١٨٠٦ — ١٨٥٦)
وقابوس (السلطان الحالي)	(١٩٧٠)

(١) See Ruete R. : Saïid Bin Sultan, Rulers of Oman and East Afriea
(٢) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٢٢ وانظر الجزء السادس من هذه الموسوعة للمؤلف ص ٤٠٩ .

وفيما يلي كلمة عن كل من هؤلاء وستعطينا هذه الكلمة فكرة عن
سلطين الآخرين سيمتد الحديث إليهم ونحن نتحدث عن هؤلاء السلاطين
الثلاثة :

سلطان بن أحمد :

ثار سلطان بن أحمد على أبيه ، ثم ثار على أخيه سعيد ، واستولى
على السلطة منه في مسقط والساحل من سنة ١٧٩١ وقنع أخوه معه
بالنفوذ الديني بالداخل ، كما كان قانعا بذلك إبان ثورة ابنه حامد عليه ،
ومنذ تولى سلطان بن أحمد جعل التوسع الخارجى سياسة ثابتة له ،
وبدأ بالجزر المواجهة لساحل عمان وهى قشم وهرمز ، ثم بسط سلطته
على الموانى المهمة فى ساحل مكران ، واستولى على مينائى شهباز وجوار دور ،
وبواسطة هذين الميناءين توثقت الصلات بين بلوخرستان وبين عمان ،
واستولى كذلك على بندر عباس ، وهكذا صارت دولة عمان فى عهد سلطان
ابن أحمد تتكون من شريط ساحلى فى شبه جزيرة العرب ، ويضاف إليه
عدة جزر وموان حتى حدود باكستان الحالية بالإضافة إلى جزيرة زنجبار •

وهذا التكوين الجغرافى لعمان استوجب أسطولا قويا ، ويبدو أن
السفن التجارية كانت أحيانا تستعمل لأغراض الدفاع ، فإذا أخذنا بذلك
استطعنا أن نقول إن أسطول عمان فى عهد سلطان بن أحمد كان يتكون
من ٦٠٠ سفينة بخلاف السفن الكبيرة المخصصة للحرب ، ومن الطبيعى
فى مثل هذه الظروف أن تنمو العلاقات بين مسقط وبين العالم الخارجى
نموا كبيرا (١) •

وانتهز سلطان بن أحمد فرصة وقوع نزاع بين أهالى البحرين وبين
حاكمهم الشيخ سليمان آل خليفة فأرسل أسطوله إلى تلك الجزر ، وربما
كان ذلك بناء على طلب السكان ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين سلطان بن

أحمد وبين آل خليفة سنة ١٧٩٩ نص على أن تمتد مسقط سيادتها على البحرين ، وعاد سلطان بن أحمد إلى بلاده بعد أن أخذ أخا حاكم البحرين رهينة عنده ، وبعد أن وضع ابنه سالم ليمثله في السيادة على البحرين ، ولكن هذا الابن كان لا يزال حدثا فأشرك أبوه معه أحد زعماء الشيعة واسمه محمد بن خلف في هذه السلطة (١) .

وحدث بعد ذلك أن مات أخو الحاكم الذي كان رهينة في مسقط ، فتمتلك آل خليفة « العتوب » من وعدهم واستعانوا بالسعوديين ضد سيطرة مسقط ، فاستسلم سالم وانسحب ، ولكن مسقط عادت تدافع عن مكانتها متعاونة مع بعض القوات الفارسية واستعادت السلطة في البحرين من جديد ، ولكن ذلك الموضع لم يدم طويلا بسبب العون السعودي المستمر لسكان البحرين .

وبالإضافة إلى هذه الانتصارات العسكرية والتوسع الخارجى يضيف المؤرخون إلى سلطان بن أحمد فضلا عظيما في المجال الحضارى ، فقد فتح الباب الألوان من التقدم والمدنية كانت بعيدة عن بلاده من قبل ، كما تعاون مع العثمانيين على حماية البصرة من الفرس ، مما جعل له مكانة خاصة لدى الباب العالى الذى أصدر فرمانا بإعطائه راتبا سنويا نظير هذه المساعدة .

سعيد بن سلطان :

عندما توفى سلطان بن أحمد سنة ١٨٠٤ كان ولده سالم وسعيد فى سن الحداثة ، لم يصلا بعد إلى سن البلوغ ، وكان سعيد بن أحمد قائما بمنصب الإمامة فى الرستاق وقيس بن أحمد يسيطر على صحار ، ومحمد بن أحمد يسيطر على السوق ، وكان بدر بن سيف بن أحمد يحاول أن يستولى على مسقط بعد وفاة عمه سلطان ، وكان يعتمد على

المسعوديين الذين وعدوه بالعون والمساعدة ، وكان اليعاربة مستبدين في نخل ، ووسط هذا التفكك تمكن السعوديون من تأكيد سلطانهم في الظاهرة والبوريمي •

وحاول كل من إخوة سلطان بن أحمد أن يخلفه في السلطة وأن يتناصى ولديه الصبيين اللذين آل إليهما ميراث أبيهما الراحل ، وكانت ترعاهما عمة لهما اسمها « معازة » وقد لجأت هذه العمة إلى بدر بن سيف ليساعدها ضد القوى الزاحفة على مسقط ، وكان بدر طموحا من جانب ، وقويا بعون السعوديين له من جانب آخر ، فاستجاب لطلبها وأصبح وصيا على الصبيين ، وتخلت له معازة عن الوصاية ، ولكن بدرا حاول أن يأخذ الأمر لنفسه ، فقوى صلته بالسعوديين ، وعقد معهم اتفاقية تنبئهم السلطة لهم في عمان ، وتبيح أن يكون لهم في مسقط مندوب يتولى جمع الزكاة باسمهم ، ووضع بدر سعيد بن سلطان في مقاطعة صغيرة ليعيشه بها ، وكانت سنة آنذاك حوالي خمس عشرة سنة •

وكان هذا الشاب في أول خطواته لمرحلة الشباب ، ولكنه كان شديد البأس عميق الفكر ، فدعا عمه بدر بن سيف لحضور اجتماع في إقليمه اتفق على وسيلة للتخلص من قيس بن أحمد حاكم صحار ، واستجاب حذر لهذه الدعوة ، وكان سعيد قد أعد كميناً له في القلعة التي يعقد فيها الاجتماع ، وما إن دخل بدر حتى انقض عليه سعيد ورفاقه ، فأجهزوا عليه واختصت بذلك مسقط لسعيد سنة ١٨٠٦ •

وأخذ سعيد بعد ذلك يتخلص من باقى المنافسين وكانوا أهون عليه من عمه بدر ، ولذلك تهاوت القوى المنافسة له واحدة بعد الأخرى ، ثم استولى على الرستاق بعد وفاة الإمام سعيد بن أحمد ، وبذلك وحد سعيد المنطقة كلها تحت حكمه •

بيد أن سعيد أدرك أن استمرار الاستقرار في هذه المنطقة شيء بعيد

المنال ، فإن الخلافات والانقسام كانت لا تتوقف حتى تبدأ من جديد في الجزيرة العربية ، وبالإضافة إلى هذا فقد ظهر بالجزيرة العربية منافس جديد خطير هو محمد علي والى مصر ، وثبتت الوثائق أن محمد علي فكر في الزحف على عمان واتصل بأمير البحرين ، مما جعل حدود عمان تهددها القوة التي حلت محل السعوديين في الجزيرة العربية لفترة من الزمن ، ومن أجل هذا وجه سعيد عنايته إلى إفريقيا ، واسترد ما كان قد ضاع من الساحل خلال الصراعات التي سبقته ، ثم أثر سنة ١٨٣٢ أن ينتقل إلى زنجبار ويتخذها عاصمة له ، وقد سبق أن تحدثنا عن جهود سعيد في الساحل الإفريقي ، وعن المكانة السياسية والاقتصادية التي حققها هناك •

وكان سعيد معروفا بالتواضع يميل إلى الشورى ، ولا يصدر حكما مهما كان إلا بعد اجتماع مجلس الرؤساء والشيوخ للتشاور في هذا الأمر ، وكان محبوبا لدى الرعية ، معظما بينهم ، وقد عد أحد المؤلفين السعوديين هذا التعظيم مطعنا في سعيد وهو في هذا يقول : إنه الرئيس المعروف عند شعبه بالسيد ، المتقدم في رياستهم وسياستهم والمطلق فيهم ، ولقد أتى الناس من توقيره وتعظيمه ، والاعتقاد فيه ، ما أفضى بهم إلى طريق الضلال والإلحاد (١) •

وكان سعيد ذكيا مستقبلا حريصا على تنمية معلوماته والتعرف على أعمال الزعماء من معاصريه ، فكان يتابع إصلاحات محمد علي ليباشر ما يمكن مباشرته منها في بلاده وبين رعيته •

ويقول عنه الرحالة Wellsted إنه كان يحتفظ بكثير من الصفات البدوية الأصلية ، لا يتحلى باللالء والجواهر ، وكان يلبس لباس مواطنيه ،

(١) حسين بن غنام : روضة الأفكار والافهام ج ١ ص ٩ •

وكان يظهر في الاحتفالات والمناسبات بدون المظاهر التي يحرص عليها السلاطين والملوك ، وكان يزور والدته يومياً كدليل على البر والتقدير (١) .

وتوفي السيد سعيد سنة ١٨٥٦ وهو في سفينة من مسقط إلى زنجبار ، ودفن في هذه الجزيرة ، كأن القدر أراد له أن يوارى جسده في الجزيرة التي أحبها واستوطنها .

السلطان قابوس :

عندما نحاول أن نتعرف على السلطان قابوس وجهده في خدمة بلاده ينبغي لنا أن نتعرف على أحوال هذه البلاد خلال الفترة التي سبقت حكم السلطان قابوس .

ومن الواضح أن التدخل الانجليزي في البلاد بعد وفاة السلطان سعيد كان شديداً للغاية ، وقد انتهز الاستعمار الانجليزي وفاة السلطان سعيد ، وحدث خلاف بين أولاده فنقدم هذا الاستعمار وحكم بإقامة سلاطين يحكم إحدهما تويني بن سعيد ويحكم الثانية ماجد بن سعيد كما ذكرنا من قبل ، وقد تسبب عن هذا التقسيم أن حلت بعمان أضرار بالغة ، وبخاصة بالمقاطعات الساحلية بالبلاد ، فقد تدهورت تجارة عمان مع زنجبار ، واضطر عدد كبير من التجار العرب إلى الهجرة من عمان ، وتقلص النشاط الاقتصادي عن البلاد ، وبدأت تعاني أزمة قاسية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستعمار بدأ يتمكن من البلاد ، وأخذ يتدخل بما يحقق له أهدافه وأطماعه ، وقد دخلت البلاد تحت الحماية بناء على المعاهدات التي حدثت مع الانجليز وكانت النتيجة أن السلاطين لم يعد في يدهم سلطة ، وأن السلطة الحقيقية أصبحت في يد المستعمر ، وفي سنة ١٩١٣ تجدد بعث الإمامة فانشطرت البلاد شطرين ، شطر يحكمه

الإمام وشطر يحكمه الانجليز ، وأحس تيمور بن فيصل ألا سلطان له
فتنازل عن مكانه لابنه سعيد بن تيمور سنة ١٩٣٢ ، واتجه الحكم في عهد
سعيد بن تيمور نحو العزلة والانغلاق والصمت ، وتحول نشاط الخليج إلى
« دبی » ولم يعد لعمان صوت يسمع في الخارج ، ولا كيان يذكر في انداھل ،
وأخذت البلاد تتأخر يوما بعد يوم نتيجة للقيود العجيبة التي فرضها
السلطان على عمان وعلى شعبها ، ومن هذه القيود عدم جواز اقتناء
المذياع للاستماع للإذاعة الخارجية إذ لم تكن هناك إذاعة محلية ،
وبالتالي كان امتلاكه محرما حتى لا يتأثر أهالي عمان بمجريات الأمور
خارج البلاد ، ومن المحظورات كذلك التدخين ، وقرع الطبول ، وإحياء
الأفراح ، والبقاء خارج أسوار المدن بين غروب الشمس وشروقها ،
وهكذا أصبحت عمان ، نقطة هامة على خريطة العالم ، ولم يكن لعمان
قبل قابوس عهد بالعلم ، فلا توجد في البلاد كلها غير مدرستين لا تقبلان
إلا عددا قليلا من التلاميذ على أن يكون ذلك بأمر السلطان نفسه ،
ولم يكن بالبلاد مراكز صحية ذات بال ، ولا مستشفيات على الإطلاق ،
ولم تعرف التخطيط والنظم الإدارية السليمة ، واقتصاد البلاد كان في
القاع ، وكان الشعب يعيش في ظلام لا يعرف الأمل .

ووسط هذا الظلام انبثق الأمل متجسدا في قابوس بن السلطان
سعيد ، وكان قابوس قد عاد من الخارج بعد أن أتم دراسته في كلية
سانت هيرست العسكرية في لندن ، وطاف قبل عودته بعدد من دول
العالم ، وما إن خطت قدماه على أرض عمان حتى أدرك الهوة السحيقة
التي تعيش فيها هذه البلاد ، وسرعان ما أحس أن السجن الكبير القائم
الذي يضم شعب عمان قد احتواه هو أيضا ، فإن أباه السلطان فرض عليه
العزلة حتى لا يختلط بالناس كي لا يتأثر بهم أو يؤثر فيهم ، وعانى
قابوس ما يعانيه الشعب ، وبالتالي أحس بإحساسه ، فأخذ يدبر الأمر في
صمت ، ويثري بعض الاتصالات ببعض العناصر المخلصة بالخارج فلما
حاء شهر يوليو سنة ١٩٧٠ كانت الخطة قد أحكمت ، وانبثق يوم الثالث

والعشرين من هذا الشهر على فجر جديد ، فقد هبت ثورة الخلاص ، فأبعد قابوس أباه عن الحكم وتولى مسئولية الحكم بالبلاد ، وكان ذلك مطلع عهد جديد .

وأخذ قابوس يعمل بسرعة هائلة لتعود عمان إلى النور ، فأمرع بإزالة القيود التي كان السلطان السابق قد فرضها على الشعب ، وأسرع كذلك في إقامة إصلاحات في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وفي أكتوبر سنة ١٩٧١ دخلت سلطنة عمان الجامعة العربية ، ثم دخلت الأمم المتحدة ، وأقامت علاقات دبلوماسية بينها وبين كثير من الدول العربية ومن دول العالم ، وأخذت تلعب دورها في الحياة العربية والعالمية .

لقد كان قابوس نافذة نور لعمان ، وكانت يده تعمل في كل مجال ، في مجال التعليم ، وفي مجال الزراعة ، والطرق والمواصلات ، والتخطيط ، والتعمير ، والصحة ، والأهل ، وبناء الإنسان العماني بوجه عام ، وذن هنا فقابوس يستحق تقدير المنصفين لأنه خطا أوسع الخطوات في أقصر وقت وهو بهذا يفوق الكثيرين من الأنداد .

أما سياسة السلطان قابوس الخارجية فكانت مثالا في الدقة والحكمة وبُعد الرأي ، فقد خالص قابوس بلاده تماما من آثار الاستعمار ، وأمسك بزمام كل الأمور ، ولم يخضع في تصريف شئون البلاد الخارجية للأهواء أو الانفعالات بل وقف كالطود الشامخ يتدارس المشكلات بعمق وأصالة ليضع بلاده في الوضع الذي يخدم العروبة والإسلام ويستعيد لعمان مكانها من مجد تليد .

لقد رأت عمان في عهد السلطان قابوس أنصر عهودها في كل اتجاه ، بارك الله له ، وهياً الخير على يديه .

مشكلة المقاطعة الجنوبية « ظفار » :

تحكى المصادر العمانية ^(١) قصة الصراع في ظفار فتقول : إنه عندما تسلم العهد الجديد بقيادة السلطان قابوس مقاليد الحكم وضع في اعتباره حل المشاكل المختلفة ومن بينها مشكلة ظفار ، وكانت مشكلة ظفار قد ظهرت إلى الوجود في منتصف الستينات بسبب الأحكام الجائرة ، والأوضاع غير المقبولة التي فرضها العهد السابق على أبناء الشعب في عمان .

وتد حاول الأهالي أن يرفعوا أصواتهم بالشكوى أكثر من مرة ولكن أحدا لم يستمع إليهم ، أو يحاول رفع الظلم عنهم ، لذلك قاموا بانتخاب جماعة من بينهم لتذهب إلى مسقط وترفع شكواها إلى السلطان سعيد لعله يستمع إليهم ، ويحقق رغباتهم ، ويلبى مطالبهم ، ولكن السلطان كان لا يستجيب لشيء ، فأتجه لرفض كل حركات الإصلاح ، ومن هنا بدأت حركة ظفار ، وكانت الحركة وطنية خالصة .. إلا أن بعض الماركسيين والشيوعيين استغلوا هذه الحركة واندسوا في صفوفها باسم الوطنية ليحققوا المخطط الشيوعي الرامى إلى الاستيلاء على الجزيرة العربية والسيطرة على مقدساتها .

وفي سبتمبر سنة ١٩٦٨ بدأ الشيوعيون يخرجون من أثوابهم وتزعموا حركة لتغيير اسم جبهة تحرير ظفار إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي .

وانتهجت الحركة الخط الماركسى اللينينى وزعمت أن هذا الخط لا يتعارض مع الإسلام ، أو مع العقيدة الإسلامية ، وبالطبع كان هذا الزعم مجرد محاولة لتضليل العناصر الوطنية المنضمة إلى الحركة .

(١) عمان : الماضى والمستقبل ص ٨٧ .

وبدأت أهداف الحركة الدخيلة تتضح أكثر فأكثر عندما عاد بعض افرادها من بكين حيث كانوا فى دورة تدريبية ، وشكلوا مؤتمرا حزبيا فى يونيو سنة ١٩٦٩ •

وهنا اتضح لدى الثوار أن هذا الحزب هو حزب شيوعى قلبا وقالباً ، وأن الحركة خرجت من الخط الوطنى لتسير فى الخط الشيوعى فبدأ الناس ينفضون من حولها وبدأت الجبهة تهتز وتتخلخل •

وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٠ قام السلطان قابوس بحركة التغيير التاريخية ، وفتح الأبواب أمام جميع المواطنين لممارسة الحياة الطبيعية التى تمارسها الشعوب الراقية ، وأعلن السلطان قابوس أنه سيعفو عن جميع المتمردين فى ظفار الذين ثاروا ضد سياسة السلطان السابق ، وأنه يفتح أمامهم الأبواب ليعودوا إلى صفوفه ، واستجاب العديد منهم لدعوته ، وحملوا سلاحهم وعادوا إلى الوطن ورفضوا أن يعملوا فى صفوف الشيوعيين •

وأحدث هذا التحول ذعرا ضخما فى صفوف الشيوعيين فلبأوا إلى العنف والإرهاب والتنكيل بالمواطنين الأبرياء وقتل شيوخهم ونسائهم وأطفالهم • وأصبحت أرض ظفار نتيجة لذلك مسرحا للصراع بين الأفكار الوطنية المؤمنة بعروبتها وإسلامها وبين الأفكار الشيوعية المؤمنة بالماركسية واللينينية •

ومن المؤسف والمؤلم فى نفس الوقت أن هؤلاء المارقين المتمردين وجدوا من أرض اليمن الجنوبية قاعدة يحتشون بها ، ويتدربون على أرضها ، وينطلقون منها فى الظلام إلى قرى ظفار المسالمة ليقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال ويحرقوا المحاصيل والماشية ، ثم يعودوا من جديد إلى قواعدهم فى اليمن الجنوبية •

ونقول المصادر العمانية ^(١) : إن السلطان قابوس قد حاول أكثر من مرة أن يلفت نظر جيرانه إلى هذه الأعمال غير الودية ولكنهم رفضوا الاستماع إليه ، وانفاهم معه .

إزاء كل هذا الإرهاب ، وخوفا من خطر التسلل الشيوعي إلى باقى أنحاء السلطنة كان لابد للعهد الجديد في عمان أن يتحرك ، فقد تأكد قابوس أن حرب هذه الفئات الباغية الخارجة على مبادئ الدين الإسلامى ضرورة دينية ، واضطر لتخصيص نصف ميزانية البلاد للصرف على الحرب والقضاء على الفتنة الحمراء .

وبدأ يُعِدُّ الجيش المدرب على فنون القتال ليحمى حقوق الشعب العماني ومصالحه وأمنه ، واستطاع في أقل من عامين أن يجهز القوة الضاربة التى دخلت الحرب ضد المتمردين من أجل نصره قضايا الحق والعدل .

وتقف إلى جوار القوات المسلحة فرق شعبية قوامها الرجال الذين رفضوا القتال في صفوف الشيوعيين ، وآثروا العودة إلى صفوف السلطان والقتال تحت رايته .

على أن اتجاهات الإصلاح التى قام بها السلطان قابوس بالبلاد كانت خير رد على هذا التمرد ، فعاد الكثيرون إلى صوابهم وإلى التعاون لتحقيق الأهداف الوطنية التى اتجهت لها عمان في عهدها الجديد .

وفي العيد القومى لعمان في نوفمبر سنة ١٩٧٦ ألقى السلطان قابوس في اجتماع ضخم عقد في مدينة مسقط خطابا حافلا عدد المنجزات التى حققها والمشروعات التى ينوى السير في تحقيقها ، وكان أهم ما حققته البلاد الانتصار الشامل على حركة ظفار والدمل بجد لإعادة البناء للديار

التي خربتها هذه الحركة ، وإعادة المهجرين إلى دورهم ، وتحدث السلطان كذلك عن النهضة التعليمية الكبرى بالبلاد ، وعن السير نحو إيجاد مكان لكل طفل بعمان في المدارس ، وعن الاهتمام بالجانب القومي في التاريخ حتى يكون الجيل الجديد فخورا بما حققه أجدادهم من تطور وتقدم .

وتكلم السلطان عن مشروعات الصحة والإسكان والشباب والبتترول ، فرسم للبلاد مستقبلا طيبا ، كما تحدث عن مشاركة عمان للدول العربية في الجهود التي تبذل لتأييد الحق العربي بفلسطين ولخدمة قضية السلام بوجه عام .

والناظر إلى عمان يحس أن نافذة الضوء على عمان التي فتحتها السلطان فابوس قد اتسعت ، وتوجه دائما إلى مزيد من الاتساع ، والباخرة تسير .

حاضرة عمان :

خيئت على عمان سحابة قاتمة من التخلف خلال عهود الظلام التي تكلمنا عنها ، وزاد التخلف عمقا في عهد الاستعمار البريطاني ، فكانت عمان — كما يقول المفكرون العمانيون — نقطة هامة على سطح الأرض ، ولم يكن لها دور في حياة العرب أو المسلمين ، ولكن هذه الحالة الطارئة ينبغي ألا تنسينا ما حققته عمان قبل ذلك من أمجاد حضارية ، ولهذا نذكر هنا أبرز ما قامت به عمان في هذا الميدان ، ولعلنا قد أشرنا إلى بعض هذه المنجزات الحضارية في دراستنا السابقة .

وأول ما نبرزه أن عمان كانت الدولة الوحيدة بين الأقطار العربية التي كانت لها مستعمرات خارج المنطقة العربية ، نالت مكانتها بحسد السيف بعد أن طردت المستعمر الأوربي منها ، وبقيت عمان في هذه البقاع برغبة سكانها لتحميمهم من أطماع الغرب التي بدأت تظهر عقب طرد البرتغال .

ويتصل بهذا أن نذكر لعمان بكثير من الفخر أنها قاومت البرتغاليين بدون معونة من أحد ، وهى بهذا تعد فى صفوف الدول التى حطمت بالسيف قوى المستعمر العاشم وأذلته ، وألزمته أحيانا أن يدفع الجزية وأحيانا أن يستسلم .

ومن المواقف الحضارية التى تحسب لعمان دورها التجارى العظيم فى دنيا ذلك الزمان ، فقد غطت تجارتها أكثر دول آسيا وأفريقية ، وكانت لها السيطرة على أكثر بحار هذه المناطق كما كانت لها مراكز تجارية على جميع السواحل التى يرسو بها أسطولها التجارى العظيم ، وقد استدعت هذه الحركة التجارية النشطة تطهير ساحل ملبار من القراصنة الذين ينتمون إلى مختلف الجنسيات الآسيوية والأوروبية ، وهكذا سبق العمانيون الإنجليز إلى تلك السياسة التى ترمى إلى تأمين الملاحة التجارية فى المحيط الهندى (١) :

وقد أنجبت عمان صفوة ممتازة من الناس فى مختلف نواحي المجد فمنهم الأبطال ، ومنهم العلماء والقادة ، وفى قمة الأبطال العمانيين الذين عرفهم التاريخ الإسلامى المهلب بن أبى صفرة ، ومن علمائها صهار العبدى صاحب الخلفاء الراشدين ، وكعب بن سور قضى عمر بن الخطاب على البصرة ، والخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علم العروض وصاحب كتاب العين ، ومن خطبائها صعصعة بن صوحان ، ومن أجوادها مرة بن الوليد ، ويقال : إنه لم يكن فى الأرض أجود منه ، وكان رسول المهلب إلى الحجاج ، ومن فصاحتها بشر بن المغيرة ولم يكن فى الأرض أنطق منه ، ومنهم الربيع بن حبيب الفراهيدى وكان يضرب به المثل فى العلم ، ومنهم حمزة الشارى وهو من بنى سليمة ، ومنهم أبو بكر أحمد بن دريد صاحب الجماهرة ، ومنهم أبو العباس البرد صاحب كتاب الكامل وكثيرون جدا غيرهم ممن ذاع صيتهم فى ميادين السياسة والبطولة والعلم .

(١) السالى : تحفة الاعبان ج ١ ص ١٠ وما بعدها .

وقد عرف التاريخ مجموعة عظيمة من نساء مسقط شاركن بنصيب كبير في النشاط السياسى والاجتماعى ، وقد مر ذكر السيدة معازة التى كانت وصية على سالم وسعيد ابنى سلطان بن أحمد فأحسننت قيادة الأمر ، وظهرت كثيرات من النساء على رأس الثورات التى كانت تشتمل أحيانا ، وكان حجاب النساء فى مسقط أقل مما كان عليه فى البلدان العربية الأخرى (١) .

ويشتهر سكان عمان بالنظافة والدقة ، وقد كان هذا الاتجاه مما لفت أنظار الرحالة الأوربيين فقال Buckingham إنهم أنظف وأشد رقّة وأكثر أناقة من جميع العرب الذين صادفهم فى رحلاته (٢) .

Bohem : The Persian Gulf p. 6. (١)

Travels in Syria, Media and Persia vol 2 p. 413J, (٢)

صلات شخصية بعمان

ارتبطت بعمان منذ كتبت تاريخها السابق ، ثم تطورت الصلات بعد ذلك ، وأنا بطبيعة عملى شديد الرغبة فى تطوير الصلة بالبلاد التى أكتب عنها ، ففى مطلع حياتى العلمية اكتشفت مجموعة من الأخطاء وقع فيها الذين يكتبون تاريخ بلادهم وهم بعيدون عنها ، وقد صححت بعض هذه الأخطاء عند زيارتى للمواقع التاريخية ^(١) ، ومن أجل هذا كنت شديد الحرص على زيارة البلاد التى أكتب عنها ، وقد أتيت لى والحمد لله فرص متعددة لزيارة كثير من البلاد التى كتبت عنها ، ومن ضمنها سلطنة عمان .

وسلطنة عمان جذابة ، ناسها طيبون ، وتاريخها حافل بالغموض من جانب ، والمفاخر من جانب آخر ، وتاريخ كهذا فيه إغراء للمؤرخ ليحاول أن يكشف ما به من غموض ، وليستمتع بما به من مفاخر ، تضاف للمفاخر العربية والإسلامية .

وقد دُعيت لزيارة عمان عدة مرات سأتحدث عن أهمها فيما بعد ؛ ولكن الذى يعينى أن أبدأ به هو أننى خلال هذه الزيارات أو بعضها دُعيت لدخول بيوت بعض العمانيين ، وبهذا أصبحت هذه الزيارات بها لمسة عائلية ، وقد تركت هذه الزيارات أثرا كبيرا فى نفسى لأننى جالست العمانيين بعيدا عن الرسميات والفنادق ، فراعنى كرمهم الذى يصل إلى حد البذخ ، وسعدت ببيوتهم التى تحفل بالطنافوس وتزدان بجيد الأثاث .

وهناك نقطة أكثر أهمية هى أن عقل الرجل العمانى متفتح يستقبل أحدث الأفكار فيفكر فيها ويناقشها ، ولا يردّها — دون تفكير — كما يفعل غيره ، ومن هنا أتيت لجلوساتنا أن تشاهد عرض كثير من الإسرائيليات لتفنيدها ، فنناقشناها بصراحة مع أننى لاحظت أنه فى بعض البلاد الأخرى لا يوافقون

(١) انظر صورا من ذلك فى كتابى : التربية والتعيم فى الفكر الاسلامى ص ١١٩ - ١٢٠ .

على مناقشة مثل هذه الأفكار ، ويعدونها أصولاً إسلامية لا تحتل المناقشة (١) وفي هذا المجال لابد من تسجيل الإعجاب بعالمين جليلين من علماء عمان هما معالي الشيخ محمد بن أحمد مستشار السلطان للشؤون التاريخية والدينية ، وهو عالم جليل ، سمح ، واسع الأفق ، كريم المحيا ، وقد زرته في مكتبته ، ثم زرته مرة أخرى في المكتبة الحافلة التي أنشأها للاطلاع في « السيب » .

أما العالم الثاني فهو سعادة الشيخ يحيى بن عبد الله الزبهي ، وقد أمضيت سهرة علمية حافلة بمنزله العامر .

وفي هذا البيت وذاك دار حوار حول مجموعة من القضايا العربية والإسلامية ، فأسعدني أن العقل العماني يحسن التلقى ، واختبار ما يتلقاه ، كما يحسن تصدير ما اقتنع به غير مكبل بتقاليد ، وغير خاضع لجمود .

• تحية للعقل العماني السمع المنفتح •

مازن بن غضوبة والصنم الذي تكلم

ومن أمتع المواقف التي تدل على سعة أفق الإنسان العماني أن حلقة دراسية كانت قد عقدت عن الصحابي « مازن بن غضوبة » أول من أسلم من عمان ، وقد اشتركت في هذه الحلقة وكان النظام يقضى أن يكتب باحث دراسة متكاملة عن « مازن » وقد كُتِف بهذا العمل الباحث العماني الأستاذ أحمد بن مسعود السيابي ، ثم يقوم كل من الأساتذة الآخرين بكتابة بحث عن جانب من جوانب هذه الشخصية ، أو في موضوع عماني على العموم ، وكان الموضوع الذي اختير لي هو عن « مشاركة العمانيين في الفتوحات الإسلامية » .

(١) انظر بعض هذه القضايا في « الاسرائيليات والجمود وجرب أعلنها على الجبهتين » بكتابي « رحلة حياة » .

وهناك قضية متواترة عن « مازن بن غضوبة » خلاصتها أنه كان قبل الإسلام سادنَ أصنامٍ ، وأنه في يوم من الأيام ذهب ليقدم قربانا لصنمه « ناجر » ولكنه سمع صوتا ينبعث من جوف الصنم يقول له :

يَا مَازَنُ اسْمَعْ تَسْمَعُ تَسْلَمُ مِنْ حَرِّ سَقَرٍ
بُعِثَ نَبِيٌّ مِنْ مَضَرٍ بَدِينِ اللَّهَ الْأَكْبَرُ
فَدَعْ نَحِيَّتَا مَنْ حَجَرَ تَسْلَمُ مِنْ حَرِّ شَعَرٍ

واضطرب مازن عندما سمع هذه الأرجوزة ، ولعله ظن أن القربان كان أقل من مستوى الصنم ، ولذلك أعدَّ قربانا أكبر وذهب به إلى الصنم في يوم تالٍ ، ووضع بين يديه ، ولكنه سمع الصنم يقول له :

أَقْبِلْ إِلَى أَقْبَلْ تَسْمَعُ بِمَا لَا تَجْهَلُ
هَذَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ جَاءَ بِحَقِّ مَنْزَلٍ
أَمِنْ بِهِ كَيْ تَعْدِلَ عَنْ حَرِّ نَارٍ تَشْعَلُ
وَقُودُهَا كَالْجَنْدَلِ

وانبرى مازن يحطم الصنم ، واتجه للحجاز حيث قابل الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وأعلن إسلامه •

وهذه القصة كانت شائعة ومتواترة ومقبولة لدى الجميع • وتسربت إلى بعض المصادر التاريخية ، وليس هناك حوار عنها ، وتعرض لها أكثر المتحدثين في الندوة ومن أولهم الأستاذ أحمد بن مسعود •

وقد طلبت الكلمة لمواجهة هذه القضية ، وأعلنت سخريتي منها ، وذكرت أن الصنم لا يتكلم أبدا ، ولو كانت الأصنام تتكلم لكان أولى بذلك أصنام مكة المكرمة ، لتخفف من الاضطهاد والتنكيل الذي نزل بالرسول صلى الله عليه وسلم وبصحبة الأولين •

وقلت إن الشعر الذى رَوَى فى ذلك هو فى الحق يَنسب لمازن نفسه ، وهو عبارة“ عن حديث لمازن حدثتْهُ به نفسه ، وعندما نضع هذا الشعر فى ميزان النقد الأدبى ونقارنه بما نعرف من شعر مازن يتضح لنا أنه فى نفس مستوى شعره ، وطلبتُ من الزميل الذى كان يتكلم عن أدب مازن أن يضم المقطوعتين اللتين تنسبان للصنم إلى شعر مازن ، فاستجاب لذلك •

وكان هذا موقفاً خطيراً لفكرة مرت عليها القرون من مطلع الإسلام حتى الآن ، والعجيب أن العقل العمانى قبلها بهدوء ، وفكر فيها وارتضاها ، وصدرت صحف عمان فى اليوم التالى (الوطن الأسبوعى فى ١/١١/١٩٩٠) تذكر أن الأستاذ الدكتور أحمد شلبى فجر قضية مهمة وجدتُ قبولاً لدى السامعين أو أكثر على الأقل ، تحية للعقل العمانى المتحرر •

وقصة مازن وصنمه تذكرنى بقصة مماثلة لعلها تؤكد أن الشعر هو شعر مازن وأنه كان يحدث نفسه بهذه الأفكار •

والقصة الجديدة حدثت فى السودان وكان ذلك عقب عيد الأضحى ، فالرعاة السودانيون كانوا قد وهدوا بقطعان من الخراف والماعز على العاصمة قبيل العيد ليبيعوها إلى الراغبين فى تقديم الأضاحى ، وباع الرعاة الكثير ، ولكن بقى لديهم كثير من الخراف والماعز لم تجد من يشتريها ، فعاد بها الرعاة إلى القرى والنجوع ورأى شاعر سودانى تلك القطعان العائدة فتخيل خزيها وأسفها ، ونظم قصيدة ، نشرت فى حينها بالصحف السودانية ، وكانت القصيدة على لسان الخراف والماعز تبكى أسفها لأنها جاءت للمدن وهى حريصة على أن تمتع أهلها وأن تقدم لهم لحومها وصوفها وجلودها ، ولكن الناس أعرضوا عنها ، فعادت حزينة كاسفة البال راجية ألا يتكرر إهمالها عندما تفد مرة أخرى فى عيد مقبل •

على أن الأدب العربى يعرف ذلك كثيرا فى كتاب « كليله ودمنة » •

المهم مرة أخرى أن العقل العماني استجاب بسهولة لفكرة عرضتها
تتعارض مع تراث طويل لديه •

ونعود بعد ذلك للحديث عن زياراتي لعمان وعن أهدافها :

الزيارة الأولى : الاشتراك في ندوة الدراسات العمانية :

في سنة ١٩٨٠ دعا سمو الأمير فيصل بن علي بن فيصل وزير التراث
القومي والثقافة مجموعة من المفكرين المسلمين والغربيين للاشتراك في
« مهرجان التراث العماني » وحضور « ندوة الدراسات العمانية » التي
أقيمت في مسقط من أول نوفمبر إلى الثامن منه سنة ١٩٨٠ وذلك بمناسبة
احتفال السلطنة بعيدها الوطني العاشر في العهد الزاهر لحضرة صاحب
الجلالة السلطان المعظم : السلطان قابوس بن سعيد •

وسرعان ما اخترت موضوعاً أسهم به في هذه الندوة ، وفي الموعد
المحدد كنت هناك ، حيث التقيت بعدد كبير من الباحثين والدارسين دُعُوا
لهذه الندوة من الأقطار العربية والإسلامية والغربية •

وفي « مسقط » عشنا في رحاب وزارة التراث القومي والثقافة فترة رائعة
شاهدنا فيها عمان الحديثة ، وهي تصل تاريخها المعاصر بأمجادها القديمة ،
ونعمننا بالإخوة العمانيين الذين أحاطونا بكل مظاهر الكرم والحفاوة •

وكلمة حق لا بد أن يقال هي أن صاحب السمو معالي فيصل بن علي
ابن فيصل كان طيلة أيام الندوة يحيط الأعضاء والباحثين بكامل الرعاية ،
وكان يعيش معنا ، ويشترك بكل اهتمام في سير العمل ، مما أضفى على
الندوة جواً من الدقة والتوفيق •

وقد بدأت الندوة مساء السبت أول نوفمبر بحفل افتتاح رسمي كبير
حضره مجموعة من أصحاب السمو أفراد الأسرة المالكة الكريمة ، كما حضره
أصحاب المعالي الوزراء ومجموعة من علماء عمان الأجلاء ومن أعيان البلاد •

وابتداءً من يوم الأحد بدأ إلقاء البحوث والدراسات في الصباح والمساء وقد وُضع تخطيط دقيق لضمان حسن سير العمل ، فخصصت أربعة أيام هي أيام : الأحد والاثنين ، والأربعاء والخميس لإلقاء البحوث ومناقشتها أما يوم السبت ويوم الثلاثاء فقد خصّصا لرحلات داخل عمان ، وكان يوم الجمعة يوم راحة •

وقد لوحظ أن البحوث كانت غزيرة المادة ، وأن المناقشات كانت جادة ومثمرة ، مما أضفى على الندوة جوا من الاهتمام والنجاح •

أما الرحلات فكانت ممتعة حقاً ، فقد زرنا فيها المناطق العريقة في عمان ، ورأينا العواصم القديمة ، والقلاع الشاهقة ، وكم وقف الباحثون بإعجاب أمام قلاع جبرين ونزوى وبهلا وببت النعمان وحصن الصزم والرستاق •• ••

على أن إعجابنا بالقديم لم يصرفنا قط عن إعجابنا بالحديث ففى كل خطوة خطوناها ، وفى كل مكان وقفنا به ، كانت معالم النهضة الحديثة تنطق أمامنا بالتحية والإجلال للقائد هذه النهضة ، وباعت هذا المجد حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم ، الذى بعثته الأقدار ليقيم بنهضة شاملة فى هذا القطر العظيم ، وقد استجابت عمان ليد الإصلاح ، فإذا كل شئ نابض بالحركة . وإذا الأمل يفيق ، والخير يمتد ، ويعم الأرجاء •

وقد كانت لمسات التقدم ظاهرة فى كل مكان زرناء ، رأينا هذه اللمسات فى الإنسان العماني ، وفى العمران ، والطرق ، والحقول ، فى القرى والمدن ، مما دفعنا جميعا للدعاء لصاحب الجلالة بجسن الجزاء من الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا •

الإشراف على تصنيف وطباعة البحوث ،

وكان لى الشرف أن أَسند لى الإشراف على طباعة البحوث التى قدّمت
الندوة ، وهذا التكليف استلزم أن أقوم بالخطوات التالية :

أولاً — كتابة تاريخ موجز ومتصل لعمان حتى يستطيع أى «دارى»
ببحوث الندوة أن يضع كل بحث على خريطة التاريخ بسهولة .

ثانياً — تصنيف البحوث :

رغبة فى أن تخرج هذه البحوث فى شكل علمى اتجنت إلى تصنيفها
انحفاظة على التسلسل التاريخى بين بعضها والبعض من جانب ، وعلى
الوحدة فى كل مجلد من مجلدات هذا السهل من جانب آخر . ولهذا فسمت
البحوث للأقسام التالية :

- عمان فى العصور القديمة .
- تاريخ عمان ونشاطها الداخلى من مطلع الإسلام حتى الآن .
- عمان فى شرقى إفريقيا .
- مسلات عمان بالمنرب العربى .
- عمان فى مواجهة البرتغال .
- الحصون والعمران فى عمان .
- علاقات عمان الخارجية سياسيا وحضاريا واقتصاديا .

ثالثاً — تنفيذ الإصلاحات التى أشار بها الباحثون العمانيون :

كانت البحوث قد أُحيلت إلى مجموعة من الباحثين العمانيين لمراجعتها
قبل الطبع ، وقد أثبت هؤلاء الباحثون بعض الملاحظات المهمة ، وكان
على أن أضع هذه الملاحظات موضع التنفيذ .

رابعاً - الإشراف على الطبع والإخراج :

وهذا الإشراف استلزم إعداد الأكتشسيهات والخرائط والتنسيق والمراجعة ، ثم عمل الفهارس ، لضمان إخراج هذه المجموعة من البحوث في شكل يلائم المناسبة العظيمة لهذه الدراسات الرائعة .

ومن الاعتراف باليد لصاحب اليد أن نذكر أن صاحب السمو معالي وزير التراث القومي والثقافة السيد فيصل بن علي بن فيصل قد أولى هذا العمل كل العناية ، وكما رعى الندوة رعى إخراج بحوثها في أحسن سوب .

ومما يذكر أن هذه البحوث قد خرجت في ثمانية أجزاء بعنوان :

حصص

ندوة الدراسات العمانية

الزيارة الثانية لعمان : تكريم عالم فاضل من علماء عمان :

ومن الرحلات التي قمت بها إلى عمان رحلة للاشتراك في مهرجان لتكريم أحد علماء عمان البارزين هو الفقيه الفاضل الشيخ سالم بن حمود السبيبي ، وهو مؤلف لعشرات من الكتب في موضوعات مختلفة وشاملة ، ولعل أهمها كتابه « عمان عبر التاريخ » وهو يقع في خمسة أجزاء وكتاب « إرشاد الأنتم في الأديان والأحكام » وهو أيضا يقع في خمسة أجزاء وبعض مؤلفاته في الفقه مثل : القول المعتبر في أحكام صلاة السفر ، والعقود المفصلة في الأحكام المؤصلة

وقد كتبت بحثا طويلا عرضت فيه مؤلفات الشيخ وحلت أهم مناهجها .

الزيارة الثالثة : الاشتراك في كتاب عن « عمان في التاريخ » :

في سنة ١٩٩٠ اتجهت عمان للاحتفال بمرور عشرين عاما على نهضتها وارفه الظلال منذ بدأ عهد السلطان قابوس . وكان من الأعمال العلمية التي اتجهت وزارة الإعلام لإبرازها في هذه المناسبة أن دعت عددا كبيرا من المؤرخين لإعادة كتابة تاريخ عمان . واختير لي موضوع مهم في هذا التاريخ هو « تاريخ العواصم العمانية » .

والحق أن هذا الموضوع كان غامضا تماما ، ولم تسبق الكتابة عنه ، بل إن العواصم لم يكن متففا عليها . وقد زرت عمان بهذه المناسبة وتجولت في أنحائها ، واطلعت على كثير من المراجع . وقابلت عددا من علماء عمان وعدت لمصر ، وعشت في تصوراتى ومراجعى حياة خصبة كان من ثمارها ان كتبت بحثا مهما عن هذا الموضوع . يسرّنى أننى أضفته من قبل لهذا الكتاب في الصفحات من ٢٥٧ إلى ٢٨٧ .

هذا وإذا كانت لى صلات خاصة بعمان ، فإن لبلادى صلات خاصة بها كذلك ، فالإنسان المحرى لا ينسى أن سفارة عمان ظلت اعلامها ترفرف بالقاهرة . وظلت الصلات الدبلوماسية والثقافية متمسكة بين البلدين . يوم انتسبت باقى الدول العربية اتجاه العراق في مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٨ الذى قرر قطع العلاقات مع مصر وسحب السفراء .

وهذا يدل على عمق الروابط بين مصر وعمان . وعمق الاحتفال عمان في اتخاذ القرار .

اليمن:

- ١- الجُمهُورِيَّة العَرَبِيَّة اليَمَنِيَّة
- ٢- جُمهُورِيَّة اليَمَن الديمقراطيَّة الشَّعْبِيَّة

ثم الوحدة التي تحققت سنة ١٩٩٠

حدود اليمن

إن المحاولات التي تجرى في العهد الحاضر لتوحيد اليمن الشماليه واليمن الجنوبية ليست إلا عملاً يتقصد به إعادة الحق إلى نصابه ، فاليمن الشمالية واليمن الجنوبية يكونان على مر التاريخ دولة واحدة ولم يوجد الانفصال إلا بفعل تمزق يعم البلاد ، أو قوى أجنبية تحتل بعضها •

والكتب التاريخية التي بين أيدينا تضع حدود اليمن بحيث تشمل اليمن الشمالية واليمن الجنوبية ، ومن هذه المراجع ما يمتد بحدود اليمن الشرقية إلى الخليج العربي ، فيجعل المساحة الجنوبية من الجزيرة العربية الممتدة مع المحيط الهندي من البحر الأحمر إلى خليج عمان تكون دولة واحدة هي اليمن (١) وهؤلاء في هذا الاتجاه يتبعون ما عرف عن حدود اليمن قبل ظهور الإسلام ، فقد ذكر جورجى زيدان (٢) أن اليمن في التاريخ القديم كان يحدها من الشرق خليج العرب ، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، وذكر الهمداني (٣) أن بلاد اليمن تمتد من جنوب نجد والحجاز في الشمال إلى خليج عدن في الجنوب ، ومن حدود عمان والربع الخالي شرقاً إلى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غرباً ، وهناك نص قديم يرجع إلى عهد الملك شرحبيل بن يعفر (٤٢٥ — ٤٥٥ م) وهو مكتوب بخط المسند ويفيد هذا النص أن هذا الملك الذي امتد حكمه على هذه المناطق جميعاً قام بترميم سد العرب (مأرب) وفيما يلي فقرات من هذا النص :

شرحبيل ملك سبأ وريدان وحضرموت وبمئات وأعرابهم في الطور وتهامة ، قام بترميم سد العرم أى سد مأرب ، بأن سره (طهره) من

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٠ •

(٢) العرب قبل الاسلام ص ١١٩ •

(٣) صفة جزيرة العرب : ص ٥١ •

أكداس القراب من أسفله إلى أعلاه ، بغية تحويل المياه إلى العرم . وقد اشترك في العمل الكثيرون من قبائل حمير وحضرموت (١) .

وقد امتد اليمن في التاريخ الإسلامي فشمّل حضرموت في أكثر فترات هذا التاريخ ، فكان عمال الخلفاء على اليمن يتولون ولاية حضرموت أيضا في أكثر الأحوال ، ويعينون من قبلهم نوابا عليها (٢) .

ذلك هو الاتجاه العام بالنسبة لليمن وحضرموت ، ولكن هناك اتجاها آخر يميل له بعض الحضارمة ، وهو أن حضرموت غير اليمن تاريخا وحضارة ، وقد تمسك بهذا الرأي الأستاذ صالح بن سعيد . فقد انتهر فرصة رواية تشير إلى أن حضرموت جزء من اليمن فعلق عليها قائلا : لا يفوتني أن أذكر أنه ليس المراد أن حضرموت جزء من اليمن ، وإن كان بعض المؤرخين يطلقون عليها اليمن بوجه عام ، ولكن إذا أردنا الدقة فحضرموت دولة مستقلة لها تاريخها القديم المستقل وعاداتها وتقاليدها ، ومنذ فجر الإسلام كان الرسول يبعث لها بعوثا خاصة غير مكثف ببعوث اليمن (٣) .

ويستدل هذا المؤلف على رأيه برواية يقتبسها من ابن كثير في البداية ، وفيها يذكر ابن كثير عمال الرسول على اليمن وعلى حضرموت ويختتم ابن كثير روايته بقوله : وبعث معاذ بن جبل معلما لأهل البلدين : اليمن وحضرموت ، ينتقل من بلد إلى بلد (٤) . فيرى هذا المؤلف أن ابن كثير عدّهما بلدين .

(١) انظر النص كله في كتاب اليمن عبر التاريخ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) صالح بن حامد العلوي : تاريخ حضرموت ج ١ ص ١٦٨ .

(٣) دخول الإسلام إلى حضرموت ص ٢٧ (وانظر الهامش) .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠ .

أقسام اليمن الطبيعية :

تنقسم اليمن طبيعيا ثلاثة أقسام هي :

١ — منطقة تهامة ذات المناخ الحار الواقعة على ضفة البحر الأحمر ابتداء من المحيط الهندي إلى « حرص » شمالا بعرض خمسين كيلو مترا تقريبا ، وتمتاز أرضها بالخصوبة ، وتدفق المياه •

٢ — المنطقة الجبلية ذات المناخ الصحي المعتدل ، وتسمى منطقة الجبال « سلسلة جبال السارات » وتبدأ هذه المنطقة من أرض الغافر الحجرية جنوبا إلى الطائف شمالا بعرض حوالي ١٥٠ كم ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ١٠٠٠ و ٣٦٠٠ متر ، وهي من أهم المناطق لزراعة البن والحبوب ، وتهطل عليها الأمطار بغزارة •

٣ — المنطقة الصحراوية الشرقية ، وهي منطقة حضرموت حتى عمان شرقا ، وعرضها حوالي خمسمائة كم ، وفيها مناطق اليمن الأثرية ، ومدن معين وسبأ وقتبان ، كمأرب ، وصراوح ، وحريب ، ، وقد حظيت هذه المنطقة بازدهار عظيم في الماضي في المجال الزراعي والعمراني ، وتعتبر أقدم منطقة في العالم عرفت أساليب الري التي كانت تعتمد على السدود ، كسد مأرب ويسرين وغيرهما ، وفيها الكثير من بقايا القصور والهياكل مما يرجع بناؤه إلى عهد شهرة اليمن وتفوقه (١) •

تاريخ اليمن قبل الإسلام :

إن تاريخ اليمن قبل الإسلام تاريخ حافل ، ومن الممكن أن نقرر هنا حقيقة شهيرة ، هي أن اليمن حملت لواء حضارة مزدهرة فترة طويلة من الزمن ، ولعبت في التجارة دورا كبيرا ، كما كان لها دور عظيم في نشر الفكر الحضاري قبل الإسلام وبعده •

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٧ بتصرف •

وفي اليمن القديمة قامت إمارات كثيرة ، لم يكشف التاريخ بعد عن مكاناتها ، ولكن هناك خمس دول ذات أهمية كبرى ، نكلمنا عن أهمها في الجزء الأول من هذه الموسوعة . وهي بإيجاز كالآتي :

مملكة معين :

أقدم دول اليمن المعروفة هي دولة معين . وقد بدأت من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وظلت حتى ٨٥٠ قبل الميلاد وحلت محلها مملكة سبأ . وكان لمعين عاصمتان إحداهما سياسية وهي « معين » والثانية دينية وهي « بثيل » وسنتكلم كلمة فيما بعد عن هذه الدولة التي وضعت الأساس لحضارة اليمن ، ونشاطها في الداخل والخارج .

مملكة حضرموت :

وقد بدأت حوالي سنة ١٠٢٠ قبل الميلاد وظلت حتى سنة ٦٥ ميلادية ، وكانت عاصمتها « شبوة » وقد تغلبت عليها سبأ وخضعت أرضها .

مملكة قتبان :

وقد بدأت حوالي الألف الأول قبل الميلاد ، وكان لها الإشراف على باب المندب ، وكانت عاصمتها (تمنع) وسقطت سنة ٥٤٠ قبل الميلاد ، وقد ورثتها سبأ كما ورثت دولة معين ودولة حضرموت .

مملكة سبأ :

وقد قامت حوالي سنة ٩٥٥ قبل الميلاد وظلت حتى سنة ١١٥ ميلادية ، وكانت عاصمتها مأرب ، واتسع ملكها كما ذكرنا من قبل فشمل مملكة حضرموت ، ومملكة معين وقتبان ، وقد تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) .

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ١ ص ٩٨ من الطبعة الرابعة عشرة .

مملكة حمير :

ونسى دولة التبابعة ، وكانت عاصمتها (ظفار) وظلت حتى أسقطها
الاستعمار الحبشى سنة ٥٣٣ ميلادية .

حضارة اليمن القديمة

وينبغى أن نفرر أن أقدم سكان اليمن الذين سكنوا مملكة معين جاءوا
إلى هذه المناطق وافدين من أرض العراق ، وكانوا هناك من العمالة الذين
نالوا حظا وفيرا فى دولة حمورابى ، ثم وفدوا إلى اليمن ومعهم
حضارة زاهرة كانت أساسا للدور الحضارى الذى لعبوه فى موطنهم
الجديد .

ومع قيام دولة معين بدأت صلة كبيرة بين هذه المناطق وبين اليونان
ومصر ، وكانت موانئ اليمن الكثيرة تستقبل الحاصلات من الهند والصين
ودول جنوب شرقى آسيا ، وتصدرها إلى اليونان ومصر ، فكانت همزة
وصل بين هذه الدول .

وتتحدث النصوص التى عثرت عليها فى مصر عن الصلات التى كانت
تربط مصر بالمعنيين ، كما تقرر أن جالية معينة كانت تعيش فى مصر ،
وأن المعنيين كانوا يقومون بتزويد معابد مصر بالبخور (١) ، وصلات
اليمن باليونان ومصر وصلاتها بالفرس والهند والشرق الأقصى جعلها على
علم بما كان يوجد فى هذه الأقطار من علوم وفنون مما جعل التبادل لا
يتوقف عند السلع ، بل يشمل الأفكار والحضارات .

وقد خلفت سبأ وحمير آثارا تدل على العظمة والرقى ، وهى تشمل
كثيرا من الأطلال والنقوش ، كما كان لها أسطول ضخمة ينقل البضائع

(١) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٣٩٧
وما بعدها .

بين موانئ الهند والصين وسومطرة والصومال بحيث كانت التجارة شبه احتكار في يدها (١) .

ومن اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل برية تسيطر عليها اليمن أيضا ، قبل أن ينتقل مركز هذه القوافل إلى مكة ، فقد كانت سبأ إبان عظمتها التجارية تسيطر على طرق النقل التي تجتاز المحجاز متجهة شمالا حتى موانئ البحر المتوسط ، وكانت لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط ، ويرى الدكتور حتى أن بلقيس لم تكن ملكة على بلاد اليمن ، وإنما كانت ملكة على أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية سائلة الذكر (٢) .

وقد كان تجار اليمن من الذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم ، فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التي كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض الرومان واليونان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن (٣) .

وقد كتب الهمداني (٣٣٤ هـ) مجموعة كبيرة من الكتب وصف فيها حضارة اليمن كما شاهدها ، وتحدث بإفاضة عن آثار سبأ وحمير من الحصون ، والقصور ، والمعابد ، والسدود ، وصهاريج المياه وقنوات الري ، والأبراج ، وتمائيل الرخام والبرونز ، وجلاميد الصخر الهائلة المنحوتة نحتا فنيا رائعا إلى غير ذلك من زخرفة الحيطان وسقوف الأبنية والمعابد بالذهب والفضة والبرونز ، وغيرها من المعادن التي استطاعوا

(١) Peciplus of the Erytarasan Sea Translated from the Greck.

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٥٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٩ - ٦٠ .

استخراجها من بطون الأرض ، واستخلصوها مما خالطها ثم استعملوها
أروع استعمال (١) .

الأديان في اليمن قبل الإسلام :

وقد انتشرت في اليمن الديانة التي كان القمر فيها يعد إلها ، وهي
إحدى الديانات الرئيسية التي كانت تسيطر على جنوب الجزيرة منذ عام
ألف قبل الميلاد ، أى منذ مطلع عهد مملكة سبأ ، وعاشت بهذه المناطق
حتى دخلت الديانة اليهودية اليمن في مطلع القرن السادس الميلادي ،
ولكن هذه لم تعمر باليمن كثيرا ، فحلت محلها الزرادشتية على يد الفرس ،
ثم الديانة المسيحية على أيدي الأحباش ، وظلت المسيحية باليمن حتى
جاء الإسلام ، ويبدو أن كثرة الأديان باليمن واضطراب هذه الأديان لم
تدع لأى منها فرصة للتعمق في ذهن اليمنيين ، فلما جاء الإسلام رحّبوا به .

وقد عرّف تاريخ اليمن القديم النظام الدستوري ، والمجالس النيابية
والقبلية التي كانت تمثل بها القبائل تمثيلا يترك لها مجالا واضحا في
السلطات التنفيذية .

كما عرفت اليمن بناء السفن ، وفن الملاحة بما يستتبعه من علوم
فلكية وطبيعية ، كما كانت قصور اليمن نموذجا ظل بعد الإسلام لما كان
لله من جلال وجمال .

اليمن فريسة الاستعمار :

سقطت اليمن فريسة الاستعمار سنة ٥٢٣ ميلادية ، وقد وضحنا في
الجزء الأول من هذه الموسوعة ظروف امتداد نفوذ الحبشة إلى اليمن ،
وقد ظل الأحباش باليمن اثنتين وسبعين سنة ، ثم انتصر عليهم الفرس

(١) أنظر كتاب : صفة جزيرة العرب ، والجزاء التي عرفت من
كتاب الاكليل للهمداني ، وحديث الاستاذ أحمد شرف الدين عن الهمداني
وكتبه .

وطردوهم منها (١) ، وكان مع الفرس أحد أولاد ملوك حمير واسمه سيف بن ذى يزن ، وقد عينه ملك الفرس حاكما على اليمن ، ولكنه قتل على يد الذين استبقاهم لخدمته من الأحباش وقيل قتل بتدبير الفرس ، وتشتت شمل اليمن بقتل سيف بن ذى يزن ، وقامت باليمن طوائف متعددة ، ودويلات كثيرة لكل منها ملك ، وعين كسرى وهرز حاكما لليمن ، وكان سلطانهم فوق سلطان ملوك الطوائف (٢) .

وبعد وهرز حكم أبناؤه وأحفاده على ما ذكرناه في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، حتى آل السلطان إلى يد باذان الذى عينه كسرى ، والذى ظهر فى عهده الإسلام ، وبعث له رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم يطلب دخوله هذا الدين ، فى الوقت الذى بعث فيه للملوك والرؤساء فى مناطق الجزيرة وما حولها ، وتذكر الرواية أن كسرى عندما جاءه رسول محمد ثار وأرسل إلى باذان نائبه باليمن يطلب منه أن يرسل رجلين شديدين إلى مكة ليقبضا على محمد تمهيدا لإرساله إلى كسرى ، وبدأ باذان ينفذ ما أمر به ، فأرسل الرجلين إلى رسول الله ، ودخل الرجلان على محمد وأخبراه الخبر فقال محمد لهما : قولاً لمن أرسلكما أن ربي قتل ربه ، وكان قد أوحى للرسول أن شبرويه ابن كسرى قتله ، وعاد الرجلان بهذه الرسالة ، وكان خبر القضاء على كسرى لم يصل إلى اليمن ، فقال باذان : إن صدق محمد فهو نبي حقا ، وبعد فترة قصيرة وردت الأخبار بذلك ، فأمن باذان وآمن معه كثير من السكان ، وبدأ الإسلام ينتشر فى اليمن .

(١) تاريخ الطبرى : ج ١ ص ٥٥٨ .

(٢) صالح بن حامد العلوى : تاريخ حضرموت ج ١ ص ١١٣ .

الإسلام في اليمن

فتح إسلام باذان الطريق لانتشار الإسلام بنواحي اليمن ، وكان التخلص من نفوذ الفرس من أهم العوامل التي دفعت السكان لاعتماد الإسلام .

وفي عام الوفود مكرمت من اليمن ، ومن حضرموت وفود متعددة ، ومنها وفود كندة وهمدان وخولان والنخع والصدف وعذره وجهينة ومراد غيرها .

وكان وفد كندة برئاسة الأشعث بن قيس الكندي صاحب مرباع حضرموت ، وله ولأولاده تاريخ قلق أبرزناه في الجزء الأول والثاني من هذه الموسوعة ، ويقولون أن وفد كندة كان أهم وفود اليمن للرسول ، وقد كان هذا الوفد مثالا للروعة وحسن الهيئة ، وكان يتكون من ثمانين عضوا ، كل واحد منهم متأنق في لباسه وهيئته ومركبه ، وكان الأشعث رئيس الوفد من ملوك كندة ، وصاحب مرباع حضرموت .

وكان وفد همدان برئاسة مالك بن الخطهمداني ، ومالك بن أيفع الهمداني .

وكان وفد حمير برئاسة الحارث بن عبد كلال الحميري ، ونعيم بن عبد كلال ، وكان وفد مراد برئاسة فروة بن مسبك المرادي .

ومن العظماء الذين وفدوا على الرسول من اليمن وائل بن حجر بن ربيعة وكان من أبناء الملوك باليمن ، فأدناه الرسول منه وأجلسه على رداءه ثم أقطعه الرسول أرضا وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان ليعلمها إليه ، فركب وائل ناقته ومشى معاوية خلفه ، ولما شق المشى على معاوية طلب من وائل أن يردفه خلفه ، فقال وائل : لست كفئا لأن تكون ردفا .

وقد عاش وائل حتى أصبح معاوية خليفه ، فوفد وائل عليه بدمشق ، فأكرمه معاوية وأحسن إليه فقال وائل : وددت لو كنت حملته بين يدي (١) .

ومن مشاهير الذين وفدوا من اليمن أبو موسى الأشعري ، وأخوه أبو بردة ، وياسر بن عمار العنسي والد عمار بن ياسر (٢) .

عمال الرسول على اليمن :

لما أسلم باذان أقره الرسول على مكانته باليمن وأيا على جميع مخاليف اليمن ، وقد اتخذ صنعاء عاصمة له وبقي بها حتى مات بعد حجة الوداع ، فقسم الرسول اليمن إلى عشر عمالات ، عين عليها ولادة من قبله كما يلي :

• شهر بن باذان على جانب من صنعاء .

• وعامر الهمداني على الجانب الآخر من صنعاء .

• وظاهر بن أبي هالة الأسدي على مك .

• وزيادة بن ليبيد على حضرموت .

والمهاجر بن أبي أمية أخى أم سلمة على كندة وقد تولى زياد بن ليبيد إمارة كندة بالنيابة عن المهاجر الذي منعه المرض من الذهاب لها عقب توليته إياها .

• وعكاشة بن ثور على السكاسك والسكون .

• وأبو موسى الأشعري على زبيد .

• وخالد بن سعيد على نجران .

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ، والاصابة .

(٢) تحدث ابن حجر العسقلاني في كتابه « الاصابة في تمييز الصحابة » عن أبرز شخصيات هذه الوفود أحاديث واسعة .

ويعلى بن منبه التميمي على الجند *

وعمر بن حزم الأنصاري على بعض مناطق حضرموت *

وبجوار هؤلاء الولاة أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم دعاة وقضاة إلى اليمن ، ومن هؤلاء : أبو عبيدة بن الجراح الذي أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران حينما سأله قادة هذا الوفد أن يبعث لهم إلى اليمن رجلاً أميناً ، فنظر الرسول إلى أبي عبيدة بن الجراح وقال له : قم يا أبا عبيدة معهم ، فأنت أمين هذه الأمة (١) .

ومن هؤلاء كذلك على بن أبي طالب الذي بعث به الرسول ليتولى منصب القضاء باليمن ، ولما تردد على خوفاً من هذا المنصب قال له الرسول : إن الله سيهدي لسانك ويثبت قلبك ، وكانت وجهته رضى الله عنه صنعاء ومخالفها ، ومنهم كذلك معاذ بن جبل الذي اتجه إلى الجند ومخالفه ، وهكذا شمل الدعاة أقسام اليمن الكبرى .

ويتضح مما ذكرناه أنفاً عن عمال اليمن أن الانقسام أصبح واضحاً في هذه المنطقة ، ذلك الانقسام الذى عرفه تاريخ اليمن قبل ذلك كما اتضح من الوفود التى جاءت شبه مستقلة لتعلن الرسول إسلامها .

اليمن في عهد الخلفاء الراشدين

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وفي مطلع هذا الجزء (السابع) عن المشكلات التى واجهها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، وهى المرتدون ، ومانعو الزكاة ، والمتنبئون ، وذكرنا أن عدم تعمق الإسلام فى بعض النفوس جعلهم يستجيبون لكل ثورة تعمل لتخليصهم من تكاليف الإسلام المادية كالزكاة — أو التزاماته العقائدية

(١) بدر العيني : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان : مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ ج ٧ ورقة ٦٥٤ .

كالتوحيد والعبادات ، ونريد هنا أن نقول : إن اليمن أسهم بنصيب كبير في هذه الثورات المضادة للإسلام ، وإنه قامت به أكثر هذه الحركات ، وكانت باليمن أسباب كثيرة تمهد لهذا التمرد والانحراف عن الإسلام الصحيح ، فقد كانت هناك منافسات عميقة الجذور بين الحضر باليمن والبدو في وسط الجزيرة ، ورأى اليمن أنه سيفقد سلطانه نهائيا إذا أصبح الحجاز مركز السلطة ، ثم إن ملوك الطوائف باليمن أصبحوا مرعوسين للعمال الذين عينهم الرسول على مناطق اليمن ، وكان هؤلاء الملوك يحرصون على مكانتهم ويرون أن خضوعهم لعمال المدينة فيه مهانة لهم ، وكانت هناك كذلك الاضطرابات الفكرية المنتشرة باليمن بسبب الاتجاهات الدينية والفكرية الكثيرة التي عرفها اليمن بسبب موقعه وظروفه ، فقد وفدت على اليمن اتجاهات دينية مع التجار الوافدين أو المعائدين من الهند ومن الشرق الأقصى ، وانتشرت في اليمن اليهودية عندما تهود حاكمها ، وحكم الفرس اليمن فجلبوا الزرادشتية معهم ، وحكمها الأحباش ففرضوا المسيحية ، وكانت الوثنية دينا شائعا بين العرب ، وكل هذه الأسباب حالت دون تعمق الإسلام في النفوس ، وهيات لإثارة الشغب في مناطق اليمن وما جاورها ، وقد هبت الحركات المضادة للإسلام في أواخر عهد الرسول ، واتسعت في عهد أبي بكر الصديق ، والحق أنه ليس يعني أن تسمى الحركة بمانعى الزكاة أو المرتدين أو المتنبيين ، فكلها تنبع من معين التمرد ، وتصب فيه ، وكانت إذا فشلت حركة انضم أتباعها إلى أية حركة أخرى تحمل لواء العصيان • وفيما يلي كلمة عن أشد حركات اليمن •

الأسود العنسي :

ادعى الأسود العنسي النبوة في بلاد مذحج حيث كان يتكهن هناك في أحد الكهوف (١) وكان له مريدون افقتنوا به ، فهب بهم يعان نبوته وسمى نفسه « رحمان اليمن » وقد استطاع أن يدخل نجران التي تجاور

(١) النويري : نهاية العرب ٣ ص ٣٧٩ .

بلاد الحجاز وأجلى عنها خالد بن سعيد ، وتبعه كثيرون من نجران فاقتحم بهم صنعاء ، وقتل نسر بن باذان وتشت جيشه وتزوج امرأته ، وعلا شأنه في اليمن ، وكان ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول آنذاك يعد العدة للزحف على الروم بالشمال وقد طرأت فكرة ان يتجه الجيش الذي أعد للشمال ليضرب الأسود باليمن ، ولكن الرسول اثار ان تبقى خطته دما هي ، إذ ظهرت في بلاط هذا المتنبى موجه من المؤامرات اغت عن شن حملة عسكرية عليه ، وكان في قمة هذه المؤامرات حركة قادتها زوجته وألها نقمة عليه بسبب زواجه من امرأة شهر بن باذان ، ونجحت دده المؤامرات ، فقتل الأسود العنسي غيلة بهؤامرة دبرتها هذه الزوجة مع بعض خصومه في سكون الليل ، وكان ذلك ذبل وفاة الرسول بيوم أو يومين ^(١) وكانت مدة ظهور العنسي حوالي أربعة شهور ^(٢) .

وبعد مقتل الأسود العنسي ووفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسل أبو بكر أحد جيوشه بقيادة المهاجر بن أبي أمية للقضاء على ما تبقى من أتباع الأسود ، ثم للقضاء على ثورة كندة بحضرموت التي ستمحدث عنها فيما يلي :

الأشعث بن قيس :

أظهر الأشعث بن قيس الكندي التمرد في حضرموت عقب وفاة الرسول ، ثم حدثت حادثة جعلته يعلن المردة ، فقد كانت طوائف من كندة قد أعلنت ردتها ، فحاربها زياد بن لبيد ، وأسر منها كثيرا من النساء ، وقد مر وفد النسوة بالأشعث فنادين منتحبات باكيات لينفذهن من الأسر ، فهب الأشعث يعلن تمردا شاملا في كندة وحضرموت ، ويعلن وقف دفع الزكاة ، ولكن فواد المسلمين تدافعوا نحو هذه المناطق بجيوشهم الكبيرة ، فقبضوا على الأشعث وهزموا جيشه ، فشد المهاجر بن أبي أمية

(١) انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٣٠ وفتوح البلدان للبلاذري ١٠٦ .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب القسم الثالث ص ١٢٦٥ .

وثائق الأشعث وأرسله إلى أبي بكر ، وقد درخ فيه أبو بكر قائلا : أكثر بعد إيمان يا أشعث ؟ فأجاب الأشعث : لا ولكننا شححنا بأموالنا * وتاب الأشعث فقبل أبو بكر توبته ، وتزوج هذا أخت أبي بكر فيما بعد ^(١) ، وقد أوردنا في الجزأين الأول والثاني من هذه الموسوعة دراسات عن أخلاق أسرة الأشعث تدل على أن مبادئ الإسلام لم تتعمق في نفوس هذه الأسر ، وقد اشترك في حرب الأشعث مع المهاجر زياد بن ليبيد وعكرمة ابن أبي جهل •

أهل مهرة :

وارتد أهل مهرة في موجة التمرد التي شملت جنوب الجزيرة ، فأرسل لهم أبو بكر عكرمة بن أبي جهل عقب الخلاص من مسيلمة فتحقق النصر على يديه •

وفاء أهل اليمن إلى الإسلام كما يقول تاج الدين اليماني ^(٢) واتبه أبو بكر إلى جميع وحدات اليمن لتكون تحت أميرين فقط ، فجعل عبد الله بن أبي ربيعة على الجند ومخاليفه ويعلى بن منية التميمي ^(٣) على صنعاء وأعمالها ، وكان والي صنعاء يتولى حضرموت أيضا ويعين من قبله نوابا عليها •

واستكمالا للحديث عن ولاية اليمن في عهد الخلفاء الراشدين نذكر أن عمر بن الخطاب أقر عبد الله ويعلى في عمليهما ، ثم عزل عمر^٢ يعلى لشكاية فيه واستعمل بدله المغيرة بن شعبه على صنعاء ، فلما عاد يعلى إلى عمر دافع عن نفسه وأظهر بطلان الشكاية فردده عمر إلى عمله بعدد سنتين •

(١) ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٦٩ •

(٢) بهجة الزمن في تاريخ اليمن ص ١٥ •

(٣) نسبة إلى أمه وأحيانا ينسب إلى أبيه فيقال يعلى بن أمية •

وفي عهد عثمان أقر الخليفة النوايين في مكانهما ، فلما جاء على ابن أبي طالب استعمل ابن عمه عبيد الله بن العباس على جميع اليمن ، ففارق يعلى وعبد الله بن أبي ربيعة اليمن ، وأتيا مكة ، وانضم يعلى إلى طلحة والزبير وعائشة وأعانهم بمال وإبل ، واستمر عبيد الله باليمن حتى أدبر أمر على (١) .

الفتوحات الإسلامية وأهل اليمن

عندما انتهت مشكلات التمرد بالجزيرة العربية ، وعادت الجزيرة إلى الطاعة ، بدأ التوسع الإسلامي في الشمال ، وقد حملت اليمن عبئا ضخما في الصراع ضد الفرس والروم ، ويذكر المؤرخون أنه عندما تلقى خطاب أبي بكر داعيا أهل اليمن للجهاد استجابوا بحماسة لهذه الدعوة حتى يخدموا راية الإسلام من جانب وحتى يتجهوا بنشاطهم العسكري إلى أعداء العرب من جانب آخر ، وسرعان ما نهض عدد كبير من قبيلة ذي الكلاع بقيادة زعيمها ذي الكلاع الحميري ، ومن قبيلة مذحج بقيادة زعيمها قيس بن هبيرة ومن قبيلة روس (الأزد) بقيادة زعيمها جندب ابن عمر الروسى ، ومن طيء بقيادة زعيمها حابس بن سعد الطائي ، ووصل هؤلاء جميعا إلى أبي بكر في يوم واحد ، وكان عددهم يزيد على العشرين ألفا بكامل سلاحهم وعتادهم ، فبعثهم أبو بكر إلى العراق والشام فجاهدوا أصدق جهاد ، وأبرزوا أعظم بلاء (٢) .

وكان معظم الجيش الذي اعتمد عليه عمرو بن العاص في فتح مصر من اليمنيين الذين ينحدرون من عك وغافق ، ومن لخم ، وراشده (٣) ويرجع الفضل في اقتحام حصن الفرما إلى سميدع بن وعل السبيء ، كما أبلى اليمنيون بلاء حسنا في حصار حصن بابليون (٤) .

-
- (١) تاج الدين اليماني : في تاريخ اليمن ص ١٥ .
(٢) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٦٨ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٦ - ٥٨ .
(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٢ وما بعدها .

اليمن بين عثمان وعلي :

اختلف اليمنيون إبان الثورة على عثمان ، فمال أكثرهم إلى علي بن أبي طالب ، الذي كان يعتبر منافسا لعثمان ، ومن أجل هذا كانت اليمن أحد مراكز الثورة على عثمان ، ولما آلت الخلافة إلى علي وعارضه معاوية أخذ اليمنيون مكانهم في صفوف علي ، وكانت همدان شديدة الحماسة لعلّي في صراعه ضد منافسيه *

ومن الشخصيات اليمنية التي برز اسمها في تاريخ الصراع الذي خاضه علي كرم الله وجهه مالك بن الأشتر النخعي اليماني الذي كان كبير القواد في جيش علي ، وأبلى أحسن البلاء في موقعتي الجمل وصفين * ومنهم كذلك البراء العذري الهمداني الذي كان في جيش معاوية ثم تركه وانضم إلى جيش علي ، عندما رأى معاوية يمنع الماء عن جيش علي ، ومنهم سعيد بن قيس الذي يعتبر أحد فرسان العرب المحدثين وأحد الدهاة الخمسة : معاوية وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد ابن عباد ، وسعيد بن قيس *

اليمن في العهد الأموي

كان معاوية يدرك انحياز اليمن إلى علي بن أبي طالب ، ومن أجل هذا نجده عندما ضعف أمر علي إبان صراعه مع الخوارج والأمويين * يتجه معاوية لضم اليمن إليه ، واستعمل في سبيل ذلك صورا من القسوة والعنف ليثبت أمره بهذه البلاد ، فأرسل لها جيشا كبيرا بقيادة رجل عرف بالقسوة والشدة هو بسر بن أرطاة العمري ، وأمره أن يقتل شيعة علي وكل أنصاره ، ولم يستطع عبید الله بن العباس أن يقصدى لهذا الجيش فترك اليمن عائدا إلى الكوفة تاركا أهله وذويه باليمن ، ودخل بسر صنعاء ، فقتل ولدين لعبيد الله بن العباس ، كما قتل كثيرا من أنصاره ، وقد دفن الولدان في مكان بنى به مسجد ^(١) يسمى مسجد الشهيدين *

(١) الهمداني : الاكليل ج ٨ ص ٦٦ *

ولم يسكت على بن أبي طالب على هذا التصرف فأرسل جيشا كبيرا بقيادة حارثة بن قدامة السعدي ، ولم يستطع بسر أن يلتقي بهذا الجيش الكبير فولى الأدبار ، ولكن وفاة على بعد ذلك ضمت اليمن نهائيا إلى معاوية مع أجزاء العالم الإسلامي المخلفة التي دانت له .

وقد بذل الأمويون جهودا كبيرة في تغريب اليمنيين لينتفعوا بهم وبجهودهم ، وليأخذوهم درعا يستعينون به ضد غير العرب ، وضد أعدائهم . وقد تزوج معاوية امرأة كلبية يمانية ، وأنجب منها ابنه وولى عهده يزيد ، ومن أجل هذا كانت قبيلة كلب اليمانية هي التي استطاعت أن تعيد السلطان إلى الأمويين وكان على وشك أن يزول بقيام ابن الزبير ، فبواسطة كلب قهر مروان بن الحكم عرب الشمال في مرج راهط وبدأت انتصارات الأمويين على ابن الزبير ^(١) ولعل هذا هو الذي دفع جورجي زيدان إلى أن يقول : إن أكتاف اليمانية هي التي رفعت عرش الدولة الأموية (٢) .

وقد اتجه اليمنيون بكل قواهم للمساعدة في حركة الفتوح الواسعة التي خاضها الأمويون وبرزت من القادة اليمنيين أسماء الكثيرين مثل عبد الرحمن الغافقي العكي اليماني بطل الفتح الإسلامي في أسبانيا ، وأمير الأندلس السمح بن مالك الخولاني فاتح قرطبة ، وأسد بن عبد الله القسري الذي كافح بإصرار في خراسان ليحافظ على ملك الأمويين بها ضد حركات الشيعة التي ظهرت هناك .

يبدو أن نشاط اليمنيين في الأندلس كان واسعا بدليل ما عرف من قلاع تنسب إلى قبائل يمنية مثل قلعة همدان في قرطبة ، وقلعة خولان في غرناطة وقلعة يحصب في أشبيلية ، ولا عجب أن يستقبل اليمنيون على أماكن الخصب بالأندلس أو الشام ومصر ، فقد كانت لهم والأجدادهم جنود في معاناة الزراعة والعيش في رحابها .

(١) انظر كتاب اليمن وحضارة العرب للاسناذ عدنان ترسيص ص ٨٩ .

(٢) التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٢ .

أما عن ولاية الأمويين في اليمن فقد تحدث عنها تاج الدين اليماني ،
ومنه نقتبس قائمة هؤلاء الولاة :

- عثمان بن عفان الثقفي
- عتبة بن أبي سفيان
- النعمان بن بشير الأنصاري
- سعيد بن دادوية (من أبناء الفرس ^(١))
- الضحاك بن فيروز الديلمي
- يزيد بن بوجير الحميري

ويلاحظ أن هؤلاء الولاة كان لهم أمر اليمن كله .

وقد ظل الموالي الأخير في السلطة حتى مات يزيد بن معاوية ، وظهر أمر عبد الله بن الزبير فأطاعه أهل اليمن إلا القليل منهم ، فولى ابن الزبير على اليمن عددا كبيرا من الولاة ، كان بعضهم لا يبقى في منصبه أكثر من بضعة شهور ثم يعزله ابن الزبير ، ومن ولاية ابن الزبير على اليمن ، عبد الله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعبيدة بن الزبير .

ولما عاد سلطان الأمويين على اليمن توالى أمراؤهم على النحو التالي :

- محمد بن يوسف الثقفي (أخو الحجاج)
- أيوب بن يحيى الثقفي
- عروة بن محمد السعدي
- مسعود بن عوف الكلبي
- يوسف بن عمر الثقفي
- السلطان بن يوسف بن عمر الثقفي

(١) ترى بعض المراجع أن الذي تولى بعد النعمان بن بشير هو مشير بن سعد الأعرج .

- مروان بن محمد الجعدى
- الضحاك بن واصل
- القاسم بن عمر الثقفى

ونشب آنذاك صراع باليمن قاده عبد الله بن يحيى الحضرمى الخارجى ،
وفد استنفذ هذا الصراع كثيرا من جهد الأمويين ، ولما استعادوا سلطانهم
على بلاد اليمن ، ولى مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الوليد بن عمر ،
فكان هذا آخر ولاية الأمويين باليمن •

بين اليمن وحضرموت

رأينا القبائل باليمن الكبرى تشترك بحماسة وافرة فى حركة الفتوح
التي بدأت فى عهد الخلفاء الراشدين ، واستمرت فى العهد الأموى ، ولكن
يبدو أن هناك فرقا خلقتة الطبيعة بين اليمن وحضرموت ، فاليمن استعادت
كثيرين ممن خرجوا منها بسبب ما تنعم به من خصب ورخاء ، أما حضرموت
فقد دفعت بفلذات أكبادها إلى الميادين المختلفة بالأقطار المتعددة ،
واستطاب أكثر هؤلاء تلك المناطق التي نزلوا بها ، فأقاموا فيها ، وتخلوا
عن حضرموت إلا بارتباط الذكرى ، وتراث الأجداد ، وتحدد المراجع
التي بين أيدينا تلك القبائل التي نزلت هنا وهناك فى رحاب المعالم
الإسلامى الذى كان يعد وحدة واحدة لا يحس الإنسان بغربة فى أى
منطقة من المناطق يعيش بها ، وبناء على المراجع التي نتدارسها سكنت كندة
الكوفة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يطول مقامهم بها لأنهم كانوا عثمانية ،
وكانت الكوفة شيعية النزعة ، فكان سكانها يتناولون عثمان بمالا يرضى
الكنديين ، فنقلهم معاوية إلى الرها من أرض الجزيرة ، ولم يبق منهم
بالكوفة إلا من كان شيعى النزعة •

وفى الشام سكن عدد كبير من كندة ، ومن قبيلة حضرموت كنفي بن
مالك الحضرمى ، وعمر بن عبد الله الحضرمى وكان من قدم حمص

مع أبى عبيدة ، وقد اتجهت قبيلة السكون إلى حمص فنزلت بها ومن زعمائها صالح بن شريف السكوني ، كاتب أبى عبيدة ، والحصين بن نمير السكوني الذي استخلفه مسلم بن عقبة بعد وقعة الحرة وكثيرون سواهم •

وفي مصر نزل عدد كبير من قبيلة الصدف ، وقبيلة حضرموت والسكون ، ومهرة وكندة ، وقد نزل هؤلاء الفسطاط والفيوم ومنفلوط ، وانتشروا في محافظتي الشرقية والقليوبية وغيرهما وسارت جماعات من القحطانيين حتى حطت رحالها في ليبيا ، كما نزل عدد كبير من الحضارمة بالحجاز •

ونبع في الفقه الإسلامي عدد كبير من الحضارمة فقولوا مناصب القضاء في عدة أمكنة ، ففي مصر عين سليمان بن عثر النجيبى للقضاء في عهد عبد الله بن أبى سرح ، ويونس بن عطية في عهد عبد العزيز بن مروان وتولى بعد يونس ابن أخيه أوس ، وفي الكوفة تولى سلمة بن كهيل وأوس بن ضميج •

الحضارمة في جنوب شرقى آسيا :

وربما جاز لنا أن نقفز قفزة زمنية واسعة لنقرر أن الحضارمة في العصر الحديث لعبوا نفس الدور الذى لعبه أجدادهم في الزمن الماضى ، فتركوا حضرموت واتخذوا وجهتهم نحو جنوب شرقى آسيا ، وبخاصة في إندونيسيا ، وعندما طاب لهم المقام هناك أقاموا واستوطنوا الأرض الجديدة ، وأخلصوا لها وتعاونوا مع أهلها لخدمتها ، والكثرة الغالبة منهم لم تنس وطن الأجداد ، وتحرص على اللغة العربية ، وعلى توثيق الصلات بمن قعدت همهم عن الهجرة ، أو آثروا البقاء بموطن الأجداد •

أسباب ضعف حضر موت :

ويقول مؤرخ حضرموت الأستاذ صالح بن حامد العلوى : إن حضرموت بسبب الهجرات في عهد الفتوح خلت من الوجوه والأعيان ،

ولم يبق بها إلا من قعدت بهم عزائمهم ، وأناخت بهم همهم عن النهوض في نصره الإسلام ، وكان جفاف حضرموت والثراء العظيم عند الأمويين ، ورغبة الأمويين في الاعتماد على العرب في صراعمهم للفتوحات من جانب وللقضاء على ثورات الفرس التي وضعت التشيع لافتة لها من جانب آخر ، كل هذا سبب رحلة أهل حضرموت إلى الشام ، فنتج عن ذلك خراب البلاد ، حتى لم تعد لحضرموت أهمية تذكر ، وأصبحت تابعة لليمن وعدت إحدى بواديه ، وكانت هذه هي الضربة الثانية لليمن بعد ضربة الردة (١) .

وهناك ضربة ثالثة أصابت حضرموت تلك هي ثورة عبد الله بن يحيى الكندي التي أثرتنا إليها آنفا ، وقد تعاون هذا مع أبي حمزة الخارجي الذي كان قد استولى على مكة وعلى المدينة ، وقد تعرضت حضرموت لكثير من الخسائر في أرواح البقية الباقية من أبنائها ، فقد أرسل مروان ابن محمد الخليفة الأموي الأخير جيشا كبيرا بقيادة عبد الملك بن عطية السعدي ، وشعيب البارقي ، وقد استطاع هذا الجيش أن يقضى على الثائرين ، ولكنه في الوقت نفسه قضى على البقية الباقية من آمال حضرموت في التقدم والتطور (٢) .

ومرة أخرى نقرر أن هذه الأسباب أضعفت حضرموت وجعلت هذه المنطقة تابعة اليمن ، وهذا يوضح جذور الاتصال والانفصال بين اليمن وبين ما يعرف الآن بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

(١) تاريخ حضرموت ص ١٨١ - ١٨٢ ، ١٩٨ .

(٢) تاج الدين اليماني : تاريخ ص ١٨ .

اليمن في العصر العباسي

لما بويغ أبو العباس السفاح بالخلافة بعث على الحجاز واليمن عمه داود بن علي فاستخلف داود على اليمن عمر بن عبد المجيد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، وهو الذي بوب جامع صنعاء ^(١) وسار ولاية اليمن بعد ذلك على النحو التالي :

محمد بن زيد بن عبد الله الحارثي وقد نزل صنعاء وبعث أخا له على عدن •

عبد الله بن مالك الحارثي •

علي بن الربيع بن عبد المدان •

عهد المنصور :

عبد الله بن الربيع بن عبد المدان •

معن بن زائدة الشيباني : وهو من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان العظماء ، وكان من خواص المنصور ^(٢) ، ولما ولي معن بعث ابن عمه سليمان نائبا عنه إلى حضرموت ، فكان بها قاسيا غليظا ، مما دفع أهل حضرموت إلى قتله بقيادة زعماء الإباضية ، وانتفضت حضرموت على معن ، فسار إليها وأوقع بأهلها عدة وقعات ، قتل بلغ من قتله خمسة عشر ألفا فأعظم الناس ذلك ، ولكن المنصور استصوب فعله لأن هؤلاء بقية الخوارج ^(٣) •

زائدة بن معن : كان أبوه قد ولاه حضرموت عقب الإيقاع بها •

الفرات بن سالم العبسي :

(١) القاضي عبد الله الكريم الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن

ص ٤٩ •

(٢) وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٥٨ •

(٣) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ١٩ ، ٢٠ •

يزيد بن منصور الحميري ابن خال المهدي وأقره المهدي

خلافة المهدي :

- يزيد بن منصور الحميري
- رجاء بن روح الجذامي
- علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس
- منصور بن يزيد بن منصور الحميري
- عبد الله بن سليمان النوفلي وكان رجلاً خيراً من أهل العلم
- سليمان بن يزيد بن عبد المدان

خلافة الهادي :

- عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام
- إبراهيم بن سليمان الباهلي

خلافة الرشيد :

- الخطيف بن عطاء : خال الرشيد قدم اليمن والفتنة شائرة بين الجند وأهل صنعاء فأصلح بينهم
- عاصم بن عتبة الغساني
 - أيوب بن جعفر بن سليمان
 - الربيع بن عبد الله الحارثي

محمد إبراهيم الهاشمي : وقد جمع له الحجاز واليمن فأقام بالحجاز وبعث ابنه العباس إلى اليمن

عبد الله بن مصعب بن عبد الله بن الزبير : ويذكر تاج الدين اليماني أن الرشيد رفع رزق عبد الله إلى ألفي دينار في الشهر ، وكان مرتب

الوالي ألف دينار فقط ، فقال له يحيى بن خالد : هذا يفسد عليك من توليه من أهل بيتك • فرد الرشيد رزق عبد الله إلى ألف دينار ، ووصله بصلة جليلة •

- أحمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي •
- إبراهيم بن عبد الله بن طلحة بن أبي طلحة •
- محمد بن خالد بن برمك •

حماد البربري مولى الرشيد : جاء إلى اليمن خلال ثورة الهيصم بن عبد الرحمن الهمداني بجبل سور ، وكان الهيصم قد قام بثورة عاتية زلزلت سلطان بنى العباس في اليمن ، وامتد نفوذه إلى عدة بقاع ، ولم يستطع ولاية الرشيد التغلب عليه ، فأرسل الرشيد مولاه حمادا البربري لذلك وقال له : « أسمعني صوت أهل اليمن » أي أفس عليهم حتى يضجوا بالشكوى ، وقد حقق حماد ذلك بعد صراع طويل ، ويقول الشماحي (١) • وبرغم التغلب على الهيصم فقد كانت ثورته فاتحة لقيام الدول اليمنية ، وفرصةً انتهلتها الشيعة لنشاطهم الذي مهدوا به الطريق إلى ظهور دعائهم كما حدث أيام المأمون ، وكقدوم إبراهيم الجزار العلوي إلى اليمن كما سئرى فيما بعد ، وبعد الرشيد أقر الأيمن حمادا على اليمن (٢) •

خلافة الأيمن :

- محمد بن عبد لاله بن مالك الخزاعي : عينه الأيمن بعد حماد •
- سعيد بن السرح الكتاني •

خلافة المأمون :

- يزيد بن جرير بن خالد بن عبد الله القسري •
- اسحق بن موسى بن عيسى •

(١) اليمن : الانسان والحضارة ص ٨٨ •
(٢) عبد الواسع بن يحيى الواسعي : تاريخ اليمن ص ١٤٩ •

محمد بن على بن عيسى بن ماهان : وقد صارع إبراهيم بن موسى الطالبى الذى يقول عنه ابن خلدون : إن ظهوره باليمن كان سنة ٢٠٠ هـ وإن أمره لم يتم ، وكان يعرف بالجزار لكثرة ما سفك من دماء ^(١) ، ويقول عنه الجرافى : إنه دخل صعدة وخربها كما خرب سد الخائف ^(٢) وكان قد أرسله الحسين بن على الطالبى لما نجحت ثورته الطالبية فى الاستيلاء على مكة والمدينة وقد حدثت وقائع بين محمد بن على بن عيسى وبين إبراهيم بن موسى الطالبى كان النصر فيها لابن ماهان

وقد تركت هذه الوقائع وما سبقها من معارك ، بلاد اليمن فى فوضى شاملة ، فتحت الباب لتقسيم اليمن ، كما فتحت الباب لاستقلاله عن الخلافة العباسية على ما سنرى •

اليمن

ابتداء من عهد بنى زياد فى خلافة المأمون

قلد المأمون محمد بن زياد ، وهو من ولد عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان الأعمال فى تهامة ، وما يستولى عليه من الجبال التى كانت الثورة مستقرة بها ويقول ابن خلدون : إن المأمون اختار ابن زياد لما عرف عنه من شدة البغض لآل على ، فقصده اليمن سنة ٢٠٢ هـ ، واستولى على تهامة بعد حروب جرت بينه وبين أهلها ، واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ هـ وكان مع ابن زياد مولى له يسمى جعفر ، وهو الذى نسب إليه مخالف جعفر ، وكان فيه دهاء وكفاية ، حتى كانوا يقولون « ابن زياد بجعفره » واشتراط على عرب تهامة ألا يركبوا الخيل ، وقد سير ابن زياد بعد أن استقر له الأمر مولاه جعفر إلى المأمون سنة ٢٠٥ هـ بهدايا جلييلة ، وأموال عظيمة فعاد جعفر فى العام التالى ومعه ٢٠٠٠ فارس ، فيهم من

(١) العبر ج ٤ ص ٢١٢ •

(٢) المقتطف من تاريخ اليمن : ص ٥٣ •

مسودة خراسان ٩٠٠ ، فعظم بذلك أمر ابن زياد ، واتسع ملكه فشمل المناطق التالية :

• عدن : وهى مدينة جنوبية ، تهامية ، من أقدم أسواق العرب •

• أبين : وهى مخلاف باليمن تعد عدن مدينة منه ، ولذلك يقال ، « عدن أبين » •

• لحج : بلد بمنطقة أبين •

• ديار كندة : وهى من جبال اليمن مما يلى حضرموت وقاعدتها دامون •

• حضرموت : وهى ناحية واسعة تقع شرقى عدن قرب البحر ، ولها أعمال عريسة ، وبينها وبين عمان رمال كثيرة تعرف بالأحقاف •

• الشَّحَر : وهو ساحل اليمن الممتد بين حضرموت وعمان ، وتسمى هذه المنطقة أيضا مهرة ، وقصبته أيضا تسمى الشحر •

• مِرْبَاط : وهى مدينة منفردة على ساحل البحر بين عمان وحضرموت

• الجند : وهى تمثل قسما كبيرا من أقسام اليمن الثلاثة « الجند ومنعاه وحضرموت » •

• وملك بن زياد أيضا من الجبال أعمال المعافر وهو بلد واسع ذو مزارع وقرى كثيرة •

• وقلد ابن زياد جعفرًا مناطق الجند ، فاخبط جعفر بها مدينة « المَرْيُخْرَة » فى جبل قريب من صنعاء ، به أنهار ورياحين واسعة •

وخطب لابن زياد بصنعاء وصعدة ونجران وبيحان ، ووضع ابن زياد بذلك أساس ملك وراثي باليمن ^(١) وكان بصنعاء خلال عهد ابن زياد (بنو يعفر) وهم من حمير ، وكان لهم السلطان بها ، ولكنهم كانوا يخطبون للعباسيين ، وأحياناً يذكرون اسم ابن زياد في الخطبة بعد اسم الخليفة العباسي بها ، وذلك لمكانة ابن زياد من الدولة العباسية •

وفي السنوات الأخيرة من حياة ابن زياد ، وخلال عهد أولاده من بعده بدأ التفكك وكثرت الحركات الانفصالية ، وسرعان ما انقسمت اليمن لا إلى اليمن شمالي ويمن جنوبي فحسب بل إلى إمارات وعمالات كثيرة ، وقد بدأ ذلك من القرن الثالث الهجري ، ويمكن أن يوضح التخطيط التالي صورة سريعة للحركات السياسية باليمن :

(١) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ٢٥ - ٢٦ •

زبيد	صنعاء
- بنو زياد ٢٠٣ - ٤١٢ هـ	- عمال العباسيين : ٢٠٣ - ٢٧٢ هـ
- وامتد ملكهم الى مناطق أخرى	- بنو يعفر : ابتداء ملكهم في شبام بحضرموت سنة ٢٢٥ هـ ثم امتد الى صنعاء سنة ٢٤٧ في حركة صراع ضد ولاية بنى العباس وبنى زياد في زبيد ، ثم استقر الأمر لهم في صنعاء وجند من سنة ٢٤٧ الى ٣٨٧ هـ
- بنو نجاح ٤١٢ - ٥٥٤ هـ	- حكم قبلى
- بنو المهدي ٥٥٤ - ٥٦٩ هـ	- الأئمة الزيديون يمدون نفوذهم الى صنعاء حتى سنة ٤٢٩ هـ .
	- بنو همدان (بنو حاتم) ٤٩٢ - ٥٦٩ هـ
	- بنو صليح ٤٢٩ - ٤٩٢ هـ .

١ - الحدود غير ثابتة بين هذه الممالك بعضها والبعض الآخر ، وكانت كل مملكة تحاول أن تدفع بحدودها لتضم مزيدا من الأرض .

٢ - بعض التواريخ ليست دقيقة وهى على كل حال خلاصة الأبحاث المتعددة .

٣ - بعض هؤلاء الحكام كانوا يكتفون بلقب الإمارة ، وبعضهم اتخذ لقب السلاطين ، أما الأئمة فاحتفظوا بلقب الإمامة .

-
- الأيوبي
 - بنو رسة
 - بنو طاه
 - المماليك المصري
 - العثماني

- الأئمة في اليمن الشمالية حتى قيام الثورة (١٩٦٢)
 - الجمهورية العربية اليمنية بالشمال ثم جمهورية اليمن

صعدة

عدن

الأئمة الزيديون ٢٨٠ - ١٣٨٢ هـ
(ببو طباطبا)

كان سلطان الأئمة محصورا في صعدة حتى سنة ٧٠٠ هـ ثم امتد الى صنعاء ، وبعض المناطق الأخرى وانكمش وامتد عدة مرات ثم خلصت لهم اليمن من سنة ١٠٤٠ هـ حتى سنة ١٣٨٢ هـ حيث قامت الثورة ، وكان أئمة الزيدية على مر تاريخهم يصارعون لتثبيت أقدامهم ، أو بطاطئرن لقوى أخرى تمد نفوذها عليهم ، ولكنهم على كل صمدوا في صراع اليمن ضد العثمانيين ، فبقوا وفنى الآخرون ، ولكن وجودهم باليمن الشمالية وصمودهم كان من الأسباب لفصم العلاقة بين اليمن الشمالية وحضرموت ، لأن الحضارمة كانوا سنيين ، وكان الزيدية فرقة شيعية ، وكانت الوحدة تعود غالبا مع الحكم السني كحكم الأيوبيين والعثمانيين فإذا برز حكم الزيدية بدأ الانفصال .

بنو زريع ٤٧٦ - ٥٦٩ هـ
بدأ بنو زريع في عدن ولاء للصليحيين ، ثم استقلوا عن ملك بنى صليح ، وبقوا بعد سقوط بنى صليح حتى دخلت عدن فيما دخلت فيه ولايات اليمن سنة ٥٦٩ .

سنة ٥٦٩ - ٦٢٦ هـ

سنة ٦٢٦ - ٨٥٨ هـ

سنة ٨٥٨ - ٩٠٤ هـ

سنة ٩٠٤ - ٩٥٥ هـ مع التداخل مع بنى طاهر

سنة ٩٤٥ - حتى الحرب العالمية الأولى

(محاولات لم تنجح أكثرها وصراع ضد الأئمة)

الاستعمار والقبلية في اليمن الجنوبية حتى سنة ١٩٦٧ .

الديمقراطية الشعبية بالجنوب .

(م ٢٦ - التاريخ ج ٧)

ملاحظات مهمة :

هناك ملاحظات مهمة نبرزها فيما يلي ، وقد أشرنا لبعضها في التخطيط السابق ، وهى :

— كان الأئمة الزيديون موجودين مع الحكام الآخرين ، وكانوا يعلنون الولاء أو يثورون حسب الأحوال ، وعندما اختل أمر بنى زياد غلب أهل الأطراف على ما بأيديهم وبدأ بذلك تفكك اليمن •

— كانت الدولة الأيوبية ، والدول التى تلتها تهتم بما يسمى الآن بجمهورية اليمن الشمالية ، وتحاول أن تمد نفوذها لليمن الجنوبية لتعيد وحدة اليمن كله ، ولكن محاولاتها كانت دائما قصيرة العمر فإذا نجحت فى ضم بعض أجزاء منا يدخل الآن تحت اليمن الجنوبية فإن هذه الأجزاء سرعان ما تتحرر وتستقل وبخاصة أن اليمن الشمالية نشط فيها الأئمة وهم شيعة ، أما اليمن الجنوبية فكانت تتبع المذهب السنى ، وهذا كان بمثابة حاجز بين المنطقتين •

— عندما احتل الإنجليز عدن سنة ١٨٣٩ م كان ذلك بمثابة حاجز حصين قسم اليمن قسمين ، وكان من آثاره الحالة التى وُجدت بجنوب الجزيرة فترة طويلة •

وستزيد هذا الموضوع وضوحا فيما بعد تحت العنوان التالى « اليمن يمنان » •

وبعد هذا التخطيط نعود لهذه الدول السابقة لنتحدث عنها بشيء من التفصيل ، وسنتكلم عن زبيد ، فصنعاء ، فصعدة ، فعدن على النحو السابق حتى تلتقى كلها فى ظل الأيوبيين •

زبيد

مدينة من أهم مدن تهامة اليمن ، تقع فى السهل الساحلى فى موضع متوسط بين ميناءى الحديدة فى الشمال ومخا فى الجنوب ، وهى على بعد

٢٥ كم من البحر الأحمر ، ومحاطة بسور عظيم وبها كثير من المساجد والدور الكبيرة •

وقد أسسها مؤسس أسرة بني زياد وجعلها عاصمة ملكه ، وذلك في خلافة المأمون العباسي •

وكانت زبيد عاصمة لبعض الأسر المالكة فيما بعد كالدولة الصليحية التي نقلت عاصمة ملكها من صنعاء إلى زبيد ، وكبني المهدي الذين استقروا بها حتى استولى عليها توران شاه عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) الذي أسس الدولة الأيوبية باليمن ، ثم أصبحت في عام ٨٥٠ هـ (١١٤٦ م) عاصمة الطاهريين حتى انتقلت عاصمتهم بعد ذلك إلى عدن •

وفي عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) استولى عليها أبو نهي الثاني شريف مكة حتى ضمت مع باقي مدن اليمن إلى الدولة العثمانية •

ويمر بمدينة زبيد وادٍ من أهم وديان اليمن يسمى وادي زبيد ، تسير فيه المياه معظم أيام السنة ، وهو ينبع من الهضبة ، ويمر بمدينة زبيد إلى أن يصب في البحر الأحمر •

والنسبة إليها زبيدي ، وهو لقب اشتهر به جمع من الفقهاء وعلماء اللغة الذين ينحدرون منها أو ينتسبون لها ، وقد كانت ولا تزال من أهم مراكز العلم باليمن •

بنو زياد في زبيد (٢٠٣ — ٤١٢ هـ)

تحدثنا من قبل عن ابن زياد وعن نشأة دولته باليمن ونفوذه هناك ، ذلك النفوذ الذي شمل أكثر مناطق هذه البلاد ، وذكرنا أنه بعد عشرين سنة تقريبا من بدء ملكه بدأ لون من استقلال الأطراف ، ثم نما ذلك الاتجاه في عهد أولاده وأحفاده ، مما سبب حركات انفصالية كثيرة ، وعلى

كل حال فقد ظل ملك الزياديين بين اتساع وانكماش حتى دالت دولتهم
بعد حوالى قرنين •

وأمرأ بنى زياد هم :

٢٠٣ — ٢٤٥ هـ	محمد بن عبد الله بن زياد
٢٤٥ — ٢٨٩ هـ	إبراهيم بن محمد
٢٨٩ — ٣١١ هـ	زياد بن إبراهيم
٣١١ — ٣٧١ هـ	اسحق بن إبراهيم
٣٧١ — ٤٠٩ هـ	عبد الله بن اسحق
٤٠٩ — ٤١٢ هـ	بعض موالى بنى زياد

ومن الواضح أن عهد محمد بن زياد كان عهد السلطة والنفوذ لهذه
الدولة ، وإن كان سلطانه لم يكتمل لاستبداد بنى يعفر بصنعاء العاصمة
الرئيسية لليمن ابتداء من سنة ٢٢٥ هـ ، وهى السنة التى تعتبر مطلع
الضعف •

وبعد ابن زياد زاد الجرح اتساعا ، فلما جاء عهد اسحق بن إبراهيم
كمل الخطب ، إذ امتنع عليه أهل الأطراف ، وانقطعت الخطبة له فى الجبال
واستولى سليمان بن طرف على المخلاف المعروف بالسليمانى نسبة إليه
وجعل السكة والخطبة باسمه ، وخرج أيضا على نفوذ اسحق لحج وأبين
وبعض البلاد الشرقية (١) •

ولما مات اسحق كان ابنه عبد الله طفلا فتولت كفالته أخته هند وعبد
الأبيها اسمه الحسين بن سلامة النوبى ، ولكن هذا استبد بالأمر ولم يعد
الزمام إلى عبد الله عندما شب عن الطوق ، ويبدو أن عبد الله ترك النفوذ
إلى الحسين وقنع بالاسم •

(١) تاج الدين اليمانى : تاريخ اليمن ص ٢٧ — ٢٨ •

وفي عهد نفوذ الحسين بن سلامة النوبى استطاع هذا أن يسترد كثيرا من الأطراف المتمردة ، ويستعيد السلطة على الحصون والمخاليف التى كانت قد أعلنت استقلالها ، فاستعاد بذلك مملكة ابن زياد الأولى ، واختط مدينة (الكدراء) وهى الآن من المدن القديمة الخربة ، وكانت لها شهرة كبيرة (١) كما اختط مدينة المعفر ، وأنشأ كثيرا من المساجد والمنارات ، ومهد الطرق فى داخل المملكة ، وبينها وبين مكة المشرفة ، وحفر كثيرا من الآبار ، ونظم البريد •

ولما مات الحسين بن سلامة النوبى قام مولاه مرجان بالأمر ، وكان لمرجان هذا عبدان أحدهما اسمه نفيس ، والثانى اسمه نجاح ، وقد تنافسا فى حياة سيدهما مرجان على السلطة التى آلت إليه ، وتقول الرواية : إن عبد الله بن أسحق وعمته التى كفلتها من قبل كانا يميلان إلى نجاح الذى عرف بالعدل والرفقة ، وينقبضان عن مرجان ونفيس ، ولذلك قبض هذان عليه وعلى عمته ، وبنيا عليهما جدارا وتركاهما به حتى ماتا ، ولما عرف نجاح ذلك ثار من أجل سادته بنى زياد ، وكان له الفوز ، ولكنه سرعان ما أقام دولة جديدة لنفسه والأولاده من بعده ، فأسس بذلك دولة بنى نجاح وسنتكلم عنها فيما بعد •

وبعض المؤرخين اليمنيين يرى أن دولة بنى زياد أول دولة وطنية نشأت باليمن واستقلت به ، وبعضهم لا يراها حكومة وطنية لأنها جاءت إلى اليمن من بغداد ، وظلت تابعة للخلافة العباسية ، وقد عرف بعض ولائها ووزرائها بالصلاح والإصلاح ، ولكن عهود أكثرهم كانت حافلة بالفوضى ، وأسلموا البلاد فى النهاية إلى طبقة من المبيد (أهم بنو نجاح) جعلت الحياة فى اليمن حافلة بالاضطرابات كما سنرى عند حديثنا عن آل نجاح فيما يلى (٢) •

(١) الجرافى : من تاريخ اليمن ص ١

(٢) الفاضى عبد الله الشماحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١١٠ •

بنو نجاح في زبيد (٤٠٣ — ٥٥٥ هـ)

في الصراع الذي دار بين موالى آل زياد ونجاح من جانب وبين نفيس ومرجان من جانب آخر استطاع نجاح الحبشى أن يحقق لنفسه الفوز فدخل زبيد ، واستتب له الأمر في تهامة ، وكتب للخليفة العباسى فى بغداد معلنا ولاءه وطاعته للدولة العباسية ، فأقره الخليفة ونعنته بالمؤيد نصير الدين ، وكان حازما سمحا ، يتبع مذهب الإمام الشافعى ، وقد دانت له تهامة طيلة حياته ، وبعد وفاته دار صراع طويل بين أولاده وأحفاده من جانب وبين دولة بنى صليح التى كانت قد نشأت فى صنعاء سنة ٤٢٩ هـ من جانب آخر ، وبعد شد وجذب حول العاصمة زبيد حيث انتصر بنو صليح تارة وبنو نجاح تارة أخرى استقر الأمر لبنى نجاح حوالى سنة ٤٧٣ هـ وبقي فيهم إلى سنة ٥٥٤ هـ وسلسلة أمراء بنى نجاح هى كالاتى :

٤٠٣ — ٤٥٢ هـ	الأمير نجاح
٤٥٢ — ٤٨١ هـ	سعيد بن نجاح
٤٨٣ — ٤٩٨ هـ	جياش بن نجاح
٤٩٨ — ٥٠٣ هـ	فاتك بن جياش
٥٠٣ — ٥٢١ هـ	منصور بن فاتك
٥٢١ — ٥٤٠ هـ	فاتك بن منصور
٥٤٠ — ٥٥٤ هـ	فاتك بن محمد بن فاتك

ومن الواضح أن فترة نجاح كانت أطول الفترات بالنسبة للأمراء هذه الدولة ، وقد عاصر نجاح قيام دولة بنى صليح فى صنعاء ، وبدء المنافسة بين الدولتين ، ويقال إن على بن محمد الصليحي لم يجد وسيلة للتخلص من نجاح إلا بقتله بواسطة سم استطاع أن يدسه فى طعامه ، على يد جارية أهداها إليه •

ولما مات نجاح ، وكان أولاده لم يبلغوا سن الرشد بعد ، قام بأمرهم مولى له اسمه كهلان ، فأتاح هذا فرصة لحمد بن علي الصليحي ، فزحف إلى تهامة سنة ٤٥٥ هـ واستولى على زبيد ، وفر من وجهه آل نجاح إلى جزيرة « دهلك » فظلوا بها حتى سنة ٤٥٩ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها علي بن محمد الصليحي ، فعاد سعيد بن نجاح إلى زبيد ، ولكن مدته لم تطل ، فأخرجه المكرم الصليحي سنة ٤٦١ هـ واستطاع سعيد أن يعود مرة أخرى سنة ٤٧٦ هـ ، وظل سعيد أميرا حتى قتل سنة ٤٨١ هـ فاندفع بنو صليح إلى زبيد مرة ثالثة ، وفر جيش بن نجاح إلى الهند ولكن بقاء بنى صليح في زبيد هذه المرة لم يزد عن عام ، ثم جاء جيش وطردهم سنة ٤٨٣ هـ ، واستقرت السلطة إلى حد كبير لآل نجاح بعد ذلك .

وجاء سقوط بنى نجاح على يد بنى المهدي ، وهي أسرة حميرية سنتكلم عنها فيما بعد ، وقد هالها تحكّم بنى نجاح الأحباش في اليمن نجم زعيمها علي بن مهدي حوله الجموع ، وغزا مدينة الكدراء سنة ٥٣٨ هـ ولكن أميرها ألحق بهم الهزيمة ، فعاد ابن المهدي يعد نفسه من جديد وانتهاز فرصة ضعف الأمير فأتك بن محمد آخر أمراء بنى نجاح ، فاندفع مرة أخرى نحو زبيد سنة ٥٥٣ هـ ، وقد تخلى أهل زبيد عن فائق ، واستجدوا بالإمام المتوكل فوعدهم هذا بالنجدة إن تخلصوا من فائق ، فتخلصوا منه فعلا ، ولكن المتوكل عجز عن نصرتهم ، فأعطى ذلك فرصة لبنى المهدي أن يدخلوا زبيد ويستقروا بها .

وقد اتخذ آل نجاح وزراءهم من الأحباش أيضا وكان أول وزير لهم أنبيش الفاتكي وكان جبارا غشوها حاول أن يستبد بالملك ، فقتل منصور ابن فائق ، ولكنه قتل فيه ، وجاء بعده الوزير من الله الفاتكي ، وكان سييء السيرة ، فمات في ليلة من ليالي العيب والمجون ، ووزر بعده رزيق الفاتكي ، ثم أبو محمد سرور الفاتكي ولم يكن في هؤلاء الوزراء صفات المشجاعة أو الشهامة ، فالحقوا بالدولة ألوانا من الضرر ، ومن الواضح أن هؤلاء جاءوا في عصور الضعف مما تسبب في نهاية الدولة .

بنو المهدي الحميريون بزبيد

٥٥٣ — ٥٦٩ = ١١٥٨ — ١١٧٤

تبدأ هذه الأسرة بعلى بن مهدي الحميري ، وهو ينحدر من أسرة الأغلب بن أبي الفوارس بن ميمون الحميري الروعيني^(١) * وكان آل المهدي يعيشون في قرية اسمها العنبرة من سواحل زبيد * ويسمونها ابن خلدون « العنزة » وهو تحريف والتصحيح من معجم البلدان ، ومن مرادف الاطلاع *

ونشأ على بن مهدي نشأة دينية ، حج وزار ، ولقى العلماء والوعاظ وتضلّع في المعارف ، وكان فصيحاً صبيحاً ، حسن الصوت ، طيب المنمة ، حلو التأنّي ، غزير المحفوظات ، يعظ الناس على الطريقة الصوفية ، وقد استمال القلوب حوله بهذه الصفات ، حتى ظهر أمره بساحل زبيد *

ولما ذاع أمره في الصلاح والتقوى ، قرّبته أم فائق بن منصور ، وأطلقت له ولأهله خراج أملاكهم ، فأثروا واتسعت حالهم ، ونهيا لهم الغنى والعلم ، وأمهم الناس من كل صوب فأصبحوا قوة كبيرة^(٢) *

وكان حال آل نجاح في انهيار وانحدار ، وكان اليمينيون يتحدثون عن حكم الأحباش لبلادهم ، وعن سوء سيرة وزراء هؤلاء الأحباش ، وكل هذا دفع بعلى بن المهدي إلى الثورة على آل نجاح ، وقد فشل مرة كما ذكرنا من قبل ، عندما هاجم مدينة الكدراء سنة ٥٣٨ ولكنه عاد بجميع جموعه ويعد نفسه ، ثم هتف بأصحابه قائلاً : أيها الناس دنا الوقت ، أزف الأمر كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عياناً * وبدأ يهاجم زبيد * ودار صراع طويل بينه وبين آل نجاح * واستطاع أن يحاصر زبيد ، حتى ألحق الضرر بأهلها ، فاستجدوا بالشريف أحمد بن سليمان صاحب صعدة ، وشرطوا

(١) القاضي حسين بن أحمد : بلوغ المرام ص ١٧

(٢) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ٧٠ — ٧١

له أن يملكوه عليهم ، فقال لهم : إن قتلتم مولاكم فاتكا نصرتمكم ، فوثب أهل زبيد على فائك فقتلوه سنة ٥٥٣ ، ولكن الشريف بعد ذلك عجز عن نصرتهم ضد على بن المهدي ، فاستطاع هذا أن يدخل زبيد ويقيم بها دولة بنى المهدي كما ذكرنا من قبل .

وكانت دولة بنى المهدي قصيرة العمر ، فلم تتجاوز مدتها خمسة عشر عاما وبضعة أشهر ، وأمرؤها هم :

على بن مهدي	٥٥٣ — ٥٥٣ (٨١ يوما)
مهدي بن علي	٥٥٣ — ٥٥٨
عبد النبي بن علي	٥٥٨ — ٥٦٩

مع فترة استولى فيها عبد الله بن علي على الملك من أخيه عبد النبي .

ونذكر هنا أن اليمن أحسنت استقبال هذه الأسرة لأنها أسرة وطنية تماما ، ولأن منشئها كان يمتاز بالعلم والخلق ، ومن أجل هذا يذكر تاج الدين اليماني أنه اجتمع لعبد النبي ملك الجبال ، والتهائم ، وانتقل إليه ملك جميع اليمن وذخائرها ، حتى إنه يقال إن ملك خمس وعشرين دولة من دول اليمن قد آلت إليه (١) .

ولكن هذه الدولة كانت قصيرة العمر كما ذكرنا من قبل لأن الزحف الأيوبي بدأ يمتد إلى اليمن من جهة ، ولأن أمراء الأسرة الذين جاءوا بعد مؤسسها اتجهوا إلى القسوة والشدّة ، كما انحرفوا في أخلاقهم ، مما جعل الناس في دولتهم يعيشون في رعب منهم ومن أفعالهم القاسية ، وجعل اليمن تنهياً لاستقبال أي فاتح ، ومن أشق ما عرف به ابن مهدي أنه كان يكفّر بالمعاصي ويستبيح نساء هؤلاء ، ويسترق ذراريهم ، كما أنه كان

إذا غضب على أحد من أتباعه عذبه بقسوة • وكان يقتل من انهزم من
عسكره ، كما كان يقتل من تأخر عن صلاة الجماعة أو عن مجلس وعظه ،
أو من شرب خمرا ، أو من سمع غناء وبخاصة من رجال العسكرية (١) •
ولهذا اتجه أهل اليمن لكره بنى المهدي ، لتخوفهم منهم بسبب هذا التصرف
وكثرة الفتك بالأهلين (٢) •

ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين الأيوبي اتصل به من ينقل له أن
عبد النبي بن مهدي يزعم أن دولته تطبق الأرض ، وأن ملكه يسير مسير
الشمس ، فجهز صلاح الدين جيشا كبيرا بقيادة أخيه توران شاه ، ومعه
خمسة من آل رسول كانوا يقيمون في مصر ، وبعث بهم إلى اليمن سنة
٥٦٩ هـ فاستطاع أن يدخل زبيد ، وأسر عبد النبي وقتله (٣) •

وزالت بذلك دولة بنى المهدي ، وبدأ ملك الأيوبيين في اليمن كما
سنرى فيما بعد •

(١) انظر تاريخ اليمن لعمارة اليمن ص ١٢١ •
(٢) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٢ •
(٣) علي بن الحسن الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢٨ •

صنعاء

صنعاء هي العاصمة الرئيسية لليمن ، وأهم المدن به ، وأجملها ، وهي ترتفع عن سطح البحر ٢٣٥٠ مترا ، ولذلك يضرب المثل بصعوبة الوصول إليها ، فيقال « لا بد من صنعاء وإن طال السفر » وتقع صنعاء في منطقة خصبة كثيرة الزرع والفاكهة ، وبخاصة العنب ، وهي ملتقى لكثير من طرق القوافل من جميع أرجاء اليمن ، مما جعلها مركزا تجاريا هاما ، وهي إلى الجنوب من لواء صعدة ، وإلى الشرق من لواء الحديدة ، وإلى الغرب من مأرب والربع الخالي ، ومن أوديتها الرئيسية وادي المواهب ووادي الزبيدي ، وتقع في السفح الغربي من جبل نقيم .

ويقول ياقوت ^(١) إن اسمها كان (أوزال) فلما وقعت اليمن تحت الاستعمار الحبشي ، غير الأحباش اسمها إلى « صنعاء » ومعناها حصينة وذلك لأن جبل نقيم يقف منها موقف الحارس ، فهو يرتفع عنها بحوالي ٦٠٠ متر ويشرف عليها بموقعه وقلاعه ومدافعه ، ويقال إن هذا الوضع هو السبب في المثل الذي أوردناه آنفا وهو (لا بد من صنعاء وإن طال السفر) أي أن الوصول إليها والسيطرة عليها شيء شاق للغاية .

ويمتد تاريخ صنعاء فترة طويلة قبل الإسلام ، ولا يزال هناك عمد وأحجار عليها نقوش وكتابات ترجع إلى ما قبل الإسلام ، وقد أعيد استخدام هذه الأحجار في بعض المباني الحديثة ، وبخاصة في الجامع الكبير ، وقبيل الإسلام بنى بها أبرهة كنيسة القليس ، وموه جدرانها بالذهب ، وغطى حيطانها بالفضة ورصعها بالجواهر ، وكان هدفه أن يجذب العرب إلى الحج إليها بدل حجهم إلى الكعبة بمكة ، ولكن أعرابيا من كنانة دخلها ليلا ولطخها بالقاذورات ، مما كان سببا في إغارة الحبشة على مكة التي رواها القرآن الكريم في سورة الفيل .

ومن آثارها القديمة كذلك قصر غمدان ، ولا تزال هناك أطلال تنتسب إليه .

وفي العصر الإسلامي ظلت صنعاء العاصمة الأولى لليمن وإن قامت بجانبها عواصم أخرى للولايات المتعددة التي قامت باليمن .

وفي العهد الأيوبي أقيم حول صنعاء سور ضخيم لا تزال آثاره موجودة ، وتكثر في صنعاء الجوامع الضخمة التي يمتاز بعضها بالجمال والروعة ، وبها دور كثيرة ترتفع عدة طوابق مع أنها مشيدة بالحجر الآجر على الطراز الصناعى الجميل ، وبها بعض الصناعات المعدنية وصناعة الحلوى التي تزين بالأحجار الكريمة التي تنسب لليمن كالجزع اليماني والعقيق .

وسنعيش مع الدول التي قامت بصنعاء ، حتى توحدت اليمن تقريبا تحت سلطان الأيوبيين .

صنعاء في العهد العباسى

كانت صنعاء عاصمة اليمن خلال العهد العباسى ، فلما بدأ التفكك في اليمن في عهد المأمون ، كان أمراء صنعاء لا يزالون على ولائهم للعباسيين ، ولذلك أرسل الخليفة المأمون عبد الله بن زياد ، ليعتد للعباسيين السلطان في المناطق المتمردة ، واختط هذا مدينة زبيد كما قلنا من قبل ، وجعلها عاصمة له . وأخذ يوسع منها دائرة سلطانه ، واكتفى من صنعاء بالدعاء له بعد الدعاء للخليفة العباسى .

وعلى هذا فإن سلطان العباسيين قد استمر على صنعاء ردحا من الزمن بعد أن قامت دولة بنى زياد في زبيد ، وتوالى على صنعاء ولاية العباسيين ومن أشهر هؤلاء الولاة نعيم بن وضاح الأزدي ، واسحق بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ولكن هذا كان قاسيا

مع أهل اليمن فأتار الحميريين عليه ، وهب أهل صنعاء في وجهه فعزله
المأمون وولى العباس بن عمر الشنهابي *

وفي عهد المعتصم عين جعفر بن علي الهاشمي واليا على نجد واليمن ،
فأناب هذا عنه في اليمن عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالى الحميري ، ولما توفي عبد الرحيم قام ابنه يعفر مقامه ، ويعد يعفر مؤسساً
للدولة اليعفرية التي آن لنا أن نتكلم عنها *

دولة بنى يعفر بصنعاء

(٢٢٥ — ٢٨٧)

بدأ نفوذ هذه الأسرة في (شبام) بخضردوت سنة ٢٢٥ هـ . وقد
امتد نفوذ بنى يعفر إلى صنعاء عن طريق جعفر بن علي الهاشمي كما ذكرنا
آنفاً ، فقد ولى هذا عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالى الحميري اليمن نيابة
عنه * ولما توفي عبد الرحيم قام ابنه يعفر مقامه ، وقد صار يعفر في عدة
ميادين من أهمها صراعه ضد حمير بن الحارث الذي عينه المتوكل ٢٣٢ هـ
حاكماً على اليمن ، ودفعا صراعه ضد ابن زياد الذي كان يتطلع إلى ولاء
ولاة صنعاء له ، وفي سنة ٢٤٥ هـ توفي ابن زياد وبعده بحوالى سنتين
قتل المتوكل ، وكان ذلك إيذاناً بثبوت سلطان يعفر في صنعاء ، ويعد
هذا العام ٢٤٧ بدء قيام هذه الدولة بصنعاء ، ويعتبر المؤرخون اليمنيون
دولة بنى يعفر دولة حققت الاستقلال لليمن (١) .

وأمرأ بنى يعفر بصنعاء هم

٢٤٧ — ٢٥٩

يعفر بن عبد الرحيم

٢٥٩ — ٢٧٩

محمد بن يعفر

(١) الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ٩٩ .

٢٧٩ — ٢٨٥

ابراهيم بن محمد بن يعفر

فترة من الاضطراب تولى فيها جعفر بن ابراهيم
وعبد القادر بن أحمد بن يعفر فترات قصيرة)

٢٨٦ — ٢٨٨

أسعد بن ابراهيم بن محمد بن يعفر

(الإمام الهادي يقتحم صنعاء ويتسلط عليها من
سنة ٢٨٨ — ٢٩٩ ، ثم يدخل على بن الفضل
القرمطي صنعاء ويستقر بها من ٢٩٩ — ٣٠٣)

٣٠٣ — ٣٣٢

أسعد بن ابراهيم (مرة أخرى)

٢٣٢ — ٢٥٢

محمد بن ابراهيم

وقد اختلكت الدولة في عهده اختلالا واسعا نتيجة
لاقتحام الأتمة والقرامطة البلاد وتشرب الملك إلى
ابن أخت أسعد واسمه عبد الله بن قحطان حتى
سنة ٣٨٧ هـ حيث انحلت الدولة وسيطر الحكم
القبلي في نواحيها •

وكانت المعارك التي دارت بين الإمام الهادي وبين بنى يعفر معارك
كثيرة وقاسية ، وفي إحدى هذه المعارك كان النصر حليف بنى يعفر ،
فأسروا محمد بن الإمام الهادي وقضوا على جيشه • وقد تعرض أسعد
لصراع آخر مع على بن الفضل القرمطي ، وانقصر القرمطي ، ودخل صنعاء
وشبام وأخرج أسعد منهما ، ولكن أسعد حاول مرة أخرى أن يستعيد
سلطانه وساعده على ذلك وفاة على بن الفضل ، فاستطاع أسعد أن يحقق
نصرا كبيرا وأن يقتل من القرامطة عددا هائلا وأن يستعيد سلطات آبائه
وأجداده • ولكن الانهيار كان قد بدأ يذب في الدولة بسبب ما عانت من
صراع فتفتتت كما قلنا من قبل ، وأصبحت صنعاء لقمة سائغة لمن يتناولها

القرامطة في صنعاء :

تحدثنا في الجزء الرابع من هذه الموسوعة ^(١) عن نشاط الشيعة في الأمانة النائية عن مركز الخلافة ، ومنها اليمن والشمال الإفريقي ، وكان من أهم دعائهم في اليمن على بن الفضل الذي تحدثنا عنه آنفا ، وأصله من اليمن ، من حمير ، وينسب إلى « خنفر » وهي قاعدة « أبين » الواقعة في الجنوب الشرقي من اليمن ^(٢) وكان يعاونه المنصور بن الحسن بن زاذان ، وكانا يدعوان لعبيد الله المهدي الذي كان مختفيا في سلمية بالقرب من حماة . وقد استطاع هذان الداعيان أن يحققا انتصارا واسعا في اليمن وتمكن على بن الفضل من الاستيلاء على صنعاء كما ذكرنا آنفا . ولكنه عندما تم له ذلك أظهر مذهبه الخبيث وتبعيته للفكر القرمطي ، وادعى النبوة وأباح المحرمات وأسقط اسم عبید الله المهدي ، مما أثار عليه زميله المنصور بن الحسن ، فوقع حروب بينهما كان النصر فيها لعلي الذي حاصر زميله في قرية من قرى اليمن عدة أشهر ثم انصرف عنه . ومات المنصور سنة ٣٠٢ ثم مات علي بن الفضل سنة ٣٠٣ وكان موت هذا عن طريق طبيب قصده ومسح بسهم على موضع الفصد وضمحل أمر القرامطة بعد ذلك . ومبادئ القرامطة تجمعها قصيدة لشاعر من شعرائهم لعنهم الله جاء فيها :

تولّى نبی بنی هاشم وهذا نسى بنی یعرب
لكل نبی مضى شرعه وتلك شريعة هذا النبی
لقد حط عنا فروض الصلاة وحط الصيام ولم يتعرب
وما الخمر إلا كماء السماء حلال، فقد سدت من مذهب ^(٣)

وقد حقق علي بن الفضل نجاحا كبيرا على معظم اليمن فخضع له ملوكها أو أخلوا الطريق له ، ومن هؤلاء بنو يعفر في صنعاء ، وبنو زياد

(١) ص ٣٢٣ وما بعدها .

(٢) الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ص ٥٩ .

(٣) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ٣٩ - ٤٠ .

في زبيد والأئمة في صعدة ، وامتدت غزواته إلى حضرموت • ويرى بعض الكتاب أن اتهامه بمذهب القرامطة كان عملاً قام به أعداؤه الكثيرون الذين قضى على سلطانهم فأثاروا ضده دعاية راجت بين الدهماء ، وامتد صداها إلى اليوم ، وهي في الحقيقة لا وجود لها ولا يقبلها ذوق^(١) •

وسواء كانت الأشياء التي نسبت إليه حقيقة أو افتعالاً فقد التصقت به ، وكان صداها مريراً ، وهذا ساعد على نهاية على بن الفضل ، ومكّن للأمير أسعد بن أبي يعفر ، من غزو القرامطة في المذيخرة وإبادتهم سنة ٣٠٤ هـ •

صنعاء في الفترة بين بنى يعفر وبنى صالح :

بعد سقوط دولة بنى يعفر بصنعاء قبيل نهاية القرن الرابع الهجري وقعت صنعاء فريسة للخراب والدمار ، ويقول عنها السيد محيي الدين بن الحسين^(٢) : في الفترة من ٤٠٥ إلى ٤٤٧ عم الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن ، لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع الكلمة ، فأظلم اليمن وكثر خرابه ، وفسدت أحواله ، وكانت صنعاء وأعمالها كالخرقة الحمراء تتخطفها الحداة ، لها في كل سنة أو شهر سلطان غالب عليها ، حتى ضعف أهلها ، وهجروها وتوالى عليها الخراب وقل العمران •

ولا غرو ففي هذه الفترة كان الصراع مريراً حول صنعاء ، اشترك فيه بنو نجاح ، وبنو يعفر الذين تحدثنا عنهم ، وحكام بنى صالح ، والأئمة الذين سيكملهم حديثنا فيما بعد ••• فكل هذه الأطراف بالإضافة إلى القرامطة والصراع القبلي أسهمت في تدمير صنعاء خلال هذه الفترة إلى أن رسخت دولة بنى صالح فأعادت الحياة للعاصمة اليمنية الكبيرة •

(١) القاضي عبد الله الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٩ •

(٢) انباء الزمن « نقلا عن اليمن عبر التاريخ » ١٩٣ •

بنو صليح في صنعاء

ثم في سواها

٤٢٩ — ٥٣٢ هـ = ١٠٣٧ — ١١٣٨ م

تحدثنا آنفا عن المنصور بن الحسن الذي كان شريكا لعلی بن الفضل في الدعوة لعبيد الله المهدي ، ثم افترق عنه عندما استبد علی بن الفضل بسلطانه ، وادعى النبوة ، أو علی الأهل تناسى التزاماته بالنسبة للمهدي ، أما المنصور فقد ظل وفيها بعهده للمهدي ، واقتنع ببسط نفوذه علی منطقة مسار ، ولما مات سنة ٣٠٢ خلفه عبد الله الهمداني ، ولما قتل هذا خلفه ابن الطفيل ٠٠٠٠ ثم سليمان بن عبد الله الحميري الذي استمال علی بن محمد الصليحي إلى مذهب الإسماعيلية ، واستخلفه علی هذه المنطقة فبدأ به ملك بنی صليح ، ومما يذكر أن الخلافة الفاطمية كانت قد قامت قبل ذلك بالشمال الإفريقي ثم بمصر ، وكان بنو صليح يدينون لها بالولاء .

وسرعان ما علا أمر الصليحي فاستولى علی كثير من الحصون ، وتبعه عدد كبير من الناس ، ثم استولى علی صنعاء ، ودس السم لابن زياد واستولى علی زبيد ^(١) ، ويقول عنه تاج الدين اليماني ^(٢) إنه طوى اليمن طيا ، سهل وجبله ، وفي سنة ٤٥٥ هـ ملك الصليحي جميع اليمن إلى حضرموت ، كما ولاه المستنصر الفاطمي أمر مكة ، واتخذ صنعاء عاصمة له ، وبنى فيها عدة قصور ، وأحسن سيرته في الرعية واستمر علی التشيع ، ولكنه سمح لأهل السنة بإظهار مذهبهم ، وأسكن معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم ، وكان إذا حج اصطحبهم معه حتى لا ينتهزوا فرصة غيبته فيثوروا في البلاد ، وأمراء الصليحيين هم :

علی بن محمد

٤٢٩ — ٤٥٩ هـ

(١) انظر حديثنا فيما سبق عن ابن زياد وسبب وفاته .

(٢) تاريخ اليمن ص ٥٣ .

(م ٢٧ - التاريخ ج ٧)

٤٥٩ — ٤٨٤ هـ

المكرم أحمد بن علي

٤٨٤ — ٤٩٢ هـ

شمس المعالي سبأ الصليحي

٤٩٢ — ٥٣٢ هـ

السيدة أروى بنت أحمد الصليحي (زوجة المكرم)

ونهاية علي بن محمد الصليحي جاءت علي يد سعيد بن الأحول النجاشي وأخيه جياش ، وقصة ذلك أن الصليحي كان في طريقه إلى مكة ومعه بعض الفرسان والاتباع ، ومعه كثير من التحف والهدايا ، فلما وصل قرية المهجم في تهامة فاجأه سعيد الأحول ، وأخوه جياش وبعض اتباعهما من الفرسان ، وقد دارت معركة بينهم قتل فيها علي الصليحي وأسرت نساء بني صليح ، وفيهن زوجة علي (أسماء بنت شهاب) ، وسار ركب المنتصرين إلى زبيد ، ومع الريب أسيرات بني صليح ، وبدأ التفكك في دولة الصليحيين .

وعقب مقتل علي الصليحي قام بالأمر ابنه المكرم وصارع أعداء الدولة والمنشقين على سلطان أسرته فحقق كثيرا من الانتصارات واتجه لإنقاذ والدته وأسيرات أسرته من بني نجاح ، ودارت معارك عنيفة بينه وبين النجاشيين سنة ٤٦٠ هـ تحقق له فيها النصر وقتل عدد كبير من جيش بني نجاح ، ونجا سعيد الأحول زعيم بني نجاح من الموت بأعجوبة ، وهرب إلى « دهلك » وهي جزيرة بالبحر الأحمر بالقرب من شواطئ زبيد ، واستطاع المكرم بذلك أن يستعيد والدته وأسيرات أهل بيته .

وكان للمكرم زوجة من أسرة بني صليح أيضا أسمها أروى وكانت خير عون لزوجها في صراعه الحربى ، وفي إدارته لشئون دولته ، ولما مرض زوجها انتقلت به من صنعاء إلى « ذى جبله » على بعد ٨٠ ك من مدينة تعز في الشمال الشرقى وبنت بهذه المدينة دارا تعرف بدار العز ، ويتحدث المؤلفون اليمنيون بإعجاب عن السيدة أروى فيقولون : لقد ضربت أروع الأمثال من الحزم والثبات ، والحكمة والعدل ، وكانت إلى جانب هذا

على مكان عال من الفضل في الأدب والمعرفة والدهاء ، وسمو التفكير وسداد الرأي ، ولها محاسن في اليمن كثيرة ، وأعمال خيرية جليلة ، منها بناء جامع « ذى جبلة » وعمارة الجناح الشرقي للجامع الكبير بصنعاء ، وغير ذلك من المساجد والمحاسن ومعاهد العلم ، والوقفات الكبيرة ، والصدقات ورواتب العلماء والمرشدين والمدرسين ، وكان يقال لها بلقيس الجديدة في رجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك *

وكان من وزرائها ورجال دولتها سبأ بن أحمد الصليحي ، والمفضل ابن أبي البركات ، وابنه منصور ، وسبأ بن أبي السعود بن الزريع ، وعلى ابن ابراهيم بن بخيت الدولة المصري مندوب الخليفة الفاطمي في بلاط بنى صليح *

ولما مات المكرم سنة ٤٨٤ هـ قام بالأمر بعده شمس المعالي سبأ وهو من أسرة بنى صليح ، ومن خاصة المكرم * وقد خطب شمس المعالي السيدة أروى أرملة المكرم فاستجابت إلى ذلك بعد أن أذن الخليفة الفاطمي في مصر لها ، ولم تنجب منه بل يقال إنه لم يدخل بها ، وإنما كان زواجا سياسيا ليشتركا في إدارة شئون الدولة *

ولما مات شمس المعالي قامت أروى بالأمر بطريق مباشر *

نهاية دولة بنى صليح :

بدأ انهيار دولة بنى صليح ، عقب اغتيال على بن محمد الصليحي الأمير الأول ، وقد بذل ابنه المكرم وزوجته أروى جهودا كبيرة لاستعادة بناء الدولة ، بيد أن انتقال أروى بزوجها من صنعاء إلى ذى جبلة ، واستخلاف عمران بن أبي الفضل الهمداني على صنعاء ، خلق الأطماع حول صنعاء * وبعد موت المكرم وقيام أروى وشمس المعالي بالأمر لم تعد الملكة إلى ما كانت عليه ، ولم تستطع السيدة أروى أن تستعيد صنعاء وما إن ماتت سنة ٥٣٣ هـ حتى تفككت الملكة الصليحية *

وسنواصل دراستنا عن صنعاء بعد خروجها من إمارة بنى صليح ،
وقبل أن نبدأ ذلك ، نقول كلمة عن صلة اليمن بالخلافة الفاطمية بمصر .

مكانة الفاطميين في دولة بنى صليح :

كان الصليحيون من دعاة الفاطميين ، ومن أتباعهم كما سبق القول ،
وقد قامت دولتهم بعد قيام الدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي وانتقالها
إلى مصر ، وقد ساعدتهم الفاطميون ماديا وأدبيا حتى قامت دولتهم واتسع
ملكهم وكان للفاطميين في بلاط الصليحيين مندوب يمثل النفوذ الفاطمي
وقد ذكرنا من قبل ابن بختيت الدولة الذي كان مندوب الخلافة الفاطمية
في عهد السيدة أروى .

ومما يدل على نفوذ الفاطميين في دولة الصليحيين ما يذكره أحمد
حسين شرف الدين ^(١) من أن هذا المندوب اتهم لدى الخليفة الفاطمي
بشيء فأرسل الخليفة يطلب القبض عليه ، ولكن السيدة أروى ترددت
في تسليمه ، ولكن عظماء دولتها عظموا عليها الخلاف مع الخليفة ، فسلمت
المندوب وأرسلت معه كتابا إلى الخليفة تستعطفه .

ومما يدل على صلتها بالخلافة الفاطمية كذلك ما ذكرناه آنفا من أن
السيدة أروى لم تستطع أن تتزوج من الأمير شمس المعالي بعد موت
زوجها إلا بعد أن حصلت على إذن من الخليفة الفاطمي بمصر .

ويتحدث عمارة اليمنى في كثير من صفحات تاريخه عن الصلة الوثيقة
بين دولة بنى صليح وبين الفاطميين في مصر ^(٢) .

ومن الملاحظ أن الصليحيين بعد أن قامت دولتهم لم يرغبوا الناس
على التشيع وسمحوا لأهل السنة أن يظهرُوا مذهبهم كما سبق القول

(١) اليمن عبر التاريخ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) تاريخ اليمن ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ .

وكان ذلك متمشيا مع الفكر الفاطمي الذي ارتأى عقب وصوله إلى السلطة في مصر أن يهدى من تعصبه للتشيع ليضمن ارتباط الناس به ، وقد جاء في الوشيقة التي كتبها جوهر الصقلي للمصريين ما يلي :

« ... وذكرتم وجوها التمستم ذكرها في كتاب أمانكم . فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، وهي إقامتكم على مذهبكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأئمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، ومن فقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ... » (٣) .

وفي هذا المجال يختلف الصليحيون عن الأئمة الزيدية الذين لم يسمحوا بغير المذهب الزيدي ، مما سبب شرخا بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية عاش طويلا .

صنعاء بعد بنى صليح (سلاطين الهمدانيون)

٤٩٢ - ٥٩٦ هـ = ١٠٩٨ - ١١٩٩ م

مرت صنعاء ، عقب وفاة سبأ الصليحي سنة ٤٩٢ هـ بفترة اضطراب مدمرة ، وأول من ملكها بعد سبأ رجل من همدان يعرف بحاتم الهمداني المغلسي (٢) ويسميه القاضي الجرافي (٣) حاتم بن الغشم الهمداني ، ويقول تاج الدين اليماني عنه (٤) انه كان ناهضا كافيا ، وكان له ولد اسمه محمد ، لم يشاركه أحد في شجاعته وجوده ، ولكن كان فيه لوثة واختلاط عقل . فكان إذا أحب امرأة وتزوجها قتلها ، فأحدث اضطرابا في الدولة حتى قتله أبوه .

-
- (١) المقریزی : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ - ٧٠ .
 - (٢) القاضي حسين العرشي : بلغ المرام ص ٢٩ .
 - (٣) المقتطف من تاريخ اليمن ص ٧١ .
 - (٤) تاريخ اليمن ص ٦٢ .

وبقيت صنعا في أيدي بني حاتم الهمدانيين حتى سقطت ، وضمها
الأيوبيون إلى سلطانهم مع ما ضموه من اليمن •

وسلاطين الهمدانيين بصنعا هم :

٤٩٢ — ؟	حاتم بن الغشم الهمداني
لم تورد المراجع	عبد الله بن حاتم
تواريخ محدد	معن بن حاتم
لأمراء هذه الفترة	هشام بن القبيب الهمداني
	حماس أخو هشام

حاتم بن أحمد بن عمران الياقوت الهمداني ٥٣٢ — ٥٥٠

فترة صراع بين حاتم وبين الأئمة على صنعا

على بن حاتم ٥٥٠

فترة صراع ضد عبد النبي بن مهدي الذي هاجم
عدن مهدت الطريق لانتصار الأيوبيين

وهكذا كانت هذه الفترة حافلة بالفوضى والاضطرابات حول العاصمة
الرئيسية لليمن ، وقد مهد ذلك لتدخل مصر التي كان الأيوبيون بها يرون
أنهم المورثة الحقيقيون للمناطق التي كانت تابعة للفاطميين •

وسنرجى الآن الحديث عن الأيوبيين لنواصل حديثنا عن بساطة
المناطق اليمنية ، بعد أن انتهينا من الحديث عن زبيد وصنعا •

صعدة

صعدة بفتح الصاد وسكون العين كما يقول ياقوت ^(١) لواء باليمن ، وعاصمتها اسمها صعدة كذلك . ويقع لواء صعدة في شمالي اليمن متاخما للواء عسير السعودي ويسمى هذا اللواء كذلك الشام أو القبلة ، وهو معقل أئمة الشيعة الزيدية ومركز للعلوم الدينية ، وفي صعدة كثير من المساجد والدور المهمة .

ومدينة صعدة مدينة عامرة ، آهلة بالسكان ، نشاطها التجارى واسع وبها بعض المصناعات وبخاصة الجلود . ونكثر فيها الفواكه وبخاصة الأغناب ، وسنتدارس فيما يلي تاريخ صعدة ، ونرى الأئمة الزيديين وهم يبنون بها أنفسهم ، ثم يخرجون منها ليوسعوا رقعة سلطانتهم ، وتظل معهم عدة قرون نشاهد فيها حركة المد والجزر ، وصورا من الصراع الطويل .

الشيعة :

في الجزء الثانى من هذه الموسوعة ^(٢) تحدثنا بإفاضة عن الشيعة من ناحية العقائد والأفكار ، ومن ناحية الفرق ، كما تحدثنا عن الحركات التى قاموا بها فى العصر الأموى الذى خصصنا له الجزء الثانى سالف الذكر ، ونريد هنا أن نعود مرة أخرى لنقدم إلمامة سريعة عن عقائد الشيعة وفرقتهم ليكون ذلك وسيلة لمزيد من التفصيل عن الزيدية الذين اتخذوا اليمن مركزا لنشاطهم ، ولنعرف مدى ملاءمة اليمن للفكر الشيعى بوجه عام ، ولل فكر الزيدى بوجه خاص .

والشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه ^(٣) وقد كان لعلى

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .
(٢) ص ١٤٥ وما بعدها من الطبعة الثامنة .
(٣) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣١ .

شيعة منذ اللحظات الأولى بعد وفاة الرسول ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري وغيرهم ، وتم الأمر لأبي بكر الصديق ، وجاء بعده عمر الفاروق ، وقد هدأ التشيع خلال عهديهما بسبب ما عرفا عنهما من أطييب الخصال ، وأرقى السجايا ، وفي عهد عثمان رضى الله عنه بدأ التشيع ينشط من جديد ، ودخلته أفكار منحرفة على يد عبد الله بن سبأ وجماعته ، كما تسلك لصفوف الشيعة جماعات أسميناهم في الجزء الثاني « مدعى التشيع » فنفتوا في صفوف الشيعة بعض سمومهم ، واستطاع الشيعة أن يكشفوا ضلالتهم أحيانا ، ويُنزلوا بهم أقسى العقوبات ، كما استطاع مدعو التشيع أن يحققوا النجاح أحيانا أخرى ، وأن يغيروا أفكارهم الضالة في عقول الشيعة ، وقد أوردنا تفاصيل لهذا الاجمال في الجزء الثاني سالف الذكر ، والمهم أن قبول الشيعة للأفكار الموافقة لم يكن على مستوى واحد ، وهذا سبب وجود فرق مختلفة للشيعة باختلاف القدر الذي تأثرت به هذه الأفكار الواردة .

وتتفق فرق الشيعة على عقيدة واحدة هي أفضلية عليّ على جميع الخلق فيما عدا رتبة النبوة التي أمتاز بها أنبياء الله ، وفيما عدا هذا فإن الاختلاف يدب بين فرق الشيعة ، وتبرز في ذلك فرقتان كبيرتان إحداهما الإمامية والثانية الزيدية .

والفرقة الإمامية انقسمت فيما بعد إلى فرقتين هما الاثنا عشرية والإسماعيلية ، ويرى الإمامية جميعا أن الإمامة خاصة بعلي ثم بأولاده من فاطمة أي بالحسن والحسين فأولاد الآخرين ، وليس لأولاد الحسن فيها نصيب عندهم لأن تنازل أبيهم لمعاوية عن الخلافة أضاع حقه ، ولا يجوز أن تكون الإمامة — ويدخل فيها الخلافة — لغير هؤلاء المستحقين ، ومن هنا فهم لا يعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان .

أما الزيدية فاعتقادهم أسهل وأيسر فهم يرون جواز إمامة المفضول

مع وجود الأفضل ، فمع أن عليا وأولاده أفضل الخلق إلا أن خلافة غيرهم جائزة ، وعلى هذا فمذهب الزيدية كان أقرب مذاهب الشيعة لرأى الجمهور .

ولكن زيدية اليمن انحرفوا عن الفكر الزيدى العام وتمسكوا أن تكون الإمامة فيهم على نحو ما يقول الإمامية ، ويرى المفكرون اليمنيون أن هذا الاتجاه في زيدية اليمن هو الذى أثار المشكلات ضدّهم منذ مطلع عهد الزيدية باليمن في أيام الهادى يحيى بن الحسين أول الأئمة بصعدة ، ويقول القاضى الشماخى ^(١) إن الإمام زيد بن على كان أبعد نظرا من الهادى فقد أبى أن يأخذ بنظرية حصر الخلافة في أبناء جدته فاطمة الزهراء ، ولقد كان الهادى يحيى بن الحسين ممثلاً لصفات القائد والقُدوة الحسنة لاتباعه وكان يتمتع بصفات نادرة . . ولكنه للأسف اتجه اتجاه الإمامية في المذهب ففرض أبناءه وأحفاده رؤساء على الدولة مع أن كثيرين منهم لم يكونوا مثل جدّهم الهادى ولم يكونوا أهلاً لمكان الصدارة ، ولو أن الهادى سار على مذهب جده زيد وحطّم هذه القيود الدخيلة على المذهب لخرج من الدائرة الضيقة التى جرت عليهم وعلى اليمن ألواناً من الخراب والدمار لأن اعتبارهم متميزين عن الآخرين ووضعهم أنفسهم موضع السيد الدائم بالنسبة للناس مهما ضعفت كفاءتهم ومهما سمت كفاءة الآخرين ، هذا الاعتبار أساء لهم ولليمن وكان من أسباب ضعف الزيدية .

اليمن والتشيع :

في ظروف مختلفة شرحناها في الجزء الأول من هذه الموسوعة ^(٢) هاجرت جماعات كثيرة من اليمن واتجه بعض هذه الجماعات إلى يثرب قبل الإسلام ، وقد حل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار هؤلاء بالمدينة ،

(١) اليمن الانسان والحضارة ص ٩٩ - ١٠٢ .
(٢) ص ٢٥٠ وما بعدها من الطبعة الرابعة عشرة .

وفي ذلك يقول الميمني^(١) : نزل بيثرب من القبائل القحطانية قبيلتنا الأوس والخزرج وهما بطنان من الأزد ممن نزع من اليمن بعد حادثة سيل العرب ، ثم هاجر الرسول وبعض آله إلى يثرب ، وقامت صلة وثيقة بين الهاشميين وبين الأنصار ، بل بين الهاشميين وبين اليمن الموطن الأصلي للأنصار ، وهذا يفسر لنا كلمات عبد الله بن العباس للإمام الحسين عندما أراد هذا أن يترك الحجاز إلى العراق فقال له ابن عباس : إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقربنهم ، أقيم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن أبيت إلا الخروج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا ، وهي أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت من بنى أمية في عزلة^(٢) .

وإذا كان الإمام الحسين لم يستجب لفكر ابن عباس ولم يتجه إلى اليمن ، فإن كثيرين كانوا يرون في اليمن ملاذا لهم كلما نزلت بهم النوازل في الشمال ، ومن أجل هذا كان اليمن دائما مكانا مناسباً لدعوة الشيعة ، فإليه لجأ دعاة الفاطميين قبل أن يتجهوا للشمال الأفريقي ، وفيه هب على بن الفضل الخنفرى ، وكان يدعو للإسماعيلية ، واستطاع أن يخضع أسعد اليعفرى ويقيم سلطان زبيد ويهاجم صعدة ويمد سلطانته إلى حضرموت ، ولكن كل أعدائه تجمعوا ضده ، ورموه بثتى الانحرافات ، وشرحوا للناس أنه من القرامطة ، وأنه من أعداء الإسلام ، وساعدهم ما انتشر عنه من عبث وسفك دماء ، فانفض الناس عنه وحجمه أحد الأشراف فوضع السم في الموضع فمات سنة ٣٠٣ هـ .

ومن الدعاة الإسماعيلية في اليمن أبو القاسم المنصور حسن بن حوشك الذى نجحت دعوته في بعض مخاليف اليمن .

(١) اليمن الكبرى ص ٢٥٢ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٨٨ وعقيدة الشيعة تأليف هوايت دونالدش

وأيا ما كانت نتائج هذه الدعوات ، فإن الدعوة الزيدية باليمن كانت أكثر الدعوات الشيعية عمقا ورسوخا ، ذلك لكفاءة الإمام الهادي (الإمام الأول للزيدية) ولأن هذا الإمام لم يصل إلى اليمن إلا والدعوة الشيعية قد رسخت فيه تساندها عشائر قوية (١) .

وإذا رجعنا إلى الموراء حوالي قرن من الزمان قبل وصول الهادي أي إذا عدنا إلى العقد الأخير من القرن الثاني الهجري ، نجد اليمن ثائرة هائجة ضد الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي هاله عصيان اليمن ، فأرسل مولاه « حماد البربري » وأوصاه وصيته الشهيرة التي أوردناها من قبل وهي : أسمعني صوت أهل اليمن ، وإذا كان حماد قد نجح في ذلك فإن نجاحه لم يكن إلا كبتا للشعور اليمني ، وسرعان ما تجددت ثورة اليمن بعد وفاة هارون الرشيد بعام واحد .

وكانت ثورة اليمن آنذاك مرتبطة بظهور محمد بن ابراهيم بن طباطبا ابن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بالكوفة يعاونه أبو السرايا السري بن منصور الذي خرج من جيش هزيمة احتجاجا على ما اتهم به المأمون من تعاطف مع الفرس ضد العرب ، وأستولى أبو السرايا على الكوفة والمدائن ++ ودعا للمطالبيين (٢) وظهر ابن طباطبا سالف الذكر ، وسرعان ما اتجه إلى اليمن أحد قادة هذه الحركة وهو ابراهيم الجزار ابن موسى بن جعفر بن محمد علي بن الحسين بن علي والثقف حولة الشيعة الذين كانوا قد كثروا باليمن وبخاصة في صنعاء وحاربهم حمدويه بن عيسى بن ماهان وإلى اليمن من قبل المأمون ، وحقق كثيرا من الانتصارات ، وتركز بلواء صعدة وسمى الجزار لكثرة ما قتل ودمر ، إذ أعلن أن كل خارج عن الإمامة الزيدية لا حرمة لدمه ولا لماله .

وتغلب المأمون على هذه الحركة بعد جهد طويل ، ولكنها خلقت

(١). القاضي الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٦ .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٣ ص ١٧٤ من الطبعة العاشرة .

بصعدة اتجاها زيديا بقى قويا وواضحا ، على أن ما قاساه الشيعة على يد المأمون دفعهم إلى الميل إلى الهدوء وعدم الالتجاء إلى الثورات والاكتفاء بنشر الدعوة وتجميع الأنصار ، وبخاصة أن المأمون عقب ذلك ولى محمد بن عبد الله بن زياد الذى بدأ به الاتجاه الاستقلالى فى اليمن •

الرسّ والأئمة الزيديون

يقال إن «الرس» دار « بالمدينة لأحد زعماء الزيدية ، ويقال إن «الرس» جبل أسود عند ذى الجحفة بالقرب من المدينة ، والنسبة إليها الرسّى ولعل أول من نسب لها هو الإمام القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على وكان يلقب « نجم الأئمة » وهو شقيق محمد بن إبراهيم سالف الذكر ، وقد اختفى بعد وفاة أخيه وانتقل من قطر إلى قطر ثم لجأ إلى الرس واختارها مكانا له ولشييعته وبدأ يُعرف بالرسى •

وأول من طالب بالإمامة من بنى الرسى هو المهادى يحيى بن الحسين ، وقد ذهب له وفد من شيعة اليمن يطلبه للقُدوم لحكم اليمن بعد ما ساءت به الأحوال وكثر الصراع واشتدت شوكة الشيعة ، فقدم المهادى لليمن سنة ٢٨٠ هـ ولكنه لم يجد العون الكافى فعاد أدراجه إلى الرس ، وفى سنة ٢٨٤ عاد شيعة اليمن يطلبون مقدمه ويعيدون بالتجمع حوله ونصرته ، فجاء ومعه آله ، ومريدوه ونزل صعدة والناس حوله وبدأت به ساطة الأئمة باليمن ، ومن صعدة بدأت الدعوة الزيدية تنتشر إلى بقاع أخرى باليمن ، ومن أجل هذا قاد المهادى معارك شرسة قوية ضد كثير من دول اليمن التى كانت موجودة فى عهده وبخاصة بنى يعفر وعلى بن الفضل •

وكان المهادى شخصية ممتازة جديرة بأن تقوم بهذا الدور الكبير الذى فامت به ، فقد نشأ بالمدينة نشأة فيها ضوء العلم ، وفيها ورع وتقوى ،

ولما اكتمل فكرة كتب عدة مؤلفات في الدراسات الإسلامية منها الأحكام ،
والمنتخب ، والفنون ، وعندما قدم اليمن برز فيه جانب القيادة بروزاً
واضحاً ، وتجمعت فيه صفات القائد الناجح ، فكان مترفعاً عن الأهواء
والمنع ، شجاعاً في المعارك ، معتدلاً حتى مع أعدائه ، لم يمنعه ترفعه بنسبه
عن تزويج بناته من غير العلويين (١) .

وعندما بدأ يعد العدة لصراع أعدائه وضع لنفسه نهوذجاً مثالياً أعلنه
على أتباعه في صورة عهد ، قال فيه : أيها الناس إني أشتري لكم
أربعاً على نفسي : الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،
والأثرة لكم على نفسي فيما يكون بيني وبينكم ، وإن أقدمكم عند العطاء ،
وأقدم عليكم عند لقاء العدو .

واشتري لنفسى عليكم اثنتين النصيحة لله في السر والعلانية ، والطاعة
لأمري ما أطعت الله .

كان هذا نهجاً رائعاً نفذه الهادي أدق تنفيذ مما كسب له النصر في أكثر
ما خاض من المعارك .

ومما يذكر أن الهادي ينتهي نسبه بالحسن بن علي ، فهو ليس من
أبناء زيد بن علي زين العابدين ، ولكنه اعتنق الزيدية كما اعتنقها من قبل
أبوه وجده .

وإذا كنا في حديثنا عن الإمارات التي قامت في زبيد وصنعاء قد
توقفنا عند سنة ٥٦٩ هـ وهي السنة التي دخل فيها الأيوبيون اليمن ،
فإننا مع أئمة الزيدية لن نقف عند ذلك التاريخ لأن هؤلاء الأئمة لم يهتفوا
كما هتفوا سواهم ، بل ناضلوا أو طأطأوا الرعوس للقوى التي تفوقهم
لكنهم بقوا على كل حال في أكثر فترات التاريخ حتى سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)
عندما قامت الثورة ضد الإمام البدر .

(١) القاضي الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٠ .

ومما يذكر أن الأئمة الزيدية عاشوا في صراع مع الدول اليمنية الأخرى من سنة ٢٨٤ هـ حتى سنة ١٠٤٥ هـ ثم خلصت اليمن الشمالية للأئمة الزيدية حتى قيام الثورة ، فيما عدا فترة الاحتلال التركي (١) .

ومما يذكر كذلك أن الأئمة الزيدية اندفعوا في كثير من الأحوال إلى صراع مرير ضد بعضهم البعض ، فكان كلما مات واحد منهم ادعى عدد من الزيدية حقهم بولاية الأمر ، ويدور بذلك صراع مرير مما يمكن أن يجعلنا نقرر أن أرض اليمن عرفت الدماء والأهوال بسبب الصراع الذي قام بين فرق الزيدية وأحزابها بعضهم والبعض ، وبين الزيدية من جانب والدول اليمنية من جانب آخر .

ويصف المؤلف اليمني أحمد الجندارى الصراع بين الأئمة بعضهم والبعض أدق وصف حين يقول : وبعد موت المؤيد محمد بن المتوكل إسماعيل ، اختلف آل الإمام فركبوا ، ومثلئ بعضهم من بعض فركبوا ، فطمع الكل في الإمامة ، حتى كادت تقوم القيامة .

وكان المؤيد قد أوصى بالإمامة لابنه يوسف لاعتقاده أنه أحسن إخوته ، ولكن ادعى الحسين بن عبد القادر الإمامة بكو كبن ، وادعاها الحسين بن محمد بعمران ، وعلى بن أحمد بصعدة والحسين بن الحسن برداع ، ومحمد ابن أحمد بالمنصورة وسمى صاحب المواهب ، وصارت الأرض جيفة وفي كل قرية خليفة ، ولكن صاحب المواهب هو الذي غلب ، وصال على أئداده ووثن ، وما ظفر سواه بغير اللقب (٢) .

بقى أن نقول عن الأئمة الزيدية : إن سلطانهم ظل محصورا في المنطقة الشمالية حتى القرن السابع الهجري ثم بدأ سلطانهم يمتد جنوبا إلى صنعاء وإلى المناطق الأخرى في اليمن الشمالية .

(١) القاضي الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ٩٥ - ٩٦ .
(٢) الجامع الوجيز في وفيات أولى العلم والتبريز مخطوط نقلا عن تاريخ اليمن السياسي للدكتور حسن سليمان ص ٢٨٢ وعن اليمن عبر التاريخ للاستاذ أحمد حسين شرف الدين ص ٢٤٧ .

ومنذ أوائل القرن الحادى عشر الهجرى حاول الأئمة أن يندفعوا إلى اليمن الجنوبية ، إلى حضرموت وبخاصة بعد جلاء الأتراك عنها ، ولكن سلطانهم لم يستقر فى تلك المناطق إذ تمسكت منطقة حضرموت بالمذهب الشافعى ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى لم تهيب للزيدية النجاح فى اليمن الجنوبية ، هذا بالإضافة إلى الحياة القبلية التى وجدت لها فى مناطق حضرموت أرضا خصبة ، فدفعت إلى الوراء كل سلطان حاول أن يقضى عليها من الشمال .

وبعد هذه الدراسة عن الأئمة الزيدية باليمن نثبت فيما يلى قائمة بأسمائهم مع بعض المعلومات المهمة التى ترتبط ببعضهم ، وسنلاحظ من هذه القائمة أن التسلسل غير موجود ، فطالما قفز إمام إلى السلطة من غير أولاد الإمام المعزول أو المتوفى ، وأحيانا يتلاحق بعض الإخوة بعد أبيهم ، وأحيانا كان يقوم إمامان أو أكثر فى وقت واحد فى أمكنة متعددة ، ولكن المؤرخين يذكرون أقواهم أو أحقهم ويهملون الآخرين ، وسنلاحظ كذلك وجود أوقات بدون أئمة على الإطلاق . وملاحظة أخيرة هى الألقاب التى تحدث اضطرابا فى الفهم ، فكل إمام لقب كالمهدى والهادى والمنصور والمتوكل ، والمؤيد ... وهى تتكرر أحيانا وكانت ألقاب مملكة فى غير موضعها ، وقد حذفت الكثير منها طلبا للإيضاح .

وفىما يلى هذه القائمة :

١ — الهادى يحيى بن الحسين ٢٨٤ — ٢٩٨ = ٨٩٨ — ٩١١

٢ — المرتضى بن الهادى ٢٩٨ — ٣٠١ = ٩١١ — ٩١٣

(تنجى)

٣ — الناصر بن الهادى ٣٠١ — ٣٢٥ = ٩١٣ — ٩٣٤

تغلب على الداعية منصور بن حسين فى موقعة

(نغاش) إحدى معاركه ضد الباطنية .

- ٤ — المنصور بن الناصر $٣٢٥ - ٣٦٦ = ٩٣٤ - ٩٧٦$
- ٥ — يوسف بن المنصور $٣٦٦ - ٤٠٣ = ٩٧٧ - ١٠١٢$
- ٦ — المنصور القاسم بن علي العياني $٣٨٩ - ٣٩٣ = ٩٩٩ - ١٠٠٣$
الإمامان رقم ٦ ، ٧ قاما في أثناء حكم الإمام رقم ٥ .
- ٧ — المهدي الحسين بن القاسم $٣٩٣ - ٤٠٣ = ١٠٠٣ - ١٠١٢$
- ٨ — أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن $٤٢٦ - ٤٣١ = ١٠٣٥ - ١٠٤٠$
- ٩ — أبو الفتح الديلمي $٤٣٧ - ٤٤٤ = ١٠٤٦ - ١٠٥٣$
- ١٠ — المتوكل أحمد بن سليمان $٥٣٢ - ٥٦٧ = ١١٣٧ - ١١٧١$
- ١١ — المنصور عبد الله بن حمزة $٥٨٣ - ٦١٤ = ١١٨٦ - ١٢١٧$
ينتهي نسبه إلى عبد الله بن الحسين أخى الهادي يحيى بن الحسين
- ١٢ — المعتضد يحيى بن المحسن $٦١٤ - ٦٣٦ = ١٢١٧ - ١٢٣٩$
- ١٣ — المهدي أحمد بن الحسين $٦٤٦ - ٦٥٦ = ١٢٤٩ - ١٢٥٨$
ينتهي نسبه إلى محمد بن القاسم عم الهادي
- ١٤ — يحيى بن محمد السراجي $٦٥٦ - ٦٦٠ = ١٢٥٨ - ١٢٦٢$
ينتهي نسبه إلى الحسن بن زيد بن علي ، سمله سنجر الشعبي عامه
المظفر الرسولي .
- ١٥ — المنصور الحسن بن بدر الدين $٦٦١ - ٦٧٠ = ١٢٦٢ - ١٢٧٢$
- ١٦ — المهدي إبراهيم بن تاج الدين $٦٧٠ - ٦٧٤ = ١٢٧٢ - ١٢٧٦$
حارب المظفر الرسولي وانتصر أحيانا ، ولكنه هزم
أخيرا ووقع أسيرا وظل في الأسر حتى مات .
- ١٧ — المتوكل المطهر بن يحيى $٦٧٦ - ٦٩٧ = ١٢٧٨ - ١٢٩٨$

١٨ — المهدي محمد بن المطهر ٦٩٧ — ٧٢٨ = ١٣٩٨ — ١٣٢٧
استولى على صنعاء وعدن ولحج وحصر ملك الدولة الرسولية في
منطقة تعز +

١٩ — المؤيد يحيى بن حمزة ٧٢٩ — ٧٤٩ = ١٣٢٨ — ١٣٤٩
ينتهي نسبه إلى على زين العابدين بن الحسين

٢٠ — الواثق المطهر بن محمد ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢١ — المهدي على بن صلاح ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢٢ — الداعي أحمد بن على الفقى ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢٣ — المهدي على بن محمد ٧٥٠ — ٧٧٣ = ١٣٥٠ — ١٣٧٣

٢٤ — صلاح الدين بن المهدي ٧٧٣ — ٧٩٣ = ١٣٧٣ — ١٣٩٣

٢٥ — على بن صلاح الدين ٧٩٣ — ٨٤٠ = ١٣٩١ — ١٤٣٦

٢٦ — المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ٧٩٣ — ٧٩٣ = ١٣٩١ = ١٣٩١

٢٧ — الهادي على بن المؤيد ٧٩٦ — ٨٣٠ = ١٣٩٣ — ١٤٢٧

٢٨ — المتوكل المطهر بن محمد الحمزي (في ذمار) +

٨٤٠ — ٨٧٩ = ١٤٣٧ — ١٤٧٥

٢٩ — المهدي صلاح بن على (في صنعاء) ٨٤٠ — ٨٤٩ = ١٤٣٧ — ١٤٤٦

٣٠ — الناصر بن محمد ٨٤٣ — ٨٦٦ = ١٤٣٩ — ١٤٦٢

٣١ — محمد بن الناصر ٨٦٦ — ٩٠٨ = ١٤٦٢ — ١٥٠٣

٣٢ — الهادي عز الدين بن الحسن ٨٧٩ — ٩٠٠ = ١٤٧٥ — ١٤٩٥

٣٣ — الناصر الحسن بن عز الدين ٩٠٠ — ٩٢٩ = ١٤٩٥ — ١٥٢٤

٣٤ — محمد بن على الوشلى ٨٨٠ — ٩١٠ = ١٤٧٦ — ١٥٠٥

فترته متداخلة مع الإمامين قبله ، اعتقله السلطان الطاهري (على
بن عامر) وبقي بسجن صنعاء حتى مات +

(م ٢٨ — التاريخ ج ٧)

٣٥ — شرف الدين بن المهدي ٩١٢ — ٩٦٥ = ١٥٠٧ — ١٥٥٨
اعتزل الإمامة بعد حكمه الطويل

٣٦ — المطهر بن شرف الدين ٩٦٥ — ٩٨٠ = ١٥٥٨ — ١٥٧٣
صراع الأتراك العثمانيين

٣٧ — الحسن بن علي داود ٩٨٦ — ٩٩٣ = ١٥٧٩ — ١٥٨٥
استمر في محاربة الأتراك ولكن هؤلاء قبضوا عليه ونفوه للأستانة

٣٨ — القاسم بن محمد ١٠٠٦ — ١٠٢٩ = ١٥٩٨ — ١٦٢٠
يعرف هو وأولاده بالدولة القاسمية ، قهر الأتراك ، وحصر سلطانهم
في نقاط ضيقة *

٣٩ — محمد بن القاسم ١٠٠٩ — ١٠٥٤ = ١٦٠٠ — ١٦٤٤
تم في عهده جلاء الأتراك للمرة الثانية

٤٠ — اسماعيل بن قاسم ١٠٥٤ — ١٠٨٧ = ١٦٤٤ — ١٦٧٦
امتد نفوذه فشمّل جميع نواحي اليمن ، ومنها حضرموت

٤١ — أحمد بن الحسن بن القاسم ١٠٨٧ — ١٠٩٢ = ١٦٧٦ — ١٦٨١
٤٢ — المؤيد محمد بن اسماعيل بن القاسم

١٠٩٢ — ١٠٩٧ = ١٦٨١ — ١٦٨٦

٤٣ — محمد أحمد بن القاسم ١٠٩٨ — ١١٣٠ = ١٦٨٧ — ١٧١٨
يعرف بصاحب المواهب نسبة لقرية بناها وسمّاها « المواهب » *

٤٤ — الحسين بن القاسم بن المؤيد ١١٢٧ — ١١٣١ = ١٧١٦ — ١٧٢٠

٤٥ — القاسم بن حسين ١١٢٨ — ١١٣٩ = ١٧١٦ — ١٧٢٧

٤٦ — محمد بن إسحق ١١٣٥ — ١١٣٥ = ١٧٢٣ — ١٧٢٣

٤٧ — الحسين بن القاسم ١١٣٩ — ١١٦١ = ١٧٢٧ — ١٧٤٧

٤٨ — عباس بن الحسين بن القاسم ١١٦١ — ١١٨٩ = ١٧٤٨ — ١٧٧٥

٤٩ — على بن الحسين بن القاسم ١١٨٩ — ١٢٢٤ = ١٧٧٥ — ١٨٠٩

٥٠ — أحمد بن الحسين بن القاسم ١٢٢٤ — ١٢٣١ = ١٨٠٩ — ١٨١٦

٥١ — عبد الله المهدي بن الحسين بن القاسم

١٢٣١ — ١٢٥١ = ١٨١٦ — ١٨٣٥

٥٢ — أحمد بن علي السراحي ١٢٤٧ — ١٢٤٧ = ١٨٣١ — ١٨٣١

٥٣ — علي بن المهدي ١٢٥١ — ١٢٥٢ = ١٨٣٥ — ١٨٣٦

بدأ في عهده غزو الأتراك الثالث لليمن

٥٤ — عبد الله بن الحسن بن أحمد بن المهدي

١٢٥٢ — ١٢٥٦ = ١٨٣٦ — ١٨٤٠

في عهده احتل الانجليز عدن — قتل في ثورة همدان سنة ١٢٥٦

٥٥ — محمد بن أحمد بن الحسين ١٢٥٦ — ١٢٥٩ = ١٨٤٠ — ١٨٤٣

٥٦ — محمد بن يحيى بن المنصور ١٢٦٠ — ١٢٦٥ = ١٨٤٤ — ١٨٤٩

٥٧ — أحمد بن هاشم ١٢٦٤ — ١٢٦٥ = ١٨٤٨ — ١٨٤٩

٥٨ — العباس بن عبد الرحمن ١٢٦٦ — ١٢٦٦ = ١٨٥٠ — ١٨٥٠

٥٩ — غالب بن المتوكل محمد ١٢٦٧ — ١٢٦٨ = ١٨٥١ — ١٨٥٢

٦٠ — محمد بن عبد الله الوزير ١٢٦٩ — ١٣٠٧ = ١٨٥٣ — ١٨٩٠

٦١ — الحسن بن أحمد ١٢٧١ — ١٢٩٥ = ١٨٥٥ — ١٨٧٨

٦٢ — حسين بن محمد بن الهادي ١٢٧٥ — ١٢٧٩ = ١٨٥٩ — ١٨٦٣

٦٣ — شرف الدين بن محمد ١٢٩٦ — ١٣٠٧ = ١٨٧٨ — ١٨٩٠

٦٤ — محمد بن يحيى حميد الدين ١٣٠٧ — ١٣٢٢ = ١٨٩٠ — ١٩٠٤

٦٥ — يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين

١٣٢٢ — ١٣٦٧ = ١٩٠٤ — ١٩٤٨

جعل صنعاء عاصمة له وانتقل لها من صعدة

- ٦٦ — أحمد بن يحيى ١٣٦٧ — ١٣٨٢ = ١٩٤٨ — ١٩٦٢
٦٧ — البدر بن أحمد ١٣٨٢ = ١٩٦٢ (عدة أيام ثم هبت
ثورة السلال)
-

وقد بدأ الأئمة نشاطهم في صعدة كما تلانا من قبل ، ثم امتد سلطانهم إلى أكثر اليمن الشمالية وبعض بقاع اليمن الجنوبي ، وانتهى الأمر بسيطرتهم على اليمن الشمالي كله ، وعلى انفصال اليمن الجنوبي ، وسنترك الآن الأئمة الزيدية لنواصل حديثنا عن عدن منذ ظهرت بها اتجاهات استقلالية حتى زحف الأيوبيون على اليمن كله .

وبعد الأيوبيين جاء على نظامهم بنو رسول وبنو طاهر والمساليك المصريون ، ثم ظهر الأتراك العثمانيون واقتحموا اليمن ، ولم يقف أمامهم في حلبة النضال إلا الأئمة ، ولم يجد اليمنيون قيادة غيرهم في الصراع ضد العثمانيين ، ومن أجل هذا التفتوا حولهم ، وظهر بعض الأئمة قادة ممتازين قادوا الشعب بمهارة في هذا الصراع الطويل .

عدن

عدن — كما يقول ياقوت — مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، لا ماء بها ولا مرعى ، وعدن مرفأ هام ، وتسمى « عدن أمين » وأبين مخالف باليمن عدن من جملته ، وتعد عدن من أقدم أسواق العرب ، وهى تطل على البحر . ويحيط بها جبل لم يكن فيه طريق يصل عدن بما خلف الجبل ، فقطع فى الجبل باب فصار لها طريق إلى البر ، ويورد ياقوت أسبابا عدة من تسمية عدن وأكثرها يتجه إلى نسبتها إلى أشخاص سمووا بهذا الاسم (١) .

وفى التاريخ القديم كانت عدن تسمى « أدانا » وكانت أهم الموانى فى جنوب شبه الجزيرة العربية عند مضيق باب القندب حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد ، إبان دولة سبأ التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وكانت دولة سبأ تحتكر التجارة بين البلاد العربية وبين البلاد الشرقية (الهند والصين) ومن أجل هذا لم تكن تسمح للسفن العربية الهابطة من البحر الأحمر بأن تجتاز المضيق وتواصل سيرها فى الخط التجارى الذى احتكرته سبأ ، وكانت سبأ تشتري التجارة الهابطة وتقوم بتسويقها حيثما تشاء ، وتبيع لتجار الشمال ما يحتاجونه من حاصلات الأقطار الشرقية ، وظل الحال على ذلك حينا حتى سقطت سبأ ، وضعفت حمير من بعدها ، ولم يعد فى سلطة حكام اليمن أن يوقفوا السفن عن اجتياز المضيق ومواصلة الرحلة فى المحيط الهندى إلى الشرق .

وفى كلتا الحالتين كانت عدن أهم ميناء تقف فيه السفن الهابطة والمساعدة لتزود بحاجياتها قبل أن تواصل سيرها فى المحيط الهندى أو البحر الأحمر .

ولم تصبح عدن مملكة قائمة بذاتها إلا ابتداء من دولة بنى زريع سنة ٤٧٦ هـ ، وكانت قبل ذلك ولاية تابعة لآل زياد وآل نجاح والصلحيين ، وسنحدث فيما يلى عن عدن فى فترة استقلالها .

بنى زريع فى عدن

٤٧٦ — ٥٦٩ هـ

من بنى صليح إلى بنى زريع :

عندما استولى على بن محمد الصليحي على اليمن مد سلطانه إلى عدن فوجد بها بنى معن الحميريين ، وكان هؤلاء قد تغلبوا على لحج والشحر وحضرموت ، وقد أظهر هؤلاء ولاءهم لبنى صليح وعاونوهم فى هروبهم ضد بنى نجاح ، ومن أجل هذا أبقاهم على الصليحي على ما تحت أيديهم على أن يكونوا نوابا عنه فى حكم هذه البقاع : والمتزم بنو معن بذلك ، وقنعوا بالسلطة فى ظلال التبعية لبنى صليح .

ولما خطب الصليحي الأميرة أروى التى تحدثنا عنها من قبل إلى ابنه المكرم جعل دخل مدينة عدن وما حولها صداقا لها ، كما قرر أن يدفع لها هذا الخراج كل عام هدية لها ، وظل بنو معن يدفعون للسيدة أروى هذا الخراج حتى سقط على بن محمد الصليحي بسيوف بنى نجاح سنة ٤٥٩ هـ فاستبد بنو معن بما تحت أيديهم ، وتوقفوا عن دفع الخراج للسيدة أروى ، ولكن زوجها (السلطان المكرم) انتظر ريثما فرغ من المشكلات التى كانت تحيط به ، فلما جاءت سنة ٤٦٧ هـ هاجم المكرم بنى معن وطردهم من عدن وما والاها ، وقضى على نفوذهم تماما .

بدء سلطة بنى زريع :

لما استقر الأمر للمكرم الصليحي فى عدن وما حولها جعل ولايتها للعباس ومسعود ابنى المكرم الجسمى بن يام بن أصبى الزريعى — ويعرف بابن الذئب مما جعل المؤرخين يطلقون على الزريعيين أحيانا « بنى الذئب » (١) وجعل المكرم الصليحي للعباس حصن التعكر وما يليه من

(١) جمال الدين يوسف بن يعقوب : صفة بلاد اليمن ص ١٢١ .

البر ، وللسعود حصن الخضراء وما يليه من البحر ، وله كذلك مدينة عدن ، إذ خان هذا قد أبلى بلاء حسنا في الصراع الذي دار بين المكرم العليحي وبين بنى نجاح ، والذي استطاع المكرم بواسطته أن ينقذ أمه وصواحباتها من أسر بنى نجاح ، وقد أثرنا لهذا الصراع من قبل ، واستخلص المكرم العباس والسعود على أن يدفع كل منهما للسيدة أروى مبلغ خمسين ألف دينار كل عام ، وقد استمرا على ذلك طيلة حياتهما وسار على ذلك أبناؤهما من بعدها مع تخلف وانتفاض في بعض السنوات .

وهكذا أصبح بنو زريع شبه مستقلين في هذه البقاع ، على أن الزمن قد مر وسقط بنو صليح ، وماتت السيدة أروى وظهر على أثر بنى هليلج بنو مهدي وبنو همدان ، ولكن عناصر من بنى زريع قفزت إلى السلطة وتلقدها خلفاء الفاطميين سلطة الدعوة باسمهم ، وقد استمر ذلك حتى سقطت الخلافة الفاطمية بمصر ، وقام الأيوبيون مقامهم ، فتطلعوا إلى أن يرثوا أملاك الفاطميين ومن ضمنها اليمن كما سنرى فيما بعد .

وقائمة سلاطين آل زريع هي :

في حصن التعكر	في حصن الخضراء وعدن
العباس بن المكرم ٤٧٠ — ٤٧٧	المسعود بن المكرم ٤٧٠ — ٤٨٠
زريع بن العباس ٤٧٧ — ٤٨٠	أبو الغازات بن المسعود ٤٨٠ — ٤٨٥
أبو السعود بن زريع ٤٨٠ — ٤٩٤	محمد بن أبي الغازات ٤٨٥ — ٤٨٨
	علي بن محمد ٤٧٨ — ٤٨٩
الداعي سبأ بن أبي السعود (في المنطقتين)	٤٨٩ — ٥٣٣

والداعي سبأ هو ابن أبي السعود بن زريع ، وكان عظيم الشخصية في عهد أبيه ، حارب ابن عمه علي بن محمد حاكم حصن الخضراء وعدن ، وانتصر عليه ، واستولى على منطقته سنة ٤٨٩ هـ ثم ورث أباه في حصن

التعتر سنة ٤٩٤ هـ فدانت له المنطقة كلها ، وقاده الخليفة الفاطمي بمصر
الدعوة ، وسمى الداعي سبأ ، وظل في سلطانه إلى أن مات سنة ٥٣٣ •

الداعي محمد بن سبأ (في المنطقتين) ٥٣٣ — ٥٥٠

عمران بن محمد بن سبأ (في المنطقتين) ٥٥٠ — ٥٦٠

أبو الدر جوهر المعطى وصيا على أولاد عمران ٥٦٠ — ٥٦٩

ويقول تاج الدين اليماني ^(١) عن محمد بن سبأ : إن لقبه كان المعظم
المقوج الكبير ، وكان ممدحا ، ويقصده الشعراء فيجزل لهم العطاء ، وكان
جوادا كريما ، توسع في الملك ، وغلب على أكثر البلاد ، وعندما توفيت
السيدة أروى سنة ٥٣٣ انتقل ما كان بيدها من الحصون والذخائر إلى
المنصور بن الأفضل ، فابتاع الداعي محمد منه الحصون والبلاد سنة ٥٤٦
وسكن الداعي بذي جبلة — ولما مات سنة ٥٦٠ انتقل الأمر إلى ذرارية ، إلى
أن نفاهم سيف الإسلام توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة
٥٦٩ هـ •

مصر في اليمن

مطلع الدعوة الفاطمية :

إن الحركة العلوية التي أثمرت خلافة فاطمية بالشمال الأثري قبيل نهاية القرن الهجري الثالث ، كانت قد بدأت نشاطها قبل ذلك في اليمن ، وإذا كانت أضرحة أئمة أهل البيت في النجف وكرلاء عُدّت المكان الملائم لاختيار الدعاة العلويين ، فإن اليمن كانت المكان الملائم لنشاط هؤلاء الدعاة .

وقد سبق أن ذكرنا المميزات التي جعلت اليمن تنعم بهذه المكانة وهي بعدها عن مركز السلطة في دمشق وبغداد ، وكثرة ما بها من أغوار وكهوف ونجاد ، ولما كان بها من مذاهب وفلسفات متعددة قبل الإسلام ، ثم لما كان يربطها بالهاشميين من روابط ووشائج ، ويضيف على بن الفضل اليماني سببا آخر جعل اليمن بلادا مناسبة للدعوة الفاطمية ، وهو في ذلك يقول : « والله ان الفرصة ممكنة في اليمن ، وان الذي تدعون إليه جائز هنالك ، وناموسنا يمشى عليهم فإن فيهم ضعف العقول ، وقلة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية » .

وعلى هذا أرسل الفاطميون دعائهم إلى اليمن ليقوموا بالدعوة للإمام أبي عبد الله المهدي ، وبعد وفاة هذا استمرت الدعوة لابنه عبد الله المهدي (١) .

وكان أول الدعاة الفاطميين باليمن أبا القاسم الحسن بن خوشب وهو من ولد عقيل بن أبي طالب ، وعلى بن الفضل الخنفرى اليماني ، وقد أوحى أبو عبيد الله المهدي داعيته أبا القاسم بقوله : أجمع المال والرجال وألزم الصوم والصلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ، ولا تُظهر الباطن ،

(١) انظر هذه الموسوعة ج٤ ص ٣٢٣ وما بعدها .

وأوصاه بعلى بن الفضل قائلاً عنه : هو شاب قريب عهد بالأمير ، فانظر
تكيف تسوس أمره .

ووجه المهدي نصحه لعلى بن الفضل قائلاً : إن هذا الرجل (ابن
حوشب) الذي نبعت به معك هو بحر علم ، فانظر كيف تمسحبه ، وقتره* ،
واعرف له حقه ، ولا تخالفه فيما يراه لك ، انه اعرف منك ، وإنك إن
خالفت لم ترشد

واتجه إلى الاثنين قائلاً : أبعثكما إلى اليمن تدعوان إلى ولدي هذا ،
فسيكون له ولذريته عز وسلطان ، وأن الله عز وجل قسّم لليمنيين ألا
يتم أمره في هذه الشريعة إلا بنصرهم (١) .

وخرج الداعيان معا حوالي سنة ٢٦٨ هـ ثم افترقا ، فذهب كل منهما
إلى مكان باليمن على أن يتصل أحدهما بالآخر من حين إلى حين ، وقد
اتجه أبو القاسم إلى عدن ، وأخذ على بن الفضل وجهته إلى بلاد يافع
الجبالية بالقرب من الجند .

ونجح الاثنان نجاحاً موفوراً للأسباب التي ذكرناها ، وبسبب
الاضطرابات السياسية التي كانت سائدة باليمن آنذاك ، وعندما أحس
أبو القاسم بما ناله من نجاح تسمى « منصور اليمن » ودانت له بقاع
كثيرة باليمن من أهمها ذخار وشبام *** وحقق على بن الفضل نجاحاً واسعاً
بطريق القوة تارة والدعوة تارة أخرى ، وبطريق التآمر تارة ثالثة ، ودانت
له عدن وصنعاء وزبيد .

ولكن النصر العسكري خلق كثيراً من الغرور والأطماع في نفس على
ابن الفضل ، فبدأ يظهر التمرد والرغبة في الاستقلال بل اتجه إلى الانحراف

(١) 'نقول من « افتتاح الدعوة الزهراء » مخطوط لمحمد بن منصور
التميمي (النعمان) .

والخطيئة كما ذكرنا من قبل ، وتغلّبت عليه ثقافة قرمطية قديمة كانت ألقت بذورها في نفسه ، ولعل هذا هو ما جعل المهدي لا يُستقبل على اليمن وآثر أن يتبع أبا عبد الله الشيعي الذي كانت دعوته قد حققت نجاحا عظيما في الشمال الافريقي ، وقد اغتيل على بن الفضل سنة ٢٠٢ هـ ومات ابن حوشب في العام التالي سنة ٢٠٣ هـ .

والمهم أن الخلافة الفاطمية قامت في الشمال الافريقي ولكن الفاطميين كانت لهم دعوة ناجحة في اليمن . وانتصارات لا تنسى ، وإذا كان الفاطميون قد شغلتهم الأحداث في الشمال الافريقي وفي مصر . فإنهم لم ينفسوا اليمن الذي كان على وشك أن يكون قاعدة لسلطانهم .

على أنا نعتقد أن أطماع الفاطميين جعلتهم يؤثرون أن تقوم دولتهم في الشمال الافريقي وفي مصر ليكونوا على صلة بمناطق النشاط بالمعالم الإسلامي ، بدل أن تقوم دولتهم في اليمن حيث يصعب أن يمتد منها سلطانهم إلى مناطق أخرى .

والمهم أن صلة وثيقة قامت بين مصر التي انتقلت لها الخلافة الفاطمية ، وازدهرت بها ، وبين اليمن منذ ذلك التاريخ البعيد .

تجدد الدعوة الفاطمية باليمن :

عندما قامت الدعوة الفاطمية بمصر تطلع الخلفاء الفاطميون إلى أن يستعيدوا نفوذهم باليمن ، ووجدوا في بنى صليح وسيلتهم لذلك ، وقد ساعد الفاطميون بنى صليح ماديا وأدبيا حتى قامت دولتهم في صنعاء واتسعت إلى أماكن أخرى باليمن ، وهذا الوضع وثق الصلة بين مصر واليمن .

الأيوبيون في اليمن

٥٦٩ — ٦٢٦ هـ = ١١٧٤ — ١٢٢٩ م

لماذا دخل الأيوبيون اليمن ؟ :

إن المراجع التي بين أيدينا تعطي لذلك أسبابا متعددة ، ولكنى لم أستطع تقبل هذه الأسباب . ومع هذا فلنوردها أولا ، ثم نورد بعد ذلك الرأي الذي نراه .

— يقول ابن الأثير ^(١) : إن السبب في إرسال صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن يرجع إلى أن صلاح الدين كان خائفا أن يأخذ نور الدين منه مصر ، ولذلك فكر في الاستيلاء على باد آخر ليلجأ إليه في حالة استيلاء نور الدين على مصر ، واقتضى هذا أن يُسَيِّر صلاح الدين أخاه إلى بلاد النوبة ولكنها لم تعجبه ، فسيره صلاح الدين إلى اليمن .

ويورد ابن الأثير ^(١) نصا آخر يحمل فكرة أخرى فيقول : إن توران شاه استأذن نور الدين في أن يسير إلى اليمن لمحاربة صاحب زبيد الذي قطع الخطبة لبنى العباس ، فأذن له بذلك .

ويرى ابن واصل أن قطع الخطبة لبنى العباس كان أيضا السبب في زحف الأيوبيين إلى اليمن ، وهو في ذلك يقوِّق ^(٢) لما ملك على بن مهدي زبيد وقطع خطبة بنى العباس ، وخطب نفسه ، استأذن صلاح الدين نور الدين أن يسيرَ عمكرا إلى اليمن فأذن له بذلك .

وهكذا نرى أن الأسباب التي يوردها المؤرخون لدخول الأيوبيين اليمن تدور في نطاق قطع الخطبة لبنى العباس ، أو في نطاق أحاسيس

(١) الكامل في التاريخ ١١ ص ١٤

(٢) مفرج الكروب ج١ ص ٢٣٨

المخلاف بين نور الدين وصلاح الدين ، ولكنى فى الحق لم أقنع بهذه الأسباب ، ففرار الأيوبيين من مصر لليمن خوفا من نور الدين لن يجعلهم بمأمن منه ، فإذا كانت اليد الطولى لنور الدين فإنه يستطيع بسهولة أن يلحق بهم فى اليمن ويتضى عليهم •

أما أن يقوم الأيوبيون بهذه الحملة لأن صاحب زبيد قطع الخطبة لبني العباس فيناقضه أن حملة الأيوبيين كانت على اليمن كله ولم تقف عند زبيد ، ثم إنها لم تكتف بتأديب المتمردين بل استقرت فى اليمن وحكمته •

وعلى هذا فإننى أرى من تتبعى الأحداث التاريخ أن السبب الحقيقى كان يكمن فى اعتقاد الأيوبيين أنهم ورثوا ملك الفاطميين بكل اتساع يشملهم هذا التعبير ، ومن أجل هذا الاعتقاد زحف الأيوبيون إلى كل مكان امتد له سلطان الفاطميين ، سواء كان ذلك فى اليمن أو فى الشمال الإفريقى ، أو فى الحجاز ، أو فى النوبة ، وكان اهتمام الأيوبيين بالحجاز واليمن أكثر ، لأن سلطان الفاطميين كان أطول ، وأثبت فى هاتين المنطقتين

ومما يؤكد أن ملك الأيوبيين فى اليمن كان امتدادا لسلطان الفاطميين بها ما أورده كاتب يمنى ^(١) من أن الشريف قاسم بن يحيى ، وهو من كبار أعيان المخلاف المسلمين استنجد بالخليفة العاضد ضد نشاط آل مهدي فى زبيد وجميع المدن والقرى التهامية ، وأن العاضد استجاب لذلك وأمر وزيره صلاح الدين أن يأخذ فى نجدة ، فبعث صلاح الدين أخاه توران شاه الملقب شمس الدين إلى اليمن ومعه قوة كبيرة ... وهذا رأى يوضح أيضا أن الحملة الأيوبية لم تكن من أجل العباسيين ، بل كانت دفاعا عن سلطان الفاطميين بهذه البلاد ، ذلك السلطان الذى ناله صلاح الدين بعد أن قضى على الدولة الفاطمية •

(١) تاج الدين بن عبد المجيد : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ص ٢٥ وما بعدها •

وقد بدا الزحف الأيوبي على اليمن في شوال سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) واتخذ رجسته زبيد ، وسرعان ما انتصر على عبد النبي بن المهدي ، وقضى على مقاومته وآسره ، واستولى على أمواله ^(١) وسار الزحف الأيوبي من زبيد إلى عدن فقضى على آل زريع ، وقبض على القوائم بأمر الأولاد المنتصر من بني زريع ^(٢) ثم غادرها إلى ذي جبلة حيث أنهم حكم الصليحيين دعاة الفاطميين ؛ لأن سلطان الفاطميين بمصر كان قد أوقف ، وأصبح من الضروري إيقاف نشاط دعائهم حتى لا يثوروا من أجلهم . وامتد حكم الأيوبيين إلى صنعاء ، وإلى مناطق كثيرة من حضرموت ^(٣) وكان الزيدية قد ضعفوا واشتد بينهم الخلاف حتى أنهم لم يستطيعوا أن يعينوا إماما لهم في المدة بين سنة ٥٦٦ و ٥٩٣ وكان هذا مما يسر زحف الأيوبيين ونجاحهم ^(٤) .

واسس توران شاه عاصمة جديدة له هي « تعز » واهتم بتعمير اليمن مما قاسى من صراعات وشدائد ، ويروى أنه لما رأى جنده يحاولون تخريب بعض المدن عقب الاستيلاء عليها للتأكد من خلوها من جنود المقاومة صاح فيهم : ما جئنا لتخريب البلاد ، وإنما جئنا لنحكمها ونعمرها .

ولكن مقام توران شاه باليمن لم يطل ، إذ استأذن صلاح الدين في العودة إليه ، فأذن له ، فعاد بعد حوالى العام ، وولى توران شاه الولاية على نواحى اليمن فجعل على زبيد أبا اليمون المبارك الاكثانى المشهور بسميث الدولة ، وعلى تعز ياقوت التغزى ، وعلى الجند مظفر الدين ، وعلى عدن الزنجبلى .

بيد أن صراعا دار بين هؤلاء الولاة ابتداء من سنة ٥٧٦ فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين للقضاء على الفتن وإعادة السلام والولاء ، وقد استطاع طغتكين أن يستولى على البلاد بكثير من اليسر إذ خضع له هشرو الفتن ، إثر فرار من وجهه ، واستولى بذلك على جميع اليمن ، واحتفظ بالندسيرة

- (١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٥ ص ١٧٨ .
(٢) ابن زبيد المجيد : بهجة الزمن ص ٧٦ .
(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج١ ص ٣٤١ .

في جبال الحافر ، وسور زبيد وصنعاء ، وإليه ينسب بستان السلطان في صنعاء ، وخضعت له عدن وحضرموت ^(١)

وفيما يلي قائمة سلاطين الأيوبيين باليمن :

السلطان توران شاه بن أيوب	٥٦٩ — ٥٧٠ هـ
ولادة توران شاه على النواحي	٥٧٠ — ٥٧٩
السلطان طغتكين بن أيوب	٥٧٩ — ٥٩٠
المعز اسماعيل بن طغتكين	٥٩٠ — ٥٩٨
السلطان المنصور بن طغتكين	٥٩٨ — ٦١١
السلطان المسعود يوسف بن الكامل	٦١١ — ٦٢٠
عمر بن علي بن رسول الغساني نائباً عن السلطان يوسف	٦٢٠ — ٦٢٦ (٢)

ومما يذكر أن المعز اسماعيل كان من أهم أسباب انهيار النفوذ الأيوبي باليمن ؛ إذ كان مضطرب الاتجاهات ، فقد أعلن التشيع ولكنه في الوقت نفسه انتسب إلى بني أمية وانتقص من بني العباس ، وادعى الخلافة ، كما كان شحيحاً مع الجند كثير الغدر ، مما قوى نفوذ إمام الزيدية عبد الله ابن حمزة ، ودفع الكثيرين من قادة اليمن إلى الالتحاق بهذا الإمام ^(٣)

وبمقتل المعز اسماعيل سنة ٥٩٨ هـ عادت الأمور مرة أخرى لصالح الأيوبيين ، وذلك بسبب نفوذ الأتابك الذين كان لهم الإشراف على الناصر أيوب بن طغتكين ، ولكن ذلك الاستقرار لم يطل ، وعادت الاضطرابات لليمن مرة أخرى ، فرأى السلطان العادل الأيوبي خطورة الوضع في اليمن ، فأغذ قوة جديدة لاستعادة سلطان الأيوبيين ، وكان يقودها

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢١٦ .

(٢) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي

ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) يحيى بن الحسين غاية الثمانى ج ١ ص ٣٢٩ — ٢٣٠ .

المسعود بن الكامل ، وقد استطاع المسعود أن يحقق نصرا على كل أعدائه ولأنه سرعان ما استندعى إلى مصر ، فاناب بها عنه عمر بن رسول (١) .

وبوفاة السلطان المسعود ، وبدء تدهور شأن الأيوبيين في مصر أخذ امر اليمن ينتقل لبنى رسول . ولكن الباحث المدقق يحس أن الارتباط بين اليمن وبين مصر في عهد المماليك لم ينقص تماما بانتقال الأمر لبني رسول ، فقد ظل هناك نوع من الارتباط يلحظه الباحث من قراءته عن رحلات سلاطين بنى رسول لمصر ، ومن الثابت أن السلطان الأخير من سلاطين بنى رسول (المسعود أبو القاسم) قد رحل إلى مصر وكانت رحلته كما سنرى خطوة تحول من بنى رسول إلى بنى طاهر ويتحدث المؤرخ اليمنى أحمد حسين شرف الدين (٢) عن هذه الرحلة فيقول : استولى بنو طاهر على زبيد بعد سفر المسعود إلى الديار المصرية للمرة الأخيرة ، وهذه العبارة تدل على تكرار رحلات هؤلاء السلاطين إلى مصر ، وبالتالي على وجود العلاقة .

وسيرا مع هذا الاتجاه يمكن ان نرى في زحف المماليك الشراكسة من مصر إلى اليمن في عهد قنصوه الغوري امتدادا لتمسك مصر بالعلاقة بين البلدين الحقيقيين .

وقبلا ، أن نترك حكم الأيوبيين لليمن ينبغي أن نقرر أن انضمام اليمن لمصر في تلك الفترة الحاسمة في تاريخ العرب والمسلمين كان عندهم الجدوى ، فقد اشتركت اليمن أرضها وشعبها في الصراع الذى كان يفتوقده صلاح الدين وخلفاؤه ضد الصليبيين ، وكان ذلك من أسباب النصر الذى نالته القوى الإسلامية .

وبعد الأيوبيين لم تقم باليمن إلا دولة واحدة وبجانبا القبلية التى انتشرت ، وبخاصة في اليمن الجنوبية ، ثم تحولت إلى سلطانات متعددة ذات أساس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فيما بعد .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج٢ ص ٣٣ .

(٢) اليمن عبر التاريخ ص ٢٢٧ .

بنو رسول

٦٢٦ - ٨٥٨ هـ = ١٢٢٩ - ١٤٥٤ م

إن تسمية بنى رسول لها قصة ؛ فإن نسبهم ينتهى إلى محمد بن هارون الغساني ، وكان هذا أثيرا عند الخليفة العباسى ، فأرسله عدة مرات إلى سلاطين الأيوبيين بمصر ، فأطلق عليه لقب « رسول » .

ويميل المؤرخون ^(١) اليمينيون إلى الربط بين هذه الأسرة وبين الوطن اليمنى ، واعتبار دولة بنى رسول دولة يمنية وليست دخيلة ، ولذلك يعتبرون محمد بن هارون من حفدة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، وهذا بدوره ينتهى نسبة إلى زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر .

أما Stanley Lane' Pool فيرى أن بنى رسول ينحدرون من أصل فارسى ، ودليله على ذلك أن جدهم يسمى « رستم » وهو اسم فارسى ^(٢) ولكن فاته أن بعض الأسماء الفارسية دخلت بلاد اليمن منذ احتلال الفرس لليمن فلا ينهض ذلك دليلا .

ويتجه بعض الباحثين إلى أن بنى رسول من أصل « تركمانى » ^(٣) ودليلهم على ذلك أن محمد بن هارون كان يتكلم اللغة التركمانية ولكننا نرى أن معرفة اللغة لا يعنى ارتباط العرق .

وقد رأينا أن بنى رسول قد بدأوا سلطانهم نوابا عن الأيوبيين وقد قنع عمر بن على أول سلاطين بنى رسول بهذه النيابة منذ عاد السلطان مسعود آخر سلاطين الأيوبيين إلى مصر سنة ٦١٥ هـ حتى وفاة السلطان

(١) انظر العقود اللؤلؤية للخزرجى ج ١ ص ٢٦ - ٢٨ .

(٢) Muhammadan Dynasties P. : 92 .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ قسم ١ ص ٢٣٤ .

مسعود سنة ٦٢٦ هـ فأعلن عمر استقلاله بالأمر في اليمن ، واستصدر بذلك أمرا من الخليفة الظاهر بن الناصر العباسي ، وضرب السكة باسمه ، وأمر الخطباء فدعوا له في خطب الجمعة ، وبدأ بذلك ملك بنى رسول .

ومما يذكر أن السلطان مسعود عندما أناب عنه عمر بن علي خاف أن يطغى بنو رسول على اليمن فقبض على بدر الدين وفخر الدين أخو عمر وصحبهما معه إلى مصر ليضعف من شوكة بنى رسول ، وقد ظل هذان في مصر حتى سنة ٦٤٩ هـ فأعيدا إلى اليمن في عهد المظفر بن عمر . ولكن هذا أودعهما السجن أيضا ، ولذلك يروى أن بدر الدين قال وهو يُدفع سجيناً إلى القلعة : قبحك الله قطعة ، أخرجنا منك مقيدين وعدنا إليك مقيدين (١) .

وكان عمر بن علي يحس بالرهبة تجاه السلطان مسعود لقسوته مع بدر الدين وفخر الدين ، لذلك حرص عمر على التقرب للعمامة لعلهم يكونون درعا له إذا غضب عليه السلطان مسعود ، أو لعلهم يؤيدونه بعد مسعود ، وهذا هو الذي يسر الأمر لعمر ، فما كاد يصله خبر وفاة السلطان مسعود حتى استبد بالأمر ، واتخذ الوسائل لذلك كما رأينا آنفا .

وقد طالبت مدة بنى رسول باليمن فاستمرت أكثر من قرنين ، واتسع ملكهم فشمل أكثر بقاع اليمن الشمالية والجنوبية بما في ذلك حضرموت ، وقهروا الأئمة في كثير من الأحوال وأذاقوهم الويلات .

ولما ضعف شأن الأئمة من طول صراعهم ضد بنى رسول اتجه بنو رسول إلى إهمالهم ، وقنعوا بإرسال الإمدادات إلى منافسيهم ، وإلى بعض عمالهم ليحملوا عنهم عبء هذا الصراع وكان ظاهر بن عامر أحد عمال بنى رسول من أكثر العمال ملاحقة للأئمة ، وقد استطاع أن يستولى على

(١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص ٨٥ .

بعض معاقلهم ، ويطرده منها العمال المواليين للإمام على بن صلاح الدين ^(١) وسلاطين بنى رسول هم :

- ١ — المنصور عمر بن على بن رسول ٦٢٦ — ٦٤٧ هـ
- ٢ — المظفر يوسف بن عمر ٦٤٧ — ٦٩٤
- ٣ — الأشرف (الأول) عمر بن يوسف ٦٩٤ — ٦٩٦
- ٤ — المؤيد داود بن يوسف ٦٩٦ — ٧٢١
- ٥ — المجاهد على بن داود ٧٢١ — ٧٦٤
- ٦ — الأفضل العباسي بن المجاهد ٧٦٤ — ٧٧٨
- ٧ — الأشرف (الثاني) اسماعيل بن العباس ٧٧٨ — ٨٠٣
- ٨ — أحمد بن الأشرف الثاني ٨٠٣ — ٨٢٩
- ٩ — المنصور بن أحمد ٨٢٩ — ٨٣٠
- ١٠ — الأشرف (الثالث) بن منصور ٨٣٠ — ٨٤٢
- ١١ — يحيى بن الأشرف (الثالث) ٨٤٢ — ٨٥٠
- ١٢ — المسعود أبو القاسم بن الأشرف الثالث ٨٥٠ — ٨٥٨

الاتجاهات الحضارية لبنى رسول :

شغف كثير من سلاطين بنى رسول بالدراسة وتأليف الكتب التى تناولت مختلف المجالات ، ومن هؤلاء السلطان المظفر الذى درس الحديث والفقه والنحو وغيرها ، واشتغل منذ شبابه بدراسة الطب .

وكان الأشرف الأول بن السلطان المظفر متضلعا فى بعض علوم الطب ، وفلاحة الأرض ، ومن مؤلفاته (كتاب الجامع فى الطب ^(٢)) وكتاب (التفاحة فى معرفة الفلاحة) ^(٣) .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج٢ ص ٥٤١ .
 (٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٦٤ و ٥٤١ .
 (٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج١ ص ٤٧٦ .

أما المؤيد بن المظفر فيروى أنه حفظ مقدمة ابن بابشاذ^(١) في النحو وكفاية المتحفظ في اللغة ، واحتوت خزانة كتبه على مائة ألف مجلد ، وله مؤلف عن الخيل وأنواعها وصفاتها وبيطرتها •

والأفضل بن المجاهد ألف كثيرا من الكتب منها كتاب : « نزهة العيون في تاريخ طرائف القرون » وكتاب : « العطايا السننية في المناقب اليمنية^(٢) » وكتاب : « نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخبار » و « بغية ذى الهمم في أنساب العرب والعجم » •

وكان بنو رسول يهتمون باختيار الوزراء من بين أرباب الأقلام ، وكان الوزير لقب « القاضي » أو « الشيخ »^(٣) •

وكان قائد جيش بنى رسول يلقب « أمير القلم » ومن أشهر من تولوا هذه الوظيفة الأمير حسام الدين التوريزى وهو الذى عينه السلطان المظفر مقدما لجيشه ، وقد أنفق على هذا الجيش كثيرا من الذهب والفضة^(٤) •

واهتم بنو رسول بتبادل السفارات مع كثير من سلاطين عصرهم ، وكانوا يختارن ذوى القربى والمخلصين لهم ليكونوا سفراء من قبلهم ، ومن أهم الشروط التى كانوا يهتمون بها فى السفير أن يكون مشهورا بالتقوى والاستقامة^(٥) •

ومن الحياة الاجتماعية لبنى رسول أنهم كانوا يحرصون على حضور « الكتيب » وهو الاحتفال بليلة ٢٧ من رجب كل عام ، وكانوا يأمرن الحجاب ألا يحولوا بينهم وبين الناس فى هذه الليلة •

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج٩ ص ٢٥٣ حاشية •

(٢) ابن الريد : بغية المستفيد : ورقة ١٢ •

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٨ •

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢١٠ •

(٥) أبو محزومة : قلادة النحر •

موارد حكومة بنى رسول :

يبدو أن مسئوليات الاستقلال الذى أعلنه عمر بن على دفعته لفرض ضريبة إضافية على المزارعين أسمها « المعونة » بالإضافة إلى الخراج الذى كان مفروضا من قبل ، وقد أحس ابنه المظفر بضجر المزارعين لمضاعفة الضرائب فأوقف تحصيل « المعونة » * وكان ذلك فضلا من أفضاله جعله موضع الدعاء والتقدير .

أما أهم مصدر من مصادر الدخل عند بنى رسول فكان ما يجلب من التجار ، وبخاصة من تجارة عدن التى كانت مركزا تجاريا واسع النشاط ، ويبدو أن بعض سلاطين بنى رسول اشتط في تحصيل الضرائب من تجار عدن فاتجه هؤلاء إلى جدة ليجمعوا منها مركزا لنشاطهم التجارى بدل عدن ، وقد تسبب هذا في حرمان بنى رسول من أرباح هائلة كانوا يجلبونها من تجار هذه المدينة .

أعظم ملوك بنى رسول :

ولنعد إلى عمر بن على لنقرر أننا إذا استثنينا « المعونة التى عُدت قسوة منه فإن مؤرخى اليمن يذكرونه بخير ، ويقررون أنه من أهل العزم وقد دانت له البلاد والعباد ، وأدرك في نفسه المراد ، ومد نفوذه إلى مكة ، وقام بضبط الحرمين الشريفين ضبطا مرضيا وله بهما آثار جليلة ومحاسن عظيمة ، ومن محاسنه في اليمن مدرستان في تعز هما الوزيرية والعزابية وثلاث مدارس بزبيد ، ومدرسة بالجند ، وأخرى بعدن ، كما بنى بكل قرية من قرى تهامة مسجدا ، وأوقف عليه وقفًا جيدا (١) .

وجاء المظفر يوسف بن عمر بعد أبيه ، فوجد دولة شاهقة البنیان فزادها رفعة ومجدا ، ويعد أكبر شخصية في الدولة الرسولية ، وكان يقال له « التبغ الأصغر » وفي أيامه اتسعت المملكة الرسولية حتى شملت

(١) أبو عبدون الجندى : السلوك في طبقات العلماء والملوك .

حضر موت وأعمالها والسهول الداخلية وجبالها ، وصعد ومعظم الجزيره ،
ومنها الحرمين ، ولما قتل هولاء الخليفة العباسي الأخير المستعصم وأنهى
الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م نادى المظفر بنفسه خليفة للمسلمين (١)
ولعل هذا هو الذي دفعه إلى التدخل لدى ملك الصين عندهما حرم هذا
الختان على المسلمين ببلاده فكتب له المظفر في ذلك ، وأرفق بالكتاب
هدية مناسبة فكان لذلك أثره ، وقد شيد المظفر كثيرا من المدارس
والمساجد (٢) .

وممن يذكر اسمه في مجال العمران المؤيد الرسولي الذي بنى القصر
العقيلي سنة ٧٠٨ هـ في تعز ، وبلغ طول مجلس هذا القصر ٢٥ ذراعا
وعرضه ٢٠ ذراعا ، وكان له سقفان بغير عمد ، مطليان بالذهب ، وكان
هذا المجلس يطل على بستان جميل المنظر ، وكان لا يرى في المجلس إلا
الرخام والذهب ، وأمامه بركة طولها ١٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعا وعلى
حافتيها تماثيل من النحاس الأصفر للطيور والوحوش ، وهي تقذف الماء
من أفواهها ، وقد استعان المؤيد بكثير من الصنائع اليمنيين والغرباء في
بنائهم (٣) .

ويذكر الخزرجي أن الدولة الرسولية تعد أعظم دولة وطنية يمنية
عرفها التاريخ منذ سقوط الدولة الحميرية ، وقد قامت بإنهاض البلاد
وتعميرها ونشر العلوم بها ، ونبع من أفرادها علماء عابرة حتى في الطب
والرياضيات والتاريخ وغيرها من العلوم وساهموا في إنهاض اليمن على الرغم
من معارضة الأئمة الرسميين الذين تمكنوا في عصر الدولة الأيوبية من تنمية
دعوتهم ، وتوسيع رقعتهم ونفوذهم (٤) .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢٧٩ .

(٢) أحمد محمد شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٢٢٩ .

(٣) تاج العروس ج٩ ص ٢١٦ والقلقشندي : صبح الاعشى ج ٥

ص ٢٦٢ والخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٣٧٨ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٨٤ ، ٢٧٦ .

الأئمة بعد قيام الأيوبيين :

يبدو أن تجمع اليمين كلها تحت سلطان الأيوبيين وسلطان من خلفوهم ، وبالتالي اختفاء السلاطين في المناطق المختلفة ، أتاح الفرصة للأئمة الزيدية أن ينشروا دعوتهم في غيبة السلطات المحلية المناوئة ، ولذلك كان على ملوك بنى رسول أن يصارعوا الأئمة صراعا طويلا ، وقد كان النصر حليف بنى رسول ، ويعتبر عصر المظفر أهم العصور في هذا المجال فقد حارب الإمام المهدي أحمد بن الحسين (٦٤٦ — ٦٥٦ هـ) ثم حارب خلفه يحيى بن محمد السراجي (٦٥٦ — ٦٦٠ هـ) وقد تمكن سنجر الشعبي عامل المظفر أن يسمّل عينيه (١) ، فعاش بقية عمره مكفوما ، وحارب الملك المظفر الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين سنة (٦٧٠ — ٦٧٤) وتمكن من القبض عليه سنة ٦٧٤ هـ وسجنه في تعز حتى مات ، ولعل لقب « المظفر » جاء ليوسف بن معمر بسبب هذه الانتصارات .

نهاية بنى رسول :

مما أضعف ملك بنى رسول أن تنافسا قاسيا هب بين الأمراء وبين الطامعين من بنى رسول ، وكان الثائرون على الأمير أحيانا أولاده أو إخوته ، وكانت هذه الثورات المتلاحقة من أبرز الدواعي للقضاء على دولة بنى رسول .

وعندما رحل السلطان مسعود آخر سلاطين بنى رسول إلى مصر ، استبد عبيده بالسلطة وأساءوا التصرف ، فغلبا الناس إلى بنى طاهر أبرز عمال بنى رسول لينقذوهم من غت هؤلاء العبيد ، وتقدم بنو طاهر فأزالوا سلطان العبيد واستبدوا بالسلطة لصالحهم هم ، فسقطت دولة وقامت دولة .

(١) السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص ٢٩٩ .

بنو طاهر

٨٥٨ — ٩٢٣ = ١٤٥٤ — ١٥١٧ م

ينتسب بنو طاهر إلى جدهم الشيخ طاهر بن تاج الدين بن معوضة ، وهم لهذا يسمون أحياناً بنى معوضة ، ويرى بعض النسابة أن بنى طاهر ينحدرون من الأسرة الأموية ، وباسم هذه الصلة طمع بعض سلاطينهم فى الخلافة ، وحمل بعضهم لقب أمير المؤمنين ، وهذا يوضح لنا طموح سلاطين اليمن ، وقد رأينا بعض ملوك الدولة الرسولية يدعى الخلافة بعد نهاية الخلافة العباسية ، ومن الدولة الرسولية من قنع بالارتباط بمصر كما رأينا من قبل ، فهم بين الطموح والقناعة .

وسلاطين بنى طاهر سرهم ما قاله بعض النسابة عن انحدرهم من الأمويين فادعوا الخلافة لذلك ، ولكن اليمن — كما قلنا من قبل — كان بمثابة قلعة هاشمية وبالتالي كان يتمنع على الفكر الأموى وما انحدر منه وقد وجد أعداء بنى طاهر فى هذا النسب طلبتهم ، فاثاروا الناس ضد بنى طاهر لذلك (١) .

وكانت الظروف السائدة فى أخريات عهد بنى رسول تمهد لقيام دولة بنى طاهر ، فقد كانت لهم ولاية عدن ، وكانوا يشغلون مناصب الوزارة والقيادة فى ملك الرسوليين ، ثم جاءت رحلة السلطان مسعود آخر سلاطين بنى رسول إلى مصر واستبداد عبيده بالسلطة فى غيبته ، وانحرافهم بما آل إليهم من نفوذ ، وما تبع ذلك من التجاء الجماهير لبنى طاهر لينقذوهم ، مما آل له الأمر من فساد وعيب ، كل ذلك دفع عامر بن طاهر أن يهب للأمر ، وقد استطاع أن يدخل زبيد بدون قتال ، وبدأت بذلك دولة بنى طاهر (٢)

(١) انظر اليمن الانبان والحضارة للقاضى الشماخى ص ١٢٨-١٢٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج ٢ ص ٦٦٩ .

ولكن سيطرتها على اليمن لم تكن يسيرة لأن نفوذ الأئمة كان قويا فجعل عهد بنى طاهر عهدا حافلا بالصراع كما سنشير لذلك بعد قليل *

وقد اتخذ بنو طاهر « المقرانة » وهي من بلاد وداع عاصمة لهم .
وسلاطين بنى طاهر هم :

الظافر (الأول) عامر بن طاهر	٨٥٧ — ٨٧٠ هـ
المجاهد على بن عامر	٨٧٠ — ٨٨٣
المنصور عبد الوهاب بن طاهر	٨٨٣ — ٨٩٤
الظافر (الثانى) عامر بن عبد الوهاب	٨٩٤ — ٩٢٣
عامر بن داود بن طاهر	٩٢٣ — ٩٤٥

احتفظ بعدن حتى سنة ٩٤٥ بعد أن استولى

الجراكسة على باقى ما كان بيد طاهر قبل ذلك *

صراع بنى طاهر مع الأئمة :

كان الصراع بين بنى طاهر وبين الأئمة يمثل الصراع بين الشمال والجنوب ، ومن هنا كان هذا الصراع عنيفا ، فبنو طاهر كانوا يطمعون أن ينالوا ملك بنى رسول شمالا وجنوبا ، والأئمة كانوا يرون أن الألوان قد آن لتتم سيطرتهم على اليمن كله ، وليقضوا على مناوئهم ، ومن هنا كان الصراع شاقا ومريرا ، وسنعطى فيما يلى لمحات منه :

— تمكن عامر بن طاهر من بسط نفوذه على جنوب اليمن ، فهب يصارعه الإمام الناصر بن محمد من ذمار ، ودارت المعارك بين مد وجزر ، حتى وقع الناصر أسيرا فى أيدي عمال عامر ، وظل فى السجن حتى مات سنة ٨٦٨ وتم استيلاء بنى طاهر على صنعاء عقب القبض على الإمام *

— قام الإمام الجديد محمد بن الناصر بقيادة الأمر بعد أبيه ، وصارع عامر ابن طاهر فى حروب مريرة حول صنعاء ، انتهت بانتصار الإمام ،

وقتل عامر في المعركة ، ولم يستطيع على بن عامر ولا عبد الوهاب بن طاهر أن يحققا انتصارات ذات بال ، وبذلك بقيت كفة الإمام راجحة . وجاء إلى السلطة الظاهر الثاني عامر بن عبد الوهاب ، وهو أعظم سلاطين بني طاهر بأسا ، وأوسعهم رقعة ، وفي مطلع عهده قامت قبيلة الزرانيق بتهامة بثورة ضده ، ولكنه قابل هذه الثورة بحزم وقوة ، ففرض عليها قضاء تاما ، ولما اطمأن لولاء الجنوب صعد إلى الشمال حيث حارب الإمام محمد بن علي الوشلى (٨٨٠ — ٩١٠) في صنعاء ، واستطاع أن يقبض عليه ويودعه السجن حتى مات ، ودخل السلطان الظاهر صنعاء ، ودانت له اليمن في الشمال والجنوب .

حضارة اليمن في عهد بني طاهر :

لبنى طاهر عدة مآثر باليمن ، فقد انتشرت في عهدهم المدارس والمساجد في عدن وتعز وزبيد ورداع وغيرها ، وهم الذين بنوا مدينة « المقرانة » في رداع ، وشيدوا بها القصور العظيمة ، وأقاموا الحدائق البديعة ، كما شيدوا بعض المساجد من طابقين وجعلوا الطابق الأول للعبادة والطابق الثاني للتدريس والإقامة الطلبة والمدرسين .

وقد شهدت اليمن في أيام بني طاهر نهضة علمية تتمثل في المحدث الكبير والمؤرخ الربيع العامري ومعاصريه في الشمال وفي قمتهم الإمام شرف الدين ، كما بلغت العلوم الرياضية والفلكية والبحرية والجغرافية في أيامهم شأوا بذلت اليمن معاصريها من الدول البحرية مثل البرتغال وتركيا ، ويمثل هذا التفوق العالمان الجغرافيان البحران أحمد بن ماجد العدنى ، وسليمان المهري فهما اللذان تتلمذ عليهما البحارة والجغرافيون البرتغاليون والأتراك ، وبأحمد بن ماجد استعان البحار البرتغالي « دى جاما » في كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، واعترافا لابن ماجد نصب له البرتغاليون تذكارا ببلدة « مليندى » بكينيا على الساحل الأفريقي ، ولابن ماجد مؤلفات في الجغرافيا والملاحة ، وأحوال البحار

وطرقها ، ويبلغ الموجود من هذه المؤلفات — كما حكاها الأستاذ محمود كامل في مؤلفه « اليمن : شماله وجنوبه » — أربعين مؤلفاً ، ترجمت إلى عدة لغات ، كما أن له أرجوزة مطولة حوت معلومات ملاحية هامة ، وللسليمان المهري : « العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية » ويقول الرحالة الانجليزى « رينشارد بيرتون » الذى اكتشف بحيرة تنجانيقا سنة ١٨٥٦ م إن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ماجد ، ويقرعون الفاتحة إلى روحه قبل ركوبهم البحر (١) .

نهاية بنى طاهر :

جاءت نهاية السلطان الظاهر على يد المماليك الجراكسة الذين اقتحموا اليمن كما سنرى ، وأوقعوا ببنى طاهر عدة هزائم ، واستطاعوا فى النهاية أن يقبضوا على السلطان ، وتم إعدامه سنة ١٥١٧ وانتهت بمقتله سلطة بنى طاهر ، ولم يبق إلا عامر بن داود بن طاهر الذى ظل فترة ما بعد ذلك محتفظاً بعدن حتى قتله الأتراك سنة ٩٤٥ هـ — (١٥٣٨ م) .

اليمن يمتان :

ذكرنا من قبل أن الأئمة قوى سلطانهم فى عهد الأيوبيين ، أى فى عهد اختفاء السلطات المحلية المناوئة لهم ، فلما ظهر بنو رسول بعد الأيوبيين دار صراع طويل بين القوتين ، ولما سقط بنو رسول وقام بنو طاهر متخذين من الجنوب مركزاً لهم عظم الأئمة فى الشمال ، واتضح بذلك انقسام اليمن إلى يمينين ، ثم برزت عوامل أخرى قومت هذا الانقسام ، أهمها :

١ — الاختلاف المذهبى الذى أبرزناه أكثر من مرة فإن الجنوب السنى رفض بإصرار الخضوع للشمال الشيعى .

(١) القاضى الوشاحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٢٩ .

٢ — اتخذ الزحف الخارجى (زحف الشراكسة والعثمانيين وسنتكلم عنهم فيما بعد) من عدن مركزا له ، فتكتلت القوى الوطنية متخذة من الشمال مركزا لها •

٣ — استيلاء الانجليز على عدن بعد العثمانيين ، وكان ذلك بمثابة إسفين قوى قام حاجزا بين الشمال والجنوب •

وهكذا ثبت الانقسام ، وثبت بالتالى أمر الأئمة فى الشمال لأنهم هم الذين قادوا القوى الوطنية ضد الزحف الخارجى ، أما الجنوب فقد ترك بعد انعزاله بدون قادة موحدة كما سنرى فيما بعد •

(١) القاضى الوشاحى : اليمن الانسان والحضارة، ص ١٢٩ •

ممالك مصر (الشراكسة) في اليمن

٩٢٣ - ٩٤٥ هـ = ١٥١٧ - ١٥٣٨ م

في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى استطاع البحارة البرتغاليون أن يجدوا طريقا إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول أفريقيا بدون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر كما كانوا يفعلون من قبل ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من الرحالة البرتغاليون في المحاولة التى أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائى على يد « فاسكو دى جاما » الذى بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ م .

وقد سبب هذا الكشف لمصر وسوريا خسارة مالية فادحة ، فقد كانت التجارة عبر دولة المماليك رائجة راجا كبيرا ، وكانت مصر والشام تلعبان دورا مهما فيها بواسطة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وكان كشف الخط الجديد ضربة قوية للاقتصاد المملوكى (١) .

وحاول البرتغاليون تأمين طريقهم الجديد فعمدوا لاحتلال بعض المناطق الاستراتيجية المهمة فيه ، فاحتلوا جزيرة كمران اليمنية وقتلوا عاملها ، كما هاجموا مدينة عدن تمهيدا لاحتلالها .

واتجه سلطان مصر « قنصوه الغورى » لمحاربة البرتغاليين وقطع الطريق الجديد عليهم حتى يعود النشاط للطريق القديم ، ووجد قنصوه الغورى أن مياه اليمن فى المحيط الهندى هى المكان المناسب للصراع ، وتذكر قنصوه الغورى الجهود السابقة التى قام خلالها ارتباط وثيق بين مصر واليمن ، فرأى أن زحف مصر على اليمن سيحمى اليمن ، وسيهيء للقوات المصرية وسيلة النجاح ضد البرتغاليين ، وكانت فى اليمن ظروف

(١) انظر هذه الدراسة مفصلة فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٢١٣ وما بعدها .

هيات الفرصة للزحف المصرى المملوكى ، وتلك هى المنافسة الشديدة بين سلاطين بنى طاهر فى أيامهم الأخيرة وبين أئمة الزيدية الذين كان نفوذهم قد تقلص فى دائرة ضيقة بالشمال خلال عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب وقد استنجد الإمام شرف الدين (١٥٠٧ — ١٥٥٨ م) بالمماليك فانتهزوها فرصة واستجابوا له ، ودخلوا اليمن وقضوا على سلطنة بنى طاهر ، وبخاصة أن بنى طاهر رفضوا التعاون مع المماليك فى الحرب ضد البرتغاليين ، بل قام عاملهم بعمل عدوانى هو حجز سفن مصرية بالحديدة كانت تحمل طعاما للجيش المصرى فى جزيرة كمران التى استولى عليها المصريون من البرتغاليين (١) .

وعلى هذا بدأ هجوم المماليك المصريين على اليمن ، ومما ساعد على سرعة انتصار الجيش المملوكى ، أنه كان يستعمل البنادق ، والمدافع النارية ، وكانت هذه لم تعرف بعد باليمن وقد تم انتصار المماليك بعد معارك عنيفة أبلى فيها قنادة بنى طاهر بلاء حسنا ، ومن أشهر المواقع موقعة (الصافية) التى قادها أخو السلطان (عبد الملك بن عبد الوهاب) ولاذ السلطان بالفرار ولكنه وقع أسيرا ، وجاءت نهايته عقب ذلك ، وبدأ بذلك ملك الشراكسة .

بيد أن ممالك مصر آنذاك كانوا فى أيامهم الأخيرة ، لأن الزحف العثمانى بدأ فى نفس الوقت الذى بدأ فيه زحف المماليك لليمن ، وسقط قنصوه الغورى فى مرج دابق سنة ١٥١٦ م كما هزم المماليك كذلك فى موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ م ، ووقع مصر تحت سلطان العثمانيين جعل المماليك الذين كانوا باليمن يتشبثون بالحياة هناك ، بل دفع بعض المماليك الذين نجوا من معارك العثمانيين إلى الانضمام لزملائهم الذين كوّنوا لهم سلطانا فى اليمن ، ثم وجد ممالك اليمن ألا طاقة لهم فى مواجهة العثمانيين فاعترفوا بهم ، وخطبوا باسمهم .

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٣٦ .

وأشهر المماليك الجراكسة الذين حكموا اليمن هم :

الأمير حسين الكردي : استولى على تهامة وزبيد ، ولم يستطع أخذ عدن من عامر بن داود وبعد ذلك رحل إلى الحجاز ثم قبض عليه وقتل •
برسباى : استولى على تعز والمقرانة ، وصنعاء •

اسكندر المخضرم : سمي المخضرم لأنه قبل التبعية للعثمانيين ، وخطب لهم ، وكان يحكم ويسيطر على زبيد وتهامة ، قتله كمال بك التركى أحد رجال العثمانيين •

كمال التركى : استولى على زبيد عقب مقتل اسكندر المخضرم ، وقد قتله حسين الكردي وجماعته •

الناخوذه أحمد الجركسى : وفى عهده اشتد الصراع بينه وبين الأئمة الزيدية ، وقد استطاع الناخوذه أن ينتصر على المطهر بن شرف الدين فى معركة زبيد ، ويرده جريحا فاشلا ، وبقي الناخوذه حتى سنة ٩٤٥ (١٥٣٨) عندما انتهى سلطان الجراكسة باليمن ، ومن الواضح أن سلطان الجراكسة باليمن كان فى منطقة تهامة وزبيد حتى تعز •

ولم يمتد حكمهم إلى صنعاء إلا فترة قصيرة ، وكان سلطان الأئمة آنذاك يغمر منطقة الشمال •

وقد بدأ سلطان العثمانيين لليمن خلال عهد الجراكسة •

وفى سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨) قتل الناخوذه غدرا ، وكان قاتله سليمان باشا مملوك السلطان سليم العثمانى ، وقتل غدرا كذلك فى نفس العام الأمير عامر بن داود بن طاهر •

وبنهاية الناخوذه أحمد وعامر بن داود لم يبق فى اليمن إلا قوتان فى ميدان الصراع : أولاهما اليمنيون بقيادة الإمام شرف الدين وابنسه المطهر والثانية الأتراك العثمانيون (١) وقد تحدثنا من قبل عن الأئمة ونأخذ الآن فى الحديث عن العثمانيين •

(١) القاضى الشماخى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٣٥ •

العثمانيون في اليمن

ابتداء من ٩٤٥ هـ إلى ١٣٣٨ هـ (١٥٣٨ — ١٩١٩ م)

بدون اتصال

تحدثنا عن العثمانيين في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، وتتبعناهم وهم يبدعون إمارة صغيرة في الأناضول ، أصبحت سلطنة بعد نهاية السلاجقة ، ثم رأيناهم وهم يقفزون إلى أوروبا في عهد مراد الأول ورأينا توسعهم في أوروبا ، ذلك التوسع الذي حقق هدفا كبيرا من أهدافه بالاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ في عهد محمد الفاتح .

واتجه الأتراك بعد ذلك إلى العالم العربي لسبب أو الآخر ففتحوا سوريا ومصر (١٥١٦ — ١٥١٧) ثم احتلوا الجزائر وتونس وتطلعوا لاحتلال اليمن لاستكمال سيطرتهم على البحر الأحمر ، ولتقوية بحريتهم في المحيط الهندي ، ثم ليمدوا سلطانهم إلى اليمن الذي ارتبط بمصر عدة قرون ، والذي لجأ إليه بعض الأتراك الجراكسة بعد انتصار العثمانيين على جيش المماليك في موقعة مرج دابق والريدانية .

وقد بدأ الزحف العثماني على اليمن سنة ٩٤٥ هـ ولم يكن احتلال الأتراك لليمن مستقرا ولا متصلا ، وقد مر بثلاث مراحل كالآتي :

المرحلة الأولى للغزو العثماني :

عندما احتلت الامبراطورية العثمانية مصر سنة ١٥١٧ م أحست أن من حقها أن تمد سلطانها لليمن للأسباب التي ذكرناها آنفا ، ثم لأن الامبراطورية العثمانية وضعت يدها على شمال البحر الأحمر ، وبدأت تتطلع إلى جنوبه ليكون هذا البحر خاضعا لسلطان العثمانيين ، ولتستطيع أن تعترض البرتغاليين في دوراتهم حول إفريقيا ، إذ أن ذلك سبب خسارة لمصر التي أصبحت جزءا من الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت

مستولة عن مواصلة الكفاح ضد البرتغاليين ، ذلك الكفاح الذى بدأه المماليك المصريون قبل هزيمتهم أمام العثمانيين ، وأخيرا فإن العثمانيين كانوا يحاولون دائما استكمال مد سلطانهم على البلاد العربية .

ومن أجل هذه الأسباب أعد الأتراك العدة للزحف على اليمن وكان ذلك سنة ٩٤٨ هـ = ١٥٣٨ م وكانت القوى العثمانية بقيادة الأمير سليمان باشا الأرناؤوطى . وقد أبحرت هذه القوى من السويس متجهة إلى اليمن ، وكانت الحملة العثمانية مزودة بالأسلحة النارية التى لم تكن آنذاك متوفرة لدى جيش اليمن .

وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن غزو المماليك لليمن أن الإمام شرف الدين استنجد بهم ضد منافسيه من بنى طاهر ، وأن المماليك استجابوا إلى ذلك ، وساعدوا الأئمة فقتلوا على ملك بنى طاهر ، ولم يبق لبنى طاهر ، ألا منطقة عدن التى ظلت تحت سلطان عامر بن داود بن طاهر . وقد حذا حذو الأئمة فاستنجد بالعثمانيين ليستعيد بهم ملك آدائه ، وقد تظاهر العثمانيون بالاستجابة له ، ليتمكنوا من النزول بـعدن ، ثم قتلوه غدراً ، ومن عدن زحف الجيش العثماني إلى زبيد ، وقضى على أمير المماليك الجراكسة ، ثم استولى على تعز ، ووصل إلى صنعاء حيث دارت معارك عنيفة بين العثمانيين وبين الأئمة الزيدية ، الذين حملوا عبء الصراع ضد الجيش الزاحف ، وقد استمر هذا الصراع حوالي مائة عام ، وتجمعت القوى اليمنية تحت قيادة الإمام ، وبرز من هؤلاء الأئمة الإمام شرف الدين ثم ابنه الإمام المطهر ، وقد أبلى المطهر بلاء حسنا فى صراعه ضد العثمانيين ووقعت بينه وبينهم وقائع هائلة يذكر المؤرخون أنها زادت عن الثمانين موقعة ، وكانت معركة « شغوب » على أبواب صنعاء سنة ٩٧٥ هـ (١٥٦٨ م) هى المعركة الحاسمة ، وقد انتصر المطهر انتصارا رائعا ، وحاصر الأتراك فى صنعاء عدة أيام بعد أن قتل قائدهم مراد باشا ، وبعد هذه الموقعة جلا الأتراك

عن أرض اليمن ، وتسلم المطهر بنفسه تغز وعدن ، ولم يبق في أيدي الأتراك إلا مدينة زبيد ويعد ذلك نهاية للمرحلة الأولى في الصراع التركي اليمني ، كما تعد مدينة زبيد باباً أدى إلى بدء المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية للغزو العثماني :

كانت مدينة زبيد المركز الذي بدأ حوله الصراع في المرحلة الثانية ، فإن الإمام المطهر لم يقنع بما وصل إليه من نتائج ، ودفع بجيوشه لتكمل النصر وتحل مدينة زبيد ، وتتقضى غنى الوجود العثماني باليمن ، ولكن الأتراك العثمانيين كانوا آنذاك في فترة ازدهارهم وقوتهم ، ولذلك أعدوا العدة من جديد للزحف على اليمن زحفاً واسعاً سنة ٩٧٦ هـ (١٥٦٩ م) ودار صراع طويل بين القوتين ، انتصرت فيه القوة العثمانية واحتلت صنعاء بقيادة الوزير سنان ، واستمرت حركة الصراع بين مد وجزر حتى سنة ٩٨٠ هـ ، وفيها توفي الإمام المطهر وكانت وفاته شديدة الأثر على القوات اليمنية ، فاندفع الجيش العثماني يحرز ألواناً من التقدم .

وفي سنة ١٠٠٦ هـ بدأت القوة اليمنية تنفض عنها الغبار ، وتقاوم من جديد بقيادة الإمام (المنصور) القاسم بن محمد الذي دعا قبائل اليمن لمساعدته في الصراع ضد الأتراك ، فاستجاب له معظم قبائل الشمال ، وخاض الإمام القاسم عدة معارك ضد الأتراك حقق فيها ألواناً من النصر ، وكان أولاده خير عون له ، ولذلك يعرف القاسم هو وأولاده « بالدولة القاسمية » وقد تم لليمنيين في عهد الإمام (المنصور) القاسم بن محمد استعادة أكثر الجهات الشمالية .

وبعد الإمام القاسم قام بالأمر ابنه المؤيد محمد بن القاسم (١٠٠٩ هـ — ١٠٥٤ م) ، وقد واصل حركة النصر ، ودارت بينه وبين العثمانيين مواقع قاسية أهمها معركة (الصافية) التي قدر لها أن تنقضى على القوة

العثمانية ما بين قتيل وأسير ، وبعدها رحل الأتراك العثمانيون عن اليمن ، وسلموا لليمنيين كل المدن والجزر •

وانتهت بذلك المرحلة الثانية للغزو العثماني •

المرحلة الثالثة للغزو العثماني :

بدأت هذه المرحلة سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) وكان ذلك في عهد السلطان عبد المجيد بن محمود ، وكان الزحف التركي هذه المرة جارفا شديدا ، سرعان ما احتل الحديدة ، وبسط نفوذه على جميع تهامة ، ولكن هذا الزحف الذي جاء بعد أكثر من قرنين من الاستقلال التام ، أيقظ القادة اليمنيين المعاصرين له ، والذين وجدوا أن من الضروري أن يحافظوا على استقلال بلادهم ، كما فعل أجدادهم واندفع لقيادة اليمنيين شيخ من شيوخ صنعاء هو الشيخ علي الدفعي ، وسرعان ما التفت حوله القبائل ، وأخذ يهاجم الأتراك في كل جانب أقاموا فيه ، حتى أقض مضاجعهم ، وقد اتخذ الأتراك سبيلا ملتويا للهجوم عليه ، فقد أعلنوا أنه قاطع طريق ، وأنه ليس أهلا للزعامة ، وسقط الدفعي صريعا ، وكانت وفاته شرارة أيقظت ثورة عارمة ضد الأتراك العثمانيين باليمن ، وتقدم الأئمة الزيدية لحمل عبء الصراع واشترك فيه المتوكل المحسن بن أحمد من سنة ١٢٧١ هـ إلى أن توفي سنة ١٢٩٥ هـ وخلفه الإمام الهادي شرف الدين من ١٢٩٦ هـ إلى ١٣٠٧ هـ ثم الإمام المنصور محمد بن يحيى بن محمد حميد الدين من سنة ١٣٠٨ هـ إلى ١٣٢٢ هـ ثم ابنه الإمام المتوكل يحيى (١٣٢٢ — ١٣٦٧ هـ) ويقول المؤرخون اليمنيون ^(١) إن الإمام المحسن كان أصلب الأربعة مغامرة ، لا مقر له ولا قصر ولا حدس ولا عاصمة إلا سرج حصانة ينفادي الأتراك ويرأوهم حتى أقض مضاجعهم ، ومهد لخلفه الإمام الهادي أن يقطع لواء صعدة ، ويقيم فيها حكومة ، وظل ينازع الأتراك بشجاعة فائقة •

(١) القاضي عبد الله الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٦٣ •

وعندما استهل القرن الرابع عشر الهجرى كانت الحرب بين اليمنيين والأتراك على أشدها ، وكان منها جانب يمكن أن يوصف بأنه حرب عصابات وجانب آخر كانت تخوضه الجيوش النظامية ، وقد اتسعت رقعة الأرض التى يسيطر عليها الإمام الهادى ، وعندما مات سنة ١٣٠٧ هـ كانت سيادته تشمل منطقة واسعة ، وأموالا وفيرة ، ومعدات قوية ، ولم يقو ابنه محمد الهادى على حمل تبعات الإمامة فاختير لها محمد بن يحيى حميد الدين الذى ابتدأ به حكم آل حميد الدين ، وقد استمر فى الصراع ضد الأتراك ، ثم جاء بعده ابنه الإمام يحيى فأكمل الشوط ، وكانت معركة « شهارة » من أعظم المعارك التى دارت بين اليمنيين والأتراك وفيها سقط عدد ضخم من الجيش التركى ، وغر القائد مع من نجوا من الموت وترك الجيش المهزوم معدات عظيمة استولى عليها جيش الإمام ، ولم يجد الأتراك بداً من محاولة التوصل إلى تسوية فعقدوا اتفاقية مع الإمام فى قرية دعان تسمى « اتفاقية دعان » سنة ١٩١١ م وبمقتضاها أصبح للإمام الاشراف على شئون الأوقاف والقضاء ، وتعيين الحكام والمرشدين ، وتشكيل هيئة شرعية فى البلاد ، وأن تكون جباية الضرائب على الطريقة الشرعية ، واتفق الطرفان على أن تبقى قوات رمزية تركية باليمن كرمز للوحدة الإسلامية (١) وقد بقيت هذه القوات باليمن حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة الأتراك ، وحينئذ صدرت الأوامر من الآستانة بأن تغادر القوات التركية بلاد اليمن ، وأن تعود إلى تركيا بطريق عدن ، وانتهت فى سنة ١٩١٩ م المرحلة الثالثة من مراحل الغزو العثمانى لليمن .

لقد دمر الأتراك العثمانيون كثيرا من المدن والقرى والمزارع باليمن خلال الحروب الطويلة بها ، وأراقوا دماء الكثيرين وسلبوا كثيرا مما كان باليمن من تحف وآثار ، ولكن اليمن ظلت تناضل حتى تم لها النصر المبين .

(١) انظر نص الاتفاقية فى : أمين سعيد : اليمن ص ٢٨ - ٢٩ .

آل حميد الدين

١٣٠٧ — ١٣٨٢ هـ = ١٨٩٠ — ١٩٦٢

ينحدر آل حميد الدين من بيت القاسم ، ذلك البيت الذى أنجب عدة أئمة فى سلسلة الزيدية ، فاختيار محمد بن حميد الدين للإمامة عودة بالسلطة إلى البيت القاسمى ، وعندما مات الإمام الهادى سنة ١٣٠٧ هـ لم يطمع ابنه محمد فى الإمامة إذ لم يبلغ درجة الاجتهاد ، وقد اجتمع أعيان الزيدية ، واستعرضوا أسماء كبار الشيوخ الذين يستطيعون تحمل المسؤولية ، واستقر رأيهم على استدعاء محمد بن يحيى حميد الدين من صنعاء إلى حسنة ليروا إن كان أهلا للإمامة أولا ، فحضر هذا والتقى بالقادة الزيدية ، وأقنعهم بصلاحيته من مختلف الوجوه ، فقبلوه وبايعوه اماما لهم ، وقد كان واسع الاطلاع بأحوال زمانه ، وسياسة عصره قوى البنيان فى رسائله . شديد التمسك بالمبادئ الزيدية ، نشيط الحركة ، وقد ظل يصارع الأتراك بمهارة حتى توفى سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) فآل الأمر إلى ابنه لإمام يحيى ، وسنتكلم عنه فيما يلى :

عهد الإمام يحيى :

حكم الإمام يحيى طيلة النصف الأول من القرن العشرين تقريبا (١٩٠٤ — ١٩٤٨ م) وقد حقق كثيرا من النصر ضد العثمانيين كما رأينا ، ولكن قابلته أحداث صعب لم تظهر فى عهد من سبقوه ، فقد ظهرت أطماع الانجليز فى اليمن ، وظهر الأدارسة فى المخلاف السليماني وظهرت القوة السعودية ، وكل هذا جعل عصره شائكا ، ويكفى أن نتذكر أنه خلال حكمه قامت الحربان العالميتان ، ولم تكن اليمن بمنأى عن الصراع ، ومع هذا استطاع أن يدير دفة الأمر بكثير من الحياد ، ولكنه لم يستطع أن يتطور باليمن تطورا يناسب تطور الزمن ، ويناسب ما شهده العالم من تغير . عقب الحرب العالمية الثانية بوجه خاص ، ولهذا تأمر عليه جماعة من أتباعه ، وقتلوه سنة ١٩٤٨ م كما سنرى فيما بعد .

ولنعد إلى عصر الإمام يحيى لنصور أهم ما برز به من أحداث :

علاقاته مع تركيا :

قلنا فيما سبق ان انتصار الإمام يحيى في معركة « شهارة » قضى على آمال الأتراك في النصر ، ودفعهم إلى طلب الصلح الذى تم فى دعان سنة ١٩١١ م بعقد معاهدة اعترفت فيها تركيا باستقلال اليمن ، وأعدت إلى الإمام صورا مختلفة من النفوذ ، ولم يبق فى اليمن من الجنود الأتراك إلا عدد قليل فى صنعاء اعتبر بمثابة ارتباط إسلامى بين اليمن وبين دولة الخلافة •

وبعد سنوات قليلة تأزم الموقف الدولى ، واقتربت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا لألمانيا فى هذه الحرب وأخذ الشريف حسين جانب بريطانيا متنكرا لتركيا ، كما اتجهت أكثر الدول العربية هذا الاتجاه ، بحكم عدم رضاها عن سياسة الأتراك بها ، ولكن الإمام يحيى وقف موقفا محايدا ، بل لم يعارض فى أن ينطوع من بلاده مَنْ يشاء لينضم للدولة العثمانية المسلمة فى صراعها ضد غير المسلمين ، وبعد هزيمة ألمانيا وتركيا فى هذه الحروب ، صدر أمر من تركيا بانسحاب حاميتها من صنعاء باليمن ، فانسحبت فى أمن دون أن يمسه سوء ، وكان ذلك نهاية للعلاقات بين اليمن والأتراك العثمانيين •

علاقاته مع الانجليز :

لم تكن علاقة الإمام يحيى طيبة مع الانجليز بسبب عواطفه التى كانت تؤيد العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم إن الإمام يحيى كان يطمح فى أن تمتد سلطاته فتشمل حدود اليمن القديمة أى أن تشمل اليمن الجنوبية ، وكانت هذه مرتعا خصبا للانجليز ، وأن تشمل منطقة عسير بين اليمن ومكة ، ولكن هذه البقعة كانت أمانة للإدريسى الذى يؤيد الانجليز ، وقد ساعده حتى احتلال ميناءى اللحية ، والحديدة ، ولم يكن

الإمام يستطيع أن يناضل الانجليز ، ولذلك عقد معهم معاهدة صداقة وتعاون سنة ١٩٣٤ م نصت على الاحتفاظ بالوضع الراهن فيما يتعلق بالحدود ، ريثما تسوى مشكلة الحدود في معاهدة أخرى ، وكانت مدة هذه المعاهدة أربعين سنة ومعنى ذلك تسليم الإمام بأطماع الانجليز .

علاقته مع السعودية :

كان الصراع بين السعودية وبين الإمام مرتبطاً بمشكلة عسير التي شرحناها من قبل ، فإن الإدريسي وافق على أن توضع إمارته تحت حماية السعودية ثم نكث العهد ، فاقتحمت السعودية هذه الإمارة ، ولجأ الإدريسي لليمن ، وتأزم الموقف ، وكانت السعودية تقرر أن منطقة عسير لم تكن في يوم من الأيام تابعة لليمن .

وإذا تركنا منطقة عسير مؤقتاً فإننا نقابل منطقة أخرى كانت مثار خلاف بين السعودية واليمن ، تلك هي منطقة نجران ، ويقول المعارفون ان أياً من الحكومتين لم تكن تسيطر على هذه المنطقة الداخلية ، بل كانت تسكنها قبائل من الإسماعيلية ، وكان شيخها يعتبر زعيماً دينياً وسياسياً في نفس الوقت ، وقد دخلت القوات اليمنية منطقة نجران بحجة مقاومة المذهب الإسماعيلي وإقامة الشريعة الحقة ، ثم أصبح من المتعارف عليه أن تقبل اليمن وجود السعودية في عسير ، وأن تقبل السعودية وجود اليمن في نجران (١) .

وحدث بعد أن عقد الإمام يحيى معاهدة صداقة مع انجلترا أن اعتقد أنه تفرغ للسعودية ، فبدأت قواته تتسلل إلى عسير ، وهبت بسبب ذلك معارك طاحنة بين الطرفين ، وكانت القوات السعودية بقيادة الأمير سعود (الملك سعود فيما بعد) وكانت تستعمل أسلحة أحدث من أسلحة اليمنيين ، كما كانت درجة التدريب لديها أوفر وأعظم واستطاعت القوات السعودية

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ص ٦٧ .

أن تحقق النصر في نجران وعسير بل احتلت الحديدة ، ولكن هذه القوات لم تطلع في مواصلة الزحف باليمن ، فقد كان واضحاً أن مقاومة اليمنيين بالجبال ، ستكون عنيفة وستستنزف جهود السعوديين ، ولهذا ، وللرغبة المتبادلة في السلم ، ولوساطة مجموعة من أعلام العرب والمسلمين مكونة من الحاج أمين الحسيني وهاشم الأتاسي ومحمد على علوبة وشكيب أرسلان ، اتفق هذا عقدت بين الدولتين معاهدة الطائف ^(١) في سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ م) وبمقتضاها اعترف اليمن بتبعية عسير ونجران للسعودية وأخضت السعودية الحديدة ، ووضعت حدود دقيقة بين البلدين ، كما تركت منطقة منزوعة السلاح خلف الحدود من الجانبين •

سمات عهد الإمام يحيى :

من أبرز سمات عهد الإمام يحيى العزلة عن العالم ، وسبب العزلة معروف ، فإن الإمام ينتمى إلى سكان الجبال وطبيعة هؤلاء أن يميلوا للعزلة ، وهو كذلك ينتمى إلى الشيعة الزيدية ، وهم أقلية في العالم الإسلامي ، ثم أن اليمن عانت الكثير من حراها ضد الأتراك العثمانيين ومن أجل هذا آثر اليمنيون أن يعيشوا بمعزل عن الناس ، فقد أحسوا أن الناس أعداؤهم ، وبخاصة عندما ظهرت قوى جديدة تناصبهم العداء بعد أن تخلصوا من الصراع ضد العثمانيين ، وهذه القوى هى البريطانيون والإدريسيون والسعوديون ، وبسبب سياسة العزلة بقيت اليمن بمنأى عن ركب الحضارة ، وعاشت التاريخ الحديث في تشكك واضطراب فكري لا تسمح بأعمال التنقيب أو دخول المخترعات الحديثة ، فقد كان ذلك بعد عند الإمام انحرافاً أكثر البعد عنه ، وقد كان من مظاهر العزلة والتشكك أن اتجهت اليمن لعدم المشاركة في الاعداد لجامعة الدول العربية ، وقلعت بأن يكون مندوبها « مستمعا » وظل الناس يتندرون بالمندوب المستمع مدة طويلة ، ولم تصبح اليمن عضواً كاملاً إلا عندما

(١) انظر نصوص هذه المعاهدة وملحقاتها في أمين سعيد : اليمن

اتضح أن جامعة الدول العربية كائن قليل النفوذ وضعيف التأثير أن كان
أله نفوذ أو تأثير *

وكان الإمام يحيى قليل الثقة بمعاونيه وكبار رجال دواته ، ولذلك
كان يسيطر عليهم بطريق أخذ أولادهم رهائن بالقرب منه ، وكان يعاك
ذلك في المظاهر بأنه يجمعهم للتدريب ولتهيئتهم لحمل المسئوليات الكبرى
بالدولة : ولكنهم في الحق كانوا وسيلته ليسيطر على ذويهم *

ومن الأساليب الشاذة التي مارسها الإمام يحيى ما يسمى
« التخطيط » ومفهوم « التخطيط » هو دفع إحدى القبائل للسطو المفاجئ
على قبيلة أخرى تشكك الإمام في ولائها ، أو ترددت في تقديم الترامات
المادية للإمام ، وكثيرا ما ترتب على ذلك القضاء على القبيلة المعتدى عليها ،
ومن الواضح أن هذه التصرفات حبست اليمن في العصور الوسطى ، و
تسمح له بأي نوع من الانطلاق نحو التقدم والرقى *

ولم يشهد عصر الإمام يحيى إلا ومضات خفيفة من التقدم كانت
أقل بكثير مما يتطلبه العصر ، ومن هذه الومضات من الجانب السياسي
أن اليمن أصبحت تدعى « المملكة المتوكلية » ويعتبر ذلك تطورا في الفكر
السياسي ومؤشرا إلى عهد جديد من السلطة قوامه الملك ، فلم يعد
الإمام يختار كما اختير والد الإمام يحيى بسبب علمه وفضله ، وإنما
وضع الإمام نظام الملك وما يتبعه من توارث ، وتنفيذا لهذه الفكرة حدد
الإمام ولي عهده وأعلن ذلك سنة ١٩٤٧ باختيار ابنه أحمد لهذا المنصب
ولعل انتقال الإمام يحيى إلى صنعاء واتخاذها عاصمة له عقب اتفاقية
« دعان » كان تأييدا لهذا الاتجاه ، فذلك يوضح أن الإمام لم يعد يقنع
بعاصمة أجداده ، وإنما أصبح يطمع في عاصمة عامة ، ومن المؤكد أن
صنعاء أنسب مدينة لهذا الغرض ، فظالما كانت عاصمة اليمن كلها في
عهود متعددة *

وهناك ومضات في الجانب الاقتصادي ، كاستدعاء بعض الخبراء في
الثقون الصناعية والزراعية من مصر وسوريا وغيرها *

وهناك ومضات في الجانب الثقافي تتركز في ففتح مدرسة « دار العلوم » بصنعاء ، وإرسال بعثات قليلة إلى العراق وإيطاليا للترديد من الثقافة الطبية أو العسكرية •

ولكن هذه الومضات كانت أقل جدا مما تتطلبه الأحوال ، وكان ذلك مما أدى إلى نهاية الإمام يحيى كما سنرى فيما يلى :

نهاية الإمام يحيى :

كان الإمام يحيى حاكما عنيقا مخيفا ، وكان ولى عهده مشهورا بالقسوة والعنف ، وطال عهد الإمام يحيى ، وثقل خلقه ، وتقدمت به السن ، ولكن الناس كانوا لا يتوقعون تغييرا على فرض وفاة الإمام يحيى ، لأن السلطة تنتقل إلى ولى العهد الذى لم يكن يبشر بالخير ومن هنا كانت المؤامرة للقضاء على الإمام يحيى تتجه كذلك للقضاء على ولى العهد ، بالفنك بالاثنين أو بالفنك بالأول وإبعاد الثانى عن السلطة •

وقد قاد المؤامرة عبد الله بن أحمد الوزير عضو ديوان الإمام ، وزوج ابنته ، وأحد كبار دولته ، وقائد جيوشه بعدة جبهات عسكرية ، وكان يعاونه فيها عدد من أحرار اليمن الساخطين على الحكم والذين كونوا لهم جمعية أسموها « الجمعية اليمنية » واتخذت « عدن » مقرا لها وكان يتزعمها أحد أبناء الإمام الساخطين عليه وهو سيف الإسلام إبراهيم ، واشترك في هذه المؤامرة كذلك حسين بن محمد الكسبى معلى الإمام فى الشؤون الخارجية ، وزيد بن على الوشكى حاكم تعز ، وانضم لهم الضابط العراقى جميل جمال ، والفضيلة الورتلانى عضو جمعية الإخوان المسلمين وهو تاجر مغربى قدم لليمن من القاهرة بحجة محاولة القيام بمشروعات اقتصادية باليمن •

وفى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ نجحت المؤامرة ، إذ اختبأت المجموعة التى عهد لها بالتنفيذ فى طريق الإمام وهو عائد من بلدة حريز إلى صنعاء ، ووضعوا بالطريق ما يعوق سير السيارة التى يركبها الإمام ، وعندما ظهرت

خرج هؤلاء من مكنهم وأطلقوا الرصاص على السيارة ومن بها ، وقد قتل الإمام ورئيس وزرائه القاضى عبد الله بن حسين العمري وسائق السيارة والخادم الخاص للإمام •

وكان المتآمرون قد وضعوا خطة هجوم على ولي العهد عقب الانتهاء من الإمام ، وكانت الجماعة التى أسند لها القيام بذلك تعيش فى تعز حيث يقيم ولي العهد ، ولكن ولي العهد استطاع أن يفلت من تعز فى الوقت المناسب ، ووصل ولي العهد إلى بلدة « حجة » وهى معقل حصين له •

ويبدو أن عبد الله الوزير قنع بموت الإمام ، فبدأ يحاول جذب الناس له قبل أن يتأكد من القضاء على ولي العهد ، وهذا التصرف كان سيئاً العواقب ، فقد أعد ولي العهد عدته — ونازل قوات الوزير ، ودارت بين القوتين عدة معارك ، سرعان ما انتهت بفوز ولي العهد الذى أعلن نفسه إماماً لليمن ، واتخذ لقب « الناصر لدين الله » كما اتخذ تعز عاصمة له ، وقبض على المتآمرين والمتهمين بمساعدتهم ، فأعدم بعضهم ودفع للسجون عدداً كبيراً منهم ، وتمكن الفضيل الورتلائى وقلة معه من الفرار من اليمن ، وبدأ عهد الإمام أحمد فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٨ •

عهد الإمام أحمد :

فى كلمة موجزة يمكننا أن نقول ان الإمام أحمد كان امتداداً لعهد أبيه فى الحقيقة والواقع ، ولكن الإمام أحمد حاول أن يضع طلاء يظهر حكمه بصورة مخالفة لواقعه ، فعمد إلى التظاهر بتأييد حركات الوحدة بالعالم العربى ، بل كان عضواً فى الحلف الثلاثى الذى عقد سنة ١٩٥٦ بين مصر والسعودية واليمن ، وأقام اتحاداً مع الجمهورية العربية المتحدة عقب قيام هذه ضامة مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ وعقد اتفاقية تعاون مع الاتحاد السوفيتى ••• ولكن هذه الاتجاهات كانت مظاهرة قليلة الدلول وفى الناحية الداخلية حصلت تغييرات طفيفة ، كانشاء مؤسسة النقد ، وإعادة تنظيم الجهاز الحكومى ، والقيام ببعض الإصلاحات الخاصة

بأنشاء الطرق ، ولكن أمور الدولة كلها بقيت في يد الإمام كما كانت في عهد أبيه •

وفي ديسمبر سنة ١٩٦١ أصدرت الجمهورية العربية المتحدة قرارا أعلنت فيه حل الاتحاد ، وكان ذلك عقب الانفصال الذي حدث بين مصر وسوريا •

وقد قامت ضد الإمام أحمد ثورات أو محاولات للقضاء عليه ، أهمها ثورة مارس سنة ١٩٥٥ ، وقد أرغم الإمام في هذه الثورة على التنازل عن الإمامة لأخيه الأمير عبد الله الذي كان مؤيِّداً من قادة الجيش وهن كثير من القبائل ويبدو أن أعداء الإمام قنعوا بهذا التنازل ، وراحوا يدبرون أمر المملكة ، ولكن الإمام أحمد كان يعد عدته للثورة عليهم ، فكاتب سرا أعوانه وابنه البدر الذي كان بالحديدة ، واستطاع الإمام أحمد أن يدفع ثورة مضادة قضت على أعدائه وقبض على قادتهم حيث نفذ فيهم حكم الإعدام والسجن •

وفي مارس سنة ١٩٦٠ اعتدى عليه بعض ضباط الجيش ، وأطلقوا عليه نيران مدافعهم الرشاشة وهو يزور مستشفى الحديدة ، وقد سقط الإمام من هول ما أصابه ، واعتقد المعتدون أن الإمام قد مات فاخطفوا حتى تنتضح الأمور التالية لذلك الحدث • ولكن الإمام لم يكن قد مات . وسرعان ما وضع تحت العلاج مها أصابه من جراح ، وألقى القبض على من حامت حوله الشبهات حيث أعدموا •

وقد ظل الإمام متأثرا بآلامه وجراحه ، حتى مات في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، وكان الأمير البدر في صنعاء فأعلن إمامته •

الإمام البدر :

ليس للإمام البدر عهد نتحدث عنه ، فكل مدته لا تتجاوز أسبوعا ، فقد هبت ثورة ٢٦ سبتمبر ضده ، وأطاحت به ، وكانت بقيادة عبد الله السلال ، وأعلنت الثورة إلغاء الإمامة وقيام الجمهورية باليمن •

الجمهورية العربية اليمنية

كانت الثورة التي هبت في سبتمبر نقوم على عناصر من الجيش ، ومعهم جماعة من المدنيين ، ففي مساء الخامس والعشرين من هذا الشهر ، تحركت قوات عسكريه واتجهت إلى قصر البدر في صنعاء ، وبدأت تسكب عليه وبلا من رصاصها ، ولكن الإمام البدر استطاع أن يتسلل من باب خلفي وأن يجد طريقة إلى جيزان ، وكان هذا الهروب نذير صراع طويل ، فقد لجأ الإمام البدر إلى القبائل التي تدين بالولاء له ولآله يطلب عونهم وتجمعت بعض القبائل حول البدر ، وخيف أن تفشل الثورة كما فشلت ثورة سنة ١٩٤٨ وثورة سنة ١٩٥٥ ، فلجأت الثورة إلى عبد الناصر بمصر تطلب مساعدته لتأمين الثورة .

عبد الناصر واليمن :

سارع عبد الناصر في المزج بجيش مصر في اليمن دون تفكير في العواقب ، وبدون استشارة الشعب المصري أو رضاه ، وسرعان ما قدم للثورة العتاد والرجال ، ولكن حركة البدر طلبت العون من السعودية بسبب تدخل مصر في المنطقة ، وكانت العلاقة انذاك بين مصر والسعودية في شبه أزمة ، فقدمت السعودية العون للإمام البدر ، واندفع جمال عبد الناصر يرسل لليمن فرقاً مقاتلة من الجيش المصري ، والذي يتتبع أحداث التاريخ يحس أن عبد الناصر كان متلهفا لدفع الجيش إلى اليمن ، وننقل فقرة من خطابه الذي ألقاه في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٢ ونصها : « يوم ٥ أكتوبر كان لنا مائة صف ضابط وعسكري في اليمن ، ويوم ٩ أكتوبر أصبحوا ٣٠٠ ويوم ١٠ بعثنا أول قوة من سلاح الطيران ويوم ١٦ أصبح لنا باليمن ألفان ٠٠٠ » وهكذا نلاحظ سرعة الاستجابة لطلب ثورة اليمن ، كما نلاحظ سرعة تطوير العدد والعتاد .

وكانت هامة مريرة ، فقد شهدت أرض اليمن مذابح رهيبة ، ودماء يمنية أريقّت على تراب اليمن ، دماء يمنية أراقها اليمنيون ، ردهاء

يمنية أراقها المصريون ، وقد تحدثنا بإفازة عن صراع اليمن ودور عبد الناصر فيه في دراستنا عن عهد عبد الناصر ، عهد المظالم والهزائم بالجزء التاسع من هذه الموسوعة •

وقد طال الصراع باليمن واستغرق عدة سنوات واستلزم خسارة هائلة قديماتها مصر من اقتصادها ومن سمعتها ، وكانت حرب اليمن من أسباب هزائم مصر سنة ١٩٦٧ ، إذ كانت مصر تحارب في جبهتين ، وكانت قد سحبت بعض جيوشها من مواجهة إسرائيل لتصدرهم اليمن •

ولم يتوقف تدخل عبد الناصر في شئون اليمن إلا بهزيمة سنة ١٩٦٧ الساحقة وبحاجته الماسة للعون المادى من السعودية ودول البترول ، فطلب إليه في مؤتمر الخرطوم أن يخرج بجيشه من اليمن فانصاع ، وسحبت جيوش مصر من اليمن بعد خسارة جسيمة في الأرواح والأموال •

ومن الواضح أن تدخل عبد الناصر دفع السعوديين للتدخل في الجانب الآخر ، وبخاصة لأن هتافات عبد الناصر بالاشتراكية وتصريحاته ضد النظم الملكية كانت تجعل دفاع السعودية عن اليمن دفاعا عن النفس حتى لا تمتد لها صيحات عبد الناصر وأهدافه ، والذي يتتبع أحداث الوجود المصرى باليمن يدرك اضطراب عبد الناصر وعدم وضعه خطة دقيقة في هذا الموضوع ، فقد استجاب عبد الناصر لتأييد الثورة ثم اندفع في هذا المضمار ، وعادى السعودية ، ولكنه عاد عن هذه السياسة فزار جدة في أغسطس سنة ١٩٦٥ ، وعقد اتفاقية جدة التى تقرر موافقة مصر على سحب قواتها من اليمن في موعد محدد على أن يوقف السعوديون تأييدهم لأنباع البدر ، ويتقرر مصير اليمن في استفتاء حر ، ولكن هذه الاتفاقية لم تنفذ لسخط الجمهوريين باليمن عليها من جانب ، ولتردد عبد الناصر في سياسته من جانب آخر ، ولم يضع حدا لهذا التردد إلا هزيمة ١٩٦٧ الساحقة وحاجة عبد الناصر للمال السعودى كما قلنا آنفا •

وإذا اتجهنا لقيادة الثورة ، وجدنا أن عبد الله السالحي لم ينجح في قيادتها ، ويبدو أن معلوماته السياسية كانت ضحلة ، ومن هنا بدأ حكمه بإعدام عشرين شخصا خلال الأسبوعين الأولين ، وأعلن عن وحشد مكافآت مالية سخية لكل من يأتى برأس أحد أعضاء الأسرة المالكة ، ثم اتجه إلى زملائه فأخذ يحقد عليهم ، ويرى في منافستهم له خطرا عليه وبخاصة اللواء حسن العمرى واللواء محمود الجائفي ، ومن أجل هذا اتضح أنه من الضروري أن يبتعد عن اليمن رجاء الوصول إلى استقرار النظام بها ، وفي منفاه بالقاهرة لم تتحسن الأحوال مما جعله يطلب أن يعود إلى سلطانه ويؤكد أن ذلك هو السبيل لاستقرار الأحوال في اليمن ، واستجابت القاهرة وأعادته ، ولكنه سرعان ما اتجه إلى الدم والتفكيك بخصومه ، مما جعل من الصعب أن يستمر في مركزه ، فأبعد نهائيا عن رئاسة الجمهورية في فبراير سنة ١٩٦٧ ، وتكون مجلس رياسى بقيادة القاضي عبد الرحمن الإريانى .

على أن تكوين مجلس رياسى بقيادة القاضي الإريانى كان تنفيذا للمحاولات التى اشترك فيها حسن العمرى وأحمد النعمان ، والتى وضعها أحمد النعمان موضع التنفيذ عندما أصدر فى مايو سنة ١٩٦٥ قرارا بنظام مؤقت يقضى بأن يعين رئيس الجمهورية ومجلس الرئاسة بواسطة المجلس الاستشارى الذى كونه من رؤساء القبائل ، واتجهت اليمن إلى تنفيذ هذه الإصلاحات فى نظام الحكم عقب خروج الجيش المصرى منها .

وينبغى أن نذكر أن الوجود الناصرى باليمن كان قليل الجدوى ، بسبب قلة الخرائط ، وبسبب عدم دراسة الطبيعة اليمينية ، وحرب العصابات والكهوف ، ولأن جيش مصر فى عهد عبد الناصر كان ضحية للتمزق والقلق بسبب الصراع الذى كان يختفى ويظهر بين عبد الناصر والمشير ، ذلك الصراع الذى سيطر عليه الحقد والتنافس والأناية من الزعيمين اللذين أثبتت الظروف أنهما كانا بعيدين كل البعد عن المواهب والكفاءات ، ومع الوجود الناصرى باليمن زحف جيش الإمام البدر وجيش عمه الأمير

الحسن من الشمال ، فحققا نجاحا كبيرا . واستطاعا أن يسيطرا على أكثر من نصف اليمن ، ولولا موقف أمريكا التي اعترفت بالجمهورية ، ولولا عدم استمرار الدعم السعودي ، لكان من الممكن أن تهوى الجمهورية المناشئة ، وهكذا لم يكن الوجود الناصري كبير الفائدة ، وعندما انسحب الوجود الناصري من اليمن كان يُظَن أن الجمهورية ستسقط وينتصر الملكيون ، ولكن نظام الإمامة كان قد فقد فاعليته نهائيا وبدأت عيون اليمنيين تفتتح ، فلم يكن من الممكن أن تعود الأمور القهقرى .

على أن الوجود المصري باليمن كان كبير الفائدة من الناحية الحضارية ، فقد شُكِّت طرق وأقيمت مدارس ، وبدى في بعض الإصلاحات الاقتصادية ، ودبت روح جديدة في اليمن لا يمكن أن تزول ، ويتوقف نشاطها على قدرة اليمنيين وإخلاصهم .

ومن القرارات التي أسرعت الثورة باصدارها ، قرار بإلغاء المرق وبمبدأ المساواة بين الناس أمام القانون ، وقرار بإلغاء الطبقات ، كمساواة الثورة أن الأحكام تستمد من الشريعة الإسلامية : وأنه لا فرق بين الشرعية والزيدية أمام القانون والحقوق .

ثورة جديدة في اليمن :

في يونيو سنة ١٩٧٤ قدم رئيس المجلس الجمهوري استقالته إلى القيادة العامة للقوات المسلحة ، وكان الإيراني القائد العام للقوات المسلحة موجودا في باريس للعلاج ، وكان العقيد إبراهيم الحامدي نائب القائد العام يتولى مهام القائد في أثناء غيابه ، ولذلك أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة اليمنية قرارا بتكوين مجلس قيادة من سبعة أعضاء برئاسة العقيد إبراهيم الحامدي ، وأعلن المجلس سياسته وهي تقضي بتوثيق الروابط الأخوية مع الدول العربية ، ودعم أواصر الصداقة مع كل دول العالم على أساس الاحترام المتبادل ، والمحافظة على استقلال اليمن ، والتمسك بسياسة عدم الانحياز .

وأعلن المجلس كذلك أنه سيعمل على دعم القضايا العربية والمواثيق الدولية ، وكل الاتفاقيات والمعاهدات السابقة ، والوقوف بجانب القضايا الإنسانية العادلة ، وسيعنى المجلس بتحقيق الوحدة اليمنية ودعم روابط الجوار مع الدول العربية الشقيقة المجاورة ، وسيعمل على القضاء على أسباب الرشوة والسلبات ، وسيتعاون مع العناصر الوطنية الشريفة القادرة على تسيير الأمور •

وبعد العقيد إبراهيم الحامدي أصبح المقدم حسن الغشمى رئيساً لجمهورية اليمن الشمالية وفى يونيو سنة ١٩٧٨ اغتيل المقدم الغشمى بتدبير سالم ربيع رئيس اليمن الجنوبية ، فقد صدر بيان أذاعه راديو صنعاء يقول ان الحادث وقع عندما دخل مبعوث خاص لرئيس مجلس رئاسة اليمن الديمقراطية (الجنوبية) سالم ربيع إلى مكتب الرئيس الغشمى ليسلمه رسالة خاصة من سالم ربيع وأضاف أن الانفجار وقع عندما فتح ممثل سالم ربيع حقيبته الممنوعة التى كان يحملها أمام الرئيس الغشمى فانفجرت وأسفر الانفجار عن مصرع المقدم الغشمى والمبعوث نفسه •

وألقت اذاعة صنعاء مسئولية الاغتيال على « حزب يتكر لله وللوطن » وقالت اذاعة صنعاء أن اليد الشريرة فى عدن قد اقتربت أسفل وأفزع العمليات العادرة ونوهت الاذاعة بأنه ينبغي تسوية الحساب • وقال راديو صنعاء أن الشخص الذى نفذ الاغتيال قد نقل إلى الجمهورية العربية اليمنية على متن طائرة خاصة من عدن • وأضاف أن المبعوث قد أخذ إلى مكتب الرئيس الغشمى بكل ثقة وطيب نية بعد مكالمة هاتفية من سالم ربيع رئيس مجلس الرئاسة فى عدن •

وقد ذكرت وكالة الأنباء العراقية نقلاً عن مراسلها فى صنعاء أن اليمن الشمالية قررت قطع علاقاتها الدبلوماسية مع اليمن الجنوبية •

وهكذا، كانت الأوضاع المضطربة في اليمن الجنوبي تمتد ليهيها إلى اليمن الشمالي ، فعانى اليمن الشمالي من عبد الناصر ومن أحداث الجنوب .

العقيد على عبد الله صالح :

وبعد هذه الغمة وهذا العدوان من الجنوب آلت السلطة للعقيد على عبد الله صالح ، وهو حاكم اليمن عند كتابة هذه السطور .

سد مأرب :

في ديسمبر سنة ١٩٨٦ حدث في اليمن أعظم حادث حضارى ، وننقل الكلمة إلى صحيفة الاتحاد التي كتبت تفاصيل رائعة عن هذا الحادث عنوانها :

زايد يتوجه إلى صنعاء اليوم لافتتاح سد مأرب

وجاء تحت هذا العنوان ما يلي بإيجاز :

يتوجه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة ، بحفظ الله ورعايته ، اليوم إلى صنعاء ، في زيارة رسمية للجمهورية العربية اليمنية تستغرق أربعة أيام بدعوة من فخامة الرئيس على عبد الله صالح . ويشترك صاحب السمو رئيس الدولة الشعب اليمني فرحته في الاحتفال غداً بافتتاح سد مأرب التاريخي الذي قام سموه بإعادة بنائه على نفقته الخاصة .

كما يجرى صاحب السمو رئيس الدولة مباحثات مع فخامة الرئيس اليمني مساء اليوم ١٠ ويستقبل سموه بالعاصمة اليمنية السيدات ثورجوت أوزال رئيس وزراء تركيا الذي يحضر الاحتفال بافتتاح سد مأرب .

وقد أدلى صاحب السمو رئيس الدولة بخديث « للاتحاد » قال فيه أن الذي جعلنى أفكر في بناء سد مأرب ثلاثة أمور رئيسية مهمة .

✽ أولها : أن هذا السد هو الذى أحيا اليمن فى الماضى ، وهو الذى تطور اليمن بوجوده .

✽ ثانيها : ان اليمن كان قد خرج لتوه من حروب طاحنة ابتلى بها من الداخل ومن الخارج واستطالت هذه الحروب وازمنت ، وأصبح الشعب اليمنى مشتتا ، كما أصبحت الدولة اليمنية شبة ممزقة ، وأمسى واضحا للعيان أن التخلف فيها أكثر من أى دولة عربية أخرى .

✽ ثالثها : ان من يقرأ التاريخ يعرف أن نسب العرب وحسبهم كله يعود إلى اليمن ، فمنه خرجت الهجرات إلى كل بقاع العرب وبالأخص إلى الخليج العربى .

من هذا المنطلق رأينا ان من واجبنا ان نأخذ بيد اليمن حتى يكون رافدا للأمة العربية فى الحاضر والمستقبل فلم أجِد عندئذ أعز وأعلى للمنى من بناء سد مأرب ، فعزمت على بنائه من جديد ، لأن اليمن يعتبر جناح الخليج . فكيف نساعد أخواننا فى كل مكان ولا نساعد الذين دمرتهم الحروب وطحنتهم .

وأضاف سموه قائلا : أن هذا واجب الابد منه ، لأن كل دولة عربية تقوى وتنهض هى سند وقوة للأمة العربية أجمع ، وكل دولة تضعف تضعف الكيان العربى لذا لم أتوان ولم أتأخر فى تلبية نداء الإخوة وحرصت على أن يكون هذا العمل سعادة لحاضر اليمن وقوة ومنعة لمستقبله .

وكما كان وجود السد القديم يُسبغ على اليمن اسم اليمن السعيد فإننى أردت أن يجعل السد الجديد اليمن سعيدا بعون الله وتوفيقه .

وكان هذا السد قد بدئ فى إنشائه فى الثانى من أكتوبر سنة ١٩٨٤ أى أن العمل فيه استغرق أكثر من سنتين ، وكانت تكاليفه باهظة ولكنها حق اليمن على جيرانها الأثرياء .

اليمن الجنوبية

قبل وبعد اعلان الجمهورية

وصلنا في الحديث عن اليمن إلى العهد الحاضر ، ولكن هناك مساحة مهمة يجب أن يشملها حديثنا ونحن نتكلم عن اليمن ، وهذه المساحة هي ما قامت عليه جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

وقبل اعلان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية كانت المناطق التي تكونت منها هذه الجمهورية هي :

١ — عدن : وتشمل ثلاث مناطق هي البلدة الأصلية وما حولها من جبال ، والملا التي تشرف على شعبة البحيرة الموصلة إلى باب المندب ، تلك التي ترسو بها البواخر الصغيرة ، ثم التواهي التي يقع بها الميناء العام حيث ترسو البواخر المختلفة ، ويتبع عدن كذلك بعض الجزر التي تقع في مضيق باب المندب مثل جزيرة بريم ، وفي المحيط الهندي مثل جزيرة سو قطرة ، وفي أول البحر الأحمر مثل جزيرة كيران .

٢ — المقاطعات الشرقية : وهي أهم مقاطعات الجنوب ، وبها مناطق حضرموت ومهرة ، حيث تقع سلطنات ومشيخات يبلغ عددها ثمانى ، وأهمها سلطنة القعيطى وعاصمتها المكلا ، وسلطنة الكثيرى وعاصمتها سيون ، وسلطنة الواحدى وعاصمتها بلحاف .

٣ — المقاطعات الغربية : وهي كثيرة السلطنات والمشيخات ويبلغ عدد هذه وتلك ٢٣ سلطنة ومشيخة ، وهي قليلة السكان ، ويصل تعداد بعض هذه المشيخات ألفى شخص فقط ، وأهم سلطنات المقاطعات الغربية سلطنة لحج وعاصمتها الحوطة ، ثم سلطنة الصبيحة وعاصمتها الطور ، وسلطنة العقارب وعاصمتها بير أحمد ، وهناك سلطنة العوالق العليا والسفلى وسلطنة يافع العليا والسفلى ، وإمارة الضالع ، وإمارة بيحان وغيرها .

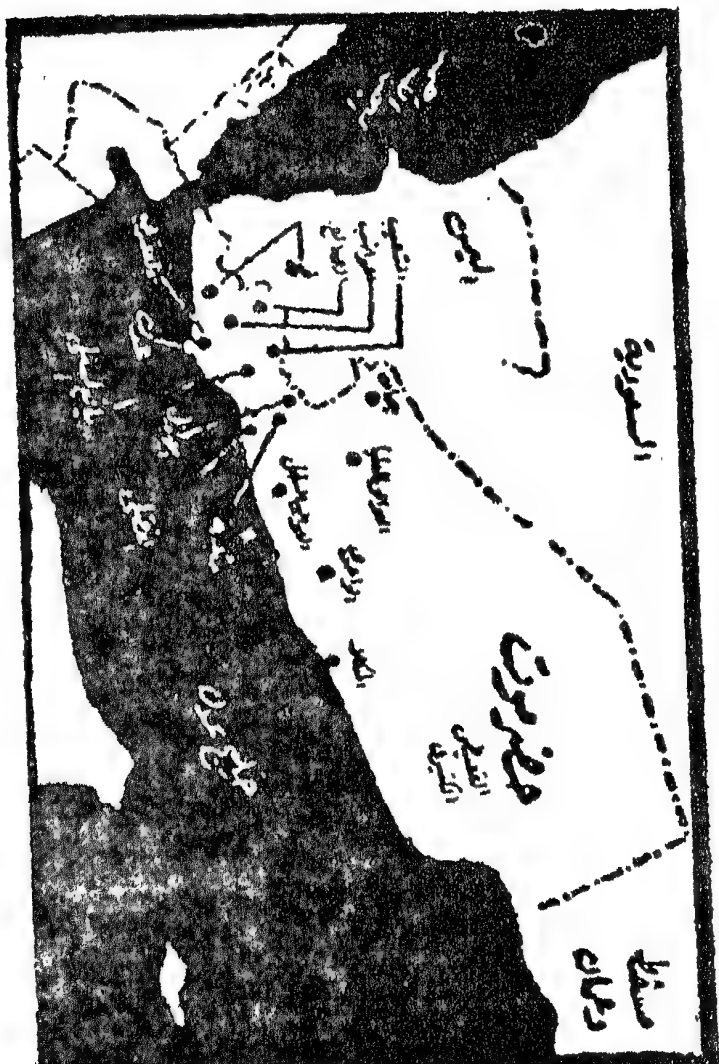
ومن الملاحظ أن الوحدات اختلفت أسماؤها ، وبالتالي اختلفت السلطات بها وفيما يلي تعريف مجمل بهذه التسميات :

المشيخة : القبيلة الواحدة التي يتحول شيخها إلى حاكم سياسى تسمى مشيخة ، فإذا تجمعت عدة قبائل فى وحدة واحدة ، وكانت واحدة منها أعز شأننا وأقوى نفوذا فإن هذا التجمع يسمى « الاتحاد القبلى » .

السلطنة : نظام أقرب للدولة حيث يوجد شرطة وجيش وحكام بالوراثة .

الإمارة : سلطنة صغيرة يعتمد الأمير فيها على مكانة دينية أو يكون تابعا لسلطنة بشكل ما من أشكال التبعية .

وسنعطى كلمة تاريخية لعدن والمقاطعات الشرقية والمقاطعات الغربية فيما يلى :



في المناطق التي تكونت منها جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

عدن حتى الاستعمار البريطاني :

كانت عدن جزءا من اليمن في كثير من الأزمنة — كما ذكرنا من قبل — تابعة للولاة الأمويين ثم العباسيين ، ولما قامت دولة بنى زياد باليمن ، كانت عدن جزءا من هذه الدولة ، وتبعت بعدهم بنى نجاح وبنى صالح حتى دخلت فيما دخلت فيه مناطق اليمن ابتداء من سنة ٥٦٩ حيث تبعت دولة الأيوبيين فبنى رسول فبنى طاهر ، وكان عامر بن داود بن طاهر آخر أمراء بنى طاهر في عدن حين دخلها العثمانيون بدعوة منه ثم قتلوه واستولوا على المدينة ، ولكن أئمة اليمن قادوا اليمنيين في الصراع ضد الأتراك العثمانيين واستطاعوا أن يستعيدوا عدن في عهد الإمام المطهر (١٥٥٨ — ١٥٧٤ م) وظلت عدن تابعة لحكم الأئمة حتى سنة ١٧٣٢ م ، وفي هذا العام قام أهل يافع بقيادة الشيخ فضل بن علي العبدلي بثورة ضد الشيخ أحمد الوداعي عامل الإمام المنصور الحسن بن القاسم ، وقد استطاع العبدلي بهذه الثورة أن يطردوا عامل الإمام وأن يستولوا على عدن .

وفي سنة ١٨٢٢ م تم اتفاق بين سلطان عدن السلطان أحمد عبد الكريم بن فضل بن العبدلي وبين شركة الهند الشرقية البريطانية على أن تقيم الشركة محطة للوقود في خليج عدن في الطريق إلى الهند (١) ...

وفي سنة ١٨٣٧ غرقت سفينة انجليزية بالقرب من عدن ، وادعى الإنجليز أن رعايا السلطان العبدلي نهبوا ما بها وطالبوا بالتعويض ، فلم يرضخ لهم السلطان ، فأرسلت شركة الهند مركبا حربييا ضربت عدن ، وقد تصدى لها السلطان وساعدته قوات يمنية ، ولكن القوات الانجليزية بمعداتها الحديثة كان لها النصر ، وسقطت عدن تحت الاحتلال الانجليزي .

وقد اعتبرت عدن قاعدة ، زحف منها الاستعمار الانجليزي إلى

(١) انظر نص الاتفاقية في « اليمن » لأمين سعيد ص ١٨ - ٢١ .

المقاطعات الشرقية والغربية ، واعتبرت عدن كذلك عاصمة عامة للجنوب العربي ، وحصل الانجليز على فرمان عثمانى يعترف بالوضع القائم لهم في عدن (١) .

المقاطعات الشرقية حتى الاستعمار البريطاني :

كانت هذه المقاطعات جزءا من اليمن قبل الإسلام ، وفي عهد الرسول ، وعهد الخلفاء الراشدين ، ودولة بنى أمية ، ومطلع العهد العباسي ، وكان والى اليمن يعين من قبله من يلى أمر حضرموت ، وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن « اليمن في العصر العباسي » أن المنصور ولى معن بن زائدة الشيعياني اليمن ، فبعث هذا ابن عمه سليمان نائبا عنه إلى حضرموت .

وهناك نص يورده المؤرخ الحضرمي سعيد عوض باوزير يفيد أن المنصور ولى مرة عاملا على حضرموت بطريق مباشر وبدون أن يكل هذا إلى والى اليمن ، ويعلق عليه هذا المؤرخ بأن عمال حضرموت كانوا أحيانا يعينون من قبل مركز الخلافة (٢) ، ويتجه باحث حضرمي آخر (٣) إلى أن حضرموت لم تعرف في تاريخها الطويل حكومة مركزية خضعت لها كل أنحاء الاقاليم إلا في عهد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وكانت تقوم — في فترات متعاقبة من التاريخ — إمارات في مناطق متعددة من حضرموت شديدة الشبه بدويلات المدن . أما المناطق المحيطة بالمدين فكانت السلطة فيها متروكة لرؤساء العشائر ، وكانت هناك علاقات لتبادل المنافع بين حكام المدن ورؤساء العشائر وكان حكام المدن يتغيرون من حين إلى آخر ، أما حكام العشائر فكانوا ثابتين ، وما يقال عن ان حضرموت خضعت كلها لهذا الأمير أو لذلك قبل الإسلام أو بعده ، فليس إلا من باب التجوز أو الإفراط في الأمل .

(١) المرجع السابق ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٥٢ .

(٣) محمد عبد القادر بامطرف : في سبيل الحكم ص ١١ وما بعدها .

وفي عهد المأمون — كما ذكرنا من قبل — تولى محمد بن زياد ولاية اليمن فأخضع اليمن جميعها لحكمه ، ودخلت في طاعته حضرموت ، والشحر وديار كندة • وقد تحدثنا من قبل عن الدولة الزيادية وعهدها باليمن • وفي عهد هذه الدولة عظم شأن الإباضية الخوارج ، فلما ضعف الزيادية في آخر عهدهم ، بدأ نشاط الإباضية في الارتفاع ، ودار صراع طويل بين الإباضية من جانب والولاة العباسيين من جانب آخر ، كان من نتائجه أن أصبحت حضرموت بكثير من المصائب والبلاء • وبينما كانت حضرموت غارقة في هذا الصراع الدامى دخل عنصر جديد زاد الطين بلة ، ذلك هو القرامطة الذين هاجموا حضرموت عدة مرات خلال القرن الرابع والخامس الهجريين ، مما جعل الحياة في حضرموت ظلاما وضبابا ، ومما أخفى المعالم التاريخية الدقيقة لهذه المنطقة المهمة ، ويصف المؤرخ الحضرمي سالف الذكر هذه الفترة بقوله :

حال بُعد المسافة وصعوبة المواصلات وقلة موارد حضرموت وأسباب أخرى كثيرة دون استقرار سلطة الحكومات الإسلامية في حضرموت ، فبقيت البلاد عرضة لتعاقب سلطات القبائل المحلية التي ليس لأفرادها من المؤهلات ما يمكنها من القيام بواجبات الحكم وتبعاته ، وقد تسبب عن هذه الفوضى والاضطراب اختفاء معالم التاريخ الحضرمي ، وامتد ذلك إلى القرن العاشر الهجري ، بل إن الفترة بين القرن السادس والعاشر كانت أكثر عهود التاريخ اضطرابا وفوضى (١) •

ومع هذا الظلام سنحاول أن نبرز فيما يلي أهم معالم تاريخ حضرموت — في مطلع القرن السابع ظهر آل راشد وهم ينحدرون من قبيلة حمير القحطانية ، ويتزعمهم عبد الله بن راشد الذي كان معروفا بالعلم والورع ، وقد استولى على جميع وادي حضرموت ، وبويع له سنة ٦٥٦ هـ •

(١) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٧٣ •

وفي هذه الفترة كان الأيوبيون قد بسطوا سلطانهم باليمن ومدوا سلطانهم إلى حضرموت ، ولكن بدون استقرار ، وانتهى ملك الأيوبيين في حضرموت سنة ٦٢٦ هـ .

— ونحو هذا التاريخ ظهرت أسرة آل كثير ، وعاشت بين مد وجزر ولكنها على كل حال كانت أطول عمرا من سواها حتى قيام الجمهورية .

— وفي تيريم ظهر مسعود بن يمانى الكنانى ، وكون دولة آل يمانى في منتصف القرن السابع الهجرى ، وقد بقيت دولة آل يمانى في تيريم حتى قضى عليها بدر الكثيرى سنة ٩٢٧ هـ .

ولم تقبل الدولة التى قامت على أعقاب الأيوبيين أن ينكمش سلطانها عن حضرموت ، ولذلك دخلت حضرموت تحت حكم بنى رسول فترة من الزمن .

— وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى بدأ تدخل أئمة اليمن في شؤون حضرموت يتخذ شكلا عمليا أيام الإمام الحسين بن القاسم وقد استطاع الإمام المتوكل أن يزحف إلى حضرموت بجيش كبير سنة ١٠٧٠ هـ بيد أن جموع الشوافع في حضرموت كانت لا تتقطع ثوراتها ضد الزيدية

— وبينما كانت حضرموت تتور على الزيدية كانت الدولة الكثيرية تتعرض لضغط شديد وصراع مزير حتى قضى عليها مؤقتا في عهد جعفر ابن عمر في منتصف القرن الثانى عشر الهجرى .

— وعلى أثر ذلك أنفكت حضرموت كعقد تهاوى ، وأصبح كل جزء فيها خاضعا لقبيلة من القبائل ، وقد عاشت حضرموت هذه الفترة حتى انبعثت من جديد أسرة آل كثير .

— ثم ظهرت كذلك السلطة القعيطية التى أسسها عمر بن عوض القعيطى اليافعى في مطلع القرن الثالث عشر الهجرى ، وقد عظم نفوذها

واتسعت رقعتها ، ويجوار آل كثير والقيعطي ظهرت سلطنة الواحدى نسبة لعبد الواحد القرشى كما ظهرت كثير من السلطنات والمشيوخات التى أشرنا إليها من قبل والتى استغلها الوجود البريطانى فى عدن كما سنرى فيما بعد .

المقاطعات الغربية حتى الاستعمار البريطانى :

كانت المقاطعات الغربية أكثر ارتباطا بالوطن الأم (اليمن) من المقاطعات الشرقية ، وذلك لقرب المقاطعات الغربية لليمن ، وأهم المقاطعات الغربية سلطنة لحج وهى لا تبعد عن عدن إلا بحوالى ٣٥ ميلا ، وحولها تقع باقى السلطنات والمشيوخات بالمقاطعة الغربية . ويمكن القول إن المقاطعات الغربية ظلت تابعة للحكم اليمنى فخضعت لدولته المتعاقبة ، وعند الزحف التركى أيدت الأئمة وكانت تابعة لهم يولون عليها من يحكمها باسمهم ، وقد ولى الإمام الحسين بن القاسم (١٧٢٧ - ١٧٤٢ م) على لحج رجلا من قبيلة العبادلة اسمه فضل بن على ، وأراد هذا المولى أن يستقل بحكم ولايته فاتفق مع جاره حاكم يافع على الخروج على الطاعة وأن يتعاونوا فى الاستيلاء على عدن واقتسام مواردها المالية ، ونجحت المؤامرة حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، ولكن نشب بين الاثنين خلافة ورثته عنهما القبيلتان (١) ، وقد عاثر هذا الخلاف حتى يسر للإنجليز التدخل فى تلك البقاع ، وبسبب هذا الخلاف انفصلت عن لحج مناطق كثيرة كانت تابعة لها ، وكان ذلك من أسباب كثرة السلطنات والمشيوخات فى المقاطعات الغربية ، ومما سبب كثرة المشيخات انشغال الأئمة الذين آل لهم وخدمهم السلطان فى اليمن ابتداء من الزحف التركى — بالحرب مع العثمانيين وهذا شجع القبائل على اعلان استقلالها ، وتكوين مشيخات أو سلطنات قبلية مستقلة حتى داهمها جميعا النفوذ البريطانى فلم تستطع وهى أشتات متفرقة ضعيفة أن تصمد أمام جبروته كما سنرى فيما بعد :

(١) انظر ملوك الغرب للريحانى .

الحياة السياسية والاجتماعية بحضرموت قبل الاستقلال

بين أيدينا كتاب كتبه باحث حضرمي ، وهو يعد مرجعا مهما لتصوير أحوال حضرموت السياسية والاجتماعية ^(١) ، ومنه نقتبس بعض المعلومات في هذا المجال :

كان نظام الحكم في حضرموت متشابها قبل الاحتلال الانجليزي وبعده لأن الانجليز لم يتدخلوا في الشؤون الداخلية بالبلاد ، واتجهت عنايتهم إلى الأمور الخارجية والزام السلطات المحلية بعدم التفاوض أو الاتصال بأية حكومة أجنبية غير بريطانيا •

وكان نظام الحكم كذلك متشابها في جميع المقاطعات الحضرمية ، وبوجه الاجمال تتكون الحكومة من السلطان والوزير والقاضي الشرعي ، ويعين السلطان الوزير وغيره من الموظفين والولاة وقد يبقى هؤلاء في مراكزهم عشرات السنين ، وتصدر أحكام الزواج والأسرة والميراث حسب الشرع الإسلامي ، أما ما عدا ذلك من القضايا فإن الأحكام تتبع العرف إذ لا توجد قوانين جنائية أو مدنية ، ولهذا قد تتضارب الأحكام وتختلف شدة ولينا باختلاف الولاة والقضاء ، ولا توجد سجلات تدون فيها الأحكام •

ولا يرتبط الولاة بالسلطان إلا فيما يتعلق بتزويد الجيش بالرجال والمال ، والسلطان هو الذي يزيد عدد الجيش أو ينقصه ، وهو الذي يعلن الحرب أو يوقفها ، وليس هناك دوائر خاصة للقضاء ، وليس للسجون نظام محدد •

والحقوق المدنية غير نافذة في بعض بلدان الحكومة ، فالضرائب في كثير من المقاطعات تجبى من فئة دون أخرى فإن كثيرا من العلويين وآل

(١) هو كتاب تاريخ حضرموت السياسي للاستاذ صلاح الدين اليافعي •

عمودى وآل باوزير معفون من الضرائب وليس هناك عذر سوى أن هؤلاء من المروحانيين وأصحاب السلطة الروحية •

وتتكون الإيرادات في الدولة غالبا من الجمارك ، وليس لهذه الجمارك نظام خاص وقواعد ترتبط بها ، فتتمين البضائع يرجع إلى رجال الجمارك وعرفهم • وتأتى بعض الإيرادات من المزارع •

أما المصروفات فتشمل مرتبات الوزير والقضاة والجيش والموظفين وهم قليلون جدا • والناس لا يعرفون بالضبط مبلغ إيرادات الحكومة ولا مصروفاتها لأنه ليس لها ميزانية خاصة ولا عامة (١) •

ومن ناحية الحالة الاجتماعية ، يذكر الأستاذ صلاح البكري أنه لم يكن لحضرموت احصاء رسمى عن تعداد السكان ، ويقدر سكان حضرموت بنصف مليون نسمة بما فيهم سكان البادية • ويقسم السكان أربع طوائف هى :

١ — حملة السلاح •

٢ — التجار •

٣ — الزراع •

٤ — المروحانيون •

وحملة السلاح يحفظون الأمن وبخاصة في الحواضر ويحرسون القوافل ومنهم تتكون حاشية السلطان وأعوانه والرياسات القبلية ، ويسمى حملة السلاح في تعبير الحضارم « القبائل » وربما ترك بعض هؤلاء مهنة حمل السلاح ليصلوا إلى التجارة طمعا في المال ، أو إلى العلم اجلالا له •

وحملة السلاح يحملون نوعا من البنادق والخناجر والسيوف أو

الرماح ، وأولاد حملة السلاح يتدربون على أنواع منه من مطلع الصبا ، وبعضهم لهم نظر عميق في شؤون السياسة والأصلاح وكثيرا ما يحدث نزاع بين قبيلتين ، بل بين القبيلة الواحدة بعضها والبعض ، ولكنهم يتعاونون ويتناسون المشكلات الداخلية إذا واجهوا عدوا من الخارج .

أما طائفة التجار ، فيلحق بهم أرباب الصناعات كالنجاريين والبنائين وعليهم يقع النشاط في الأسواق والمدن . والتجار الحضرميون مشهود لهم بالأمانة والنشاط والصبر والجلد .

أما الزراع فهم يحرقون الأرض ، ويزرعونها بالنخيل وأنواع الحبوب ، وهم أكثر الطوائف الحضرمية عددا ومنفعة للناس ، ومع هذا لا يلاقون احتراما من « حملة السلاح » ومن الروحانيين ، لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لتجردهم من السلاح ومن أجل هذا يسمى هؤلاء « الضعفاء » .

ولعله لهذا السبب لا يحب الفلاح الحضرمي أن يبالغ في الجهد للحصول على الثراء عن طريق الزراعة لأنه لا يستطيع أن يحمي أى ثراء يملكه ولا تهتم الحكومة بحمايته .

أما الروحانيون ، فأشهرهم آل باعلوى « العلويون » ومن العلويين أخذ وبطون شهيرة كأسرة العطاس ، وآل عيدروس ، وحبش ، وشهاب ، والحضرمي ، والكاف ، والسقاف ، ولهؤلاء نفوذ روحى واسع ومكانة اجتماعية خاصة ، وألقاب يحرصون عليها ، وقد اتجهت بعض هذه البطون لتوثيق علاقاتها بالرؤساء السياسيين ، وتبادل هؤلاء وأولئك المصالح والمنافع .

وبيوت الحضارمة تبنى بالطين المخلوط بالطين ، وتتكون البيوت من طابقين غالبا ، ويمكن أن ترتفع بيوت الحكام وقصورهم إلى أكثر من ذلك

وأثاث البيوت بسيط جدا ولكن الأغنياء يؤثثون منازلهم بفرش وثيرة ^٢ والنظافة عامل مهم في كل بيت عظم أو حقير .

وكرم الضيافة من أبرز صفات الحضارمة مهما كلفهم هذا الكرم من جهد أو استدانة .

ويغلب على المرأة الحضرية أن تكون بيضاء هيفاء ممشوقة القد وهي قنوع صبور — مقتصدة تجيد إدارة المنزل وتربية الأولاد مع عفة وشرف . ولكن الجهل منتشر بين النساء والحجاب كذلك منتشر في الغالب .

وكان الرق موجودا في حضرموت حتى تم إلغاؤه منذ مدى ليس بالبعيد .

وأهم الصناعات في حضرموت هي صناعة الحلي ^٣ والأسلحة ، ودبغ الجلود ، والنسيج ، وتجفيف السمك .

وكانت الأمية منتشرة بحضرموت انتشارا واسعا ، وكان الاهتمام ينتجه لشئ من علوم الدين واللغة العربية ، وكانت الدراسة تتبع الطريقة القديمة في تقديم هذه العلوم للطلاب ^(١) .

تلك لحظة سريعة عن الحياة في حضرموت كما كانت قبل الاستقلال ، ومن الواضح أن الاستعمار حرص على إبقاء هذا الظلام في البلاد التي كانت يوما مهبط حضارة رفيعة والتي دفعت للعالم نماذج طيبة من العلماء والقادة .

بريطانيا والجنوب اليمنى

رأينا كيف احتلت بريطانيا عدن ، وكيف كان الأئمة مشغولين في الشمال بالصراع ضد العثمانيين وسواهم ، وقد وجد الانجليز حوالى عدن

(١) صلاح البكرى : مقتطفات من تاريخ حضرموت السياسي ج ٢

قبائل متناحرة ، فأضافوا المزيد من الزيت ليقوى اللهب ، وفي نفس الوقت لوحث بريطانيا للشيوخ المساكين بأن تمدهم بالمال والسلاح فاستجاب بعضهم وخضع الآخرون تحت التهديد ، وهكذا بدأ التدخل البريطاني في شئون المقاطعات الشرقية والغربية وبدأ الزحف الاستعماري بالسياسة والمال حيناً وبالقوة والتهديد أحياناً حتى سقط الجميع ، وكان الثمن رخيصاً للغاية فقد قنع الذين قبلوا المال بالقليل منه ، نظير إعطاء الكثير من الحقوق للسلطة الانجليزية •

وكانت أول معاهدة تعقدها بريطانيا مع سلاطين الجنوب تلك التي عقدها سنة ١٨٤١ م مع سلطان لحج منحسن بن فضل العبدلى وتنص على تخويل البريطانيين نفوذاً واسعاً في السلطنة نظير مرتب سنوى قدره ٦٥٠٠ ريال تدفع للسلطان وأعوانه •

ومن عجائب المعاهدات ، تلك المعاهدة التي أمضيت مع سلطان الضالع في أكتوبر ١٩٠٣ وتنص على أن يدفع مندبو بريطانيا من لطف الحكومة وكرمها سبعة ريالات في الشهر للشيخ مطهر بن على اعترافاً بصداقته وبالخدمات الجليلة التي أداها للحكومة وبالأخص للجنة الحدود ، ويوافق الشيخ المذكور على التمسك دائماً بصداقة وطاعة الحكومة البريطانية ومساعدة ضباطها وملاحظة أعمدة الخطوط الموضوعة في حدود بلاده ، والاعتناء بها وإصلاحها فيما يطرأ عليها من خلال (١) •

وهكذا استسلم كثير من هذه المشيخات بهذا الثمن البهيس ، وما كان لهم أن يفعلوا وان غلا الثمن ، ولكن سلاح القوة والإرهاب كان البديل لمن يتردد في القبول ، ومع هذا فنحن نقرر أن الموت كان أهون من هذا الخضوع والهوان •

(١) أمين سعيد : اليمن ص ١٨٤ وقد حوى هذا الكتاب نماذج كثيرة من المعاهدات المماثلة •

وقد قسمت بريطانيا منطقة الجنوب الغربى ثلاثة أقسام ذكرناها سابقا وهى :

- ١ — مستعمرة عدن ، صارت العاصمة الادارية والاقتصادية للبلاد .
- ٢ — المحميات الغربية وهى ٢٣ وكانت تتناقص بعمليات إدماج .
- ٣ — المحميات الشرقية ، وبها ثلاث سلطنات رئيسية بالإضافة إلى المشيخات .

وكانت بريطانيا تحكم الجنوب العربى بواسطة حاكم بريطانى مقره عدن ، وكان هذا الحاكم يتبع وزارة الخارجية البريطانية بلندن ، ولكنه ابتداء من سنة ١٩٣٢ أصبح تابعا لحاكم الهند ، فلما اتضح أن الهند على وشك أن تستقل أعلنت « عدن » مستعمرة تاج سنة ١٩٣٧ فعدلت تبعيتها إلى بريطانيا وكان لحاكم عدن ابتداء من هذا العام ممثل فى المحميات الشرقية وآخر فى المحميات الغربية ، وكان حاكم عدن واسع النفوذ ، إذ أن موافقته كانت ضرورية لتنفيذ القرارات المهمة التى يتخذها الحاكم ، بل كانت ضرورية عند اختيار أى حاكم جديد ، وبدونها لا يتولى منصبه (١) .

اتحاد الجنوب :

كان قيام اتحاد أو وحدة بين الشنات المتناثرة بالجنوب العربى هدفا مهما للاستعمار ، وهدفا مهما للمخلصين من المواطنين ، وإن اختلفت الدواعى والأسباب ، فالاستعمار كان يرمى إلى دعم نفوذه وتيسير حكمه لتلك المناطق ، أما المواطنون المخلصون فقد كانوا يتجهون إلى العودة للوطن الواحد وإزالة الحواجز الصناعية التى تقسم الجسم إلى أشلاء لإضعافها ، وكان من الواضح أن مشروعات الاتحاد التى كان يقترحها

(١) انظر تفاصيل علاقات بريطانيا بهذه التجمعات فى « سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى » للدكتور جاد طه ص ١٧٥ وما بعدها .

المستعمر كانت تحوى نصوصا تتنافى مع آمال السكان والزعماء المخلصين ومن هنا كانت تقابل بحركات مقاومة ، ولسنا نحسب أن نمشى خلف التفاصيل حول المقترحات ومقاومتها ، وحسبنا أن نقرر أن الاتحاد أعلن كما أرادته الاستعمار ومعاونوه الذين انضموا للاستعمار فى مواجهة القوى الوطنية التى كانت تريد الوطن للمواطنين جميعا وليس للحكام السابقين والاقطاعيين كما كان من قبل •

وكان اعلان الاتحاد فى فبراير سنة ١٩٥٩ وتكون آنذاك من ست إمارات من إمارات المحميات الغربية ، ثم تلاحق انضمام المحميات الأخرى إلى أن شملها جميعا ومنها عدن ، وظهر إثر ذلك ما سمي « حكومة الاتحاد » وبمقتضى هذا كان لبريطانيا أن تباشر العلاقات الخارجية لدولة الاتحاد ، وكان لها تدريب جيش الاتحاد ، وتبنيه حكومة الاتحاد إلى أى خطر فى الداخل والخارج ، وكان واضحا من هذا الاتحاد أنه لا يحقق الأمنى الوطنية ، ومن أجل هذا تعاونت فى الجنوب العربى الكتلات والأحزاب التى تقاومه وتنادى بوحدة حرة ، ومن أبرز الكتلات حزب رابطة أبناء الجنوب العربى ، وحزب الشعب الاشتراكى ، وحزب المؤتمر الشعبى ، والمؤتمر العمالى ، وحركة القوميين العرب ، والاتحاد الشعبى •

الاستقلال التام وخطواته :

لم تستطع حكومة الاتحاد أن توقف غضب المواطنين ، ولم يستطع الاتحاد أن يوارى طاقة الاستعمار التى خلقتها ، ثم انضم إلى القوى الداخلية عاملان مهمان أشعلا الثورة المسلحة فى الجنوب وهما :

العامل الأول : قيام الثورة فى شمال اليمن ونجاحها فى ٢٦ سبتمبر من عام ١٩٦٢ ، وقد أتاحت الثورة الفرصة لتشكيل الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى المحتل تلك الجبهة التى قادت العمليات العسكرية وكان ذلك فى شهر أكتوبر من العام نفسه ، أى فى الشهر التالى

لإنجاح ثورة الشمال ، وظلت مدينة تعز اليمنية مركزا هاما لقيادة ثورة الجنوب طيلة السنوات التالية .

العامل الثانى : الدعم الذى قدمته جمهورية مصر العربية والذى ساند ثورة الجنوب فى كل مراحلها ، والثابت أيضا أن أول سلاح تلقتة الجبهة القومية كان من جمهورية مصر العربية عقب اتصالات جرت فى صنعاء واستكملت فى القاهرة قبل بدء الثورة ، والثابت كذلك أن عددا غير قليل من ثوار الجنوب تلقوا تدريباتهم فى مصر وتحت إشراف خبراء مصريين ، ولم تكن هذه الحقيقة خافية على أحد فقد أعلن جمال عبد الناصر ذلك أكثر من مرة ، وفى زيارة له إلى تعز أعلن أن مصر تقدم كل صور الدعم لثوار الجنوب ، وأنها لن تتراجع عن موقفها رغم ما أدى إليه من تدهور علاقاتها مع بريطانيا .

عبد الناصر وحركات التحرير :

ولنقف هنا وقفة لنعلق على تصرفات عبد الناصر فى هذا المجال ومن المعروف عن عبد الناصر أنه كان يدعم كل ثورة فى الخارج ، وكان يتظاهر بالعمل لتحرير الشعوب ، وفى سبيل ذلك كان يقدم أموال مصر ورجالها بسخاء ولكن ذلك لم يكن ميلا فى الرجل للحرية ، وإنما كان — كما برهنت على ذلك الأحداث التى سنشير لها — أحد وسائله للدعاية الشخصية وخداع الشعوب ، بدليل أنه كان مع شعب مصر يمثل أعنف حاكم عرفه التاريخ ، فقد عانى شعب مصر منه صورا مريرة من الاستعباد والإذلال والمصادرات والاعتقال والتكيد والتعذيب والجوع وهتك الأعراس ... وقد باشر عبد الناصر بعض هذه المظالم مع الشعوب التى انضمت مخدوعة تحت لوائه كالشعب السورى والشعب اليمنى ، وحاول أن يتدخل فى الشؤون الداخلية للجزائر عقب انتهاء حكم ابن بيلا ، ولكن قادة الجزائر الجدد رحدوه عن هذا الاتجاه .

وهكذا كان عبد الناصر يهتف بالحرية ولكنه كان عمليا يرتكب أبشع

وسائل الاستعباد والإذلال ، وكان يحارب الاستعمار وهو يتطلع ليحل محل الاستعمار .

ولنعد بعد ذلك لنقدم باقى العوامل التى ساعدت على إشعال الثورة فى الجنوب العربى ضد الاستعمار الانجليزى ، فنذكر أن عاملاً طرأ على السياسية الاستعمارية العالمية ، وذلك العامل هو الاتجاه إلى القواعد العسكرية البحرية المتحركة دون الارتباط بالقواعد البرية التى تثير سخط المواطنين .

وعامل آخر أضيف إلى هذه العوامل ذلك هو موقف الأمم المتحدة ، فلقد أصدرت لجنة الوصايا التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٦٥ ينص على ضرورة إزالة القواعد العسكرية البريطانية من عدن والمحميات ، وفيما يلى نص هذا القرار الخطير :

« تعرب الأمم المتحدة عن أسفها للمحاولات التى تبذلها الدولة الحاكمة (بريطانيا) لإنشاء نظام حكم لا يمثل الشعب فى المنطقة ، وتناشد جميع الدول ألا تعترف بأى استقلال لا يكون نتيجة للتعبير الحر عن رغبات وأمانى الشعب عن طريق انتخابات تقوم على أساس حق الاقتراع للراشدين ، كما تعرب عن أسفها لرفض الدولة الحاكمة تنفيذ قرارات الجمعية العامة ، وتؤكد الأمم المتحدة حق شعب المنطقة فى تقرير المصير وفى التحرر من الحكم الاستعماري ، وتعترف بشرعية الجهود التى تبذل لنيل الحقوق التى نص عليها ميثاق الأمم المتحدة ، وترى الأمم المتحدة أن بقاء القواعد العسكرية فى المنطقة يمثل عقبة كبرى فى سبيل تحرير الشعب من السيطرة الاستعمارية ، ويعتبر بقاء هذه القواعد ضاراً بسلم المنطقة وأمنها ، ومن ثم فإن إزالتها فوراً إزالة تامة أمر ضرورى وتدعو الأمم المتحدة بريطانيا إلى إلغاء حالة الطوارئ وجميع القوانين التى تحد الحريات العامة ووقف أعمال القمع ضد شعب المنطقة ، ولا سيما العمليات العسكرية ، وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ، والسماح

بعودة المنفيين أو الذين منعوا من البقاء في البلاد بسبب نشاطهم السياسي • وتناشد الأمم المتحدة جميع الدول تقديم كل المساعدات الممكنة إلى شعب المنطقة في مساعيها وجهودها للحصول على الحرية والاستقلال ، وتلفت نظر مجلس الأمن إلى الموقف الخطير السائد في المنطقة نتيجة الأعمال العسكرية البريطانية ضد شعب المنطقة ، وتطلب من الوكالات المتخصصة تقديم المساعدات إلى الشعب الذي يعاني من العمليات العسكرية ، كما تطلب من يوثانت العمل على ضمان تنفيذ هذا القرار » •

وتأججت الثورة بسبب هذه العوامل ، وضعفت حكومة الاتحاد عن القيام بمهامها ، وجرفت الثورة بعض من اتشهموا بالخيانة الوطنية من المواطنين فخرجوا صرعى ، كما فر عدد من جند الاحتلال ، وأدرك حكام بعض الولايات ما يحيط بهم من خطر ، ففروا إلى السعودية ، ومن هؤلاء غالب القعيطى وحسن بن على الكثيرى وخليفة بن عبد الله حاكم مهرة ، وحلت الجبهة القومية محل هؤلاء الفارين في السلطة •

جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

إزاء هذه الحركات والتطورات رأت بريطانيا ألا أمل في البقاء ، فحددت موعدا للجلاء تم عادت فقدمت هذا الموعد ، وجعلته ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٧ وتسلمت الجبهة القومية السلطة في جميع أنحاء البلاد منذ ذلك التاريخ ، وانسحبت بريطانيا إلى الأبد من هذه البقاع ، ولأول مرة في التاريخ ، تكونت في جنوب اليمن دولة واحدة ذات شوكة فعالة ، تشمل كل أنحاء اليمن الجنوبي ، وكان زمام الصراع ضد الاحتلال في يد « عبد القوى مكاوى » ولكن ما ان تم استقلال البلاد حتى قفزت قيادة جديدة يسارية ، وسميت الدولة الجديدة « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (١) » وكان يرأسها آنذاك (سنة ١٩٧٦) السيد سالم ربيع • وتوحي تسمية الدولة كما توحي دلائل أخرى باتجاه الدولة الجديدة اتجاها يساريا (٢) ، وإذا صح ذلك فإننا نرجو أن تعود بسرعة هذه البقاع الطيبة إلى رحاب العروبة السمحة والإسلام الحنيف ، وهي نتيجة لا شك آتية إن شاء الله •

بقيت كلمة جديدة بالذكر تتعلق بما ذكرناه آنفا من أن النظام الثوري باليمن الشمالية قدم مساعدات جمة لحركة التحرير في الجنوب ، ونريد هنا أن نقول إن حركة تحرير الجنوب قدمت مساعدات جمة للنظام الثوري في الشمال وبخاصة بعد انسحاب مصر من اليمن الشمالية بناء على اتفاق الخرطوم •

نهاية سالم ربيع ثم رئاسة عبد الفتاح اسماعيل :

في يونيو سنة ١٩٧٨ حدثت حركة انقلاب ضخمة في اليمن الجنوبية قتل فيها سالم ربيع ، وقد كان هذا الانقلاب انقلابا دمويا تقول الأنباء

(١) محمد عبد القادر بامطرف : في سبيل الحكم ص ١١ •
(٢) بيان نشره السيد محمد على الحضري رئيس رابطة اتحاد الجنوب العربى في مؤتمر بمكة المكرمة سنة (١٩٧٥) ١٣٩٥ هـ •

أن عبد الفتاح إسماعيل هو الذى قاده بمساندة الاتحاد السوفيتى ، وقد قام الطيارون السوفييت بقذف قصر الرئاسة الذى كان يوجد به سالم ربيع رئيس الدولة •

وأعلن عبد الفتاح اسماعيل فى بيان ألقاه عقب الحادث أن اللجنة المركزية والمكتب السياسى للجهة القومية قد اتخذتا عدة قرارات فى اجتماعهما أمس الأول من بينها الموافقة على إعدام سالم ربيع على وجاسم صالح وعلى سالم الأعور رميا بالرصاص • كما تقرر تجريد كل من على صالح عباس وعبد الله الباز وحسن باعوم من كافة المسؤوليات الحزبية والرسمية وفصلهم نهائيا من الجبهة القومية •

وآل حكم اليمن إلى عبد الفتاح اسماعيل وأعوانه •

على ناصر :

ولم نتوقف حركات الانقلابات والثورات فى اليمن الجنوبى ، بل تلاحقت ، وسقط عبد الفتاح اسماعيل ، وأبعد عن البلاد ، ثم قتل ، وجاء إلى الحكم على ناصر محمد الذى اتهم بقتل عبد الفتاح اسماعيل ، ولكنه يدافع عن نفسه وينفى هذه التهمة •

أبو بكر السقاف :

وفى ١٣ يناير سنة ١٩٨٦ حدثت حركة انقلاب دموية باليمن الجنوبى ضد على ناصر ، ويقول هذا عن هذه الحركة ، ولا نعرف مدى الدقة فيها يقول :

— القاصى والدانى يعرف ما حدث فى ١٣ يناير والأيام التى تلت هذا التاريخ ويمكن أن أقول بإيجاز لقد قامت المجموعة الانفصالية منذ صباح هذا اليوم بانقلابها الدموى المشؤم والذى راح ضحيته عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء ، ويكفى أن أقول أن هؤلاء الدمويين قتلوا ٢٠٠٠

يمنى فى يوم واحد وألقوا بهم فى مقابر جماعية وقد استمرت القوات الشرعية تواجه قوات الانشقاق لمدة عشرة ايام • وتمت بعض المفاوضات داخل السفارة السوفيتية إلا أنهم لم يحترموا هذه المفاوضات واستمروا فى تدمير المدينة واطلاق النار ، حتى أنهم حاصروا السفارة السوفيتية نفسها بالدبابات والمدرعات فى الوقت الذى كانت تجرى داخلها المفاوضات وانتهى الأمر بعد عشرة أيام من المعارك الشنيعة إلى حسم الصراع عسكريا لحساب هذه القلة التى قامت على الفور بتصفية معارضيهما جسديا فى الشوارع كما اعتقلت أكثر من سبعة عشر ألف مواطن يمنى مارست عليهم أبشع وسائل التعذيب الجسدى والمعنوى • وقد أدت هذه الممارسات القمعية لفرار أعداد كبيرة من أبناء اليمن الجنوبى إلى اليمن لشمالى للحاق بقيادتهم الشرعية حيث بلغ عدد النازحين فى الشهور الأولى حوالى ٢٠ ألفا ثم وصل مؤخرا لأكثر من ٦٠ ألفا منهم وزراء سابقون وديبلوماسيون وقيادات عمالية ورجال الاعلام وفنانون ، هذا فضلا عن نسبة كبيرة من القوات المسلحة جنودا وقيادات •

وأصبح أبو بكر السقاف رئيسا لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية •

وحدة اليمن الشمالية والجنوبية

تتجه حكومات اليمن بعد الاستقلال إلى إعادة الوحدة بين شطري اليمن ، فقد أعلنت حكومة الجنوب عقب خروج الانجليز أن اليمن الجنوبية جزء من اليمن ، وأن الوحدة هدف الجميع ، وأعلنت حكومة اليمن الشمالية ذلك أيضا ، والذين زاروا اليمن يقررون أن الزعماء في الشطرين ينادون بالوحدة ، وكل الحكومات هنا وهناك تطالب بها ، وجميع المثقفين ينادون بها ويتناقشون ، ويناضلون لها ومن أجلها ، وأجهزة الاعلام تبشر بها ، ثم ان الشعب اليمني الجنوبي يملأ المدن الساحلية على شطآن اليمن الشمالية تجارا وفنيين وطايرة ومزارعين وعائلات ، والشعب الشمالي يذهب إلى الجنوب ويجيئ دون أن يعترضه أحد ، بل أن الحزب الحاكم في الجنوب ينتهي الكثير من أعضائه إلى الشمال ... وتعجب ما الذي يؤخر تلك الوحدة التي ينادى بها الجميع ؟ ؟

وسيرا في طريق الوحدة اجتمع ممثلون لليمنيين بالقاهرة في أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٢ ، وبعد مباحثات شاملة صدرت صفح الصباح التالي تعلن الآتى :

٤٠ أعلن قيام الوحدة بين شطري اليمن مساء أمس في اتفاقية موقعة محسن العيني وعلى ناصر رئيسا وزراء جمهوريتي اليمن ، وحضر توقيع الاتفاق أمناء الجامعة العربية وجميع السفراء العرب في القاهرة وأعضاء مؤتمر المصالحة وأعضاء الوفدين الممثلين لليمن الشمالية واليمن الجنوبية .

ويتضمن اتفاق الوحدة ١٥ مادة تحدد شكل الدولة الجديدة ونظام الحكم فيها ، ونص الاتفاق على تعيين ممثلين شخصيين لرئيسي الدولتين المتابعة لتنفيذ الاتفاق ولتنظيم عقد اجتماع لرئيسي الدولتين يوم ٢٥ نوفمبر التالي . وبالنسبة لشكل الدولة الجديدة نص الاتفاق على

أن تقوم وحدة بين دولتي اليمن تذوب فيها الشخصية الدولية لكل منهما في شخص دولي واحد ، وقيام دولة يمنية واحدة ، ويكون للدولة الجديدة علم واحد ، وشعار واحد ، وعاصمة واحدة ، ورئاسة واحدة ، وسلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية واحدة ، ونظام الحكم في الدولة الجديدة نظام جمهوري وطني ديمقراطي * ويضمن دستور الوحدة جميع الحريات الشخصية والسياسية والعمامة للجماهير كافة ، ولتختلف مؤسساتها ومنظماتها الوطنية والمهنية والنقابية ، وتضمن دولة الوحدة حماية جميع المكاسب التي حققتها ثورتا سبتمبر وأكتوبر *

ومع كل هذه الآمال وتلك الجهود فإن الوحدة لم تتم ، ربما للفارق الكبير بين الاتجاهين في الشمال المتحفظ والجنوب التقدمي ، وربما لما يقوله الدكتور صلاح العقاد ^(١) ونصه :

ان استمرار هذا الانفصال إنما يعبر عن ظاهرة تعم للأسف مختلف أنحاء الوطن العربي ، وهي أن التقسيمات التي وضعها العهد الاستعماري تظل قائمة بعد الاستقلال لأن المناضلين الذين حصلوا على هذا الاستقلال في إطار التقسيمات الاستعمارية لا يحبون أن يتنازلوا عن شيء من السيادة التي حصلوا عليها ، وسرعان ما تتحول الوحدة إلى مبادئ نظرية فحسب *

وأخيراً تمت الوحدة بين اليمنين :

ذكرنا من قبل أن المحاولات لم تهدأ لتعود اليمن الموحدة للوحدة ، وكانت أغلب المحاولات تفشل لأن الوحدة تتعارض مع الأطماع الشخصية ، وأخيراً نجحت هذه المحاولات في الثاني والعشرين من مايو سنة ١٩٩٠ ، وقد تم الاتفاق على أن يكون على عبد الله صالح رئيس اليمن الشمالية رئيساً لليمن الموحدة وحيدر أبو بكر العطاس رئيس اليمن الجنوبية رئيساً لوزراء اليمن الموحدة *

(١) جزيرة العرب في العصر الحديث ص ١٦٠ .

وللأسف يبدو أن روح التقسيم تسيطر على الوعدة ، فكل وزراء الشمال وكل وزراء الجنوب تقريبا وزراء في الوزارة الموحدة ، فبلغ عدد الوزراء ٣٩ وزيرا •

وندعو الله أن تخفف روح التقسيم تماما ، وأن تصبح اليمن موحدة واقعا وروحا •

وتبعا لقرار الوحدة توحدت الشعارات ، ورفع علم اليمن الجديد على مقر الأمم المتحدة في نيويورك عقب احتفال حضه بيريذ دي كويار السكرتير العام للأمم المتحدة ، الذي وصف هذا الحدث بأنه مناسبة جيدة ومريحة لتحقيق الوحدة بين بلدين عن طريق المفاوضات الودية والمثمرة •

جهود الحضارة في نشر الإسلام :

لقد سرنا بتاريخ حضرموت من مطلع الإسلام حتى الآن ، ويجدر بنا قبل أن نرفع القلم عن هذا التاريخ أن نتكلم كلمة عن جهود الحضارة لخدمة الإسلام • وقد تكلمنا من قبل عن هجرات الحضارة في الأزمنة المختلفة إلى بقاع شتى في العالم ، ونزيد هنا هذا الموضوع وضوحا ، فقد كان للحضارة دور كبير في نشر الإسلام وخدمته في كل مكان نزلوا به ، وأكثرهم هاجر واستقر حيث هاجر ، فكان جهدهم مستمرا • والحضارة فيهم العلماء الأفاضل ، ومنهم التجار المهرة الذين ورثوا هذه المهارة عن أسلافهم الذين احتكروا التجارة العالمية في يوم من الأيام •

ولنعد إلى كتاب تاريخ حضرموت السياسي ليصور جهود الحضارة في مجال خدمة الإسلام ونشره ، وهو يقول عن هجراتهم أنهم هاجروا إلى الأندلس في أواخر القرن الأول ، وكان على رأس المهاجرين أسرة خلدون ، بزعامه رئيسها خالد بن عثمان الذي ينتهي نسبة إلى وائل بن حجر الكندي ، وقد علا شأن هذه الأسرة وظهرت بها شخصيات كبيرة شغلت أعظم المناصب في مختلف العهود •

وممن اشتهر من علماء الحضارة في الأندلس محمد بن إبراهيم

الحضرمي ونعمان بن عبد الله الحضرمي في اشبيلية ، وعبد العزيز بن الحسن الحضرمي الذي نزل قرطبة ، ومسواهم كثيرون (١) .

وهاجر كثير من الحضارمة إلى مصر ومن هؤلاء يونس بن عطية بن أوس بن عبد الله ، ويحيى بن ميهون وتوبة بن نمر ، وخير بن نعيم وغوث بن سليمان ، ويزيد بن عبد الملك ، وعبد الله بن لهيعة ، ولهيعة بن عيسى ، وقد ولي هؤلاء مناصب القضاء (٢) . ومن المهاجرين الحضارمة إلى مصر كذلك حفص بن الوليد ، وقد تولى ولاية مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٤ هـ ، وجمع له هشام الصلاة والخراج جميعا ، ولما تولى هشام سنة ١٢٥ هـ أقر الوليد بن يزيد بن عهد الملك حفصا على الصلاة والخراج (٣) .

وهاجر كثير من الحضارمة إلى اليمن في عهود مختلفة وكانوا يرحلون للتجارة وطلب العلم ، وإن كان التجار لم يطلبوا بقاءهم في اليمن لاضطراب السياسة وعدم استقرار الأمن في الشمال (٤) .

وهاجر آلاف الحضارمة إلى الحجاز ، وأمسكوا بزمام التجارة فترة طويلة من الزمن ، وتولى بعضهم مناصب كبيرة كمنصب الوزارة الذي تولاه السيد عبد الله بامصفر الذي كان وزيرا للمالية في عهد الأشراف ، وكان وزير المالية في عهد الشريف عبد الله بن عون حضرميا كذلك هو عبد الله باناعمة ، ثم ابنه علي ، وفي عهد الشريف حسين كان وزير المالية السيد أحمد باناعمة (٥) .

وهاجر عدد كبير من الحضارمة إلى شمال إفريقيا ، ومن هؤلاء

(١) صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ج ٢ ص ٢١٨-٢٢٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٠ - ٢٢٤ وأقرأ كذلك تاريخ التشريع والقضاء للمؤلف .

(٣) تاريخ حضرموت السياسي ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

بنو هلال بقيادة زعيمهم « أبو زيد الهلالي »، وبصحبه أبناء عمه وهم
مرعى ويحيى ويونس أبناء حسن بن سرحان (١) .

وهاجر عدد من الحضارمة إلى الهند ، وهناك اشتغلوا بالتجارة
والأعمال ، والتحقوا بجيوش حاكم حيدر آباد ، وأصبح بعضهم من أقرب
المقربين إلى ملك تلك البلاد ، وقد استطاع بعضهم أن يصل إلى مكانة
عالية في بلاط الملك ، وحصل آخرون على غنى واسع وثروة طائلة ، ومن
هؤلاء القميطى اليافعى ، وغالب بن محسن الكثيرى ، وقد سبق أن
ذكرنا أن زحفا بدأ من حيدر آباد وحقق في حضرموت انقلابا سياسيا .

ولعل من أعظم هجراتهم التاريخية هجرتهم إلى إندونيسيا فبدأ
خطوا رحلتهم في هذه البلاد تجارا وعلماء ، وقد بدأت وفودهم إلى هذه
الجزر في أواخر القرن الثامن الميلادى ، أى قبل نزول البرتغاليين بها ،
وكانت ديانة بوذا منتشرة في كل مكان ، واستطاع الحضارمة أن يفتشروا
في كل الجزر ، وفى كل البلدان ، وأن يعمشروا السكان معاشرة أقرب
إلى الامتزاج ، وأمسكوا بزمام التجارة فى البر والبحر ، وسيطروا على
المواصلات البحرية ابتداء من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر ،
وكانت مراكبهم تجوب جزائر إندونيسيا وتبحر إلى الهند وإلى سواحل
الجزيرة العربية ، وهى تحمل فى الذهاب وفى العودة ألوانا من البضائع
والسلع تشتريها من هنا لتبيعها هناك على طول الطريق .

وكان لهم دور هائل فى نشر الإسلام بإندونيسيا وبالجزر والبلاد
المحيطة بها مثل تايلاند والفيليبين وسنغافورة ، ولا يزالون يقومون بهذا
الدور حتى كتابة هذه السطور ، وهم يرون فى إندونيسيا وطنهم ،

ويخلصون لهذا الوطن أعظم إخلاص وقد اشتركوا في حركات التحرير بهمة ونشاط ، وأسهموا في دفع عجلة التقدم والتطور بالبلاد (١) •

تلك هي اليمن وذلك هو دور الحياة معها ، ونرجو ليمن المستقبل كل ازدهار ونشور ، ولشعب اليمن شماله وجنوبه كل رفاهية وتقدم لتحقيق اليمن في المستقبل ما حققته في الماضي من مجد وعزة •

(١) اقرأ ما كتبناه عنهم في الجزء السادس من موسوعة التاريخ الاسلامي هي ١٨١ - ١٨٢ •

أَخْلَجَ الْعَرَبِيَّ
وَالدُّوْلَ الْعَرَبِيَّةَ الْوَاقِعَةَ عَلَيْهِ

مقدمة :

سنحاول بادئ ذي بدء أن نتكلم كلمة عن الخليج نفسه قبل أن نتكلم عن ساحله العربى فهذا الخليج كبير الأهمية من جهات متعددة ، وترتبط به عدة قضايا ينبغى أن نعرضها وأن نحاول شرحها ، وهذا ما سنقوم به فيما يلى :

تسمية الخليج

ولعل أول قضية تواجه الباحث فى هذا النطاق هى تسمية الخليج ، فالمراجع القديمة تسميه الخليج الفارسى أو خليج فارس أو خليج العجم ، وتتجه المراجع العربية الحديثة وبعض المراجع غير العربية إلى تسميته خليج العرب أو الخليج العربى ، وهناك حساسية دقيقة حول هذه التسمية ، فالعرب المحدثون لا يقبلون إلا أن يسمى الخليج العربى ، ويتمسك الفرس بأن ينسب إلى بلادهم ، بل راح أحد علماء الفرس المحدثين يجمع من مختلف المراجع أى اقتباس ورد فيه ذكر هذا الخليج مرتبطا بكلمة الفرس أو فارس أو العجم ، وهو يريد بذلك تأكيد هذه التسمية ^(١) ، ويقول العرب إنهم ظلوا يسمونه الخليج الفارسى أو خليج العجم ، إلى أن حاولت إيران استغلال الاسم سياسيا ، فاتجه العرب إلى تسميته الخليج العربى وضعا للأمور فى نصابها ^(٢) وقد لاحظ العثمانيون أن إيران تستغل التسمية استغلالا سياسيا فأسماء العثمانيون « خليج البصرة » .

ونحن دعاة تجمع لا دعاة فرقة ، وتربطنا بإيران روابط عميقة دينية وثقافية وتاريخية ، ومن أجل هذا سنجعل خطتنا فى دراسة هذه القضية

(١) عليرضا ميرزا محمد : الخليج الفارسى عبر القرون والاعصار .

(٢) مصطفى كامل الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ٢٦ - ٢٧ .

بالحامش .

أن نعرض الآراء والجذور التاريخية لها مكتفين بذلك حرصا على هذه الروابط التي ينبغى الحفاظ عليها •

وقبل أن نسير في تحقيق التسمية نتساءل : هل التسمية تمنح حقوقا ؟ وبالتالي يحرص العرب والفرس على تسمية ينالون عن طريقها حقوقا في هذا الخليج ؟

إن الإجابة الدقيقة ترى أن التسمية لا تجلب حقوقا ، وتستدل على ذلك بالبحار التي تسمى بأسماء بلاد ولكن هذه البلاد ليس لها في تلك البحار غير المياه الإقليمية المعترف بها دوليا كالمحيط الهندي الشاسع الذي لا تملك الهند فيه إلا مياهها الإقليمية محدودة ، ومثل هذا يقال عن خليج عمان وخليج عدن وغيرها من البحار والخلجان •

وهناك بحار كثيرة تسمى بأسماء ذاتية ولا تنسب لأي بلد من البلاد كالبحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود ومع هذا فلهبلاد المتصلة بها نفس المياه الإقليمية ، مما يدل على أن التسمية ليست ذات بال •

ولكن العرب يرون أن هناك أهدافا أخطر من ذلك فيما يتعلق بهذا الخليج ، فإن الكاتب الفرنسي « جان جاك بيربي » ألف كتابا باسم الخليج الفارسي ، وترجمه كاتبان عربيان وجعلا تسمية الكتاب « الخليج العربي » فنارت البعثة الإيرانية الدائمة بالأمم المتحدة لذلك ، ونبهت دار النشر الفرنسية التي أخرجت الأصل لتحتج على ذلك ، وتطلب إعادة الكتاب باللغة العربية ، على أن يكون عنوانه « الخليج الفارسي » ويرى العرب أن ذلك ما كان يحصل لولا أن هناك أطماعا ترتبط بهذه التسمية •

ودليل آخر يثير شكوك العرب هو هذا الجهد الكبير الذي أشرنا إليه آنفا ، إذ اتجه عالم كبير ليقرأ ويجمع من مختلف المراجع بشتى اللغات كل الاقتباسات التي يرد فيها ذكر هذا الخليج باسم « الخليج الفارسي » وقد جمع ذلك في مجلدين نشرهما بعدة لغات مع أن المفكر

العربى يرى ذلك أمرا يسهل الرد عليه ، فإن التسمية كانت كذلك فى المراجع القديمة والوسيلة بدون شك ، فالإلحاح على وجودها أمر يحس العرب بأنه يخفى شيئا •

ما الأهداف التى يرى العرب أن الفرس ينتظعون لها من وراء هذه التسمية ؟ •

يرى بعض المفكرين ^(١) أن إيران ترمى من وراء ذلك إلى جعل الخليج بحيرة فارسية ، وقد احتلت فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧١ ثلاث جزر فى مدخل هذا الخليج ، وأعلنت حينئذ أن « البحرين » جزء منها ، وليس هذا وذاك إلا لتحقيق هذا الهدف •

وعلى كل حال نتمنى أن يكون هذا الاتجاه قد هدأ بعد أن أصبحت عروبة البحرين موضع اتفاق ، والعرب والفرس مسلمون قبل كل شيء وترتبطهم روابط الدين والجوار والود وهذا يخفف من التعصب للتسمية ويجعل الود والقربى تحل محل التعصب والأطماع •

وهذا الأمل لا يعفينا من دراسة التسمية دراسة تاريخية محاولين التعرف على منشأ هذه التسمية ومدى الدقة فيها ، ويذكر الباحثون أن هذا الخليج كان يطلق عليه فى العصور القديمة اسم « البحر الأدنى » أو « البحر الر » وعندما زحف الإسكندر المقدونى إلى الشرق اكتشف أسطولته بقيادة نيارك « Nearchus » شواطئ آسيا من نهر المسند إلى هذا الخليج ^(٢) ، وقد تعرف على الشاطئ الشرقى (الفارسى) قبل أن يتعرف على الشاطئ الغربى (العربى) فأطلق على هذا الخليج « الخليج الفارسى » لاتصال الشاطئ الأول ببلاد فارس ، وأصبح هذا هو الاسم المعروف لهذا الخليج واستعمله المؤلفون والكتاب بعد ذلك •

(١) دكتور سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ج ١ ص ١٢١ •

(٢) حقائق الاخبار عن دول البحار ج ١ ص ٧ •

ومما ساعد على ثبات هذه التسمية أن البحر الأحمر كان يسمى البحر العربى أو الخليج العربى فى العصور اليونانية والرومانية ، فلم يكن من الممكن أن توضع كلمة « العربى » بدل « الفارسى » فى هذا الخليج حتى لا يحدث اختلاط لو أطلقت كلمة العربى على الاثنين ، ولكن هذا السبب زال إذ أصبح هذا البحر معروفاً بالبحر الأحمر (١) .

ومر الزمن ، وجاءت النهضة العربية ، وأخذ العرب يحيون أمجادهم ويستعيدون حقوقهم ، وكان من ذلك أن أطلقوا على هذا الخليج اسم « الخليج العربى » لأسباب مهمة أوردوها ، ونذكرها فيما يلى :

١ — إن الساحل العربى يندفع فى فوهة الخليج عند رأس مسندم حتى يصبح كأنه مسيطر عليه ، ثم يتلوى هذا الساحل فى قلب الخليج ليلقى بقطر فى داخله أشبه بمنارة عربية وسط الأمواج ، وبالإضافة إلى هذا توجد بالخليج جزر البحرين وهى حوالى ثلاثين جزيرة وهى جزر عربية اللغة والدم .

٢ — إن طول الساحل العربى للخليج يمثل ضعف طول الساحل الفارسى تقريباً مما يعمق صلة الخليج بالعرب .

٣ — سكن العرب شاطئ الخليج العربى منذ الأزمنة القديمة ، وارتبطت به حياتهم بخلاف الفرس الذين تعزلهم عن الخليج سلاسل جبلية .

٤ — إن الساحل الفارسى للخليج آهل بالسكان العرب ولذلك يسميه الفرس « منطقة عربستان » .

٥ — ركب العرب الخليج متاجرين منذ عهد طويل ، فكانت لهم السيطرة عليه ، إذ كانوا رواد الملاحة فى العالم ، ولم يكن للفرس شيء يذكر فى هذا المجال .

(١) انظر التعريبات الشافية لرفاعة الطهطاوى ص ٢٦

٦ — التزم العرب بالدفاع عن الخليج يوم اقتحمه الاستعمار البرتغالي ، وبفضلهم تحرر الخليج من هؤلاء الغزاة .

وهذا الخلاف حول تسمية هذا الخليج وما يتبع هذا الخلاف من حساسية جعل الباحثين الأجانب يدلون برأيهم حول هذه التسمية ، وهل من الأجدر أن يسمى الخليج الفارسي تبعا لاتجاه قادة الإسكندر المقدوني ، ذلك الاتجاه الذي جاء عفوا ، أو أن يسمى الخليج العربي تبعا لطبيعة وضع هذا الخليج الذي شرحناه من قبل .

تعال بنا نقتبس بعض ما ذكره هؤلاء الباحثون :

يقدر Roderic Owen ^(١) أنه عندما زار الخليج أحسن بأنه من الظلم أن يسمى « الخليج الفارسي » لأن واقع الأمر يجعل الخليج منطقة عربية ، وأن هذا المعنى تبرزه الرمال والرجال والمياه واللغة القومية التي تنتضح في الشاطئ العربي وفي داخل الخليج نفسه ، وإن تسميته بالخليج الفارسي تغضب العرب أشد الغضب ، كما ينكرها الواقع والإنصاف .

ويقول الكاتب الفرنسي جان جاك بيربي : إن هذا الخليج ارتبط بالعرب منذ أمد بعيد ، منذ كانت رحلاتهم البحرية تغمر الطريق بين هذا الخليج وبين بحر الصين ، وكان البحارة الصينيون يختلطون بالبحارة العرب ويتعاونون معهم ، إذ تربطهم جميعا رابطة الأخطار المشتركة من عواصف ورياح وقراصنة وغزاة ، كما أن استقرار العرب في الساحل الملاصق لبلاد فارس أكد للخليج صفته العربية من جانبه ، ثم إن الفتح العربي الإسلامي لبلاد فارس جعل المنطقة عربية تماما ، وقد ظلت كذلك عدة قرون ، وحينما بدأت القومية الإيرانية تستأنف استقلالها وكيانها كانت في الغالب بعيدة عن هذا البحر مما أطال عروبة جانبي هذا الخليج (٢) .

(١) The Golden Bubble, Arabian Gull Documentary p.p. 3-16.

(٢) جان جاك بيربي : الخليج الفارسي في عدة صفحات .

أهمية الخليج ومنطقته

في الحديث عن أهمية هذه المنطقة يجدر بنا أن نقرر أن بعض المؤرخين يرون أن الخليج العربي هو مهد الحضارة ، بل مهد الجنس البشري ^(١) ، وكان أجدادنا في العصور القديمة قد أدركوا أهمية هذه المنطقة فأقاموا بها حضارة عريقة ، فيرى بعض المؤرخين أن سكان هذه المنطقة هم أول من بنوا السفن ومارسوا الملاحة ، وكانوا صلة وثيقة بين الشرق والغرب ، بل يرى بعضهم أن الفينيقيين كانوا يعيشون على ساحل هذا الخليج وكانت أسفارهم تمتد منه إلى الهند والشام ومصر ، ثم نزحوا إلى سواحل سوريا منذ حوالي خمسة آلاف سنة واستوطنوا شاطئ البحر المتوسط ، ويستدل على ذلك بوجود بعض الآثار الفينيقية في هذه المناطق ^(٢) .

ونقطة أخرى فكرية ترتبط بهذه المنطقة ، تلك هي أن مواجهة الدول العربية بهذه المنطقة للفرس بعد الإسلام ، وخضوعها أحيانا لسلطانهم ، جعلها تتأثر بالفكر الفارسي تأثرا كبيرا ، فظهرت بها حركات كثيرة مخالفة للإسلام تبعا لهذا التأثير ، فمن الواضح أن دخول الشام ومصر والشمال الإفريقي في الإسلام كان اندماجا وتلقيا للفكر الإسلامي بالقبول والإيثار ، ولكن الحال كان غير ذلك فيما يتعلق ببلاد فارس ، فإن العناصر التي فقدت سلطانها في فارس أخذت تأكيد للإسلام ، واتخذت الفكر أحد الوسائل لتنفيذ هذا الكيد ، ومن هنا كانت بلاد فارس والفكر الفارسي مصدر كثير من الحركات الهدامة التي عانى منها الإسلام والمسلمون ،

(١) مصطفى مراد الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ٢١ .

(٢) الريحاني : ملوك العرب ص ٤٨ .

كحركة الردة والتنبؤ والزنادقة والزنج والقرامطة وغيرها ، وانعكست
أقصى هذه الحركات على الساحل العربى كحركة الزنج والقرامطة (١) .

ومن أهمية الخليج لأنه اندفاع ضخمة من المحيط الهندى ربطت بهذا
المحيط عدة دول كانت بدون الخليج ستكون منقطعة عن العالم كبلاد
فارس ودولة الإمارات والكويت والعراق ، ثم إن هناك بلادا لا تتصل
اتصالا مباشرا بالخليج ولكنها تتصل به اتصالا غير مباشر كأفغانستان
والهند وروسيا .

ويعتبر الخليج منفذا لمناطق واسعة بالجزيرة العربية كانت لولاه
ستكون معزولة .

وللخليج أهمية واسعة فى مجال السياسة وقد عبر Raymondo Shea
عن هذه الأهمية السياسية بقوله أنه يتوسط جميع الخطوط البحرية
والجوية الرئيسية ، ويحوى الموانىء والمراكز البحرية ومحطات الوقود
اللازمة للأساطيل والبواخر والطائرات ، والدولة التى تستولى على
الخليج الفارسى تستطيع أن تحكم جزيرة العرب والعراق وإيران
وأفريقية (٢) وقد اقتبس Raymondo هذا التفكير من اتجاه علماء
الجغرافيا السياسية الذين كانوا يضمون الخليج فى أهم مواقع الطوق
الساحلى المحيط بقلب الأرض (٣) وقد تطلعت الدول الاستعمارية جميعها
لهذا الخليج وحاولت السيطرة عليه لهذا الهدف ، وبذلت أقصى الجهد
لمقاومة حركات التحرر حوله ليدوم لها السلطان والسيادة فى المنطقة .

والخليج أهمية قصوى فى مجال الاقتصاد وقد عبر عن ذلك الباحث

(١) عندما نتحدث عن انحرافات وفدت من بلاد فارس الى منطقة
الخليج فاننا نقصد بلاد فارس فى مطلع الاسلام ، ونرجو أن يكون ذلك
قد توقف فى العهد الحاضر فبلاد فارس تمثل الآن دعامة قوية من دعائم
الاسلام والمسلمين .

(٢) ملك الرمال فى عمان .

(٣) انظر الخليج العربى للدكتور سيد نوفل ج ٢ ص ٢٧ .

الفرنسي جان جاك بيربي فقال (١) : هذا الشرق العجيب الذي كثر عنه الحديث على ألسنة الخبراء إنما ينحصر أغلبه في الخليج العربي بصورة خاصة ، لأن الخليج هو قلب الشرق الأوسط جغرافيا ، وبابه المسمى وصندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب •

ومن الأهمية الاقتصادية للخليج أنه طريق التجارة بين الغرب والشرق لكل وسائل النقل ، برية كانت أو بحرية أو جوية ، وهو مصدر مهم لاستخراج اللؤلؤ ، وقد انبثق البترول تحته وحوله فأصبح باطن الخليج مصدر ثراء واسع لأهله ، ومحرك الطاقات والآلات بالدول الصناعية الكبرى •

وللخليج أهمية عظيمة في الناحية العسكرية ، وكان ذلك واضحا منذ الزمن البعيد ، فيروى أن الإسكندر بعد أن فتح مصر قال لقواده : إنني لا أستطيع تأمين مقامي في مصر إذا كانت للفرس السيطرة على هذه المنطقة البحرية ، وبدأ رحلته إلى فارس والهند (٢) ومن أجل هذا كانت الدول تتطلع إليه وتحاول ربطه بالأحلاف ، ولم يضعف هذا الاتجاه إلا عندما ظهرت الصواريخ عابرة القارات والأقمار الصناعية وأمثالها مما قرب البعيد •

وقد تحدث ابن الوردي عن هذا الخليج فأضفى عليه أطيب الصفات وأكرمها ، قال (٣) : هو بحر مبارك ، كثير الخير ، وطىء الظهر ، قليل الهيجان ، قال عنه أبو عبيد الله الصيني : حُص الله بحر فارس بالخيرات الكثيرة والبركات الغزيرة ، والفوائد والعجائب والظرف والغرائب ، فيه مغاص الدر يخرج منه الحب الكبير ، وربما وجدت فيه الدرة اليتيمة التي

(١) الخليج الفارسي ص ٢٠٤ •

(٢) Arrian's History of Alexander's Expedition vol 1 p. 30.

نقلا عن الخليج العربي للدكتور نوفل ج ١ ص ٤١ •

(٣) ابن الوردي : جزيرة العجائب ص ٦٢ •

لا تقدر قيمتها ، وفي جزائره معادن تحوى أنواع الميوافيت والأحجار
الملونة النفيسة ، ومعادن الذهب والفضة والحديد والنفط والمرصاص
والعقيق وأنواع الطيب •

ولم يتحدث أبو عبيد الله الصينى عن البترول لأنه لم يكن ظهر في
عصره ، ولم يخطر ببال الصينى أن النفط سيندفع من تحت الخليج
فتتهاوى أمام قيمته مكانة هذه المعادن ، بل سيجذب البترول كثر الأيدي
التي كانت تعمل في صيد اللؤلؤ ، فإن البترول أنفع وأثمن من اللؤلؤ
الفريد •

ساحل الخليج : البحرين

كانت المناطق التي تقع على امتداد الساحل الغربى للخليج العربى
تسمى قديما البحرين أو الأحساء أو هجر ، يقول ياقوت : البحرين اسم
جامع للبلاد على ساحل الخليج بين البصرة وعمان ، وتسمى هذه المنطقة
أيضا هجر ، وقيل إن هجر قصبة البحرين ، فيها عيون ومياه وسلاسل
واسعة ، وربما عد بعضهم اليمامة من أعمالها ، والصحيح أن اليمامة عمل
برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين (١) •

ويقول سديو (٢) وهو يعدد مناطق بلاد العرب : إن الأحساء —
وتسمى البحرين أيضا لأهمية الجزر التي تجاورها — تمتد على طول
الخليج الفارسى من حدود عمان إلى الفرات •

وعلى هذا فالبحرين أو الأحساء في التاريخ تشمل قطر والأحساء
(الحاليين) فالكويت حتى البصرة ثم الجزر التي تعرف الآن بالبحرين

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢ •

(٢) تاريخ العرب العام ص ٢٤ •

ويذكر ياقوت عن سبب تسمية البحرين كلاما طويلا ^(١) ولكن الذى نرجحه أن سبب التسمية هو اتصال هذه المنطقة ببحرين ينسب أحدهما إلى عمان والآخر إلى فارس ، وعلى مر الزمن أخذت التسمية تنحصر في كلمة « البحرين » تشمل فقط الجزر المجاورة لقطر •

ومعظم أراضي البحرين صحراوية تثبت الأعشاب والنباتات البرية ، ولكن المياه الباطنية تتوفر في معظم أنحائها ، وهذه المياه قريبة من سطح الأرض ، مما يجعل استغلالها للزراعة ممكنا ويسيرا ، هذا بالإضافة إلى المياه التى تتجمع في بطون الأودية ، وتكفى هذه المياه لزراعة بعض المحاصيل كالحنطة ، والشعير والحناء ، وبعض الفاكهة كالوز والرمان والتين والتمر الذى اشتهرت به منطقة هجر ، حتى ضرب المثل بهذه المنطقة في وفرة ثمرها ورخص سعره ، فقيل كما يستبضع التمر إلى هجر ^(٢) ، وذلك كناية عن الدهشة من أن يرحل إنسان بالتمر إلى منطقة تكثر فيها أنواع التمور •

وعرفت نواحي للبحرين بأنواع متعددة من النسوجات وكان كل إقليم من أقاليم البحرين ينتج نوعا معيناً ينسب لهذا الإقليم ، كالثوب الهجرى نسبة إلى هجر ، والثوب القطرى نسبة إلى قطر ، ثم أصبحت التسمية علما على الثوب في العصور المتأخرة ، فلم تعد تدل على مكان الصنع ، بل أصبحت تقوم على أساس الصفات المميزة للثوب ^(٣) • ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض كبار الصحابة قد لبسوا أردية من صنع البحرين ^(٤) •

(١) المرجع السابق ص ٧٣ •

(٢) الميدانى : مجمع الامثال ج ٢ ص ٩٨ ، والزمخشري : المستقصى

من أمثال العرب ج ٢ ص ٢٣٣ •

(٣) عبد الرحمن النجم : البحرين في صدر الاسلام ص ٨١-٨٢ •

(٤) ابن حنبل : المسند ج ٥ ص ٤٣ ، والنهاية في غريب الحديث

لابن الاثير ج ٣ ص ٢٦٢ •

ومنطقة البحرين كانت أهلة بالسكان الذين ينتمى أكثرهم إلى عبد القيس وبكر بن وائل وتميم^(١) ، وقد وفدت عبد القيس إلى البحرين من تهامة ، وتغلبت على من كان بها من إياد والأزد ، وانتشروا في أكثر جهات البحرين وبخاصة المناطق الساحلية منها ، ونزلوا أهم مدنها ، وقد احتفظت عبد القيس بهذه الأمكنة حتى ظهور الإسلام^(٢) ، أما بكر بن وائل وتميم فقد عاشوا غالبا في المناطق الداخلية ، وبالتالي لم يكن لهم دور كبير في التجارة وكانتا تعيشان في حياة بدوية *

وكانت هناك جماعات من « الزط » تعيش في ساحل البحرين بمنطقة « الحظ » والزط — كما يقول ابن خلدون^(٣) — قوم من أخلاط الناس يرجع أصلهم إلى الهند (ويعرفون بالفتور) ، وكان مهمهم الشغب والخطف *

وبعد هذا التعريف بالخليج وساحله نسير مع منطقة الخليج مسيرة تاريخية من مطلع الإسلام حتى الآن :

الإسلام في منطقة الخليج

الإسلام حدث ديني وسياسي زحف إلى منطقة البحرين ضمن المناطق التي زحف إليها ، وينبغي أن نتعرف على أحوال هذه المنطقة قبل الإسلام دينيا وسياسيا لنرى كيف استقبل الإسلام فيها :

فمن الناحية الدينية كانت منطقة البحرين واقعة تحت تأثير عوامل متعددة تركت بها آثارا دينية مختلفة ، فأغلب السكان وافدون من الجزيرة العربية ومن هنا كانت لهم صلات بالوثنية العربية ، ووقوع هذه المناطق

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) عبد الرحمن النجم : المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) العبر ج ٣ ص ٢٥٧ وانظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة

ص ١٧٧ .

في مقابلة الفرس وتحت سلطانهم في بعض الأحيان أتاح الفرصة للمجوسية لتجد طريقها إلى البحرين ، وصلة هذه المناطق بالعراق عن طريق البصرة فتحت الباب للمسيحية التي كان يدين بها المناذرة ، كما أن المسيحية جاءت أيضا عن طريق البحر وعن طريق الصلات التجارية .

وعندما نتذكر الأهمية الاقتصادية للخليج الفارسي التي تحدثنا عنها من قبل يقفز إلى الذهن ضرورة وجود العنصر اليهودي بهذه المنطقة ، لأن اليهود يتسألون إلى حيث النشاط المالى والاقتصادي ، ويتحدث التاريخ عن وجود جالية يهودية بالبحرين أكثر أفرادها وافدون وقلة منهم من العرب تهودوا ، وقد أشار طرفه بن العبد الذي نشأ في البحرين إلى يهود هذه المنطقة بقوله في معلقته :

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى

والعدولية سفن تنسب إلى ميناء عدول بالصومال ، وابن يامن يهودي من أهل هجر كان يمتلك عددا من السفن التي تعمل في الخليج العربي (١) .

ذلك هو الوضع الدينى بشكل عام لهذه المنطقة عند مطلع الإسلام ، أما الوضع السياسى فخلاصته أن البحرين كانت تابعة للفرس عند ظهور الإسلام (٢) وكان الفرس يحكمون البحرين بحاكم من العرب هو المنذر ابن ساوى وبجانبه يوجد المرزبان « سبيخت » الذي كان يقود قوة عسكرية فارسية ويتخذ من هجر مركزا له ، وهذا لا يتدخل في الأمور الداخلية إلا إذا دعت الضرورة (٣) وعلى هذا فحكم الفرس لمناطق الخليج العربى كان حكما اسميا لا غير .

وعندما استقر الإسلام في المدينة بعد صلح الحديبية أو بعد فتح

(١) التبريزى : شرح القصائد العشر ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٨ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .

مكة حسب الروايات الكثيرة أرسل الرسول العلاء بن عبد الله الحضرمي^(١) إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية ، وكتب معه كتابين إلى المنذر بن سلاوى التميمي وإلى المرزبان سبيخت يدعوهما إلى الإسلام ، ويبدو أن المنذر أسرع بقبول الدعوة حتى يتخلص من سلطان الفرس ، وقد كافأه الرسول بثبتيته في مكانه ، فظل واليا على البحرين حتى وفاته . سنة ١١ هـ^(٢) ، وافى رواية ياقوت أن سبيخت أسلم أيضا ، وأسلم مع المنذر . ومع سبيخت جميع العرب هناك ، وبعض العجم ، أما الذين بقوا على أديانهم من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء على دفع الجزية ، وكتبوا معه كتابين بذلك^(٣) .

ويقول العلاء بن الحضرمي : إني كنت آتئ الحائط (أى الحديقة أو المزرعة) بين الإخوة قد أسلم بعضهم ، وبقي بعضهم على دينه ، فأخذ من المسلم العشر ، ومن غيره الخراج^(٤) .

وبجوار المنذر كان هناك عمال للرسول بالبحرين ، وكان هؤلاء يعملون على نشر الدعوة ، وينظمون الأموال المالية دون أن يكون لهم سلطان سياسي ، وأول هؤلاء العلاء بن الحضرمي ، ويقال إن الرسول عزله وولى أبان بن سعيد بن العاص ، ويبدو أن أبان لم يظهر كفاءة مثل العلاء ، فلم يستطع أن ينال رضا القوم ، ولذلك طلب هؤلاء من أبي بكر أن يرد العلاء إلى منصبه فاستجاب لهم ، وبقي العلاء واليا عليهم حتى توفي سنة ٢٠ هـ .

وبعد العلاء الحضرمي توالى الولاة على البحرين ، ونذكر فيما يلي أهم هؤلاء :

-
- (١) انظر سيرة ابن هشام وزاد المعاد لابن القيم وعيون الاثر لابن سيد الناس والطبقات لابن سعد .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .
(٤) أبو عبيد : الاموال ص ٣٢ - ٣٣ .

قدامة بن مظعون — أبو هريرة — عثمان بن أبي العاص — مروان بن الحكم — عبيد الله بن العباس — أسيد بن الأخنس بن شريق — زياد بن الربيع المهارشي — الأشعث بن عبد الله بن الجارود — يحيى بن زياد بن الحارث — عبد الله بن شريق — المهاجر بن عبد الله الكلابي (١) .

ومما يذكر هنا أن عثمان بن أبي العاص والى البحرين في عهد عمر كان من أشهر القواد الذين عبروا إلى بلاد الفرس ، وأسهموا في فتحها ، وقد ترك أحياه المغيرة بن أبي العاص خليفة له على البحرين إبان جهاده في فتح فارس .

ومما يذكر أيضا ما رواه محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : استعملني عمر بن الخطاب على البحرين ، فاجتمعت لى اثنا عشر ألفا فلما قدمت على عمر قال لى : يا عدو الله والمسلمين ، أخذت مال الله . فقلت لست بعدو الله ولا المسلمين ، ولكنى عدو من عاداهما ، قال : فهن أين اجتمعت لك هذه الأموال ؟ قلت : خيل لى تنأجت ، وسهام اجتمعت قال أبو هريرة : فقاسمنى عمر هذا المال (٢) .

الردة والصراع ضد المرتدين

من الواضح أن بعض سكان هذه المنطقة دخلوا الإسلام دون أن يتعمقوا في التعرف عليه ، وكان أهم دواعى قبولهم الإسلام رغبتهم في التخلص من حكم الفرس كما ذكرنا من قبل ، فلما تحقق لهم الاستقلال عن الفرس طمعوا في أن يكون استقلالهم تاما ، أى أن يستقلوا عن السلطة المركزية بالمدينة المنورة ، وشجعهم على هذا الاتجاه ظهور مسيلمة الكذاب متنبيا في بنى حنيفة باليمامة غير بعيد عنهم ، وقد بدأ مسيلمة

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) ياقوت : المرجع السابق ص ٧٦ .

حركته قبيل وفاة الرسول ^(١) ، وعظم أمره بعد وفاة الرسول ، ثم ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه عزل المعلاء بن الحضرمي وجعل مكانه أبلن بن سعيده بن المعاص ، وفي فترة مرض الرسول عليه السلام قوفي المنذر بن ساوى ، فزال بذلك صمام الأمان ، وارتد من بالبحرين من وند قيس بن ثعلبة ، كما ارتد من بالبحرين من ربيعة خلا الجارود ابن بشر العبدى ومن تابعه من قومه * وكان قائد المرتدين يسمى « الحطم » من بنى قيس بن ثعلبة ، وانتهاز الفرس حركة الردة فأرسلوا جيشا فارسيا بقيادة رجل اسمه « المكعبد » لقتال بنى تميم في محاولة لإعادة احتلال المناطق العربية وضرب الاتجاه الإسلامى ، وكانت حجة الفرس في هذا العدوان أن بنى تميم تعرضوا لغير كسرى بالزارة ، وانضم إلى المكعبد بعض المجوس الذين كانوا قد تجمعوا بالقطيف وامتنعوا عن أداء الجزية ، وماجت هذه المنطقة بالتمرد والفوضى (٢) *

وخطا المرتدون خطوة زادتهم قوة هي أن الحطم استغوى بعض أهل الخط والقطيف ، وبخاصة من بها من الزط والديابجية ، ثم أرسل إلى الغرور بن سويد بن المنذر (وهو ابن أخى النعمان بن المنذر ملك العرب) أن يأتيه بمن معه ، وقال له ان ظفرنا ملكك اليجرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة فاستجاب له الغرور *

وتجمعت جيوش المرتدين والمتمردين وحاصرت المسلمين في جواثا * وطال حصار المسلمين في هذه المدينة ، واستبسل المسلمون في الدفاع عن أنفسهم ، ولكن أعداءهم كانوا أكثر منهم عددا وعدة فأرسل المسلمون لأبى بكر يستجدونه ، ويورد ياقوت مقطوعة من الشعر يهتف بها أحد المسلمين المحاصرين بأبى بكر والمسلمين أن يمدوا لهم يد العون (٣) *

(١) اقرأ الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٢٧٨ ، وما ذكرناه من قبل في هذا الجزء عن مسيلمة *

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦ *

(٣) المرجع السابق *

واستجابة لذلك أرسل أبو بكر جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمي للبحرين ، كما طلب من خالد بن الوليد أن يذهب لمساعدة العلاء عقب الانتهاء من مسيلمة ، وكان بجيش العلاء بعض المسلمين من أهل البحرين وبخاصة الجارود وأتباعه ، والتقى الجيش في عملية كر وفر نهارا مع الهدوء ليلا ^(١) . واتيحت للعلاء فرصة فاهتبلها ، ذلك أنه في ليلة من ليالى الصراع كان الجيشان في راحة بعد نهار حافل بالطعن والدم ، فسمع العلاء ضوضاء وحركة في معسكر الحطم فأوفد إلى المعسكر من يأتيه بخبر الضوضاء ، وعاد رسول العلاء ليقول له إن القوم قد شربوا وشمّلوا فأطبق عليهم العلاء ورجاله ، فهزموهم هزيمة كبيرة وقتل الحطم في هذه المعركة .

وحضر خالد بن الوليد بجيشه وخططه فاكتسحهم وأدرك المرتدون ألا قبيل لزم بالصمود أمامه ففروا إلى الجزر الداخلية (البحرين الآن) وأحرقوا السفن حتى لا تستطيع جيوش المسلمون أن تلحق بهم ، وهنا تحول خالد بن الوليد إلى العراق بناء على طلب الخليفة وترك الأمر للعلاء الذي أصر على ملاحقة المهاربين ، وتقول الرواية إن العلاء وقف بجيشه أمام الماء الذي يحول بينه وبين المرتدين ، وصلى العلاء في تضرع ، ودعا الله أن يمكنه منهم ، فانحسر الماء في حركة جزر كثيرا ما تجعل المسافة بين الشاطئ والجزر يمكن خيضاها ، وحينئذ زحف العلاء بجيشه ، وذاهم المرتدين ^(٢) وقد ظنوا أنهم آمنون ، فأعلن بعضهم عودته للإسلام وأأسفه عما بدر منه ، وقضى العلاء على من بقى على

(١) الطبري : ج ٢ ص ٥٢١ وما بعدها بتصرف .

(٢) يورد الطبري موقفا آخر من الكرامات يتصل بهذا الصراع ، فإن جيش العلاء تعرض لعطش قاتل ، فاتجه العلاء الى الله واستجاب الله اليه ، اذ سرعان ما رأوا ماء يلمع فهبوا اليه وشربوا واستراحوا ، بل رآته القوافل فاتجهت اليه من كل صوب . قال أبو هريرة لقد عدت بعد حين لأتأكد من حال هذا الغدير ، وهل هو غدير فعلا أو أنه منحة من الله سخرها لحاجة المسلمين ، فلم أجد غديرا في المكان ، ولم أجد الا اثرا لغدير وركب ، كان وراح (انظر تحفة المستفيد ج ١ ص ٩٧) .

كثفّره ، ثم زحف إلى التجمعات التي التفتت حول المكبر ، ولم يقف
العلاء عند هذا الحد ، بل قرر أن يعبر المضايح إلى بلاد فارس ليصارع المركز
الحقيقي الذي يثير القلاقل في المناطق المسلمة ، ويريد أن يقضى على
الإسلام ، وعبر العلاء الخليج ، فكان أول من وجهه الضربات إلى فارس ،
ولكن عمر بن الخطاب استدعاه وعينه واليا على البصرة ، وولى على
البحرين عثمان بن أبي العاص الذي ذكرنا من قبل أنه ترك المغيرة خليفة
له على البحرين وعبر إلى بلاد الفرس ليرد عدوانهم ، فكان من أسهموا
في فتحها ، وبعد عثمان أسندت ولاية البحرين إلى الربيع بن زياد
الهمداني .

ولم تغفل عين الخلفاء الراشدين عن هذه المنطقة بسبب ظهور هذه
الحركات بها ، وظلت موضع عنايتهم طيلة عهدهم .

البحرين في العهد الأموي

كانت منطقة البحرين في العهد الأموي من المناطق التي اهتم بها خلفاء بني أمية اهتماما كبيرا ، بسبب صلتها ببلاد فارس التي كانت — كما قلنا من قبل — مصدرا لكثير من الانحرافات الفكرية ، فقد خيف دائما على هذه المنطقة أن تجرفها تيارات التمرد ، ولهذا ، وللأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة لم يمتد لها الأهمال الذي امتد لكثير من بقاع الجزيرة العربية في العهد الأموي ، وكانت اليمامة في هذا العصر تضم أحيانا إلى البحرين ، وأحيانا تبقى ولاية مستقلة (١) .

فلما جاء عهد مروان بن الحكم وابنه عبد الملك واجه الخليفة الأموي مصاعب جمة لإعادة السلطان الأموي الذي كان قد هزته حركة عبد الله ابن الزبير ، ولهذا انشغل الخليفة عن منطقة الخليج فضعفت المراقبة على هذه المنطقة ، وهنا انتهز الخوارج هذه الفرصة فهبوا في حركات متتالية قاسية سنتحدث عنها فيما يلي :

الخوارج في منطقة الخليج

كانت منطقة الخليج منطقة ملائمة لنشاط الخوارج ، فهي تموج بالفتن والاضطرابات بسبب العوازل المختلفة التي أشرنا لها من قبل ، ولهذا جذبت هذه المنطقة فرقة مهمة من فرق الخوارج هي فرقة النجدات (٢) وسنتحدث عنها فيما يلي :

فرقة النجدات :

بعد أن افترق الخوارج عن عبد الله بن الزبير انقسموا قسمين : الأزارقة ، والنجدات ، وقد توجه الأزارقة إلى البصرة ، أما النجدات

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٣ .

(٢) أنظر حديثنا عن فرق الخوارج في الجزء الثاني من هذه الموسوعة ص ٢٢٩ وما بعدها .

فقد توجهوا إلى اليمامة ، ويقول ابن الأثير « انطلق أبو طالوت من بنى بكر وأبو فديك عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة ، وعطية بن الأسود البشكري إلى اليمامة بقيادة أبي طالوت ثم اجتمعوا بعد ذلك على نجدة ابن عامر الحنفي وتركوا أبا طالوت ^(١) » وسنذكر بعد قليل سبب هذا الانتقال .

وأطلق عليهم « النجدات » وليس « النجدية » للفرق بينهم وبين من انتسب إلى أتباع نجدة بن عويمر وهو عامر الحنفي الخارج باليمامة فقد كان هؤلاء يطلق عليهم « النجدية » ^(٢) .

نشاط نجدة بن عامر :

مضى نجدة يقود الخوارج إلى « الحضارم » فنهبا ، واعترض عيرا كان يراد بها ابن الزبير ، واستولى عليها ، وساقها إلى أبي طالوت فقسمها بين أصحابه ، فاقسموا المال وقالوا : « نجدة خير لنا من أبي طالوت فخلعوا أبا طالوت وبايعوا نجدة ، وبايعه أبو طالوت كذلك ، وكان ذلك سنة ست وستين ^(٣) » .

وقد تحرك نجدة للسيطرة على المنطقة ، فسار إلى بنى كعب وهزمهم بذي المجاز ، وكثر أتباع نجدة ، وسار إلى البحرين سنة سبع وستين فسلمته الأزد ، واجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين غير الأزد على محاربته ، وقد حاول الأزد اقناع عبد القيس ومن معهم بمسألة نجدة فرفضوا ، والتفوا مع نجدة في القطيف ، فهزمهم وقتل منهم جمع كثير ، قال الشاعر :

نَصَحْتُ لَعَبْدِ الْقَيْسِ يَوْمَ قَطِيفَا وَهَذَا نَفْعٌ نَصَحَ قَيْلٌ لَا يَتَّقِبَلُ

(١) الكامل : ابن الأثير ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) الخطط للمقريزي ص ٣٥٤ .

(٣) راجع الكامل : لابن الأثير ج ٣ ص ٣٥٢ .

وقد أقام نجدة بالقطيف ، وأرسل ابنه يتتبع فلول المنهزمين ، ولكن ابنه قتل مع نفر من أصحابه ، وأرسل نجدة سرية إلى « الخط » فكتب لها النصر ، وأقام نجدة بالبحرين •

وفي سنة تسع وستين أرسل مصعب بن الزبير عبد الله بن عمير في جيش إلى نجدة ، ولكن نجدة استطاع أن يدهمهم في غفلة من ابن عمير ويهزمهم هزيمة بالغة ، وغنم ما في عسكرهم « وأصاب جوارى فيهن أمٌ ولد لابن عمير ، فعرض عليها أن يرسلها إلى مولاها فقالت : لا حاجة لى إلى من فزعنى وتركنى ^(١) » •

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشا إلى عثمان واستعمل عليه عطية بن الأسود ، فاستطاع عطية أن يستولى عليها ويقتل حاكمها عباد ابن عبد الله ، ولكن عطية لم يستمر بها طويلا فخلف عليها رجلا يكنى أبا القاسم واستطاع ابنا عباد أن يقتلا أبا القاسم ، وخالف عطية نجدة ففارقه وانتهى به الأمر إلى السند حتى تمكنت خيل المهلب من قتله هناك

وبعث نجدة إلى البوادي بعد هزيمة ابن عمير من يأخذ من أهلها الصدقة ، وقاتل بنى تميم وأهل طويلع وأخذ منهم الصدقة ، ثم سار نجدة إلى صنعاء فبايعه أهلها ، بعد أن ظنوا أن وراءه جيشا كبيرا ، وأرسل نجدة أبا فديك إلى حضرموت فجبى الصدقات من أهلها •

وحج نجدة سنة ثمان وستين ، وقيل سنة تسع وستين ، وصالح ابن الزبير على أن يصلى كل واحد بأصحابه ، وعندهما صدر نجدة عن الحج ، سار إلى المدينة فتأهب أهلها لقتاله ، وعندما علم نجدة بذلك رجع إلى الطائف ، وأثاء عاصم بن عروة فبايعه عن أهله دون أن يدخل نجدة الطائف ، وعاد نجدة إلى البحرين ، وقطع الميرة عن أهل الحرمين ، ولكنه أعادها عندما كاتبه ابن عباس في ذلك ^(٢) •

(١) المرجع السابق ص ٣٥٣ •

(٢) الكامل : لابن الاثير ج ٣ ص ٣٥٣ •

الاختلاف على نجدة وقتله :

وقع خلاف بين نجدة وأتباعه في أمور كثيرة منها : أنه سير سرية بحرا وأخرى برا ، ففضل سرية البحر في العطاء ، ومنها أن عبد الملك ابن مروان كاتب نجدة في الطاعة على أن يوليه اليمامة ، ويهدر له ما سفك من الدماء ، ولكن أصحاب نجدة اتهموه بالاتصال بعبد الملك ، وبالتردد ، ومنها أن قوما استتابوه ثم ندموا على استتابته وفرقوا ، ونقموا عليه أشياء أخرى ، فخالف عليه العامة وولوا أمرهم أبا فديك واختفى نجدة ولكن أصحاب أبي فديك تمكنوا من القبض عليه وقتله وهو يقول :

وان جر مولانا علينا جريرة صبرنا لها ان الكرام الدعائم (١)

أبو فديك في البحرين :

تولى أبو فديك أمر الخوارج في الخليج بعد أن اختلفوا على نجدة وقتلوه ، وكان ذلك سنة ٧٢ هـ ، ويقول الطبري : « وفي هذه السنة كان خروج أبي فديك الخارجى وهو من بنى قيس بن ثعلبة ، فغلب على البحرين ، وقتل نجدة بن عامر الحنفى » (٢) .

وثبتت قدم أبي فديك في المنطقة « فوجه إليه عبد الملك أمية بن عبد الله ، فهزمه أبو فديك وفضحه وأخذ أثقاله وحرمه » (٣) ثم أرسل عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله ، وقال له : خذ معك أهل المصريين الكوفة والبصرة ، فسار والتقى بأبي فديك وأصحابه في البحرين ، وحمل عليهم حتى استباحوا عسكر أبي فديك وقتلوه ، وحسروا أصحابه « فنزلوا على الحكم فقتل منهم نحو ستة آلاف وأسروا ثمانمائة » (٤) .

(١) راجع الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٧٤ أحداث ٧٢ .

(٣) البيهقي المجلد الثاني ص ٢٧٣ دار بيروت ١٩٦٠ .

(٤) الكامل . لابن الاثير ج ٤ ص ٢٨ .

مسعود العبدى ونشاطه في البحرين :

وفي سنة ١٠٥ هـ خرج مسعود العبدى زعيم الخوارج بالبحرين ، فغلب على المنطقة وظل له النصر بضع عشرة سنة ، ثم سار مسعود إلى اليمامة ، فتصدى له سفيان بن عمرو العقيلي واشتد بينها القتال ، فقتل مسعود وقتلت أخته ، واضطرب أمر الخوارج ، وقال الفرزدق في هذا اليوم :

لعمري لقد سلكت حنيفة سبلة سعيوا أبت يوم الوغى أن تغيرا
تركنا لمسعود وزينب أخته ردعا وسريالا من الموت أحمرأ
أرين الحوريين يوم لقائهم ببرقان يوما يجعل الموت أشقرا

وقيل إن مسعودا غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتلته سفيان بن عمرو العقيلي (١) .

وبعد أن أوضحنا نشاط الخوارج في منطقة الخليج وأشهر قوادهم لابد أن نضع أمامنا الملاحظات التالية .

أولا : إن الخوارج في منطقة الخليج كانت لهم شوكة قوية في عهد بنى أمية ، وقد ساعدتهم على ذلك ظروف المنطقة المهيأة للفتن والاضطرابات كما أن المنطقة كانت ملائمة لحياة الخوارج البدو فنمت فيها قوتهم .

ثانيا : مما ساعد الخوارج على أن يسيطروا على معظم المنطقة ، اضطراب الأحوال في الحجاز والشام والعراق ، وانشغال الخلافة الأموية بالقضاء على ابن الزبير وثورات الخوارج في البصرة وما يابها .

ثالثا : كان ظهور الخوارج وتفوقهم في منطقة الخليج في عهد بنى أمية مقترنا بظهورهم وتفوقهم في منطقة العراق ، وظهور قيادات فذة لهم مثل نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، وفي مثل هذا الوقت

(١) راجع المرجع السابق ص ٩٠ .

استطاع نجدة أن يهبط سلطانه على معظم منطقة الخليج ، فاستولى على اليمامة ، والبحرين ، والقطيف ، والخط ، وعمان ، ودانت له البوادي وأخذ منها الصدقة ، واستولى على صنعاء وأخذ جبايتها ، كما أرسل أبا فديك إلى حضرموت فجبي صدقات أهلها ، وبإيعه أهل المطائف دون أن يدخلها ، وهكذا نرى أن نجدة كانت له قوة عظيمة في تلك الفترة ، فقد بايع الخوارج نجدة « فأقلقوا اليمامة والبحرين وأثخنوا في الناس » (١) ويقول اليعقوبى : « ووجه مصعب بن الزبير بخيل بعد خيل ، وجيش بعد جيش إلى نجدة ولم يستطع ابن الزبير القضاء على نجدة أو هزيمته (٢) » .

رابعاً : استطاعت قوات عبد الملك بن مروان أن تكسر شوكة الخوارج في العراق وتضعف شأنهم ، وحدث مثل ذلك في منطقة الخليج في عهد عبد الملك ، واستتب الأمر لابن أمية ولم تقم للخوارج قائمة إلا سنة ١٠٥ كما تحدثنا من قبل حيث هب مسعود العبدى ولكن ثورته كانت قصيرة العمر .

البحرين في العصر العباسي

سيطر العباسيون على العالم الإسلامي الذي كان يحكمه الأمويون باستثناء الأندلس ، ومن هنا كان سلطان العباسيين سائداً على منطقة البحرين ، وكان عمال البحرين في العصر العباسي على النحو التالي :

السفاح : عين داود بن علي واليا على مكة والمدينة واليمن واليمامة والبحرين سنة ١٣٢ .

ثم عين سليمان بن علي واليا على البصرة والبحرين وعمان سنة ١٣٣ .

(١) دائرة معارف البستاني ص ٤٩٤ مادة خوارج .

(٢) تاريخ اليعقوبى مجلد ٢ ص ٢٧٢ .

المنصور : عين السرى بن عبد الله الهاشمى واليا على اليمامة والبحرين سنة ١٣٦ ثم عين سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة سنة ١٣٩ ، ثم ولى على البحرين خاصة قثم بن العباس بن عبد الله ابن على بن عبد الله بن العباس فى نفس العام ثم أضاف إليه اليمامة سنة ١٤٤ هـ .

وفى عهد المنصور ثار فى البحرين سليمان بن حكيم العبدى ، فوجه إليه المنصور عقبة بن مسلم من البصرة ، واستخلف عليها نافع بن عقبة ، وقد انتصر عقبة وقضى على الثورة وقتل سليمان بن حكيم وسبى الكثير من أتباعه وأرسلهم عقبة إلى المنصور ، فقتل بعض قادتهم ووهب الباقين إلى ابنه المهدي فكساهم وأطلقهم .

ومن ولاية المنصور على البحرين فى سنيه الأخيرة تميم بن سعيد وقد ولاه سنة ١٥٧ ثم ولى عليها حمزة الكاتب .

المهدى : عبد الله بن مصعب .

صالح بن داود بن محمد سنة ١٦٤ .

مولاه العلى سنة ١٦٥ وقد ظل فى ولايته حتى عهد الرشيد .

الرشيد : فى عهد الرشيد خرج بالبحرين سيف بن بكر أحد بنى عبد القيس فوجه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد فقتله ، ومن ولاية الرشيد محمد بن سليمان بن على وقد وليها مع اليمامة سنة ١٧٠ .

المعتصم : اسحق بن أبى خبيصة ويذكر البلاذرى ^(١) ان اسمه حميضة وأنه بنى مسجدا فى الحديقة التى قتل فيها مسيلمة فى عقرباء ^(٢) .

(١) فتوح البلدان ص ١٠٣ .

(٢) محمد بن عبد الله الانصارى . تحفة المستفيد ص ٧٩ - ٨١ .

وبنهاية العصر العباسي الأول ، وبانتقال سلطة الخلفاء الحقيقية إلى الأتراك تفككت الدولة وهبت بها ثورات عنيفة ، ولا عجب أن تجذب منطقة البحرين كثيرا من الحركات المدمرة القوية التي صارعت جيوش المسلمين والتي كان طابعها شديد الانحراف ، وأهم هذه الحركات التي عرفتها منطقة البحرين آنذاك حركة صاحب الزنج وحركة القرامطة ، والحركتان من أقسى الحركات التي هبت بالعالم الإسلامي واستنزفت كثيرا من جهد العباسيين ودماء المسلمين وقد تحدثنا بشيء من الإيجاز عن الزنج والقرامطة في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة ، ونعيد هنا الكلام عن هاتين الحركتين بمزيد من التفصيل ، فإن هذا المكان هو المكان الطبيعي للحديث عن هاتين الحركتين .

حركة الزنج

تنسب هذه الحركة إلى الزنج الذين كانوا يعيشون في البصرة والذين استغلهم على بن محمد (أو على بن عبد الله الملقب صاحب الزنج) في حركة كان يرمى بها إلى تحقيق أطماع وطموح في نفسه ، وقد سلك هذا الرجل عدة وسائل ، وقام بعدة محاولات لتحقيق هذه الأطماع كما سنرى فيما بعد ، ولكن محاولته مع الزنج كانت أنجح وأشهر وأخطر ، ولذلك اشتهر بها .

وصاحب الزنج هذا رجل فارسي ، ولد في إحدى قرى السرى ، ويصفه ابن طباطبغا (١) بأنه كان فصيحاً ذكياً طموحاً ، وكان في الوقت نفسه فقيراً قليل المال والعتاد ، وعندما يجتمع الذكاء والطموح والفقر يصبح الإنسان خطراً على المجتمع الذي يعيش فيه ، وهكذا كان هذا الرجل الذي عبر عن طموحه بقوله يخاطب نفسه :

وإذا تنازعني أقوالها أطلبى موتاً يريحك أو صعود المنبر

تحقيق نسبه *

إن نسب هذا الرجل غير واضح ، فقد ادعى أنه ينحدر من آل البيت ، وأن اسمه على محمد بن أحمد من ولد على بن أبي طالب ، وقد اتجه أكثر المؤرخين إلى تنفيد هذا الادعاء ، والحكم عليه بالكذب ، وأنه قد اتخذ من الادعاء وسيلة لتحقيق أطماعه كما سنرى فيما بعد ، ويرى الطبرى أنه ينحدر من قبيلة عبد القيس وأن اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم (٢) والذي نميل إليه إن نسبه العلوى ادعاء باطل بدليل أن أتباعه كانوا يلعبون الصحابة ، وفيهم على وعائشة ، وكان هذا يحدث أمامه فلا يغضب ، وبدليل أن نساء من العلويات تشبهن عليهن واعتدى عليهن ، واستعبدن أمام عينه بأمره ، ولو كان فعلاً من آل البيت لما

(١) الأخرى في الآداب السلطانية ص ٢٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ١١ ص ١٧٤ .

سمح بهذه التصرفات ، ولعمل على حماية آل البيت من أتباعه الزنوج والعلوج (١) .

مطلع حياته :

اشتغل على بن محمد في مطلع حياته أجيرا ، ولكن هذا العمل لم يقنعه فأتجه لتعليم الصبيان ، بيد أن هذا العمل لم يكسب له ما تطلع إليه من مال وشهرة .

ومن هنا أخذ يتطلع إلى القصور ، وكانت لديه وسيلة يمكن أن تصله بالقصور وسكانها تلك هي إجادته للشعر ، فقد كان من الذين يجيدون قول الشعر المطبوع ومن يتصف بفصاحة اللهجة (٢) فمدح جماعة من حاشية الخليفة المنتصر (٢٤٧ هـ) واستمالهم بشعره ، وقد كسب عن هذا الطريق بعض المال ، ولكنه أيضا لم يقنع بما وصل إليه .

ومن أجل هذا اتجه اتجاهها آخر هو الاشتغال بالتنجيم والسحر ، ولكن ذلك كله لم يحقق للرجل أطماعه ، وكان لابد من جولة جديدة أو جولات جديدة لعلها تنيل الرجل مأربه .

وقد اتجه على بن عبد الله في هذه الفترة إلى (البحرين) وقد كانت البحرين كما ذكرنا من قبل جديرة باجتهاد هذا اللون من الطموحين المنحرفين كما كانت ظروف العصر مواتية ، إذ كانت الخلافة العباسية تتجه للانحدار بعد العصر العباسي الأول ، بسبب استبداد المماليك بالسلطان ، وكانت هناك حركات استقلال تغمر العالم فتقطع من جسم الخلافة أجزاء ليستقل بها الطموحون هنا وهناك كما فعل الصفاريون والطورونيين ، فلماذا لا يحاول هذا الرجل مثل هذه المحاولة في البحرين ليجعل من نفسه سلطانا على هذا الجزء من العالم الإسلامي ؟ وقد دفعه عامل المكان (البحرين) وعامل الزمان (ضعف الخلافة) إلى أن يخطو طامعا أن يحقق مأربه .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٨ ص ١٢٧ .

خطوات التأثير

لم تن الطريق سهلا أمام على بن محمد وبخاصة أنه كانت للرجل سمعة غير طيبة تلاحقه وتعارض أطماعه ، ولذلك كان عليه أن يصطنع الصبر ، وأن يغير خطته من حين إلى حين جريا وراء شعاع جديد كلما خبا أمل سار عليه شوطا من الأثواط ، وسنثبت فيما يلي دراسة عن هذه المحاولات التي قام بها هذا الرجل في تلك المرحلة :

١ - المهدي المنتظر :

كانت فكرة « المهديّة » شائعة عند بعض طوائف الشيعة وكان هؤلاء يعتقدون أن المهدي سيظهر يوما فيملا الدنيا عدلا ، كما ملئت جورا ، ويزيل الباطل ، وقد رأى على بن عبد الله أن يجعل نفسه هذا المهدي المنتظر ، ومن هنا أعلن أنه ينحدر من آل البيت ، وأنه علوى النسب ليكون ذلك وسيلة لادعاء المهديّة ، وقد بدأ هذا الادعاء سنة ٢٤٩ هـ ، وكان هناك أناس يستجيبون لكل ناعق فاتبعه هؤلاء ، وجبوا له الخراج ولكن كان هناك ناس "آخرون امتنعوا عليه، وكذبوه ، وبدأ بذلك صراع بين أتباعه وأعدائه ، ولم يكن أتباعه مخلصين له ، وإنما كانوا يتخذون هذه الحركة وسيلة لتحقيق أطماع خاصة بهم كما فعل الرجل نفسه ، وكان ذلك سببا في فشل هذه المحاولة ، إذ لم تكن هناك عقيدة ذات بال يجتمع حولها الثائرون * *

٢ - الانتداء للخارج :

اتجه على بن عبد الله اتجاهها جديدا تبنى فيه فكر الخوارج الذي يقرر المساواة والديمقراطية بين المسلمين جميعا ، والمساواة والديمقراطية هدفان تتحالم لهما كل الطبقات الدنيا (١) ومن هنا رأى على بن محمد أن يصطنع هذا الاتجاه ليجذب جماهير الناس إلى دعوته *

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٣ وابن العميد : تاريخ المسلمين ص ١٦٢ .

بيد أن الخوارج كانت قد دالت دولتهم ، وأصبح معروفا أن الدماء الغزيرة التي أسالها الخوارج لم تأت بأية غائدة ، ولهذا لم يكن لهذا الإدعاء صدى ذو بال ، وفشلت هذه المحاولة كما فشلت المحاولة الأولى

٣ — علم الغيب والآلهية :

لم ييأس الرجل الذكي الطموح ، وأخذ يبحث عن طريق جديد ، وكان اضطراب الخلافة العباسية يزداد فيزداد الرجل طموحا ، فأتجه في محاولته الثالثة إلى إدعاء أنه ظهرت له آيات عرف بها ضمائر أصحابه ، وقد استغل وسائل متعددة ليعرف عن طريقها أخبار بعض أصحابه وميولهم ، ثم أخذ يفاجئهم بهذه الأخبار على أنها من قدراته الخاصة ، وأنها يوحى بها إليه ، ثم تمادى في ذلك فادعى النبوة ، بل زاد في تماديه فأعلن أنه يستطيع أن يفعل ما ليس في قدرة البشر (١) .

ويذكر ابن أبي الحديد من إدعاءاته أنه رغب مرة في أن يعلم بعض أمور كان يريد معرفتها فسرعان مارآها مكتوبة على حائط أمامه دون أن يرى الكاتب الذي كتبها (٢) .

ومن الواضح أن هذا الادعاء كان عميقا في مجال الضلال ، ومن أجل ذلك انكمش عنه العقلاء ممن كانوا معه ، ولم يبق مؤيدا له إلا الأوغاد الذين لا يفكرون ولا يتدبرون ، وفشلت هذه المحاولة الثالثة .

٤ — زنج البصرة :

مرة أخرى لم ييأس الرجل ، وأخذ يبحث عن فرصة جديدة يندفع بها إلى أطماعه ، ولعله انتفع بتجاربه السابقة ، فأراد هذه المرة أن يسلك طريقا أقرب إلى النجاح ، وكانت البحرين قد أدركت انهزامات الرجل

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٣ وابن العميد . تاريخ المسلمين ص ١٦٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣١ .

فلَمْ تعد مكانا صالحا لحركته ، فصعد إلى البصرة باحثا عن أمل جديد سنة ٢٥٤ هـ ، وفي البصرة وجد فتنة ناشبة بين بعض القبائل والبعض الآخر فأتجه إلى أن ينضم إلى أحد الفريقين أو أن يبنى له مجدا على أشلاء المتحاربين جميعا ، فبدأ يقوم بدعوة جديدة ، واتخذ من مسجد بالبصرة مركزا لهذه الدعوة ، ولكن عامل البصرة محمد بن رجاء كان صارما فأمر بالقبض عليه هو وأتباعه ، كما أمر بالقبض على بعض زعماء القبائل المتصارعة ليقضى على صراعهم ، ولكن على بن محمد استطاع أن ينجو بنفسه ، وسقط بعض أتباعه في يد رجال الوالى ، وألقى بهم في السجن مع من قبض عليهم من أفراد القبائل المتصارعة .

وبعد فترة عزّل محمد بن رجاء عن البصرة ، فقام رؤساء القبائل التى كانت متصارعة بفتح السجن وإطلاق من كانوا بداخلها ، فعاد أتباع على إليه ، وعاد هو إلى البصرة ليبدأ نشاطا جديدا .

والتقى على بن عبد الله آنذاك بالخياط الذى سيقوده إلى الهدف الذى يطمع فيه ، التقى بجماعات الزنج التى كانت تموج بالبصرة بهم ، وكان هؤلاء يشغلون بالبصرة أحقر الأعمال ، كما كانوا يعدون طبقة دنيا تعمل لدى السادة ، وتعطى كل قواها ولا تأخذ شيئا ذا بال ، ومن هنا كانوا يحسون بأنهم مظلومون فى هذا المجتمع ، وكانت فى قلوبهم شرة مشتملة ولكنها لا تصل إلى أفواههم ، ولا إلى أيديهم ، وكأنما كانوا ينتظرون إلى القائد الذى يقود جماعتهم ليخلصهم من الهوان ويقضى على ظالمهم ، ويأخذ لهم حقوقهم ، وكان على بن عبد الله فى الوقت نفسه قيادة كبرى تتطلع إلى الاتباع وتسعى للحصول عليهم بطريق أو بآخر ، وهكذا كانت لهؤلاء عنده حاجة وله عندهم حاجة ، وتصادف أن التقى على بن عبد الله بواحد من الزنوج مسموع الكلمة بينهم اسمه ريحان بن صالح ، وأدرك على بن محمد أن ريحان طالب مال وطالب جاه ، فأغدق عليه من المال وأصطفاه لنفسه ، ومن هنا أخلص ريحان لزعيمه كل الإخلاص ، وراح يجمع له وفود الزنوج ، وفى الوقت نفسه راح « على » يثبّع شغف

ريحان بالمال والجاه ويزيد في إكرامه واستغلاله ، ولما جاءت سنة ٢٥٥ هـ كان قد اكتمل حوله ١٢ ألفا من الزوج ، وفي يوم عيد الفطر من هذا العام صلى على بن عبد الله بأصحابه ثم خطب فيهم خطابا حافلا قال فيه : أيها الأحبة ، أن الآوان لتتحرروا من الفاقة والظلم ، وإن اجتماعكم سيضمن لكم خيرات الأرض ، وستصبحون سادة الأرض التي تعيشون فيها ، وسادة هؤلاء الجبابرة الذين يستغلونكم ويستعبدونكم ، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الإحسان إلا أتى به إليهم ^(١) وادعى أنه رسول العناية الإلهية لتخليصهم من الظلم الذي يعانون ومن الرق الذي يكبل رقابهم •

ولما سمع الزوج ذلك أقسموا له على الطاعة المطلقة ، وسار بهم يبطش ويهدم وينهب ويسلب ، وكان هؤلاء الغوغاء يزدادون به إيمانا كلما نالوا من الخيرات والنعم •

وقد حققت حركات الزنج انتصارات واسعة فاستولت على الآيلة واستسلمت لها عبادان ، ودخلت الأهواز وقتلت الكثير من أهلها ، ودمرت ما شاعت أن تدمر ، كما دخلت البصرة وخربتها وامتد نجاتهم إلى واسط ثم انحدروا إلى منطقة الخليج فاستولوا عليها ، وامتد نشاطهم إلى عمان ، وأقام على بن عبد الله قاعدة حربية هائلة أسماها « المختارة » وكانت المختارة مدينة عظيمة بنيت لتكون عاصمة عسكرية ، واختار لها موقعا تحميهِ القنوت والمستنقعات التي تحيط بها ، وزودت بأعظم الأجهزة الحربية ، وكانت المختارة من أسباب صعود الزنج وطول مقاومتهم ، وكان من أسباب ما حققه الزنج من نجاح إخلاصهم لقائدهم واختيارهم المستنقعات والأدغال مكانا لحربهم ، وكان للزنج خبرة بالحياة في هذه المناطق أكثر من سواهم ، وانضم بعض البدو إليهم لينالوا بعض ما يستولى عليه

الجيش الزنجي من الغنائم ، ومن ناحية أخرى كانت الخلافة تعاني صراعا في أمكنة مختلفة مما قلل الجهد الذي اتجه للزنج في مطلع حركتهم •

على أن حركات المقاومة جديرة ببعض الدراسة التي سنقوم بها فيما يلي :

حركات المقاومة

أشرنا فيما سبق إلى أن الطريق أمام علي بن عبد الله كان مليئا بالآشواك ، وفي الحق إن مقاومة عنيفة تصدت للرجل في جميع الخطوات التي خطاها ، وصارحته كل المراحل التي مر بها ، فلم يكذب يعلن محاولته الأولى في البحرين ويذكر أنه المهدي المنتظر حتى هب أكثر الناس في وجهه وأرغموه على الفرار إلى البادية •

وعندما تبنى فكر الخوارج وأراد أن يجذب له الطبقات الدنيا صارعه الناس ولم يستجيبوا له ، وأرغموه على التخلي عن هذا الاتجاه •

وفي محاولته الثالثة التي ادعى فيها أنه يوحى إليه وأنه يعرف الغيب لم ينل إلا سحق الناس وسخريتهم ، بل تخلى عنه بعض من كانوا قد خدعوا به وأيدوه •

وإذا جئنا إلى حركته التي حققت نوعا من النجاح بالبصرة نجد أن حركات المقاومة ضده بهذه المدينة كانت أيضا قوية وصارمة فقد هب أهل البصرة يقاومونه منذ دخل هذا الرجل مدينتهم ، وكان الوالي محمد ابن رجاء مبكرا في الوقوف في وجه هذا الرجل والقبض على بعض أتباعه وطرده الباقي •

وبعد محمد بن رجاء تجمع كثير من القبائل للوقوف بحزم أمام أطماع علي بن عبد الله ، وفي القمة من هؤلاء الهلالية والسعدية وكثير من الهاشميين والقرشيين ، فقد تجمع هؤلاء للقضاء على حركة علي بن

ولما قوى أمر صاحب الزنج ، وأحسن أهل البصرة بعجزهم عن القضاء عليه طلبوا عون الخلافة العباسية ، وتدخلت الخلافة العباسية للقضاء على حركة الزنج ، وأعدت الجيوش أثر الجيوش لخوض معامع قاسية ضد هذا التجمع الأسود ، وكان من قواد الخلافة العباسية ضد حركة الزنج جعلان التركي ، وسعيد الحاجب ، والمنصور بن جعفر المنيط ، وقد بذل هؤلاء جهودا كبيرة ، ولكنها لم توفق في القضاء على حركة الزنج ، وكان ذلك سببا في إحداث تغير واسع في الحياة السياسية بالعاصمة ، فإن الأتراك الذين كان في يدهم السلطان أحسوا بفشلهم في حراسة دولة الخلافة ، فاتفق رأيهم على أن يعاد السلطان للعباسيين ليتولوا بأنفسهم حماية الديار ، ونتيجة لذلك أصبح الموفق أخو الخليفة المعتمد قائدا عاما للجيوش العباسية ، وصاحب السلطة العامة في الناحية السياسية ، وتحمل الموفق بذلك كل التبعيات السياسية والعسكرية باسمه واسم أخيه ، ووجه جهودا كبيرة ضد الثائرين على السلطان العباسي ، وبوجه خاص ضد حركات الزنج . .

وقاد الموفق الجيش ضد علي بن عبد الله ، ودارت بين القوتين معارك شرسة ، ولم يكن الموفق بالرجل الذي تقهره جماعات الزنج على الرغم من كل الاعتبارات ، فصبر وصابر حتى بدأ النصر يأخذ جانبه ، وبدأت الهزائم تحل بخصمه ، ثم انكمش سلطان صاحب الزنج ، وتقهر حتى حصر في مدينة المختارة ، وأخذ يدافع عنها هو وجيشه بجسارة هائلة ولكن الموفق كان قد قرر ألا يخطو للخلف ، فبنى مدينة مقابلة للمختارة ليعلم بذلك عن إصراره على حصار دائم حول المختارة حتى تسقط ، وبدأت المختارة تفقد ذخائرها العسكرية والغذائية ، وعاد الزنج يعانون في المختارة الجوع الذي دفعهم للالتفاف حول علي بن عبد الله ، وكانت بطون هؤلاء الأوغاد تتحكم في عقولهم وفي حركاتهم ، فلما جاءت هذه البطون أخذت تتخلى عن الزعيم ، وفي معركة مريرة حول المختارة استطاعت

قوى الموفق أن تقتحم المدينة وأن تدمر جوانبها ، وأحس « على » بالنتيجة فولى هاربا ، وألقى بنفسه في أقرب نهر قابلكه ، ولكن جنود الخلافة التقطوه وقضوا عليه ، وحملوا رأسه إلى قائدهم وقضى الموفق على بعض أتباعه ، واستسلم له آخرون فعفا عنهم ، وكان ذلك سنة ٢٧٠ هـ ، وقد سقط في حركة الزنج عدد هائل من الفريقين يقدره ابن طباطبا (١) بمليون ونصف مليون ، وهو نفس العدد الذي يقدره السيوطي (٢) .

وقد خلفت حركة الزنج أضرارا هائلة ، وبخاصة في الناحية الاقتصادية بسبب ما دمرت من بلاد ، وما حرقت من مزارعات ، وما أكلت من ثمار ، وبسبب توقف النشاط التجاري الذي كان نتيجة لتدمير الطرق والفرع الذي شمل مختلف البقاع التي شملتها هذه الحركة .

ومن الناحية الاجتماعية عانى الناس كثيرا من المشقاء بسبب حركة الزوج ، وعرفوا الجوع ، وأكلوا الجيف مما سبب انتشار الأمراض والأوبئة ومما عاناه الناس من الناحية الاجتماعية تلك التصرفات الجائرة التي قام بها الزوج ضد الأحرار والحرائر ، ويوم يتحكم العبيد في الأحرار تكون الطامة الكبرى .

ومن الناحية السياسية كانت حركة الزنج من الأسباب التي مكنت لتفكك الدولة الإسلامية خلال العصر العباسي الثاني .

وكانت نهاية الزنج نهاية طبيعية إذ لم يكن هناك منهج ولا مبادئ لهذه الدعوة ، وكان الارتباط الذي يجمع بين أفرادها هو ارتباط المنفعة الذاتية والترف المادي ، ومن هنا انهارت هذه الحركة عندما تخلفت المنفعة الذاتية وقل الترف ، فانفض الجمع وانحل العقد ، إذ ضاع الخيط المضيل الذي كان يربط بين هذه الجموع .

(١) الفخرى ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤ .

وهكذا منى العالم الإسلامى بهذه النكبة التى استمرت خمسة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) وأكلت عشرات الألوف من الأنفس ، ودمرت صورا من الحضارة الإسلامية ، وبعثت الرعب فى النفوس والآفاق ، ولم يكن لها من هدف تسعى لتحقيقه ، ولا مأرب تعمل لنيله .

ومن الحق أن نقول إن ظلم كبار الملاك كان من أهم الدوافع التى أثارت عليهم الأرقاء والزنوج ، ولو أن هؤلاء المترفين أعطوا الزنوج حقوقهم التى فرضها عليهم الإسلام لكان من الممكن ألا تقع هذه المأساة التى دمرت الأغنياء والفقراء جميعا ، وأحرقت الأموال ، وقضت على الثروات .

وفى ختام هذه الدراسة نقرر أن حركات هذا الرجل بدأت فى هجر بالبحرين ثم انسابت على الخليج كله وكانت بذلك غير بعيدة عن الشاطئ الفارسى الذى كان يوحى بالكثير من الفتن .

القرامطة ودولتهم

التاريخ للقرامطة :

في مطلع حديثنا عن القرامطة نبرز نقطة مهمة نتصل بالتاريخ أهم ، فهناك بعض الباحثين الذين يتعاطفون مع القرامطة مثل الأستاذ مصطفى غالب الذى كتب عن القرامطة يقول : إن القرامطة فى سلوكهم وفى علاقاتهم بعضهم ببعض وعلاقاتهم مع غيرهم أقرب إلى النزهاء والنسك منهم إلى الإباحية والمخلاة والمجون وغيرها من الصفات التى تداع عنهم ^(١) .

وفى اعتقادى أن هذا القول ليس باطلا كله فسنرى فيما بعد ألوانا من النظم السياسية والعسكرية والاجتماعية التى اتبعتها القرامطة ، وكان فيها ما يستحق التقدير ، ولكن بجانب هذه الأشياء هناك مثالب قروية حقلت بها المصادر التاريخية وهى تبلغ الغاية فى الانحراف والتشذوذ .

هل يمكن أن يقال إن تاريخ القرامطة لم يدون بإنصاف ؟ لأن الذين دونوا تاريخهم كانوا يعيشون فى أرض الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية ؟ وكان العباسيون والفاطيون فى عداوة وصراع مع القرامطة ومن أجل هذا كانوا يذيعون عن القرامطة ألوانا من الانحرافات فسجلها هؤلاء المؤرخون دون أن يتعرفوا بطريق مباشر على القرامطة وأفكارهم ؟ ولو كان هناك مؤرخون عاشوا فى البحرين إبّان عهد القرامطة لنقلوا لنا حقيقة أمر هؤلاء .

وأليس عجيبا أن دولة ينسب لها كل هذا الباطل تعيش حوالى قرنين من الزمان ، وتحقق كل هذه الانتصارات ؟

وقد عاصر القرامطة عدة دول كالتولونيين والإخشيديين والحمدانيين

(١) الحركات الباطنية فى الاسلام ص ١٦٨ .

والصفاريين ، وكان القرامطة أطول عمرا وأثقل وزنا من كل هؤلاء ، وهل يمكن أن يتوفر ذلك لدولة ضربت في الضلال إلى هذا المدى البعيد الذى يذاع عنها ؟ *

ثم إنه كان للقرامطة وزير ممتاز هو « كشاجم » وكان ابنه أيضا جديرا بالتقدير ولهم تقاليد جديرة بالتقدير كذلك سنهاها فيما بعد .

هل يمكن أن يقال أن بعض الانحرافات التى تنسب للقرامطة كانت من باب التحدى ، وكانت مواجهة لتصرفات ضدهم ، وستظهر فى هذه الدراسة وجهة نظر القرامطة فى بعض ما ارتكبوه مما يؤخذ عليهم .

وينبغى كذلك أن نتذكر موقف المستشرقين من التاريخ الإسلامى ، فإن المستشرقين يهتمهم أن يصوروا كثيرا من الفرق الإسلامية فى أسوأ صورة ، ويرحبون بكل رواية تصف بعض الفرق أو بعض الأشخاص بما يشين ، فيلنطقون هذه الرواية ويبالغون فى عرضها وإذاعتها ليمثلوا تاريخنا بما يدعو للنفرة والاشمئزاز .

وعلى كل حال فنحن شديدا الرغبة فى إنصاف التاريخ لو وجدنا وسيلة لذلك ، ولكن كل ما أمامنا من المؤرخين الثقات يدين القرامطة ويكسمهم بأبشع الصفات ، وقد عاصرهم الطبرى (٣١٠ هـ) وكتب عنهم ، وسنقتبس الكثير منه فيما بعد مما يدينهم ، وعاصرهم ثابت بن سفيان (٣٦٥ هـ) وكتب عنهم الكثير مما اقتبسناه منه ، وعاصرهم وعانى شذوذهم أديب ذائع الصيت هو أبو العلاء المعرى (٤٥٠ هـ) وكتب عنهم يقول : « قيل عن أبى طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنايى : لو عوقب بلد بمن يسكنه لجاز أن تؤخذ به جنابه ، ولا يقبل لها إنابة ، ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى ، فلا تترر وزارة وزر أخرى » (١) .

وقد زارهم الرحالة الفارسى ناصرو خسرو وهو يقدم لنا وصفا

(١) رسالة الغفران ص ٣٨٤ و « جنابة » هى بلدة أبى سعيد الجنايى وستحدث عنها ص ٥٦١ .

بمشاهداته يدل على ما عانته هذه البلاد تحت حكم القرامطة ، يقول
ناصر وخسرو : « دخلت الأحساء سنة ٣٤٢ هـ وكانت محاطة بأربعة
أسوار بين كل سورين فرسخ ، وفيها ينابيع المياه العظيمة ، ويوجد بها كل
ما يوجد في البلاد المتقدمة ، ولكن ليس فيها مسجد تقام فيه الصلاة ،
وتباع في الأحساء لحوم جميع الحيوانات حتى الحمير والكلاب ، ومن
عوائدهم القبيحة المشهورة ليلة « المشوش » وهي ليلة عيد يجتمع فيها
الرجال والنساء فيعبثون ويلعبون ويشربون الخمر ، وتدور رعوسهم
فيفعلون القبيح (١) .

ذلك مطلع حديثنا عن القرامطة نثير فيه مختلف الاحتمالات ، ولكننا
عندما نجىء لدراسة تاريخهم نجدنا ملتزمين باحترام التراث الذى
سطّره عنهم شيوخ الباحثين والمؤرخين ، والذى يوحى بانحراف القرامطة
عن الإسلام والبعد عن صراطه المستقيم ، فذلك هو الطريق الذى لا طريق
لنا سواه .

(١) ناصر وخسرو : سفر نامه ترجمة الدكتور يحيى الخشاب
ص ١٣٠ .

الباطنية

مذهب نتحتم دراسته للتعرف على القرامطة

ما الباطنية ؟

تحدثنا عن الباطنية في الجزء الثاني من هذه الموسوعة (١) ، ووضحنا أن الباطنية تعنى أن كثيرا من آيات القرآن ، وكثيرا من المفرائض الإسلامية لها معنى ظاهر ومعنى باطن ، فمعنى الصيام في الظاهر الإمساك عن الطعام وعن المعاشرة من الفجر حتى غروب الشمس ولكن معناه في الباطن كتمان أسرار الأئمة ، ومعنى الحج في الباطن زيارة الشيوخ وهكذا (٢) ، والباطنية يظهرهم أمام العامة بالمظهر الإسلامي ، ولكنهم يستعملون الفكر الباطني أمام خاصتهم ، وعلى هذا فهم قوم يظهرهم الإسلام ولكن عقائدهم واتجاهاتهم الفكرية تخالف الإسلام في كل أسسه ، فهم لا يعترفون بالخالق ، وهم يبطلون النبوة ، وينكرون العبادات والبعث ، ولكنهم لا يظهرهم هذه الاتجاهات في أول أمرهم (٣) .

ومذهب الباطنية ينحدر من الفكر الفارسي ، وهو حيلة ابتكرها الجونس لينالوا من الإسلام دون مواجهة صريحة للمسلمين ، فقد كانوا يكرهون الإسلام ، ولكنهم لا يستطيعون إعلان كراهيتهم فلجأوا إلى تأويل آيات القرآن ، وسنن الرسول بما يفسد الإسلام ، ويرضى هواهم (٤) .

وكان الباطنية يقدمون أفكارهم بحذر ، وكانوا يخطون خطواتهم بالتدريج ، فهم أولا يختارون ضحاياهم من العوام والجهلة والمتشككين ، وهم ثانيا يبدؤون بإثارة شكوك حول الإسلام ، كأن يتساءلوا : لماذا

(١) ص ١٨٤ وما بعدها .

(٢) انظر أربع رسائل اسماعيلية لعارفا تامز ص ٩٢ - ٩٧ .

(٣) ابن الجوزي : تلبس إبليس ص ١٠٢ .

(٤) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٨٥ .

اختلفت ركعات الصلوات ؟ ولماذا يقبل الناس الحجر الأسود مع أن الإسلام أبطل الأوثان ؟ وما معنى الغسل ؟ ولماذا يجب الغسل من نزول المنى وهو طاهر دون البول وهو نجس ؟ ... وهم ثالثا لا يسلكون بالجميع مسلكا واحدا ، ويحثّون على الداعى عدم إفشاء أسرارهم إلا للخواص المستجيبين لدعوتهم ، وينقل الإمام الغزالي نصيحة زعماء الباطنية لدعاتهم الا يسلكوا بالجميع مسلكا واحدا ، وأن يخاطب الدعاة الناس على قدر عقولهم واستجابتهم (١) .

وينبغي أن يتضح أنه مع الجهد الكبير الذى قام به الباطنية لم يستجب لهم إلا قلة دفعتهم دوافع العصبية أو الشعوبية أو الجهل إلى الانحراف بالإسلام إلى هذا الاتجاه .

والباطنية أساس حركتين كبيرتين إحداهما قامت على شاطئ الخليج العربى ، والأخرى قامت فى الشمال الإفريقى ، وكان القرامطة ثمرة الأولى ، وكان الفاطميون ثمرة الثانية ، ومن هنا سارت الحركتان على نمط واحد تقريبا ، وحملتتا فكرا يكاد يكون متفقا ، ويقول الشيخ محمد أبو زهرة : إن الإسماعيلية والقرامطة من الشيعة الغلاة الذين خالط مذهبهم بعض آراء من عقائد الفرس القديمة ، ومن الأفكار الهندية فأنحرفوا تحت تأثير ذلك (٢) .

وجاء فى كتاب « كلش خلفا » أن هذه الطائفة ظلت تخرج فى كل زمان ومكان بأسماء مختلفة ، فكانت فى مصر وحلب وأطرافهما تسمى الإسماعيلية ، وفى فارس وطبرستان السبعية ، وفى بغداد وما وراء النهر القرامطة ، وفى الأحساء والبحرين القرامطة أو الجنابية ، وفى أصفهان الباطنية (٣) .

(١) فضائح الباطنية : ص ١٢٧ .

(٢) تاريخ المذاهب الاسلامية ج ١ ص ٦٤ .

(٣) نقل الشيخ ذلك عن كتاب كلشن خلفا تأليف نظمى مرتضى

تعريب موسى كاظم ص ٧٤ .

ولكن ينبغي أن يتضح أن هناك فرقا كبيرا سرعان ما انبثق واتسع بين أفكار الباطنية هنا وهناك ، وقد نتج هذا الفرق عن سببين كبيرين هما :

الأول : نوع الدعاة الذين حملوا الفكر الباطنى بمنطقة الخليج كانوا غالبا ينحدرون من أصل فارسى ، وعلى هذا كانوا شديدى التمسك به والاخلاص له ، وقد وصل بهم الحال إلى اعتباره الفكر الصحيح ، ونسوا أنه كان فى الأصل وسيلة مزيفة للعدوان على الإسلام ، أما الدعاة الذين حملوا الفكر الباطنى بالشمال الإفريقى فلم يكونوا ينحدرون من أصل فارسى ، وبالتالي لم يكونوا أعداء للإسلام وكانوا طلاب سلطة فحسب ، ودعاة من الشيعة الذين يرون أن أبناء على أحق بالخلافة من العباسيين *

الثانى : مركز الدعوة : فالدعوة الباطنية التى قامت بمنطقة الخليج نشأت وترعرت فى منطقة حفل تاريخها بانحرافات متتالية إذ ظهرت بها الردة وحركات التنبؤ والخوارج الغلاة ، وغيرها من الحركات المعادية للإسلام ، ولم يكن ذلك مصادفة بل إن المنطقة كانت مهية لهذه الحركات للأسباب التى سبق أن شرحناها حول هذه المنطقة ، أما الدعوة الباطنية التى قامت بالشمال الإفريقى والتى سرعان ما انحدرت إلى مصر ، فقد قابلت بهذه المناطق وبخاصة بمصر شعوبا لها تاريخ حضارى عميق ، ولها بالإسلام إيمان ثابت ، وكانت مدرسة الدراسات الإسلامية بمصر مزدهرة منذ عهد الولاة ، وقد اشترط ممثلوا الشعب المصرى على جوهر الصقلى قائد الجيوش الفاطمية الزاحفة من الشمال الإفريقى ألا يتدخل فى عقائد المصريين الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ويتمسكون به (١) *

وقد رأى الفاطميون أن من الأسلم لهم أن يستبعدوا المبالغات

والاذكر ابحاث بقدر الامكان لتثبيت دولتهم ، وقد شرحنا ذلك وأعطينا له نماذج في كتابنا « تاريخ التربية الإسلامية » .

ونعتقد أن الخلاف بين فرقتي الباطنية أو قل بين القرامطة والفاطميين كان من الأسباب التي أدت في النهاية إلى المواجهة العسكرية بين الطائفتين اللتين تتحدران من أصل واحد .

وبعد هذه الدراسة عن الباطنية نتجه للقرامطة وهم الفرع الذي اعتنق الفكر الباطني ، وسار فيه إلى أبعد الشوط ووقف من المسلمين موقفاً شديد القسوة والبعد .

تسمية القرامطة :

عندما ندرس تاريخ القرامطة نقابلنا قضية التسمية ، ونبحث فيها فتواجهنا آراء متعددة سنسردها فيما بعد ، ولكن تعدد الآراء يوحي للمباحث بأن في القضية غموضاً والتواء ، وهو شأن مثل هذه المذاهب التي تنشأ في الظلام ، وتلتوي أفكارها ، ولا تجتمع على شيء إلا على مناهضة الإسلام وعقيدته ومبادئه ، ولنسر مع الباحثين على كل حال لفرى ما يقولون حول هذه التسمية :

١- ترجع التسمية إلى رجل بإحدى القرى بسواد الكوفة اسمه جمدان بن الأثبعث ويلقب « كرميثة » لحمزة عينيه ، وكرميثة بالنبطية أحمر العينين ، وقد التقى هذا الرجل برجل من الباطنية وأفد من الأهواز لبيبه حسين الأهوازي ، وكان هذا يتظاهر بالورع والزهد والتقشف وبكثرة الصلاة ، ويدعو لإمام من أهل البيت ، وكان هذا الرجل مريضاً فحملته « كرميته » إلى منزله وعنى به ، وبدأ المذهب ينتشر من هذا البيت كما سنرى فيما بعد — ونسب المذهب إلى كرميته باعتباراه الذي أوى الداعية ، وحث الناس على اتباع مذهبه ، أو نسب الداعية إلى كرميته

لأنه يعيش في حماه وينطلق بدعوته من بيته وعن طريق الجموع الذين جمعهم كرميته للالتقاء بالداعية (١) .

٢ — ينسب القرامطة إلى حمدان بن الأمشعث نفسه ، وهو رجل كان يعيش بسواد الكوفة ولقب قرمطاً لأنه كان قصيراً ، وكانت رجلاه قصيرتين ، وكان خطوه بذلك متقارباً ، فسمت بالقرمطي لذلك ، وكان هذا الرجل قد أظهر الورع وأضمر المكيدة والخبث (٢) .

٣ — ذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة نسبة إلى مذهب يقال له القرامطة ، وهو مذهب خارج عن مذاهب الإسلام ، وهو بهذا نسبة إلى مذهب باطل وليس منسوبا إلى رجل (٣) .

٤ — يرى الدكتور فيليب حتى أن لفظ « قرمط » معناها المعلم السري (٤) وكانت دعوة القرامطة حافلة بالأسرار .

تلك خلاصة ما ذكرته أدق المراجع عن التسمية وأبرزها يدور حول داعية شيعي فارسي التقى بحمدان (قرمط) وكان هذا يظهر النسبة وينضمر المكيدة والخبث ، وقد نفت كل من الرجلين في صاحبه ألوان الشر ، فكل منهما سيء العقيدة ذكي ، يعرف الطريق لنشر الفكر المنحرف ، والبيئة حولهما كانت مستعدة للاستجابة لهذا الانحراف .

من الأهوازي إلى حمدان :

والتقى الأهوازي بحمدان كما سبق القول ، وسأل الأهوازي حمدان عن الطريق إلى بلدة يقال لها « قس بهرام » فقال له حمدان : أنا قاصدها .

(١) انظر تاريخ أخبار القرامطة لثابت بن سنان ص ٨ و ٩ .
(٢) ابن النديم : القرمطي صاحب الخال من كتاب « تاريخ أخبار القرامطة » ص ٧١ والمقریزی : الحسن الأعصم من الكتاب السابق ص ١٠٩ .

(٤) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٩ بالهامش .

فسارا معا ، وأدرك الأهوازي من حديثه مع حمدان أن هذا يمكن استغلاله ، وأن به صفات من الخبث وضحالة العقيدة ترشحه لمزيد من التعاون ، وبعد شوط من الطريق عرض حمدان على الأهوازي أن يركب وراءه شوطا من الطريق ، فرغض الأهوازي قائلا : لم أؤمر بذلك • فعجب حمدان من هذه الإجابة وسأل الأهوازي : كأنك تعمل تبعا لأوامر تقدم لك ؟ فقال الأهوازي : نعم • فسأل حمدان : ومن الذى يأمرك ؟ فأجاب الأهوازي : مالكى ومالكك ومن له الدنيا والآخرة • فبهت حمدان وقال : يا هذا ما يملك ما ذكرت إلا الله فقال الأهوازي : نعم ، والله يهب ملكه لمن يشاء •

وأدرك حمدان أن هذا الرجل ليس عاديا فسأله : ما تريد من القرية التى سألتنى عنها ؟ وأدرك الأهوازي أن الزمام أصبح بيده ، وأنه يمكن أن يبدأ الشوط الثانى من التأثير بعد أن نجح فى الشوط الأول فقال لحمدان : دافع إلى جراب فيه علم وسرر^(١) أثمرت أن أغنى به هذه البلدة وأملكهم أعظم الثروات وإن أخرج أهلها من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى السعادة^(٢) • وثفتحت آمال حمدان أن يكون ضمن من يناله الغنى والثراء ، فتضرع إلى الأهوازي أن يضمه إليه ، وأن ينقذه مما به من بؤس وفاقاة ، فقال الأهوازي : لا يجوز ذلك حتى آخذ عليك العهد والمواثيق ، فوافق حمدان وأقسم على السمع والطاعة فى السر والعلانية ، وطلب حمدان من الأهوازي أن ينزل بيته ، فقبل لأنه أصبح مريدا مخلصا لدعوته ، وفى بيت حمدان توافد إخوانه حيث أعطوا العهد والمواثيق للأهوازي وبدأت دعوته فى الانتشار ، وعندما حضرته الوفاة أوصى بعده لحمدان وقضى نحبه ، وكان حمدان أوفى خلف لهذه الدعوة الضالة^(٣) •

(١) الامام الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٤ .
(٢) الماقرىزى : الحسن الاعصم من كتاب « أخبار القرامطة »

مصادفة خطيرة :

أصبح منزل حمدان مركزا خطيرا للدعوة الجديدة ، وقد اتبع حمدان سيرة سلفه فحث الناس على العبادة المتصلة والصدقة بكل أموالهم استعدادا للملك الأرض الذى سينساب لهم ، وقد تسبب عن تفرغ عدد كبير من الناس للعبادة أن قتل العاملون في ضياع « الهيصم » فسأل عن سبب ذلك فأخبر بخبر حمدان ومريديه ، فألقى الهيصم القبض على حمدان وسأل عن مذهبه فأدرك انحرافه وضرره بالمجتمع ، فحكم عليه بالاعدام ، وحدد لتنفيذ ذلك صباح اليوم التالى ، فأودع حمدان في حجرة أحكم الهيصم قفلها ووضع المفتاح تحت وسادته ، واشتغل بالشراب ، وكان في بيت الهيصم جارية تتبع المذهب الشيعى فرقت لحال حمدان ، وانتظرت حتى نام سيدها ، فأخذت المفتاح وأخرجت حمدان وأعادت قفل الباب ووضعت المفتاح حيث كان .

وفي الصباح فتح الهيصم ليقفل حمدان فلم يجده ، فشاع ذلك في الناس ، وقال بعضهم : إنه (رُفِعَ) وظهر حمدان في ناحية أخرى ، وقال إن الإغلاق لا يمنع ، فأصبح ذلك كرامة لدى الجماهير ، والتف حوله عدد أكبر من الأتباع ^(١) ولكن قرمط عنى باختيار مريديه فلم يكن يقبل في جماعته أحدا إلا بعد اختبارات طويلة ومراسم خاصة تؤكد لسه قبولهم التام لتعاليم المذهب ، وتفانيهم في سبيل قيادته دون تردد أو تفكير .

وادعى قرمط أنه الإمام ، واختار من مريديه اثنى عشر نقيبا أمرهم أن يحملوا الدعوة إلى الناس ، وبقي هو أسطورة يختفى فيحدث عنه أتباعه ، ويظهر فيركعون له ، وهو في الحالين يأمر فيأثمرون بأمره .

وعن طريق ادعاء الشيخ نشر القرامطة ضلالاتهم واستقطبوا

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ١٤٨ . حسين النجفى : تاريخ الكوفة ص ٣٧٣ .

جماعات من الشيعة والمنحرفين وذوى الأطماع ، وقد ساعدتهم ذلك على أن يخطوا خطوة جديدة هى التحول إلى نشاط سياسى عسكرى كما سنرى فيما بعد •

عقائد القرامطة :

قلنا من قبل إن القرامطة ينحدرون من الباطنية ، واقتبسنا من الإمام الغزالى ومن غيره صورا من الفكر الباطنى ، ونريد هنا أن نقول إن القرامطة بحكم انتمائهم للفرس ، وبحكم البيئة التى نشروا بها مبادئهم وهى بيئة الخليج ، طوروا أفكار الباطنية وأضافوا الكثير إلى ضلالاتهم ، إذ كانت الاستجابة لهم مشجعة على المزيد من التطرف ، ومن أجل هذا نورد هنا تصويرا لعقائد القرامطة :

كان القرامطة بحكم انتمائهم للمذهب الباطنى يرون إن للقرآن والسنة معنى ظاهرا ومعنى باطنا ، وقد راح القرامطة يتوسعون فى هذا المعنى الباطن ، ويضيفون له الكثير مما يفسد الإسلام والمسلمين ، وبهذا قالوا بطل الخير ، وبأنه لا غسل من الجنابة ، وبأن الصلاة فى اليوم أربع ركعات ، ركعتان قبل الشروق وركعتان بعد الغروب ، وأن الصوم يكون يومين فى السنة : يوم المهرجان ويوم النيروز ، ثم حظ زعيم القرامطة عن مريديه الصوم والصلاة وجميع الفرائض وقال لهم : هذا كله موضوع عنكم ، ومعرفة الإمام تغنيكم عن كل شئ •

وكان القرامطة يرون أن دم مخالفيهم حلال ، وأن أموال مخالفيهم حلال كذلك (١) •

وكان القرامطة على دين المجوس ، ويستدل البغدادى على ذلك

(١) أبو الحسن الملقب : التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ص ٢٨ •

بقوله : مما يؤكد ميل الباطنية إلى دين المجوس. أنا لا نجد على ظهر الأرض مجوسيا إلا وهو شديد الود لهم (١) .

وقال القرامطة بالشيوعية في الفسء والأموال ، وكان مما استند إليه زعيم القرامطة في شيوعية الأموال قوله لرفاقه : ما حاجتكم إلى الأموال الآن ، وستنهال عليكم الثروات وتكون لكم كل الأرض بما عليها من نعيم ، وقال لهم : هذه محتكم التي امتحتكم بها ليظهر مدى استجابتكم ، فاستجابوا له وجمعوا الأموال في موضع واحد من كل قرية ، وأقام في كل قرية رجلا من الثقات يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومقاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يفيهم ويسد حاجتهم حتى لم يبق فيهم فقير ولا محتاج (٢) .

من حركة دينية إلى مذهب سياسي :

ذكرنا فيما سبق أن حركة القرامطة بدأت في ثوب الدين بشكل مباحى بدأت بانسم الإمام واسم المهدي ، ويقول الدكتور برنارد لويس « إن قرمط له صلة نسب بالإسماعيلية (٣) أو أنه في الحق كان ينسب نفسه آل البيت فيدعى أنه من نسل الإمام جعفر الصادق ، يقول ابن العديم عن القرمطى صاحب الخال إنه ادعى أن اسمه أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (٤) وعن طريق التشيع جمع القرامطة حولهم كثيرين من الشيعة ، وكثيراً ممن كانوا يتدسون في الشيعة لإحداث اضطرابات في الدولة الإسلامية ممن أسميناهم « مدعى التشيع » (٥)

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢٨٦ .

(٢) المقريزي : الحسن الأعصم من كتاب تاريخ القرامطة ص ٩٩ وابن الجوزي تلبس إبليس ص ١١٠ وابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٧٠٥ .

(٣) The Origin of Ismailism p. 122.

(٤) تاريخ أخبار القرامطة ص ٦٩ .

(٥) انظر الحديث عن مدعى التشيع في الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف .

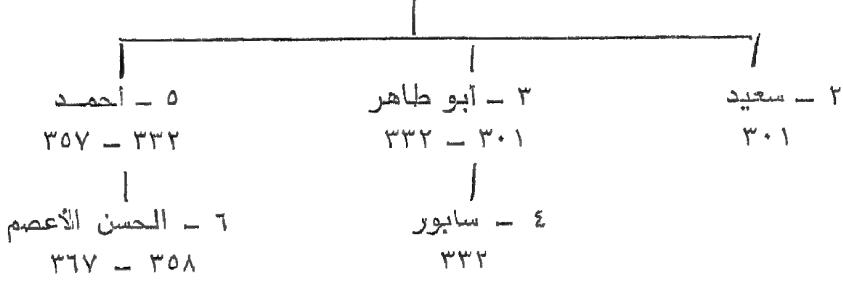
وعندما كثر عدد القرامطة ، وقوى جانبهم وتخلصوا من المتنافسات حول الأموال وتوقعوا خيرات الأرض تنهال عليهم بدأوا ينتجعون اتجاهها سياسيا يحققون به هذه الأحلام ، ويضربون الأمة الإسلامية التي كان الكثير منهم يطمع في تحطيمها ، ويبدو أن قوة القرامطة بلغت شأوها قبيل نهاية صاحب الزنج ، إذ يروى أن زعيم القرامطة قابل يوما صاحب الزنج ، وقال له : إني على مذهب ورأى ، ومعى مائة ألف ضارب سيف ، فتناظرنى فإن اتفقنا على المذهب ملت لك ، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك ، فتناظرا فاختلفت آراؤهما فانصرف القرمطى عنه ^(١) ولكن يبدو أن زعيم القرامطة أدرك أن حركة الزنج كانت تميل للمغيب فلم يشأ أن يربط نفسه بها ولا شك أن هذا اللقاء يوحى بالروابط بين الحركتين الفاسدتين .

ومن معالم الوصول إلى الهدف السياسى وإقامة دولة أن اهتم القرامطة بالسلاح ، وسمح زعيم القرامطة الأتباعه — بعد أن تخلصوا من كل ممتلكاتهم — أن يمتلكوا ما يشاءون من السلاح ، ثم اتفقوا على بناء دار هجرة فأقاموا سورا في إحدى القرى بسواد الكوفة ، وجعلوا عرضه ثمانية أدرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وبنوا داخل السور المباني الكثيرة ، وتحول الرجال والنساء إلى دار الهجرة سنة ٢٧٧ هـ كل ذلك والخليفة في بغداد مشغول بصاحب الزنج وكثرة الفتن ، وقد تسبب عن نمو قوة القرامطة أن الذين لم يتبعوا مذهبهم من الناس خافوهم وانضموا إليهم ، فلم تكن هناك قوة تحمى الناس منهم ، إذ أحل زعيم القرامطة دم المخالفين — كما ذكرنا من قبل — ولم يبق لأهل القرامطة بذلك إلا أن يظهر القائد الذى يقود هذه الجحافل ليكون منهم دولة قوية ، وكان أبو سعيد الجنابى هو القائد القوى المتحمس الذى قدر له أن يقود هذه الجماعة ، وأن يؤسس دولة وراثية بمنطقة البحرين هي دولة القرامطة ، ورؤساء هذه الدولة كانوا ينعنون « السادة » وشجرة نسبهم كالآتى :

(١) كتاب أخبار القرامطة ص ١٢ .

١ - أبو سعيد الجنبابى

حوالى سنة ٢٨٦ - ٣٠١ هـ



ويلاحظ أن دولة القرامطة بدأت قبل الجنبابى بأكثر من عشر سنوات واستمرت بعد الحسن الأعصم حتى سنة ٤٦٩ هـ أى أن عهدها كان حوالى قرنين .

وبعد الحسن الأعصم انتقلت السلطة إلى رجلين من القرامطة اسمهما جعفر وإسحق الهجريان ، أو إلى جماعة كما يقول زامباور ^(١) ، وسنفتكم عن هؤلاء الحكام واحدا بعد الآخر .

أبو سعيد الجنبابى

من حمدان إلى أبى سعيد :

قلنا من قبل ان حركة القرامطة بالبحرين ارتبطت في مطلعها برجل فارسى من الباطنية اسمه حسين الأهوازى ، وأن هذا التقى بحمدان بمنطقة الكوفة التى كانت حافلة بالسخط والثورة والتشيع والانحراف ، فألقى إليه فكره واتجاهاته ، ووجدت هذه في طبيعة حمدان أرضا خصبة فنمت وترعرعت ، وأصبحت داره — كما قلنا من قبل — مركزا يموج بالدعوة وبالمريدين ، وخطا حمدان خطوة أخرى لنشر الدعوة فاختار الدعاة والنقباء من بين أتباعه .

(١) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى ج ١

وكان من بين الدعاة رجل داهية طموح شديد الانحراف عن الإسلام هو أبو سعيد الجنابي ، وهو ينسب إلى بلدة « جنابة » وهي بلدة صغيرة على سواحل فارس بينها وبين سيراف أربعة وعشرون فرسخا (١) ويروى ثابت بن سنان أن هذا الزعيم قدم من خوزستان (٢) ولا خلاف بين الروایتين فالأولى تنسبه إلى القرية التي نشأ بها والثانية تنسبه إلى الإقليم ، وقد أحسن هذا استقبال دعوة حمدان وأصبح من أشد المحمسين لها ، ولكن أبرز شيء ينسبه إليه هو حسن اختيار المكان الذي ينشر فيه دعوته فقد اتجه دعاة حمدان ونقبائوه هنا وهناك فخفت أصواتهم ، وقتلتها المقاومة التي كان يقوم بها المسلمون صادقوا الإسلام وحماته ، أما أبو سعيد فاختار منطقة البحرين على مقربة من بلاد فارس حيث الأرض الخصبة للدعوات الشاذة ، وانحدر أبو سعيد إلى القطيف لينرس هذه الدعوة التي وجدت لها أخصب البقاع .

وهكذا نجدنا أمام تحوّل هائل للدعوة القرمطية ، تحوّل وضع حدا للكوفة وبقاعها لتبرز بديلا عنها منطقة البحرين ، وتحوّل عن حمدان ودعائه إلى أبي سعيد الجنابي الذي أصبح محور الدعوة وأساس نجاحها .

أبو سعيد في القطيف :

نزل أبو سعيد القطيف حوالي سنة ٢٨٦ هـ وكانت القطيف آنذاك — كما يقول المقرئ (٣) — مدينة عظيمة واسعة ، وكان رجالها أشداء جهالا ، وفي القطيف جلس أبو سعيد يبيع الدقيق ، واصطنع حسن المعاملة مع الناس ، ليختار منهم من يقدم له دعوته ، واستطاع أن يعثر

(١) المقرئ : الحسن الأعصم ص ٩٥ من كتاب (تاريخ أخبار القرامطة) وياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٤٢ .

(٢) تاريخ أخبار القرامطة ص ٧ .

(٣) اتعاط الحنفا : ص ٢١٢ .

بسهولة على طلبته ، وكان أول من استجاب له بنو سنبر (١) ويوما بعد يوم ذاعت دعوة أبي سعيد بين الناس ، ووجدت قبولا عند الكثيرين ، فتفرغ لها أبو سعيد ، وترك التجارة ، وأخذ ينفق على الدعوة مما كان عنده من مال ، ومما قدمه له الاطامعون من أتباعه •

وتقدم أبو سعيد خطوة أخرى فأتجه إلى الأعراب والنبطيين الذين يعيشون حول منطقة البحرين ومناهم بالغنى والجاه ، وكان الغنى والجاه أهم ما يسعى إليه هؤلاء الناس ، فاستجابوا بحماسة للدعوة الجديدة في انتظار أن يحققوا بذلك أحلامهم ، وقدم لهم أبو سعيد هدية اتفقت مع ميولهم هي إعفاؤهم من التكاليف الدينية ، وكان ذلك تبعا للفكر الذي يقرر أن معرفة الإمام تغنى عن التكاليف الدينية الأخرى •

وكان في هذه المنطقة بقايا من الزنج الذين فشلت حركتهم فمادوا إلى العناء وشظف العيش ، وقد وجد هؤلاء في دعوة أبي سعيد تجديدا لآمالهم وبخاصة أنه لم يكن لهؤلاء مبادئ ، وكان المال كل هدفهم ، وكان أبو سعيد يمنى أتباعه بالجاه والمال — كما سبق — فانحاز إليه هؤلاء وأخلصوا لدعوته (٢) •

وأصبح لأبي سعيد بذلك أتباع كثيرون يرون في انتصاره نصرا لهم ، فاستطاع أبو سعيد أن يستولى بهم على القطيف وعلى ما جاورها من مدن وقرى ، وترك لأتباعه أن يسلبوا من الأموال ما شاءت لهم نفوسهم ، وكان ذلك أعظم تشجيع يقدمه أبو سعيد لأتباعه فزاد هؤلاء له إخلاصا ولبائده تأييدا •

وأخذ أبو سعيد يضرب هنا وهناك ، وكان النصر حليفه في أكثر

(١) المقرئى : الحسن الاعصم من كتاب تاريخ أخبار القرامطة ص ١٠٣ •
(٢) انظر دول الاسلام الذهبى (عهد المعتمد العباسى) •

المعارك التي خاضها وقد استطاع بذلك أن يوسع دائرة نفوذه حتى شملت منطقة البحرين ، وامتدت امتدادا فسيحا على الخليج العربي وضمت بعض مناطق البدو المجاورة لمنطقة الخليج ♦

وقد اتجه أبو سعيد إلى مهاجمة مناطق متعددة في العراق والشام وعمان والحجاز ومصر ، وربما لم يكن يطمع في الاستيلاء على كل هذه المناطق ، ولكن كان على الأقل يرمى إلى السلب والنهب لإشباع مطامع أتباعه ، كما كان يرمى إلى تهديد الخلافة العباسية ، وكان بعض أتباعه من أمثال زكرويه اللعين يعشقون إراقة الدماء اذاتها تنكيلا بالمسلمين ، وسعيا وراء إيقاف ما يستطيع إيقافه من مبادئ الإسلام كتعطيل الحج بانتهاك حرمة البيت الحرام ، والعدوان على الحجاج ، وتعطيل الصلاة بتدمير المساجد ♦

ويصف المؤرخون الفظائع التي ارتكبتها زكرويه مع الحجاج رجالا ونساء وأطفالا ، فيذكرون أنه كان يسد الآبار بجيف القتلى حتى يموت الحجاج عطشا ، وكان بعد المعارك يأمر نساء القرامطة أن يدرن بالماء بين الجرحى ليتعرفن بذلك على الجرحى الذين لم يموتوا بعد ليقتلهم (١) ♦

أما تنكيك القرامطة بالمسلمين في البلاد التي دخلوها فيرويهما ثابت ابن سنان بقوله إن القرامطة دخلوا حماة ومعرة النعمان وغيرها فقتلوا أهلها ، وقتلوا النساء والأطفال ، ودخلوا بعلبك فقتلوا أهلها ولم يبقوا منهم إلا القليل ، وصالح أهل سلمية زعيم القرامطة بعد أن أمنهم فلما دخلها قتل جميع من فيها من بنى هاشم ولم يبق منهم أحدا ، وقتل النساء والصبيان والفقهاء والشيوخ والبهائم وخرج القرامطة منها وليس

بها عين تطرف ، ودخلوا في القرى المجاورة يسلبون ويقتلون وينهبون
ويأتون من المنكرات مالا عين رأت ولا أذن سمعت (١) .

وقد حاولت الخلافة العباسية إيقاف هذا الباطل بقدر طاقتها فخرجت
جيوشها لمواجهة اللعين زكرويه بعد الذي قام به ضد الحبيج ونشبت
معركة هائلة في ربيع الأول سنة ٢٩٤ هـ بين الفريقين وقد انتصر جند
الخلافة انتصارا باهرا في هذه المعركة ، وسقط من القرامطة عدد لا
يحصى ، وضرب زكروية ضربة سقط منها يتلوى وحمل هو وآله أسرى ،
ومات بعد خمسة أيام (٢) .

وإذا كانت الخلافة العباسية حققت نصرا في هذه الموقعة فإن
القرامطة طالما حققوا انتصارات ضد الأمنين وضد الجيوش العباسية
على السواء .

وقد استطاع أبو سعيد بالدعاية تارة وبالحراب تارة أخرى أن يكون
دولة فسيحة في منطقة البحرين ، وفيما جاورها من مناطق الأعراب حكمها
هو وأولاده من بعده حوالي قرنين من الزمان .

نهاية أبي سعيد :

وفي سنة ٣٠١ هـ قتل الجنابي وكان قاتله خادما صقليا كان ضمن
الأسرى الذين حصل عليهم القرامطة في صراعهم ضد جيوش الخلافة
العباسية في البصرة ، وكان هذا الخادم يبدو عليه النشاط والذكاء ،
فأصطنعه أبو سعيد ، وجعله من المقربين إليه ، وبمرور الزمن تحقق
الخادم مما كان يشاع عن القرامطة من الانحراف الديني ، إذ لم
يشاهد سيده قائما للصلاة أو صائما في رمضان ، ومن هنا أسره الخادم

(١) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

في نفسه أمرا ، فانتهاز فرصة دخول سيده الحمام ، وكان هو حارس باب الحمام لسيدة فاندفع الخادم نحو سيده ومعه خنجر حاد وقضى عليه ، ثم خرج الخادم وهمس في أذن قائد من خاصة أبي سعيد كأنما يطلبه لمقابلة الحاكم ، ولما خلا الخادم بهذا القائد قتله أيضا ، وفعل ذلك بأربعة آخرين من رؤساء القرامطة ، ولم يفتن للخطر إلا الخامس فقبض على الخادم وقتله (١) .

سعيد بن أبي سعيد

سعيد هو أكبر أبناء أبي سعيد ، وبه كان أبوه يكتنى ، وكان أبو سعيد قد عهد له بالأمر من بعده ، ولكن كفايته لم تكن تملأ الفراغ ، فعجز عن القيام بالأمر ، وتقدم أخوه أبو طاهر سليمان فامتلك زمام الدولة وأصبح الحاكم الجديد لها .

أبو طاهر سليمان

إذا كان أبو سعيد الجنابي قد أقام دولة القرامطة بالبحرين ، فإن ابنه أبا طاهر سليمان اتجه لتثبيت الدولة ، ووضع نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سنبحثها فيما بعد ، ولكن تثبيت الدولة لم يكن يسيرا ، فالخلافة العباسية لم تدع له فرصة للاستقرار ، وأرادت القضاء على انحرافه وانحراف دولته ، ومن ثم قام صراع مرير بين القرامطة والعباسيين ، وكان أبو طاهر فيما يبدو محبا للدماء ، فأتجه بشراسة إلى سفك الدماء ونهب الأموال ، والقتل والتدمير دون وازع أو ضمير ، ومما يروى من شعره في ذلك قوله :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا (٢)

(١) المرجع السابق ص ٣٦ والكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٨٤ .

(٢) حسين أحمد النجفي : تاريخ الكوفة ص ٣٧٥ .

ومع أن اتجاهنا في هذه الدراسة لا يميل إلى تفاصيل الأحداث في الحروب ، فإن دراسة تاريخ القرامطة تحتم أن نتخطى هذا الاتجاه ، وأن نعطي بعض التفاصيل عن المعارك ، لأن تاريخ القرامطة ، وبخاصة في هذه الفترة ليس إلا تاريخ الدم المراق ، والمقرى التى التهمتها النيران ، والمال المسلوب ، وقد اتسع صراع أبى طاهر ، فشمل عدة مناطق ، ولكن البصرة والكوفة والحجاز نالت من العسف والعدوان أكثر مما حل بسواها ، ولذلك نتكلم عن كل من هذه البلاد كلمة بقدر ما يتسع المجال .

وقد ابتدأ أبو طاهر صراعه ضد البصرة سنة ٣٠٧ هـ حيث هاجمها بقواته واستباحها ثم رجع عنها ، أما الجولة العاتية التى عانتها البصرة من أبى طاهر فقد حدثت سنة ٣١١ هـ ويحكى ابن الأثير قصتها فيقول : سار أبو طاهر في قوة قوامها ١٧٠٠ رجل ، حيث تمكنوا من دخول المدينة بعد أن تسلقوا سورها ، ونجحوا في فتح بابها وقتلوا الموكلين به ، وعلم والى البصرة بما كان من القرامطة فتوجه إليهم في قوة من جنده ، واشتبك معهم في قتال عنيف ، تمكن القرامطة خلاله من قتله ، ووضع السيف في رقاب أهل البصرة ، وأسفرت الموقعة عن انتصار ساحق للقرامطة ، فقتل من أهل البصرة المخلق الكثير ، واندفع بعضهم إلى الماء فغرقوا فيه ، وظل أبو طاهر وجنده في البصرة سبعة عشر يوما جمعوا خلالها ما استطاعوا جمعه من المال والأمتعة والسبايا ، ثم عادوا إلى هجر (١) .

وبعد البصرة اتجه أبو طاهر إلى الكوفة سنة ٣١٢ هـ ، وقد استطاع أن ينتصر على جند الخلافة ، وكان يقودها جعفر بن ورقاء الشيباني ، ودخل أبو طاهر وجنده الكوفة وسلب منها ودمر كما شاء ، وعاد أبو طاهر للكوفة مرة أخرى سنة ٣١٥ هـ ، فأرسلت الخلافة العباسية جيشا لمقابلته بقيادة يوسف بن أبى الساج ، ولكن القرامطة دخلوا الكوفة قبل

أن يصل هذا الجيش ، وسلبوا ما كان بها من طعام وأموال ، ولما وصل جيش أبي الساج قابله القرامطة ، ودارت بين الفريقين معركة كبيرة انتصر فيها القرامطة ، وقتلوا ابن أبي الساج وأسروا عددا كبيرا من جنده (١) .

وإذا انتنينا إلى الحجاز وجدنا هجمات القرامطة متصلة وقاسية على مكة المكرمة ، وعلى الطرق المؤدية لها ، وعلى الحجاج الوافدين من مختلف البقاع ، ففي سنة ٣١٢ هـ اعترض أبو طاهر وأتباعه الحجاج ، وهم في طريق عودتهم من مكة ، وأنزلوا بهم السوء وأخذوا أموالهم وأمتعتهم وقتلوا منهم عددا يقدره (ابن تغرى بردى) بأكثر من ألفين ، وأسروا مثل هذا العدد ، وعاد أبو طاهر بالأموال والأسرى إلى هجر (٢) .

وفي سنة ٣١٧ هـ دخل أبو طاهر سليمان مكة ، فأوقع بأهلها وهاجم الحجاج وهم متعلقون بأستار الكعبة ، فقتل منهم وأسرى ، واقتلع الحجر الأسود ، كما اقتلع أبواب الكعبة وجردها من كسوتها ، واستولى على ما كان بها من آثار وتحف ، كما استولى على أموال أهل مكة وعاد بكل ذلك إلى هجر (٣) .

وكان اقتلاع الحجر الأسود والعدوان على الحجاج فاجعة كبرى أثارت سخط المسلمين في كل جانب ، وضاعفت كراهية الناس للقرامطة ، وأكدت انحرافهم عن الإسلام ، وجهودهم لتدميره ، وتعطيل ركن مهم من أركانه .

هل قصد القرامطة من اقتلاع الأسود ومن العدوان على الحجاج أن يظهروا الخلافة العباسية بمظهر الضعف ليثبتوا بذلك مكانهم ؟

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٢) النجوم الزهرة : ج ٣ ص ٢١٢ .

(٣) غريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ج ١٢ ص ٧٠ .

- هل قصدوا بذلك المساومة على الحجر لينالوا المال نظير إعادته ؟
- هل كان أبو طاهر يرمى إلى جذب الحجيج إلى هجر بدلا من مكة ؟

يمكن أن نجد في التاريخ إجابات مختلفة لهذه الأسئلة ، ولكن الذي نعتقد أن القرامطة في هذه الآونة كانوا يتصرفون بدون أهداف واضحة إلا هدف السلب والنهب والتدمير ، ليرضى الرعايا والغوغاء الذين كانوا يكونون الجزء الأكبر من القرامطة .

ومع أن الخلافة الفاطمية كانت قد قامت آنذاك في الشمال الإفريقي ، ومع أن هذه الخلافة كان يهملها تدمير سمعة العباسيين وتدمير هيبتهم ، ومع أنه كانت هناك صلات بين الفاطميين وبين القرامطة ، مع هذا فإن الفاطميين ساءهم أن يصل الأمر بالقرامطة إلى اقتلاع الحجر الأسود وأخذه من مكانه بالبيت الحرام إلى هجر ، فكتب الخليفة الفاطمي إلى أبي طاهر يلومه على فعلته ويأمره أن يرد الحجر الأسود إلى مكانه ويرد على أهل مكة ما أخذه منهم . وختم الخليفة الفاطمي رسالته إلى أبي طاهر بقوله : وإن لم تفعل ذلك فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة (١) .

ويبدو أن أبا طاهر كان قد اتجه للتمرد على كل القوى ، فاطمية كانت أو عباسية ، ولذلك لم يستجب لطلب الخليفة الفاطمي كله ، واقتنع بأن رد بعض الأموال إلى أصحابها ، ولم يرد الباقي مدعيا أنه أنفق على الجند ، كما لم يرد الحجر الأسود ، بل استبقاه ليهدد به . وليسأوم به . ولم يعد الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد وفاة أبي طاهر بسبع سنوات وكان ذلك في عهد أحمد أخيه سنة ٣٣٩ هـ ، وكان ذلك إجابة لطلب فاطمي جديد تقدم به الخليفة المنصور الفاطمي (٢) . وقال القرامطة أخذناه

(١) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٨٠ .

(٢) دكتور محمد جمال الدين سرور . سياسة الفاطميين الخارجية

بأمر ونعيده بأمر ، وقد بقي عندهم اثنين وعشرين عاما (١) .
بقي أن نذكر التعليك الذى يقوله القرامطة لعدوانهم على بيت الله
الحرام وعلى مساجد المسلمين ؟

يقول القرامطة إن سبب ذلك أننا وجدنا أن الحجاج يرتكبون الكثير
مما يخالف الإسلام ، وأن الأموال التى يحجون بها فيها الكثير من
السحت وأموال اليتامى ، وأن المساجد يدرس فيها الكثير من الأحاديث
المكذوبة على الرسول ، ويجلس للتدريس بها شيوخ فجرة يؤيدون كل
خليفة مهما جار أو غشم ، ولا يحفظون هبة العلم (٢) .

وفيما يلى كلمات أبى تاهر سليمان يشرح فيها للخليفة الفاطمى
بإفريقية سبب ما أنكره عليه فى هذا الشأن : أما ما ذكرت من قتل
الحجيج ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كاتضح الشمس ،
فقد ادعى هؤلاء أنهم أبرار وعابنت فيهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم
بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وأما ما ذكرت
من إحراق المساجد ، فأى أماكن أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها
سمعت الكذب على الله تعالى وعلى رسوله بأسانيد عن مشايخ فجرة بما
أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة (٣) .

وقد نظم الشاعر العيونى « ابن مقرب » قصيدة طويلة ذكر فيها
آثام القرامطة ، وذكر جهدهم أسرته « الأسرة العيونية » التى سئلكم عنها
قبما بعد ، وفى هذه القصيدة يصف الشاعر موقف القرامطة من المساجد
بقوله :

(١) انظر الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ١٦٢ وما بعدها و ج ٨ ص ٤٥
وما بعدها .

(٢) انظر كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة للحمدانى
ص ١٤ .

(٣) على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى ص ٤٤٨ .

وما بنو مسجدا لله نعرفه بل كلما أدركوا قائما هدموا

بقيت كلمة عن المعارك الدموية الأخرى التي خاضها القرامطة ، وفي هذا المجال نذكر أن أحاديثنا عن معارك البصرة والكوفة والحجاز ينبغي ألا تنسينا أن القرامطة هاجموا مناطق أخرى في الجزيرة العربية والعراق ساليين ومدمرين ، ومن هذه المناطق عين التمر والأنبار ، بل هددوا بغداد نفسها ، وأصبح اسمهم يثير الخوف والذعر في جميع الأنحاء .

القرامطة والفاطميون في عهد أبي طاهر :

ما يذكر عن أبي طاهر أن علاقة القرامطة في عهده بدأت تسوء مع الخلافة الفاطمية ، وقد سبق أن ذكرنا أن الإسماعيلية والقرامطة شعبتان من الباطنية ، وأن الشعبتين كانتا تتفقان في محاولة النيل من الخلافة العباسية ، فلما قامت دولة القرامطة في البحرين ، والدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي بدأت المنافسة بين الدولتين الجديدتين ، وكان الفاطميون يطمعون في ولاء القرامطة لهم ، ولكن القرامطة كان موقفهم متذبذبا بين الولاء والتمرد وكان إلى التمرد أقرب .

ولعلنا نسبق الأحداث فنقرر أنه عندما امتد نفوذ الفاطميين إلى مصر والشام ، وامتد نفوذ القرامطة عبر الحجاز إلى الشام كذلك ، بدأ صراع عسكري بين القوتين ، ولم يهدأ هذا الصراع إلا مع ضعف القرامطة ، بعد أن نزلت بهم بعض الهزائم التي جعلت نشاطهم ينكمش وقواتهم تتراجع .

هزائم القرامطة في عهد أبي طاهر :

لم تكن حياة أبي طاهر انتصارا كلها ، بل نزلت بالقرامطة في عهده هزائم قاصمة ، ومنها هزيمته سنة ٣١٦ هـ حيث اجتمع بسواد الكوفة حوالي عشرة آلاف من القرامطة بقيادة حريث بن مسعود ، واجتمع بعين

التمر جمع كبير منهم بقيادة عيسى بن موسى ، وقد أرسل الخليفة العباسي المقتدر هارون بن عريب إلى حريث ، وأرسل صافي البصري إلى عيسى واستطاع جيشا الخلافة أن يدمروا قوة القرامطة ، فقتلا عددا كبيرا من محاربيهم ، وأُسر أكثر من نجا من القتل ، ويقال ان خروج أبي طاهر سنة ٣١٧ هـ للعدوان على مكة كان محاولة للتأثر لجماعته التي هزّها انهزام أتباعه .

بيد أن انتصار أبي طاهر في مكة لم يكتمل على النحو الذي أراده ، فإن جموعا من قبائل هذيل بن مدركة قابلوا جنود القرامطة وهم عائدون من مكة بالأسرى والأموال ، واشتبكوا معهم في قتال استطاعوا به أن يستولوا على كثير مما كان لدى القرامطة من مال مسلوب ومتاع منهوب ، كما هيأت هذه المعركة الفرصة لبعض الأسرى ليفروا من أسر القرامطة .

نهاية أبي طاهر :

في سنة ٣٣٣ هـ مات أبو طاهر ميتة مزرية ، إذ أصيب بالجذري ، فأكله هذا المرض يوما بعد يوم حتى قضى عليه .

سابور

قلنا من قبل أن أبا طاهر سلب السلطة من أخيه سعيد الذي كان أبوه قد عهد له بها ، ودار الزمن دورته وجاء أوان الانتقام بنفس الصورة التي فعلها أبو طاهر ، فإن أبا طاهر عهد بالأمر إلى ابنه سابور ، وتولى هذا فعلا بعد أبيه ، وأحس سابور أن عمه أحمد قد يحاول أن يعتصب الأمر منه ، فألقى القبض عليه وسجنه ، ولكن سابور لم يستطع أن يدير دفة الأمر ، كما أن حيلة قوية أطلقت أحمد بن أبي سعيد من سجنه ، ومكنته من الاستيلاء على السلطة من سابور ، ووضع أحمد ابن أخيه سابور في السجن الذي كان هو فيه من قبل ، ولاقى سابور نهايته في السجن ، فلم ير النور بعد ذلك ، وزيادة في الحرص نفى أحمد بن أبي سعيد أولاد أبي

طاهر (اخوة سابور) وأشياعهم إلى جزيرة (أوال) (البحرين الآن)
واستقر الأمر لأحمد بن أبي سعيد •

أحمد بن أبي سعيد

قلنا آنفا ان أحمد بن أبي سعيد استولى على الحكم بالقوة والحيلة
ومع هذا فقد سارع القائم بأمر الله الفاطمي في اصدار قرار بتولية أحمد
بن أبي سعيد أمر البحرين ، وكان القائم يرمى بذلك إلى خلق جو من
الود بين الحركتين المتحدتين الأصل بالشمال الإقريقى وبساحل البحرين ،
كما كان يرمى بطريق غير مباشر إلى ابراز سيادة الفاطميين على
القرامطة ، وأن القرامطة أتباع للقوى الفاطمية ، وقد سار الفكر
الفاطمي آنذاك على محاولة احتواء الفاطميين للقرامطة ، فجدد الفاطميون
الإصرار على ضرورة رد الحجر الأسود إلى مكانه ، وكتب الخليفة
المنصور الفاطمي بذلك إلى أحمد بن أبي سعيد — كما ذكرنا من قبل —
وقد استجاب هذا ورد الحجر إلى مكانه سنة ٣٣٩ هـ وكان الذى حمله
سنبر بن الحسين بن سنبر (١) •

وعلى العموم لقد كان عهد أحمد بن أبي سعيد عهد هدنة بالنسبة
للفاطميين ، وكان بالنسبة للعباسيين عهدا قليل الحركات العدائية ، ومن
ثم فآهم ما يمتاز به هذا العهد هو تنمية النظم السياسية والاقتصادية
والاجتماعية التى عنى بها القرامطة عناية كبيرة والتى سنتكلم عنها
فيما بعد •

الحسن بن أحمد (الحسن الأعصم)

جاء الحسن بن أحمد وهو المسمى الحسن الأعصم بعد أبيه ، وقد
شهد عهد الحسن الأعصم تحولا خطيرا فى علاقات القرامطة بالخلافة

(١) المقرئى : الحسن الأعصم ص ١٠٤ •

العباسية والخلافة الفاطمية ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة هاجموا الشام ضمن ما هاجموا من أقاليم تابعة للخلافة العباسية ، وثنمنا لانتصاراتهم وتجنبنا لإراقة الدماء تعهد والى الشام التابع للخلافة العباسية أن يدفع لهم إتاوة سنوية ، وكانت هذه الإتاوة جزءاً من الكسب المادى الذى كان القرامطة يحرصون عليه .

وفى مطلع عهد الحسن الأعصم مدّ الفاطميون سلطانهم إلى مصر والشام ، وبالتالى قطعت الإتاوة التى كانت الشام تدفعها للقرامطة ، وكان ذلك جانباً مما حول العلاقة بين القرامطة والفاطمين إلى الحدة والتوتر .

وهناك جانب آخر مهم هو أن الفاطمين كانوا يشجعون القرامطة فى صراعهم ضد العباسيين ويشجعونهم فى حركاتهم المدمرة بالمناطق المختلفة بالجزيرة العربية ، وكان هدف الفاطمين من ذلك أن يشغلوا العباسيين حتى يكوّنوا دولتهم فى الشمال الأفريقى وفى مصر والشام ، والخلافة العباسية فى شغل شاغل عنهم .

وهناك نقطة ثالثة كبيرة الأهمية أشرنا لها من قبل وهى أن الدعوة الفاطمية ودعوة القرامطة بينهما صلة مشتركة وأصل واحد ، وبالتالى كانا يقفان فى كفتى الميزان موقفاً متعادلاً ، ثم حقق الفاطميون انتصاراتهم الهائلة فى الشمال الأفريقى وفى مصر والشام ، وأعلنوا خلافتهم ، وفى الوقت نفسه كانت حركات القرامطة حركات تدميرية تشبه الثورات الطارئة التى لم يوضع لها أساس متين ، وبالتالى حاول الفاطميون احتواء القرامطة ، وجعلهم جزءاً من خلافتهم وممتلكاتهم ، ولم يكن قبول ذلك الموضع هينا على القرامطة !

من أجل هذا اتجه القرامطة أن يحوّلوا سياستهم تجاه الفاطمين من تعاون وودّ إلى صراع وحروب ، وقد تم ذلك التحول فى عهد الحسن

الأعصم واستلزم ذلك التحول أن يحاول الحسن مهادنة العباسيين ، والانضمام لهم في صراعهم ضد الفاطميين ، ويروى في ذلك أن الحسن الأعصم سأل الخليفة المطيع لله على لسان عثر الدولة بختيار البويهى — أن يولييه أمر الشام ومصر ، أو يمدّه بالمال والرجال ليحارب الفاطميين ، ويخرج المعز لدين الله من القاهرة ، فرض الخليفة ذلك ، قائلا : كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، ولكن عز الدولة بختيار ساعد الحسن الأعصم بالمال والسلاح ليقوم بالصراع ضد الفاطميين ، وحينئذ كتب المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، وأن دعوة القرامطة كانت له وإلى آبائه من قبل ، ودعا القرامطة إلى الطاعة ، وتوعدهم وهددهم إن استمروا في عصيانهم ، وسيّر الكتاب إلى القرامطة ، فكتب إليه الحسن بن أحمد ردا نصه « وصل جوابك السدى كثر تفصيله وقل تحصيله ، ونحن سائرون إليك على أثره ٠٠٠ » (١) ، وهكذا أسفر العداء بين القرامطة وبين الفاطميين ، وأسقط الحسن بن أحمد اسم المعز لدين الله من الخطبة في بلاد البحرين وأقامها باسم الخليفة العباسى المطيع (٢) ، بل أمر الحسن بن أحمد بأن يثلعن المعز لدين الله هو وأبوه على المنابر ، وكان يقول : هؤلاء من ولد القداح كذابون أعداء الإسلام ونحن أعلم بهم (٣) .

والمهم الآن أن نذكر أن صراعا طويلا مريرا قام بين القرامطة وبين الفاطميين في خلال عهد الحسن الأعصم ، وشهدت سنة ٣٦٠ هـ جولات هائلة في هذا الصراع كانت الشام الفاطمية مسرحا لها ، ولم يكتف القرامطة بالشام ، وإنما اندفعوا نحو مصر ، وانضم لهم كثيرون ممن كانوا يتبعون العباسيين من أهل الشام ، واتجه القرامطة إلى مصر التي

(١) دكتور محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية

ص ٤٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٣) تاريخ أخبار القرامطة ص ٥٩ - ٦٠ .

تحصن فيها جوهر الصقلی ، وأقام الاستحكامات اللازمة ، ثم التقى جوهر بالقرامطة في عدة وقعات في منطقة عين شمس وغيرها ، حقق القرامطة النصر في بعضها ، ولكن نزلت بهم هزائم قاصمة في البعض الآخر ، وكانت هذه الهزائم مما أوقف خطر القرامطة إلى الأبد .

مصر نقضى على القرامطة :

قامت مصر بدور كبير في الحروب الصليبية ، وفي الصراع ضد التتار ، واشتهر هذا الدور عند القراء والمفكرين ، ولكن مصر دورا كبيرا في حروب القرامطة لم يأخذ نصيبه من الشهرة ، وقد وضعه ثابت بن سنان في كتابه عن تاريخ القرامطة ، ونحن نقتبس منه بعض كلماته في هذا المجال :

— في شهر جمادى الأولى سنة ٢٩٠ حاصر القرمطى مدينة دمشق وضيق على أهلها وقتل أصحاب طنج بن جئف واليها ، وأشرف أهل دمشق على المهالك . فأمد المصريون أهل دمشق بمجموعة من الجنود والقادة فقاتلوا القرامطة وهزموهم أشد هزيمة وقتلوا زعيمهم الذى كان يزعم أنه إذا أشار بيده إلى الجهة التى فيها محاربوه انهزموا ، وكان يكنى « أبو يحيى : الشيخ » (١) .

— في شوال من السنة نفسها وقعت محاربة بين القرمطى وجيش مصر في عهد أحمد بن طولون ، فانهزم القرمطى ولم يقدر على المقاومة لشدة بأس جيوش مصر وجسارتهم وصبرهم على القتال وما أظهره من الشجاعة ، ففكوا بالقرامطة فككا ذريعا ومزقوهم كل ممزق (٢) .

— وصل القرامطة في مصر إلى مدينة تقرب من « عين شمس » سنة ٣٠٦ هـ فخرج لهم جند مصر وحملوا على القرامطة من الميمنة فانهمز

(١) المرجع السابق ص ١٩ .

(٢) تاريخ أخبار القرامطة ص ٢٣ .

من بها وتراجعوا إلى خيام القرامطة ، ولحق بهم جند مصر فدمروا خيامهم ، وكبسوهم فيها ، فاضطروا إلى الهزيمة وولوا الأدبار راحلين إلى السلام (١) .

ويذكر المؤرخون أن الجيوش الزاحفة من مصر ضد القرامطة قامت ببعض الحيل العسكرية التي يسرت انتصارها ، فقد استطاع جوهر أن يدس رجالا من عنده من الذين يثق فيهم بين جموع القرامطة ، وهناك تظاهر هؤلاء بالسخط على الفاطميين وعلى كراهيتهم ، ولكنهم كانوا يعملون في الخفاء على إحداث أنواع من الخلاف والنزاع بين جموع القرامطة ، كما أنهم كانوا عيونا لجوهر في صفوف القرامطة فنقلوا له — سرا — خطط هؤلاء وأحوالهم ، مما مكن لجوهر من إفساد خططهم والإيقاع بهم (٢) .

وهناك حيلة مماثلة قام بها المعز لدين الله بأن راسل حسان بن الجراح الطائى أمير العرب بالشام الذى كان قد انضم إلى القرامطة في هجومهم على مصر ، وقد استطاع المعز أن يستميل حسانا إلى جانبه سرا ، وقدم له عطايا مالية سخية — وتم الاتفاق بين الاثنين على أن يتظاهر حسان بتأييد القرامطة ثم ينهزم عنهم في اللحظة معينة ويتركهم هو ورجاله نهبا لجيش المعز ، وقد نفذ حسان هذا الاتفاق ، فاضطرب القرامطة وانهزم جيشهم هزيمة ساحقة ، وسقطوا بين قتيل وأسير (٣) .

ولما جاء العزيز بالله مال إلى سياسة المهادنة مع القرامطة وانهج لجذبهم لجانبه حتى لا يستمروا قوة هائلة في جانب أعدائه العباسيين ، ومن أجل هذا راسلهم ، واتفق معهم على العودة للعلاقات الطيبة مع

(١) المرجع السابق ص ٥٨ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٥٩ .

(٣) تاريخ اخبار القرامطة : ص ١٠٧ .

(م ٣٧ — التاريخ ج ٧)

الفاطمين ، على أن يكون هناك صفح شامل لكل ما ارتكبه القرامطة من مخالفات وما أسالوه من دماء ، وعلى أن يخلى القرامطة الشام ويعودوا إلى البحرين ويقدم الفاطميون للقرامطة مساعدة مالية تديرها ثلاثون ألف دينار ، وقد تم الاتفاق على ذلك ، وأمن العزيز بالله بذلك جانبهم ، وانحسرت قوات القرامطة في الإحساء (١) .

وعلى هذا فقد كان عهد الحسن الأعصم عهدا حافلا بالتحركات والاتجاهات ، ولكنه وضع القرامطة في مواجهةٍ لمصر ألحقت بهم أشدّ الهزائم مما جعل دولتهم تتجه للفتور ، وتميل نحو النهاية .

أدب الحسن الأعصم :

كان الحسن الأعصم شاعرا مجيدا ، يروى أنه لما نزل الرملة أحضر إليه الخدم في بعض الليالي شموعا ، فقال كشاجم كاتبه : يا أبا نصر ، ما يحضرك في صفة هذه الشموع ؟ فقال كشاجم : إنما نحن في مجلس السيد لنسمع من كلامه ونستفيد من أدبه ، فقال الحسن بن أحمد في الحال مرتجلا :

ومجدولة مثل صدر الفتاة

تعرت وباطنها مكتسى

إذا غازلته الصبا حركت

لساننا من الذهب الملمس

ومن شعره قوله :

إنى امرؤ ليس من شأنى ولا أربى

طبل يزن* ولا ناي ولا عود

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠ .

ولا اعتكاف على خمر ومجمرة
وذاك دك لها سحر وتجديد
ولا أبيت^١ بطين البطن من شبع
والى رفيق^٢ خفيص^٣ البطن مجهود
ولا تسامت بى الدنيا إلى طمع
يوما ولا غرنى فيها المواعيد
ومن مختار شعره أيضا :

له مقلّة صحت ولكن جفونها
بها مرض يسبى القلوب ويتلف
وخذ^٤ كورد الروض يتجنّى بأعين^٥
وقد عز^٦ حتى أنه ليس يقطف
وعطفة صدغ لو يعلم عطفها
لكان على عشاقه يتعطف (١)

بعد الحسن بن أحمد

ذكرنا من قبل أن أحمد بن أبى سعيد نفى أولاد أخيه أبى طاهر
سليمان إلى جزيرة أوال ، وكان ذلك العمل مطلع التقسام داخلى خطير
في جبهة القرامطة ، وقد اتضح ذلك إبان الصراع بين الحسن الأعصم
وبين الفاطميين ، فقد انتهز كثير من القرامطة الفرصة ليتجهوا نحو
إخراج الأمر عن أولاد أبى سعيد جميعا ، وأن يتمردوا على الحسن
الأعصم نفسه ، وبوفاة الحسن الأعصم نجح هذا الاتجاه ، إذ اختير
رجلان من هجر هما جعفر وأسحق الهجريان ، فقاما بأمر القرامطة ،
وعادا للولاء الشامل مع الفاطميين ، وبالتالي لمصارعة العباسيين .

(١) المقرئى : المرجع السابق ص ١١٠ - ١١١ .

وكان هذا الانقسام بين أبناء أبى سعيد الذين يعيشون فى الإحساء والذين يعيشون فى أوال ، ثم كان التنافس بين القادة الجدد ، كان هذا وذلك بالإضافة إلى الهزائم التى منى بها القرامطة ، من أسباب الانحدار بهم نحو النهاية التى سنتحدث عنها فيما يلى :

نهاية القرامطة :

ليس هناك تاريخ محدد لنهاية القرامطة ، ويقولون إنه لا يزال هناك بعض القرامطة يعيشون فى الأحساء حتى العهد الحاضر ، أما دولة القرامطة فقد كانت نهايتها بطيئة ، ولم تسقط دفعة واحدة ، وإنما ظهرت عليها علامات الضعف ، واستمر الضعف يزداد والمشاكل تتجمع مدة طويلة حتى كانت النهاية الحاسمة ، وسنحاول فيما يلى السير مع دولة القرامطة ، وهى تضعف ثم تكبو ثم تختفى :

ولعل من أهم أسباب ضعف القرامطة وقوعهم بين أعظم قوتين فى العالم الإسلامى ، وهما القوة العباسية والقوة الفاطمية ، ولم يكن فى طوق القرامطة أن يقاوموا هاتين القوتين الكبيرتين .

ثم كان هناك الانقسام الذى حدث فى صفوف القرامطة ، ويذكر التاريخ أن صفوف القرامطة عرفت الانقسام فى عهد مبكر ، فى روى ابن الأثير أنه فى سنة ٣٢٦ هـ أوقع الله بين القرامطة فتحاربوا فقتل أشرارهم كفارهم ، ولو يعودوا يخرجون من هجر للمعدوان على الآخرين (١) .

ومن الواضح أن هذا الانقسام حدث فى السنين الأخيرة من عهد الطاغية أبى طاهر ، وكان ذلك مطلع انقسام لم تختف معالمه ، فبعد أبى طاهر استطاع أحمد أخوه أن يسلب السلطة من أولاد أخيه وأن ينفيهم إلى جزر (أوال) كما ذكرنا من قبل .

ومن ثم أصبحت هذه الجزر مركزا للمناوعة ضد القرامطة فى

(١) الكامل فى التاريخ : حوادث سنة ٣٢٦ هـ .

الأحساء ، ولما أسفر الحسن الأعصم عن عدائه للفاطميين أيد الفاطميون أحفاد أبي طاهر ضد الحسن الأعصم ، وانتهزت العناصر غير الشيعية بجزر أوال فرصة الانقسام بين جماعات القرامطة ، فأيدت أحفاد أبي طاهر الذين أبدوا نوعا من الابتعاد عن الانحراف القرمطي لينتسب لهم التعاون مع العناصر المعادية للحسن الأعصم .

ومن الانقسام كذلك ما حدث بين جعفر واسحق الذين آلت لهما السلطة في الأحساء بعد الحسن الأعصم ، ومن الطبيعي أنه يوم تكون هناك سلطة لرئيسين أو عدد من الرؤساء في وقت واحد سرعان ما يبرز الانقسام واختلاف الرأي فالخصام .

ومن أسباب ضعف القرامطة صراعهم ضد مصر الذي تحدثنا عنه من قبل ، وما أنزلته بهم مصر من هزائم قصمت ظهورهم ، وجعلتهم إلى حد كبير يوقفون هجومهم على الآخرين .

وفي سنة ٣٧٨ هـ جمع رجل من بنى المنتفق يعرف بالأصفر جمعا كبيرا من الرجال ، وقصد بلاد القرامطة فخرج القرامطة للقائه ، وكان بينه وبينهم وقعة شديدة قتل فيها قائد القرامطة وانهزم جيشه وأسر منه عدد كبير ، وسار الأصفر إلى الأحساء فتنحصر منه القرامطة ولم يستطيعوا الخروج للقائه ، فعدل إلى القطيف ، وأخذ ما كان فيها للقرامطة من الأموال والعبيد والمواشي ، وسار بهم إلى البصرة ، ويقول ابن الأثير بعد أن روى خبر هذه الواقعة : إن القرامطة بعد هذه الواقعة لم ينتصر لهم جيش ، ولزموا أراضيهم (١) .

وإذا كان القرامطة قد لزموا أرضهم ولم يعودوا يستطيعون الخروج منها للغزو ، فإن ذلك فتح بابين كبيرين ساعدا في القضاء عليهم ، أما الباب الأول فهو تخلى البدو الغوغاء عنهم ، هؤلاء الذين كانوا يؤيدون القرامطة سعيا وراء مشاركتهم فيما يحصلون عليه من غنائم .

وأما الباب الثاني فهو إتاحة الفرصة لبعض البلاد التي كانت خاضعة لهم لتخرج عليهم ، وتعلن استقلالها عنهم وذلك مثل عثمان التي هب أهلها من الإباضية ومن الأزد معلنين ثورة عارمة ضد القرامطة حتى أخرجوهم من البلاد ، وأعادوا لبلادهم استقلالها (١) .

ومع مطلع القرن الخامس الهجري كان الانقسام الذي أشرنا إليه من قبل بين أوال والأحساء قد اتجه بأوال إلى الاستقلال عن الأحساء ، وبنى بها سكانها مساجد ، وأقاموا خطب الجمعة باسم الخليفة العباسي ، وسرعان ما تحررت هذه الجزر من حكم القرامطة .

بل أصبحت أوال مركزا للصراع ضد الأحساء فقد أرسلت الخلافة العباسية جيشا ليساعد أوال في الهجوم على الأحساء ووقعت موقعة خطيرة في الأحساء سنة ٤٦٩ هـ بين جيش أوال ومؤيدا بجيش العباسيين وبين القرامطة ، ونزلت بالقرامطة في هذه الموقعة هزيمة قاصمة كانت أساسا لنهاية دولة القرامطة ، وتسمى هذه الموقعة « موقعة الخندق » (٢) .

وقد وضعت (موقعة الخندق) الأساس لنهاية القرامطة الذي سنرويه فيما يلي :

عندما ضعف القرامطة تصدى قادة العرب في منطقة البحرين للقضاء عليهم ، وقد اشترك في ذلك ثلاث فرق عربية كبيرة :

— الفرقة الأولى بقيادة عبد الله بن علي الثعيبوني وهو رجل من بني عبد القيس ، يسكن مشارف العيون بالأحساء ولذلك سمي العيبوني : فطمع في أخذ الأحساء من القرامطة ، وثار عليهم ، ودارت بينه وبينهم عدة معارك أذغنوا في نهايتها ذلوا وسلموا الأحساء لعبد الله بن علي العيبوني .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٣ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٥٠ .

— الفرقة الثانية بقيادة البهلول محمد بن يوسف ، وكان البهلول في جزر البحرين ضامنا لمكوس هذه الجزر للقرامطة ، فلما ضعف شأن القرامطة بسبب الصراع بين أوال والأحساء طمع في الاستقلال بهذه الجزر عن هؤلاء وأوائك وأظهر العصيان ، فأرسل القرامطة إلى قبائل عبد القيس وقالوا لهم استرجعوا هذه الجزر لكم لا لنا ، ونحن نساعدكم في ذلك ، فخرج جيش من عبد القيس ومن القرامطة ، ولكن البهلول استطاع أن يقضى على هذا الجيش ، فاستقر له الأمر في هذه الجزر .

— الفرقة الثالثة بقيادة يحيى بن عياش ، وقد شار في القطيف وطردها منها عمال القرامطة ، واستولى عليها وقويت شوكتة وعجز القرامطة عن استرجاع القطيف منه .

وكان العالم الإسلامي قد انقسم إلى دويلات ، وكان المنتصر في أرض يستولى عليها ويعد أميرا لها ولا يربطه بالخلافة العباسية إلا خيط ضئيل . ومن هنا فإن هؤلاء المنتصرين لم يسلموا الأرض التي خلصوها من القرامطة إلى الخلافة ، بل كون كل منهم لنفسه إمارة في منطقة ، و انتهت بذلك دولة القرامطة سنة ٤٦٩ هـ بعد حوالي قرنين من التدمير وسفك الدماء ، والابدية الليل من آخر .

نظم القرامطة

السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية

على الرغم مما عرف عن القرامطة من حب للتدمير وسفك للدماء ، كانت لهم نظم سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية جديرة بالدراسة ، وأغلب الظن ان حركة التدمير التي قاموا بها كان جديرا بها أن تقضى على دولتهم في وقت قصير ، كما حدث للزنج ، لولا هذه النظم التي حمت الدولة ، وأطالت عمرها إلى حوالي القرنين (١) .

(١) انظر تحفة المستفيد لمحمد بن عبد الله الانصارى ج ١ ص ١٠٠ وملوك العرب للريحاني ج ٢ ص ٢٥٠ .

وفي ختام دراستنا عن القرامطة نعطي لمحة عن هذه النظم :

نفى مجال النظام السياسى كان هناك مجلس شورى هو الذى يدرس أمور الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ويتخذ فيها القرارات التى يراها ، وكان هذا المجلس يسمى مجلس « القعدانية » ويتكون من أبرز الشخصيات فى النواحي السياسية والادارية ، وكان عدد أعضائه اثنى عشر عضوا (١) أو ستة فى بعض الروايات (٢) .

ومن الناحية الاقتصادية وضع القرامطة نظاما أقرب إلى ما يسمى الآن بالنظام الاشتراكى ، أو حتى النظام الشيوعى ، فقد جعلوا الدولة تملك كل شئ ، وتنفق على الرعايا حسب حاجتهم ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة جمعوا أموال كل قرية فى موضع واحد منها ، وأقاموا رجلا من الثقات ، يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومتاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يكفيهم ويسد حاجتهم ، حتى لم يبق فى البلاد فقير ولا محتاج .

ويذكر عارف تامر (٣) أن القرامطة لم يكن عندهم ضرائب ولا أعشار ، وإذا احتاج أحدهم إعانة أعانه الآخرون ، وكل غريب ينزل أرض القرامطة وله صناعة كان يعطى ما يكفيه من المال ليشتري ما يلزم لإنهاض صناعته من مال وآلات ، وكانت عندهم بيوت لسكنى الغرباء على حساب الجميع .

وفي الناحية العسكرية أدرك القرامطة أن إخلاص الجند يرتبط بمدى إغداق الأموال عليهم ، ومن هنا كان سخاؤهم الواسع على رجال جيئهم ، وعلى البدو الذين كانوا يساعدونهم فى الحروب .

(١) دكتور عبد العزيز الدروى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة

ص ٢٧ .

(٢) المقرئى : الحسن الاعصم ص ١٠٤ .

(٣) القرامطة ص ٧٧ .

أما الجيش القرمطى ، فقد عنى أبو سعيد بوضع الأسس التى توفر له جيشا يجمع بين الإخلاص والولاء وحسن التدريب ، وعلى هذا كان يختار من سن الرابعة من تبدو عليه الصحة والعافية ، ويجمعهم فى دور محصنة لذلك ، ويعين لهم المشرفين والعلمين ، وكان يسمّ هؤلاء الأطفال بسمة على الحدود حتى لا يختلطوا بغيرهم ، فإذا شبوا قدم لهم دراسات فى ركوب الخيل والطعان ، فكان هذا النظام أشبه بما أسماه الأتراك فيما بعد بالجيش الانكشارى ، ولم يكن جيش القرامطة على هذا النمط يعرف إلا الولاء الكامل للدولة وللزعيم (١) .

وفى الناحية الاجتماعية عرف المجتمع القرمطى نظام الطبقات ، وكان يتكون من طبقة الحكام ، ولهم السيطرة على النظم الادارية وقيادة الجيش ، وطبقة العرب وكانوا يكونون العنصر العسكرى فى الدولة ، وطبقة العمال والفلاحين ، وهؤلاء يزاولون التجارة وبعض الحرف ، ومن أهمها الزراعة .

وكان فى المجتمع القرمطى آلاف الزوج يشغلون بالزراعة وفلاحة البساتين (٢) .

وكان للمرأة نصيب موفور فى المجتمع القرمطى لا يقل عن نصيب الرجل لولا ما أبيض فى هذا المجتمع من شيوعية فى النساء ، مما خلق تدهورا واسعا فى نطاق الدولة .

كشاجم والقرامطة :

كان كشاجم (أبو الفتح حسن بن محمود) كاتب القرامطة وهو من أعلام الشعراء والأدباء ، وكان بغدادى المولد ، وقد ذكره الثعالبى فى يتيمة الدهر ، والحصري فى زهر الآداب ، وبعده كتب لهم ابنه

(١) المقرئى : اتعاط الحنفا ٢١٦ .

(٢) عارف تامر : القرامطة ٧٧ .

أبو الفتح نصر ، ولقب كشاجم مثل أبيه ، وقد سبق أن ذكرناه عند حديثنا عن « أدب الحسن الأعصم » •

وكشاجم هو الذى ألف كتابا يعد من أروع الكتب فى بابيه وهو كتاب « أدب النديم » وقد اقتبسنا منه اقتباسات مهمة فى كتابنا « التربية الإسلامية ص ٧٤ وما بعدها » وفيه يقول : إن على الجليس أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع إهمال المتحدث حتى ينقضى حديثه والإقبال عليه بالوجه والنظر ، والوعى لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه إلى حديث يبدأ به (١) •

وإذا كان هذا الكتاب قد ألف ليُتبع فى بلاط القرامطة فإن ذلك يوحى بما كان لهذا البلاط من نظم وتقاليد عالية •

وبعد ، فهذه دراسة عن القرامطة نأمل أن تفتح الباب لدراسة أوسع ، والحق أن انحراف القرامطة الدينى جعل أكثر الكتاب يتدارسونهم كثورة أو حركة باطلة وقل من درس تاريخهم كدولة لها كيان داخلى ، ولها نظمها وقوتها ، ولعل هذه الدراسة تفتح الطريق لإحقاق الحق ، وإبراز دولة القرامطة فى وضعها الحقيقى بكل مالها وما عليها •

(١) أدب النديم : ص ٣٢ وما بعدها •

العيونيون في البحرين

ينسب العيونيون — كما ذكرنا من قبل — إلى فرع من بنى عبد القيس كان يسكن مشارف العيون بالأحساء ، وكان من هذا الفرع عبد الله بن علي العيوني الذي ثار على القرامطة في الأحساء واستطاع أن يقضى عليهم فيها ، وقد ذكرنا من قبل كذلك أن أميرين آخرين من أمراء الحرب هما يحيى بن عياش والبهلول محمد بن يوسف قد قضيا على سلطان القرامطة في القطيف وجزر البحرين ، وأنهى هؤلاء بذلك دواة القرامطة .

ثم حدث تنافس قوى بين هؤلاء الزعماء انتهى بسيطرة العيونيين على المناطق الثلاث وكانت مراحلها كالآتي :

— حاول يحيى بن عياش أن يستولى على جزر البحرين ولكنه عجز عن ذلك ، ولما مات خلفه في الإمارة ابنه زكريا الذي استطاع أن يحقق الأمل الذي رسمه أبوه ، فقد زحف على جزر البحرين وظفر بالبهلول وقتله وضم هذه الجزر إلى ولايته بالقطيف .

— دفع هذا النصر صاحبه إلى طلب المزيد من التوسع ، فأتجه زكريا إلى مهاجمة الأحساء وجاء الظفر بها والقضاء على عبد الله العيوني فخرج بجيش عظيم ، ولكن عبد الله قابله بجيش جرار فهزمه في اللقاء الأول ، ثم عاود الكرة فقتله في اللقاء الثاني ، وضم العيوني منطقة القطيف وجزر البحرين إلى إمارته بالأحساء ، وتكون من هذه المنطقة الإمارة العيونية ، وهي إمارة وراثية دامت أكثر من قرن ونصف قرن (٤٧٠ — ٦٣٠ هـ) ويقول ابن مقرب شاعر آل العيوني في ذلك :

وصار ملك ابن عياش وملك أبي الـ

بهلول مع ملكتنا عقدا لنا نطما (١)

(١) انظر تحفة المستفيد ص ١٠٠ وملوك العرب ج ٢ ص ٢٥٠ .

من أمراء الأسرة العيونية :

هناك مخطوط مجهول المؤلف بدار الكتب المصرية (المكتبة النيمورية) (رقم ٦٣٧ تاريخ) يتحدث عن أمراء العيونيين ، وقد نشر هذا المخطوط في ملاحق كتاب « تحفة المستفيد » وهو يتحدث عن عشرين أميراً ابتداءً حكمهم سنة ٤٦٧ ، وشمل هذا الحكم ثلاث مدن هي : هجر « الأحساء » وأوال « البحرين » والخط « القطيف » ونذكر فيما يلي أهم هؤلاء الأمراء بعد عبد الله بن علي :

الفضل بن عبد الله بن علي وكان شجاعاً كريماً ، بعيد الأهمية ، كثير الأسفار والتنقلات والتجول في البراري لتعقب المفسدين والأخذ على أيدي الأعراب الذين يرتزقون من قطع الطرق ، فاستقرت البلاد في عهده وازدهرت .

ومنهم ابنه محمد بن الفضل وكنيته « أبو سنان » وكان يسكن جزيرة « أوال » وكان نائبه في الأحساء عمه علي بن عبد الله ونائبه في القطيف ابنه غريب — وكان الكرم من أبرز صفات محمد بن الفضل .

ولما مات أبو سنان حاول عمه أن يخلفه باعتباره أكبر أفراد الأسرة ، وحاول ابنه أن يخلفه باعتباره ابنه وقام صراع بين الاثنين عانى كل منهما من نتائجه ، وأخيراً قتل العم (علي بن عبد الله) ولكن « شكر » ابن علي بن عبد الله أخذ مكان أبيه وكان عالماً كريماً وفارساً شجاعاً فرجحت كفته .

وبعد شكر آل ملك العيونيين إلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن علي وقد انتسح ملك العيونيين في عهده ، وأمد نفوذهم إلى نجد مما جعل الناصر لدين الله سلطان مصر يوكل لهذا الأمير خفارة الحجيج من بغداد إلى مكة .

وبعد ذلك وقعت خلافات وأحداث أضعفت الجبهة العربية وهيأت لتدخل الفرس في هذه البقاع (١) .

(١) تحفة المستفيد في تاريخ الاحساء القديم والجديد ص ١٠١-١٠٤ .

بعد أسرة الميونيين

فارس في البحرين :

عندما وقع الخلاف والضعف بين أمراء العيونيين انتهز ملك العجم الفرصة وتدخل في شئون البحرين ، فدخل هذا الملك جزيرة قيس واحتلها من العرب ، ثم اجتاز بجنوده البحر إلى جزيرة البحرين فأخذها ، واستولى بعدها على الأحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج ، واضطر الأمير العربي أن يذعن للملك الفرس فوقع معه صلحا غير كريم أملت فيه ملك الفرس شروطه وقد ذكرها محمد بن عبد الله الأنصاري *

وكان ملك الفرس يولى على البحرين ولاية من العرب يحكمون باسمه *

والذى نريد أن نقوله بعد هذه الجولة أن منطقة البحرين الواسعة قد بدأت في التفكك والانحلال منذ قامت بها الولايات الثلاث بعد القرامطة ، وكان ذلك أساس ما يوجد الآن في هذه المنطقة من دول ودويلات *

المغول في البحرين :

في القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بدأ زحف المغول المدمر إلى أرض الإسلام ، وقد حارب المغول حضارة الإسلام ، وأراقوا دماء الآلاف من المسلمين ، وكانوا كالقرامطة قسوة وإذلالا للمسلمين ، وسيكون لنا معهم حديث في الجزء الثامن من هذه الموسوعة والمهم أن منطقة البحرين خضعت للموجة الثانية من موجات المغول ، وهى الموجة التى قادها هولاكو وكمل بها أعمال جده جنكيز خان البعيدة عن الإنسانية ،

-
- (١) أمين الريحاني : ملوك العرب ج ٢ ص ٢٥١ وانظر كذلك تاريخ البحرين للشيخ خليفة بن محمد النهيان *
- (٢) تحفة المستفيد ج ١ ص ١٠٨ *

ونجا العالم العربى من سيطرة المغول بالهزيمة الكبرى التى أنزلها
المصريون بهم فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ م وفيما تبعها من هزائم ، ولكن
البحرين بعد أن نجت من المغول عادت إلى الخلافات والتفكك التى
كانت قد بدأت عقب نهاية القرامطة ، وكثر الطامعون فى مناطقها ،
فظهرت قوى متعددة تحكم كل منها منطقة بالبحرين ، ومن حكم فى هذه
المنطقة آنذاك أولاد مانع بن عصفور ودارهم الأحساء والقطيف ، ومنهم
كذلك بنو الحسين وبنو عامر بن عوف وبنو مغامس .

نفوذ مصر فى البحرين :

وكان لمصر التى هزمت المغول نفوذ فى دول الخليج التى قاهت
بعد هزيمة المغول ، وفى ذلك يقول صاحب تحفة المستفيد : إن آل عامر
وفدوا على السلطان بيبرس بالديار المصرية ، وفى مقدمتهم محمد بن
أحمد العقدي ، فقرَّبوا بأثم الأكرام ، وأفاض عليهم سابع الأنعام ،
ولم يحوطوا بعين الاعتناء ، قال فى مسالك الأبصار : وتوالت وفادتهم على
الأبواب العالية الناصرية ، وأغرقتهم الصدقات والعطايا بديهما ،
فاستجلبت النائي منهم ، وبرز الأمر السلطاني إلى آل فضل رؤساء
بوادى الشام بتسهيل الطريق لوفودهم ، وتأمينهم فى صدورهم
وورودهم .

وعلى هذا كان حكام هذه المناطق يعترفون بالولاء لمصر طيلة عهد
المماليك تقريبا حتى جاء القرن السادس عشر ومعه الزحف العثماني
والزحف الأوربي .

-
- (١) محمد الانصارى : تحفة المستفيد ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠ .
(٢) ، حمد الانصارى : تحفة المستفيد ج ١ ص ١١٩ وهو ينقل بعض
الفقرات من مسالك الابصار ج ٤ ورقة ٣٠ مخطوط بدار الكتب .

صراع النفوذ

ابتداء من القرن السادس عشر

صورنا من قبل خطورة الخليج العربى وخطورة منطقتة ، وذكرنا أهميتها السياسية والعسكرية والاقتصادية حتى قبل الكشف عن البترول ، ولا عجب إذن أن تجذب هذه المنطقة أنظار الطامعين ، وقد بدا ذلك مع دخول العثمانيين أرض العرب فى أوائل القرن السادس عشر وبدأ كذلك مع كشف طريق رأس الرجاء الصالح قبل ذلك بقليل . وبذلك اعتبرت منطقة الخليج العربى بالغة الأهمية بالنسبة لاستعمار الهند والهند الصينية والملايو وسنغافورة وإندونيسيا ، وعلى هذا اشترك فى الصراع عليها البرتغاليون والانجليز ، ورأت روسيا وهى مجاورة لإيران التى تطل على الخليج أن وجود الدول الأوروبية بالخليج يهدد سلامتها فتطلعت إلى مد نفوذها إليه ، وفى نفس الفترة تطلعت القوة العثمانية للمنطقة باسم الإسلام وبخاصة بعد أن دخلت العراق إذ اتصلت بالخليج عن طريق البصرة ، وأصبح وجود الأوروبيين به يهدد سلامتها ، ودخلت فرنسا حومة الصراع إذ كانت لها تطلعات فى الهند الصينية ، ثم كانت تحاول أن تدخل نفسها فى هذه المعركة لتساوم بها ، وانتهزت بلاد فارس فرصة هذا الصراع فزجت بنفسها فيه ، تحالف هذا أو ذاك كلما حانت لها فرصة لعلها تستعيد مكانها فى تلك المناطق .

العرب يواجهون قوى الاحتلال :

واجه سكان المنطقة من العرب هذا الصراع بجائش ثابت ، وخاضوا معامع هائلة ليحققوا النصر ، وحملوا المعباء كله ليخلصوا بلادهم من الطامعين ، ويمكن القول بادية ذى بدء أنهم طردوا البرتغاليين والهولنديين والعثمانيين والفرس . ولكن قناتهم لانت أمام الانجليز لقدرة الانجليز السياسية من جانب ، ومن جانب آخر كانت قناة العرب قد لانت من كثرة الصراع ومن التفتت كما سفى فيما بعد .

ذلك موجز القول عن الصراعات التي حلت بالخليج ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين ، وسنعطى فيما يلي بعض التفاصيل لهذا الإجمال :

البرتغاليون :

كان البرتغاليون أسبق الأوروبيين صلة بمنطقة الخليج ، فقد وغدوا إليه عقب انتصاراتهم ضد المسلمين في الأندلس ، وقد بدأت صلاتهم بهذه المنطقة عقب نجاح رحلة فاسكودي جاما التي بدأت سنة ١٤٩٦ وطاف بها حول رأس الرجاء الصالح فكتشف طريقاً للهند والشرق الأقصى دون المرور بالبحر الأبيض والبحر الأحمر .

وفي سنة ١٥٠٧ بدأ البرتغاليون زحفهم على جزيرة هرمز وأخضعوا حاكمها وألزموه بدفع جزية سنوية ، ولكنهم لم يقنعوا بهذا النصر ، بل احتلوا الجزيرة سنة ١٥١٥ ثم احتلوا « صحر » ومسقط وعبروا مضيق هرمز واحتلوا جزر البحرين ثم القطيف وقطر ، ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال الأحساء لأن العثمانيين كانوا قد سبقوهم إليها ، وهكذا نزلت أقدام الأوروبيين لأول مرة بتلك المنطقة واستبدت بها ، ولكن أقدام البرتغاليين لم تثبت بها لأن قوى متعددة عارضتها كان في قمته العرب الذين هبوا يدافعون عن بلادهم ، وقاموا بعدة انتفاضات وحركات جريئة ، وفي إحدى هذه الحركات قتل أخو نائب ملك البرتغال بالهند سنة ١٥٢٨ ، وتقاتلت الحركات طيلة القرن السادس عشر .

وكسفت هرمز تمثل أهم مركز برتغالي في الخليج ، وقد استطاع العرب أن يواصلوا صراعهم ضدها دون انقطاع ، وعندما عمدت البرتغال لتعزیز حاميتها سنة ١٥٨٥ قتل العرب ٢٥٠ جندياً برتغالياً وهم يتجهون لتعزیز هذه الحامية ، فلما جاء القرن السابع عشر أنزل العرب وبخاصة أهل عمان بالبرتغاليين هزائم خطيرة بمنطقة الخليج فقد طردوهم من البحرين سنة ١٦٠٢ واستولى سلطان عمان على « صحر »

ثم حاصر العرب مسقط واستولوا عليها ، وهكذا لم تأت سنة ١٢٢٢ حتى كان البرتغاليون قد فقدوا كل ممتلكاتهم بمنطقة الخليج العربى ، ثم فقدوا ممتلكاتهم بخليج عمان فلم تأت سنة ١٦٥٠ حتى كان نفوذهم قد زال من المنطقة نهائيا ، وقدمت انجلترا وغيرها بعض المساعدات للعرب في الصراع كما سنرى .

الفرس والانجليز والهولنديون :

في سنة ١٥٨٣ حمل ثلاثة من المغامرين الانجليز رسائل من الملكة اليزابث إلى ملك كمبوديا وإمبراطور الصين لإقامة علاقات تجارية وودية بين الانجليز ودول الشرق الأقصى ، وقد سار حملة هذه الرسائل برا إلى البصرة ثم أبحروا في الخليج إلى هرمز ، ومن هناك ذهبوا إلى الشرق الأقصى ، وعادت هذه البعثة فقدمت تقارير مشجعة للغاية عن الامكانيات التجارية العظيمة في تلك المناطق ، وبناء على هذه التقارير أنشئت شركة الهند الشرقية الانجليزية سنة ١٦٠٠ وبدأت ترسل أساطيلها التجارية إلى الخليج العربى والشرق الأقصى .

وكانت البرتغال قد سبقت إلى هذه المناطق كما قلنا آنفا ، فحدث صراع بين القوتين الأوربيتين ، وانضم الفرس إلى الانجليز لما لاقوه من عناء مع البرتغاليين ، وبينما كان الصراع يدور ظهرت قوة الهولنديين في الخليج فتعاونت هذه أيضا ضد البرتغاليين ، فكان هذا التحالف مؤيدا للنشاط العربى ووأصعا نهاية للوجود البرتغالى بالخليج كما ذكرنا من قبل .

ثم لعبت السياسة الانجليزية دورها ، فاتجهت إلى التخلص من قوة العرب الهائلة أو اضعافها ، واتخذت الفرس وسيلة لذلك ، فرمت العرب بالفرس ، ثم تحالفت مع الفرس لتكون عوناً لها في الصراع الذى توقعت

أن يدور في المنطقة لتحديد مستقبلها ، وللحصول على موافقة فارس جعلت لها السلطة على البحريين عقب خروج البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ •

وأصبح الخليج العربى به قوة العثمانيين ، وبه الهولنديون ، والفرس والانجليز ، بالإضافة إلى القوة العربية الأصيلة ، التى تعمل بجد لحماية الديار والدفاع عن الوطن •

ولنعيش فيما يلى ما دار من صراع فى هذه المنطقة :

انصراف فى الأحساء :

لعل الأحساء عانت أشق أنواع الصراع وأطولها فى هذه الفترة ، وتعرضت لحركات وقوى كثيرة ، وسنكتفى بإعطاء قائمة بهذه الحركات القاسية فيما يلى :

— استولى العثمانيون على الأحساء أول مرة سنة ٩٦٣ هـ وولوا عليها على بن أحمد البريكى ، وجاء بعده ابنه محمد ثم ولى العثمانيون عمر باشا على الأحساء •

— استولى آل حميد على الأحساء بقيادة براك بن غرير سنة ١٠٨١ هـ وآل حميد بطن من بنى خالد الحجاز ، وسماهوا خالد الحجاز تمييزاً لهم عن بنى خالد حمص ، وكان استيلاء آل حميد فى فترة ضعف العثمانيين ، ومن ولادة آل حميد محمد بن براك وسعدون بن محمد بن براك وسليمان أخوه ، وعمر بن دجين بن سعدون بن محمد وسعدون ابن عمر •

— حصل صراع بين الإمام سعود الكبير وبين بنى خالد ونجح الإمام سعود فيه ودخل الأحساء وغيرها من المناطق التى كانت تابعة لبنى خالد ، ولكن انقلاباً سريعاً وقع ضده عقب رحيله من الأحساء وأصبحت أمور الأحساء مضطربة •

— غزا العثمانيون الأحساء مرة أخرى عن طريق العسراق لتثبيت سلطانهم وكان ذلك سنة ١٢١٣ •

— لما غزت مصر بلاد نجد انضم محمد وماجد أبناء عرعر إلى إبراهيم باشا في هذا الزحف ضد السعوديين ، وطلبوا من إبراهيم باشا بمساعدة استسلام الدرعية أن يولييهما الأحساء ففعل لسابق صلتهما بها •

— في عهد الإمام تركي استعاد السعوديون الأحساء من بنى خالد •

— لما زحف جيش مصر سنة ١٢٣٨ بقيادة خورشيد إلى نجد ودخل الرياض استولى أيضا على الأحساء وعين أحمد بن محمد السديري أميراً للأحساء •

— في سنة ١٢٨٧ استولى السعوديون على الأحساء وذلك في عهد سعود بن فيصل •

— صدرت أوامر القسطنطينية بزحف القوات العثمانية إلى الأحساء فمبارت واحتلتها سنة ١٢٨٨ هـ ، ومن ولاية الأحساء العثمانيين محمد نافذ باشا ومدهت باشا ثم صالح باشا •

— اقتحمها الملك عبد العزيز في الدولة السعودية الثانية واستسلم له العثمانيون كما ذكرنا عند الحديث عن المملكة العربية السعودية (١) وانتصر العرب في ساحة الأحساء بعد طول عناء وأصبحت الأحساء جزءاً من المملكة العربية السعودية •

الصراع في البحرين :

قلنا من قبل إن الفرس عادوا للسيطرة على جزر البحرين عقب خروج

(١) اقرأ تحفة المستفيد ص ١٢٣ وما بعدها واقرأ الجسبرتي في الحملات المصرية تحت السنوات التي أشرنا لها •

البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ وأخذوا يعينون ولاية من العرب عليها ولكن الحكم الفارسي في البحرين تسرب له الخلل الذي اعترى الحكم في بلاد فارس نفسها ، حتى أن آخر عامل عربي للفرس بالبحرين ، وهو الشيخ نصر آل مدكور استنجد حكومة إيران في حملته على آل خليفة في الزبارة (وهي بلاد على شاطئ قطر مواجهة لجزر البحرين) فلم تنجده إيران ، وعلى هذا هزم في المعركة سنة ١١٩٧ هـ (١٧٨٢) وفر هذا العامل إلى بوشهر ، ودخل آل خليفة جزر البحرين منتصرين (١) .

وانتصر العرب على الفرس في ساحة البحرين واستقلوا بها عنهم .

الصراع ضد هولندا :

حمل العرب نصيبهم وأفرا في الصراع ضد هولندا ، وربما يقال ان انجلترا ساعدت في هذا الصراع ، وهذا حق ، ولكن النصيب الأكبر حملة العرب ، أما الفرس فقد ارتبطوا بصداقة وطيدة مع انجلترا ولم يقوموا بجهد ذي بال في الدفاع عن الخليج ، وكانت هولندا تنافس انجلترا في الخليج منافسة حادة ، وكان لها التفوق التجاري خلال القرن السابع عشر ، ورأت هولندا أن تحذو حذو بريطانيا في التحالف مع إيران ضد العرب فساعدت إيران في حملة ضد عمان ، كما تطوعت هولندا لإخضاع البحارة العرب الذين تمردوا ضد قناعتهم في اسطول إيران أيام نادر شاه (٢) ولكن الهولنديين لم يستطيعوا بذلك أن يكسبوا صداقة إيران التي كانت متجهة اتجاهها تماما لانجلترا ، وزاد هذا التصرف من كراهية العرب للهولنديين فأشعلوا صراعا طويلا أذاقوا خلاله الهولنديين ألوانا من المتاعب ، وكان الصراع العربي بقيادة الأمير ناصر وابنه الأمير مهنا في « جزيرة خارج » صراعا مريرا وطويلا ومثابرا ،

(١) أمين الريحاني : ملوك العرب ج ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) من مقال عن « الأوروبيون في الخليج » للاستاذ أحمد العناني

وقد عين الهولنديون حاكما آخر لجزيرة « خارج » فبادر هذا بالهجوم على مهنا ، وهناك استدرجه العرب إلى مكان وجد نفسه فيه مطوقا ، وشب قتال دمر الهولنديين فسقط منهم من سقط وفرت فلولهم ، ولكن القائد العربي لحق بهم وما زال يهاجمهم حتى صفى وجودهم في آخر موكر لهم بالخليج سنة ١٧٦٥ (١) .

إنجلترا :

في خلال الصراع السابق كانت إنجلترا تتدخل أحيانا ، وتصارع القوى الاستعمارية الأخرى ليخلوا لها الجو ، ولكنها لم تكن قط صديقة للعرب ، بل كانت تعمل لمصالحها الخاصة بالتعاون مع الهولنديين ضد البرتغال ، وبالتعاون مع إيران في أغلب الأحوال ، وعلى هذا حمل العرب عبء أكثر الصراع لإزالة القوى الأجنبية عن الخليج ، وبخاصة أن إنجلترا شغلت عن الخليج حينما من الزمن ، بسبب صراعها في أوروبا ضد العثمانيين وضد أطماع نابليون التي نشطت في أوروبا وفي الشرق ، فلما فرغت من ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عادت للخليج لتستكمل فيه نفوذها ، ومما ساعدها على النجاح أن الدول العربية كانت قد ضعفت من طول الصراع ، وكان قد أصابها التفكك والتفتت ، وانتهز الإنجليز هذه الفرصة ف عقدوا اتفاقات غير متكافئة مع قادة الدويلات التي أظهرها التفكك في منطقة الخليج ، وقد ظلت هذه الاتفاقات سارية المفعول حتى أزيلت في العقد السابع ومطلع العقد الثامن من القرن العشرين وحقت هذه الدول استقلالها ، وقد بدأ ذلك بتغير السياسة العالمية الذي قضى أن تنكمش بريطانيا ، ولم يسمح لها بالاستمرار في السيطرة على الشعوب ونهب ثرواتها ، كما أن الثورات العربية بالمناطق المختلفة في الخليج وفي الجنوب العربي وغيرها أبرزت أن تكاليف الاحتلال ستكون باهظة ، وظهرت القوى العالمية الأخرى التي جعلت بريطانيا تحس أنها لم يعد لها أن ترتع في العالم كذئب كاسر مع

وجود الآساد ، وتجلت أسباب أخرى كثيرة جعلت بريطانيا تعلن سنة ١٩٦٨ اعتزامها الجلاء عن الخليج العربى قبل نهاية ١٩٧١ ، وقد فُتح هذا الاعلان الباب لقوى أخرى لتحاول مد نفوذها بطريق أو بآخر لئتملأ هذا الفراغ ، ولكن حركة تجمع وبقظة ظهرت فى المنطقة فأوقفت محاولات الغزو الجديدة أمريكية كانت أو إيرانية ، وتتمثل حركة التجمع فى الاتجاه لتكوين دولة من إمارات ساحل عمان ، كما تتمثل حركة البقظة فى نشاط الدول العربية وتحركات الجامعة العربية •

ولنعد الآن للوراء قليلا لنتحدث عن الدول الجديدة التى نشأت فى هذه المنطقة ، ولنسر مع تاريخها حتى العهد الحاضر ، ومن الواضح أن الساحل العربى للخليج يشمل الآن الدول التالية :

- ١ — دولة البحرين •
- ٢ — دولة قطر •
- ٣ — دولة الإمارات العربية المتحدة •
- ٤ — دولة الكويت •

أما الأحساء — وهى أيضا من أهم مناطق الساحل — فقد تحدثنا عنها من قبل وقد دخلها الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩١٣ وأصبحت جزءا من المملكة العربية السعودية •

وستتكم عن الدول الأربعة السابقة بترتيبها السابق ، فنبدأ بدولة البحرين لنواصل حديثنا السابق عن البحرين ، ثم يجرى حديثنا عن قطر فقد كان قد رُفها شديد الارتباط بقدر جزر البحرين ، وبعدها نتكلم عن دولة الإمارات ، فقد عانت هذه الإمارات صور الحياة التى عانتها البحرين وقطر مع الاستعمار والمستعمرين •

أما الكويت فسينبغى أن يطول معها حديثنا بعض الشيء لأنها لسم ترد فى أحاديثنا السابقة ، ولأنها سبقت هذه الدول الثلاث فى دورها السياسى والحضارى فى العصر الحديث •

دَوْلَةُ الْبَحْرَيْنِ

لقد تحدثنا عن البحرين فيما سبق حديثا طويلا ، ووضحنا أن كلمة « البحرين » كانت تطلق على اقليم ساحلى فسيح يشمل المساحة من قطر إلى البصرة ، ويضرب في الداخل مسافات يختلف عمقها باختلاف قوة الدولة التى تحكم الساحل ، ويشمل كذلك الجزر التى تسمى الآن « البحرين » وقد تتبعنا تاريخ البحرين الكبير من مطلع الإسلام حتى تفككت المنطقة وانحلت ، وأصبحت جزر البحرين دولة قائمة بذاتها ، وهنا يبدأ تاريخها الخاص ، أما بالنسبة للتاريخ العام فقد كانت « جزر البحرين » جزءا من دولة البحرين الكبرى التى أوردنا تاريخها فيما سبق •

وسنقص فيما يلى تاريخ دولة البحرين :

تتكون دولة البحرين من مجموعة من الجزر تقع بين شبه جزيرة قطر وبين ساحل الأحساء السعودى ، ومساحة هذه الجزر حوالى ٢٣٠ ميلا مربعا ، وأهم جزر البحرين كانت تسمى (دلمون) ثم سميت (أوال) وأخيرا سميت البحرين لتكون امتدادا تاريخيا للقطر الكبير الذى تقلص وأصبح متمثلا في هذه الجزر وبخاصة في جزيرة البحرين •

وطول جزيرة البحرين حوالى ٢٧ ميلا وعرضها عشرة أميال وهى كثيرة العيون والمنخيل والفاكهة ، وأشهر مدنها « المنامة » وهى عاصمة الدولة وتقع في الطرف الشمالى للجزيرة •

ومن جزر البحرين كذلك جزيرة « المحرق » ويصلها بجزيرة البحرين جسر طويل ، وبها مطار من أكبر مطارات الخليج ، ومنها كذلك جزيرة النبى صالح •

وسكان دولة البحرين حوالى ربع مليون نسمة ، والأكثرية الغالبة منهم عرب ، وهناك أقليات هندية وإيرانية •

تاريخ جزر البحرين :

ذكرنا فيما سبق أن الفرس استولوا على البحرين عقب إخراج البرتغاليين منها ، وأخذوا يعينون لحكمها ولاية من العرب يخضعون لهم

ولكن الحكم الفارسي لجزر البحرين لم يستقر ، فقد كانت الحشود العربية تندفع للبحرين من حين إلى آخر فتتغلب ، ثم يتصدى لها الفرس فيعودون لحكمها ، ومنه انتزعها من الفرس في هذه الفترة الشيخ محمد الجبري من بني عامر ، ولكن الصفويين سرعان ما استعادوها ، وبعد ذلك استولى عليها جبارة الهولوى ، ولكن الفرس عادوا لها أيضا بعد حين ، بيد أن الحكم الفارسي كان قد تدهور فلم يستطع أن يحمى جزر البحرين من قوة العرب ، ولم يقدم الحكم الفارسي للوالى التابع له وهو الشيخ نصر آل مدكور ما طلبه من قوة وتأييد في المعركة سنة ١١٩٧ هـ (١٨٧٢) وفر هذا العامل إلى بوشهر (١) كما ذكرنا من قبل ، ودخل آل خليفة من الزبارة بقطر إلى البحرين منتصرين ، ووضعت البحرين أقدامها نحو الاستقلال عن الفرس ، وأصبحت قطر تابعة للبحرين ، ولكن البحرين واجهت صورا من المتاعب حتى قدر لها النجاح ، وفيما يلي لمحات عن مراحل الحياة فيها بعد معركة الزبارة :

— انتقل آل خليفة إلى البحرين بعد معركة الزبارة — وجمع الشيخ أحمد بن محمد بن خليفة محارم الشيخ نصر وأولاده وأرسلهم إلى بوشهر ، وثوفى الشيخ أحمد سنة ١٢٠٩ هـ وخلفه في حكمها ابنه الشيخ سلمان •

— في سنة ١٢١٥ هـ غزا سلطان بن أحمد حاكم مسقط جزر البحرين وأخذها عنوة •

— في سنة ١٢٢٤ استنجد الشيخ سلمان بالقوة السعودية التي كانت قد أخذت تنساب في الجزيرة العربية والتي كانت قد فتحت الأحساء ، فقدم الإمام سعود للشيخ سلمان جيشا بقيادة ابراهيم بن عفيصان ، واستطاع هذا الجيش طرد العمانيين من البحرين ولكن ابن عفيصان بقى بالجزيرة ممثلا للسعوديين ولم يسلمها لآل خليفة وذهب آل خليفة إلى نجد ليستظلوا الأمر فأكرمهم الإمام سعود ، ولكنه احتجزهم عنده •

(١) مدينة على الشاطئ الفارسي •

— قام جيل الشباب من آل خليفة بجمع الجهوع من هنا وهناك واستنجدوا بأخوالهم واستطاعوا أن ينتصروا على ابن عفيصان ، فهرب إلى قطر ، ولما سئل الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان عن تصرفه ذلك مع أن كبار الرجال من آل خليفة في حجز ابن سعود أجاب : لا حاجة لنا بآبائنا ، وقد سمينا بأسمائهم (إشارة عن عدم الأمل فيهم) (١) .

وتتسلسل الحكام من آل خليفة كالآتي :

توفي الشيخ سلمان سنة ١٢٣٦ .

خلفه الشيخ عبد الله بن أحمد وظل يحكم حتى توفي سنة ١٢٦٥ .

وخلفه الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان وفي عهده أسفر الانجليز عن تدخلهم في شئون البحرين ، وكانت البحرين كما رأينا تتقاذفها الأيدي ولا تعرف الاستقرار ، ف وقعت اتفاقية بين القنصل الانجليزي وبين حاكم البحرين على أن يكف أسطول البحرين عن الصراع في الخليج العربي ومقابل ذلك تتعهد بريطانيا بحماية البحرين ، ولكن البحرين هوجمت من قطر بعد ذلك بمدة وجيزة . ولما دافعت عن نفسها اعتبر الانجليز ذلك خرقا للاتفاقية قام به الشيخ محمد فعزلوه كما عزلوا نائبه الشيخ علي بن خليفة ، وجاءوا إلى الحكم بالشباب عيسى ابن علي وعمره إحدى وعشرون سنة ، وظل يحكم حتى توفي سنة ١٣٥١ .

وجاء بعده ابنه الشيخ حمد بن عيسى إلى أن توفي سنة ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) .

ثم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة إلى سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)

ثم ابنه الشيخ عيسى الذي يحكم البحرين حتى الآن (١٩٧٧ م) .

(١) أمين الريحاني : ملوك العرب ص ٢٦١ .

وفي عهدہ استقلت البحرين عن بريطانيا سنة ١٩٧١ وأصبحت دولة ذات سيادة ، وانضمت لجامعة الدول العربية ولهيئة الأمم المتحدة ، ومنذ ذلك التاريخ أخذت تلعب دورها كاملا في الساحة العربية والساحة الدولية .

وكان هذا الاستقلال نتيجة لجهود كبيرة سبقته سنسجل فيما يلي خلاصة لها :

الخطوات نحو الاستقلال

يمكن القول أن مجتمع البحرين كان أقرب مجتمعات الخليج إلى البيئة الصناعية ، وذلك بسبب الاهتمام بصناعة اللؤلؤ ، إذ أن البحرين كانت أخصب من سواها في الغوص على اللؤلؤ وفي صناعته ، وعندما يوجد مجتمع صناعي يوجد بالتالي جو من الحضارة والفهم السياسى ، وهذا ما نعمت به البحرين إذا قيست بسواها من نواحي المنطقة .

ومن نتائج المجتمع الصناعى كذلك بالبحرين أن ضعفت العصبية القبلية ، فقد جمعت المصانع أفرادا من مختلف القبائل وتكونت في المصانع مجتمعات وروابط أخذت مكان القبيلة إلى حد كبير ، ولكن البحرين عرفت الطائفية الدينية إذ وجد بها شيعة وأهل سنة ، ولكن لم توجد خلافات طائفية تهدد مجتمع البحرين ، بدليل أن كثرة هائلة من شيعة البحرين لم يدفعهم التشيع لمحاولة الارتباط بإيران على حساب الوطن وانضمت جماهير الشيعة إلى أهل السنة في تأييد استقلال البحرين .

وفي مجتمع صناعى هدأت أو اختفت فيه الروح القبلية ظهرت المدارس ، وكان ظهورها طبيعيا لتمدد البيئة الصناعية بحاجتها من المثقفين ، وهكذا عرفت البحرين المدارس العصرية التى تخرج فيها مجموعة من المثقفين قادوا الحركة الوطنية وحملوا عبء الصراع والاستقلال .

وظهرت الصحافة كذلك في البحرين قبل ظهورها في المناطق المجاورة ، وحملت الصحافة مشعل النور إلى الشعب ، وتحدثت باسمه مهاجمة الاستعمار ومعاونية ، ومن أبرز الصحف مجلة « القافلة » ومجلة « صوت البحرين » التى اهتمت بالقضايا الاجتماعية ليس في نطاق

البحرين فحسب بل في النطاق العربي ، فهاجمت ألق وطالبت بإلغائه لأنه يتنافى مع الإسلام ، وهاجمت شركات النفط التي تستولى ظلما على الكثير من حقوق الشعب والتي تظلم الأيدي العاملة (١) .

تلك أبرز الأسباب التي دفعت البحرين لتفسير خطواتها نحو الاستقلال ، وقد بدأت الحركات الايجابية نحو هذا الهدف سنة ١٩٢٠ ، وكانت زعامة هذه الحركة للشيخ عبد الوهاب الزبياني الذي قاد وفدا إلى أمير البحرين الشيخ عيسى آل خليفة ، وطالبه بإسقاط القوانين المدنية والجنائية التي كانت مطبقة بالبلاد منذ سنة ١٩١٤ بناء على قرار الحكومة البريطانية الذي لم يدع للتشريع الإسلامي إلا موضوع الأحوال الشخصية ، وطالب هذا الوفد أن يحل التشريع الإسلامي محل هذه القوانين الوضعية في جميع القضايا .

ويلاحظ في هذا المطلب أن الشيخ عبد الوهاب اتجه إلى أمير البلاد ليأخذ هذا جانبه في المطالبة بتطبيق الشرع الإسلامي ، ولم يتجه تفكير الشيخ إلى معارضة الأمير ، وإنما إلى معارضة الاستعمار ، وقد خلق هذا أنواعا من التعاون بين الأمير وبين الشعب ، مما دفع الانجليز إلى المطالبة بأن يتخلى الشيخ عيسى عن السلطة لابنه محمد سنة ١٩٣٣ ، وقد تم لهم ذلك .

وقد اهتمت النقابات والصحافة بموضوع عزل الأمير ، فأثارت الرأي العام ضد المستعمر ، واستمرت حركة المثقفين والصحافة والنوادي في نمط مطرد حتى جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ بمصر التي كانت في مطلعها معبرة عن آمال الشعب المصري والشعب العربي كله نحو الاستقلال والحرية والتطور ، فظهر رجع الصوت المصري في مناطق الخليج قويا واضحا ، ثم جاء الاعتداء الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ، فزاد النار

(١) انظر التيارات السياسية في الخليج العربي للدكتور صلاح العقاد

اشتعالا ، ولم تعد الكلمات كافية بل انطلقت القوى العربية في البحرين كما انطلقت في سواها تدمر أنابيب البترول ، وتمنع عن التعاون مع المستعمرين •

واتجهت السياسة الاستعمارية ناحية العنف في مواجهة هذه الحركات التحررية ، فنفت بعض القادة ، واعتقلت بعضهم ، وكان هذا التصرف دافعا لمزيد من الغليان •

وجاءت سنة ١٩٦٨ حيث أعلنت بريطانيا عزمها على الجلاء عن مناطق ما بعد السويس في أواخر سنة ١٩٧١ ، ومن هنا أصبح استقلال البحرين عن بريطانيا أملا متحقق الوقوع ، ولكن ظهرت في الجو الموجة التي ادعت أن البحرين جزء من إيران ، لكن صوت هذه الموجة اختفى بين قوة العدل والتاريخ •

وجرت مفاوضات متعددة ترمي إلى قيام اتحادات بين إمارات الخليج السبع وقطر والبحرين والكويت ، ولكن هذه المفاوضات سرعان ما اتجهت إلى إمارات ساحل الصلح وحدها لتبقى الإمارات الأخرى مستقلة •

وفي عهد الشيخ عيسى بن سلمان تم استقلال البلاد سنة ١٩٧١ كما ذكرنا من قبل وأعلن الأمير هذا الحادث العظيم ، ثم صدر دستور البحرين سنة ١٩٧٢ ، وهو ينص على قيام سلطة تنفيذية ، وسلطة تشريعية غير خاضعة لها ، وإن كان بعض أعضاء هذه السلطة تعيينهم السلطة التنفيذية •

والباحث المسلم العربي يدرك أن البحرين ، ورثت تراثا حافلا بالمشكلات من العصور السابقة ، ولذلك يرجو كل مخلص أن تتغلب البحرين على هذه المعوقات ، وأن تكمل مسيرتها نحو بناء الانسان العربي المسلم على خير وجه وأقوى •

إيران والبحرين :

في فترة ما من التاريخ قبل الميلاد وبعده كان لإيران امتدادات ومستعمرات على ساحل الخليج وفي مناطق أخرى من البلاد العربية ، وعلى عكس ذلك خضعت إيران نفسها كلها أو أجزاء منها إلى كثير من القوى الأجنبية عبر التاريخ كالميديين والفينيقيين واليونان والرومان والعرب والمغول والبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانجليز والروس ، ثم انتهت إيران إلى وضعها الحالي ، وذلك شأن كثير من الدول عرفت الاتساع والانكماش ، والنصر والهزائم ، ولكن يؤخذ على إيران أنها تنسى هزائمها وانكماشها وتتطلع إلى عهد تونست فيه فتطمع في استغلاله ، والبحرين بالنسبة لإيران مطمع من هذا النوع ، فقد أعلنت إيران احتجاجها على كل معاهدة عقدتها البحرين مع أية دولة ، وادعت إيران أن حكومة البحرين لا تملك هذا التصرف لأن البحرين جزء من إيران ، وتوالت حكومات إيران على هذا النمط ، بل بلغت الحكومة الإيرانية سنة ١٩٥٨ إذ أعلنت انضمام البحرين إلى أراضيها ، ولم يكن لهذا الإعلان من قيمة إلا تكدير العلاقات بين إيران وبين البحرين بوجه خاص ، وبينها وبين العالم العربي بوجه عام .

وحجج إيران كانت دائماً واهية ، فهي عبارة عن خضوع البحرين لإيران بعض فترات التاريخ ، وعبارة عن اعتراف وزير خارجية بريطانيا سنة ١٨٦٩ بتبعية البحرين لإيران ، ثم إن أكثر السكان من الشيعة والشيعة فرس قبل كل شيء .

وهذه الحجج واهية جداً ، فإن الاستعمار فترة من الزمن لا يستلزم التملك والتبعية كما قلنا ، ولا وزير خارجية بريطانيا يملك السلطات على الأرض فيوزعها كما يشاء ، وليس مذهب الشيعة وفقاً على إيران .

وقد أدرك أحد الكتاب الغربيين الدوافع الحقيقية لموقف إيران فقال إن إيران رأت عاصفة العروبة تجتاح الجو ، فخافت أن يطالب العراق

ببعض المناطق العربية الخاضعة حالياً لحكم إيران ، فأسرعت إيران تسبق الحوادث وتدعى المطالبة بالمزيد حتى تصرف النظر عن المناطق العربية التي تحت يدها وتوجه كل الاهتمام للبحرين (١) .

ولكن هذا الصراع حول البحرين توقف الآن بعد أن قام ممثل للأمم المتحدة بتقصي الحقائق ، فعاش فترة في البحرين وأتصل بالأفراد والهيئات ، فرأى ما يشبه الاجماع على عروبة البحرين ، وعلى الرغبة في الاستقلال ، واعترفت إيران باستقلال البحرين خضوعاً لهذا الاجراء .

محاولات إيرانية جديدة للسيطرة على البحرين :

ولكن الذي يبدو من تتبع الأحداث أن إيران تدبر أمراً جديداً وتعمل بهمة لا تعرف التوالى ، فأكثر العرب قنعوا بهذه النتيجة واعتبروا المسألة منتهية ، ولكن إيران تفكر في المستقبل وتعمل له فهي تدفع المتسلسلين بطريق أو بآخر ليصلوا إلى البحرين ، وهي تنشر هناك لغتها ، وتنشئ مدارس فارسية ، ومستشفيات ، وتقيم صحافة ، وتجذب لها العديد من الشباب العرب ليتعلموا في جامعاتها ، وتمنحهم كثيراً من التسهيلات ، وفي كلمة موجزة تتطلع إيران إلى استفتاء آخر يرجح كفتها ، وحينئذ ترى إيران أن العالم يجب أن يخضع لهذا الاستفتاء كما خضعت هي للاستفتاء الأول . واحتلال إيران للبحرين يعد خطراً بالغ الأهمية ضد العرب وضد الجزيرة العربية ، لأن البحرين تبعد عن الساحل العربي بحوالى ستة عشر ميلاً في حين تبعد عن الساحل الفارسي بحوالى مائة وثمانين ميلاً ، واحتلال إيران للبحرين سيهدد الساحل العربي وشبه جزيرة قطر ودولة الامارات التي تكونت من إمارات ساحل الصلح ، واذلك ينبغى أن تنتيقظ البحرين ، وتنتيقظ الدول العربية نحو هذا الخطر ، وبخاصة أن الأنبياء تقرر أن إيران تعد جيشاً هائلاً يخشى يوماً ما أن يتجه بالعداء تجاه الجيران العرب في الخليج ، او في الشمال

(١) جان جاك بيريبى : الخليج الفارسي ص ٢٢٨ .

(م ٣٩ - التاريخ ج ٧)

والغرب من الخليج ، وهذه صيحة نرجو أن تدق أسماع من يعينهم
الأمر .

زيد من المعلومات عن « البحرين »

نسجل فيما يلي بعض معلومات حديثة ، وبالتالي لم تشملها الطبقات
السابقة لهذه الطبعة الرابعة :

١ - البحرين عبر العصور :

في سنة ١٩٨٥ نظمت حكومة البحرين مؤتمرا عالميا للمؤرخين استغرق
أسبوعا وقُدِّمت فيه عشرات الأبحاث العلمية الموثقة في مختلف مراحل
تاريخ البحرين الذي يتوغل في الزمن قرابة الخمسة آلاف عام منذ عهد
رلمون التي تعاصر سومر في بلاد ما بين النهرين وعصر بناء الأهرام في
مصر ، فكان مؤتمر « البحرين عبر العصور » الذي حضره مئات العلماء
احتفالا علميا جليلا أضفى مزيداً من المهابة على هذا القطر وتاريخه .

٢ - من حضارة البادية إلى حضارة الكومبيوتر :

يقول الباحثون إن دولة البحرين خلال فترة الاستقلال القصيرة
استطاعت أن تنقل البلاد من حضارة البادية إلى حضارة عصر الطائرة
النفثة والكومبيوتر ، ومن جو العصور الوسطى إلى الجو الذي يناسب
استقبال القرن الحادي والعشرين .

٣ - النفط و ثراء البحرين :

كانت البحرين شديدة الحرص على عدم الارتباط الدائم
بالنفط ، وربط حياتها به ، فهو يتعرض لذبذبات الأسعار ، ولهذا فقد
اتجهت البحرين إلى خلق بعض الصناعات بها كصناعة الألومنيوم حيث
تستورد مواد الخام من استراليا وتصنعه بالداخل ثم تعرضه للبيع .
واهتمت البحرين كذلك بترشييد الإنفاق ووضع جدول الأولويات بحيث
تستطيع مواجهة أى انخفاض في أسعار البترول .

جسر الملك فهد وأثره :

تكلمنا ضمن حديثنا عن المملكة العربية السعودية عن جسر الملك فهد الذى ربط بين السعودية بالبحرين ، وكان له أثر سياسى كبير ، فقد قضى على المحاولة الإيرانية التى كانت تدعى أن البحرين جزء منها ، فقد أصبحت البحرين — بهذا الجسر — شديدة الاتصال بالجزيرة العربية ، وقد ذكرنا هناك أن طول هذا الجزء حوالى ستة وعشرين كيلو مترا .

وكان لجسر الملك فهد آثار اقتصادية واجتماعية بالإضافة للآثار السياسية ، فهذا الجسر يمر عليه الآن آلاف السيارات من وإلى المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والإمارات العربية المتحدة ، وهذا خلق رواجاً اقتصادياً بالبحرين ، كما قضى بخفض أسعار الخضراوات والفواكه واللحوم لإمكان الحصول عليها من تلك الدول ، ثم إن الفنادق شهدت نشاطاً ملحوظاً بأكثر مدن البحرين .

مدينة حمد :

يقول شاهد عيان عن مدينة حمد :

ومن أعظم المشروعات التى انجزتها البحرين فى السنوات الأخيرة انشاء مدينة « حمد » التى تحتل مساحة شاسعة جنوبى العاصمة « المنامة » ، وكانت هذه المساحة من قبل صحراء جرداء وهى الآن مدينة متسعة الأرجاء تضم آلاف المنازل البيضاء التى تتكون من طابق واحد أو طابقين ، على نمط متشابه تتخلله الحدائق والبيادين ، ويستطيع رب أسرة بحرينية الحصول على منزل مناسب من بين عدة نماذج مقابل قسط معتدل لا يتجاوز على أقصى تقدير ربع مرتبه ، بلا مقدم وبدون انتظار طويل .

وقد ساهمت مدينة « حمد » مع سابقتها مدينة « عيسى » فى حل أزمة الاسكان بالبحرين نهائياً تقريباً ، وأصبحت معظم الشقق الجديدة فى

المنامة والمحرق وكثير من الشقق القديمة خالية ، معتدلة الأسعار ، تحمل لافتات « للايجار » .

جامعة الخليج العربى :

وقد كان من الذكاء والتوفيق أن اتفقت دول الخليج العربى (السعودية — قطر — البحرين — الإمارات — عمان — الكويت) على إنشاء جامعة الخليج العربى بالبحرين ، وهى خطوة أخرى لإبعاد أية شبهة قد تتعلل بها إيران لضم البحرين لها .

وقد اتخذ مجلس التعاون الخليجى قرارا بأن تكون البحرين مركزا لهذه الجامعة التى تسهم كل دول مجلس التعاون الخليجى فى نفقاتها ، وقد خصصت دولة البحرين مليونى متر مربع لإقامة الجامعة فى منطقة تبعد عن العاصمة (المنامة) حوالى خمسة وعشرين كيلو مترا .

ومبانى الجامعة تضم مبانى الكليات والإدارة والمعامل ومساكن الأساتذة ، ومساكن الطلبة والطالبات والموظفين ، كما تضم سوقا مركزية وساحات رياضية ، وغير ذلك مما تحتاجه الجامعة .

يأتحق بجامعة الخليج العربى طلاب من مختلف الدول العربية

دَوْلَةُ قَطَرِ

دولة قطر

شبه جزيرة قطر قفزة هائلة داخل الخليج العربى كأنها معشائم عظيم
يرفع راية العروبة وسط الخليج ، وفيها تقع دولة قطر وعاصمتها الدوحة ،
ومن أشهر بلدانها المزبارة ، ودخان وهى منطقة حقول الزيت •

وإلى قطر تنسب الثياب القطرية وكانت تنسج فيها ، وتنسب لها
كذلك النجائب القطريات التى تحدث عنها شعراء العرب •

لمحة تاريخية :

إن حديثنا عن « البحرين » القديمة شمل قطر ، فقد كانت شبه
جزيرة قطر جزءا من البحرين التاريخية ، وينبغى علينا الآن أن نذكر
بعض ملامح من تاريخ قطر لفصل بتاريخها إلى العهد الحاضر ، ولا بأس
من عودة سريعة إلى الوراء لنستعين بها على التسلسل التاريخى الذى
يصلنا بالحاضر •

كانت قطر جزءا من البحرين أو الأحساء يحكمها حاكم خاص من
قبل الخلافة ، وفى كثير من الأحوال كانت منطقة البحرين تابعة للبصرة
أو اليمامة كما سبق القول •

وفى القرن الثامن الهجرى استولى بنو نبهان العمانيون على قطر ،
ولم يطل مقامهم بها ، ومن بعدهم تناوب على قطر وغيرها من مناطق
البحرين كثيرون من أهل البلاد •

وفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧) استولى البرتغاليون على قطر مع
استولى عليه من مناطق الخليج •

وفى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٧ م) أرسل السلطان سليمان القانونى
أسطولا بقيادة سليمان باشا والى مصر لمحاربة البرتغال وطردها ،

ونجح هذا الأسطول في مهمته ، فطرد البرتغال من البحرين والقطيف وقطر ، واستولى عليها كما استولى على الأحساء •

وعندما ضعفت الدولة العثمانية استطاع آل حميد من بنى خالد أن يطردوا العثمانيين سنة ١٠٨٠ هـ ، ويصبحوا ملوك الأحساء •

وعندما ظهرت الدولة السعودية الأولى مدت سلطانها إلى قطر في عهد عبد العزيز بن محمد ، وأرسلت لذلك حملتين أحدهما سنة ١٢٠٢ بقيادة سليمان بن عفيصان ، والثانية سنة ١٢٠٨ هـ بقيادة إبراهيم بن عفيصان •

وبعد سقوط الدرعية مد آل خليفة أمراء البحرين سلطانهم إلى قطر •

ثم أعاد السعوديون غزوهم لقطر في عهد الإمام فيصل بن تركي سنة ١٢٦٧ هـ ، وقد استطاع جيشه أن يطرد آل خليفة من شبه الجزيرة ، ويستولى على قصورهم وذخائرهم بها ، وحينئذ طالب أهل قطر بزعامة آل ثاني الأمان من الأمير السعودي فأمتنهم ، وعقب ذلك قسام صراع بين عبد الله بن فيصل ، وبين أخيه سعود فاستدعى عبد الله بن فيصل العثمانيين لمساعدته ضد أخيه ، فاستجابوا له ، واستولوا على الأحساء وقطر وجعلوا قطر « قائم مقامية » تابعة للأحساء •

آل ثاني في قطر

كان الشيخ ثاني بن محمد مؤسس عائلة آل ثاني خير عون لآل خليفة أمراء البحرين الذين مدوا سلطانهم إلى قطر عقب سقوط الدرعية ، وعندما هبت حرب التحرير بين البحرين وبين بلاد فارس كان الشيخ ثاني بن محمد من خيرة قواد آل خليفة في هذه الحروب مما حقق انتصار البحرين على بلاد الفرس سنة ١٧٨٢ م ، وحدث عتب ذلك أن الشيخ سلمان آل خليفة نقل عاصمته من الزبارة بقطر إلى جزيرة المنامة بالبحرين ،

فلما انتقل آل خليفة إلى البحرين جعلوا آل ثاني حكاما لقطر ، يحكمونها باسمهم وهكذا أصبح آل ثاني هم زعماء الشعب في قطر ، وقد حافظوا على زعامتهم الشعبية منذ ذلك الحين ، وكان محمد بن ثاني حاكم قطر لا يمضى أمرا إلا بموافقة آل خليفة ، وكان ابنه الشيخ قاسم نائبا له في أثناء حياته ، ولكنه كان من عظماء السياسة ، ومن كبار الآمال ، فبدأ يستقل بالأمر دون أن يعود لاستشارة آل خليفة ، فطلب آل خليفة من والده الشيخ محمد أن يرسل لهم ابنه الشيخ قاسم (لتجديد الصحبة وإزالة الشبهة) (١) فاستجاب لهم ، وأرسل الشيخ قاسم ، وهناك ألقى آل خليفة القبض على الشيخ قاسم ، وقامت حروب بين آل ثاني وآل خليفة وتدخلت بريطانيا في الأمر ، وانتهت المشكلة بعقد اتفاق بينهما بريطانيا يحدد الروابط بين قطر والبحرين ، وقد وضع هذا الاتفاق أساس استقلال قطر عن البحرين ، وكان عليها فقط أن تدفع ضريبة لحاكم البحرين ، وكانت هذه الضريبة هي كل الالتزام ، ولم يرد لحاكم البحرين مندوب في قطر كما كانت الحال من قبل ، وعندما توفي الشيخ محمد بن ثاني سنة ١٢٩٥ هـ ، أصبح الشيخ قاسم أميرا لقطر .

قاسم بن محمد آل ثاني

١٢٩٠ هـ — ١٣٣١ (١٨٧٨ — ١٩١٣ م)

يعتبر الشيخ قاسم من عظماء السياسة وكبار القادة وهو مؤسس إمارة آل ثاني المستقلة بعد انتصاره على البحرين في الحرب التي أشرنا لها سابقا ، وسرعان ما اهتمت عن دفع الضريبة التي كان عليه أن يدفعها لحكام البحرين ، وبذلك دعم استقلاله (٢) .

وقد وحّد الشيخ قاسم قطر ، وقضى على مذابحيه ، فنألف نجمه

(١) مصطفى كامل الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ١٧٧ .

(٢) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث ص ١٢٣ .

وعلت مكانته ، ومن هنا خاف العثمانيون أن ينقض عليهم كما فعل مع آل خليفة ، فأرسلت الدولة العثمانية جيشا للقضاء عليه ، وطلبت الدولة من الكويت أن ترسل جيشا للمساعدة في هذا الغرض ، وسار الجيشان ، ولكن جيش الكويت توانى في السير قصدا ، فقامت المعركة قبل وصوله ، وكتب النصر للشيخ قاسم ، وعندما عرف الجيش الكويتي ذلك عاد أدراجه واستقر الأمر للشيخ قاسم ، واضطر العثمانيون للتراجع ولتثبيته في مكانه .

وكان الشيخ قاسم سىء العلاقة بالانجليز يعارض سياستهم ولا يسير في فلكرهم ، وهو لكل هذه المواقف يتعد أعظم قطري في النصف الأول من القرن العشرين . وتوفى الشيخ قاسم سنة ١٢٣١ هـ (١٩١٣ م) .

الشيخ عبد الله بن قاسم (١٩١٣ — ١٩٤٩)

وخلفاؤه حتى الآن

كانت الحكومة العثمانية مشغولة بتسوية علاقاتها مع دول البلقان سنة ١٩١٣ ، فرأت أن تقترب من بريطانيا لعلها تساعدنا في ذلك الشأن فتنازلت لها عن حقوقها في قطر ، وكان ذلك ضمن الاتفاقية البريطانية العثمانية التي وقعت في العام الذي توفي فيه الشيخ قاسم ، وقد جاء في هذه الاتفاقية ما يلي « نتنازل الدولة العثمانية عن جميع حقوقها في شبه جزيرة قطر التي سيستمر في حكمها الشيخ قاسم بن ثاني وخلفاؤه من بعده ، وتعلن الحكومة البريطانية أنها لن تسمح بدخول شيخ البحرين في أمور قطر الداخلية ، أو ضمها إلى أراضيها » .

ولم يكن الشيخ عبد الله في حزم أبيه ومكانته أو قل : إن النفوذ البريطاني أصبح عنيقا في المنطقة في ذلك الحين ، ومن هنا اضطر الشيخ عبد الله إلى أن يعقد معاهدة مع بريطانيا كتلك المعاهدات التي أعطت

نفوذا لبريطانيا في تلك المناطق ، وفي عهد الشيخ عبد الله اكتشف البترول فبدأ شراء الذهب الأسود ينساب في شبه الجزيرة •

وتنازل الشيخ عبد الله للأسباب صحية إلى ابنه الشيخ على سنة ١٩٤٩ وقد ظل الشيخ على في الحكم حتى سنة ١٩٦٠ ، وفي عهده حدثت زيادة هائلة في البترول في قطر مما سبب زيادة في التعمير ، وارتفاعا في مستوى المعيشة •

الشيخ أحمد والشيخ خليفة

وفي سنة ١٩٦٠ تنازل الشيخ على لابنه الشيخ أحمد ليصبح أميرا لقطر ، ونصت وثيقة التنازل على أن يكون الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (ابن أخى الشيخ على) وليا للعهد ونائبا للحاكم الجديد ، وقد ظل الازدواج قائما حتى سنة ١٩٧٢ حيث عزل الشيخ أحمد ، وأصبح الشيخ « خليفة بن حمد » نائب الحاكم هو الأمير •

ويقول المطلعون : إن السر في الازدواجية أن الشيخ على بن عبد الله تولى الإمارة سنة ١٩٤٩ بعد وفاة شقيقه الأكبر الشيخ حمد بن عبد الله والد الشيخ خليفة الذى كان صغير السن عندما تولى والده ، ولذلك رأى أهل الحل والعقد في أسرة آل ثاني عندما تنازل الشيخ على عن الحكم لابنه أحمد سنة ١٩٦٠ ، أن تستند نيابة الحكم إلى الشيخ خليفة تعويضا له عما فاتته من قبل ، ومنعا لحدوث أى انقسام في الأسرة •

وقد عثى الشيخ على بتشبيد قصور ضخمة له في قطر وسويسرا وبيروت وبلغ ثراؤه حدا كبيرا لدرجة أنه قدم للملك سعود عندما زاره عقب تنظيم الحدود بين البلدين هدية تبدو للقارئ سخية للغاية ، فقد كانت عبارة عن سيارة كاديلاك وسيارة أوستن صنعت بعض أجزائها من الذهب ، وعشر حقائب من الجواهرات الثمينة (١) •

(١) مصطفى كامل الدباغ : المرجع السابق ص ١٩٤ •

وحتى سنة ١٩٧٠ كان للحكومة البريطانية نفوذ كبير في قطر ، وقد أذاع راديو لندن سنة ١٩٥٩ عقب زيارة الملك سعود لقطر التي أشهرنا لها آنفاً أن هذه الزيارة تمت بعد موافقة الحكومة البريطانية عليها (١) .

وفي خلال فترة الازدواجية وضح التناقض بين الرجلين * ويقول الأستاذ نجيب الرئيس (٢) : إن الشيخ خليفة كان أميل لفهم التغييرات التي طرأت على قطر وعلى المنطقة ، ولذلك كان هناك صراع دائم مستقر بين الزعيمين ، وقد برزت مواهب الشيخ خليفة في المدة بين ١٩٦٨ و ١٩٧١ م في أثناء المباحثات لقيام دولة اتحاد الإمارات العربية ، فقد حاول أن يحتفظ ببلاده بمركزها ، ثم أعلن استقلال قطر في سبتمبر سنة ١٩٧١ .

وتد وضحت الخلافات بين الشيخ أحمد وبين ولي عهده ونائبه ، حينما عطل الشيخ أحمد تنفيذ النظام الأساسي للدولة على الرغم من إصداره ، إذ كان يخشى من تنفيذه أن يفقده هو وأعوانه العصبية القبلية التي كانوا يتمتعون بها في الحكم ، ومع ذلك فقد كان الشيخ أحمد منصرفاً تماماً عن مهام الحكم ، إذ كان مغرمًا برحلات القنص التي كان يقوم بها في إيران ، وكثيراً ما كان يقضي أشهر الصيف في قصره الذي بناه في سويسرا حتى انه لم يكلف نفسه عناء العودة من جنيف ليعلمن استقلال بلاده ، مما اضطر السير « جيفري ارثر » المقيم السياسي البريطاني في الخليج إلى مقابلاته في جنيف ، ليوقع معه مراسيم إنهاء معاهدة الحماية بين بريطانيا وقطر ، وكان ذلك موقفاً مفيداً للشيخ خليفة الذي قام بإعلان استقلال بلاده ، فظهر بمظهر الحاكم الحقيقي لقطر (٣) .

ولعل قيامه بهذه الخطوة هو الذي مهد له الظروف لتنفيذ حركته

(١) المرجع السابق : ص ٧١ .

(٢) صراع الواحات والنفط . ص ٢٢٠ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

الانقلابية في فبراير سنة ١٩٧٢ ، ليصل بها إلى الحكم ، واستطاع أن ينفرد بالسلطة ، وبالتالي ، ينهى عهداً من الأزواجية في حكومة قطر ، استمر ما يقرب من اثني عشر عاماً . وقد تم هذا الانقلاب بينما كان الشيخ أحمد في رحلة قنص بين بندر عباس وشيراز ، واستطاع الشيخ خليفة أن يحظى بتأييد أعضاء الأسرة الحاكمة ، بالإضافة إلى قواد الجيش ، وبمجرد وصوله إلى السلطة استهدف بها تحديث الدولة وإقامة الحكومة على أسس عصرية .

ولا يزال الشيخ خليفة في مكانه حتى اليوم يمارس عمله بكل وعى وحكمة ، وتتطور البلاد في عهده تطوراً سريعاً عميقاً .

ولى عهد قطر :

وفي مايو سنة ١٩٧٧ أصدر الشيخ خليفة بن حمد مرسوماً بتعيين ابنه الشيخ حمد ولياً للعهد ووزيراً للدفاع ، وكان منصب ولي العهد شاغراً منذ فبراير سنة ١٩٧٢ ، وولى العهد في السابعة والعشرين من عمره ، وله ثقافة مدنية وعسكرية عالية .

أشهر المدن في قطر :

أشهر المدن في قطر هي الدوحة ، وتقع في منتصف الساحل الشرقى للجزيرة ، وهي مدينة عصرية الآن اتضحت بها معالم التقدم والرقى ، فطرقاتها واسعة مرصوفة وعلى جانبيها المتاجر العظيمة والفيلات الجميلة ، والدوحة مرفأ هام لقطر ومن أبرز معالم الدوحة مستشفىها العظيم وبرج الساعة الذى يرتفع ٧٢ قدماً عن سطح البحر ، والقلعة التى بنى عليها قصر لمكتب الحاكم ، وفي الدوحة عدة من المساجد العظيمة وكثير من المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية وبعض المعاهد الصناعية .

ومن أشهر المدن مدينة دخان ، وهي مدينة البترول ، وتقع على

مسافة ستين ميلا في الشمال الغربي للدوحة ، وقد شيدت فيها شركة البترول
المكتاب والمنازل والفيلات لموظفيها وعمالها على أحدث طراز •

ومن المدن الهامة مدينة أم سعيد ، وهي منطقة المخازن الرئيسية
للشركة ، وتقع بالجنوب المشرقي للدوحة على بعد ٢٥ ميلا ، وتوجد بها
مصبات البترول المنقول إليها بالأنابيب من آبارها في دخان ، وقد أقامت
فيها شركة بترول قطر بناياتها وفيلاتها للعمال والموظفين ، وأم سعيد
هي ميناء قطر منذ سنة ١٩٥٢ م •

ومن قرى قطر الريان والخور والخوير والوكرة وأم أصلال
وزكريت وميسمة والعريش •

ومن أشهر المدن بقطر الزبارة وكانت عاصمة البحرين ، نزل بها
آل خليفة والجلهمة وآل ابن علي في النصف الثاني من القرن الثاني
عشر ، وقد ظلت الزبارة عاصمة آل خليفة حكام البحرين إلى أن حوّل
الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة (١٧٩٤ — ١٨٢٠ م) عاصمته لتكون في
جزر البحرين نفسها وبذلك أصبحت الزبارة مقاطعة تابعة للبحرين ثم
استولت عليها قطر •

قطرى بن الفجاءة :

ومن أشهر رجالات قطر قطرى بن الفجاءة أحد أبطال الخوارج ،
وقد ولد قطرى في الخوير بالمعدان واسمه جعونة بن مازن وأمه من بنى
شيبان ، وأخوه اسمه (الماحون) ولكن هذا كان من أهل السنة والجماعة
ومن أصحاب المذهب ، ولذلك حارب « الماحون » أخاه « قطرى » حربا
طويلة • ويروى ياقوت ^(١) أن « قطرى » قال لأخيه وكانا قد تقابلا في
صفين يحارب أحدهما الآخر : أرأيت إذ كنت أنا وأنت نتدافع على
ثدى أمنا بالمعدان ؟

(١) معجم البلدان : ج ١ ص ٢٢٠

ويقول ابن خلكان ^(١) : إن اسمه جعونة بن مازن ، وقطرى ليس باسم له ، ولكنه نسبة إلى قطر ، وقد اشتهرت النسبة وحات محل الاسم ، وأبوه كذلك ففقد اسمه ، لأنه كان غائبا عن أهله باليمن وطالت غيبته ، ثم عاد فجأة فأطلق عليه فجاءة ، ومكانة قطرى بن الفجاءة في ميادين القتال مكانة رائعة ، فيحكى أنه خرج في بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود من الخشب ، فدعا إلى المبارزة ، فبرز إليه رجل استهان بفرسه وبعهود الخشب الذى بيده ولكن « قطرى » فاجأه بأن حسر اللثام عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى مدبرا ، فقال له قطرى : إلى أين ؟ فأجاب الرجل قائلا : لا يستحي الانسان أن يفر منك .

وقد تحدثنا بإفاضة عن قطرى بن الفجاءة في الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

دولة الإمارات العربية المتحدة

(م ٤٠ - التاريخ ج ٧)

ذكرنا عند حديثنا عن عمان أن الإمارات التي تكوّنت منه دولة الإمارات العربية المتحدة كانت جزءاً من عمان ، وأنه في أثناء التفكك الذي انتاب عمان وأخضعها إلى عدد من الطموحين والقبائل ، ظهرت هذه الإمارات مع ما ظهر من مناطق مستقلة أو شبه مستقلة .

ويقول الدكتور سيد نوفل^(١) : إن ساحل عمان أو إمارات ساحل عمان كما يسميه أهله العرب ، أو ساحل القرصنة أو الهدنة كما دعاه البريطانيون ، هو أحد الأقسام الثلاثة التي انقسمت لها عمان وهي عمان ومسقط وساحل عمان ، وكان هذا الساحل بعد فصله عن عمان يمارس فيه أهله الشجعان دورب النشاط البحري ، فلما جاء الاستعمار البريطاني جرده من قوته البحرية ، ثم انتهى به إلى سبع وحدات إيمانا في إضعافه ، ورغبة في تيسير التحكم فيه ، كما فعل الاستعمار في مناطق مختلفة من العالم ، وهذه الأقسام السبعة هي : أبو ظبي ، ودبي ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القوين ، ورأس الخيمة ، والفجيرة .

ويقول الدكتور صلاح العقاد : إنه منذ قيام حكم البوسعيد في عمان انفصل القسم الشمالي من ساحل عمان عن التبعية لمسقط ، وأخذت نواة قسوى قبلية جديدة تظهر هناك مثل بنى ياس والقواسم ، أما في عهد الميعاربة ، فكان من المتعارفة عليه أن عمان تمتد من اقليم ظفار المتاخم لحضرموت حتى قطر في وسط الخليج العربي^(٢) .

ويمكننا أن نعطي مزيداً من الشرح لاستقلال منطقة الإمارات عن عمان ، فإن قبيلة القواسم نزلت ساحل عمان في القرن السابع عشر ، ووطدت أقدامها به في مطلع القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت قوة بحرية هائلة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وفي مطلع القرن التاسع

(١) الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي ج ٢ ص ٤٥ .

(٢) التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٥٢ .

عشر ، وهذه القبيلة وقفت قوية أمام الصراع الذى كان يدور فى المنطقة ، والذى كان السعوديون والإباضية والانجليز أطرافا فيه ، واستطاع القواسم أن تكون لهم السيطرة البحرية على هذه المنطقة ، وفى سنة ١٧٤١ أعلن رحمة بن مطر زعيم القواسم الاستقلال بهذه المنطقة ، واتخذ رأس الخيمة قاعدة له ، واعتزف له بالاستقلال أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيدين •

وإذا كان القواسم قد أصبحوا قوة بحرية هائلة فى المنطقة ، فقد ظهرت بالمنطقة قوة برية خطيرة هى قوة بنى ياس وحلفائهم الذين يتزعمهم آل بو فلاح ، وكان مقرهم الطفرة والبريمى وجزيرة أبو ظبى •

ولما كانت هذه الإمارات فى الأصل جزءا من عمان ، فإن تاريخ عمان هو تاريخ هذه الإمارات حتى تم انفصالها عن عمان ، ومن هنا فإن الباحث عن تاريخ هذه الإمارات لا يبدأ رصد تاريخ مستقل لها إلا منذ انفصالها عن عمان ، أما قبل ذلك فإن تاريخ عمان ينسحب عايتها وهو تاريخها •

وقد بدأ استقلال هذه المنطقة فى منتصف القرن الثامن عشر كما ذكرنا آنفا ، وكانت رأس الخيمة عاصمة المنطقة ، وفى عهد الشيخ سلطان ابن صقر الأول نُقلت عاصمة القواسم من رأس الخيمة إلى الشارقة ، ثم حدثت بعد ذلك أحداث سياسية كان الاستعمار أهم أطرافها ، وقد خاضت بريطانيا حروبا طاحنة ضد هذه المنطقة ، وأذاعت على العالم أن سكانها قراصنة ، وأن التجارة العالمية فى حاجة لإزالة القرصنة من المنطقة ، وراحت تضرب بعنف حتى استطاعت أن تحتل أهم الموانئ فى المنطقة فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، وعقدت مع الحكام راضين أو كارهين معاهدات أخطرها معاهدة سنة ١٨٢٠ التى أدخلت المنطقة كلها تحت السيطرة البريطانية ، ثم تجددت المعاهدات بعد ذلك مع الشيوخ فى المنطقة مما وضع الأساس لقيام إمارات متعددة فى ساحل عمان ،

وكانت كل المعاهدات تسير على نمط واحد تقريبا ، إذ كانت عبارة عن التعهد بعدم عقد اتفاقيات إلا مع الحكومة البريطانية ، وكذلك عدم إرسال مراسلات لغير هذه الحكومة ، كما شملت تعهدات بعدم السماح لأية دولة غير بريطانيا بأن تقيم لها تمثيلا بهذه الإمارات ، وكذلك التعهد بعدم التنازل عن أى جزء من أجزاء الإمارة لأية دولة غير الدولة البريطانية •

وهكذا انقسم ذلك الساحل إلى الإمارات السبع ، وأصبح السلطان الحقيقى فى يد المستعمر البريطانى •

مشكلات الإمارات :

إن قيام هذه الإمارات أبرز كثيرا من المشكلات التى توحى بصعوبة قيام هذه الإمارات منفصلة بعضها عن بعض ، فبعضها لا يبلغ تعداد سكانه أكثر من تعداد بلدة صغيرة ، وبعضها لا يملك موارد تيسر وسائل العيش ، وليست هناك حدود فاصلة بينها ، ومن هنا كان التنازع واسعا بين هذه المشيخات أو الإمارات بعضها والبعض ، فقد كانت هناك مناطق تتنازع عليها عمان ورأس الخيمة والفجيرة ، ومناطق تتنازع عليها عمان وعجمان وأبو ظبى ودبى والشارقة ، وليس فى استطاعة الانسان ان يصل من بلد « الشارقة » فى إمارة الشارقة إلى بلدة أخرى فى نفس الإمارة هى « خور فكان » دون أن يمر بأرض كثير من الإمارات الأخرى ، وذلك بسبب تداخل أقسام كل إمارة فى أراضي الإمارات الأخرى (١) •

ومن أجل هذا حاولت الإمارات أن تنظم الحدود بينها ، وأن تنظم وسائل التعايش ، ولكنها أخيرا وجدت أن أيسر طريق لحيايتها جميعا هو أن تتجمع لا أن تتفرق ، فاتخذ زعمؤها القرار التاريخى بإقامة دولة الإمارات العربية المتحدة لتشملها جميعا كما سنرى فيما بعد •

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى

تعريف بالإمارات

يمكن تقسيم الإمارات أو المشيخات من ناحية المساحة إلى أنواع ثلاثة : مشيخات كبيرة وهى أبو ظبى ودبى ، ومشيخات متوسطة وهى الشارقة ورأس الخيمة ، ومشيخات صغيرة وهى أم القوين والعجمان والفجيرة ، وسنورد فيما يلى كلمة عن كل مشيخة من هذه المشيخات •

أبو ظبى :

• إمارة أبو ظبى ^(١) أكبر إمارات ساحل عمان ، تبلغ مساحتها ٨٠ ألف كيلو متر ، وامتدادها على ساحل الخليج يصل إلى ٣٥٠ ميلا ، أما امتدادها فى الداخل فيتراوح بين مائة ومائة وخمسين ميلا ، وهى مساحة هائلة بالنسبة لإمارات ودول المنطقة ، وحدود الإمارة تبدأ من قطر فى الغرب إلى دبى فى الشرق ، وتتبعها جزر كثيرة فى الخليج وسكانها حوالى ربع مليون •

وحارة الجو فى إمارة أبو ظبى رهية جدا ، وتصل أحيانا إلى خمسين درجة مئوية فى الظل •

وقد تفجر البترول فى المناطق السابعة لأبو ظبى فى الخمسينات فملا الإمارة خيرا وبركة ، وهناك واحات تابعة لأبو ظبى تنتشر فيها الخضرة والمزارع مثل واحة ليوا والبوريمى ، وفيها عدا هاتين الواحتين ، فإن النباتات الصحراوية هى التى تظهر هنا وهناك فى مناطق الإمارة •

وكان اللؤلؤ والتمور من أهم محاصيل أبو ظبى ، ولكن انبثاق البترول جذب الأيدي العاملة ، فأتجه أكثر النشاط للذهب الأسود •

(١) آثرنا ان نذكرها هكذا (أبو ظبى) فى حالات الرفع والنصب والجبر •

لمحة تاريخية :

تذكر المصادر الأولى أنه بينما كانت القبيلة الكبيرة بنى ياس تتجول في ديرتها ، عثر أحد رجالها من آل بوفلاح عام ١٧٦١ على بئر ماء في جزيرة أبو ظبي . وقد دفع هذا بعض أفراد بنى ياس إلى أن يهاجروا إلى الجزيرة ، وأن يبنوا حول البئر بعض أكواخهم ، وسرعان ما انتشر نداء العثور على بئر في جزيرة أبو ظبي ، مما دفع موجة أخرى من بنى ياس إلى الهجرة إلى الجزيرة المطلة على مياه الخليج ، والقريبة من مغاصات اللؤلؤ ، وهكذا تم بناء عشرين كوخا من سعف النخيل . وأصبح لبنى ياس مستعمرة ساحلية .

في هذا الوقت — أواخر القرن الثامن عشر الميلادي — استطاع الشيخ عيسى بن نهيان أن يجمع بنى ياس تحت لوائه ، وهو ، بذلك يعتبر أول حكام آل نهيان . وخلفه دياب بن عيسى الذي يعتبر مؤسس المستعمرة الساحلية ، ولكنه ظل مقبلا في الداخل ، وكان يزور بين الفينة والفينة رعاياه القليلين المستوطنين حديثا جزيرة أبو ظبي .

ومات دياب بن عيسى ، فتولى زعامة آل بو فلاح ابنه شخبوط الأول « ١٧٩٣ — ١٨١٦ » الذي كان من طراز الزعماء الواسعي الأفق ، وفي عهده تأكدت زعامة آل بو فلاح على بنى ياس (١) .

وفي عام ١٨١٦ عزله ابنه الأكبر محمد وتولى بدله مدة سنتين .

وفي عام ١٨١٨ استطاع طحنون بن شخبوط أن يعزل أخاه محمدا وأن يتولى أمر أبو ظبي متعاوناً مع أبيه ، أو منفرداً بالسلطة بعد أن تنازل له الأب ، وقد امتد حكم الشيخ طحنون من سنة ١٨١٨ إلى ١٨٣٣ ،

(١) أبو ظبي : من مطبوعات دار الهلال للتعريف بالبلاد العربية
بتصرف .

وفي خلال هذا العهد زاد التدخل البريطاني ، وأرغم الشيخ شخبوط « وقت أن كان لا يزال يحكم مع ابنه طحنون » على قبول معاهدة يناير سنة ١٨٣٠ المتى وضعت القيود على نشاط أبو ظبي ، واتجه الانجليز كذلك إلى شيوخ المشيخات ليعقدوا معها معاهدات مماثلة •

وقد وضعت هذه المعاهدات ، وتلك التجزئة أساسا للمصارعة بين المشاركة مركز القواسم التي كانت تتطلع لزعامة المنطقة وبين أبو ظبي مركز بنى ياس ، وأعوانهم من المناصر ، ومما قوى هذا الصراع أن القواسم كانوا ينحدرون من (العافرية) وأن بنى ياس ينحدرون من (الهناوية) ، وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن عمان كثرة الصراع والتنافس بين هاتين القوتين •

وشهد عهد الشيخ طحنون الصراع الذى دار بين القوة السعودية بالجزيرة وبين أبو ظبي حول واحة البوريمى ، تلك الواحة التى كانت محل أطماع السعوديين وعمان وأبو ظبي والانجليز ، والمتى انتهت لموضعها الطبيعى جزءا من أبو ظبي •

وبعد الشيخ طحنون قام صراع بين أخويه خليفة وسالطان ، ثم استطاع خليفة أن ينفرد بالحكم وحده ، وقد ظل حاكما حتى توفى سنة ١٨٤٥ وشهد عهده كثيرا من الصراع بين مشيخات المنطقة •

بعد وفاة الشيخ خليفة بن شخبوط تولى الشيخ سعيد بن طحنون حتى سنة ١٨٥٥ ، وسعيد هذا هو الذى نازل السعوديين سنة ١٨٤٨ بعد أن أمتمت إلى جانبه قبائل الظواهر والنعيم والقبائل العمانية على الساحل •

وفي سنة ١٨٥٥ تولى الشيخ زايد بن خليفة مشيخة أبو ظبي بعد وفاة المشيخ سعيد ، وفي عهد الشيخ زايد أصبحت أبو ظبي من أكبر إمارات ساحل عمان من حيث المساحة والقوة السياسية ، وقد امتد حكم

الشيخ زايد حتى عام ١٩٠٩ ، ويعتبر عصره من أزهى عصور الإمارة ، وقد اجتمعت له الشجاعة والرأى وحسن التصرف ، وحالفه توفيق كبير في سياسته الداخلية والخارجية .

ويقول المصدر الذى أشرنا إليه آنفا (١) العبارة التالية التى توضح حالة البوريمى منذ ذلك التاريخ :

اتجه زايد بن خليفة ببصره نحو البوريمى التى سيطر عليها النفوذ السعودى فى أواخر عهد سعيد بن طحنون ، وقد استطاع زايد أن ينتصر على الحامية السعودية فى معركة كبيرة ، أجلى بعدها عن الواحة مَنْ بقى منهم على قيد الحياة ، ومنذ ذلك التاريخ عادت البوريمى إلى أبو ظبى .

وقد شهد عهد الشيخ زايد عقد اتفاقية بين أبو ظبى وبين بريطانيا سنة ١٨٨٧ وتسمى الاتفاقية (الاتفاقية المانعة) وتدور نصوصها فى نطاق النصوص التى تحدثنا عنها من قبل لمثل هذه الاتفاقيات .

وبعد الشيخ زايد بن خليفة توالى حكم أبو ظبى فى أسرة آل نهيان على النحو التالى :

١٩٠٩ — ١٩١٢	طحنون بن زايد
١٩١٢ — ١٩٢٣	حمدان بن زايد
١٩٢٣ — ١٩٢٧	سلطان بن زايد
١٩٢٧ — ١٩٢٨	صقر بن زايد
١٩٢٨ — ١٩٦٦ عزل	شخبوط بن سلطان بن زايد
١٩٦٦ — حتى العهد الحاضر	زايد بن سلطان

(١) أبو ظبى : ص ٥٧ ، ٥٨ .

وينبغي أن نذكر أن شخبوط بن سلطان تولى المشيخة وهى فى مطلع الشباب ويمتاز عهده بالهدوء والسكينة بفضل القسم الذى أخذه أمراء أسرة آل نهيان على أنفسهم ، وكانت المشيخة المصونة (إسلامة) والسدة شخبوط هى التى استطاعت أن تأخذ الأسرة بهذا القسم بعد فترة الاضطراب التى سبقت الشيخ شخبوط ، وفى عهد الشيخ شخبوط انبثق البترول فى الإمارات ، وانبثق معه الخير الوفير ، ولكن الشيخ شخبوط انتصح بنصيحة الأجانب الذين باعدوا بينه وبين العرب ، وحذروه من التقدم ، وحببوا إليه اكتناز الأموال ، ولم يصنعوا من المشروعات العمرانية إلا بمقدار ما يخدم العاملين الأجانب فى استغلال البترول وييسر لهم وسائل الإقامة والراحة (١) وكان هذا التزمّت وسوء العلاقة مع بعض الجيران من أسباب عزل الشيخ شخبوط سنة ١٩٦٦ •

زايد بن سلطان :

كان الشيخ زايد خير عون لأخيه شخبوط إبان حكمه ، فقد تولى إدارة شئون المنطقة الشرقية منذ سنة ١٩٤٦ ، وفى خلال هذه المدة تفرس الشيخ زايد بالعمل السياسى والإدارى بالإضافة إلى ما يمتاز به من ذكاء ، وشخصية ، وقوة واعتزاز بالنفس ، وحسن مكانة بين قبائل المنطقة •

ويمتاز الشيخ زايد بن سلطان كذلك بالحكمة البالغة ، وكان مجلسه للقضاء ينتهى بالتوفيق بين المتناضين والمحبة بينهم ، وفى كل المشكلات التى خاضها الشيخ زايد كان يبدو نموذجاً ممتازاً بين الرجال وقُدوة صالحة بين المصلحين والحكام •

وقد استطاع الشيخ زايد أن يحقق لإمارته ألواناً من التقدم والنظام لأول مرة فى تاريخ هذه الإمارات ، فقد نظم الإدارة الحكومية وعين

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية ج ٢ ص ٥٠ •

الوزراء أو من يقوم مقامهم ونظم ديوان الحاكم ، وأنشأ مجلساً للتخطيط ، ودائرة للشئون الاجتماعية ، ونظم الشرطة والأمن والدفاع وشئون الصحة والعلم ، وفي كلمة مجملّة نقل الشيخ زايد الإمارة من عصر إلى عصر ، ودفع بها شوطاً هائلاً في مجالات التقدم والرفق ، ووجه ثروتها لخدمة أبنائها ، وفتح الأبواب للعرب من مختلف البلاد ليقدّموا خبرتهم وتجارتهم متعاونين مع الحاكم ورجاله لخير الإمارة وللخير العربي العام ^(١) ، واتجه زايد إلى التوسّع في برامج الخدمات والإنشاءات ، لا بالنسبة لإمارته فقط بل امتد بهذه الخدمات إلى جيرانه ، وقدم المعونات لدول عربية أخرى ^(٢) .

دبي :

تقع دبي بين أبو ظبي والشارقة ، وتبلغ مساحتها ١٥٠٠ ميل مربع ، ويبلغ سكانها حوالي مائة ألف شخص ، ومشيجة دبي قاحلة بوجه عام وتوجد بها بعض القرى الخضراء والمزارع حول المعيون بالصحراء ، وتقع مدينة « دبي » على جانبي خور طوله عشرة أميال ، وأحد جانبي هذا الخور يعرف ببر ديره ، ويعرف الجانب الآخر ببر دبي ، وينتقل الناس بين البرين على جسر أقيم سنة ١٩٦١ أو بالمراكب الشراعية ، ومن هنا فإن هذا الموقع يسمى « فينسيا الخليج » وقد أقيم حديثاً نفق تحت الماء يربط بين البرين .

ودبي هي المركز التجاري لساحل عمان ، ومينائها أهم ميناء بالمنطقة ، وكذلك مطارها أعظم مطار بها ، وقد أنشئت بها مجموعة من المنازل ، والفنادق الحديثة ، ووصلت صادراتها أخيراً إلى مستوى رفيع .

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

(٢) دكتور صلاح العقاد : التيارات في الخليج العربي ص ٢٨٩ .

وفي أثناء الحرب الداخلية بلبنان جذبت دبی أوجه النشاط التجاري والفني الذي تعودت لبنان أن تحتضنه •

وقد شهدت دبی أولى المدارس العصرية في المنطقة •

والحكم في دبی في أسرة آل مكتوم وهي فرع من فروع بني ياس ، وهي بذلك تمت بصلة القرابة إلى الأسرة الحاكمة في أبو ظبی ، ولو أن الصلات لم تكن طيبة بين الأسرتين في العهود الماضية •

ويرجع الفضل في تقدم دبی إلى الشيخ سعيد آل مكتوم الذي حكم المشيخة من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٥٨ فقد عنى الشيخ بتنظيم مشيخته وجعل دبی تمثلاً المنفذ الرئيسي لتجارة الساحل ، وبعد الشيخ سعيد آل الحكم في المشيخة للشيخ راشد بن سعيد ، وهو معروف بجده ونشاطه واقباله على العمل في المشروعات العامة للإمارة ، وتربطه صلات مصاهرة وتعاون بحاكم قطر ، ولهذا تستثمر في دبی أموال قطر فضلاً عن أموال الكويت وغيرها •

وقد تدفق البترول في دبی ابتداء من سنة ١٩٦٨ فحمل للأهلين الخير والرخاء •

الشارقة :

تقع الشارقة شرقي دبی ، ومساحتها تقرب من مساحة دبی ، وعاصمتها مدينة « الشارقة » وهي تبعد عن دبی بحوالى عشرة أميال ، وتعتبر إمارة الشارقة أعرق مشيخات الساحل لأنها تعد نفسها وريثة لدولة القواسم القديمة •

وتنقسم الشارقة قسمين : القسم الغربى وهو الأكبر وفيه العاصمة وأماكن التقييب ، والقسم الشرقى وهو يقع شمالى سهل الباطنة الخصب واذلك يمتاز هذا القسم بخصبه وكثرة فاكهته • ويشمل هذا القسم

حصن « دبا » و « خورفكان » وهناك مناطق متنازع عليها بين الشارقة والإمارات الأخرى ومسقط *

وقد ضعف شأن الشارقة منذ وفاة سلطان بن صقر الثاني سنة ١٨٦٦ ثم استعادت الإمارة مكانتها بعد حربها المخفر مع رأس الخيمة التي تنتمي أيضا إلى قبيلة المقواسم ، ثم زادت شهرة الشارقة عندما أقامت بريطانيا بها قاعدة جوية سنة ١٩٣٧ اعتبرت من أكبر القواعد الحربية بالخليج *

ومن أمرائها المشاهير الشيخ صقر بن سلطان القاسمي (١٩٥١ — ١٩٦٥) وكان أديبا وشاعرا وعمل على تطوير إماراته وربط نشاطه بالخط العربي مما أثار عليه بريطانيا فأدى ذلك إلى عزله سنة ١٩٦٥ ^(١) وتولى ابن عمه الشيخ خالد بن محمد القاسمي ولكن الأمير الجديد بذل جهدا واضحا لتطوير الإمارة فمهّد الطرق واهتم بالأمن وأنشأ الموانئ ، وعمق صلته بالجامعة العربية ، ولذلك يمكن القول أن القوى العربية بالإمارة هي التي جاءت به إلى الحكم وليس بريطانيا لأنه لم يسر في هلكها *

ويتبع الشارقة جزيرتان تقابلان شاطئ الشارقة هما جزيرة أبوموسى وجزيرة صير بو نعين ، ويوجد بالجزيرة الأولى الماء العذب ، كما يوجد بالجزيرة الثانية الأوكسيد الأحمر *

عجمان :

استمرارا لمسيرتنا تجاه الشمال الشرقي نواجه عجمان بعد الشارقة ومشيخة عجمان أصغر الإمارات السبع ، وسكانها حوالي عشرة آلاف نسمة ، وتكثر المناطق التي تتنازع عليها عجمان مع بعض الإمارات

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي ج ٢ ص ٥٣ والخليج العربي للدكتور صلاح العقاد ص ٢٩١ *

الأخرى ، ويعتمد السكان على صيد السمك وعلى التجارة ، كما يعملون في بعض الإمارات الأخرى التي انتبثق فيها البترول ، ومعظم سكان الإمارة من قبيلة النعيم آل بو مهير والسودان •

وحاكم عجمان من سنة ١٩٢٨ هو الشيخ راشد بن حميد النعيمي وعاصمة الإمارة عجمان وبها أكثر سكان الإمارة •

أم القوين :

تقع أم القوين إلى الشمال الشرقي من الشارقة أيضا ، وهي مثل عجمان في المساحة وفي عدد السكان تقريبا ، ويقال أن اسمها تحريف من « أم القوتين » لشدة بأس أهلها وشجاعتهم التي عرفوا بها إبان الصراع ضد القوى المعتدية ، وأرض الإمارة ملحمة وتتبعها جزيرة (السينية) حيث يكثر الغزلان التي تجذب الناس للصيد ، وحاكمها منذ سنة ١٩٢٩ هو الشيخ أحمد بن راشد المعلا من قبيلة آل علي •

رأس الخيمة :

تقع رأس الخيمة إلى الشمال الشرقي من أم القوين ، وتبلغ مساحتها مساحة عجمان وأم القوين جميعا ، ويقدر سكانها بحوالي أربعين ألف نسمة ، وتنقسم رأس الخيمة قسمين أحدهما يقع على الخليج العربي ، والثاني يقع في الجهة الشرقية ويفصله عن القسم الأول بعض الأراضي التابعة للشارقة وعجمان وعمان •

ومشيخة رأس الخيمة كثيرة المياه خصبة الثروة ، ومن هنا تكثر فيها الأشجار والحبوب والخضر ، ومن أخصب أراضيها وأدى الجبيلات ويعمل سكان رأس الخيمة في الزراعة والتجارة وصيد الأسماك ، والغوص

(١) د. سيد نوفل : الأوضاع السياسية : ج ٢ ص ٥١ وما بعدها
بتصرف •

لاستخراج اللؤلؤ ، ويذكرون أن سبب تسميتها رأس الخيمة أن أميرها كان يقيم في خيمة على مرتفع ، وكان المرتفع يمثل خيمة عربية تقع خيمة الأمير في قمته ، وكانت أضواء الخيمة تظهر للقادمين في البحر ، فأطلقوا عليها هذا الاسم ، وحاكمها منذ سنة ١٩٤٨ هو الشيخ صقر بن محمد بن سالم القاسمي .

وتمتاز رأس الخيمة ببعض الآثار التاريخية وأهمها « الصبرة » وهو حصن لا تزال آثاره موجودة و « جلفار » وهي مدينة شمالي رأس الخيمة ينسب اليها الملاح العربي الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد مرشد فاسكودي جاما في رحلته حول إفريقيا .

الفجيرة :

تقع مشيخة الفجيرة على ساحل خليج عمان ، وبذلك فهي تطل على سهل الباطنة ، وسكانها حوالي عشرين ألفا ، ومعظمهم يعيشون عيشة البدو فيشتغلون بالرعي وصيد الأسماك ، وقد ظلت في عزلة فلم يدخلها التعليم إلا منذ سنوات ، وحاكمها منذ سنة ١٩٤٠ هو الشيخ محمد بن حمد الشارقي (١) .

تلك لمحة قصيرة عن هذه الإمارات ، وهذه اللوحة ترينا أن من المستحيل أن تعيش كل إمارة مستقلة بصغر حجمها وقلة مواردها بعضها وقلة عدد سكانها ، وكانت بريطانيا تمثل الأم لكل هذه الإمارات ، وتحمل تفككها ، فلما أعلنت في مطلع سنة ١٩٦٨ قرارها بالجلء عن شرق السويس قبل نهاية ١٩٧١ أي في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧١ أصبح من المحتم أن يوجد كيان جديد قوى بالمنطقة ، فبدأت المشاورات والمفاوضات لذلك كما سنرى فيما يلي :

(١) د . سيد نوفل : الأوضاع السياسية : ج ٢ ص ٥١ وما بعدها
بتصرف .

قيام دولة الإمارات

قلنا آنفا إن إعلان بريطانيا عن الجلاء هو الذى ألزم قيام نوع من الارتباط بين هذه الإمارات ، ولكن من الحق أن نقرر أن الرغبة فى الارتباط كانت حديث المثقفين من أبناء الخليج منذ أمد طويل ، فمن المعروف أن هذه الإمارات كانت جزءا من عمان ، وكانت أحوال عمان قبل السلطان قابوس لا تشجع المثقفين بهذه الإمارات أن يحاولوا العودة لربط إماراتهم بعمان ، ومن هنا اتجهوا لمحاولة الربط بين هذه الإمارات بعضها والبعض ، فهى فى الحقيقة أجزاء من وطن واحد .

وحاولت بريطانيا سنة ١٩٥٢ أن تقيم اتحادا بين هذه الإمارات ، ولكن المحاولة نظر إليها على أنها مشروع استعماري يرمى لخدمة بريطانيا بوضع القوى الموالية لها فى قمة الاتحاد الجديد ، كما فعلت بريطانيا فى الجنوب العربى (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) .

بيد أن إعلان بريطانيا الجلاء أزال الشبهة الاستعمارية ، ووضع هذه الإمارات أمام مسئوليتها لتواجه مستقبلها ، ومن هنا قامت مباحثات نشطة لخلق اتحاد بين هذه الإمارات ، وكانت هذه المباحثات ترمى فى كثير من الأحوال إلى ضم قطر والبحرين إلى إمارات الساحل العمانى ليتكون من المناطق التسع اتحاد واحد ، ولكن يبدو أن العمق التاريخى لعب دوره ، فقطر والبحرين ينتميان إلى منطقة البحرين القديمة « الأحساء » وأما الإمارات السبع فتتنمى إلى عمان ، ومن هنا لم يتحقق النجاح للمفاوضات التى حاولت ضم الأجزاء المتباينة تاريخيا لتشملها دولة واحدة .

وسارت الخطوات حثيثة لتحقيق الاتحاد ، وقد قام الشيخ زايد بن سلطان أمير أبو ظبى بنشاط كبير فى هذا المجال يعاونه الشيخ راشد المكتوم أمير دبى ، وتعاقبت اللقاءات بين الأميرين ، ثم أعلن قيام

اتحاد بين الإماراتين فيما يسمى (اتفاق سميح) وهي القرية التي أعلن فيها اتفاق على إقامة اتحاد بين أبو ظبي ودبي ، ومن هذه البداية كان التحرك الواسع الذي شمل المنطقة كلها من أجل توسيع الاتحاد ليشمل الإمارات السبع ، وقد نجح هذا المسعى إلى حد كبير ، فأعلن قيام الاتحاد بين ست إمارات في ١٨ يوليو سنة ١٩٧١ ، وهذه الإمارات هي أبو ظبي ودبي والشارقة والفجيرة وأم القوين وعجمان ورفضت رأس الخيمة الالتحاق بهذا الاتحاد آنذاك ، ولكنها عادت فقررت الالتحاق به عندما أعلن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في الثاني من ديسمبر سنة ١٩٧١ ، وبذلك كمل اتحاد هذه الإمارات واختير الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيساً للدولة الجديدة مدة خمس سنوات ، وعند نهاية سنة ١٩٧٦ جدد انتخابه مدة أخرى ، ثم تجدد انتخابه بعد ذلك حتى الآن (١٩٩١) .

وهكذا قامت دولة الإمارات العربية المتحدة لتضم هذه الإمارات جميعاً ، ومنذ قيامها خطت للأمام خطوات واسعة لتحقيق الرخاء والتقدم للجميع ، بل لعبت دورها في الحقل العربي فسرعان ما أصبحت عضواً في جامعة الدول العربية ، وعندما جاءت حرب التحرير سنة ١٩٧٣ كانت هذه الدولة في العام الثاني من عمرها ، ولكنها بدت في أعظم مراحل الشباب والقوة فوقفت من مشكلات المعركة موقفاً رائعاً جعل العالم العربي والعالم كله يحس أن دولة الإمارات ولدت فتية ، وأنها منذ ولادتها كانت قوة هائلة للمجتمع العربي والمجتمع الإنساني بوجه عام .

جهود دولة الإمارات :

كان العمل الذي أنجزته دولة الإمارات على الصعيدين الداخلي والخارجي أوسع جداً من سني عمرها ، وكان تجسيدا للقيم والأبداء التي تؤمن بها وللمستقبل الزاهر الذي يشرف على منطقة الخليج على (م ٤١ - التاريخ ج ٧)

الرغم من الحقيقة التي وضحها الشيخ زايد بقوله : إننا نبدأ من لا شيء ، فنحن لا نقوم بإصلاحات معينة ، ولكننا نقوم بعملية بناء من العدم ، ولا نأخذ دورنا في بلادنا فحسب ، ولكننا نلتزم بالخير لدول الخليج ولدول الوطن العربي كله .

وقد وضعت دولة الإمارات ملامح دقيقة لسياستها الداخلية والخارجية نالت إعجاب الهيئات العربية والعالمية ، وأشادت بها الصحافة المصرية ، وفيما يلي تسجيل سريع لهذه الملامح :

في مجال السياسة الخارجية :

تؤمن دولة الإمارات أن الاتحاد الذي قامت على أساسه هو نقطة ابتداء وانطلاق نحو اتحاد أوسع وأشمل في المنطقة . . . ويؤكد هذا الإيمان دستور الدولة الذي ترك الباب مفتوحا لكل الأشقاء الراغبين في الانضمام إلى الاتحاد ، وتؤمن دولة الإمارات كذلك إيماننا عميقا بالوحدة العربية وتتوق إلى يوم تتحقق فيه الوحدة العربية الشاملة ، كما تؤمن بأنها — تاريخيا ونضاليا ومصريا — جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير ، ومن ثم فإنها تلتزم كلية بالمواقف البدئية والأساسية التي تتخذها الدول العربية ، وتساند القضايا المصرية للأمة العربية بكل ما تملك من إمكانيات وطاقت ، وتؤيد النضال العادل للشعب الفلسطيني الشقيق وحقوقه المشروعة في تقرير مصيره واستعادة أرضه . . . وتؤمن دولة الإمارات بأن موقعها الجغرافي في منطقة الخليج يفرض عليها اهتماما خاصا بصيانة السلام العالمي وإقراره ، وانطلاقا من هذا الإيمان عملت دولة الإمارات على توثيق علاقاتها مع جيرانها على أساس الاحترام تبادل لاستقلال كل دولة ووحدتها الإقليمية .

وبالنسبة لقضايا السلام العالمي رحبت دولة الإمارات بسياسة الوفاق بين القوتين الكبيرتين ، بشرط أن لا يأتي هذا الوفاق على حساب مصالح الدول الصغيرة .

وتتقف السياسة الخارجية لدولة الإمارات موقفنا واضحا وحازما في محاربة الاستعمار بكل صوره القديم منه والجديد ، ومناهضة التفرقة العنصرية وحروب الإبادة ضد الشعوب الإفريقية .

السياسة البترولية والتنمية :

تدرك دولة الإمارات أن المشكلة التي تواجه الدول المنتجة والمصدرة للبترول تتركز في اعتمادها على مصدر واحد لدخلها القومي من « عوائد البترول » . وتتفرع عن هذه المشكلة مشكلة أخرى تتمثل في أن صادرات البترول تذهب كمادة خام غير مصنعة ، وذلك يؤدي إلى خفض قيمتها ويؤدي — بالتالي — إلى أن تذهب قيمتها الحقيقية بعد تصنيعها إلى الأقطار المتقدمة صناعيا ، وتتحرم الدول المنتجة والمصدرة من فوائد التصنيع الأخرى التي كان يمكن أن تحصل عليها لو تم تصنيع البترول في بلادها . والحل لهذه الخسارة يتمثل في ضرورة أن تعمل الدول المنتجة والمصدرة للبترول على تنويع مصادر دخلها القومي تحاشيا لأخطار الاعتماد على البترول وحده كمصدر قابل للنضوب . أو لتوقف عائده في بعض الظروف . وكيف يتاح لهذه الدول أن تنوع في مصادر دخلها ؟ إن ذلك يعتمد في المقام الأول على الجهود التالية :

١ — تنمية الزراعة .

٢ — الاستفادة من الثروات الطبيعية الأخرى غير البترول .

٣ — العمل على بناء صناعة متطورة تتماشى مع امكانيات وطبيعة هذه البلاد .

نظرة إلى الجهود الداخلية بالدولة الجديدة :

إن الزائر لدولة الإمارات العربية المتحدة يستطيع أن يرى بعينه منذ الوهلة الأولى كيف تتضافر جهود أجهزة الدولة كلها في عزم وطموح من أجل بناء حياة جديدة لإنسان الخليج . كل ميدان من ميادين الحياة

في الدولة الفنية الصاعدة يشهد جهدا مكثفا .. وعملا لا يتوقف ففي مجال التعليم مثلا يتمتع الطالب في دولة الإمارات بمزايا ومنح يثمنها أي طالب علم في أي مكان من العالم ، وهناك أكثر من ١٠٠ مدرسة مختلف المراحل والتخصصات تفتح أبوابها لكل الراغبين في العلم من أبناء الدولة ، وبعثات "توفد إلى الجامعات والمعاهد العليا في الدول العربية الشقيقة وفي دول العالم الخارجى .. ومع نور العلم .. يأخذ نور الكهرباء أيضا طريقه اليوم إلى كل بيت في كافة أنحاء البلاد .. والمشروعات المائية تتوالى ، والمشروعات الصحية تأخذ طريقها إلى حيز الوجود تباعا ، فقد ضمنت الدولة الخدمات الصحية لكل المواطنين ، وعملت على رفع مستواها وزيادة عدد العاملين فيها من أطباء وممرضات ، مع مضاعفة طاقة المستشفيات ، وبناء مستشفيات وعيادات جديدة وتجهيزها بالمعدات الحديثة اللازمة ، وأعدت الدولة اهتماما فائقا بالطب الوقائى ومكافحة التدنر الرئوى ، وقامت بحملة تطعيم عامة لوقاية البلاد من الأوبئة .

وفي مجال الخدمة الاجتماعية تؤمن دولة الإمارات أن العدالة الاجتماعية هي إحدى الدعائم الرئيسية التي تصنع المجتمع القوي ، وأن من أول واجبات الدولة رعاية المجتمع والطفولة والأمومة والعاجزين عن رعاية أنفسهم بسبب المرض أو العجز أو الشيخوخة أو البطالة الإجبارية .

وفي مجال الزراعة هناك مصاولات طموحة وناجحة لاسيما في مساحات جديدة من الأراضي لزيادة الرقعة الزراعية ، وتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي من المحاصيل الزراعية .. وتقوم سياسة الدولة الزراعية على التوسع في تقديم الخدمات للمزارعين ، في صورة بذور ومبيدات حشرية ، وقيام فرق مكافحة الجانية برش المزروعات ، وتقديم القروض الزراعية ، وحفر الآبار وتطهير الموجود منها .. وهكذا .

وفي كل مجالات الحياة في الدولة الجديدة ، نشهد جهدا مكثفا ،
وسباقا مع الزمن لإقامة صروح الدولة العصرية ، وإعادة صياغة الحياة
على ضفافه الخليج ، وبناء الانسان الجديد في هذه المنطقة العربية
الاستراتيجية البالغة الأهمية .

تحية لدولة الإمارات العربية المتحدة مع أخلص الدعاء إلى الله أن
يكلل خطأ رئيسها الشيخ زايد بن سلطان وخطا جميع الزعماء بالنجاح
والتوفيق ، لتحقيق كل الآمال التي يعقدها شعب الخليج ، وتعقدها الأمة
العربية كلها ؟

والباخرة تنسبر باسم الله مجريها ومرساها .

دولة الكويت

مقدمة :

في تقديري أن الحديث عن الكويت يستلزم أن نراجع ما كتبناه عن الدولة العثمانية ^(١) وعن علاقتها بالبلاد العربية ، وقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن الجزيرة العربية أن العثمانيين عندما انتصروا على قوات المماليك بمصر في موقعتي مرج دابق والريدانية شمل نفوذهم سوريا ومصر وسرعان ما استولوا من الناحية الرسمية على الحجاز حتى يحققوا أحلامهم بتكوين امبراطورية إسلامية ، وامتد نفوذهم من أجل هذا الحلم إلى العراق وإلى الشمال الإفريقي ، وقلنا كذلك إن زحفهم كان إسلاميا أو أخذ شكل الوحدة الإسلامية مما جعل الدول العربية لا ترى بأسا من الاندماج في هذه الوحدة ، بل تسعى لها راضية سعيدة .

وقلنا أيضا إن العثمانيين لم يهتموا بباقي الجزيرة العربية ، فلم تكن بها قوى تخيفهم ، أو ثراء يجذبهم ، فتركوا هذه الأرض الفسيحة للقبائل تروح فيها وتغدو كما كانت قبل الإسلام ، وكما أصبحت بعد أن أدار لها الأمويون والعباسيون ظهورهم .

لقد كان موضع الكويت الحالية جزءا من هذه الفلاة الفسيحة ، فلم يرد لهذا الموضع ذكر في التاريخ ، ولا لفت هذا المكان الأنظار ، ولم يكن به سكان يقيمون ، بل كان العرب يضيرون الخيام به عدة أشهر عندما يبدأ موسم هطول الأمطار بهذه المنطقة ، ويظلون بهذا المكان يشربون الماء ويرعون العشب الذي ينمو على أثر الأمطار ثم يرحلون ، وظل الحال كذلك حتى مطلع القرن الثامن عشر حيث بدأت تظهر الحياة المستقرة في هذا المكان ، ثم علت مكانته رويدا رويدا حتى أصبح من أهم الأماكن في العالم من ناحية الثروة ومن الناحية الاستراتيجية . ولنعد للكويت لنأخذ في الحديث عنها من البداية .

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

معلومات عامة عن الكويت :

الكويت كلمة تعنى مجموعة من البيوت الصغيرة ، وإذا كانت مجموعة البيوت في هذه المنطقة بيوتا بسيطة بالإضافة إلى صغرها ، فقد استحققت أن يطلق عليها اللفظ المصغر وهو الكويت ، وبقي الاسم بعد ذلك مع زوال سبب التسمية ، فقد أصبحت هذه البقعة من العالم عامرة بأفخم القصور والعمائر الشاهقة ، ولكن التسمية بقيت وان فقدت مدلولها اللغوى .

وتقع الكويت في أقصى الخليج العربى في الزاوية الشمالية الغربية وهى على شكل مثلث تقريبا ، ويكوّن هذا الخليج الحد الشرقى في الدولة ، وتقع العراق إلى الشمال ، وفي الجنوب تقع المملكة العربية السعودية (اقليم الأحساء) والمنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، ومساحة المنطقة المحايدة تساوى ثلث مساحة الكويت (١) ، وقد حددت معاهدة العقير في ديسمبر سنة ١٩٢٢ حدود الكويت الحالية ، وحدود المنطقة المحايدة بين الكويت ونجد .

وهناك ذراع من الخليج العربى يمتد داخل الكويت ويأخذ شكل هلال ويسمى (جون الكويت) وتقع به جزيرة الشويخ بالقرب من الشاطئ .

وتوجد عدة جزر في مياه الكويت الاقليمية بالخليج العربى ، وأكثرها قليل السكان ، وبعضها يحيا به صيادو اللؤلؤ والأسماك حياة غير منتظمة ، وهناك قلة من هذه الجزر عامرة بالسكان ، وأكبر جزر الكويت جزيرة بوبيان ، ومساحتها ٤٨٠ كم مربع ، وهى خالية من السكان تقريبا إلا من بعض الصيادين الذين يفدون لها في فصل الصيف ، ولكن

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ج ١ ص ١٥٥ .

لها أهمية استراتيحية هي أنها تسيطر على مدخل (خور عبد الله) وهناك كذلك جزيرة مسكان وهي جزيرة صغيرة وأهميتها ترجع إلى وجود فنار بها لإرشاد السفن ، ومن أهم الجزر في الكويت جزيرة فيلكه وهي عامرة بالسكان الذين يشتغل بعضهم بزراعة الحبوب والخضروات ، ويشغل آخرون بالصيد والتجارة ، وبها بعض المدارس وأنواع من المرافق الأخرى ، وأخيرا هناك جزيرة الشويخ مسافة الذكر .

وأعظم ميناء بالكويت هو ميناء الشويخ ، وتعد من أعظم الموانئ العالمية في الوقت الحالي ، إذ يمكن أن ترسو بها السفن الكبيرة .

مدن الكويت :

أشهر المدن في دولة الكويت هي مدينة الكويت ، وهي العاصمة والمدينة الكبرى بالدولة ، وتقع على بعد ثمانين ميلا جنوب شرق البصرة ، ومائتين وثمانين ميلا إلى الشمال الغربي من البحرين ، وهي تمتد على شاطئ الخليج مسافة خمسة أميال تقريبا .

وقد كانت مباني الكويت كما يصفها الشيخ حافظ وهبة (١) من الطين أو اللبن أو من الصخور ، وكان قصر الشيخ أحسن المباني مع أنه كان مبنيا من الآجر ، وكانت المدارس قليلة بالعاصمة ، كما كان بها بعض الكتاتيب .

ولكن الكويت الحديثة شيء آخر تماما ، فالعمائر الشاهقة تمتد امتدادات واسعة وتتأطح السحاب أحيانا في ارتفاعها ، وتقف هذه العمائر على حافتي الشوارع الفسيحة المشجرة .

وبالكويت مجموعة كبيرة من المساجد الضخمة التي تعلو مآذنها لتنافس العمار في ارتفاعها ، وبالكويت أسواق غنية يعرض بها كل

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٩٤ .

مما يخطر بالبال من وسائل الترف والنعيم بالإضافة إلى ضروريات الحياة ، وفي العاصمة دور السينما والمسارح وتكثر المكتبات في جوانبها المختلفة كما تكثر بها الأندية والملاعب والحدائق ، وتقف جامعة الكويت شامخة وحولها عشرات المدارس والمعاهد مختلفة المستويات والتخصصات •

والمدينة الثانية في الكويت هي السالمية ، وكان اسمها قبل سنة ١٩٥٣ « دمنة » ثم اطلق عليها اسم السالمية نسبة للشيخ سالم المبارك الصباح ، وقد أصبحت السالمية مدينة على أحسن طراز تخترقها شبكة من الشوارع المعبدة التي تقف على جوانبها المباني الفخمة ، كما تكثر بها المرافق مختلفة الأنواع •

ومن مدن الكويت كذلك كاظمة ، والمجهره ، وأم الروس ومدينة الأحمدى التي أنشئت حديثا لتكون عاصمة النفط في منطقة البرقان وهي على بعد ثلاثين ميلا جنوبي العاصمة •

وسكان الكويت الآن حوالي نصف مليون منهم حوالي الربع ينحدرون من القبائل العربية التي سكنت الكويت منذ وقت مبكر ، والتي سننكلم عنها فيما بعد ، والباقيون جذبهم العمل إلى الكويت من الأقطار العربية ومن بلاد فارس ومن بعض أقطار أوروبا •

والاتجاه السني هو المنتشر بين مسلمي الكويت على مذهب الإمام مالك ، وهناك بعض الحنابلة ، وقلة من الشيعة ، وأكثر السكان يعيشون في مدينة الكويت وحول آبار النفط ومسؤولياته ، ولا يزال هناك بعض عرب العشائر يسكنون في داخل البلاد •

وتعاني الكويت من مشكلة رئيسية هي مشكلة المياه العذبة ، إذ لا يوجد بها إلا آبار قليلة لا تفي بحاجة السكان كما يقول عبد العزيز الرشيد (١) ، ولذلك كانت الكويت تحضر الماء بالسفن من شط العرب

الذى يبعد عنها بحوالى مائة ميل ، كما تم الاتفاق بين حكومتى الكويت والعراق على جلب ماء شط العرب بواسطة الأنابيب ، وذلك بناء على اتفاق عقد في فبراير سنة ١٩٦٤ ، ولم تكف حكومة الكويت بذلك خوفا من الاعتماد على هذه الاتفاقية التى قد تتأثر بسبب امتد للعلاقات السياسية بين البلدين ، فأنشأت أجهزة لتقطير مياه البحر ، وقد أصبحت آلات التقطير تنتج ما يحتاجه السكان بوجه عام ، ولكن يبدو أن المياه العذبة لا يعدلها شيء ، وفى زيارتى لبعض منشآت أستخراج البترول فى مصر على البحر الأحمر رأيت المياه التى تنتجها آلات التقطير تستعمل فى الغسيل والاستحمام وليس فى الشرب ، فيبدو أن العملية الطبيعية من آبار أو سحب فأمطار فأنهار لا يعدلها شيء فسيحان من قسم الأرزاق .

تاريخ الكويت :

لعل أقرب الروايات دقة عن تاريخ الكويت هو ذلك الرأى الذى يرويه حاكم الكويت السابق الشيخ عبد الله السالم الصباح ، ولعله هذا الرأى رواية متسلسلة يحكيها الأحفاد عن الأجداد ، تقول الرواية إنه فى مطلع القرن الثامن عشر دفع قحط ظويل مجموعة من عائلات قبيلة عنزة (١) إلى الهجرة من وسط نجد بحثا عن موطن أيسر حياة ، وأهم هذه العائلات آل الصباح وآل خليفة والجلهمة . وتحرك هؤلاء فى البداية نحو الجنوب إلى وادى الدواسر ، فوجدوه أقسى حالا ، فارتحلوا إلى شبه جزيرة قطر ، فلم يجدوا بها ما يغرى بالاستقرار ، فتحركوا بهاشيتهم ومتاعهم حيث حطوا الرحال فى منطقة الكويت (٢) ، ويقال ان حكام

(١) قبيلة عنزة تنتمى إليها الاسرة الحاكمة بالسعودية والكويت والبحرين .

(٢) نقلا عن « الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة » للدكتور سيد نوفل ص ١٦٥ .

قطر من آل مسلم خشوا سطوة آل الصباح وطموحهم فالجئوهم إلى الخروج (١) .

وبعد أن اتخذت هذه القبائل الثلاث الكويت موطناً لهم اتفقوا سنة ١٧١٦ على أن يتولى آل الصباح شئون الحكم ، وآل خليفة شئون التجارة ، والجلهمة العمل في البحر ، على أن يقتسم الجميع الأرباح بالتساوي (٢) .

ولم يكن بد من تأمين مقامهم لدى الأتراك الذين كان من المسلم به أنهم أصحاب السيادة على المناطق العربية كما قلنا ، ثم ان الأتراك كانوا يحتلون العراق ولهم في البصرة جيش كبير غير بعيد عن الكويت ، ومن ثم أجمع هؤلاء الذين حطوا بالكويت أمرهم أن يبعثوا رسولا منهم للبائسا التركي يبين لهم أنهم فقراء نزحوا في طلب العيش ولا يبتغون ضرا بأحد وأنهم يقدمون الولاء للدولة العلية ، واختير لذلك الشيخ صباح وكان ميمون النقيية فنجح في سفارته (٣) .

وهكذا بدأت الكويت الظهور . وفي سنة ١٧٥٠ قرر المقيمون في الكويت تعيين شيخ لتصريف شئونهم ، ولتمثيلهم في التعامل مع الخلفاء العثمانيين ، فوقع الاختيار على صباح الثاني ليكون أميراً عليها ، وفي ظل سلالة آل الصباح ازدهرت الحياة واستقرت بهذه الجماعات (٤) .

وفي سنة ١٧٦٦ عرض زعيم آل خليفة على حلفائه أن ينفصلوا عن الحلف ويترك نصيبه من الربح على أن يسمح له بالاستقرار في الجزء المجاور لمخاض اللؤلؤ ، فوافق الحلفاء على ذلك ، فسار آل خليفة ونزلوا

(١) دكتور أحمد الشرباصي : أيام في الكويت ص ١٠ .

(٢) حافظ وهبة : نجزيرة العرب في القرن العشرين ص ١١٥ .

(٣) Dickson : Kuwait and her Neighbours .

(٤) تقويم البلدان الاسلامية ص ٣٦٣ .

« الزجّارة » التى تحدّثنا عنها من قبل ، وبعد فترة استطاع آل الصباح أن يطردوا الجلاهمة من الكويت وبقيت الكويت مقرا لهم وحدهم (١) .

ويتضح من هذا أنه حتى نهاية الربع الثالث من القرن الثامن عشر كانت علاقة الكويت علاقة تبعية واضحة للعثمانيين ، وقد رأينا أن أهل الكويت هم الذين بادروا بإعلان هذه التبعية ، حتى قبل أن تطلب منهم ، لأن هذا كان آنذاك وضعاً طبيعياً لا مفر منه ، وكان أسلوب العصر بالنسبة لهذه المناطق .

ومن مطلع الربع الأخير من القرن الثامن عشر دخل عنصر جديد على علاقات الكويت الخارجية ، ذلك العنصر هو بريطانيا التى كانت تحكم الهند ، وتتخذ لها طريقاً برياً تجارياً بين البحر المتوسط والبصرة فشط العرب فالخليج العربى إلى الهند ، وكانت التجارة البريطانية تصل عن هذا الطريق إلى بغداد ودمشق وحلب ، وحدث سنة ١٧٧٥ أن نشبت حرب بين الأتراك العثمانيين والفرس استولى فيها الفرس على البصرة مدة أربع سنوات فحاولت بريطانيا تجارتها إلى الكويت بدلاً البصرة لئلا يفقد في حدود الدولة العلية ، واحتلت الكويت عند بريطانيا لذلك مكاناً مرموقاً وبدأت المنافسة بين القوتين الكبيرتين على الكويت .

وحوالى ذلك التاريخ أيضاً كانت دعوة التوحيد تنتشر فى نجد على حدود الكويت ، وكانت لم تصل بعد إلى الحجاز ، وبالتالي لم تتحرك الدولة العلية لمقاومتها ، وخاف زعماء الكويت من زحف هذه الدعوة ، وأدركوا أن حاجة الانجليز إليهم ماسة بسبب أمن الخط التجارى السابق ، فتقدموا للانجليز سنة ١٨٠٥ يطلبون أن تكون الكويت فى حمايتهم ، ولم تكن بريطانيا تستطيع الموافقة على هذا حتى لا تغضب الدولة العلية التى

مصدر التاريخ : حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٥ وانظر

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٥ وانظر كذلك تاريخ الكويت السياسى لخزعل ج ١ ص ٤٦ .

يمسير الخط التجارى مسافات طويلة فى الأراضى والبحار التابعة لها ،
ولكن ذلك على كل حال قوى العلاقات بين الكويت وبريطانيا •

وشهد القرن التاسع عشر صراعا يدور حول الكويت ، وعلاقات شد
وجذب من هنا ومن هناك ، فالأتراك انتبهوا إلى أهمية الكويت وأطماع
بريطانيا فيها ، وشكوا فى الوقت نفسه فى عمق ولاء أمراء الكويت ، فمضوا
أمير الكويت لقب باشا ، ولقب « قائمقام » تابعا لوالى البصرة سنة ١٨٧١ ،
ومنحت تركيا العائلة المالكة بالكويت أراضى واسعة بالبصرة ومنطقة الفاو ،
وكان تمرد آل الصباح على العثمانيين معناه فقدان هذه الثروة ، واهتم
السلطان عبد الحميد بتثبيت النفوذ العثمانى فى مناطق الخليج (١) •

ولم تجد بريطانيا وسيلة لانكار تبعية الكويت للعثمانيين ، ولكنها
حاولت أن تحصل على نفوذ فى هذه المنطقة مقابل اعترافها بهذه
الحقيقة ، وكانت صلتها بأمراء الكويت ورقة مهمة فى يدها تعتمد عليها ،
فعرضت حكومة الهند سنة ١٨٧٨ أن تعترف الحكومة البريطانية بسيطرة
السلطان على الأراضى الواقعة جنوب البصرة على ساحل الخليج بشرط
أن تستمر السيادة البريطانية على مياه ذلك الساحل (٢) ، ووافق اللورد
سوانديرى على هذه الفكرة •

ومعنى هذا أن اعتراف بريطانيا بحق الدولة العثمانية فى الكويت
لم يعد شيئا مسلما به ، ولا بد من ثمن غال مقابل هذا الاعتراف •

وفى سنة ١٨٩٦ أصبح الشيخ مبارك الصباح حاكما للكويت وسرعان
ما اتضح أنه ذو ميول بريطانية ، ولذلك لم تحسن السلطات العثمانية
استقباله ولم تعينه « قائمقام » إلا فى العام التالى مما جعله يخشى

(١) دكتور محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية
ص ١١٠ ، ١١٥ •

(٢) Government of India to Indian Office 17/9/1878. (٢)

جانب العثمانيين ، وقد حاول الشيخ مبارك أن يحصل من العثمانيين على اعتراف باستقلاله الذاتى ، ولكنه لم ينل ذلك الاعتراف ، فأعلن ميوله البريطانية ، وأرسل برقية سنة ١٨٩٧ إلى الحكومة البريطانية يطلب منها أن تكون الكويت فى حماية بريطانيا ، وقد أرسلت وزارة الخارجية هذه البرقية إلى حكومة الهند ، ونصحت بعدم الاستجابة لمطلب الشيخ .

ولكن حكومة الهند كتبت لوزارة الخارجية البريطانية عقب ذلك تؤيد الاستجابة لمطلب الشيخ . وشرحت المزايا السياسية والاقتصادية لذلك ، وقالت إن مسألة مقاومة تجارة الرقيق يمكن أن تكون سلاحا فى يد بريطانيا تسترضى به رأى العام العالمى .

ونتيجة لذلك وافقت وزارة الخارجية فى ديسمبر سنة ١٨٩٨ على اقتراح حكومة الهند بشرط عدم اللجوء فى الوقت الحاضر إلى ترتيبات عسكرية وبوليسية جديدة .

وهكذا وجدت بريطانيا أن الأوان قد آن لقبول ما ترددت فى قبوله من قبل ، وحتى تأمن العواقب قنعت باتفاق مرن وجعلته فى الوقت نفسه سريا ، وينص هذا الاتفاق الذى عقد فى يناير سنة ١٨٩٩ على تعهد الشيخ مبارك ألا يتنازل عن أى جزء من مقاطعته لدولة أجنبية وألا يستقبل أى ممثل لدولة أجنبية بدون موافقة السلطات البريطانية ، وأن يحصل الشيخ مبارك مقابل هذا على وعد السلطات البريطانية بأن تكون الدوائر البريطانية فى الخليج على استعداد لخدمته وأن تدفع له خزينة دار الاعتماد البريطانى فى كل شهر مبلغ ١٥٠٠٠ روبية ^(١) ، وكان المندوب البريطانى الذى باشر هذا التعهد هو الليفتنانت كولونيل مالكولم جون ميد Malcolm John Meade .

O'Ceana to Lord Salisbury, 1890. (١)

وقد فاحت رائحة هذه الاتفاقية ، وحدثت كثيرا من الاضطراب ، ثم تعقدت قضية النزاع حول السيادة على الكويت عندما ظهرت الشركة الألمانية التى عهد لها بالاشراف على خط السكة الحديدية الممتد من الأناضول إلى بغداد ، فقد تقدمت هذه الشركة بطلب لبناء ميناء على خليج كاظمة بالكويت ، وقد أثارت هذه الأنباء خوف بريطانيا ، وبخاصة أن الشركة تجاهلت الشيخ مبارك واتصلت بالسلطان مباشرة ، ثم إن هذا المشروع سيجلب قوى متعددة إلى الخليج العربى الذى كانت بريطانيا تعد نفسها سيدة الوضع فيه . وفى ضوء ذلك بدأت بريطانيا تفكر فى إعلان الحماية على الكويت بشكل واضح ، وشاع هذا الاتجاه ، فأبرق توفيق باشا رئيس وزراء تركيا إلى وزارة الخارجية البريطانية يتسأل عن حقيقة الإشاعة (١) وفى الوقت نفسه حشدت تركيا بعض قواتها فى الفاو فاحتجت بريطانيا ضد هذا الاستعداد ، فرفضت تركيا هذا الاحتجاج مؤكدة أن الكويت جزء من ولاية البصرة ، وأن جميع الأدلة التاريخية والقانونية تؤكد هذا الحق .

وتدخلت ألمانيا فى الأمر ، فقد تسلم السفير الألمانى فى استانبول معلومات من حكومته تؤكد وجوب قيامه بالاعلان عن وجهة نظر الحكومة الألمانية التى ترى أن اعلان الحماية البريطانية على الكويت أمر يتناقض مع مقررات مؤتمر برلين ، ونظرا للمصالح الألمانية فى الكويت ، ومستقبل نهاية خط حديد الأناضول فإن الحكومة الألمانية سوف تعتبر مثل هذا خطوة غير ودية ، وكان الجواب الذى حصله السفير البريطانى للحكومة الألمانية يقرر أن حكومته لا تنوى اعلان الحماية على الكويت إلا إذا أجبرتها تركيا على ذلك بأعمالها تجاه الكويت (٢) .

وفى سنة ١٩٠٠ هجم الشيخ مبارك والأمير عبد الرحمن الفيصل آل

(١) Telegram no. 12 in 29 August 1901.

(٢) دكتور محمود داود : المرجع السابق ص ١٣٨ .

سعود على إمارة ابن رشيد بنجد ، وقامت معركة عنيفة خسر فيها المهاجمون خسارة فادحة ، وكان هجوم الكويت على ابن الرشيد يحمل معنى التحدي للسلطات التركية التي كانت تمد حمايتها لابن الرشيد وتشمله بعنايتها .

وفي سنة ١٩٠١ بلغت العلاقات بين الكويت وتركيا غاية التوتر ، فقد وصلت البارجة التركية (زحاف) إلى الكويت منذرة بعزل الحاكم ان لم يسمح لجنود الأتراك بالفرزول إلى الكويت ، كما أعدت للهجوم على الكويت حملة مشتركة من الترك ومن جنود ابن الرشيد انتهازا لفرصة الهزيمة السابقة ، وقد فشلت المحاولة بسبب وقوف القوات البريطانية منذرة بالتدخل .

وانتهزت بريطانيا هذه الفرص فتقدمت خطوة أثر خطوة لتمكن نفسها في الكويت كما يلي :

— زار اللواء كيرزوف الكويت في نوفمبر سنة ١٩٠٣ ، وكان يتولى منصب نائب الملك في الهند وبقي في ضيافة الشيخ مبارك يومين ، وقد مكنت هذه الزيارة العلاقات بين البلدين .

— في سنة ١٩٠٤ تم تعيين معتمد سياسي بريطاني في الكويت ، وكان هذا يعني الاعتراف باستقلال الكويت عن الامبراطورية العثمانية ، وقد احتجت تركيا عقب ذلك فانسحب هذا المعتمد ثم أعيد .

— في سنة ١٩٠٦ اقترحت حكومة الهند على الشيخ مبارك أن يرفع علم الكويت الخاص ، وذلك لأجل محاربة تجارة الأسلحة ففعل ، وكان وجود علم خاص للكويت له مغزى التمرد على تركيا .

— وفي سنة ١٩٠٧ وافق الشيخ مبارك على تأجير قطعة من الأرض جنوب بندر شويخ إلى بريطانيا نظير ٦٠,٠٠٠ روبية في العام ، وجعل الحق لبريطانيا في إنهاء هذا العقد وقتما تشاء .

- وفي سنة ١٩١١ تعهد الشيخ مبارك كناية ألا يسمح لأحد بالبحث عن اللؤلؤ أو صيد الأسفنج في مياه الكويت الإقليمية إلا بعد مشورة المقيم السياسى البريطانى في الكويت .

وهكذا قويت العلاقة بالتدريج بين الكويت وبريطانيا ، ولم يعد في مقدور تركيا أن تتجاهل كل هذه العلاقات والمعاهدات ، ولذلك نراها تتراجع عن موقفها المتشدد وتقنع بأن تتصيد بقية من الارتباط بينها وبين الكويت بشكل يستر هذه النتيجة ، ولذلك توصلت بريطانيا وتركيا إلى مسودة معاهدة نصت المادة الأولى منها على اعتراف بريطانيا بأن الكويت جزء من الامبراطورية العثمانية ، ونصت المادة الثانية منها على التزام الامبراطورية العثمانية بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للكويت بما في ذلك مسألة الوراثة ، على أن يرفع الكويت العلم العثمانى ، وأن يكون الشيخ في وظيفة « قائمقام » بالكويت لتكون له السلطة لحماية الرعايا العثمانيين في المنطقة .

وفي المادة الثالثة اعترفت الحكومة العثمانية بالاتفاقات البريطانية السابقة مع الكويت .

في المادة الرابعة تعهدت بريطانيا بالألا تقوم بإعلان الحماية على الكويت (١) .

ويلاحظ على هذه المسودة أنها لم يتم التصديق عليها وإن كانت اعتبرت نافذة من يوم الاتفاق عليها ، وفيما يتعلق بالمادة الرابعة فإن بريطانيا فسرتها بأن لها أن تباشر الحماية على الكويت وإن كانت لا تعلن ذلك .

وبعد ذلك بقليل طلب من الشيخ أن يقدم تعهدا بالألا يمنح حق

(١) دكتور محمود على الداود : المرجع السابق ص ٢٠٢ بتصرف .

استغلال البترول في أراضيه إلا لمن تركيه الحكومة البريطانية ، فقدم الشيخ ذلك التعهد في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٣ •

وقامت الحرب العالمية الأولى فأخذت الكويت جانب بريطانيا ضد تركيا ، وفي مقابل ذلك ضمنت بريطانيا الأمير الكويت حقوقه في حدائق الفاو ، وبعد الحرب وهزيمة تركيا تخلت هذه في معاهدة سيفر عن كل ما كان لها من حقوق أو ما ادعته من حقوق أو سيادة على المناطق العربية ومن بينها الكويت ، وأصبح لا يناقش بريطانيا مناس في مكانتها بالكويت •

وفي حديثنا عن السلطات بالكويت ينبغي أن نعود للوراء لنثبت أنه في سنة ١٨٣٨ عندما وصل الجيش المصري إلى شواطئ الخليج إبان حربه مع السعوديين ، وضعت مصر لها مندوبا في الكويت ، وكانت وظيفته سياسية ، وكان شيخ الكويت في ذلك الوقت هو الشيخ جابر بن عبد الله ثالث أمراء الكويت (١) •

أمراء الكويت :

وأمراء الكويت هم :

١٧٧٦ — ١٧١٨

صباح الأول

١٨١٤ — ١٧٧٦

عبد الله بن صباح

١٨٥٩ — ١٨١٤

جابر بن عبد الله

١٨٦٦ — ١٨٥٩

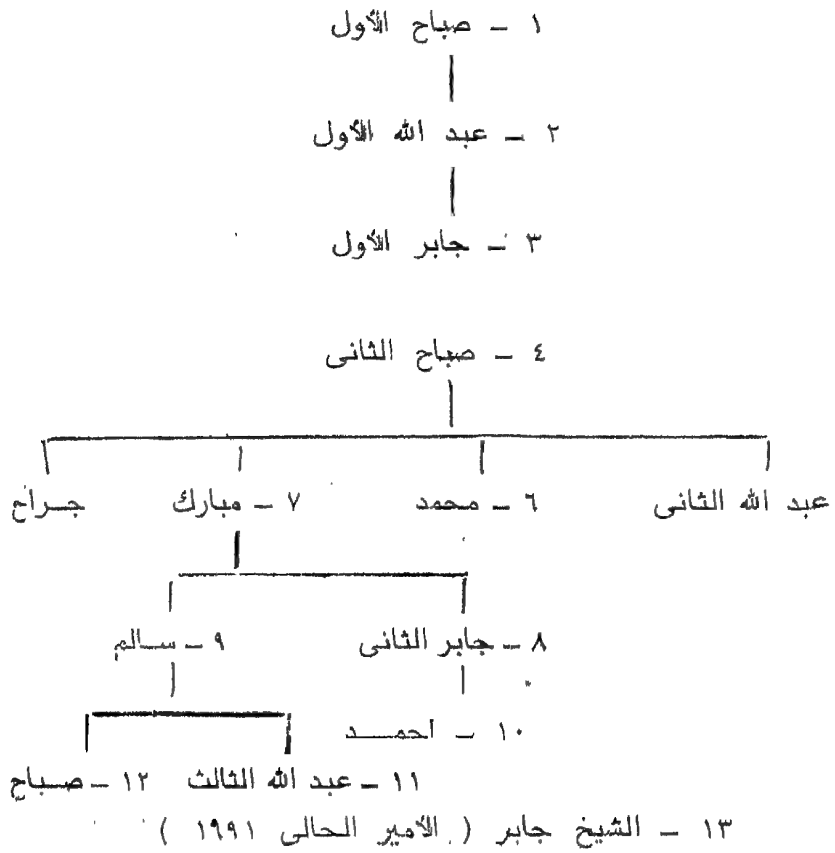
الصباح الثاني بن جابر

١٨٩٢ — ١٨٦٦

عبد الله الثاني

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٩٧ •

١٨٩٦ — ١٨٩٢	محمد الصباح
١٩١٥ — ١٨٩٦	مبارك الصباح
١٩١٧ — ١٩١٥	جابر بن مبارك
١٩٣١ — ١٩١٧	سالم بن مبارك
١٩٥٠ — ١٩٣١	أحمد بن جابر
١٩٦٥ — ١٩٥٠	عبد الله بن سالم
١٩٧٦ — ١٩٦٥	صباح بن سالم المبارك
١٩٧٦	الشيخ جابر الأمير الحالي (١٩٩١)



كلمة عن أمراء الكويت :

يمكن مما سبق أن نقول أن أساس دولة الكويت وُضع في عهد الشيخ مبارك ، وكان الشيخ يمتاز بالذكاء والطموح ، ولكنه لم يكن يبالي بالدم ليحقق طموحه ، فقد قتل أخوته محمدا وجراحا حتى يتخلص من منافساتهما ، وأرغم وجهاء الكويت على الخضوع له واستطاع أن يتصدى لأولئك الذين حاولوا أن يثأروا منه ، وكان في قمتهم يوسف بن عبد الله الذي لجأ له أبناء أخوى مبارك القتيلين ، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه مثالا .

ويقول عبد العزيز الرشيد أن عهد الشيخ مبارك في تاريخ الكويت عهد حافل بالأحداث والأعمال ، بل يعتبر هذا العهد نقطة تحول في تاريخ البلاد ، فقد برزت الكويت إلى الوجود بفضلها ، وأصبح لها كيان معروف ليس فقط في منطقة الخليج بل على الصعيد الدولي (١) .

ولابد من وقفة أطول مع الشيخ مبارك وابنه جابر ، وعنهما نقتبس من الشيخ حافظ وهبة الكاتب الثقة بضعة سطور ، يقول الشيخ حافظ وهبة :

في سنة ١٩١٥ كنت في حديث مع الشيخ جابر ولي عهد الكويت في فترة إمارة الشيخ مبارك ، وقلت له : إنني أنكر على الشيخ مبارك فداحة الضرائب وطريقة صرفها ، فإن الشيخ مبارك أخرج على كل مألوف من التقاليد الدينية والعربية ، وأخذ يستهتر بكل شيء ، كما أنه وضع ضرائب على البيوت تقضى بدفع ثلث قيمة كل بيت يباع مما لم يعرف من قبل في بلاد العرب ، وكنت أشرح للشيخ جابر حديث : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، وإنني في نفس الوقت لم أنس أن أذكر بعض الصفات الطيبة التي أمتاز بها الشيخ مبارك من غيرته على الكويت وأهلها ودفاعه عن مصالح أهلها والعمل لاستقرار الأمن وزيادة حركة التجارة فيها ، فقال :

الشيخ جابر : إن كلامك كلام مطاوعة (أهل الدين) ما هي ميزة الأمير على الباعة وأصحاب الدكاكين يا شيخ حافظ ؟ خذها كلمة جامعة : الرعاية مثل الغنم كلما طال صوفها جذذناه ، فقلت له : ولكن الغنم يا حضرة الشيخ تحتاج إلى من يعنى بها كي يتكاثر نسلها ، وأنتم لا تكفون بالصوف فإن المقص كثيرا ما يصيب الجلد . فقال : إن الحاكم يجب أن تكون يده مطلقة في كل شيء ؛ في المال وفي الأرواح (١) .

ومن الممكن أن نقفز أميرين من أمراء آل الصباح هما جابر الثاني بن مبارك (١٩١٥ — ١٩١٧) وسالم بن مبارك (١٩١٧ — ١٩٢١) لقصر عهدهما ، ولعدم وجود عناصر خطيرة في تاريخ الكويت خلال هذين العهدين ، ونصل بذلك إلى الأمير أحمد بن جابر الصباح (١٩٢١ — ١٩٥٠) الذى يوصف بأنه كان في غاية الذكاء ، وكان يميل إلى الأناة والتبصر في أعماله وفي عهده (سنة ١٩٤٠) عقدت ثلاثة اتفاقات بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، وكان الشيخ حافظ وهبة ممثلاً للسعودية ، وهو يتحدث عنها في كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » .

وهذه الاتفاقات هي :

- ١ — معاهدة صداقة وحسن جوار .
- ٢ — معاهدة تجارية .
- ٣ — اتفاقية لتسليم المجرمين .

وتبودلت الزيارات بين أمراء الكويت وملك السعودية ، وفي سنة ١٩٤٧ عقدت معاهدة الدفاع المشترك بين البلدين .

وبعد الأمير أحمد بن جابر تولى الشيخ عبد الله السالم الصباح سنة ١٩٥٠ ، وظل أميرا حتى توفي سنة ١٩٦٥ ، وإذا كان البترول قد بدأ يتدفق في الكويت قبل ذلك ، فإن نتائجه الحقيقية ظهرت في عهد الشيخ عبد الله ، وبالتالي بدأت الكويت تأخذ طابعها الجديد في ناحية السياسة

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين : الشيخ حافظ وهبة ، ص ١٥٥

والاقتصاد والذخيرة الاجتماعية ، وفي عهد الشيخ عبد الله قضي على الجهل والفقر والمرض بالكويت ، وبدأ شعب الكويت يسير نحو التقدم الموضح .

وفي ١٩ يونيو ١٩٦١ ألغيت الحماية التي كانت مفروضة على الكويت تبعاً لاتفاقية ٢٣ يناير سنة ١٨٩١ ، وأعلنت الحكومة البريطانية إلغاء هذه الاتفاقية ، واعترافاً بسيادة الكويت الكاملة ، وبأن حكومة الكويت تتحمل وحدها جميع مسؤوليات تسير شؤون الكويت الداخلية والخارجية .

وفي ١٦ يوليو سنة ١٩٦١ قرر مجلس جامعة الدول العربية الموافقة على طلب الكويت الانضمام لهذه الجامعة .

وفي ٧ أكتوبر من نفس العام صدر قانون إنشاء المجلس التأسيسي .
وفي ديسمبر من نفس العام أجريت انتخابات لاختيار عشرين عضواً للجمعية التأسيسية التي صنعت دستور البلاد .

وفي ٦ يناير سنة ١٩٦٢ صدر الدستور المؤقت لدولة الكويت .
وفي يناير سنة ١٩٦٣ أجريت انتخابات أول مجلس نيابي بالكويت ، وتم تكوين مجلس للوزراء في الشهر نفسه .
وفي مارس سنة ١٩٦٣ أصبحت الكويت عضواً في هيئة الأمم المتحدة .

وهكذا نجد أنه في عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح أصبحت دولة الكويت دولة واضحة المعالم ، ليس فقط في عالم الاقتصاد ، بل في عالم السياسة .

وعندما نصل إلى أمير الكويت الشيخ صباح السالم الصباح نقرر حقيقة مهمة هي أنه كان أبرز القوى الفعالة في عهد أخيه الشيخ عبد الله ، وأن ما تحقق في عهد الشيخ عبد الله كان إلى حد كبير بيد

الشيخ صباح الذي كان يتولى أهم المناصب التنفيذية ، والذي حمل العبء لاقتراح هذه الانجازات وتحقيقها فقد كان أول وزير للخارجية في أول وزارة تشكلت بالكويت سنة ١٩٦٢ ، وعين ولياً للمعهد ونائب رئيس الوزراء في أكتوبر سنة ١٩٦٤ وكانت رئاسة الوزراء للأمير ، وهكذا نجده واضع أساس الانجازات السابقة ، وهو بهذا أجدر من استطاع أن يعمل لاستكمالها حين أصبح أميراً للكويت عقب وفاة أخيه في نوفمبر سنة ١٩٦٥ .

اقتصاد الكويت :

لقد غطى البترول بالكويت على كل مصادر الثروة وأصبحت كلمة الكويت توشك أن تعادل كلمة النفط ، فإذا ذكرت الكويت امتلأ الجو بصخب الماكينات وبرائحة البترول ، وعلى هذا حجب البترول سواء من المصادر وأثر عليها ، بل أوشك أن يقضى عليها .

والحق ان للكويت مصادر ثروة كانت قبل البترول ذات بال ، فموقع الكويت الاستراتيجي يجلب لها عديداً من الطائرات والبواخر كل يوم ، وتعود على الكويت فوائد مالية عظيمة مباشرة بسبب هذا الموقع ، وبسبب ما يجلبه من رسوم وأعمال لآلاف الأيدي العاملة .

وموقع الكويت دفع السكان منذ مدة طويلة إلى استغلال الخليج العربي الذي يكثر فيه اللؤلؤ الطبيعي ، ويكثر فيه الاسفنج ، وكان اللؤلؤ والاسفنج مصادر ثروة للكويتيين ، ولكن ظهور اللؤلؤ الصناعي قلل من أهمية اللؤلؤ الطبيعي ، ثم إن تدفق النفط جذب الأيدي العاملة للثراء السريع بدل الغوص خلف اللؤلؤ والاسفنج .

ومما اشتهرت به الكويت من قبل صناعة بناء السفن ، وكانت سفن الكويت مشهورة بحسن شكلها وجودة صنعتها ، وهي على أنواع : فمنها نوع للعبور والانتزه ، ومنها سفن الغوص ، ومنها السفن التجارية الكبيرة التي كانت تنشق الأبواب إلى مدغشقر وزنجبار والهند . وهذا دفع

أهل الكويت إلى إجابة التجارة العالمية بالإضافة إلى عملهم للنقل بين
المواصم التجارية المختلفة ويمكن للقارئ أن يتصور مدى ما كان للكويت
من نشاط بحري إذا لاحظ أن السكان عندما كان عددهم عشرة آلاف نسمة
كانوا يملكون ٨٠٠ سفينة^(١) تباشر مختلف الأغراض السابقة .

ومن مصادر الثروة بالكويت كذلك صيد السمك ، وفي مياه الكويت
أنواع مهمة من الأسماك كالسردين والطن والقرش والزبيدي ، وكانت
صناعة صيد السمك تمثل مصدراً مهماً من مصادر الثروة .

ولدى الكويت محاولات للزراعة وبخاصة لزراعة الخضر ، ولكن
قلة الأمطار لا تساعد على الاتساع في الزراعة ، وعندما تهطل الأمطار
تخضر الأرض وتكون مرعى طيباً لقطعان الماشية ببادية الكويت ، ولذلك
كان صوف الماعز والجلود من بين الصادرات الكويتية للخارج .

على أن الذهب الأسود عندما تدفق غير مجرى الحياة ، وجذب
الأيدي العاملة من المدن ومن الخيام والبادية كما سبق القول ، فقل
الاهتمام بالصناعات الأخرى واتجه كل الاهتمام إلى المعدن الجديد الذي
جلب الخير دون عناء كبير .

ولست أسترسل في الحديث عن كمية النفط الهائلة التي تنتجها آبار
الكويت وآبار المنطقة المحايدة ، وبتروال الكويت يمتاز بأنه قريب من
سطح الأرض فلا يحتاج إلى عناء أو ضغط ليتدفق .

وإذا لوحظت النسبة بين عدد السكان وبين كميات النفط التي تقذف
بها أرض الكويت أدركنا أن الكويت دولة ترفيهية وأنها تصل إلى درجة
عالية جداً من الفنى والثراء .

الحياة في الكويت :

إن أثر النفط واضح تمام الوضوح على حياة الكويت شعباً وحكومة ،

(١) تقويم العالم الاسلامي ص ١٦٣ .

فالتعليم في كل مستوياته بالمجان ، ويصرف للطلاب ما يحتاجونه من طعام وشراب ولباس وكتب .

وقد ازدهرت المدارس في الحضر والبادية ، ونالت المرأة نصيبها كاملاً من الثقافة بفد أن كانت محرومة من التعليم ، وفتحت جامعة الكويت في العقد السادس ، وسرعان ما علا شأنها وارتفع مستواها ، ولم تقنع بالدرجات الجامعية في حدود الليسانس بل تقدمت تجاه الدراسات العليا .

وقد منح المتقدم العلمي للمرأة مجالاً واسعاً من التطور ، فبعد أن كانت المرأة الكويتية لا تخرج من بيتها إلا لملأ ولا تتعرض لمقابلة الرجال الأجانب ويقتصر خروجها من البيت على زيارة النساء من أقاربها (١) . أصبحت تقتحم ميادين العمل وتباشر مختلف الأعمال والوظائف ، فأصبحت طبيبة في المستشفيات ومدرسة في المدارس ، ومذيعة بالذيع والتليفزيون ، وصحفية ، وقلماً بقى ميدان من ميادين العمل إلا اقتصمته ومن العادات الطيبة في الكويت عدم المغالاة في مظاهر الحزن عند الوفاة بل أنها إلى حد كبير تتبع الفكر الإسلامي عندما تحل هذه الأحداث .

وتمتاز الكويت باستتباب الأمن بها إلى درجة كبيرة وذلك يرجع إلى وفرة الرخاء ، فكثيراً ما يكون المال هو السبب فيما يحدث من صراع ، على أن طبيعة الرجل الكويتي نفسه كانت من أهم أسباب استتباب الأمن فهو بطبيعته ميال للهدوء وعدم الالتفات لما يعكر صفوه ، ولهذا يغلب في الحوادث التي تقع في الكويت أن تكون هناك أصعب أجنبية دفعت لوقوع هذه الحوادث .

وتتعم الكويت بنظام تأميم الطب ، والمستشفيات الكويتية أعدت

(١) ليس الطحاوي : المرأة في الكويت .

أعظم اعداد ، وبها أحدث الأجهزة العلمية ، وهي تقدم العلاج والوقاية المجانية للمقيمين في الكويت من المواطنين والوافدين ^(١) .

وفي الكويت حركة تعمير مزدهرة وهي تشمل اعداد أضخم المباني للحكومة ، وأضخم المباني للمؤسسات التي استلزمها التطور العام في جميع مجالاته ، فقصور الأمراء تعد من الفن الحديث ، وأبنية الحكومة شاهقة رفيعة العماد والأثاث .

والمستشفيات والمدارس والمساجد تتنافس في جلالها وجمالها .

الكويت والعرب :

اتجهت الكويت منذ وقت مبكر إلى التعاون مع شقيقاتها الدول العربية في مجال التنمية الاقتصادية ، فأُسست « الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية » وكان تأسيس هذا الصندوق سنة ١٩٦١ وغرضه مساعدة الدول العربية في تطوير اقتصادياتها ، وفي مدها بالقروض اللازمة لتنفيذ برامج التنمية فيها .

وكان رأس مال الصندوق خمسين مليون دينار ، ثم زيد بعد ذلك وهو يقدم قروضا في حدود نصف تكاليف المشروع الذي يطلب القرض له وقدم هذا الصندوق بالفعل قروضا لبعض الدول العربية للمساهمة في بعض المشروعات الاقتصادية زراعية كانت أو صناعية ، وفي نفس العام تقدمت الكويت بعون ثقافي إلى إمارات ساحل الصالح التي كان التعليم فيها يسير على النمط القديم ، فأنشأت الكويت بها مدارس حديثة ، وأمدتها بالمدرسين والأدوات والكتب فرفعت بذلك مستوى التعليم في هذه الإمارات إلى درجة كبيرة . قبل أن يتدفق النفط في هذه الإمارات فيضمن لها استقلالاً اقتصادياً وحياة مترفة .

(١) دليل الكويت العام .

وفي سنة ١٩٦٣ أنشئ البنك العربي الافريقي برأسمال مشترك بين مصر والكويت ، والهدف منه ايجاد أسس للتعاون بين البلدين في مجال المال والتجارة ، والتعاون كذلك مع الدول الافريقية الصديقة لمواجهة التسال الإسرائيلي الذي يتخذ الاقتصاد أحد وسائله .

وافتتحت الكويت مدرسة في بومباي وأخرى في كراتشي لتعليم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي لأبناء العرب المقيمين هناك ، ولن شاء أن يتلقى هذه الثقافات من أبناء الهند والباكستان (١) .

ومع أن هذا النشاط جدير بالتقدير فإنني أرى أنه ما يزال بعيدا عما يجب أن يكون ، فليس من صالح الكويت أن تضع نفسها في حياة ترف وبذخ بسبب ما تدفق بها من النفط وبجوارها دول عربية لا تزال تعيش دون الوصول إلى الكفاية ، وسون تحقيق ضروريات الحياة .

وإذا كانت الكويت تنعم بالمال ، فلدى الدول العربية الاخرى مصادر ثراء تاريخي أو بشري ، ومن اللازم أن تتبادل هذه المصادر والمنح بشكل متناسب ، وتقل قيمة التعاون إذا ربطها القاموس العربي بكلمات قاسية ككلمة المنح والدعم ونحن نتطلع إلى عهد يقرّب بين الشعوب العربية في مختلف المجالات ، ويخلق شعورا حقيقيا بأن من العيب أن يعيش عربي في ترف وآخر في حرمان ، وسلامة العرب في تعاونهم ، ولا يتم التعاون مع انتشار الترف في مكان والفاقة في مكان آخر .

الفنى والفقر

في الطبقات السابقة لهذا الكتاب كنا نختم حديثنا عن الكويت بالفقرة الذي رآها القارئ آنفا ولا مانع من إعادتها مرة ثانية لنعلق عليها :

(١) دكتور ابراهيم عبده : دولة الكويت الحديثة ص ٥٥ - ٥٦ .

ليس من صالح الكويت أن تضع نفسها في حياة ترف
وبذخ بسبب ما تدفق بها من النفط ، وبجوارها دول عربية
لا تزال تعيش دون الوصول إلى الكفاية ودون تحقيق
ضرورات الحياة •

ذلك ما قلته في الطبعات السابقة ثم جاء الزحف العراقي الذي اجتاحت
الكويت ، وأعلن عودتها جزءا من لواء البصرة كما كانت من قبل كما يرى
ذلك الجانب العراقي •

وهذا الزحف سنخصص له دراسات كافية فيما بعد ، ولكننا هنا
نقرر أن الغنى والفقير كانا من الأسباب الحقيقية التي دعت لهذا الزحف
أو أيكده ، فقد ادعى العراقيون أن العراق مدينة للكويت بمبلغ يزيد عن
١٢ بليوناً (مليارات) من الدولارات دفعتها للعراق إبان حربها مع إيران ،
ورفضت الكويت التنازل عن هذا المبلغ واعتبرته قرضاً ، وتزى العراق
أنه إسهام في الحرب التي كان خطرها سيمتد بدون شك للكويت ولغيرها
من دول الضفة الغربية للخليج لو قدر لإيران أن تقتصر ، واتجهت دول
ومؤسسات عربية لتأييد العراق ربما بدافع الغنى والفقير أيضاً •

ثم كشف الغزو العراقي للكويت عن ثراء خطير تتمتع به هذه الدولة
الصغيرة التي يصل تعداد سكانها من الكويتيين حوالى نصف مليون فقط ،
وهذا العدد القليل يملك أرقاما قياسية من الثراء وبخاصة
أمرأؤه وأثريائه ، فقد ذكرت الأنباء أن أمير الكويت الأمير جابر
يمتلك ٢٠٠ مليار من الدولارات ويمتلك أخوه وأسرته مثل ذلك أو أكثر
من ذلك ، وأن دولة الكويت لها استثمارات في دول العالم الغنية تصل
إلى أرقام خيالية •

وهناك الأمير الكويتي طلال الصباح الذي ذكرت الصحف أنه ينفق
على الهروين ١٥,٠٠٠ دولار كل يوم عدا البذخ الذي يعيش فيه ، وعدا

محاولته قتل المطرب « أحمد عدوية » تلك المحاولة التي نجا منها عدوية ،
ولكنها تركته أقرب للفقر والحطام .

ويقال إن الانسان المعادي في الكويت عندما يريد أن يتزوج يقدم لخطيبته
« حزام جابر » في شكل « شبكة » وهذا الحزام يختلف ثقله ونسوع
الجواهر به باختلاف مستوى العريس والعروس ، وهو يحيط بخصر
الفتاة وتتدلى فيه الجواهر والجنبيات الذهبية ، ويتكرر « حزام جابر »
لو أنجبت العروس ابناً ذكراً لزوجها هذا بخلاف السيارات الفارهة
التي يصنع بعضها خصيصاً لأمرأء الكويت وأثريائه وبخلاف القصور التي
تنزوى أمامها قصور ألف ليلة وليلة .

وهناك ثراء كهذا أو قريب منه يوجد في الولايات المتحدة وفي اليابان
وألمانيا ، ولكنه جاء نتيجة جهد وعرق ، أما ثراء الكويت فقد جاء من تدفق
النفط الذي يوشك أن يفوق مياه الخليج .

ومع هذا فإن الولايات المتحدة واليابان وألمانيا تقدم للدول المحتاجة
التي لا تربطها بها رابطة غير رابطة الانسانية قدراً كبيراً من المعون ، أما
الكويت فإنها تحيط بها مجاعات قاتلة ، وتصحّر مهلك في البلاد العربية
والإسلامية ، وتتضرر الكويت لتقديم عون يوصف بأنه « بالقطارة » أي
أنه قدر زهيد ، وأنه محفوف بالمان والأذى .

ليس معنى هذا أننا نقرّ زحف العراق على الكويت ، فهذا شيء
نستنكره ، ولكننا في الوقت نفسه نستنكر الحرص الشديد الذي تعيش
فيه الكويت مغمضة العين عن كل ما حولها ومن حولها .

وكلمة حق إنها ليست الكويت وحدها في مكان النقد وإنما بعض دول
الخليج الأخرى تشترك مع الكويت في هذا الوضع ، وإن كان ثراء الكويت
فيها يبدو أعظم وأخطر .

وقد تعرضت الكويت عام استقلالها سنة ١٩٦١ إلى نوع مما تعرضت سنة ١٩٩٠ فقد أعلن عبد الكريم قاسم رئيس العراق آنذاك أن الكويت جزء من العراق ، وبدأ يشعد العدة للزحف على الكويت ، فأرسل عبد الناصر رئيس مصر آنذاك إنذارا بأن مصر ستتدخل لحماية الكويت .

ماذا قدمت الكويت لمصر نظير ذلك ؟

إنها بالتأكيد لم تقدم شيئا يتناسب مع موقف مصر منها وحمائيتها لها ، ونسيت الكويت أنها إن كانت تملك المال فهي في حاجة إلى ما يملكه الآخرون من قوة ومواهب .

ولا يزال يعيش في مصر شيخ تقدمت به السن ، وهو يروى أنه كان ناظر المدرسة الوحيدة التي كانت بالكويت ، وكانت مدرسة مصرية ، ويذكر هذا الشيخ أنه في مطلع العام الدراسي كان يرحل بالباخرة للكويت على حساب مصر ، ومعه المدرسون والطباشير والسبورات ، فهل يذكر الكويتيون ذلك ؟

نحن لا نمنّ ولا نملك أن نمنّ ، فهو دورنا في الحياة ، ففتح أجدادنا الأزهر منذ أكثر من ألف عام وأنشئوا فيه الأروقة لكل الأقطار ، وقدموا العلم والسكن والطعام والكساء للطلاب ، ولا تزال الأروقة تؤدي نفس الدور حتى الآن .

إننا فقط نذكر هذه الأشياء ، لنذكر من قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة .

وأخيرا فإننا لو وضعنا ثراء الكويت في جانب وأطفال السودان الجياع في جانب آخر لسخطنا على من لم يؤد حق المال لمن حوله من المحتاجين .

وقد أجمع علماء الغرب على أن نظام الزكاة الإسلامي هو الذي
حرس العالم الإسلامي من ثورات الفقراء ضد الأغنياء ، فإذا بخل
أغنياء المسلمين بأموالهم فليستعدشوا لثورات لا تبقى ولا تذر ، وإننا
نرفع أصواتنا بذلك لينعم الأغنياء والفقراء جميعا بهال الله .

أما قضية الحرب بين العراق والكويت ونتائجها فلنا وقفة طويلة معها
بعد حديثنا عن العراق ، وستشمل هذه الدراسة تلك القضية من الألف
إلى الياء .

العراق

مقدمة

عندما نصل في دراستنا إلى العراق نجدنا واقفين أمام طريق طويل من الحضارة والمجد ، وأمام أحداث حفلت بالزهور والأشواك . وفي الحق إننى كباحث يطيب لى أن أطيل وقفتى مع العراق ، ودراستى مع بغداد ، وحياتى مع البلاد التى عاش فيها المنصور والرشيد والمأمون ، والتى أنبتت خيرة المفكرين والباحثين والتى ازدهر فيها بيت الحكمة والنظامية والمستنصرية وغيرها من مراكز العلم والمعرفة .

لقد قام عصر صدر الإسلام بمهمته فى تقديم الإسلام وشرحه والدفاع عنه ، وحكم العصر الأموى مسئولية اتساع الرقعة الإسلامية ، وجاء العصر العباسى ليقوم بدوره الحضارى العظيم بالنسبة للعالم الإسلامى الفسيخ ، بل بالنسبة للجنس البشرى كله .

وتخطيط هذه الموسوعة يضع العراق فى مكانه الجغرافى بهذا الجزء السابع ، وربما كان من حق العراق أن يأخذ نصيبا كبيرا فى هذا الجزء ، ولكن إيضاح التاريخ المبهم فى الجزيرة العربية وفى منطقة الخليج التهم أكثر الصفحات .

وفى هذا الجزء (السابع) قد ادّخرتُ قدراً مناسباً من الفراغ لأعرض تاريخ العراق من سلسلا من مطلع الإسلام حتى الآن ، وأن أوضح ما غمض من هذا التاريخ ، وأعلق ولو بإيجاز على أحداثه ، وكتابة تاريخ العراق كله على هذا النمط عمل يحتاج لمساحة واسعة جداً ، ولكن مما ساعدنى على الإيجاز هنا أننى خصصت العراق بالجزء الثالث من هذه الموسوعة وكتبت عنه كثيراً فى الأجزاء الأخرى منها .

ومراجع تاريخ العراق وغيرة ، وتوشك أن تكون كلها أو جلها بين يدى ، وقد قرأتها جميعاً واستوعبتها ، وكان من الممكن أن أكتب عن العراق كتابة مستفيضة ، ولكن نطاق الموسوعة لا يحتمل التفاصيل حتى

لا تزيد الأجزاء عن العشرة ، وحتى لا يزيد حجم كل جزء عن القدر المتعارف عليه •

وفي البدء والختام نرجو من الله العون والتوفيق •

تعريف سريع بالعراق

نبذة عن التاريخ القديم :

يُعتبر العراق من أعرق دول العالم ، فقد قامت به حضارات يرجع عمرها إلى حوالي ٥٠٠٠ ق.م ، ومن أشهرها حضارة السومريين في جنوبي العراق ، ثم حضارة الأكاديين ، ولا تزال لهم آثار جنوبي بغداد الحالية وبعدهم أسس البابليون دولتهم ، وكانت عاصمتهم تسمى بابل ، ولا تزال آثارها قريبة من مدينة الحلة ، ومن أشهر ملوكها حمورابي العظيم الذي عاش حوالي ١٩٤٠ ق.م وغلّب الملوك الذين حوله وبسط نفوذ بابل على المنطقة الشمالية من بلاد ما بين النهرين ، فأسس بذلك امبراطورية كبيرة ، ويعتبر قانونه رائدا يدل على استنارة القائد ونضج عقله ، وهو عمل خالد له وللشرق ، وبعد البابليين قامت المملكة الآشورية ، وكانت نينوى التي تقع قريبا من مدينة الموصل عاصمتها الرئيسية ، وقد امتد سلطان الامبراطورية الآشورية امتدادا واسعا ، وأشهر ملوكها سرجون الثاني (٧٢٢ — ٧٠٥ ق.م) وسنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م) وآشور بانيبال ، (٦٦٩ — ٦٢٦ ق.م) وجاء الكلدانيون بعد الآشوريين ، وأشهر ملوكهم نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ — ٥٦٢ ق.م) ، الذي سيطر على مملكتي إسرائيل ويهوذا ودمّر الهيكل وسبى أكثر السكان اليهود إلى بابل وبعد ذلك غزا الفرس بلاد العراق حتى طردهم الاسكندر ، وجاء بعد الاسكندر الفرثيون ، فالحكم الساساني الفارسي الذي قضى عليه المسلمون في موقعة القادسية كما سنرى فيما بعد •

موقع العراق :

يقع العراق بين خطي عرض ٣٠ و ٣٧ درجة شمالا وخطي طول

٤٨٣٨ درجة شرقاً بوجه التقريب ، ويحد العراق من الشمال تركيا ومن الشرق إيران ، ومن الغرب سوريا والأردن والسعودية ، ومن الجنوب الخليج العربى والكويت والسعودية ، وتبلغ حدود العراق البرية ٣٥٥٠ كيلو مترا والحدود البحرية (على ساحل الخليج العربى) ٦٠ كيلو مترا تقريبا ، ومساحة العراق ٤٣٨٤٤٦ كيلو مترا مربعا ، وهى تشمل مساحة العراق البرية ومساحة المياه الاقليمية .

سطح العراق :

ينقسم سطح العراق ثلاثة أقسام كبرى : القسم الأول السهل الرسوبى الذى يتكون من سهل طولى يمتد فى جنوبى العراق ووسطه ويخترقه نهر دجلة والفرات وفروعهما ، وبه أكثر من ٦٠٪ من السكان ، وأرضه خصبة ، وبسبب وفرة المياه وخصوبة الأرض ازدهرت به الزراعة ، ونشأت على ضفاف الأنهار أعظم مدن العراق .

والقسم الثانى يمثل الهضبة الصحراوية التى تمتد فى غربى العراق ، وتوجد بها مجموعة من الوديان تجرى فيها المياه فى مواسم الأمطار وهذا القسم قليل السكان ، إذ لا يوجد به أكثر من ٣٪ من سكان العراق وأكثرهم من البدو الرحل .

والقسم الثالث المنطقة الجبلية التى تقع شمالى العراق وشمال شرقى العراق ، وتهطل أمطار تكفى للزراعة ، ومن أجل هذا تكثر بها زراعة القمح والتبغ والبنجر والكروم والزيتون ويطنها حوالى ثلث سكان العراق ، ومن المدن الهامة بهذا القسم الموصل وكركوك والسليمانية وأربيل وخانقين .

ومناخ العراق حار جاف فى الصيف بارد رطب فى الشتاء بوجه عام .

وبالنسبة لمياه الأمطار العراقية اهتمت الحكومات الوطنية ببناء السدود للتحكم في هذه المياه ولحسن الانتفاع بها ومنها سد الكوت الذي ينظم مياه دجلة ، وقد تم إنشاؤه سنة ١٩٣٩ ، وسد منصورية الجبل الذي تم إنشاؤه سنة ١٩٤٠ لتنظيم مياه نهر ديالى ، ومنها سدود تمت عقب ذلك أو مشاريع سدود لا يزال العمل جاريا فيها •

السكان في العراق :

يبلغ مجموع سكان العراق سنة ١٩٧٥ حوالى ١٢ مليوناً حسب ما تقوله النشرات الرسمية ، منهم ١٥٪ من الأكراد الذين يعيشون في الأقسام الجبلية الشمالية الشرقية ، وهم أكبر الأقليات ، وسنتكلم عنهم بعد قليل ، وهناك أقليات أخرى كالتركمان وهم بقايا العشائر التركمانية التي حكمت العراق بعد الجلائريين كما سنرى فيما بعد ، ويعيش التركمان في قرى ومدن تقع بين المناطق الكردية والعربية وهناك أقليات أخرى بالعراق من الفرس والزيدية والنصابتة والأشوريين واليهود وغيرهم ، أما باقى السكان فهم عرب وفدوا على شكل هجرات متتالية منذ زمن طويل ، وقد استقر بعضهم في المدن والقرى ، ولا يزال بعضهم بدوا يعيشون رحلا من مكان إلى آخر ، وتبذل الحكومة العراقية جهودا كبرى لتوطين هؤلاء البدو •

كلمة عن الأكراد :

والأكراد بالعراق جديرون بكلمة خاصة ، وهم جزء من الأكراد الذين يعيشون في هضبة فسيحة هي هضبة كردستان ويقع بعضها الآن في تركيا وفي أرمينيا السوفيتية وشمال شرق العراق وشمال غرب إيران ، وفي العراق يتركز الكرد حول الموصل وكركوك والسليمانية ، وسكان السليمانية كلهم من الأكراد تقريبا ، والأكراد مسلمون سنيون ، وهم شعب قوى محارب يعمل للاستقلال بجذ وقوة ، وقد منحتهم ثورة ١٧ يوليو ١٩٦٨ الحكم الذاتي ، وبعض الأكراد وصل إلى درجة عالية في الثقافة العربية ،

وفي هذا المجال لابد أن يتذكر العالم اللغوي الكبير محمد كرد علي مؤلف (خطط الشام) و (الإسلام والحضارة العربية) وغيرها ، وهو سوري الجنسية .

والزراعة هي الحرفة الرئيسية لمعظم العراقيين ، وأهم المزروعات بالعراق القطن والذرة والعدس والسمسم والخضروات والفواكه ، ويعتبر العراق من أهم الأقطار التي ينمو بها النخيل ، ولذلك يحتل العراق مرتبة عالية في إنتاج التمور ، وبعد الزراعة تجيء الصناعة . وأهم الصناعات بالعراق صناعة النفط ثم صناعة النسيج والصناعات الغذائية وصناعة التبغ والسجائر وحليج الأقطان والجلود .

نفط العراق :

يعتبر العراق في المرتبة السادسة بين الأقطار المنتجة للنفط في العالم ، ويوزع النفط في أرض العراق توزيعاً أقرب ما يكون للعدالة فهو يوجد في منطقة كركوك وفي منطقة الموصل وفي منطقة البصرة ، وسنرى أن الحكومات الوطنية حررت ثروات القطر النفطية من سيطرة الاحتكارات الدولية .

وبعد هذا التعريف السريع بالعراق نتجه لدراسة تاريخه وحضارته في جميع عصوره الإسلامية فيما يلي :

العراق في صدر الإسلام

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة ^(١) حديثاً مجملًا عن فتح العراق وفارس ، ونريد أن نعطي بعض التفاصيل عن فتح العراق ثم نواصل دراستنا عن تاريخه .

وبإحدى ذي بدء نقرر أن العراق الحالي يشمل مملكة الحيرة التي ذكرنا في الجزء الأول ^(٢) أنها كانت على حافة البادية غرب الفرات كما يشمل أرض السواد وهي التي كانت تسمى « العراق » والتي تضم الجزء الجنوبي من العراق الحالي ، ويشمل كذلك أرض الجزيرة أو ما يسميه اليونان ميسوبوتاميا Mesopotamia وهي جزء من المنطقة الشمالية الخصبة بين دجلة والفرات تجاور بادية الشام وقد فتح العراق على مراحل تتناسب مع هذه الأقسام الثلاثة :

كانت المرحلة الأولى في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ودارت رحاها في الغرب من الفرات ، وكانت في بادئ الأمر بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، ولما شاهد أبو بكر نجاح المثنى مع قلة من معه أرسل جيشاً عظيماً بقيادة خالد بن الوليد ، وكتب أبو بكر للمثنى يأمره بتلقّي خالد والسمع والطاعة له ^(٣) وكان خالد آنذاك قد فرغ من حروبه ضد المرتدين والمتبئين ومانعى الزكاة ، وعلى هذا فقد بدأ زحف خالد من الجنوب ، وان كانت هناك رواية تتجه إلى أن خالد بن الوليد زحف إلى العراق من المدينة بعد عودته إليها ^(٤) ، ولما وصل خالد إلى أرض الحيرة بدأت تتساقط مواقعها بالصلح أو بعد بعض

(١) ص ٧٥٦ وما بعدها من الطبعة الرابعة عشرة

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٢ .

(٤) انظر حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول للاستاذ شكرى فيصل

المناوشات ، ولذلك ثار الفرس وأعدّوا عدتهم حتى يقاوموا هذا الزحف الناجح ، والتقى بهم خالد عند « الأبلّة » حيث خاض معهم معركة هائلة تسمى معركة « ذات السلاسل » ^(١) لأن الفرس ربطوا جنودهم بالسلاسل حتى لا يفروا ، ولكن ذلك لم يغنهم شيئا ، فقد فر منهم من استطاع أن يفر ، وسقط الباقون صرعى ، واستولى الجيش الإسلامي على ميسناء « الأبلّة » على الخليج العربي ^(٢) ، وبعد ذلك صدرت أوامر أبي بكر لخالد أن يغادر العراق إلى الشام فاستخلف خالد المثنى بن حارثة وتراجعت الجيوش الإسلامية عن مواقعها المتقدمة ، وتحصنت بالصحراء مكتفية ببعض الاغارات والمناوشات •

الفرس يحتلّون أرض السواد أكثر من ألف عام :

وكانت المرحلة الثانية في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد استعاد المسلمون في هذه المرحلة مملكة الحيرة ثم اندفعوا في أرض السواد ، وكانت أرض السواد قبل الفتح الإسلامي جزءا من بلاد فارس ، إذ كان الفرس قد احتلوها عقب سقوط الكلدانيين سنة ٥٣٧ ق م ، وظلّوا بها إلى الفتح الإسلامي سنة ٦٣٣ ميلادية أى أكثر من ألف سنة ، وفي تلك الفترة الطويلة استطاعت الحضارة الفارسية أن تغمر أرض السواد ، كما نزع لها عدد كبير من الفرس ، وقد أقام بها ملوك الفرس مدينة طيسفون التي تقع جنوب بغداد الحالية على ضفتى نهر دجلة ، وكانت العاصمة الثقوية للأكاسرة ، وفيها أنشأ كبرى إيوانه المشهور الذى كان يستقبل فيه زواره من العرب ومن غيرهم ، وقد سمي العرب هذه العاصمة « المدائن » لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب وكأنها مدائن متعددة •

وقد استغرق الصراع في هذه المنطقة عدة سنوات ، وتولى قيادة

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٢ ص ٣٦٣ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٨٩ •

جيوش المسلمين في هذه المرحلة عدد كبير من خيرة القادة والأبطال منهم ، المنى بن حارثة وأبو عبيد بن عمر الثقفي : وجريز بن عبد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، ويثسب لسعد أنه فاتح أرض السواد لأن الذين سبقوه كانت جهودهم في هذه المنطقة محدودة ، وكان مع سعد صفوة من القادة المشاهير عاونوه في معاركه ، منهم : المغيرة بن شعبة ، وقيس بن هبيرة ، وطلحة بن خويلد الذي كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب . وقد خاض سعد أقصى المعارك ضد الفرس ومن أهمها معركة القادسية ومعركة المدائن وجلولاء ، وعقب الانتهاء من جلولاء دانت للمسلمين كل أرض السواد ، وكانت القادسية تُعرف عند العرب بأنها باب فارس ^(١) ، لأن الفرس حشدوا فيها كل قواهم ، وأثاروا المتاعب ضد المسلمين في كل البلاد التي كان المسلمون قد احتلوها ، وقد أحس المسلمون بأهمية اللقاء مع الفرس في معركة فاصلة فتراجعوا غرب الفرات لتدور المعركة في الصحراء حيث تكون الطبيعة في جانب العرب ، وكان استعداد العرب للقادسية هائلا حتى ليرى أن العربي كان يعرض له الأمر المهم فيقول : لا أنظر فيه حتى نرى ما يكون من أمر القادسية ^(٢) وقد انتصر المسلمون في القادسية فاندفعوا يستعيدون الأرض التي كانوا قد أخذوها ويضمون لها أرضا جديدة من يوم إلى يوم ، وفي هذه المرحلة سقطت طيسفون فكان سقوطها ضربة شديدة أصابت الفرس ، إذ وضع المسلمون أيديهم على كنوزها وإيوانها وقصورها ، وكان الانتهاء من هذه المرحلة في السنة السادسة عشرة من الهجرة .

ويدخل في هذه المرحلة كذلك جهود المسلمين في جنوب العراق ، وكانت قبائل بكر بن وائل في الجنوب تواصل هجماتها على الفرس ، ولكن هذه الهجمات كانت غير منظمة ، فأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائدا يقودها ويوجه هجماتها وهذا القائد هو شريح بن عامر وقد

(١) تاريخ الطبري : ج١ ص ٢٢٢٨ .

(٢) الطبري : ج١ ص ٢٣٦٤ .

سقط هذا القائد في إحدى المعارك ، فأرسل عمر جيشا بقيادة عتبة ابن غزوان ، وقد استطاع هذا الجيش أن يحقق انتصارات باهرة في هذه المنطقة .

وكانت المرحلة الثالثة في عهد عمر بن الخطاب أيضا ، وقد ضم المسلمون في هذه المرحلة أرض الجزيرة ، وكانت أرض الجزيرة موضع صراع بين الفرس والروم ، وقبيل الزحف الإسلامي إلى هذه المناطق كانت الجيوش البيزنطية تحتفظ فيها ببعض المواقع ، فلما سقطت أرض الشام في أيدي المسلمين وسقطت كذلك أرض السواد لم يكن بد أن ينهض المسلمون الجيوب الفارسية والبيزنطية بأرض الجزيرة ، وليس بعيدا أن تكون الجيوش الإسلامية زحفت إلى الجزيرة من الشام ومن العراق ، وكان ذلك سنة ١٨ هـ كما جاء في رواية البلاذري^(١) أو في سنة ١٩ هـ كما جاء في رواية ابن الأثير^(٢) .

وكانت جيوش المسلمين بقيادة عياض بن غنم ، وقد استطاع أن يستولى على مدنها المهمة مثل : الرقة على الفرات ، وحران القديمة ، والرما (تسمى أيضا : أورفا أو إديسا) ، وقد اتخذت هذه مراكز تجمعت فيها الجيوش الإسلامية التي اندفعت فيما بعد إلى منطقة أرمينية وما حولها .

كلمة عن البصرة والكوفة والموصل :

ولنعد إلى أرض السواد لنقرر أن هذه المنطقة كانت شديدة الأهمية بالنسبة لبلاد فارس وللمنطقة الشرقية بوجه عام ولذلك ما إن حقق سعد ابن أبي وقاص انتصاراته فيها حتى كتب له عمر بن الخطاب يقول : اتخذ للمسلمين دار هجرة ، ومدينة يسكنونها بحيث لا يكون بيني وبينكم بحر ولا جسر فبنى مدينة الكوفة على الجانب الغربي لنهر الفرات إلى الجنوب

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٢ .

(٢) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٣٩٤ .

من موقع بابل التي تقع على الجانب الشرقى ، وتقع الكوفة على أرض مرتفعة بحيث تصبح بمنجى من فيضان دجلة ، أما الجيوش الإسلامية التي كانت في جنوب العراق فقد بنى لها قائد جيوش المساميين بالجنوب عتبة بن غزوان مدينة أسماها البصرة ، ويقال ان اسمها مأخوذ من « البصرة » وهو نوع من الحجر الأبيض الذي استعمل في بناء المدينة ، وهى أيضا على حافة الصحراء أى غرب شط العرب بمعنى أنه لا يفصل بينها وبين العاصمة الإسلامية « المدينة » نهر ولا جسر ، وقد بنيت الكوفة والبصرة سنة ١٦ هـ وعقب إنشائهما أوفد عمر العلماء المسلمين لتقديم الإسلام للمسلمين الجدد بها ، فكان أبو موسى الأشعرى مبعوثه إلى البصرة وعبد الله بن مسعود مبعوثه إلى الكوفة ، وقد حققت البصرة والكوفة الهدف الذى بنيتا من أجله ، فقد جذبتا عددا من الأبطال العرب ، واندفع هؤلاء يواصلون الفتوحات في فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر في عهد عمر وبعده .

وقد بنيت البصرة والكوفة على النسق الإسلامى أى كان المسجد مركز المدينة ، وبجواره مقر القائد ، ويحيط بهذين معسكرات الجيش ، وكان بناؤها أول الأمر متواضعا ، وكان هدفه إيواء المجاهدين ، وكانت المنازل من القصب ، قلما وفدت أسر المحاربين تحول البناء إلى اللبن وبخاصة أن حريقا شب في بيوت القصب فأكل الكثير منها كما يذكر الطبرى (١) ، وبذلك تحول المعسكر إلى مدينة عامرة ، ثم خطا البناء خطوة مهمة ، فيروى أن سعد بن أبى وقاص ابتنى داره على شكل القصر الملكى في المدائن ، ونقل إلى الكوفة أبواب المدائن (٢) وكان هذا من أسباب عزل سعد لبعده عن البساطة والزهد اللذين عثرفا بهما الخليفة طيب الذكر ، وبعد عزل سعد عيّن عمر النعمان بن مقرن ثم حذيفة بن اليمان ،

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٤ ص ٤٤ .

(٢) فيليب حنى : تاريخ العرب ج١ ص ٢١٣ .

وسرعان ما جذبت منطقة العراق أنظار القبائل وأنظار الشخصيات البارزة ، بل وصل الأمر بعلي بن أبي طالب رضى الله عنه أن نقل عاصمته من المدينة المنورة إلى الكوفة ليكون على مقربة من العالم الفسيح الذى امتد له الإسلام فى أواسط آسيا ، وقد ظل الإمام على فى الكوفة حتى استشهد سنة ٤٠ هـ فى مسجددها ، وكان قائما يصلى ، وبوفاته انتقلت الخلافة إلى دمشق •

وعندما انتقل مركز الخلافة بعد على إلى الشام اتجهت المدينتان للجانب الثقافى ، وهو اتجاه يجذبنا إلى أن نستطرد فى الحديث عنهما لأن نشاط هذه المدن كان متصلا وبعيد الأثر فى الحياة الإسلامية •

الثقافة فى الكوفة والبصرة :

وقد أصبحت البصرة والكوفة مهذا للدراسة اللغوية والنحوية والتقت فيهما حضارة الفرس بحضارة العرب ، ولم تفقد المدينتان أهميتهما الثقافية عندما أُُنشئت بغداد بل حافظتا عليها حتى اجتاحتها الفتن والاضطرابات كما سنرى بعد قليل •

وقد وفد على البصرة كثيرون من أساطين العرب حتى سميت « هُزْآنَةُ العرب » وكان انتعاشها الاقتصادى الذى تسبب عن الحركة التجارية بها ، بالإضافة إلى انتعاشها الثقافى سببا فيما ارتبط بها من حياة لاهية ورد ذكرها فى قصص ألف ليلة وليلة •

وكانت البصرة مركزا مهما من مراكز العلم والأدب ، فكان يفد لها الطلاب الذين ينشدون العلوم والمعارف ^(١) •

ومن علماء البصرة المشاهير عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، وعيسى بن عمرو ، والخليل بن أحمد : والأصمعى ، وسيبويه أمام

(١) الغزالى : الاحياء ج٣ ص ٥٩ •

النحاة بالبصرة ، ومن مفكريها الحسن البصري ، وواصل بن عطاء ، ومن شعرائها الفرزدق ، وبشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ويروى المرباني أن مسلم بن الوليد كان يجلس في مسجد البصرة يملأ من شعره ، وفي إحدى الجلسات كان يملأ قصيدته الدالية التي مطلعها •

لا تدع بى الشوق إنى غير معمود • • • •

إذ أقبل أبو نواس فاستشرف له القوم ، فدنا فسلم ، فقطع مسلم الإهلاء ورفع في المجلس ، وأقبل عليه يسأله أن ينشد من شعره ، وأبو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله أبو نواس أن يبتدىء القصيدة من أولها ففعل ••• (١) •

ومن أدبائها المشهورين الحريري صاحب المقامات •

ويتحدث الجاحظ عن أن البصرة في عهده كان بها رجالان ليس هناك من هو أدرى منهما بصنوف العلم وحسن البيان ••• (٢) ويذكر أنه دخل البصرة مرة ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة : فسأله ميهون ابن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنحل إلى إبراهيم ابن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ••• (٣) •

وكانت الكوفة تزدان بمدرستها النحوية التي اشتهر من زعمائها الربوآسى مؤسس المذهب النحوى بالكوفة ، والكسائي والفراء ، وشعلب ،

(١) الموشح ص ٢٨٩ - ٢٩٠ •

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٠

(٣) معجم الأدباء ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦ •

ومن أدباء الكوفة ابن المقفع والكميت بن زيد وحمام الراوية وكان الكميت وحمام يلتقيان في مسجد الكوفة ويتناظران ويتنافسان (١) .

وكانت البصرة والكوفة من ناحية أخرى مراكز للفتن والثورات وقد تحدثنا من قبل عن الزنج والقرامطة وعن حركة التشيع ، وكانت البصرة والكوفة أهم المراكز لهذه الحركات .

ولنصعد إلى الجزيرة التي فتحها عياض بن غنم لنقرر أنه بنى بها مدينة على الضفة اليمنى لنهر دجلة في سهل زراعي واسع ، وفي منطقة عامرة بالعرب والأكراد ، وهي مدينة الموصل ، وتقع في الضفة اليسرى أمامها أطلال مدينة نينوى التي كانت عاصمة الآشوريين ، وسميت الموصل لوقوعها في طريق المواصلات التجارية النشطة بين الشرق والغرب ، وتقع الموصل حالياً على السكة الحديدية التي تربط العراق بتركيا .

وتشتهر الموصل بنسيج ثمين عرف باسمها وحرفها فأصبح « الموصلين » وفيها ضريح الشاعر المشهور أبي تمام الذي قضى أيامه الأخيرة في الموصل ومات بها .

واشتهرت الموصل بدار العلم التي أنشأها جعفر بن حمدان الموصل ، وجعل فيها خزانة للكتب من جميع العلوم وقفها على كل طلاب العلم لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب العلم ، وكان معسراً أنفق عليه وكانت تفتح في كل يوم ، ويجلس فيها ، ويجتمع إليه الناس فيملئ عليهم من شعره وشعر غيره (٢) .

وكانت الموصل عاصمة الحمدانيين (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) والعقيليين (٣٨٦ — ٤٨٩ هـ) ومركز أتابكية آل زنكي (٥٢١ — ٦٣١ هـ) وكانت ساطات هذه العاصمة تمتد أحياناً إلى الغرب فتشمل حلب .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ — ١١٤ .

(٢) باقوت : معجم الأدباء ج ٢ ص ٤٢٠ .

وبعد هذه الكلمة عن العراق في صدر الإسلام وعن المحدث القتي أنشئت في هذا العصر المبكر ، ننتقل خطوة أخرى لنتحدث عن العراق في عصر آخر من عصوره .

العراق في العهد الأموي

كانت البصرة والكوفة في العصر الأموي (٤١ — ١٣٢ هـ) تمثلان العراق ، ولهذا كانتا تسميان العراقيين ، وفي الوقت نفسه نشأتا في أرض كانت أرضاً فارسية مدة أكثر من ألف عام كما ذكرنا من قبل ، وكان الفرس يغمرون هذه المناطق ، ويذكر Wellhausen ^(١) أن الكوفة والبصرة كان يغمرها عدد كبير من الأجانب وبخاصة جهاهير الإيرانيين الذين كانوا أسرى حرب ثم اعتنقوا الإسلام .

أثر الفرس على الإسلام واللغة العربية :

وكان الفرس جنساً آرياً وليس سامياً ، وهذا كان من دواعي توسيع الأخلاف بين الفرس والعرب ، ثم كان الفرس حضارة واسعة وامبراطورية فسيحة قبل الإسلام ، فأما سقطوا بسيوف العرب هالهم هذا الوضع ، وعزموا على الثأر لكرامتهم ، ولم يكن في مقدورهم أن يواجهوا العرب في ميدان حرب ، فاتجهوا إلى ميدان الفكر يصارعون فيه دين الإسلام ولغة العرب ، وانتهى الأمر بأن حققوا نصراً واضحاً في هذا الميدان : فأصبح الإسلام في بلاد فارس وفي كثير من مناطق العراق تشيعاً ، وأصبحت اللغة العربية قواعد وقوانين وبعدت عن اللغة نفسها .

الصراع بين العراقيين والامويين وسببه :

وبسبب تأثر العراق بفارس اتخذ العراق جانب العداء ضد دولة الخلافة بدمشق ، وحملت البصرة والكوفة لواء التمرد ، واتجهت الدولة الأموية بالتالي

(1) Arab Kingdom and its Fall p : 71.

إلى ضرب العراق لتخضعه ولتذلل قياده ، وقد وضعنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة ألوان العصيان التي شنتها العراق ضد بنى أمية ، وألوان المضربات التي كالتها الأمويون للعراق ، وسنشير فيما يلي اشارات خاطفة لأبرز الحركات في العراق خلال العصر الأموي :

— دخل معاوية الكوفة سنة ٤١ هـ حيث التقى بالحسن والحسين ، وذلك بعد الصلح الذي تنازل فيه الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وبإيع الناس معاوية ، وبإيع معهم الحسن والحسين •

— عين معاوية أهم رجاله ولاية على البصرة والكوفة ، فعين المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة ، وزيايد بن أبيه واليا على البصرة : ولما مات المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد سنة ٥١ هـ ، وكان زياد أول من تولى البصرة والكوفة معا ، وامتد حكم زياد بذلك إلى نصف الامبراطورية الشرقية برمته ، إذ كانت العراق قاعدة للزحف الذي اتجه إلى الشرق ، ومن ثم كانت العراق خلال فترة طويلة عاصمة للنصف الشرقي للعالم الإسلامي •

— تولى عبيد الله بن زياد البصرة عقب وفاة أبيه ، وتولى النعمان بن بشير ولاية الكوفة ، ثم ضمت الكوفة إلى عبيد الله في عهد يزيد بن معاوية •

— في عهد يزيد بن معاوية قتل الإمام الحسين رضى الله عنه في كربلاء غير بعيد من الكوفة ، وكان أهل الكوفة قد طلبوا أن يحضر لهم الإمام الحسين ووعده بالعون ، ثم تخلوا عنه فسقط في معركة غير متكافئة •

— كانت الكوفة مثار ثورات تكاد تكون متصلة خلال العهد الأموي وقد رحبت بالمختار بن أبي عبيد ليقود ثورتها دون أن تكون له أهداف واضحة ، وكان المختار عدوا لابن الزبير ولعبد الملك بن مروان زعيمى العصر ، وقد ولي ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة وأمره بالزحف على المختار بالكوفة ففعل ، وسقط المختار بسيوف مصعب ، ولكن عبد الملك سار في جيش كبير استطاع به القضاء على مصعب •

— تجددت الفتن بالعراق بعد ذلك ، فعين عبد الملك لولاية العراق
أخطر وأشهر الولاة الأمويين وهو الحجاج بن يوسف الثقفي •

— حدثت ثورة ابن الأئعث ضد الأمويين ، وكان الحجاج قد عين
ابن الأئعث قائدا لجيش كبير من البصرة والكوفة ليحارب في سجستان
باسم الأمويين ، ولكنه سرعان ما استدار ليضرب الحجاج ، وقد قضى
الحجاج على أشراف العراق عندما أصبح له النصر في هذه المعارك القاسية ،
وأشرف الحجاج على قتل الأسرى ، وكان ذلك مما أضعف حركات الفتن
بالعراق •

— وفي عهد يزيد بن عبد الملك حدث صراع بين يزيد بن المهلب وبين
جيوش الأمويين التي كان يقودها مسلمة بن عبد الملك ، وقد انتصر مسلمة
وقتل عددا كبيرا من أهل العراق في موقعة العقير •

— ومن ولاة العراق المشاهير خالد بن عبد الله القسري وهو من ولاة
هشام بن عبد الملك •

— في أثناء الصراع الذي دار بين حلفاء بني أمية المتأخرين بعضهم
والبعض نشطت الفتن بالعراق وخراسان وكان ذلك من أسباب سقوط
دولة بني أمية •

— اتخذ الشيعة ومدعو التشيع من البصرة والكوفة مركزين مهمين
لنشاطهما ليظل هؤلاء على مقربة من الجزيرة العربية لينفذوا فيها
سمومهم وانحرافاتهم •

• وكان للخوارج نشاط كبير في العراق خلال عهد الدولة الأموية •

• وهكذا حفل تاريخ العراق خلال العهد الأموي بصراع يكاد يكون
متصلا ، وكانت الفتن أبرز مظهر في العراق طيلة هذا العهد •

العراق في العهد العباسي

أصبح العراق عاصمة العالم الإسلامي خلال العصر العباسي ، فقد اتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لهم عقب زحفهم الناجح من خراسان ، ومن الكوفة انتقلوا إلى الحيرة فالأنبار ، ثم بنوا العاصمة الثليدة « بغداد » وفي هذه العاصمة تجمعت كل أفانين المجد والعظمة حتى أصبحت بغداد رمز الزهو والجلال في كثير من البقاع ، فاشتق من اسمها كلمات تحمل معاني الجلال والترف مثل « تبغدد » « البغدة » .. وحو . بغداد قامت الكرخ والرثافة حيث مظاهر البذخ والنعيم .

وقد خصصنا الجزء الثالث من هذه الموسوعة للحديث عن الخلافة العباسية ، فأتجه أكثر هذا الجزء بذلك للحديث عن العراق ، وقد وضحنا به أن العراق عرف في العصر العباسي الطويل (١٣٢ — ٦٥٦) صنوف المجد وألوان الشقاء ، عرف الغنى والترف ومسه الضر والمعوز ، وذلك تبعا للحركات السياسية التي غمرت العراق خلال هذا العصر .

وكان العصر العباسي الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) قمة بين العصور الإسلامية ، فقد استكملت الدولة فيه استقرارها السياسي ، وامتدت حدودها امتدادا بعيدا ، حتى روى أن هارون الرشيد كان يرى السحابة تمرّ ، فيقول لها : اذهبي حيث شئت فسيأثني خراجك . وقام العصر العباسي الأول بالدور الرئيسي في تحضير العالم الإسلامي ، ففي خلاله حدثت النهضة الثقافية الكبرى ، وكانت العراق مركز هذه النهضة ، وقد شملت النهضة جوانب ثلاثة مهمة هي :

١ — حركة التصنيف .

٢ — تنظيم العلوم الإسلامية وتدوينها .

٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية .

وقد تحدثنا بإفاضة عن هذه الجوانب في الجزء الثالث سالف الذكر ، وازدان العصر العباسي الأول بكفاءة المنصور وإصلاحات المهدي ، وحزم المهادي وأبهة الرشيد ، وثقافة المأمون ، وقوة المعتصم ، وفي خلال هذا العصر ازدهرت بغداد بأُسْرٍ كان لها نصيب وفير في حضارة العصر وكل عصر ، في قمتها أسرة البرامكة وبنو سهل *

ودارت الأيام ، ولكل شيء في هذه الحياة نهاية ، وتجمعت ظروف متعددة لتحمل إلى العراق السحب الداكنة والحياة المكفهرة والآلام والأشجان ، فبعد العصر العباسي الأول ظهرت قوى استطاعت أن تتحكم في الخلافة : وعندما سقطت هيبة الخلفاء انفرط العقد الذي كان يجعل من بغداد واسطته ومركزه ، فبليت بغداد بالأتراك (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) الذين كان الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧) قد جلبهم إلى أرض الإسلام لأسباب ذكرناها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ^(١) ، وقد بدأ طغيان الأتراك يظهر في عهد المعتصم : فاعتدوا على كثيرين من الناس في بغداد ، واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم ، بنى المعتصم مدينة سامرا (بشرّ مَنْ رأى) وانتقل إليها ، ونقل إليها جيشه ، وظلت سامرا عاصمة الخلافة العباسية حتى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) فأعاد المعتمد الخلافة إلى بغداد *

ومنذ عهد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) بدأ تمرد الأتراك يبرز ، واتسع سلطانهم وطغيانهم حتى شمل الخلفاء أنفسهم ، وكان الخليفة المتوكل ضحية من ضحاياهم ، فقد اغتالوه وعينوا خلفه ، وصار لهم السلطان يولون الخلفاء ويخلعونهم طيلة هذا العهد فيما عدا الفترة التي تسمى صحوة الخلافة في عهدي المعتمد والمعتضد *

وفي عهد نفوذ الأتراك تدهورت الخلافة إلى مدى بعيد ، وصار

لنساء القصر ، وكلهن من أمهات الأولاد نفوذ واسع ، وتجمع ثراء الدولة في يد الأتراك ، وفي يد هؤلاء النساء ، فيزوى أن ثروة أم المعتز بالله بلغت مليون دينار وكان لها مع ذلك جواهر لا تقدر بثمن •

وعلى هذا الوجه كان تاريخ الخلافة المتدهور خلال هذا العصر ، فكان يعتلى العرش خلفاء بلا قوة تسندهم ، ويشعزكون أو يقتلون غير مأسوف عليهم ، ولم يكن هناك أمن إلا في بعض المناطق البعيدة عن العاصمة التي كان يحكمها أحيانا حكام مستقلون تقريبا ، وفي هذا العصر اشتعلت ثورة الزنج في جنوب العراق ، وقد تحدثنا عنها من قبل ، وقد خلقت هذه الثورة أبشع دور في تاريخ العراق كله •

وقبيل نهاية حكم المالك عين الخليفة قائدا فارسيا هو أحمد بن بويه في منصب ظهر حديثا آنذاك هو منصب أمير الأمراء (١) ، وزحفت أسرته بعد ذلك على سلطة الخليفة ، ولم يبق للخلفاء خلال عهد البويهيين (٣٣٤ — ٤٤٧) إلا الاسم المجرد من السلطة ، وكان البويهيون شيعة فأسرفوا في امتهان الخلفاء لأنهم سنيون • وعلى هذا لم يكن لدى البويهيين باعث ديني يحثهم على طاعة الخليفة واحترامه (٢) وربما خطر ببال البويهيين أن يلغوا الخلافة العباسية تماما ولكنهم آثروا أن يثبثوا عليها لاعتبارات سياسية فقط ، وقد بلغ من امتهان البويهيين للخلفاء أن وصل الحال إلى أن اثنين من الديلم تقدما من الخليفة المتكفي بالله وجذباه في حضرة معز الدولة وطرحاه على الأرض ووضعاه عمامته في عنقه ، وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة حيث اعتقل فيها ، ثم أخضر

(١) انظر الحديث عن هذا المنصب في الجزء الثالث من هذه الموسوعة

ص ٤٠٨ — ٤١١ •

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٧٧ •

معز الدولة الفضل بن المقتدر : وبإيعاه بالخلافة ولقبه المطيع لله (١) والمراجع التاريخية تشمل العديد من الأمثلة التي تدور في هذا الإطار (٢) .

ولم يتوقف الطغيان البويهى إلا عندما اشتد التنافس بين أمراء بنى بويه على السلطة وأساء بعضهم التصرف ، واشتغل باللهو واللعب وسماع الغناء ، كما كان حال بختيار بن معز الدولة الذى وصل من سوء تصرفه ولهواه أن تعرضت خزانة الدولة للإفلاس أكثر من مرة مما اضطره إلى مصادرة أموال كبار الرجال فى الدولة بل صادر أموال الخليفة نفسه (٣) .

وقد أدى الاضطراب الاقتصادى ، والصراع الطويل بين أمراء بنى بويه إلى كثرة الثورات من الجنود والأهالى ، وبالتالي غلت الأسعار ، واختفت الأقوات ، وكثر السلب والنهب (٤) ، وكلّ هذا آذن بانتهاء بنى بويه ، وأعطى الفرصة لزحف جديد على العاصمة العراقية قام به السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ كما سنرى بعد قليل .

ومع ما يؤخذ على البويهيين من مثالب فإن لهم بعض الإصلاحات فى بغداد ، فقد أنشأ عضد الدولة مستشفى كبيراً عيّن فيه أكثر من عشرين طبيباً ، كما أنشأ مدرسة ضمت خزانة كتبها عشرة آلاف مجلد ، وكان لكل نوع من الكتب فهرسٌ خاصٌ فيها عناوين الكتب (٥) .

-
- (١) ابن الجوزى . المنتظم ج٦ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٢) اقرأ فى ذلك الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق للدكتور فاضل الخالدى .
(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ، ص ٣٠٧ والسيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٢٧٦ .
(٤) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزهرة ج٤ ص ١٠٨ .
(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٤٩ .

وبعد البويهيين طرق السلاجقة بقيادة طغر بك أبواب بغداد ودخلوها سنة ٤٤٧ هـ كما أشرنا من قبل ، وقد أصبح السلطان منذ ذلك التاريخ للسلاجقة ، وكان هؤلاء السلاجقة أول من عمل على تنريك آسيا الصغرى التى نشأت بها فيما بعد دولة الأتراك العثمانيين .

وفى عهد السلاجقة أصبحت العراق تابعة لحكومة السلاجقة فى أصفهان ، ومع أن بغداد فقدت قدرها السياسى فقد استعاد الخلفاء فى هذه الفترة سلطتهم الروحية ، وقد نعمت العراق خلال عهد السلاجقة بكثير من الأمن والرفاهية ، وبخاصة فى عهد ملك شاه وكان ملك شاه نصيرا وحاميا للشاعر عمر الخيام ، ومما يرويه التاريخ أن عمر الخيام زامله فى أيام الدراسة اثنان من أعلام الرجال هما : نظام الملك ، والحسن الصباح ، وقد تعاهد هؤلاء الثلاثة فيما بينهم وهم طلاب على أن من يسبق منهم إلى المجد يشترك معه صاحبيه فى رزقه وفى نعمته ، ولما أصبح نظام الملك وزيرا لملك شاه ذكره رفيقا به ، فلم يتأخر عن الوفاء بما وعد ، ودفع لكل منهما حصة كبيرة من ماله ، فأتجه عمر الخيام إلى الانتفاع بما ناله من مال فى أن يحيا حياة هادئة ، وأن يشتغل بالشعر والفلك ، أما الحسن الصباح فقد استغل حصته من المال فى تنظيم فرقته التى عرفت بالاسماعيلية أو الحشاشين والتى ستمحدث عنها عند حديثنا عن المغول (١) .

وبعد عهد السلاجقة العظام بدأ النظام السلجوقى ينهار بسبب عوامل داخلية وعوامل خارجية أوضحناها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة (٢) وكان من أهمها تمرد بعض الحكام الذين كانوا عبيدا لسلطين السلاجقة وولادة لبعض الولايات ثم تمردوا عليهم وأعلنوا استقلالهم كساعات خوارزم وشاهات الغور والأتابكيات المتعددة .

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب (الرافدان) تأليف سيتون لويد

ص ٢٢٧ .

(٢) ص ٤٣٥ - ٤٣٦ وانظر تاريخ آل سلجوق .

ووسط هذا التفكك أعلن الخليفة الناصر استقلاله ببغداد وما حولها وحاول إنعاش الخلافة ^(١) ، ولكن أطماع الدولة الخوارزمية هزمت كيان بغداد وآمالها الجديدة ، ثم جاء زحف المغول ففقدت الدولة الخوارزمية وعلى الخلافة العباسية ، كما سنشرح ذلك بعد قليل .

تلك كلمة سريعة جدا عن العراق في العصر العباسي ساعدنا على ايجازها أننا خصصنا الجزء الثالث لهذه الفترة من تاريخ العراق ، ففي هذا الجزء تفاصيل دقيقة لقضايا العصر ومشكلاته ، فليرجع إليه من يشاء ليجد صورة متكاملة أغنتنا عن العودة إلى التفاصيل .

(١) انظر تفاصيل مهمة لجهود الناصر في الجزء رقم ٦٣ من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » للمؤلف .

المغول

سقطت الخلافة العباسية على أيدي المغول كما ذكرنا من قبل ،
وهكمت العراق عقب ذلك بالمغول * ومن هنا كان لابد أن نتكلم عن المغول
كلمة نتناول تاريخهم من جوانب متعددة :

التتار والمغول :

يمكننا أن نقول في إيجاز دقيق إن المغول جزء من شعوب التتار ،
وإن جنكيز خان ، وهو أبرز قائد في جماعة المغول ، استطاع أن يرغم
أكثر جماعات التتار على الاعتراف بسلطانه * ومن هنا برز اسم المغول
حتى أصبح مرادفا لكلمة تتار ، وأصبح أكثر التتار يكتسبون أنفسهم للمغول
مما يجعل من الممكن أن نتحدث عن المغول أو التتار دون خلاف ذي بال *

أصل المغول :

والمغول قوم من الرعاة عاشوا في الهضبة الآسيوية ، الفسيحة التي
تعرف باسم هضبة منغوليا التي تمتد من أواسط آسيا إلى جنوبي سيبيريا
وشمالى التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان *

وكانت جماعات المغول متفرقة ، تعيش كل جماعة منها حياة تناسب
المكان الذي تعيش فيه بهذه السهول الواسعة ، ففي القرن السادس
الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كان منهم جماعة الرعاة التي تعيش
بجوار المراعى ، ومنهم صيادو السمك الذين يعيشون بجوار البحار
والأنهار ، وصيادوا الحيوانات فى الأدغال والغابات (١) .

وبينما كان المغول يعيشون هذه الحياة التي كان طابعها العنف
والصراع ضد بعضهم البعض وضد من حولهم ، كانت تعيش بجوارهم

(١) دكتور فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص ٣٠ و ٣٢ .

حضارات وممالك لها شأن في التاريخ ، وكان المغول يهاجمون هذه الممالك كلما استطاعوا ذلك ، ثم يعودون أدراجهم إلى الفيافي الفسيحة .

ديانات المغول :

كان المغول من الوثنيين ومن عبدة قوى الشر كالجن والشياطين ، واعتنق بعضهم الديانة البوذية التي دخلت هذه الأصقاع من الهند عندما طردت من شبه القارة الهندية ^(١) ولكن هؤلاء كانوا قليلين ، أما الغالبية العظمى فكانت ترى أن الأديرة والمعابد تورث وداعة الأخلاق وتدعو إلى العطف والإنسانية ، وأن هذه الصفات لا تدفع للسيادة لأنه لن يمسود البشر غير المقاتل الشرس ، ومن هنا قلَّ منهم من اعتنق الديانات السماوية .

أشهر زعماء المغول :

عاشت قبائل المغول حياة صراع داخلي مرير ، وكانت قبائلهم تغير على أطراف الممالك المجاورة لهم كما ذكرنا آنفاً ، ولكن هذه الغارات كانت ترمى للخطف والسلب دون أن تفكر في احتلال هذه الممالك أو القضاء عليها ، حتى ظهر جنكيز خان فغير من أهداف المغول ومن حياتهم تغييراً كبيراً كما سنرى فيما بعد .

وزعامات المغول التي ترتبط بالعالم الإسلامي هي :

١ — جنكيز خان : في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وقد دمر الدولة الخوارزمية * وأوشك أن يفتح أبواب بغداد .

٢ — هولاكو : في القرن الثالث عشر ، وهو فاتح بغداد ، وقاتل آخر الخلفاء العباسيين ، ودمر الشام .

(١) انظر أديان الهند الكبرى للمؤلف .

٣ — تيمورلنك : في القرن الرابع عشر ، وقد اكتسح بلاد فارس والعراق والشام وتركيا وقد تحدثنا عنه في الجزء الخامس من هذه الموسوعة •

٤ — بابر : في القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وهو مؤسس امبراطورية المغول في الهند وقد ظلت هذه الامبراطورية من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٨٥٧ م •

وفي حديثنا عن المغول وعلاقاتهم بالعراق يتجه بحثنا إلى الكلام عن جنكيز خان وهولاكو وهو ما سنشرع فيه :

جنكيز خان :

جنكيز خان هو الاسم الذي أطلق على تيموجين ابن أحمد زعماء قبيلة « التمرجي » وقد مات الأب غدرا وكان الابن في سن الصبابة ، فانتقلت زعامة القبيلة إلى شخص آخر ، ولكن الصبي تيموجين تقدم نحو مرحلة الشباب ، وبدأ يجمع حوله الأنصار والأتراب ، غانجه الزعماء له بالتحدي والنكاية مما ملأ نفس تيموجين ثورة وحنقا ، وانتقل الحنق إلى صراع نجح فيه تيموجين ، وأثبت في هذا الصراع أنه بطل الأبطال فشافه الزعماء وخضعوا له بعد سلسلة من الحروب والغارات ، والتف حوله شعب التتار معتنقين أنه منقذهم من المذلة والفرقة ، وقائدهم إلى العزة والنصر ، وبدأت بذلك دولة جنكيز خان سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) ، وهدد جنكيز خان بالويل والثبور من تخلف عن الطاعة المطلقة له ، وبين الوعيد والتهديد التف أكثر المغول حوله وأعلنوا الطاعة له ، ووعدهم جنكيز خان بأنه سيفتح بهم الأرض ، ويملكهم الثراء الذي يحيط بهم ، وبدأ بذلك عهد جديد للمغول •

وفي سنة ٦٠٣ (١٢٠٦) أصدر جنكيز خان دستور الشهير المعروف

بالياسا وسنتكلم عنه فيما يلي ، فاستحق تيموجين لقب جنكيز خان أى السيد الغالب وامبراطور البشر جميعا (١) .

الياسا :

كانت هناك آداب وتقاليد يتبعها المغول قبل عهد جنكيز خان ، فلما جاء جنكيز خان وضع قوانين محددة ربط بها علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالمجموع ، وعلاقة المجموع بالملك ، وسمّيت هذه القوانين (ياسا) هو (يساقا) وقد أصدر جنكيز خان اليساق سنة ٦٠٣ هـ ، وقد أورد المقرئى (٢) ملخصا للياسا نقتبس منه بعضه .

يقول المقرئى أخذاً عن نسخة من الياسا كانت فى خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد : إن مما شرعه جنكيز خان فى الياسا أن من سحر أو تجسس أو كذب قتل ، ومن أعطى بضاعة للتجارة فخرس فيها ثلاث مرات قتل فى الثالثة ، وأن ذبح الحيوان ممنوع ، ولكن يقتل الحيوان بطريقة أخرى ، وأعفت الياسا الفقهاء والقراء والأطباء من الضرائب . وشرطت الياسا تعظيم جميع الملك من غير تعصب ، وحذرت أن يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المعطى أولاً من الطعام ، ولا يتميز أحد على أصحابه بالشبع ، ولا يجوز غسل الملابس ، بل تلبس حتى تبلى ، وعلى نساء العسكر القيام بما على الرجال من أعمال فى غيبة أزواجهن .

وتقرر الياسا أن من سرق يقتل ، وتنتهى عن الإغراق فى شرب الخمر .

ويعلق الباحثون على أن ما جاء فى الياسا كان بالنسبة للعلاقات الداخلية بين المغول بعضهم البعض ، فالكذب فيما بينهم كان جريمة عقابها القتل ، ولكن الكذب كان طبيعة المغول فى الحروب : فهم لم يعرفوا الوفاء

(١) دكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٤٩ .

(٢) الخطط : الجزء الاول ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

بعهد ، وكانت طبيعتهم اللؤم والغدر ، ونقض اليهود ، وإراثة الدماء ،
وسلب الأموال ، والعدوان على الأعراض (١) .

جنكيزخان وأرض الإسلام :

بعد أن استقر الأمر لجنكيزخان وخضعت له الغالبية العظمى من
قبائل التتار ، راح يمد سلطانه ليشمل الممالك المجاورة ، وقد استطاع
جنكيزخان أن يقيم امبراطورية واسعة تشمل الصين الشمالية ، وأواسط
آسيا ، وإيران ، على أن أهم ما يعنينا من هذه الامبراطورية هو زحفه
على الدولة الخوارزمية التي شملت بلاد ما وراء النهر ، وأكثرية بلاد
إيران ، والتي كان بها المدن الإسلامية الشهيرة بعلمائها وفقهائها مثل :
بخارى وغزنة وبلخ ونيسابور وسمرقند .

ولما كانت الدولة الخوارزمية شديدة الاتصال بالصراع المغولي
الإسلامي فإنه ينبغي أن نتكلم عنها كلمة توضح لنا أسس هذا الصراع .

تعريف بالدولة الخوارزمية :

مؤسس الدولة الخوارزمية مملوك تركي من غزنة اسمه (أنوشكين)
وكان قد التحق بخدمة ملكشاه (من سلاجقة خراسان) ثم عينه هذا حاكما
على إقليم خوارزم سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م وبعد وفاته خلفه ولده قطب
الدين الذي لقب بخوارزمشاه ، وجاء بعده (آتسز) الذي حاول الاستقلال
بخوارزم عن السلاجقة وقد نجحت جهوده بعد صراع طويل ، واستطاع
أن يمد نفوذه حتى مدينة (جند) على نهر سيحون سنة ٥٥٢ ، ولما
آل الأمر إلى علاء الدين تكش (٥٦٨ — ٥٩٦) حقق نصرا عظيما حين
قضى على ملك السلاجقة في إيران وحل محلهم ، وهذا الانتصار وضع
الدولة الخوارزمية في مواجهة الخلافة ، فطالب خوارزمشاه بامتيازات

(١) دكتور فؤاد الصياد : المرجع السابق ص ٣٤٥ .

(م ٤٥ — التاريخ ج ٧)

السلاجقة في دولة الخلافة كذكر اسمه في الخطبة ، وفرض نفوذه السياسي على بغداد (١) شأن الأتراك والبويهيين والسلاجقة الذين حرصوا على هذه الامتيازات .

ومما يذكر أن الحكام في البلاد التي تقع غرب العراق وهي الشام ومصر لم يطالبوا بهذه الامتيازات ؛ إذ كان التعاطف العربي يتجه إلى الحفاظ على هبة الخلافة (٢) .

ولما آل السلطان إلى أشهر سلاطين الدولة الخوارزمية وهو علاء الدين محمد (٥٩٦ — ٦١٧) استطاع أن يوسع رقعة مملكته بأن هزم ملوك ما وراء النهر وضم بلادهم إلى سلطنته سنة (٦٠٧) وفي سنة (٦١١) انتصر على الغوريين واحتل غزنة وضمها إلى مملكته فوصلت البلاد إلى أقصى اتساعها (٣) .

وبيتجه كثير من المؤرخين إلى لوم علاء الدين لأنه قضى على ملوك ما وراء النهر ، فهدم بذلك السور الذي كان يحول بين المغول وبين البلاد الإسلامية (٤) ، ولكننا لا نوافق على هذا الاتجاه ، فإن بلاد ما وراء النهر التي لم تقو على صد خوارزمشاه ، ما كان يمكن أن تقف سورا أمام المغول ، والذي يمكن أن يقال هو أن علاء الدين لم يُعِدِّ تحالفاً يستطيع به أن يقف في وجه المغول الذين تهيأوا بقيادة جنكيزخان للزحف في كل اتجاه ، وبدلاً إعداد تحالف كهذا راح علاء الدين يطالب بمزيد من القوة في العالم الإسلامي فطالب بما طالب به أسلافه بأن تكون له امتيازات السلاجقة في عاصمة الخلافة .

ولم يستجب الخليفة العباسي لمحاولات سلاطين الدولة الخوارزمية ،

(١) حافظ أحمد حمدي : الشرق الاسلامي ص ٤

(٢) دكتور بدوي محمد فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير .

(٣) انظر استانلي لين بول : تاريخ الدول الاسلامية ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٤) دكتور جعفر حسين : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٥ ،

ودكتور ابراهيم العدوي : العرب والتتار ص ٤١ .

فقد كان يريد أن ينعم بالاستقلال بعد نهاية سلطان السلاجقة ، ولم يفتح سلاطين الدولة الخوارزمية بما وصلوا له من ملك فاندفعوا يصارعون الخلافة العباسية ، وفي سبيل ذلك استصدر علاء الدين فتوى بأن خلافة بنى العباسي غير صحيحة وأن أبناء الحسين أولى بها ، وأن من الخير الرجوع للصواب وإعادة الخلافة إلى هؤلاء ، وحاول عقب ذلك العشور على خليفة علوي ^(١) ، ثم اتجه علاء الدين للصراع العسكري فزحف على رأس جيش كبير تجاه بغداد سنة ٦١٤ هـ ، ولكنه لم يحقق أهدافه بسبب العواصف التي واجهت جنده ، وبسبب القبائل الكردية التي اعترضت طريق الجيش الزاحف .

جنكيزخان يهاجم بلاد الإسلام :

في هذا الجو من الخلافات والهزائم بدأ جنكيزخان يمد نشاطه إلى بلاد الإسلام ، وقد بدأ بأن أرسل إلى علاء الدين خوارزمشاه رسالة يطلب إليه فيها أن يفتح بلاده لعلاقات تجارية بين الدولة الخوارزمية والمغول ، وكان خطاب جنكيزخان شديد اللهجة ، وصف ملك خوارزم بأنه مثل ابن من أبنائه ولم يضعه في مكان الأخ ، ولكن خوارزمشاه على كل حال خضع للأمر الواقع ووافق على قيام علاقات تجارية بين الدولتين .

بيد أن حاكم (أترار) أحد الثغور الواقعة على نهر سيحون أدرك أن تجار المغول يقومون بعمليات تجسس مريبة فمنعهم في إحدى جولاتهم ، وصادر أموالهم وقتل بعضهم ، وقد كان ذلك الحادث فاتحة شرٍ وبيك على الدولة الخوارزمية ، فسرعان ما زحفت جماعات المغول سنة ٦١٦ هـ تدك الأرض دكا ، وتدمر وتحرق ، وكانت (أترار) أولى المدن التي اقتحمها المغول حاملين معهم خصائصهم التي امتازوا بها وهي سفك الدماء ، وتدمير البناء ، وحرق المزارع ، وإشاعة الذعر ، والقسوة البالغة .

وهناك قول يقرر أن الخليفة العباسي هو الذي أغرى المغول بالزحف على الدولة الخوارزمية لتمردهم عليه ، ولعل مصدر هذا الاتهام هو كلام منكبرتي الذي يقول عن الخليفة الناصر « إنه كان السبب في هلاك أبي ومجىء الكفار إلى البلاد ، وقد وجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل والخلع ^(١) » • ومن الواضح ان هذا النص الذي اتخذ أساسا لهذا الاتهام على فرض صدقه يذكر أن الخليفة كتب للملوك الخطا وليس للمغول ، أي أنه كتب لهؤلاء الملوك قبل خضوعهم للمغول ، بدليل أن هذا الخليفة عرف « بموقفه الصريح المعادي للمغول ^(٢) » •

ويجمع المؤرخون الموثوق بهم على أن هذه الفرية إشاعة أطلقها جلال الدين منكبرتي ابن علاء الدين ليتخذها وسيلة للزحف الذي قام به على بغداد سنة ٦٢٢ هـ ^(٣) •

وبعد سقوط أترار اتجهت فيالق الجيش المغولي اتجاهات متعددة في بلاد ما وراء النهر تقتحم المدن وتقتضى على الزرع والضرع ، وقد عانت بخارى المدينة الإسلامية ذائعة الصيت شر ما تعانيه مدينة مهزومة ، يروى الجويني ^(٤) • أن جنكيزخان دخل المدينة ليتفقد ما فيها بعد أن استسلمت له بعد صمود شامخ ، ومقاومة طويلة ، فدخل المسجد الجامع وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان ، فقيل له انه بيت الله ، فترجل عن حصانه وصعد المنبر وصاح قائلاً : كانت الصحراء خالية من العلف ، أما الآن فاملئوا بطون خيولكم ، وكان ذاك يفيد الإذن في السلب والنهب فلا يمكن أن تملأ بطون الخيل دون أن تملأ بطون الخيالة ،

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٤ •

(٢) دكتور جعفر حسين : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٤ •

(٣) انظر تغير هذا القول في « تاريخ العراق في العصر العباسي

الآخر » ص ٤٣ - ٧٤ •

(٤) تاريخ جهانكشاي : ج ١ ص ٨٠ - ٨١ نقلا عن المغول في التاريخ

ص ١١٦ •

وعلى الفور قام الجند بنهب المدينة ، ثم تحولوا للبحث بالمقدسات الإسلامية فحملوا إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوى المصاحف التى كتب فيها القرآن الكريم بخطوط ممتازة ، وألقوا بها تحت حوافر الخيل ، ثم أحضروا كئوس النبيذ والمغنيات ، وصاروا يشربون ويرقصون ويسمعون *

ويذكر ابن الأثير سقوط بخارى فيقرر أن المغول لم يتركوا بخارى ألا وهى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وأشعلوا النار فى البيوت وفى المدارس ، وقتلوا بعض الناس وعذبوا آخرين أشد العذاب (١) .

والذى حدث لبخارى حدث لسمرقند ولغيرها من بلاد ما وراء النهر ولما انتهى جنكيزخان من بلاد ما وراء النهر بقى بها يرعى فتوحاته الجديدة وعبرت جيوشه نهر جيحون ، وراحت تحرق وتدمر هنا وهناك داخل الدولة الخوارزمية ، وقد استولت على هراة وطوس والرى وغيرها وبعث فيلقا يتعقب السلطان علاء الدين الذى فر أمام هذا الزحف العاتى ، وقد أخذ هذا السلطان ينتقل من مكان إلى مكان حتى انتهى به المطاف إلى جزيرة صغيرة فى بحر قزوين ، وفيها وصلته الأنباء بأن أولاده الصغار قد قتلوا ، وأن نساءه قد وقعن فى الأسر ، فلم تهتمل صحته هذه الأنباء ، وأسلم الروح سنة ٦١٧ بعد أن عين ابنه جلال الدين منكبرتى وليا لعهد رجا أن يستعيد مملكته *

وعادت الجيوش المغولية عقب ذلك التدمير إلى سمرقند حيث التقت بجنكيزخان الذى كان قد أحال منطقة ما وراء النهر إلى خرائب ينشق بها اليوم ، واحتفظ المغول بإقليم ما وراء النهر وأخلوا ما سوى ذلك من أملاك الدولة الخوارزمية مما أتاح لجلال الدين منكبرتى أن يستعيد سلطانه فى تلك البقاع ، كما سنرى فيما بعد *

وعندما التقى المغول بزعيمهم في بلاد ما وراء النهر ، لم يطل بقاء الزعيم بهذه المناطق ، بل انه سرعان ما أعد العدة للعودة إلى منغوليا إذ علم بقيام ثورات ضده في التبت وشمالي الصين ، وكانت رحلته إلى منغوليا بطيئة ، فلم يصل إليها إلا في سنة ٦٢٢ هـ وسرعان ما سقط مريضا ثم مات في رمضان سنة ٦٢٤ هـ ، وانتهى بذلك عهد الطاغية الأول الذي ملأ الأرض بالدماء البريئة ، ولم يترك إلا أسوأ الذكريات كنهاية كل جبار أثيم .

جلال الدين منكبرتي :

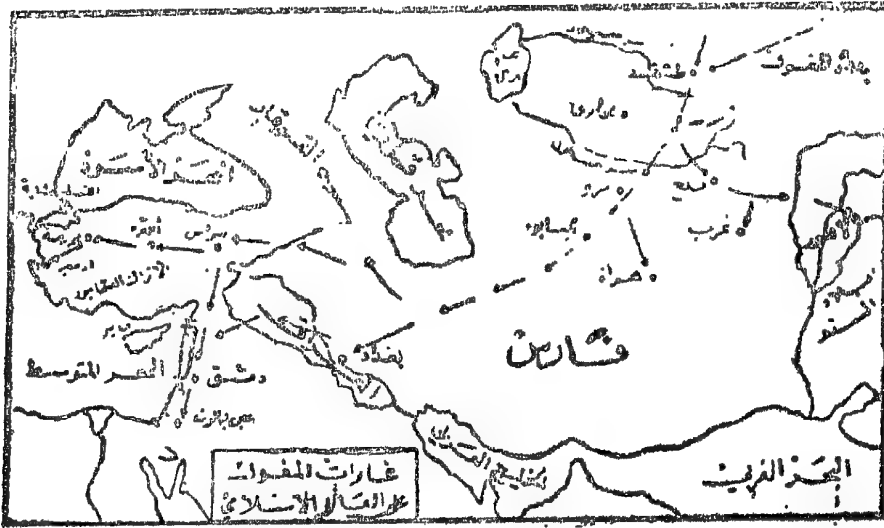
انتهر جلال الدين منكبرتي فرصة عودة المغول وسقوط الطاغية ، فعاد من الهند سنة ٦٢٢ هـ وأخذ يلم شعبة ، ويؤلف جنده ، ويستعيد قوته ، وكان عليه فيما نعتقد أن يتعلم من الدرس الذي أهمله أبوه ، فيقوى ارتباطاته بجيرانه المسلمين وبالخليفة العباسي بوجه خاص ، ليستعد هؤلاء لمواجهة زحف جديد على تلك البقاع قد يقوم به المغول ، ولكن جلال الدين — للأسف — اتجه لمصارعة جيرانه لسبب أو لآخر ، فغزا أرض الخلافة ، وفتح بلدة « داقوقا » وأوقع السيف في أهلها ، وسبى حريمهم ، وأحرق بلدهم وهدم سورهم^(١) ، وضعفت بذلك قوة المسلمين ، كما أخذ يحارب فلول المغول ، ويهاجم المناطق المغولية المتصلة بمملكته ، وكان ذلك سببا في أن المغول أعدوا عدة كبيرة للهجوم على الدولة الخوارزمية مرة أخرى ، والقضاء عليها نهائيا ، وبخاصة أنهم قد استعادوا مكانتهم بعد الهزة التي حلت بهم بموت جنكيزخان ، فقد تم انتخاب (أوكتاي) خانا أعظم للمغول بعد فترة من وفاة جنكيزخان ، واندفع هذا يثار من جلال الدين الذي كان يتجه للعدوان ، وقد سارت القوات المغولية تكتسح أرض الدولة الخوارزمية ، فاستولت على الري وهمدان حتى وصلت إلى حدود أذربيجان سنة ٦٢٨ هـ وعندما أھس

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٣٤ .

جلال الدين بالخطر ، راح يدعو أمراء المسلمين للتعاون معه لصد التتار الزاحف الذى وصفه بأنه كالنمل من حيث العدد وكالثعابين من حيث القوة ، ولكن صيحته لم تجد آذانا صاغية ، إذ كانت علاقاته سيئة مع من حوله ، وقد اضطر جلال الدين إلى التقهقر مرحلة أثر مرحلة ، حتى وصل إلى جبال كردستان ، وهناك لقي مصرعه على يد أحد الأكراد سنة ٦٢٨ ، وانتهت بموته الدولة الخوارزمية .

المغول يتجهون صوب العراق :

فتح سقوط الدولة الخوارزمية الباب لزحف مغولى جديد على العراق



والشام وكان هذا الزحف متوقعا عند قادة المسلمين آنذاك ، فلقد هنأ جماعة من الأعيان الملك الأشرف صاحب دمشق على الهزيمة التى أنزلها المغول بعدوه جلال الدين خوارزمشاه فأجابهم الملك الأشرف قائلا : تهنئونى بهذا ؟ ! سوف ترون غيبة ، والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار بلاد الإسلام ، وما كان الخوارزمى إلا مثل السد الذى بيننا

وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ (١) • وقد أثبتت الحوادث صحة قول الأشرف هـ
وبُشْعَدَ نظره ، فإن المغول بعد أن تمكنوا من إمارات فارس اتجهوا غربا
وحققوا بعض انتصارات في شمال العراق ، فاستولوا على ماردين ونصيبين
والموصل ، ثم أخذوا إربل ، وكانت تعد مفتاح العراق من الجهة الشمالية ،
ومن إربل واصلوا زحفهم تجاه سامرا سنة ٦٣٤ هـ وأزاء هذا هب الخليفة
المستنصر يبعد نفسه لمواجهة هذا الزحف المدمر ، وكان الخليفة على وشك
أن يقود حجاج المسلمين إلى الأرض المقدسة ، ولكنه استفتى العلماء
فيما إذا كان من الأفضل أن ينفق أموال الحج في الجهاد وصد العدو ،
ففضلوا له ذلك ، وهب العلماء والكبراء يستعدون لمواجهة الزحف المغولي ،
وكان الفقهاء يخرجون كل يوم من بغداد إلى معسكرات الجند ، لحث
الجنود على الجهاد ، وتشجيعهم ، والاشتراك معهم في التدريبات
العسكرية ، وقد استطاع جند الخلافة بذلك أن ينزلوا بالمغول هزيمة
شديدة عند جبل « حميرين » بالقرب من نهر دجلة (٢) •

وفي حوالى سنة ٦٣٨ وما بعدها اتجه المغول لاستكمال الزحف الذى
كان جنكيزخان قد بدأه في أوربا ، وقد أعد أوكتاي لهذا الزحف جيشا كبيرا
جعل على رأسه « سبوتاي » وقد استطاع هذا الجيش أن يستولى على
شبه جزيرة القرم ، وأحرق موسكو واستولى على البلاد الروسية عاما
بعد عام حتى أصبحت روسيا كلها تحت أيديهم وظلوا يحكمونها حوالى
قرنين ونصف قرن (٦٣٦ - ٨٨٦ هـ) وبعد أن تم لهم الاستيلاء على
روسيا زحفوا على بولندا والمجر وكانوا على وشك السيطرة على أوربا
كلها لولا توقف الحرب بسبب وفاة أوكتاي سنة ٦٣٩ هـ (٣) •

ومع الزحف المغولى على أوربا كان هناك فيلق يزحف على أرمينية

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٢ ص ٦٧١ •

(٢) ابن القوطى : الحوادث الجامعة ص ١٣٣ •

(٣) دكتور فؤاد الهيداد : المغول في التاريخ ص ١٨٦ - ١٧٨ باختصار •

وآسيا الصغرى ويستولى على هذه البقاع (٦٤١ — ٦٤٢ هـ) وبسقوط آسيا الصغرى أصبح العراق مطوقا من الشرق والشمال ، ولكن المغول كانوا يحسبون للهجوم على عاصمة الخلافة حسابها ، ولذلك تجدهم يقومون بمحاولتين مهمتين رجاء تحقيق النصر ، وكانت المحاولة الأولى هى تعاونهم مع الصليبيين ، والثانية هى القضاء على دولة الاسماعيلية بشمال فارس ، وتستحق كل من هاتين المحاولتين أن نخصص لها كلمة موجزة :

التحالف مع الصليبيين :

توقع المغول أن يتجمع العالم الإسلامى ضدهم إذا هددوا الخلافة الإسلامية ، ومن هنا اتجهوا إلى التحالف مع الصليبيين الذين كانت لا تزال لهم بعض الجيوب والإمارات فى بلاد الشام ، وكان ذلك سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) وكانت زعامة المغول قد آلت إلى أوكتاي ، وكان الصليبيون آنذاك يتلقون عوناً جديداً بسبب زحف لويس التاسع لمساعدة الصليبيين فى مصر والشام ، ويقول الأستاذ براون أن الظاهر أن المسيحيين جميعاً كانوا على استعداد لأن يتغاضوا عن الشناعات التى ارتكبتها المغول ليحطموا قوة العرب والإسلام ^(١) . ولكن هذا التحالف لم يكن ذا بالٍ ولم يثمر أية نتائج ، لأن مصر سرعان ما ضربت الصليبيين ضربة قاضية وأسرت لويس التاسع مما جعل المغول يتجهون للاعتماد على أنفسهم فى هذا السبيل .

المغول والإسماعيلية :

أما المحاولة الثانية التى اتجه لها المغول لضمان النصر فهى القضاء على طائفة الإسماعيلية حتى لا يكون الإسماعيلية شوكة فى ظهر المغول عند زحفهم إلى العراق ، وحتى لا يقع المغول وهم بالعراق بين عدوين أحدهما الإسماعيلية بالخلف والثانى جيش الخلافة إلى الأمام .

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى ص ٥٧٥ .

وكان زحف المغول على الإسماعيلية بقيادة هولاكو الذي كان كجده جنكيزخان في بطشه وطغيانه وحبه لسفك الدماء •

وطائفة الإسماعيلية كانت تسمى النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر الفاطمي ، وقد رأى هؤلاء أنه أحق بالخلافة من أخيه المستعلى ، واستطاع أتباع نزار أن يكوّنوا لهم مملكة في بلاد فارس عمّت ١٧٠ سنة (١) ، وأشهر زعماء هذه الطائفة الحسن الصباح الذي تحدّثنا عنه من قبل ، وكان الإسماعيلية يحرّفون بالحشاشين ، ويتخذون مركزهم قلعة «الكوت» جنوب بحر قزوين ، وكان لغوذهم قد امتد إلى الشام فلما بدأ المغول زحفهم على تلك المناطق وتوقعوا مقاومة الإسماعيلية الذين كانوا يرون أن مظاهر المغول لا تقف عند حد ، وأن فتوحاتهم في الصين وأوربا وخراسان وإيران ستمتد لهم وتتقضى عليهم ، ومن هنا اتجه الإسماعيلية إلى جمع الجموع لمواجهة المغول ، بل أخذوا يرسلون رسلهم إلى إنجلترا وفرنسا طالبين معونة الأوربيين في هذا الشأن ، وكل ذلك أثار عليهم المغول فقرر هولاكو ضرورة التخلص منهم قبل أن يواصل زحفه إلى العراق ، وعلى هذا حاصر حصونهم بجيوشه الجرارة ثم استعمل معهم سلاح السياسة والخديعة واستطاع بذلك أن يقضى عليهم ويدمر حصونهم •

وقد نجا من المغول في قلاع الإسماعيلية الخواجه نصر الدين الطوسي الذي كان زعيم الإسماعيلية قد قبض عليه وأودعه السجن ، لأنه لم يكن يدين بالفكر الإسماعيلي •

وبالتخلص من الإسماعيلية لم يعد أمام هولاكو عقبات في طريقه إلى العراق •

هولاكو وسقوط بغداد :

عندما قضى هولاكو على كل العقبات في طريقه إلى العراق ،

(١) موسى كاظم نورس : كاش خفا ص ١٣٨ •

وعندما أوشك أن يدق أبواب العراق أخذ يعد عدته لنجاح مهمته ، فجهز آلات الحرب أعظم تجهيز ، وهيا جنده ، أقوى تهيئة ، ومساعدته الحظ حينما تمكن من الاستيلاء على قافلة كانت متجهة إلى حران وهى تحمل ٦٠٠.٠١٠٠ دينار من الذهب ، فساعدته هذا المبلغ على تقوية الجيش وتوسعه العطاء لجنده وبعث الأطماع فيهم لدخول الأرض التى تخيلوها أرض الذهب والثراء ، وعندما تهيأ هولاء لدخول بغداد أرسل للخليفة خطابا سنورد موجزه فيما بعد ، وأهم ما يعنينا منه هنا أن المغول طمعوا فى السيطرة على الخلافة العباسية ، شأن حكام الشرق من بويهيين وسلاجقة وخوارزمية ، ولم يستجب الخليفة لهذه الأطماع ، بل رد ردا غنيفا ففتش الباب لزحف ساحق ، وفيما يلى موجز خطاب هولاء والرد عليه .

يقول هولاء : لابد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيزخان ، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة . ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط ، فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف التى تولت هنا السيادة ، فكيف يغلق هذا الباب فى وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسultan ؟ .

واعلم اننى إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو منى ، ولو صعدت إلى السماء ، واختفيت فى باطن الأرض .

أما رد الخليفة فقد جاء فيه قوله :

أيها الشاب الحدث الذى لم يخبر الأيام بعد ، والذى غرته مساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ، وحسب أن أمره قضاء مبرم . . . ألا تعلم أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتقون الأديان كلهم أتباع وجنود لى ، غير أنى لا أود الحقد والخصام ، ولكنك إن كنت تريد الحرب

فإن لى ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة ، هم على أهبة الاستعداد للقتال (١) .

ولم تجد هذه الرسائل ، فأرسل هولاء سنة ٦٥٥ هـ أحد جواسيسه إلى علاء الدين بن العلقمى ، وزير الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وكان هذا الوزير شيعيا ، ويقال انه كان يستجيب لكل ما يئنزل الضرر بأهل السنة ومن أجل هذا استجاب ابن العلقمى لدعوة التتار ، وقام بما يسمى فى العصر الحاضر بدور الطابور الخامس ، فأثار الفتن فى العراق ، وحث الخليفة على التفاهم مع المغول (٢) .

ومما ينسب لابن العلقمى ما يذكره موسى كاظم من أن الخليفة عندما أراد أن يعد العدة لمواجهة التتار ثبطه الوزير ابن العلقمى وقال له : إن سلاطين الدنيا وخواتينها كلهم خدوم لمرکز الخليفة ، وإنهم على استعداد للمجئ بأذن إشارة من الخليفة ، على أن نساء بغداد وحدهن قدرات على رد الاعتداء (٣) .

ولعمري كيف جاز للخليفة أن يصدق هذا الكلام ؟

ويستمر موسى كاظم متحدثا عن خيانات ابن العلقمى ، فيذكر أنه أرسل إلى هولاء رسالة يشكو فيها من سوء الأحوال ببغداد ، ويبدى فيها إخلاصه له وطاعته ، ويرحب بمقدمه ويقول له : إنه قد دبّر الأمر بحيث إذا ما وصل سيجد بغداد مفتوحة الأبواب ، وسيتولى أمورها ويحكمها بلا حرب ولا نزاع (٤) .

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ : الترجمة العربية ص ٢٦٧ وما بعدها ، وفى الأصل « عبيد » بدل « أتباع » .

(٢) دكتور ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٨١ .

(٣) موسى كاظم نورى : كلشن خلفا ص ١٢٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وانتفاعا بهذه الثمار تقدم هولاء نحو بغداد في جيش عرمرم لم يستطع جيش الخليفة أن يوقفه ، ولما انتصر جيش هولاء في الجولة الأولى حث ابن العلقمي الخليفة على أن يخرج لملاقاته ، والاتفاق معه على ما يصلح شأن الرعية : وفي جو من تأثير الهزيمة استجاب الخليفة لذلك فخرج إلى معسكر التتار ، وهناك نزل في خيمة منعزلة ، ثم عاد ابن العلقمي فاستدعى الفقهاء والأعيان للحاق بالخليفة ، وخلت بغداد بذلك من اللادة والمدافعين ، فأذن هولاء لجنده باقتحام المدينة والتصرف فيها على ما يشتهون ، أما أولئك الذين وفدوا إليه فقد أعمل السيف في رقابهم ، ولما فرغ من الفقهاء والأعيان جاء دور الخليفة ، ولم يقو هولاء على القضاء عليه بسرعة بل يروى أنه تردد في ذلك ودعا إليه منجما ليسأله هل تثور الطبيعة إذا قتل الخليفة ؟ فأجاب المنجم بعد تدبر وإمعان : « لم يحدث شيء من ذلك عند ما قتل يوحنا المهدان (يحيى بن زكريا) أو المسيح أو الإمام الحسين ^(١) ، وحينئذ أمر هولاء بقتل الخليفة وولده شر قتلة ، وكان ذلك سنة ٦٥٦ هـ ، وقد استمر القتل والسلب في بغداد حوالي أربعين يوما ، وبلغ عدد القتلى في هذه الحملة مليوناً وثمانمائة ألف (أى ما يقرب من مليونين كما ذكره بعض المؤرخين ^(٢)) وأسعلت النيران في المباني ، واستباح هولاء غنائم بغداد التي لا تحصى ، وكنوزها العظيمة ، ويقال أن حلى الذهب والفضة كُذست أمام خيمة هولاء حتى أصبحت كالثلج المرتفع ، وتحولت بغداد إلى خرائب ، وتحولت الكتب إلى رماد وتلال ، وخُفَّتْ صوت المدينة التي كان يملأ الأسماع ويغمر كل القلوب .

ومن الحق أن عوامل خطيرة ساعدت على سقوط العراق هي التفكك

(١) ستون لويد : الرافدان ص ٢٣٠ من الترجمة العربية وانظر التاريخ الغياثي ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) انظر تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدوى محمد فهد ص ٩٥ .

الذى شمل العالم الإسلامى آنذاك ، وحكم النساء ومراكز القوى ، وحرص أصحاب السلطان على جمع الأموال التى كدسوها ثم آلت للفانحين ، وكفى نتمنى أن نتعلم من التاريخ ، فالتاريخ درس لا يهمله إلا الجاهلون .

دفاع عن ابن العلقمى :

بين أيدينا كتاب يدافع عن ابن العلقمى دفاعا طويلا ، يبرئه من كل شيء ، تبرئة الذئب من دم ابن يعقوب كما يقولون : ذلك هو كتاب « العراق فى عهد المغول الإيلخانيين » للدكتور جعفر حسين فهو يمدد فصلا طويلا يورد فيه مناقب ابن العلقمى التى تضعه فى القمة بين الرجال ^(١) ، ثم يقتبس اقتباسات متعددة من المؤلفين الذين عاصروا الأحداث ، والذين أخذوا عنهم ، وهى كلها تدين ابن العلقمى ، وتقرر أن التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة ^(٢) وهذه الخيانة التى أوجزها أبو شامة فصلها كثير من المؤرخين مثل : البعلبكي فى (ذيل مرآة الزمان) ، ومثل الذهبى فى (دول الإسلام) ومثل الشيرازى فى (تاريخ وصاف الحضرة) ومثل ابن شاکر الكتبى فى (فوات الوفیات) ومثل ابن خلدون فى (العبر) وغيرهم كثيرين . ولكن المؤلف لا يقنع بهذه الأقوال ويتجه للدفاع عن هذا الوزير ، ويورد فى دفاعه آراء ليس فيها فيما نرى ما يرجحها على الاتهام ، فهو كما سبق وصف الوزير بأعظم الصفات وأسمى السجايا ، ولكنه فى سبيل الدفاع عنه يصفه بأنه كان ضعيفا غير مسموع القول ، وليس له نفوذ على الخليفة ^(٣) .

ومن أهم الأسباب التى تذكر لإدانة ابن العلقمى أنه كان شيعيا ، وأن الشيعة نجوا من التدمير بعد دخول التتار بسبب تعاون ابن العلقمى

(١) ص ٢٦

(٢) أبو شامة (ت ٦٦٥) تراجم رجال القرنين السادس والسابع

ص ١٩٨ .

(٣) ص ٣٦ .

مع هؤلاء ، ويرد المؤلف هذا القول بأن المغول قتلوا العديد من العلويين مثل نقيب العلويين على بن النقيب ، وعمر بن عبد الله بن المختار وغيرهم . ولا نرى في ذلك دليلاً حاسماً ، إذ أن العلقمي لو صحت خيافته لا يمكن أن يتبعه في هذه الخيانة جمهور الشيعة ، فكم في الشيعة من رجال سمعت وطنيتهم وترفعوا عن شبهة التعاون مع المغول ، فأوقع بهم المغول كما أوقعوا بسواهم .

على أن دفاع هذا المؤلف عن ابن العلقمي يمتد ليصبح تقريباً دفاعاً عن المغول أنفسهم ، فهو يقول : (إن المغول بدأ غزوهم للعالم الإسلامي سنة ٦١٦ ، ولم يستولوا على العراق إلا بعد أربعين سنة ، نشأ خلالها منهم جيل جديد انهالت عليه الثروة من كل جانب ، واحتك بالمدنيات القديمة في الصين وأواسط آسيا ، وإيران ، ولذلك فانه (هذا الجيل) كان أخف من آبائه في معاملته للسكان المفتوحين (١) .

وهذا كلام خطير ، مردود بما ذكره كل المؤرخين دون استثناء ، فكأن المؤلف كان يتوقع لبغداد تدميراً أقسى من الذي حدث ، ولا نكاد نعرف في التاريخ تدميراً أشد قسوة ووحشية من ذاك الذي أنزله المغول بعاصمة الخلافة العباسية .

وعقب الانتهاء من العراق تقدم التتار فاستولوا على حلب ودمشق ، ولم يتوقف زحفهم ، ولا كلت عزيمنتهم ، إلا بعد ما حققه المصريون من نصر عليهم في عين جالوت في ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وقد تحدثنا عن هذا النصر عند حديثنا عن المماليك في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الإسلام يغلب المغول :

بقيت كلمة نقولها عن المغول قبل أن نتركهم لتتحدث عن تاريخ العراق من بدء عهدهم ، وهذه الكلمة نقتبسها من باحث مسيحي أشرنا

(١) مقدمة كتاب العراق في عهد المغول الايلخانيين .

إليه آنفا هو « سيتون لويد » الذى يقول : « وقد اعتنق المغول الإيلخانيون فيما بعد الإسلام ، فإذا بنا نشاهد حدثا عجبا لم يقتصر على جمع الذئب والحمل فى مكان واحد ، بل إن الذئب أفنى نفسه فى الحمل ، فإن المغول فى الواقع عملوا على هضم ما تبقى من المدنية التى دمروها ، واندمجوا فى جمع العالم الإسلامى ، ولم يبق لهم كيان قائم بنفسه بالمرّة » (١) .

العراق ابتداء من حكم المغول

مر العراق ابتداء من حكم المغول بعصور حافلة بالآلام والظلام ، وقرون مليئة بالجراح والأشجان ، وقد امتدت هذه العصور إلى القرن العشرين ، وكان العراق فى بعضها ولاية تابعة لقوة أعظم ، مغولية أو صفوية أو عثمانية ، وأحيانا كان يحكم من الداخل كالعصر الجلائرى ولكن بحكام أقرب للفوضى أو الخيانة منهم إلى النظام أو المسئولية ، ويمكن سرد هذه العصور فيما يلى :

- ١ — حكم المغول الإيلخانيين من سقوط بغداد ٦٥٦ — ٧٣٦ هـ
- ٢ — الجلائريون (ثم فترة صراع) ٧٣٦ — ٨١٣ هـ
- ٣ — حكم القرة قويونلو (التركمانية الأولى) ٨١٣ — ٨٧٢ هـ
- ٤ — حكم الآق قويونلو (التركمانية الثانية) ٨٧٣ — ٩٠٨ هـ
(بدأ تأسيس الأسرة بالموصل سنة ٨٠٦ هـ)
- ٥ — الصفويون ٩٠٨ — ٩٤١ هـ
- ٦ — العثمانيون ٩٤١ — ١٣٣٧ هـ
- ٧ — العراق الحديث من سنة ١٣٣٧ هـ

وستتكم عن كل من هذه العصور كلمة فيما يلى :

المَقُول الإيلخانيون

تلقب هولوكو عقب انتصاراته السابقة بلقب « إيلخان » أى الخان الكبير ، وصار هذا اللقب وراثيا ، وأصبحت العراق تحت حكم الإيلخانيين ولاية ضمن الولايات الكثيرة التى كانت خاضعة لهم ، وكانت أذربيجان عاصمة الإيلخانيين ، ولم تكن الامبراطورية الإيلخانية التى كانت العراق جزءا منها محبوبكة المسيح ، بل كانت سيئة الإدارة ، كما كانت بعيدة عن الوثام ، فقد كان المغول بازعين فى الفتح ، ولكنهم كانوا متخلفين فى تأسيس الامبراطوريات وإداراتها ، ولذا طُبعت قوتهم العظيمة بطابع عدم الثبات وعدم الاستقرار ، وظهرت نقاط ضعفهم هذه بوضوح عند حكمهم فى العراق ، ففى حكومات بغداد والبصرة والجزيرة التى أصبحت وحدات متناثرة ، انتشرت بها الدسائس ، وبرز الجهل فى تسيير الأمور (١) .

وولاية بغداد فى هذه الفترة هم :

على بهادر	سنة ٦٥٦ هـ
علاء الدين عطا	» ٦٦١ (وتوفى سنة ٦٨١)
بيجو	» ٦٨٣
توجو	» ٦٩٤
على شاه	» ٧٣٦ (٢) (توفى بعد ستة شهور)

وكان الوالى يلقب بلقب « صدر » و « صاحب الديوان » ويعتبر الممثل الشخصى للسلطان الإيلخانى ، وكان يتمتع بسلطة واسعة تكاد تكون مطلقة ، كما كان مسئولاً عن تقديم قدر من المال إلى خزانة السلطان

(١) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٦ .

(٢) زامباور : معجم الانساب ج ١ ص ٦١ .

(م ٤٦ - التاريخ ج ٧)

في أذربيجان ، وكان السلطان المغولي من حين إلى آخر يرسل موظفا كبيرا إلى صاحب الديوان ، ليتعرف على أحوال البلاد ، ويسيّر الحكم فيها ، وainقل للوالى تعليمات السلطان وأوامره ، ثم يعود للسلطان بصورة عما وجده في البلاد ، ويقدم معها نصائحه وتعليقاته ، وكان هذا الموظف يسمى « المشرف » .

وتجمع المصادر التاريخية على أن الفساد وعدم الاستقرار وإهمال مصالح الرعية كانت أبرز مظاهر إدارة العراق الإيلخانية ، وقد امتد الإهمال إلى الديوان نفسه ، فقد دبت فيه الدسائس ، وانتشرت المؤامرات ولم يكن أحد من رجال الديوان آمنا على نفسه أو ماله ، بل كان كلّ منهم يتوقع السجن والتعذيب والقتل في أية فترة من الفترات ، وإذا كان هذا شأن الديوان ، فقد كان شأن البلاد أخطر وأشد سوادا .

ولم يكن هم سلاطين المغول متجها إلا إلى جمع المال ، فقد رأوا في البلاد التي فتحوها القصور الشامخة ، والحدائق الفينانة ، فطاب لهم أن يشيدوا مثلها ، ويعيشوا في حياة الرفاهية ، بعد ما عانوا من حياة الخشونة والتقصّف ، ومن أجل أن يحققوا هدفهم اتجهوا لجمع المال من الرعية بوسائل مختلفة ، كان منها فرض الضرائب والإلزام بسداد ديون يفرضها الوالى ، وكان فيها أيضا المصادرات في كثير من الأحوال .

وإذا كانت هذه صفة سلاطين المغول بوجه عام ، فإنه قد وجد منهم أحيانا من اتجه للإصلاح وتحسين الأحوال ، مثل السلطان محمود غازان (٦٩٥ — ٧٠٤ هـ) ، ويقول عنه الغياثي (١) : إنه شرّفه الله بالإسلام والعدل ، وعظم المهابة ، فأحبه أهل الإسلام ، ووجدوا فيه مظاهر البر وأعمال الخير ، ومن آثاره نهر شقّه من الفرات إلى دجلة عند بغداد ، ويسمى بالنهر الغازاني ، وشق من الفرات نهرا يصل إلى مشهد الشيخ

(١) التاريخ الغياثي : ٥١ وما بعدها .

أبى الوفاء ، كما يتحدث الغياثي أيضا عن إصلاحات كثيرة قام بها السلطان غازان في نواحي الإمبراطورية : فقد أنشأ في تبريز مدرسة وخانقاه ، ودارا للحديث ، ودارا للقرآن ، وأنشأ في بغداد والحلة وتبريز وأصفهان وشيراز والموصل مكانا أسماه « دار السيادة » خصصه لآل البيت ، وجعل وقفه يصك إلى الفقراء والمساكين من العلويين .

ومما يذكر عن غازان أنه عندما كان واليا على خراسان في عهد خاقان التتر (بايدوخان) ابن طرغاي بن هولاكو ، أبطل غازان الاعتراف بالخاقان ، وعدل عن نقش اسمه على السكة لأنه كان يعتبره كافرا ، فأدى ذلك إلى هجوم التتر على خراسان ، ولكن غازان تمكن من طردهم وردهم إلى بلادهم (١) .

ويتحدث لونكريك (٢) عن العراق في عهد غازان وفي عهد المغول بوجه عام بقوله : كان غازان ممن أفادوا بغداد عن حب وإخلاص ، فإن إصلاحاته للقانون والحكومة ، وورعه الشيعي ، وتردده الكثير إلى العراق ، كانت كلها من الأمور التي تبعث الأمل في الإحياء والتجديد ، غير أن هذا الأمل كان صعب التحقيق لأن سطوة الايلخانيين لم تتعد حدود المدن : فلم يكن تأمين الطرق ممكنا ، مما أثر على النشاط التجاري ، وقلل الاهتمام بالزراعة لأن من زرع أرضا كان غير مطمئن إلى حصاد زرعه ، وقد ارتكب هولاكو تخريبا شاملا في السدود والأنهار التي كان تشييدها المحكم منذ القدم هو المنبع الوحيد للثروة في البلاد ، وقد تعذر القيام بإصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطراب في البلاد ، وفقدان روح العمل عند من بقوا على قيد الحياة من السكان بعد المذابح الرهيبة ، وهذا أدى إلى أن الأنهار أصبحت مظلومة بسبب تكاثر الطمي ، ولم يعد من الممكن ضبط الأنهار عند الفيضان ، مما سبب ضعف النشاط

(١) رزق الله الصدفى : تاريخ دول الاسلام : ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٨٧ .

(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٦ - ٢٧ .

الزراعى ووضع العوائق دون أن تستعيد البلاد سابق مجدها الزراعى ،
وقد خلقت هذه العصور للعراق التحديث تركة مثقلة ، تبتذل أقصى الجهود
للتغلب عليها *

وقد حاولت بغداد بعد أن أفاق من هول الدمار المغولى أن تستعيد
شيئاً من مكانتها ففتحت المستنصرية أبوابها ، ونشطت بعض الجهود
الثقافية ، ولكن ذلك كان ضئيلاً ، وكانت اللغة الفارسية تنافس اللغة
العربية *

وهكذا عاشت العراق فترة حالكة كانت أشعة النور فيها ضئيلة خلال
هذا العهد الرهيب *

الجلالريون

في سنة ٧٣٦ هـ توفي أبو سعيد بهادرخان : وهو الخاقان الثامن
من نسل هولاكو ، وآخر من حكم من أحفاده ، ولم يعقب أبو سعيد
ذرية ، ففتح ذلك الوضع الباب للصراع بين طوائف الطامعين ، وبين هذا
الصراع استطاع الشيخ حسن بن حسين ابن عمه أبى سعيد أن يستقل
بملك العراق ، وجعل بغداد عاصمة لملكه *

وحسن هذا أمير مغولى ليس من أحفاد هولاكو ، ويدعى نحسن
جلالري ، وقد أعاد للعراق استقلاله ، ولبغداد بعض جمالها *

وفي عهد ابنه ووارثه الشيخ أويس استطاع هذا أن يستولى على
أذربيجان وتبريز سنة ٧٥٩ وجعل تبريز عاصمة صيفية له وبقيت بغداد
عاصمة شتوية ، ثم ألحق بمملكته الموصل وديار بكر سنة ٧٦٦ هـ وحارب
خلفه حسين بن أويس المظفرين جيرانه بشرقى إيران ، كما حارب التركمان
(القره قوينلو) الذين كانوا يحكمون أرمينية حتى قبلوا سنة ٧٧٩ هـ أن

يكونوا تابعين للجلالريين ، وكان الجلائريون يتبعون المذهب الشيعي ،
وحكام آل جلائر هم :

الشيخ حسن بن حسين ٧٣٦

الشيخ أويس بن حسن ٧٥٧

حسين بن أويس ٧٧٦ (صراع بين الإخوة)

أحمد بن أويس ٧٨٤ (قتله قرم يوسف من القرة قوينلو)

شاه ولد ٨١٣ (اغتالته زوجته تاندو وحكمت فترة)

محمد بن ولد ٨١٤ (تحت وصاية أمه)

أويس بن ولد ٨١٨

محمد بن ولد ٨٢٤

حسين بن علاء الدولة ٨٢٧ (قتله اسكندر قره قوينلو سنة ٨٣٥ ^(١)) .

وكان حسين ثالث حكام السلالة أضعف ممن سبقه في الحكم ، ولذلك
لاقى المشاكل العظمى لامبراطورية كان يهددها أعداء طامعون ، وكان
في قمة أعدائه أخوه على الذي اغتصب الملك منه ، ولكن هذا سرعان ما سقط
تحت أقدام أخيه أحمد الذي أدمج ولاية العراق مع ولاية تبريز ، وكوهن
منهما حكومة واحدة ^(٢) .

تيمورلنك وآل جلائر :

وفي عهد آل جلائر مرت بالعراق عاصفة مغولية جديدة ، كان
قائدها هذه المرة تيمورلنك آخر عظماء المغول : وكان هذا يمر من فتح
إلى فتح على رأس جيوش جرارة من الشرق ، وفي سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م)
ظهر على أبواب بغداد ، وقد حاول السلطان أحمد رده عنها ولكنه انهزم

(١) زامباور : معجم الأنساب ج٢ ص ٣٧٧ .

(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٨ .

ففر من البلاد ، ثم انتهر أحمد الجلائرى فرصة بُعد تيمورلنك عن بغداد ، فعاد لها وطرد ممثل الحاكم التيمورى واسترد سلطانه ، ولكن فى سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) عاد تيمورلنك من جديد ليعاقب أحمد الجلائرى على تصرفه ، فأوقع ببغداد كارثة مروعة ، ذبح الألوف من الناس ، وهدم المساجد والمدارس والمسكن ، وأعاد الخراب إلى العاصمة التى كانت قد استردت بعض نشاطها عقب الدمار الهولاكى ، ولم يستطع أحمد الجلائرى أن يقف فى وجه تيمورلنك ففر ولجأ إلى السلطان بوقوق بمصر (١) .

الدولة الجلائرية بعد تيمورلنك :

لما توفى تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م) وتفككت امبراطوريته عاد أحمد الجلائرى إلى العراق ، ولكنه قطع علاقاته « بقره يوسف بن القره قوينلو » وغزا أذربيجان : ولكنه غلب وأمر فأعدمه القره قوينلو وأعدم معه ولده علاء الدين ، وبعض أولاده الآخرين سنة ٨١٣ هـ .

ويمكن القول بأن الدولة الجلائرية فقدت أهميتها بعد وفاة أحمد ، ولئن كان بعض أفراد الأسرة قد حكموا منفردين فى أماكن متفرقة بعد أحمد : فإن ما كان بينهم من خصومات ووقائع ، جعل إدارتهم بعيدة عن أن تكون إدارة دولة بالمعنى الحقيقى ، ويروى المؤرخون قصة الدولة الجلائرية فى اضمحلالها هذه روايات مختلفة ، ويمكن أن يستدل من الروايات باختصار على أنه بعد وفاة أحمد أجلس على العرش شاه محمد بن شاه ولد ، وهو لا يزال صبيا ، وحكم شاه محمد بغداد حتى ورود القره قوينلو على بغداد سنة ٨١٤ ولذلك اعتبر هذا التاريخ هو تاريخ انقراض الدولة الجلائرية .

وقد حكمت (تاوندوخاتون) أرملة شاه ولد — منطقة واسط

(١) سـمى كاخلم نورس : كلشن خلفا ص ١٦٧ وما بعدها .

والبصرة إلى أن توفيت سنة ٨١٩ هـ ، وجلس بعدها على العرش ولسدان آخران من أولاد (شاه ولد) هما أويس ومحمد ، وبعد ذلك حكم حفيد أحمد الجلائري حسين بن علاء الدولة جزءا من العراق لم يشمل بغداد التي كانت تحت سلطان القرّة قيونلوية ، وقد قضي عليه هؤلاء سنة ٨٣٥ هـ ، وبهذا لفظت دولة بنى جلائر آخر أنفاسها (١) .

ومن الواضح أن عهد الجلائريين بالعراق كان عهد صراع ودمار بسبب خلافاتهم الداخلية : وبسبب هجوم تيمورلنك ، وبسبب الصراع المدمر بينهم وبين القرّة قوينلو ، وقد تعرضت بغداد خلال هذا العهد لعدة أوبئة : وغرقت غرقا شديدا بسبب إهمال السدود والأنهار ، ولا يذكر بالخير من هذا العهد إلا (نخواجة مرجان) الذي ثار على بنى جلائر ، واستولى على الحكم فترة ، فقد أنشأ « جامع مرجان » وجعله مدرسة على غرار المدرسة النظامية .

القرّة قوينلو (ذوو الخراف السود)

أو الأسرة التركمانية الأولى

قرّة قوينلو معناها ذوو الخراف السود ، لأن هذه القبيلة كانت منذ عهد بعيد تعنى بتربية هذا النوع من الخراف ، فسميت بذلك ، ثم لصقت بها هذه التسمية ، وهي قبيلة تركمانية جاءت في الأصل من تركستان الغربية ، وكان جد هذه القبيلة (بيرام خواجه) يعمل في خدمة السلطان أويس بن حسن الجلائري .

وبعد وفاة أويس سنة ٧٧٦ هـ استولى بيرام على الموصل ، وبعض المناطق المجاورة لها ، وأصبح حاكما لها حتى وفاته سنة ٧٨٢ هـ ، وجاء بعده ابنه محمد الذي التحق بخدمة السلطان أحمد بن أويس وتزوج

(١) ستانلي لين بول : تاريخ الدول الإسلامية ج٢ ص ٥٢٣ .

بنته ، وأصبح رئيس العشيرة ومات سنة ٧٩٢ هـ ، وجاء بعده ابنه قره يوسف الذى عاصر الاضطراب العام إبان العهد التيمورى ، ولجأ مع أحمد الجلائرى إلى مصر .

وبعد تيمورلنك استعاد يوسف كل ممتلكاته سنة ٨٠٨ ثم غلب أبيا بكر حفيد تيمور واستولى على أذربيجان ، وحدث خلاف بين قره يوسف وأحمد الجلائرى ، فقتل قره يوسف رفيق محنته أحمد الجلائرى واستبد بالأمر فى أكثر المناطق التى كانت خاضعة للجلائريين ، وكان ابن قره يوسف واسمه بير بوداق يحكم معه حتى توفى الابن سنة ٨١٧ هـ ، فاستقل الأب حتى سنة ٨٢٣ هـ ثم توالى على حكم المملكة ولداه اسكندر فجيهان شاه ، ثم حسن على بن اسكندر ، وحسن على بن جيهان شاه .

أما بغداد فكان يحكمها شعبة من شعب العشيرة بدأت بابن قره يوسف « شاه محمد » ، ولما توفى سنة ٨٣٧ هـ خلفه أسبان ثم فولاد ابن أسبان بعد أبيه ٨٤٨ هـ .

وفى أيام حسن على استولى أوغورلى محمد بن أوزون حسن وهو من عشيرة الآق قوينلو (ذوى الخراف البيض) المعادية للقره قوينلو على أملاك حسن على ، وانقرضت دولة القره قوينلو .

وعلى هذا فحكام هذه العشيرة هم :

٧٨٢	قره محمد بن بيرام خواجه
٧٩٢	قره يوسف (للمرة الأولى)
٨٠٢	استيلاء تيمورلنك
٨٠٨	قره يوسف (للمرة الثانية)
٨١٠	قره يوسف وابنه بير بوداق معا
٨٢٣	اسكندر

٨٤١	جيهان شاه
٨٧٢	حسن على بن اسكندر
(١) ٨٧٢ — ٨٧٤	حسن على بن جيهان شاه

ولم يختلف هذا العهد عن العهد الجلائرى من الناحية الحضارية إلا قليلا ، وقد نعمت بغداد على أى حال بشىء من السلم بعد أيام عاصفة من الفزع والحيرة ، وقد اتسع ملك هذه العشيرة فى عهد جيهان شاه باختفاء أسرة تيمورلنك ، فامتد ملك جيهان من تبريز إلى شط العرب وصار هذا الملك غير تابع للتيموريين : وأصبحت فارس وكرمان تابعة لهذه المملكة ، وبذلك أصبح للقرة قوينلو مملكة غنية مقرامية الأطراف بعد أن كانت قبيلة مجهولة ، وكانت تبريز عاصمته الرئيسية ، أما بغداد فقد احتفظت بمركزها عاصمة للعراق الذى كان ولاية من الولايات التابعة لهذه العشيرة ، وللأسف ختم عهد جيهان شاه بصور من الصراع ، وضعت الأساس لنهاية هذه الدولة إلى الأبد (٢) .

الآق قوينلو (ذوو الخراف البيض)

أو الأسرة التركمانية الثانية

دولة تركمانية أخرى حكمت بالعراق أكثر من قرن ، ولم يعرف العراق الاستقرار خلال هذا العهد الأسود ، بل كان التطاحن مستمرا والصراع قاسيا بين أمراء الدولة بعضهم والبعض الآخر ، وبينهم وبين جيرانهم ، أما الجانب الحضارى فكان مهملا تماما فجعل الحكام انعكس على الشعب ، وتنوسى تاريخ العراق العظيم ، وأصبحت ولاية ضمن الولايات الكثيرة التى امتد لها ملك هؤلاء التركمان .

(١) لين بول ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٩ .

ونذكر فيما يلي حكام هذه الدولة لعل قائمة الأسماء تساعدنا على تموير هذا العهد البغيض :

بهاء الدين عثمان ٨٠٦ هـ

جلال الدين على بن عثمان من سنة ٨٣٨ هـ
نور الدين حمزة بن عثمان من سنة ٨٣٨ منافس وثائر
معز الدين جهانكير بن على من سنة ٨٤٨ هـ
حسن أوزون (الطويل) بن على من سنة ٨٧١ هـ
أشهر حكام
الدولة اتخذ تبريز عاصمة له

خليل (حفيد جهانكير)	من سنة ٨٨٢ هـ	في ماردين وآمد
يعقوب (حفيد جهانكير)	من سنة ٨٨٣ هـ	في ماردين وآمد
بايسنقر ميرزا بن يعقوب	من سنة ٨٩٦ هـ	
رستم (حفيد أوزون)	من سنة ٨٩٧ هـ	

كودة أحمد بن أو غورلى (حفيد جهانكير) من سنة ٩٠٢ هـ (كان أو غورلى
صهر محمد الفاتح وعلى هذا فإن كوده أحمد هذا كان حفيد محمد الفاتح
وكان حكمه في كود) *

الوند (حفيد أوزون)	من سنة ٩٠٣ هـ	في أذربيجان
محمدي ميرزا (حفيد أوزون)	من سنة ٩٠٣ هـ	في بزد
مراد (حفيد جهانكير)	من سنة ٩٠٣ هـ	في شيوان (١)

والعشيرة بوجه عام وافدة من تركستان إلى أذربيجان ، ثم إلى
ديار بكر ، ثم استقرت في آمد والموصل حيث بدعوا يكونون لهم دولة في
آخر القرن الثامن الهجرى *

(١) لين بول : تاريخ الدول الإسلامية ج ٢ ص ٥٤٢ من الترجمة
العربية *

والمؤسس الحقيقي للدولة التركمانية الثانية هو بهاء الدين عثمان الذي اشتبك في حروبه ضد قره يوسف من القره قويونلو ، وضد القاضى برهان الدين سلطان سيواس ، وقد انتصر عثمان في هذه الحروب فتتبعاً له بذلك أن يكون دولة في منطقة الموصل ويصبح هو حاكمها .

وسرعان ما انتشر الآق قويونلو في العراق وإيران ، وقاومت بغداد مدة من الزمن ، إذ كان حاكمها من القره قويونلو قد دحر القائد الذى بعث به أوزون حسن (حسن الطويل) لاختضاع بغداد ، واضطر حسن أن يحضر بنفسه إلى بغداد ، وبعد حصار وحروب استطاع أن يستولى على المدينة الجريشة ، فاختلفت بذلك عشيرة القره قويونلو إلى الأبد ، وامتد حكم الآق قويونلو فشمّل بلاد فارس والعراق وديار بكر وأذربيجان (١) ، ولكن هذه العشيرة لم تعرف الوثام والتعاون بل كانت حياتها مرعاً متصل الحلقات بين أمير وأمير ، فشاع التفكك في الدولة ، ووقف عدد من الأمراء حكاماً لعدد من الإمارات ، وإذا أضفنا إلى ذلك موقف الآق قويونلو من القوى الخارجية تبين لنا أن عصر هذه الدولة كان حالاً السواد وأن العراق قاسى إبان حكمها صور الحياة المرة التى عاشها قبلها وبعدها

علاقات الآق قويونلو مع القوى المجاورة

كانت هذه المنطقة عاصفة كثيرة الحروب في تلك الآونة ، وكانت القوى المتصارعة فيها قوى كبيرة جبارة كالمغول في موجتهم التيمورية ، وكالعثمانيين والصفويين ، وقد اجتذبت المعارك الآق قويونلو طائعين أو كارهين ، فانغمسوا فيها وكسبوا أحياناً ، ولكنهم أخيراً خسروا كل شيء ، وقد تحدثنا آنفاً عن صراع الآق قويونلو ضد أبناء عمومتهم القره قويونلو وضد الجلائريين ، وهو صراع حقق فيه الآق قويونلو نجاحاً ، وأن لنا بعد ذلك أن ندرس مواقفهم مع التيموريين والعثمانيين والصفويين وهو ما سنشرع فيه :

(١) لوكنريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٠ .

الآق قيونلو والنيموريون :

يمكن القول أن الآق قيونلو بنوا أمجادهم بالانضمام إلى النيموريين فإن تيمورلنك عندما دخل الأناضول في مطلع العام التاسع الهجري ، انحاز له قره عثمان وصحبه في معاركه بالشام والأناضول ، فكافأه تيمورلنك على حسن خدمته بأن أعطاه ولاية ديار بكر ، وقد اتسع ملك الآق قيونلو في كل اتجاه عقب ذلك حتى أصبحت لهم امبراطورية فسيحة ، ولكن النيموريين على كل حال هم الذين نقلوا الآق قيونلو من حكام المقاطعات إلى أصحاب الامبراطوريات *

الآق قوينلو والعثمانيون :

عرفت العلاقات بين الآق قوينلو وبين العثمانيين العداء القاسى ، كما عرفت الود والمصاهرة ، ومن الواضح أن انضمام الآق قوينلو إلى تيمورلنك في هجومه على الأناضول قد كان مرحلة من مراحل العداء بين هؤلاء وبين العثمانيين ، وكان العداء هو في الغالب أساس العلاقات بين الجماعتين ، ولكن الخلافات الطويلة والمستمرة بين أمراء الآق قوينلو بعضهم والبعض أخرى بعضهم بالاستعانة بالعثمانيين ، ضد البعض الآخر ، كما دفع بعضهم للجوء للعثمانيين ، ويذكر « لين بول » إن جلال الدين على بن عثمان (والد حسن الطويل) لجأ هو وعائلته في عهد مراد الثانى إلى العثمانيين ، لأنه كان يخشى أخاه يعقوب ، أما حسن الطويل بن على بك سالف الذكر الذى كان معاصرا لمحمد الفاتح فقد كانت علاقته عدائية معه ، وقد خاض ضده ثلاث معارك كبرى ، ففي الأولى كان قائده ابن عمه بوسفجه ميرزا ، وقد أرسله إلى الأناضول فاستولى أول الأمر على توقات وسيواز سنة ٨٧٧ هـ ١٤٧٢ م ولكن المعركة انتهت بانتصار مصطفى جلبي ابن محمد الفاتح ، ووقع يوسفجه في الأسر ، وفي الثانية توجه حسن الطويل نفسه عقب هزيمة ابن عمه إلى حدود ارزنجان ، وشنت الجيش العثمانى وأسر قائده وأعدمه ، وفي الثالثة كان لقاء القمة بين محمد الفاتح

وحسن أوزون ، وقد هُزم حسن أوزون هزيمة منكرة سنة ٨٧٨ هـ (١٤٧٣م) وتسمى هذه الموقعة موقعة ترجان لوقوعها في وادي ترجان بولاية أرضروم ، ولم تقم لدولة الآق قوينلو قائمة بعد هذه الهزيمة .

والعجيب أن محمد ناصر الدين الابن الأكبر لأوزون والذي كان واليا على أصفهان ، لجأ إلى محمد الفاتح عقب الهزيمة التي نزلت بأبيه في ترجان ، وقد رحب به محمد الفاتح وزوجه بنته (كهر خان سلطان) ، وعينه واليا على الأناضول ، وقد مات هذا الابن قتيلا سنة ٨٨٢ هـ وتختلف الآراء حول قتله ، فينتجه بعضها إلى أن محمد الفاتح خاف غدره بعد أن رآه قد غدر بأبيه ، وتنتجه آراء أخرى إلى أن قتله كان بيد من بنى جنسه عقوبة له على غدره بأبيه . . .

وعند نهاية العقد الثامن ومطلع التاسع كان رستم (حفيد أوزون) هو سلطان الآق قوينلو : وقد ثار عليه بعض أمراء الأسرة والتمسوا من بايزيد الثانى أن يؤيد (كودة أحمد) عسكريا ليستولى على إيران من رستم ، واستجاب بايزيد الثانى لذلك ، ووقعت بين الاثنين معركتان انتصر رستم في الأولى ، ولكن الأمراء من آل بيته سرعان ما انفضوا من حوله ، فهزم في الثانية وقتل ، وتولى « كوده أحمد » عرش الآق قوينلو سنة ٩٠٣ هـ ولكن حكمه لم يطل لأن الأمراء ثاروا عليه وحاربوه في معركة بالقرب من أصفهان هزم فيها وسقط قتيلا (١) .

بقيت حلقة من حلقات الصلات بين الآن قوينلو والعثمانيين ، فإن مرادا (حفيد جهانكير) فر من وجه الصفويين ، ولجأ إلى مصر سنة ٩١٤ (١٥٠٨) وهو ما سنشرحه عند الكلام عن « الآق قوينلو والصفويون » ودخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ ففكروا في معاوأة الصفويين ، وكان

(١) لين بول تاريخ الدول الاسلامية ج٢ ص ٣٥٩ وما بعدها من الترجمة العربية بتصريف واسع يشمل التقديم والتأخير وإعادة تنسيق الأحداث .

من أول مراحل هذه المناوأة أن يرسلوا مراداً هذا سنة ٩٢٠ على رأس فرقة عثمانية لاسترداد ديار بكر من الصفويين ، ولكن هذه الفرقة هزمت وقتل مراد هناك في رمضان سنة ٩٢٠ (١) .

الآق قوينلو والصفويون :

كانت العلاقات بين الآق قوينلو والصفويين الذين سننكلم عنهم فيما بعد علاقات عدائية ، فالصفويون قوة جديدة قامت في بلاد فارس ، واتجهت إلى الاستيلاء على ما كان بأيدي الآق قوينلو ببلاد فارس والعراق وقد بدأ الصراع بين القوتين منذ ظهور الصفويين ، وكانت كفة الصفويين ترجح دائماً ، وبخاصة أن ظهورهم بدأ في فترة كان الخلاف واضحاً بين أفراد أسرة الآق قوينلو ، وسننتبع مراحل هذا الصراع في الخطوات التاريخية التالية .

— سنة ٩٠٦ هـ عقب مقتل محمدى ميرزا عقدت معاهدة بين المنتصرين ألوند ومراد ، بمقتضاها أصبحت أذربيجان وديار بكر إلى ألوند وأصبحت العراق وفارس لمراد .

— سنة ٩٠٧ هـ انتهر الشاه اسماعيل الصفوى فرصة الخلاف والانشقاق فهاجم ألوند في أذربيجان واضطره للفرار إلى بغداد ثم إلى ديار بكر وتوفي سنة ٩١٠ هـ .

— سنة ٩٠٨ هـ انتهى الشاه اسماعيل إلى مراد فالتقى به في معركة بالقرب من همدان هزمه فيها شر هزيمة ، وأرغمه على الفرار إلى العراق .

— سنة ٩١٤ هـ هاجم الشاه اسماعيل بغداد فاضطر مراد هو وحاكم

بغداد (باديك) إلى الفرار إلى مصر كما سبق القول ، وسقطت بغداد في يد الصوفيين وتعتبر سنة ٩١٤ (١٥٠٨) تاريخاً لانقراض دولة الآق قوينلو ، وأصبحت العراق تابعة للصفيين الذين سنتحدث عنهم بعد قليل (١) .

وإذا كان حكم التركمان للعراق قد انقضى منذ عدة قرون ، فإن العراق لا تزال به جماعات من التركمان تعيش في تلعفر ومنطقة كركوك ، ولا تزال محافظة على أصلها (٢) .

وهكذا كان عصر الآق قوينلو عصراً حافلاً بالاضطراب والحروب والفساد ، فكثر فيه المجاعات وانحلت الإدارة ، وأذن ذلك بفتح جديد سيكون موضع حديثنا فيما يلي :

الصفيون

ينسب الصفيون إلى جدهم الأعلى الشيخ صفى الدين الذى ينتسب فيما يقال إلى الإمام موسى الكاظم ، فالأسرة بذلك من أولاد الإمام الحسين ومن ذرية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وقد اتجهت هذه الأسرة اتجاهها صوفياً فأصبح لها مريدون وأتباع في موطنهم الأصلي « الأردنيل » ولما كثر هؤلاء الأتباع خافهم حاكم المنطقة فطردهم ، فلجأوا إلى ديار بكر فأصبحوا في رعاية حسن أوزون ، وقزوج زعيمهم بنت حسن أوزون ، وقاد جيوشه ، وكان اسماعيل الصفوى (الشاه اسماعيل فيما بعد) ثمرة هذا الزواج ، وقد استطاع اسماعيل أن يجمع أشتات أسرته وأن يجمع أشتات أتباعه ، وبعد أن كان رجل دين أصبح قائداً عسكرياً ، واستطاع

(١) المرجع السابق مع تصرف واسع .

(٢) سيتون لويد : الرافدان ص ٢٣٨ من الترجمة العربية .

أن يعود إلى بلاده ، وأن يبدأ في تكوين مملكة كان لها شأن كبير في التاريخ .

وحدث الصراع بين أمراء الآق قوينلو الذي ذكرناه من قبل ، فانتهاز اسماعيل الصفوي هذه الفرصة وأخذ يكوّن له دولة على حساب هؤلاء المتصارعين ، وقد تحقق لإسماعيل الصفوي ما أراد ، فأسس الأسرة الصفوية ، ثم أخذ حكمه يتسع حتى امتد من جيحون إلى خليج البصرة ومن أفغانستان إلى الفرات ، واستولى على بغداد سنة ٩١٤ هـ كما ذكرنا من قبل ، وأصبحت العراق ولاية تابعة للملك الصفويين الفسيح .

وتبعية العراق لبلاد فارس حدث خطي من الفتحية الحضارية ، فقد أصبح العراق بذلك تابعا لدولة مسلمة ، بعد أن ظل عدة قرون تحت حكم جماعات أقرب إلى الوثنية ، وبهذا بدأ الطابع الإسلامي الحقيقي يعود إلى العراق . وهذا الجانب طيب حقيقه الزحف الفارسي ، وهناك جانب آخر مضاد هو أن الفرس اتجهوا بالعراق اتجاهها فارسيا ، وكان هذا الاتجاه على وشك أن يعيد العراق إلى ما كان عليه قبل الإسلام ، فارسي اللغة والتقاليد ، ولولا الزحف العثماني الذي أخذ العراق من الفرس لتحققت هذه الغاية الكريهة ولأصبح العراق فارسيا .

ولما كان الصفويون شيعة فقد اتجهوا باهتمامهم إلى مناصرة التشيع ونشره بالعراق ، وقد بدأ الشاه إسماعيل بذلك ، فإنه عقب فتح بغداد أسرع بزيارة العراق ، ووفد له شيعة العراق فأكرم وفادتهم . وزار كربلاء والنجف في إجلال ظاهر ، وشيد بناية فخمة على قبر موسى الكاظم : وأنشئ إلى قبور أئمة السنة فهدمها وقتل جماعة من السننيين . وبذلك أحيى الصراع الطائفي الذي عرفه العراق بين السنة والشيعة منذ العهد الأول للإسلام .

والولاية الصفويين لبغداد هم :

٩١٤ لا لا حسين (أول وال فارسي)

٩٢١ قنعرز سلطان

٩٣٠ ثورة ذى الفقار نخود الذى إنحاز للعثمانيين

٩٣٦ محمد خان بن شرف الدين عقب قضاء الفرس على هذه الثورة

٩٤٠ — ٩٤١ تكلو محمد خان

وكان هناك حاكم عربى للبصرة ، ولكنه كان يدفع إتاوة سنوية إلى الشاه : ونَدَبَ الشاه أحد الخانات ليحكم الموصل .

وكان عهد الصفويين بالعراق عهد استقرار نسبي ، وقد تقاطر التجار الفرس إلى بغداد وسكنوها ، وبدأ النشاط الاقتصادي يأخذ طريقه ، ولكن فترة الصفويين بالعراق كانت قصيرة ، وكان الأتراك العثمانيون قد مكثوا لأنفسهم في أوربا ، وامتدت حدودهم في آسيا حتى تاختمت حدود الصفويين ، وكان الخلاف الطائفي بين أهل السنة والشيعة حادا فاستلزم صراعا بين القوتين الكبيرتين ، ورجحت فيه كفة الأتراك العثمانيين كما سنرى فيما يلى :

العثمانيون في العراق

تحدثنا في الجزء الخامس من هذه الموسوعة حديثا مفصلا عن الامبراطورية العثمانية ومراحل تاريخها ، ونريد هنا أن نتحدث عن علاقة العثمانيين بالعراق ، وقد أشرنا آنفا إلى أن العراق كان يقع بين هاتين القوتين الكبيرتين ، وكان بموقعه وتاريخه وإمكاناته مطمع هؤلاء وأولئك ، ومن هنا امتد الصراع بين الصفويين والعثمانيين على العراق ، وكانت الدولة العثمانية قد وصلت بفتوحاتها بأوربا إلى مدى بعيد ، وواجهت قوى كبيرة رأت أن من العسير التغلب عليها فالتجته نحو آسيا ، هذا من جانب ومن جانب آخر فقد أصبح للدولة العثمانية من جهة الشرق

جار واسع الرقعة ، قوى الشكيمة ، يمكن أن يهدد الحدود الشرقية للدولة العثمانية وهذا الجار هو الدولة الصفوية التي كانت تدين بالذهب الشيعي وتتعصب ضد أهل السنة ، والتي دمرت قباب أئمة أهل السنة ، وقتلت الآلاف من العلماء السنيين ، وكل هذا اتجه بالدولة العثمانية إلى أن تنزل حومة الصراع ضد الصفويين .

وكان الشاه اسماعيل (١٥٠٠ — ١٥٢٤) منشئاً للدولة الصفوية كما ذكرنا من قبل ، وكان واسع الأطماع مما دعا السلطان العثماني ليكوّن جيشاً كبيراً ، ويزحف به لمهاجمة الدولة الصفوية سنة ١٥١٤ ، وقد اتخذ السلطان سليم تبريز عاصمة الصفويين هدفاً له ، وحاول الشاه اسماعيل تجنب مواجهة الجيش العثماني فانسحب أمامه ، وأتلف الطرق لتعرقل حركة السلطان سليم ، ولكن الجيش العثماني تخطى هذه العقبات وأشرف على تبريز ، وحدثت بين القوتين معركة كبيرة في وادي (جالديران) انتصر فيها الجيش العثماني أعظم انتصار : وجرح الشاه وفر من المعركة ، ودخل العثمانيون تبريز ظافرين ، وعاد الجيش العثماني بعد هذا التهديد ماراً بشمال العراق دون أن يظلم بقاءه في بلاد فارس أو في العراق ، لأنه كان يتجه لفتح الشام ومصر قبل أن يتعمق في الساحة الشرقية ، ولما تم له فتح الشام سنة ١٥١٦ وفتح مصر سنة ١٥١٧ ، اتجه العثمانيون لضرب الصفويين مرة أخرى ، وقد استطاع سليمان القانوني أن يحتك ببغداد على يد أحد أتباعه دون قتال ، ولكن الحكومة الصفوية لم تدع النفوذ العثماني يستقر في بغداد ، فزحف الشاه طهمااسب على بغداد وحاصرها واستعادها ، وتأزمت العلاقات بين جنود بين الصفويين والعثمانيين ، فزحف السلطان سليمان القانوني على الدولة الصفوية واستطاع أن يحتل المناطق الشمالية من بلاد فارس ، ثم اتجه إلى العراق عن طريق همدان وواصل زحفه حتى دخل بغداد سنة ١٥٣٤ .

وامتداداً للصراع بين الصفويين والعثمانيين على بغداد فذكر أن

الحكم الصفوي استطاع ان يعود مرة أخرى سنة ١٦٢٣ م ، وكان ذلك في عهد الشاه عباس الذي شجعته على أطماعه صور الضعف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في عهده ، وقد حاصر اتشاه بغداد حصارا طويلا ، مما دفع أهلها الجائعين إلى أن يأكلوا لحوم البشر ، وفي وسط هذه الأزمة الطاحنة حدثت حوادث مفزعة بين أهل السنة والشيعة ، فقد صلب أهل بغداد الفرس الشيعيين وألقوا برعوسهم إلى المحاصرين وعلقوا أجسامهم على الأسوار ، وانتقاما لذلك قضى جنود الشاه عندما استولوا على بغداد على أهل السنة قضاء تاما ، ولم يدعوا أثرا لأبنية بغداد الشاهقة ، وحتى جامع أبى حنيفة وعبد القادر الجيلاني أصبحا أنقاضا (١) .

على أن عمر هذا النصر الصفوي كان قصيرا ، إذ استطاع السلطان العثماني مراد الرابع استعادة بغداد لآخر مرة سنة ١٦٣٨ وأوقع الجيش الزاحف بالشيعة مثل ما أوقعه الفرس بأهل السنة من دمار ، ثم تم صلح مع الصفويين ثبت الحدود بين الدولتين ، وأصبحت العراق جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وقد ظلت كذلك مدى أربعة قرون تقريبا وقد اتجه العثمانيون لإعادة تشييد ما دمره الصفويون من قباب لأئمة أهل السنة ، وإعادة بناء جامع أبى حنيفة ، وفي الوقت نفسه أبدى السلاطين العثمانيين إجلالا للمعابد المقدسة الشيعية في مناطقها المختلفة .

الإدارة التركية بالعراق :

طبقت بالعراق نظم الإدارة التركية التي طبقت في مختلف الولايات تقريبا ، وقد شرحنا هذه النظم في الجزء الخامس من هذه الموسوعة (٢) ، فكان الباشا رأس الحكومة المحلية ، والقاضي رئيس السلطة القضائية ، والدفتردار رئيس الدوائر المالية ، وكان كل هؤلاء من الأتراك ، وكان

(١) سيقون لويد : الرافدان ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ص ٢٥٤ وما بعدها .

قواد الجيش يعاونون الباشا في « مجلس شورى الباشا » الذي يعرف بالديوان •

ولكن الشيعة لم يبدوا ولاءهم للأتراك ، وقاوموا أحيانا حكمهم ، مما جعل المدن المقدسة الشيعية لا تخضع لنفوذ الأتراك ، وانتشر التمرد على الأتراك بين رجال القبائل في الأرياف ، وحاولت الولايات المختلفة أن تنفصل عن الحكومة المركزية ، ولم تستعد بغداد نفوذها على هذه المناطق إلا في عهد أحمد باشا الذي ربي جيلا من المماليك استعان به على استعادة سلطان بغداد على أكثر القبائل وعلى ولايات البصرة والموصل وكركوك وغيرها •

ولاية العراق في العهد التركي :

قلنا فيما سبق إن العراق أصبحت ولاية عثمانية ابتداء من سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤) ، وقد ظلت تابعة للعثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى ، عندما احتلت بريطانيا البصرة سنة ١٩١٤ وبغداد سنة ١٩١٧ والموصل سنة ١٩١٨ ، وفي خلال الحكم العثماني كانت بغداد يحكمها الباشوات الذين يعينهم السلاطين فيما عدا الفترة التي استبد بها المماليك بالحكم تقريبا ، والتي تمتد اثنتي عشرة سنة (من سنة ١٧٤٩ إلى ١٨٣١) ، وسنتحدث عن فترة المماليك فيما بعد ، ولكننا هنا نريد أن نتكلم عن الولاية العثمانية الذين كان السلاطين يعينونهم بطريق مباشر •

وباشوات بغداد الذين عينهم السلاطين يبلغ عددهم سبعة وستين واليا ، منهم ستة عثنيوا أكثر من مرة ، وقد أورد زامباور أكثر أسماء هؤلاء الولاة ، حتى ولاية مدحت باشا (من سنة ١٢٨٦ هـ إلى ١٢٨٩ هـ = ١٨٦٩ إلى ١٨٧٣ م) ^(١) وأورد لونكريك أسماء عشرة ولاية بعد مدحت باشا حتى قرب نهاية العصر العثماني بالعراق •

(١) الرافدين ص ٣٤١ ، ٢٤٧ •

وإذا استعرضنا باشوات بغداد نتضح لنا المعلومات التالية :

- يذكر زامباور أكثرهم باسم مفرد قليل الدلالة على شخصية الباشا كأن يقول : دلاوة ، أو عبد الرحمن ، أو على وهكذا .
- بعض الباشوات تولى مرتين مثل كوجك حسن ومرضى وكيلاى مصطفى وبعضهم تولى ثلاث مرات مثل قرة مصطفى وعمر .
- ستة من الولاة شغلوا منصب الصدر الأعظم قبل أن يصبّحوا باشوات بغداد أو بعد ذلك .
- هناك والٍ صدر قرار بتعيينه باشا لبغداد ، ولكنه لم يصل لمقر عمله واسمه قاسم .

— هناك ثائر أورد زامباور اسمه بين باشوات بغداد وهو أحمد طويل ويذكر عنه لونكريك أنه في سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٨ م) استأثر بالسلطة العليا في بغداد ، وكان أحد الرؤساء الانكشاريين في حامية المدينة ، وقد تم استيلاؤه على السلطة في ظروف غامضة ، فأرسلت الدولة إلى نصوح باشا حاكم ديار بكر والذي كان صدرا أعظم قبل ذلك ليسيير إلى بغداد ، ويخضع هذا الثائر . ومع أن نصوح باشا قد انهزم في أول معركة ، فإن الثائر خر صريعا بضربة خنجر من أحد أعدائه (١) .

وأكثر باشوات بغداد لم تكن لهم أهمية ذات بال في التاريخ ولذلك نكتفى بأن نعرّف بأشهر هؤلاء الباشوات .

وأول من نتحدث عنه هو سليمان باشا بن قباد ، وهو أول حاكم عثماني لبغداد ، وكان عصره حافلا بالقلق بسبب القبائل نصف المتوطنة التي كانت لا تحتل الإذعان للحكومة المركزية ، كما عانى هذا الباشا حدة الصراع بين السنة والشيعة .

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٥٢ - ٥٣ .

وبعد سليمان جاء إياس الذى وقع على عاتقه واجب أتعب باشوات بغداد من بعده مدة تمتد حتى القرن السابع عشر الميلادى ، ألا وهو واجب إخضاع البصرة ، وقبائلها المتمردة •

ومن باشوات بغداد الذين خلّدوا ذكرهم بها سنان باشا حيفا لزاده (٩٩٩ هـ) فهو الذى شيد خانة للمسافرين وبنائات أخرى عرفت باسمه مدة طويلة ، ولهذا امتد الوقت الذى كان يقترن فيه اسم حيفا لزاده العظيم ببغداد ، وقد عيّن هذا الباشا صدرا أعظم بعد ذلك ، وقد أصبح ابنه محمود واليا لبغداد بعد بعض الصراعات والثورات التى تلت عهد والده : ويرتبط باسم محمود بلدة المحمودية التى أسسها على بعد مرحلة جنوب بغداد •

ومن باشوات بغداد الذين يجدر ذكرهم ابراهيم باشا الذى عين فى خريف سنة ١٠٥٦ هـ (١٦٤٦) وكان جذابا بصباه وشكله ، ولكنه كان مغرورا وعنيدا فزادت القلاقل والفتن فى عهده ، ودب الخلاف بينه وبين أغوات الحامية ، وانتهت هذه القلاقل بإعدامه •

ومن باشوات بغداد أحمد باشا الذى كان ورعا ومحبوبا حتى أنه لقب بالملك ، والذى استمرت ولايته عاما واحدا (١٠٥٨ هـ) ثم ترك بغداد ليصبح صدرا أعظم ، وقد حاول وهو فى منصبه الجديد أن يقوم بإصلاحات فى بغداد لسابق معرفته بها ، ولكن الحال كان قد تعذر على الإصلاح •

ومن باشوات بغداد حسن باشا وهو شخصية مهمة جدية بشىء من التفصيل ، وقد حكم بغداد عشرين عاما ، وجاء بعده ابنه أحمد فحكم مدة مثل هذه تقريبا ، وجاء بعدهما المماليك الذين أشرنا إليهم من قبل وقد تكوّن من حسن باشا وابنه ومماليكه سلسلة من الحكام المتصلين كانوا أسسبه بنظام الوراثة خلال مدة امتدت إلى مائة وثلاثين عاما ، وكان حسن

باشا ينتمى إلى أسرة عسكرية ، ونشأ في بيت أفراد من الموظفين الرسميين في استانبول ، ولهذا كان مهتماً بما جرى عليه السلاطين من استخدام العبيد البيض في أعقد مشكلات الدولة ، وبذلك انتهى إلى هذا النظام ، فوضع أساس نظام المماليك بالعراق : وبذلك انتهى عهد تبديل الباشا وتعيينه من استانبول ، وأصبحت حكومة بغداد في أيدي سلالة مستقلة من الحكام ليس لها إلا الولاء الاسمي للعاصمة العثمانية ، وقد جب هذا النظام الاستقرار النسبي إلى بغداد ، ووسع دائرتها فشملت مناطق متعددة من العراق ، وأنقذت البلاد من التهديدات الفارسية المتكررة ، ومن ثورات القبائل الخطرة (١) .

وقد اتجه حسن باشا في أول عهده إلى تأديب اللصوص تأديباً صارماً ، كما أنه عتسى بنشر الأمن في مختلف الربوع ، ووجه كثيراً من الحملات للقبائل المتعمدة على حدود بغداد ، ففضى على الخزائل ومن انضم إليهم من قبائل شمر ، كما قضى على ثورة مغامس ، وبهذا مد حسن باشا نفوذه إلى البصرة ، وتسلم فرمانا من استانبول بضمها إلى ولايته ، واهتم حسن باشا بتشييد المساجد وتعيين الأوقاف عليها ، حتى عرف بلقب « أبو الخيرات » .

وقد استعان حسن باشا على تحقيق هذه المآثر بالمماليك الذين اشتراهم ورباهم لهذا الغرض تمشياً مع النظام الذى كان معمولاً به في القسطنطينية ، حتى أصبح هذا الكيان العسكرى يمثل الموالء الكامل للباشا ، والقوة الهائلة التى حسب الجميع حسابها ، ويقول ظريف الأعظمى : إن حسن باشا اعتمد على الكيان العسكرى الجيد في إصلاح القبائل ، وتوطيد الأمن في البلاد ، ونشر السلام والسكينة في ربوع العراق (٢) .

(١) ستين لويد : الرافدين ص ٢٤٧ .

(٢) مختصر تاريخ بغداد ص ١٩٧ .

وتعرضت إيران في عهد حسن باشا لفترة ضعف شجعت الأفغان على غزوها ، وقد احتل الأفغان كرمان وروغوا إيران ، وأشاعوا الرعب فيها ، فانتهزت القسطنطينية هذه الفرصة ، وعهدت إلى حسن باشا أن يهاجم إيران أيضا ، فاستجاب لذلك وهاجم الأراضي الفارسية ، واستولى على همدان ، ولكنه مرض هناك سنة ١٧٢٣ وتوفي في بلاد فارس متأثرا بمرضه وتقدم سنه : وقد حملت جثته إلى بغداد حيث دفن في جامع أبي حنيفة (١) ، وعين أحمد أبو حسن واليا لبغداد ، ولكن الباشا الجديد واجه يقظة فارسية استطاعت أن تصد الأفغان ، وأن ترد الجيش العراقي ، بل سارت القوات الفارسية بقيادة نادر شاه ، متخطية حدود العراق حتى حاصرت بغداد ، وأصبح العراقيون بين هجوم من الخارج وذعر من الإيرانيين بداخل بغداد أن يضربوهم من الخلف ، وفي هذا الموقف الحرج ظهر على مسرح العراق شخصية يسميها المؤرخون (رومانتيكية) هي شخصية عثمان باشا الأعرج ، فقد قاد جيشا كبيرا قاصدا إنقاذ بغداد ووصل بجيشه إلى الموصل ثم انحدر إلى بغداد ، وقام بعدة حيل عسكرية في طريقه ، ثم التقى بجيش الإيرانيين ، ودارت معركة رهيبة امتدت عدة ساعات ، وانتهت باندحار الجيش الإيراني وانتصار الباشا الأعرج ، وقد خسر الإيرانيون في هذه المعركة ثلاثين ألف قتيل : وثلاثة آلاف أسير ، وفر نادر شاه منسحبا إلى مملكته (٢) .

ويمكن القول إن نظام المماليك قد انتصح في عهد أحمد باشا ، إذ أنه اهتم بتربيتهم تربية علمية وعسكرية ، وكان يضعهم في المدارس حتى يبلغوا الرجال ، ثم يستغلهم في المؤسسات الحكومية المدنية حسب قدراتهم ، وكان زعيم المماليك في عهد أحمد باشا مملوكا اسمه

(١) علاء نورس : حكم المماليك في العراق ص ١٨ .

(٢) الشيخ رسول الكركوكلي : دوحة الوزراء ص ٣٣ - ٣٤ .

سليمان ، وقد تدرج في المناصب الحكومية حتى أصبح (كتخدا) أى نائب الوالى ، وبلغ من تقدير أحمد باشا له أن زوجه بنته « عادلة خاتون » (١) سنة ١١٤٥ هـ ، وفى سنة ١١٦٠ زوج ابنته عائشة هانم من مملوك آخر هو أحمد أغا (٢) ، وكل هذا هيباً لقيام دولة المماليك فى العراق عقب وفاة أحمد باشا سنة ١٧٤٧ ، إذ أن الباشا لم يعقب ابناً ولا حفيداً . ومن عجب أن أحمد باشا توفى بعد أيام من مقتل خصمه العنيد نادر شاه ، وترك أحمد باشا فى العراق أطيب الذكريات (٣) .

دولة المماليك فى العراق

حاولت القسطنطينية عقب وفاة أحمد باشا أن تستعيد سلطتها المباشرة على العراق ، وأن تتخلص من النظام الاستقلالى الذى وضع حسن باشا وابنه أحمد أساسه ، فأصدرت فرامانات بإناطة ولاية بغداد لوالى ديار بكر الحاج أحمد باشا ، وولاية البصرة للحاج أحمد الكسرية لى ، وعينت سليمان أغا والياً لإيالة أدرنه كمحاولة لإبعاده عن العراق ، ولتقليل نفوذ المماليك الذين أصبحوا يشكلون قوة مرهوبة الجانب فى نظر الدولة العثمانية ، وبخاصة أن العراقيين كانوا ينظرون إلى سليمان أغا كوال مرتقب ، فقد خبروه خلال حكم سيده أحمد باشا (٤) .

ولكن تخطيط القسطنطينية فشل بسبب صرامة المماليك ، وثورات العشائر ، واضطراب الانكشارية ، وضعف كفاءة الباشوات الجدد الذين أرسلتهم القسطنطينية : فاضطر الباب العالى تحت وطأة هذه الظروف أن يصدر فرماناً بتعيين الكتخدا سليمان لباشوية بغداد سنة ١٧٤٩ ،

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

(٣) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٩٦ .

(٤) علاء موسى نوري : حكم المماليك فى العراق ص ٢٦ - ٢٧ .

وريتشارد كوك : بغداد مدينة السلام ج ٢ ص ٨٦ .

واتجه الوالى الجديد إلى قطع الطريق على القسطنطينية حتى لا تعود لناواة المماليك ، فاقتنى عددا كبيرا منهم أكثر مما فعل صهره ، وألف منهم جيشا دربه على الفنون العسكرية ، وجهزه بالأسلحة الحديثة ، فأصبح هذا الجيش دعامة قوية تثبت حكم المماليك في بغداد (١) .

ولم يقنع سليمان باشا بقوة المماليك العسكرية ، بل اتجه إلى وضعهم في المناصب الإدارية ، فاستبعد الموظفين العرب والأكراد من المناصب العالية ، وعين مكانهم بعض زعماء المماليك ، وبهذه السياسة ثبت حكم المماليك في العراق واستمر أكثر من ثمانين عاما (٢) .

وفيما يلي قائمة بأسماء الباشوات من المماليك كما أوردتها زامباور (٣) .

١١٦٥ هـ	سليمان باشا أبو ليلة
١١٧٥	على باشا الأول (كيايا)
١١٧٧	عمر باشا (زوج الابنة الصغرى لأحمد بن حسن)
	عبد الله باشا الأول ؟
	حسن باشا ؟
١١٩٤	سليمان باشا الكبير
١٢١٧	على باشا الثانى
١٢٢٢	سليمان (ابن أخى على الثانى)
١٢٢٥	عبد الله باشا الثانى
١٢٢٧	سعيد باشا
١٢٣٢ — ١٢٤٧	داود باشا

ونقدم في الصفحات التالية تعريفا بأشهر هؤلاء المماليك :

- (١) أحمد الصوفى : المماليك في العراق ص ١٧ .
- (٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٣٣ .
- (٣) معجم الأنساب والاسرات الحاكمة ج ٢ ص ٢٦٠ .

سليمان باشا أبو ليلة :

لقب سليمان بأبي ليلة لأنه كان يخرج بنفسه في أثناء الليل ليطوف مع الحرس الذي كان يراقب الحالة في بغداد ، وكانت حملاته الليلية كثيرة على العشائر المتمردة : وعرف كذلك بلقب (دواس الليل) و (أبو سمرة) و (سليمان الأسد)^(١) وقد واصل سليمان باشا سياسة صهره أحمد باشا في إخماد ثورات القبائل فغزا عشيرة ربيعة والشيخ سعدون شيخ المفتق وعشائر قشعم ، كما أرسل قوات عسكرية تأديبية إلى القرى والأرياف^(٢) وضرب على أيدي العابثين فحسّل الأمن البلاد ونشطت التجارة ، وأصبحت البصرة ميناء مهمة جذبت لها نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية ، وكان ذلك من الأسباب التي جعلت السلطان العثماني يهديه وساما تقديرا لنجاحه في الداخل والخارج^(٣) .

وتوفي سليمان باشا ١٧٦١ م ، وعلى أثر وفاته حدث صراع بين المماليك الذين يرغبون في أن يخلفوه ، وانتهزت استانبول هذه الفرصة فعينت سعد الدين باشا والي الرقة على بغداد ، فاضطر المماليك أن يعقدوا اجتماعا يتفقون فيه على ترشيح « علي » وكتبوا بذلك إلى الباب العالي فاستجاب لهم ، ولكن عهد « علي » كان حافلا بالمؤامرات والاضطرابات ، وكثرت الثورات ضده ، وكانت « عادلة » أرملة سليمان باشا هي وأختها زوجة عمر تؤيدان هذه الثورات وقد استطاع الثوار اقتحام قصر الباشا ولكنه استطاع الهرب متفكرا بزي امرأة ، بيد أن الثوار غاموا بمقره فقبضوا عليه وقتلوه .

وأصبح عمر باشا واليا على بغداد بعد ذلك ، وليس هناك شيء

(١) رحلة أنيور إلى العراق في القرن الثامن عشر ص ٥٩ من الترجمة العربية عن الألمانية التي قام بها محمود حسين الأمين .
 (٢) الشيخ رسول الكركوكي : دوحة الوزراء ص ٤١ وما بعدها
 (٣) علاء نورس حكم المماليك في العراق ص ٣١ .

ذو بال يذكر عن عمر ولا عن الواليين بعده : عبد الله باشا الأول وحسن باشا ، الا الفجائع المتصلة والاضطرابات المتكررة ، وحسرة البصرة الانفصالية العنيفة ، بالإضافة إلى الطاعون الشامل الذي أصاب البلاد في عهد عمر باشا •

سليمان باشا الكبير :

ثم آلت السلطة إلى سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ - ١٨٠٢) وقد كان هذا واليا على البصرة ، وكانت إمارة بغداد إلى الحاج محمد باشا ، الذي عينته استانبول لتقطع سلسلة الوجود المملوكي ، ولكن الحاج محمد باشا لم يستطع القيام بالأمر فأصدر الباب العالي أوامره بعزل محمد باشا وتعيين سليمان باشا بدلا منه واليا على بغداد وعلى البصرة (١) وقد نال سليمان باشا لقب الكبير لما بذل من جهود مضية لنشر الأمن في البلاد وإيقاف تمرد العشائر ، وإعادة النظام في كل الأرجاء ، وقد حقق سليمان باشا الكبير هذه المآثر بالجيش الكبير الذي أعده من المماليك ، وأجاد تدريبه •

وكان سليمان الكبير رفيع المواهب : جم الأدب ، نعيم العراق في عهده بالسلم والاطمئنان ، ولكن حادثة مهمة هزت أركانه هي الزحف الوهابي على كربلاء ، وقد تحدثنا عن هذا الزحف وعن نتائجه فيما سبق عند الكلام عن الحركة الوهابية بالجزيرة العربية (٢) •

ويمكننا أن نتخبط خلفه على باشا الثاني الذي شغل عهده بمقاومة الوهابيين وبمحاولة مهاجمة إيران ، وقد قتل على باشا وهو يصلح الصبح سنة ١٨٠٧ فآل الأمر إلى شخصية مملوكية أخرى هي سليمان باشا الصغير ، وسنتحدث عنه فيما يلي :

(١) الشيخ رسول الكركوكي : دوحة الوزراء ص ١٠٦ •

(٢) اقرأ في هذا الموضوع « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

للدكتور علي الوردي ج ١ ص ١٩٢ وما بعدها •

سليمان باشا الصغير :

كانت فترة حكم سليمان باشا الصغير قصيرة (١٨٠٧ — ١٨١٠) ولكنه اتجه خلالها إلى مقاومة كل نفوذ خارجي ليكون لبغداد شخصية استقلالية ، وتنفيذا لذلك اعترض على النفوذ البريطاني الذي كان يهيم في البلاد عن طريق المقيم البريطاني فيها ، ففرض الإقامة الجبرية على هذا المقيم في منزله ، ومنع الناس من زيارته ، حتى لا يتمكن من التدخل في الشؤون الداخلية للولاية ، وخافت حكومة الهند عاقبة ذلك ، فأجرت مفاوضات مع سليمان باشا الصغير ، وانتهت بعقد معاهدة تعهد فيها المقيم البريطاني بعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، وتعهد سليمان باشا بحماية أموال الرعايا البريطانيين ومصالحهم ، وامتدادا للنزعة الاستقلالية في سليمان باشا الصغير أوقف إرسال الأموال التي كانت ترسل سنويا إلى الأستانة ، ونتيجة لذلك أرسل الباب العالي جيشا احتل بغداد وقضى على سليمان باشا الصغير .

وبعد سليمان باشا الصغير جاء عبد الله باشا الثاني ثم سعيد باشا ، ولا يستحقان وقفة معهما ، وينبغي أن نتخطاهما إلى شخصية شهيرة فذة هي شخصية داود باشا .

داود باشا :

كان داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣١) آخر باشوات المماليك في العراق ، وكان يتمتع بموهبة أدبية ومقدرة إدارية ، وكفاءة عسكرية رائعة ، وقد واجه في مطلع عهده اضطرابات واسعة من العشائر التي كانت متهمدة هنا وهناك ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها وأن يقضى على كل حركات التمرد .

وهناك إصلاحات مهمة قام بها داود باشا ، فقد أنشأ المدارس لنشر العلم والثقافة ، كما نشب له نشاط عمراني واسع النطاق ؛ وشمل نشاطه

استصلاح الأراضي ، والعناية بالرى ، وتأمين طرق المواصلات ، وإنشاء الأسواق والخانات •

وحاول الفرس أن يقتحموا العراق فى عهده بقيادة الشاه فتح على ، ولكن الظروف ساعدت على هزيمة ذلك الجيش إذ تفشى فيه مـرض الطاعون وهو يحاصر بغداد ، فلم^٥ شعثه وعاد إلى بلاده ، واتجه داود باشا الاتجاه الاستقلالى الذى ابتدعه سليمان باشا الصغير : وكان هذا الاتجاه ذا شعبتين يرمى فى إحداهما إلى القضاء على النفوذ البريطانى ، ويرمى فى الثانية إلى القضاء على التسلط العثمانى على البلاد ، وقد انتهز داود باشا اتجاهات الاستانة للقضاء على الجيش الانكشارى ، فوضع خطة محكمة للقضاء على الانكشارية فى بغداد ، فأمر بإعداد استعراض لقواته فى ساحة السراى ، ووضع الجيش الانكشارى فى مركز الدائرة ، يحيط بهم جنود المماليك من أتباعه المخلصين له ، ثم قرأ مرسوم الباب العالى الذى يخيّر الانكشارية بين أمرين : الموت أو الانخراط فى الفرق العسكرية الجديدة والتخلى عن الامتيازات الانكشارية ، وقد اضطر هؤلاء أن يعلنوا تخليهم عن امتيازاتهم ، وأن يقبلوا الاندماج فى الخدمة العامة فراراً من الموت الذى يحيط بهم ، وكان التخلص من الانكشارية وسيلة من وسائل داود باشا ليوقف من الباب العالى موقف الند للند ، غير خائف من طعنة من الخلف يقوم بها الانكشاريون ضده ، واستطاع داود باشا بذلك أن يقف حازماً فى وجه بريطانيا ، وفى وجه الدولة العثمانية ، أما بريطانيا فقد رأى داود باشا المحاولات التى كان يقوم بها المقيم البريطانى للتقرب من القبائل ، وربطهم بالسياسة البريطانية ففرض عليه الإقامة الجبرية فى بيته ، ومنع الناس من زيارته ثم طلب أن يستبدل به غيره ، فاستجابت حكومة الهند البريطانية لذلك وطأطأت للعاصفة •

أما عن علاقته مع الدولة العثمانية : فإن داود باشا رفض طلب الباب العالى ليساعد الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا ، وهذا من

جانب ، ومن جانب آخر فقد أدرك السلطان محمود الثانى أن ممالك العراق يتخذون طابعا استقلاليا ، ويتطورون فى ذلك مما يهدد كيان الامبراطورية ، فاتخذ السلطان محمود قرارا بعزل داود باشا ، وأرسل جيشا بقيادة على رضا لينفذ هذا القرار ، وقد قاومت بغداد بصرامة ولكنها عجزت عن مواصلة المقاومة إذ تعرضت لصور مريعة من الكوارث شملت الطاعون والفيضان والمجاعات ، وسطو اللصوص ، وكل ذلك هيا لانتصار على رضا بعد جهد طويل ، وانتهى بذلك عهد الممالك بالعراق .

نهاية الممالك :

يقول سيتون لويد : لقد استسلمت بغداد لجيش على رضا بعد أن فقدت كل وسائل الدفاع عن نفسها ، وعومل داود باشا بشفقة واحترام بالنسبة لما قام به من مقاومة ، إذ أُرسل إلى استانبول يحمل توصية بالرفقة به ، وعاش بعد ذلك مثقلدا كثيرا من المناصب المهمة منها دامي حرم المدينة حتى مات ، ولم تكن عاقبة أنصاره الممالك على هذا المنوال ، فإن على رضا جمعهم فى ديوان عام وقرأ عليهم مرسوم السلطان القاضى بإلغاء امتيازاتهم ، وكان نهوضه لينترك المكان علامة اتفاق عليها للبدء بالفتك بهم جميعا ، وهكذا فنى هؤلاء الممالك فى النهاية ، وانتصرت استانبول ^(١) وكانت نهاية ممالك العراق شديدة الشبه بنهاية ممالك مصر على يد محمد على قبل ذلك بعشرين عاما ، وهى على العموم نهاية كل المتسلقين الذين لا جذور لهم .

مصر ومصر ممالك العراق :

أصبح محمد على واليا على مصر باختيار شعب مصر سنة ١٨٠٥ ، واتجه محمد على اتجاهها استقلاليا منذ سنيه الأولى ، وعمل على توسيع سلطانه فى آسيا وفى إفريقيا ، وكان هذا الاتجاه يزعج السلطات

الحاكمة في استانبول ، ووصل الأمر مداه حينما تطلع محمد على لتصبح له ولاية الشام مكافأة له على الجهد الذي بذله في حرب اليونان ، ولكن الباب العالي كان يعمل لهدم محمد على وانتقاص سلطانه ، لا لبنائه ومد ملكه ، فرفض ملتصقه • ولم يقبل محمد على هذا الرفض فراح يعمل لينال ما يريد معتمدا على القوة ، واكتسحت الجيوش المصرية سنة ١٨٣١ • غزة ويافا وحيفا وعكا • • وبعد أن أتمت فتح الشام اتجهت إلى آسيا الصغرى ، فدحرت جيشا كبيرا يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا (١) •

والهم هنا أننى أرى أن الباب العالي خاف أن توجد بالعراق قوة استقلالية تقلد الحركات التى قام بها محمد على فى مصر ، وإذا كان الباب العالي يحتمل استقلال مصر فإن الوضع يختلف بالنسبة للعراق ، لأن حدود العراق تتأخم حدود تركيا ، ولا يحتمل الباب العالي قيام حكم استقلالى بالعراق •

وهذا يفسر لنا تحديد الوقت للقضاء على المماليك بالعراق ، وهو سنة ١٨٣١ أى نفس السنة التى بدأ فيها محمد على زحفه على الشام والأناضول ، ولم يشفع للماليك العراق أن الحكم كان فى يد داود باشا الذى كان يعد من أحسن الباشوات ، وكان جهده لاستقرار الأحوال يفوق جهود كثير من الباشوات قبل المماليك وبعدهم •

وعلى كل حال فإن عهد المماليك بالعراق لم يضمن للبلاد استقرارا متصلا ، فقد كان بعض الباشوات يبذل الجهد للحصول على الأمن والتقدم ولكن سرعان ما كان يفلت الزمام من يده • ثم إن الباب العالي كان يتدخل باستمرار لوضع حد لحكم باشوات المماليك ، حتى يستعيد حكمه المباشر على البلاد ، وكان موقع العراق بين العشائر التى تنشد حياة الاستقلال

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٣٦٥ وما بعدها •

وتكره السلطات المركزية ، وبين البدو ، والقبائل العربية المتاخمة ، وبين قوتى الفرس والعثمانيين المتصارعين ، كل هذا جلب للبلاد صورا من الكوارث ، فإذا أضيف لذلك الخلاف بين أهل السنة والشيعة ، والصراع بين الطامعين من المماليك فى السلطة يقبين لنا أسباب ما أصاب العراق من جراح غائرة مدى عدة قرون .

إصلاحات المماليك :

عند الحديث عن باشوات المماليك أوردنا ما ينسب لكل منهم من إصلاحات ، ولا تزال هناك أشياء ، عنى بها مماليك العراق عناية كاملة تستحق أن تختم بها دراستنا عن عهدهم .

قام سليمان أبو ليلة ، وسليمان الكبير وداود بمجهودات عظيمة استهدفت تحسين الاقتصاد فى العراق ، فقد عملوا على تنشيط التجارة بتأمين الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبحرية ، وأولى سليمان الكبير وداود الزراعة اهتماما كبيرا وذلك بإحياء بعض الأنهار المندثرة ، وتطهير القنوات والترع المهملة ، واستغلال خامات العراق الزراعية (١) .

وعنى سليمان الكبير بتشبيد الأسوار ، وتعمير ما خرب منها ، وإقامة الأسواق والخانات ، وشمل ذلك مدينة بغداد والبصرة والحلة ، وكانت عنايتهم أكبر بتشبيد المساجد ، فقد أقاموا منها عددا كبيرا ، وكان بعضها غاية فى الفخامة كمسجد الإمام الأعظم الذى ظلت منارته بالذهب فى عهد سليمان الكبير وكان اهتمام داود باشا بالمساجد وأقامتها وخطبائها اهتماما بالغا (٢) .

واهتم المماليك بالنهضة الثقافية ، فأنشأوا عددا من المدارس

(١) علاء موسى نورس : حكم المماليك فى العراق ص ١٣٨ .

(٢) اللوسى : غرائب الاغتراب ونزهة الالباب ص ٤٠ وما بعدها .

(م ٤٨ - التاريخ ج ٧)

والمكتبات ، وكان بعضهم عالما تلقى العلم على مشايخ العصر ، ومن هؤلاء داود باشا الذى تلقى العلم عن مشاهير العلماء ونال منهم إجازات علمية ، فلا عجب أن يكون عهد داود باشا عهد علم وفكر ، وأن تكثر به المدارس والأوقاف عليها ، وتنتشر في بغداد والسليمانية وكركوك والموصل والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية وسامرا والبصرة (١) .

وعرف عن داود باشا سخاؤه العظيم مع الشعراء والمؤلفين والنقباء وأرباب الطرق الصوفية ، وقد نال كل هؤلاء الجوائز المسخية والهبات الوفيرة ، حتى اتجه شعراء هذا العصر إلى مدحه والثناء عليه (٢) .

باشوات بغداد بعد المماليك

كان على رضا أول باشوات بغداد بعد المماليك ، ويصف ريتشارد كوك الحياة في عهده بقوله (٣) :

في خلال سنين قلائل من حكم على رضا السمع — وإن شبابه التسيب — أخذت الحياة تدب في المدينة عودا على بدء كما ينبثق الشجر الأجرد عن ورق أخضر ، وتتدفق العصارة الحية في الشجرة اليابسة ، وذلك كله على الرغم من استمرار الاضطراب في البلاد بوجه عام .

وبعد على رضا عينت استانبول عددا من الولاة ، ويسردهم لونكريك ساخرا من أكثرهم ، فيقول : ان منهم رديف باشا ، وكان نظاميا صارما ، وعبد الرحمن باشا وكان متعصبا ، وعاكف باشا وكان في غاية الفساد والتفسيخ (٤) ويغنيينا في الحديث عن الباشوات في هذه الحقبة أن نتكلم عن رجل بلغت شهرته الآفاق ، ولعب دورا كبيرا في حياة

(١) الغزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ج٦ ص ٢٦٣ ، ٢٩٩ ، ٣٣٤ .

(٢) انظر حكم المماليك في العراق ص ١٤٣ ، ٢٤٤ .

(٣) بغداد مدينة السلام ج٢ ص ١٥٨ من الترجمة العربية .

(٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٦١ .

الامبراطورية العثمانية وهو مدحت باشا ، الذى كان يلقب « أبا الدستور »
وقد تحدثنا عن مدحت باشا بشيء من التفصيل فى الجزء الخامس من
هذه الموسوعة .

وقد جاء مدحت باشا إلى العراق سنة ١٨٦٩ ، وكان قبل ذلك واليا
فى ولايات الدانوب ، فحقق فيها نوعا من التقدم والازدهار ، وحكمها
حكما نظيفا نزيها ، ونقل من ولايات الدانوب إلى استانبول ببغداد ،
وبقى فى بغداد ثلاث سنوات بذل خلالها كثيرا من الجهود لإصلاح
أحوال العراق ، وتقول المصادر العراقية الرسمية إنه قام بالإصلاحات
التالية :

- ١ — أكمل الأبنية التى بدأ سلفه فى تشييدها ، وأضاف إليها أشياء
الكثير .
- ٢ — أصدر جريدة الزوراء .
- ٣ — أسس معامل عسكرية لتزويد الجيش بما يلزمه من عتاد .
- ٤ — بنى المستشفيات ودورا للعجزة والأيتام .
- ٥ — شيد عددا من المدارس .
- ٦ — خطط وأنشأ مدينتى الرمادى والناصرية .
- ٧ — مد خط ترامواى ببغداد — الكاظمية .
- ٨ — أسس البلديات لتقدم إلى الموظفين خدماتها فى الإنارة والسقاية
والنظافة والحراسة .
- ٩ — أسس المجالس المحلية لإدارة شئون الولاية .
- ١٠ — فرض التجنيد الإلزامى .
- ١١ — قسم العراق إلى ثلاث ولايات هى بغداد والموصل والبصرة ،

وقسم الولاية إلى عدد من الأولوية ، وكلّ لواء إلى عدة سناجق ، وكل سناجق إلى عدد من النواحي .

١٢ — اهتم بتوطين القبائل وتوزيع الأرض عليها (١) .

ومن الواضح أن هذه إصلاحات عظيمة متنوعة ، ولكنها لم يكتب لها النجاح كل النجاح ، بسبب قصر مدة مدحت باشا ، وبسبب الفساد الذي تركته الأحداث السابقة في الإدارة ، مما عاق هذه الحركة التقدمية عن السير والازدهار .

من القرن التاسع عشر للقرن العشرين

يصور سيقون لويد العراق سياسيا ، وهو ينتقل من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين فيقول عن تاريخ العراق السياسي : إن أهم ما وقع فيه في هذه الفترة هو المحافظة على التوازن الثقلي بين الوالي الذي كان يمثل نوعا من حكومات القرون الوسطى المطلقة التي كانت تكافح لتصل إلى روح العصر الحديث ، وبين دار الإقامة البريطانية التي تمثل الطموح التجاري وما يلزمه من تدخل سياسي ، وذلك كان اتجاه الغرب آنذاك (٢) .

ويصور لونكريك العراق اجتماعيا في هذه الفترة بقوله : « إن العراق انتقل من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين والبلاد ما تزال متفسخة وفي حالة من الجهل وعدم الكفاية للحكم الذاتي ، ولم تكن بأقل فسادا عما كانت عليه عند حلول القرن السادس عشر ، كما أن أحوالها المادية لم تكن بأحسن من أحوالها العقلية والخلقية ، فقد بقيت مواردها غير مستثمرة بالرغم مما كان يدل عليه تاريخها طوال الأجيال الماضية ،

(١) انظر الجزء الثاني من كتاب « بغداد : مدينة السلام » تأليف

ريتشارد كوك ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٢) الرافدان ص ٢٥٤ .

ولم تهتم الحكومة بواجبها الأساسي في توجيه القبائل والمدن إلى طريق التقدم والارتقاء ، كما أن الحكومة فشلت في أوضح واجباتها وهو ضمان حرية الرعية وحقوقها على الرغم من أن كثيرا من هذه الأهداف تحققت في أوروبا وفي الهند ، وهي تعود على الشعب وعلى الحكومات بالفوائد المادية (١) .

بريطانيا والعراق

في القرن التاسع عشر تمكن الحكم البريطاني في الخليج العربي وأبدى اهتماما كبيرا بالبصرة ، وبالتالي كثرت المشروعات الأجنبية بالبلاد ، كالاهتمام بالطرق النهرية وبأنواع المواصلات الأخرى كالتلغراف والسكة الحديدية .

وفي أواخر القرن التاسع عشر اتجهت أنظار إنجلترا إلى النفط بالعراق ، فتعددت مصالح بريطانيا بالعراق وحاولت فرض سيطرتها على القسم الجنوبي المتصل بالخليج العربي ، وبينما كانت بريطانيا تقدم رجلا وتؤخر أخرى حرصا على الاتجاهات الدولية ، اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وانضمت الامبراطورية العثمانية لألمانيا ، وبهذا وضع الحذاء بين بريطانيا وبين الأتراك ، وأسرعت بريطانيا بالزحف على العراق فأرسلت أولى حملاتها التي استطاعت أن تدخل الفاو سنة ١٩١٤ ثم دخلت مدينة البصرة ، وبعد عدة معارك استطاعت هذه القوات أن تستولي على لواء البصرة كله ، وواصلت زحفها شمالا محقة تقديما واضحا على الرغم من الضائقة التي خسرتها ، وفي سنة ١٩١٧ احتلت مدينة بغداد ، وأصدر القائد البريطاني منشورا يذكر فيه أن الإنجليز دخلوا بغداد محاربين لا فاتحين ، وكان هذا القول زيفا استدعته الظروف ، ولذلك هب الشعب يناضل المحتل الأجنبي بقوة واصرار .

(١) انظر تقرير من تاريخ العراق الحديث ص ٣٨٧ باختصار .

وتقدمت القوات البريطانية بعد بغداد فاحتلت سامرا ، وتكريت ثم أعلنت الهدنة في ١١/١١/١٩١٨ فاحتلت القوات البريطانية الموصل بدون حرب ، وتم بذلك احتلال الانجاز للIraq ، ثم أُمضيت معاهدة سيفر بين تركيا وبين الحلفاء ، وبمقتضاها تخلى الأتراك عن كل البلاد العربية (١) .

وعملت بريطانيا على أن تتمكن لنفسها في العراق فاستصدرت قرارا من عصبة الأمم بانتدابها على العراق ، وكان معنى الانتداب نظريا أن تنشره ، على العراق إشرافا مؤقتا يعد البلاد لحمل مسؤولية الاستقلال ، ولكن المعنى الحقيقي للانتداب كان رعاية مصالح المستعمر على حساب الوطن والمواطنين .

وإذا كان العراق أو غيره من الدول العربية احتمل العلاقات مع الامبراطورية العثمانية باسم الإسلام فإن أيا من الأقطار العربية لم ينخدع بالتعبيرات المختلفة التي تربط الوطن العربي بالقوى الأوروبية ، ومن هنا قامت في العراق كما قامت في سواه حركات وثورات هائلة ، وضحى الشعب بأعلى ما يملك حتى استعاد الحرية وطرد الغاصب المحتل .

وفيما يلي موجز للأحداث الكبرى منذ ذلك الحين :

الاستعمار والملكية بالعراق :

عملت الحكومة الاستعمارية على تأليف حكومة مؤقتة عراقية ، لتقوم هذه الحكومة بإجراء انتخاب عام ، لتأليف مجلس تأسيسي ليقرر شكل الحكم بالعراق ، فتألفت هذه الحكومة برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب سنة ١٩٢٠ ولكن سرعان ما أدركت الحكومة البريطانية أن المجلس

(١) انظر الحديث عن هذه المعاهدة بالجزء الخامس من هذه

التأسيسي سيتجه اتجاها وطنيا خالصا ، يتنافى مع أطماع المستعمر ، فحملت على تأجيل الانتخاب ، وكبديل لذلك عملت الحكومة البريطانية على تعيين فيصل بن الحسين ملكا على البلاد * (وقد تحدثنا عنه ضمن حديثنا عن الأشراف فيما سبق) ، وكان قد عين قبل ذلك ملكا على سريريا ، ولكنه سرعان ما فقد عرشه ، وأجرى استفتاء شكلي حول هذا التعيين في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ أعلنت بمقتضاه موافقة الشعب على تعيين الملك ! !

واستكمالا للحديث عن الملكية بالعراق نذكر أن الملك فيصل بن الحسين مات سنة ١٩٣٣ ، فخلفه ابنه الملك غازي الذي قتل في حادث سيارة غامض سنة ١٩٣٩ (١) فخلفه ابنه فيصل الثاني (ابن غازي) وكان يبلغ من العمر أربع سنوات فعثى خاله عبد الإله وصيا على المرشى حتى وصل سن الرشيد سنة ١٩٥٣ فتوالت سلطاته الدستورية وعين خاله وليا للعهد ، وقد ظل الملك فيصل الثاني ملكا على العراق حتى قتل هو وخاله في ثورة ١٩٥٨ وبموته انتهت الأسرة المملكية بالعراق ، وقام النظام الجمهوري * .

ومن الواضح أن النظام الملكي كان هبة الانجليز لفيصل وأولاده ، ومن أجل هذا لم يكن معبرا عن آمال البلاد ، وكان يرسى في فاك الاستعمار ، وفي ظله وذلك الاستعمار كان لكل وزير عراقى واكل محافظ مستشار بريطاني يدير الشؤون ، فلم يكن الموظفون العراقيون إلا واجهة يعمل الاستعمار من خلفها ، وقد أثار هذا الوضع المواطنين ، وظهرت حركات سخط وتمرد وثورات سنخرض لها فيما بعد ، وقد انتجوت بريطانيا إلى عقد معاهدات مع العراق لتوهم المواطنين بأن إقامتها غير مستقرة ،

(١) انظر تفاصيل هذا الحادث واتهام الانجليز بتدبيره في « العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب » ص ١٣٥ وما بعدها (مذكرات وزير ألمانيا المفوض) .

وأنها ستجلبو عن العراق بعد مدة ، وقد توالى هذه المحادثات على هذا النمط فأبرمت معاهدة سنة ١٩٢٢ ، ومعاهدة أخرى سنة ١٩٢٦ ، ولكنهما لم تحققا آمال العراق ، وكاننا تدوران في فلك واحد هو تثبيت الملكية ، وإشراف بريطانيا على الشؤون الخارجية ، وتقديم الماشورة في الشؤون الداخلية ، واحتلال بعض المناطق العراقية ، ثم جاءت معاهدة ١٩٣٠ التي تلزم العراق بتقديم تسهيلات واسعة للقوات البريطانية عند إقامتها أو مرورها في أراضيه ، وكانت هناك فائدة مظهرية لهذه المعاهدات فبسببها انتهى الانتداب البريطاني في أكتوبر سنة ١٩٣٢ ودخلت العراق في عصابة الأمم كدولة مستقلة ، ولكن العراقيين أدركوا أن الحرية الحقيقية لا تنال بالمفاوضات ، وأن الاستقلال يحتاج لثورات ونضحيات حتى تتحقق للشعب حريته وللمواطنين حقوقهم ، وقام الشعب العراقي بالثورات التالية حتى تحقق له ما أراد :

ثورات العراق

حفل تاريخ العراق الحديث — كما قلنا آنفاً — بالثورات ضد المستعمر وضد أعوانه ليتخلص العراق من النفوذ الخارجي وهن الذين ينفذون هذا النفوذ أو يدورون في فلكه ، ومن أجل هذا قامت بالعراق الثورات التالية :

ثورة سنة ١٩٢٠ :

كان اشتعال هذه الثورة مبكراً إذ لم يطل انتظار العراقيين عقب الاحتلال البريطاني ، بل سرعان ما اشتعلت الثورة في آخر يونيو سنة ١٩٢٠ ، وقد استطاعت هذه الثورة أن تبرهن على بسالة أهل العراق ، واستهانتهم بالتضحيات ، ويقول المثل: خون انه ليس ثمة رهز للحرية الوطنية في العراق الحديث أبداً وأروع من ثورة عام ١٩٢٠ ، وكان من أسباب قيام هذه الثورة انتشار الوعي القومي بين المواطنين ، وتصريحات

الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى وعند نهايتها بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ثم كان من أسبابها سوء الإدارة البريطانية ، وعملها على خدمة الأغراض الاستعمارية ، وإهمال مصالح الشعب العراقي ، وقد حملت الجمعيات الدينية مسؤولية كبرى في هذه الثورة ، فقد ألهمت أحاسيس الناس ودفعتهم لمقاومة المستعمر المسيحي الغريب .

وكان السبب المباشر لهذه الثورة قيام السلطات البريطانية في الرميصة باعتقال الشيخ شعلان أبو الجون ، وقد هبت عشيرة الشيخ عقب ذلك في ثورة هائلة ، فقامت بمحاصرة الحامية البريطانية واستطاعت إخراج الشيخ بالقوة ، ثم اندفعت الثورة تعرقل طرق المواصلات البريطانية بالعراق ، وتتحدى السلطات الاستعمارية ، وسرعان ما امتد صدى الثورة إلى جميع الأرجاء ، فقامت ثورات مماثلة في نواحي العراق المختلفة مما أوقع بقوات الاحتلال كثيرا من الخسائر ، ومما حرك الرأي العام الانجليزي إلى ضرورة الجلاء عن العراق حتى لا تكثر ضحايا الانجليز هناك .

وقد استطاعت قوات الاحتلال البريطاني أن تقضى على هذه الثورة ، ولكن روحها كمنت في نفوس أهل العراق ، وانتظرت الفرص لتنبعث من جديد .

ثورة ١٩٤١ :

خلقت بريطانيا في العراق تكتلات وأحزابا وعشائر ، ودفعتها لنضال داخلي مرير ، وكانت تؤيد جماعة على حساب أخرى ، ثم تتخلى عنها لتؤيد جماعة أخرى وهكذا ، وفي مظا هذا الجو كثرت الاضطرابات والفتن الداخلية ، وبالتالى هبت انتفاضات عسكرية قام بها الجيش ايزيلا حكومة ويةيم أخرى ، ومن الحركات التي قام بها الجيش حركة بكر صدقي وكيك رئيس أركان الجيش سنة ١٩٣٦ الذي طلب من الملك اتمالة

وزارة ياسين الهاشمي رئيس حزب الإخاء الوطني ، وتكليف حكمت سليمان بتشكيل وزارة جديدة ، وقد أرغم الملك على ذلك ولكن وزارة حكمت سليمان لم يغال عمرها وقد قتل بكر صدقي بعد وقت قصير من ثورته .

ويقول الدكتور فريتر غروبا القائم بأعمال ألمانيا بالعراق ثم وزيرها المفوض (١٩٣٢ - ١٩٤١) عن سبب مقتله ، إنه اتخذ جانب الأكراد وعمل سرا على تكوين دولة كردية مستقلة ، وقرب الضباط الأكراد وأهلهم محل العرب مما أثار النقمة عليه من بعض القوميين العرب ، فدبرت مؤامرة لاغتياله في الموصل حيث كانت الحراسة عليه قليلة (١) .

واستقالت وزارة حكمت سليمان ، وأعقبتها وزارة جديدة يرأسها جميل المدفعي ، ثم وزارة أخرى يرأسها نوري السعيد سنة ١٩٣٨ ، وقد اتجه نوري السعيد اتجاها واضحا للتعاون مع بريطانيا ودول الغرب ، وهدم كل التسهيلات اللازمة لبريطانيا في الحرب العالمية الثانية ، مما أساء إلى القاعدة الشعبية بالبلاد ، وحرك قوى المناضلين ضد نوري السعيد والاحتلال البريطاني ، وتحت ضغط هذه الأحداث استقالت حكومة نوري السعيد ، وشكل رشيد عالي الكيلاني وزارة جديدة سنة ١٩٤١ ، وكانت هذه الوزارة مؤيدة من الجيش والشعب ، إذ أنها عبّرت عن أمنيته في حيده العراق ، وفي مطالبة الانجليز بالجلاء ، وفي وضع برنامج شامل للإصلاحات الداخلية .

وكان واضحا أن كل هذه الاتجاهات مضادة للسياسة البريطانية فطلبت بريطانيا من عبد الإله الوصي على العرش آنذاك إقالة الحكومة ولكن الوصي أدرك أن ذلك بعيد عن استطاعته ، فغادر بغداد سرا إلى شرق الأردن واختارت الحكومة وصيا آخر على العرش ، وتأزمت

(١) نجدة فتحي صفوة : العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب ص ١٢٦ وما بعدها .

العلاقات بين العراق حكومة وشعبا وبين بريطانيا ، وأعلنت حكومة العراق رفض إنزال قوات بريطانية جديدة بالبلاد ، وتمسكت بريطانيا بمعاهدة ١٩٣٠ التي تلزم العراق بتقديم تسهيلات واسعة للقوات البريطانية عند إقامتها أو مرورها في أراضيها ، كما سبق القول . وهذا تفاهت الأمور حتى قامت معركة عسكرية بين العراقيين وبريطانيا خلال شهر مارس سنة ١٩٤١ ، وقد أبدى الجيش العراقي ألوانا من البطولة ، ولكن المعركة كانت غير متكافئة فتغلب الجانب البريطاني ، وعلى أثر ذلك عاد الأمير عبد الإله للعراق بولاء أكثر لبريطانيا ، وراحت القوى البريطانية والموالون لها تقتل بعض العناصر الوطنية ، وتزج ببعضها في السجون والمحتقات ، ومن شهداء هذه الفترة شهيد السعيد وصالح الدين الصباغ ويونس السبعواوي وكامل شعيب ومحمود سلمان ، وقد استطاع رشيد علي الكيلاني أن يفر من البلاد .

بصد الثورة :

بعد أن فشلت ثورة ١٩٤١ ، عملت بريطانيا على تسخير كل القوى بالعراق لخدمة أغراضها ، وأبعدت خيرة الشباب عن الوظائف ، وخيرة الضباط عن الجيش ، فتأزمت الأمور بالبلاد ، وأدركت بريطانيا أن تغييرا كبيرا لابد أن يتم بالعراق ، وكانت الحزب العاملة الثانية قد وضعت أوزارها فسمحت بريطانيا بإجراء تغيير في سير الأمور بالبلاد ، وتشكلت وزارة برئاسة توفيق السويدي ، فأطلقت الحريات السياسية والاجتماعية ، مما بعث روحا جديدة بالبلاد ، فانطلقت الصحافة والأحزاب تطالب بإصلاحات في مختلف النواحي ، ولكن سرعان ما تراجع الحكومة في موقفها ، وسحبت خيط الحرية الذي أطلقتته ، وتسبب عن ذلك قيام انتفاضتين شعبيتين هما انتفاضة ١٩٤٨ و ١٩٥٢ ، وقد قامت الأولى عقب إعلان معاهدة ١٩٤٨ التي أجراها صالح جبر ، وأدرك الشعب أنها كالمعاهدات السابقة لا تحقق آماني الشعب فتثار الشعب ضدها ، ولم تجد الحكومة بدا من إعلان تجميد هذه المعاهدة ، وقامت انتفاضة سنة ١٩٥٢

في شكل مظاهرات صاخبة تصر على الاستقلال التام وتحقيق آمال البلاد في الداخل والخارج ، وأدرك القائمون بالأمر أنه ليس في مقدورهم إسكات ثورة الشعب ، فسلموا البلاد لحكم عسكري أعلن الأحكام العرفية ، وحاول تخفيف متاعب الشعب الاقتصادية ، ولكن هذا العلاج لم يكن حاسما ، وبدلا من أن تنتج الجهود للإصلاح اتجهت لربط العراق بعجلة الاستثمار فيما كان يسمى حلف بغداد سنة ١٩٥٥ ، وتلى ذلك العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ، وكل هذا هيا للثورة الكبرى التي قام بها الشعب والجيش في ١٤ يولية سنة ١٩٥٨ م ، وسنتكلم عنها بعد قليل .

ومما يذكر عن حلف بغداد أنه كان يضم تركيا وبريطانيا وباكستان وإيران ، وأن بريطانيا عقب تكوين هذا الحلف وافقت على إنهاء معاهدة ١٩٣٠ ، وأخلت القواعد الجوية في الشامية والحبانية إذ أصبح الحلف الجديد يحل محل الاستعمار البريطاني الذي كانت تهتز أركانه .

وفي فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن العراق والأردن الاتحاد العربي الذي أعطى الرئاسة للملك فيصل الثاني ، وكان ذلك ردا على الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا .

ثورة سنة ١٩٥٨ * (نهاية الملكية وإعلان الجمهورية) :

كانت ثورة ١٩٥٨ حركة تاريخية كبرى وانتقالا بالعراق من عهد إلى عهد ، من عهد التبعية إلى عهد الاستقلال ، ومن عهد الملكية إلى النظام الجمهوري ، ومن التخلف الاقتصادي إلى محاولة التطور والتقدم ومن الضعف الفكري والثقافي إلى وثبة هائلة في العلم والمعرفة ، وكل هذه الاتجاهات عبر عنها البيان الأول لهذه الثورة ، يقول البيان :

(*) في الحديث عن هذه الثروة وما بعدها اعتمدنا على المراجع الرسمية ، مع التصرف الكامل في الأسلوب وسرد الأحداث .

بعد الانتكال على الله ، ومؤازرة المخلصين من أبناء الشعب والقوات المسلحة أقدمنا على تحرير الوطن العزيز من سيطرة الطغمة الفاسدة التي نصبها الاستعمار لحكم الشعب ، والتلاعب بمقدراته لصالحهم وفي سبيل مآثمهم الشخصية . .

ويتحدث البيان عن حيولة الاستعمار دون تسليح الجيش العراقي ، وعن الحديد والنار ، والسجون والمعتقلات التي نصبها الاستعمار وأعوانه للأحرار ، وعن سرقة خيرات الشعب وحرمانه من الازدهار الثقافي والاقتصادي .

واستطاعت الثورة أن تقضي على أعوان الاستعمار ، فسقط فيها الملك فيصل الثاني وعبد الاله الذي كان وصيا على العرش فوليا للمعهد ونورى السعيد رئيس الوزارة آنذاك ، وأعلنت الثورة عن قيام جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة ، وبالتعاون الشامل مع الدول العربية والإسلامية ، كما أعلنت تمسكها بمبادئ الأمم المتحدة ، والتزامها بالعهود والمواثيق التي تخدم مصلحة الوطن ، والتزامها كذلك بمقررات باندونج .

وفي مجال السياسة الداخلية ألغت الثورة مجلس سيادة يتمتع بسلطة رئيس الجمهورية ، حتى يختار الشعب رئيسا له ، ثم أصدرت دستورا مؤقتا يعلن أن الدولة العراقية جمهورية مستقلة ذات سيادة ، وأن العراق جزء من الأمة العربية ، وأن حقوق المواطنين مكفولة ضمن الوحدة العراقية ، وأن الإسلام دين الدولة الرسمي .

وأصدر مجلس السيادة قانون الإصلاح الزراعي الذي ألغى نظام الإقطاع ، وأصدر قانون إلغاء نظام دعاوى العشائر ، وقوانين أخرى لتطهير أجهزة الدولة وحماية الفلاحين والعمال .

وفي المجال الخارجي أعاد العراق صلاته الطيبة بجمهورية مصر ،
كما أعاد العلاقات الدبلوماسية بالاتحاد السوفيتي واعترف بالصين
الشعبية ، ثم أعلن خروج العراق من ميثاق حلف بغداد ومن الكتلة
الاسترلينية •

وانحرف عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للشوات
المسلحة بهذه الثورة ، وتكرر لقادتها وأهدافها ، وأخذ يبتعد بالعراق
عن الخط العربي ، ونتيجة لذلك ثار ضده اللواء الخامس المرابط في
مدينة الموصل في ٨ مارس سنة ١٩٥٩ وكان العقيد عبد الوهاب الشواف
قائد هذه الثورة ، ولم تستطع هذه الثورة أن تحقق انتصارا على القوة
الكبرى التي زحفت من بغداد ، وعلى أثر فشلها حدثت مذابح رهيبة في
مدينة الموصل واعتقلت حكومة قاسم الألوف من المواطنين من مختلف
النواحي •

وفي احتفالات ١٤ يوليو سنة ١٩٥٩ حصلت مذبحة في كركوك ،
جاوزت في أهوالها مجازر التتر كما تقول المصادر العراقية ، وأقام
عبد الكريم قاسم محكمة عسكرية كان قاضيها يحكم بما يريده الزعيم
الأوحد كما سُمي قاسم آنذاك وكل هذه الانحرافات دفعت لقيام ثورة
١٩٦٣ لتضع حدا لهذه الانحرافات التي ناء بها الوطن والمواطنون •
وسنتحدث عن هذه الثورة فيما يلي :

ثورة فبراير ١٩٦٣ (١٤ رمضان ١٣٨٣) :

في فبراير سنة ١٩٦٣ اندلعت في بغداد ثورة اشترك فيها الجيش
والشعب ، وهاجمت عبد الكريم قاسم ، الذي كان يتخذ وزارة الدفاع
مقرا له ليعيش في حمى السلاح ، بعد أن انفض الشعب عنه ، وقد قاوم
عبد الكريم قاسم وأعوانه مقاومة عنيدة ، ولكنه هزم في النهاية ، وجرى
محاكمة سريعة له ، أعدم بمقتضاها ، وأصبح رئيس الجمهورية عبد
السلام عارف ، وأعلنت الثورة أنها تهتم اهتماما خاصا بوحدة الشعب

الوطنية ، وبمشاركة الجماهير في توجيه الحكم ، كما أعلنت أنها تسعى لاستكمال الوحدة العربية ، وتحافظ على مكاسب الجماهير وفي مقدمتها قانون الإصلاح الزراعي ، وعلى العموم فقد اعتبرت هذه الثورة عودة لثورة ١٩٥٨ : وإزالة الانحرافات التي طرأت على هذه الثورة المجيدة .

وعنما توفي عبد السلام عارف في حادث سقوط طائرته في سنة ١٩٦٥ ، تولى أخوه عبد الرحمن عارف مقاليد الحكم فأصبح رئيساً للجمهورية ، وتقول المصادر العراقية إنه حدث في عهده أحداث تسمى إلى الشعب بالعراق وتمس إقتصاده ، كما أن الجيش أهمل ، وجمدت طاقاته العسكرية ، فلم يستطيع أن يقوم بدوره في حرب ١٩٦٧ ، وإزاء ذلك وسواه هبت ثورة جديدة ستكون موضع حديثنا التالي :

ثورة سنة ١٩٦٨ :

كانت هذه الثورة — كما قيل في سابقتها التي حدثت سنة ١٩٦٣ — تصحيحاً للأوضاع ، وتحقيقاً للأهداف التي أعلنتها الثورة الأم سنة ١٩٥٨ ، وكانت بقيادة مجموعة من القادة في قممهم :

أحمد حسن البكر وصادق حسين ، وقد حدثت هذه الثورة في ١٧ يوليو سنة ١٩٦٨ ، ولكن سرعان ما ظهرت « ملامح سود » كما تقول المراجع الرسمية وكانت هذه الملامح تنذر بالخطر ، ومن أجل هذا أبعد المندسون على الثورة الذين أرادوا أن ينحرفوا بها ، وكان ذلك في يوم الثلاثين من نفس الشهر ، وتولى أحمد حسن البكر رئاسة الجمهورية وقيادات القوات المسلحة ، وكان صادق حسين نائباً له .

وهذه الثورة هي التي يعيش العراق معها حتى كتابة هذه السطور ولها منجزات تذكرها المراجع العراقية كالآتي :

في المجال السياسي : أطلقت سراح المعتقلين السياسيين : وأعادت

المفصولين إلى وظائفهم ، وأعلنت بيان ١١ مارس فتحل المسألة الكردية
حلا سليما ديمقراطيا ، ومنح الحقوق القومية للأكراد وكل الأقليات •

وفي المجال الزراعي : ألغت الثورة التعويض الممنوح للاقطاعيين ،
وأسست المزارع التعاونية الجماعية ، وأنجزت العديد من مشروعات الري
والصرف ، وأكملت عملية توزيع الأراضي ، وأعلنت عملية الاستزراع التي
ترمي لزيادة الانتاج الزراعي •

وفي مجال الصناعة والنفط : طورت الثورة شركة النفط الوطنية ،
واستثمرت النفط وطنيا ، وأصدرت قرارها بتأميم عمليات شركة نفط
العراق في أول يونيو سنة ١٩٧٢ وبهذا أنهت السيطرة الأجنبية على موارد
العراق الاقتصادية •

وفي المجال الصحي : أنشأت الثورة المستشفيات والمراكز الصحية ،
ونشرت العيادات الشعبية التي تقدم العلاج والدواء بأقل التكاليف ، كما
اهتمت الثورة بنشر الوعي الصحي •

وفي مجال التعليم : اهتمت الدولة بإنشاء العديد من المدارس
والجامعات ، كما اهتمت بتأميم التعليم الخاص والأهلي وبمحو الأمية ،
وأولت عنايتها لتعديل البرامج والمناهج لتناسب العهد الفكري الجديد •

صدام حسين رئيساً للجمهورية :

يمكن القول إنه في عهد أحمد حسن البكر كان الزمام الحقيقي في يد صدام حسين ، وكان أحمد حسن البكر واجهة فقط ، وربما جاز القول إن أحمد حسن البكر كان صمام أمان لأن السلطة الكاملة عندها انتقلت سنة ١٩٧٩ إلى صدام حسين بدأت الأعاصير تجتاح العراق والمنطقة كلها فقد سوت الأوهام لهذا الرجل أنه يستطيع أن يسيطر على المنطقة كلها ، وقد بدأ بالصراع ضد مصر لإبعادها عن الصف العربي بحجة اتجاهها لعقد معاهدة مع إسرائيل ، وسخر المصريون بهذا الموقف لأن مصر ترفض بكل الشمم والإباء أن تكون تحت وصاية أحد ، فمصر لها تاريخها ومكانتها ولا تقبل أن تجلس مجلس التلميذ وتمسكت مصر باتجاهها في عهد البطل أنور السادات الذي حارب اليهود وانتصر عليهم ، وفاوضهم وانتصر عليهم أيضا ، وإذا كانت مصر رفضت الموقف العربي الذي تزعمه صدام حسين في مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٨ فإن الدول العربية الأخرى استجابت للأسف لاتجاه صدام بحكم الغيرة أو الخوف ، وقطعت علاقاتها بمصر بعد أن ثمتت المعاهدة مع إسرائيل وغلقت عضويتها بجامعة الدول العربية ، ونقل مقر الجامعة إلى تونس وتقرر وقف القروض والمساعدات إلى مصر من كل الدول العربية .

ويقرر زعماء العرب أن الهدف الرئيسي من نتائج مؤتمر بغداد كان إبعاد مصر عن دول الخليج لتصبح لقمة سائغة لصدام حسين ، فمصر هي التي هددت العراق في عهد عبد الكريم قاسم عندما فكر في اقتحام الكويت .

الحرب مع إيران :

في سنة ١٩٨٠ اصطنع صدام حسين أسباباً واهية ، وادّعى أن إيران هاجمت بلاده ، والحق أنه كان يطمع في ضم بعض المناطق من إيران متوهمًا أن إيران ضعفت بعد طرد الشاه وبعد الصراع الداخلي عقب ذلك ، وقد تكلمنا بإفاضة عن هذه الحرب في الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، والمهم أنه في هذه الحرب لجأ إلى مصر فتناست موقفه ضدها وقدمت له الأسلحة والذخائر والخبرات ، كما أخذ من عرب الخليج مليارات الدولارات ، وقد صرح الملك فهد ملك السعودية أن بلاده دفعت لصدام ٢٧ ملياراً من الدولارات ، فقد أوهمها صدام أنه الحارس لدول الخليج من زحفا تتجه إيران لتتقوم به عليها •

واستمرت هذه الحرب ثمانى سنوات (١٩٨٠ — ١٩٨٨) وسقط فيها مليون شهيد وجريح ودمرت مدن وأحرقت مزارع ونخيل ، ويئست العراق من النصر فاتجهت لاستجداء وقف إطلاق النار •

والعجيب أنه بعد أن توقفت الحرب سنة ١٩٨٨ وبعد أن اتجه صدام حسين إلى حرب مدمرة أخرى هي زحفه على الكويت ذلك الزحف الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، بعد هذا عاد صدام حسين يعلن الموافقة على معاهدة الجزائر التى كان قد ألغاها وأعلن الحرب بسببها ، كما أخلى كل المناطق الإيرانية التى كان قد استولى عليها •

والإنسان يتساءل : لماذا كانت إذن حرب الثمانى سنوات والمليون شهيد وجريح ، ولماذا كان التدمير الذى حل بالبلدين المسلمين

صراع صدام بعد إيران :

ولم تطل مدة السلام بالعراق بعد توقف الحرب مع إيران ، فإن

صدام سرعان ما خاضع مصر ، وتوقف عن دفع أجور المصريين الذين كانوا يساعدون العراق أيام محنتها ، بل أغرى بعض العراقيين بقتل بعض العمال المصريين ، فكم من إنسان مصرى عاد لمصر في تابوت الموتى ، ثم اتجه صدام للزحف على الكويت وتهديد دول الخليج وضرب السعودية ، وذلك ما سنشرحه في الدراسة التالية :

احداث العراق والكويت

١٩٩٠ - ١٩٩١

مقدمة :

عن أحداث العراق والكويت كتبت كتابا مستقلا عنوانه :

أحداث العراق والكويت

ماذا أبرزت من آلام ؟ وما السبيل لحلّها ؟

دراسة تاريخية نفسية محايدة

وتعاقدت مع الأستاذ أحمد رائف مدير مؤسسة الزهراء للإعلام العربي على نشره ، وكان ذلك في ١٩٩١/٦/١ ولأنه كتاب متصل بأحداث الحرب كان الواجب أن ينشر فوراً ، ولكن هذا الناشر نشر في ذلك الموضوع حوالي مائة كتاب ، ولم يكن كتابي هذا من بينها ، ولما حدثته في ذلك تبين أنه يعمل بعلاقة خاصة مع الكويت ، وبالتالي يريد حذف عدة صفحات من الكتاب ، ورفضت طبعاً باسم الحيدة التي أدين بها دائماً .

ولا تزال المشكلة بدون حلّ حتى الآن (أوائل سنة ١٩٩٢) وأنا هنا أكتب موجزا لأحداث العراق والكويت استكمالا لهذا الجزء السابع من « موسوعة التاريخ الإسلامي » الذي يشمل تاريخ هاتين الدولتين ضمن دول الجزيرة العربية .

وينبغي أن يتضح أن هذا الموجز لا يغني عن الدراسة الشاملة بالكتاب الذي ذكرناه آنفاً ، ففي الكتاب دراسات تفصيلية مهمة ، وإحصائيات خطيرة ، وخرائط توضح الأمور ، وصور تشدّد القارئ ، وليس ما أكتبه هنا إلا إشارة سريعة لهذا الموضوع .

والخلاف بين العراق والكويت قديم نوعاً ما ، وكان يثور ثم يهدأ ، ولكنه في هذه المرة ثار ولم يهدأ ، وكان مدمراً للعراق والكويت جميعاً ، فما الأسباب الإجمالية لهذا الصراع ؟

في تقديرى إن أهم الدوافع لهذا الصراع هى كما يلى :

١ — **المنفذ على الخليج** : فمنفذ العراق للخليج ضيق جدا ، أما الكويت فكلها تقع في قلب الخليج ، وبسبب ضيق منفذ العراق لم يحسب العراق من دول الخليج •

٢ — **الحق التاريخى** : تدعى العراق أن الكويت كانت جزءا من لواء البصرة ، ولم أر في المصادر التاريخية ما يؤيد هذا الادعاء ، بل إن الكويت قد وجدت وشهدت الأنظار قبل أن يتكون العراق بألويته المختلفة •

٣ — **الثراء الكوينى** : وهو ثراء باهظ يسيل له اللعاب ، ولو كانت الكويت صحراء جرداء كما كانت قبل البترول ما اهتم العراق بها •

ولكن الحق أن ثراء الكويت لم يبسن مواطننا صالحا بالكويت في الكثير الغالب ، وكثير ممن ينسبون للكويت اتجهوا للعبث واللهو في الأقطار المختلفة خلال الحقبة •

٤ — **الجشع العراقى** : العراق بلاد غنية جدا بمصادر ثراء متعددة ، ولكنها رأت أنها تحتاج لمزيد من الغنى فهاجمت الكويت لتضيف ثراء إلى ثراء •

وهكذا بدأت مشكلة العراق والكويت هذه المرة في ١٨ يونيو حين أثار العراق هذه القضية ، وفجّر بعنف ذلك الموضوع لدى الجامعة العربية ، وقد حاولت هذه الجامعة كما حاول الزعماء العرب العثور على حل • ولكن في الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ فوجيء العالم بزحف العراق على الكويت ، وطارت أسرة الصباح إلى السعودية ، وسرعان ما ادعت العراق أن الكويت جزء من العراق ، ثم قامت بسلب ما غلا ثمنه وقتل حمله أو قتل ما غلا وما رخص ، ونقلته إلى العراق وقد قدم مندوب الكويت بالأمم المتحدة قائمة طويلة عن هذه المسلوبات سجلتها بكتابى عن هذه الحرب ، كما ارتكبت العراق كثيرا من الظلم والقسوة ضد شعب الكويت المهزوم •

وثار العالم كله تقريبا ضد العراق وضد قسوتها على الكويت ،
وقرر مجلس الأمن إدانة العراق وطالب بالانسحاب الفوري ، وجرت
محاولات عديدة لإقناع العراق بالانسحاب ولكن دون جدوى ، فإن العراق
لم تسمع لأى نصح ، ولم تهتم بأى تهديد ، كأن الأمر لا يعنيها ، أو كأن عندها
قوة تهزم العالم •

الضرب :

ولم يبق إلا الحرب وسيلة لإخراج العراق ، وقد تزعمت الولايات
المتحدة بحماسة هذا الموضوع ودعت العالم للمشاركة فيه : فاستجابت
لها سبع وعشرون دولة بعضها من الدول العربية والإسلامية • ومنها
انجلترا وفرنسا وإيطاليا كما دفعت ألمانيا واليابان جزءا كبيرا من
تكاليف المعركة •

وقد تحدد يوم ١٥ يناير ١٩٩١ موعدا لبدء المعركة إذا لم تخرج
العراق من الكويت ، ولم تهتم العراق بهذا التحديد ، وجاء الموعد المحدد
فاندفعت أسلحة الدمار تضرب العراق بقسوة كأنها كانت تنتظر هذه
الفرصة لتقضى على العراق الذى هدد إسرائيل يوما من الأيام •

وقبل أن تبدأ المرحلة الأخيرة من مراحل الحرب وهى المرحلة البرية
جرت محاولات جديدة لإقناع العراق بالخضوع لقرارات مجلس الأمن
بعد ما نزل بها من دمار ولكنها رفضت ، فبدأت المعركة البرية التى استغرقت
مائة ساعة جمات العراق تستسلم تماما لقرارات الأمم المتحدة ومجلس
الأمن ، وعلى هذا الأساس توقفت الحرب •

ضحايا الحرب :

كانت ضحايا هذه الحرب عنيفة وقاسية وأخطر ما بها ما يلى :

— تدمير شبه شامل للعراق ويقال انها عادت للوراء خمسين عاما •

— ١٠٠.٠٠٠ قتيل من الجيش العراقي .
— عشرات الآلاف من الأهالي العراقيين قتلوا من غارات جيوش
التحالف .

— عدد هائل من الأسرى العراقيين سلموا أنفسهم .
— ومن الكويت سقط حوالي ثلث السكان بما يقدر بنحو ٤٠.٠٠٠ قتيل
— تدمير شامل لحقوق البترول وإشعال النار في آبار البترول بالكويت
وتجىء هنا نقطة مهمة شرحتها بإفانضة في الكتاب المستقل عن هذه
الحرب وهي : الإسلام والاستعانة بغير المسلمين في حالة العدوان .
وهي دراسة فقهية شافية لا تحتل الإيجاز ولذلك أشير لها هنا ،
وعلى الراغب في التعرف عليها أن يعود لذلك الكتاب ، وهي
تشمل بوجه خاص الاستعانة بغير المسلمين ضد المسلمين .

صمود جيش العراق !!!

ظهرت كتابات تقرر أن جيش العراق صمد لكل دول التحالف حوالي
شهر ، وفي تقديري إن هذه مغالطة ، لأن جيش العراق لم يظهَر في أية
معركة ، ولا قاوم الزحف الهائل بآية صورة من الصور ، ولذلك لا يستطيع أن
يُصَفَّ بالصمود ، وإنما بالاستسلام للأقدار من أول ضربة إلى آخر ضربة .

تاريخ رجل :

الحديث عن هذه الحرب والحروب التي سبقتها ضد إيران والحروب
الداخلية بعدها ضد الأكراد والشيعية التي أشعلها صدام حسين عقب إعلان
الاستسلام لشروط دول التحالف ، هذه الحروب تحتم أن نتحدث عن
الانطباع الذي تتركه هذه الحروب في ذهن المفكر والمؤلف : وهذا الانطباع
استدعى أن يشمل الكتاب الذي أشرنا إليه دراسات عن تاريخ صدام حسين
والوسائل التي يصطنعها لحمايته وأهمها :

— يستعين صدام حسين بأهله لحمايته من الجماهير .

- يحتفظ برهائن عنده حتى يضمن ولاء الأسير والقبائل •
- يحكم بالإعدام على منافسيه وينفذ الحكم •
- أعد لنفسه مخبأ أسطوريا •

تسلسل عدوان صدام :

- ضد مصر التي استبعدتها في مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٩ من المحيط العربي •
- حرب قاسية ضد إيران استمرت ثمانية سنوات وسقط فيها حوالي مليون شهيد وجريح من الطرفين ، وقد تحدثنا عنها آنفا •
- بعد وقف الحرب مع إيران عاد لمشاغبة مصر وتهديدها بأن تتضرّب بواسطة السودان من الجنوب •
- هاجم الكويت ، ذلك الهجوم المدمر والبعيد عن الخلق والشهامة
- هدد السعودية ثم ضربها •
- وبعد فشل هذه الحروب اتجه لضرب العراقيين في الشمال والجنوب

عناوين مهمة في هذا الموضوع :

بعد هذا تجيء دراسات خطيرة ومهمة ، وأنا هنا أدوّن عناوينها فقط فهي لا تحتمل الإيجاز :

- العراق وما فعله في بترول الكويت •
- العراق والمباني المشاهقة بالكويت •
- العراق والدم : تسلسل المعارك الدموية طيلة تاريخ العراق بدءاً من حرب الجمل في البصرة حتى قتل عبد الكريم قاسم في التاريخ الحديث •
- العراق تثمّنكم فترة طويلة بقوى ليست عربية ولا إسلامية •
- العراق وإسرائيل ، وقضية ضرب إسرائيل بالصواريخ •

- العراق وإيران .
- العراق ومنظمة التحرير .
- العراق ومصر .

كلمات ختامية :

تشمل هذه الكلمات اقتراحاتنا حول الوسائل التي يمكن أن نتقّى بها أمثال هذه الحروب والصراعات ، وفي تقديري أن الوسائل هي :

١ — الديقراطية الحقيقية ، فلو كان بالعراق ديمقراطية حقيقية ما استبدَّ صدام حسين بالأمور بها .

٢ — القوة : يتحتم أن توجد عند العرب والمسلمين قوة ذاتية لهمائتهم ، فاللأ بدون قوة تحديه لا قيمة له .

٣ — العدالة الاجتماعية : فلا يمكن في نظر الإسلام أن توجد دولة كالكويت تمتلك المليارات وسط محيط من الجائعين وسكان القبور .

وأخيرا موضوع مهم هو :

مجرم حرب ٠٠٠ دن ؟

هل هو صدام حسين لأنه فعل ما شاهدناه في الكويت والعراق جميعا ؟

أو هو زعيم أمريكا الذي انتهز هذه الفرصة لتدمير دولة عربية إسلامية من أجل حماية إسرائيل كما صرح هو بذلك ؟

أو أن مجرم الحرب هو أسلوب الحياة في الكويت ، ذلك الأسلوب الذي عند لجمع مليار فوق مليار وإن جاع الناس جميعا حوله .

وعن هذا الموضوع سيجد القارئ في هذا الكتاب دراسة واسعة .

شذرات ختامية :

تحت هذا العنوان عرضت الأضرار الاقتصادية التي نزلت بدول المنطقة .

وتكلمت كذلك عن أمريكا التي تكيل بهميالين

ثم تكلمت عن الفكر الإسلامى فى الموقف بعد الحرب ، ودعوت إلى عدم المبالغة فى التعويضات ، فاليتامى الذين أوجدتهم هذه الحروب سيصلون إلى الرشيد يوما ، ونخشى إن توجد فى نفوسهم روح الثأر والانتقام إن لم نخفف الضغط عليهم .

وبعد

كانت كلمة الختام لهذا الكتاب هى :

لقد كتبت* هذا البحث بكل الصدق والإخلاص ، وكان قلبى يخفق مع الأحداث التى مرّت ببلادى العربية ، وكان يخفق مرة أخرى وأنا أدوّن هذه الأحداث وأعلّق عليها ، ولعله انتصح من هذا البحث أن المشكلات التى احتواها لم تبدأ فقط فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ بل بدأت قبل ذلك ، ولم تنته فى فبراير سنة ١٩٩١ بل استمرت بعد ذلك ، إنه عرض لأحداث ومواقف خطيرة مرت ولا تزال تتوالى على عالمنا العربى والإسلامى .

إننى إذ أقدمه للأجيال الحاضرة وأجيال المستقبل أتمنى أن تنتفع به هذه الأجيال ، والخير أردت وما توفيقى إلا بالله .

وأخيرا أيها القارئ الكريم أذكر لك أن الناشر أحمد رائف لم يطبع الكتاب حتى الآن ، وكأنه اشتراه لا لينشره بل ليسجنه أو يقتله ، وقد كتبت إليه أقرر أن مال الأرض ما كان يكفينى لو كنت أعرف أنه أخذ الكتاب لسجنه ، وأنا الآن أحاول أن استعيد هذا الكتاب ، وقد توسّط الكثيرون لهذا ، ولعلنا ننجح ، وإلى اللقاء فى الجزء الثامن والله المستعان .

ثبت المراجع

ملحوظتان :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت فيه بطريق غير مباشر فلم نذكر في هذه القائمة .

٢ - الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة سيبد على عدم اعتبار الملحقات (ابن وال) .

١ - مجموعة وثائق لدى وزارة الخارجية البريطانية والخارجين .
السعودية .

٢ - تقويم البلدان الإسلامية من عمل المؤتمر الإسلامي بكراتشي .

٣ - سلطنة عمان من مطبوعات وزارة الثقافة العمانية .

٤ - عمان الماضي والمستقبل من مطبوعات وزارة الثقافة العمانية .

٥ - عمال والساحل الجنوبي للخليج الفارسي من مطبوعات شركة الزيت العربية الأمريكية .

٦ - مشكلة البوريمي من مطبوعات سفارة المملكة العربية السعودية بجاكرتا .

٧ - دليل الكويت العام .

٨ - Encyclopaedia of ISLAM

٩ - Encyclopaedia Britannica

١٠ - معاهدات ووثائق .

١١ - صحف ومجلات ودوريات كثيرة .

١٢ - أحد علماء الإباضية كشف الغمة الجامع لأحكام الأمام .

١٣ - مقابلات شخصية لزعماء أسهموا في صنع التاريخ .

١٤ - لقطات مما أذاعه الزعماء بالاذاعة والتليفزيون .

١٥ - أن بلنت رحلة إلى نجد .

- مرآة الحرمين
- ١٦ - ابراهيم رفعت
- ١٧ - ابراهيم بن صالح
- ابن عيسى
- ١٨ - ابراهيم عبده
- ١٩ - ابراهيم العدوى
- ٢٠ - ابن أبى الحديد
- ٢١ - ابن الأثير
- ٢٢ - ابن الأثير
- ٢٣ - أحمد أمين
- ٢٤ - أحمد حسين شرف الدين
- ٢٥ - أحمد الشرباصى
- ٢٦ - أحمد شلبى
- ٢٧ - » »
- ٢٨ - » »
- ٢٩ - » »
- ٣٠ - » »
- ٣١ - » »
- ٣٢ - أحمد عطية الله
- ٣٣ - الأزرقى
- ٣٤ - الاصطخرى
- ٣٥ - أمين الريحانى
- ٣٦ - أمين سعيد
- ٣٧ - ابن اياس
- ٣٨ - بدوى محمد فهد
- ٣٩ - Palgrane
- ٤٠ - Bad ger
- ٤١ - Bohen
- ٤٢ - Buckingham
- ٤٣ - برنارد لويس
- ٤٤ - البغدادي
- ٤٥ - أبو بكر بن العربى
- ٤٦ - البلاذرى
- ٤٧ - البلوى
- ٤٨ - Browne
- تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد
- دولة الكويت الحديثة
- العرب والتتار
- نهج البلاغة
- النهاية فى غريب الحديث
- الكامل فى التاريخ
- زعماء الاصلاح فى العصر الحديث
- اليمن عبر التاريخ
- أيام فى الكويت
- موسوعة التاريخ الإسلامى (الأجزاء الأخرى)
- موسوعة الحضارة الإسلامية (١٠ أجزاء)
- اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان
- المسيحية » » » »
- الإسلام » » » »
- أديان الهند الكبرى
- القاموس الإسلامى
- أخبار مكة وما جاء فيها من آثار
- الممالك والممالك
- نجد الحديث وملحقاته
- اليمن
- بدائع الزهور
- تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير
- Narrative of a year's journey :
- through Central and Eastern Africa
- History of Imam and Sayyids of Rman
- The persian Gulf :
- Travels in Assyria, Micca, and Persia
- The Origin of ISMAILISM
- الفرق بين الفرق
- العواصم من القواصم
- فتوح البلدان
- سيرة أحمد بن طولون
- تاريخ ايران الادبى

- ٤٩ - تاج الدين بن عبد المجيد اليماني بهجة الزمن في تاريخ اليمن
٥٠ - التبريزي شرح الفصائد العشر
٥١ - تريتون ظهور نمه صنعاء
٥٢ - ابن تيمية رسالة معراج الوصول
٥٣ - » » الفصيحة النواسطية
٥٤ - » » قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة
٥٥ - ثابت بن سنان تاريخ اخبار القرامطة
٥٦ - الجاحظ البيان والتبيين
٥٧ - جاد طه سياسة بريطانيا في الجنوب العربي
٥٨ - جان جاك بيرى الخليج الفارسي
٥٩ - الجبرتي تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار)
٦٠ - جعفر حسين العراق في عهد المغول الايلخانيين
٦١ - جمال الدين الشعراني التاريخ السياسي للمملكة العربية السعودية
٦٢ - جمال الدين يوسف ابن يعقوب
٦٣ - جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام
٦٤ - جورجى زيدان التمدن الاسلامي
٦٥ - » » العرب قبل الاسلام
٦٦ - ابن الجوزي تنبیس ابليس
٦٧ - » » المنتظم في اخبار الملوك والاهم
٦٨ - جون فيليب دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية
٦٩ - Gerald de Gaury Rulers of Mecca :
٧٠ - Jovaini The History of world conquerers :
٧١ - حافظ أحمد حمدى الشرق الاسلامي
٧٢ - حافظ وهبه جزيرة العرب في القرن العشرين
٧٣ - ابن حجر العسقلاني الاصابة في تمييز الصحابة
٧٤ - ابن حزم الملل والنحل
٧٥ - حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام
٧٦ - » » الفاطميون في مصر
٧٧ - أبو الحسن المظني التشبيه والرد على أهل الأهواء والبدع
٧٨ - حسين بن أحمد بلوغ المرام
٧٩ - حسين بن غنام روضة الأفكار
٨٠ - » » تاريخ نجد
٨١ - حسين مؤنس الشرق الاسلامي في العصر الحديث
٨٢ - حسين محمد نصيف ماضى الحجاز وحاضره

- ٨٣ - حسين النجفي
٨٤ - حماد اليماني
٨٥ - ابن حنبل
٨٦ - ابن حوقل
٨٧ - خزعل
٨٨ - ابن خلدون
٨٩ - ابن خلكان
٩٠ - الذهبي
٩١ - ابن الربيع
٩٢ - » »
٩٣ - Ruets
٩٤ - رزق الله الصديقي
٩٥ - رشيد الدين
٩٦ - رشيد رضا
٩٧ - رفاعة الطهطاوي
٩٨ - رفيق العظم
٩٩ - Radric Owel
١٠٠ - الريحاني
١٠١ - زامياور
١٠٢ - الزبيري
١٠٣ - زكريا قاسم
١٠٤ - الزمخشري
١٠٥ - ساطع الحمصي
١٠٦ - سالم بن حمود
١٠٧ - السالمى
١٠٨ - ستانلى لين بول
١٠٩ - ستينون لويد
١١٠ - Stephen and Handy Ronart
١١١ - المسخاوى
١١٢ - سعيد باوزير
١١٣ - سليمان بن سحمان
١١٤ - » » »
- تاريخ الكوفة
كشف أسرار الباطنية
المسند
كتاب صورة الأرض
تاريخ الكويت الميالى
العسبر
وفيات الأعيان
دول الإسلام
بغية المستفيد
قرة العيون
Said bin Sultan, Ruber of Oman and East Africa :
تاريخ دول الإسلام
جامع التواريخ
الخلافة
التعريفات الشافية
أشهر مشاهير الإسلام
The Golden Bubble, Arabian Gulf : Documantary.
ملوك العرب
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى
التاريخ الإسلامى
تاريخ العروس
دولة بوسعيد
المستقصى من أمثال العرب
البلاد العربية والدولة العثمانية
العنوان فى تاريخ عمان
تحفة الأعيان فى تاريخ عمان
تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة
الرافدان
Concise Encyclopadia
of Arab civilization
الضوء اللامع
معالم تاريخ الجزيرة العربية
الهدية السنوية
تبرئة الشيخين
(م ٥٠ - التاريخ ج ٧)

- ١١٥- ابن سمرة
١١٦- سيد نوفل
١١٧- السيوطي
١١٨- »
١١٩- أبو شامة
١٢٠- شكرى فيصل
١٢١- شكيب أرسلان
١٢٢- الشماخي
١٢٣- الشهاب
١٢٤- الشهرستاني
١٢٥- صالح بن حامد العلوي
١٢٦- صالح بن سعيد
١٢٧- صلاح البكري
١٢٨- صلاح العقاد
١٢٩- » » وجمال قاسم
١٣٠- صلاح الدين المختار
١٣١- صلاح الدين المنجد
١٣٢- صلاح الدين اليافعي
١٣٣- ابن طباطبا
١٣٤- الطبري
١٣٥- عارف تامر
١٣٦- ابن عبد البر
١٣٧- » »
١٣٨- ابن عبد الحكم
١٣٩- أبو عبدون الجندی
١٤٠- أبو عبيد
١٤١- عبد الرحمن الرافعي
١٤٢- عبد الرحمن النجم
١٤٣- عبد العزيز كامل
١٤٤- عبد الله الجعراي
١٤٥- عبد الواسع بن يحيى
الواسعي
١٤٦- عثمان بن بشر
- طبقات فقهاء اليمن
الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي
وجنوب الجزيرة
حسن المحاضرة
تاريخ الخلفاء
تراجم رجال القرنين السادس والسابع
حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول
حاضر العالم الإسلامي
اليمن الإنسان والحضارة
لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب
الملل والنحل
تاريخ حضرموت
دخول الإسلام الى حضرموت
مقتطفات من تاريخ حضرموت السياسي
جزيرة العرب في العصر الحديث
زنجبار
تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها
وحاضرها
فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وأفعاله
تاريخ حضرموت السياسي
الفخري
تاريخ الأمم والملوك
أربع رسائل اسماعيلية
الاستيعاب
الاصابة
فتوح مصر
السلوك في طبقات العلماء والملوك
الأمسوال
عصر محمد على
البحرين في صدر الإسلام
قضية كينيا
المقتطف من تاريخ اليمن
تاريخ اليمن
عنوان المجد في تاريخ نجد

- ١٤٧- عدنان ترميس
١٤٨- ابن العديم
١٤٩- عريب بن سعد
١٥٠- أبو العلا المعري
١٥١- علي بن ضارزا محمد
١٥٢- علي بن الحسن الخزرجي
١٥٣- علي سامي النشار
١٥٤- عمارة اليمنى
١٥٥- عمر رضا كحالة
١٥٦- العيني
١٥٧- الغزالي
١٥٨- »
١٥٩- الغيائي
١٦٠- فاضل الخالدي
١٦١- أبو الفدا
١٦٢- فريدون باي
١٦٣- ابن فهد
١٦٤- فهد بن أحمد بن عيسى
١٦٥- فؤاد حمزة
١٦٦- فؤاد الصياد
١٦٧- فؤاد كرم
١٦٨- ابن الفوطي
١٦٩- فيليب حتى
١٧٠- فيليب حتى
١٧١- ph. Hitti
١٧٢- ابن القلانسي
١٧٣- القلقشندي
١٧٤- ابن القيم
١٧٥- كارل توتشل
١٧٦- Killy
١٧٧- ابن كثير
١٧٨- ابن الكلبى
١٧٩- الكندي
١٨٠- ليس الطحاوي
- اليمن وحضارة العرب
الفرمطى صاحب الخال
صله تاريخ الطبرى
رسالة العفران
الحليج القارسى عبر الفرون والأعصار
العقود اللؤلؤية
نشاه الفكر الفلسفى
تاريخ اليمن
جغرافية شبه جزيرة العرب
عهد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مصور
بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤)
فضائح الباطنية
الاحياء
تاريخ الغيايى
الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق
كتاب البلدان
مجموعة منشآت السلاطين
اتحاف الورى
تاريخ المخلاف السليماني
قلب جزيرة العرب
المغول فى التاريخ
ثورة ظفار
الحوادث الجامعة
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
لبنان فى التاريخ
History of the Arab Arabs
ذيل تاريخ دمشق
صبح الأعشى
زاد المعاد
المملكة العربية السعودية
Eastern Arabian Frontiers :
البداية والنهاية
كتاب الأصنام
تاريخ مصر وولاتها
المرأة فى الكويت

- ١٨١- لونكريك
١٨٢- لوريميل
١٨٣- الماوردي
١٨٤- أبو المحاسن بن تغرى
بردى
١٨٥- محمد جمال الدين سرور
١٨٦- محمد حبيب أحمد
١٨٧- محمد أبو زهرة
١٨٨- » »
١٨٩- محمد صبيح
١٩٠- محمد طارق الافريقى
١٩١- محمد بن عبد القادر
بامطرف
١٩٢- محمد عبد الله الأنصارى
١٩٣- محمد بن عبد الوهاب
١٩٤- » » »
١٩٥- » » »
١٩٦- » » »
١٩٧- محمد عسه
١٩٨- محمد على الحضرمى
١٩٩- محمد فرج
٢٠٠- محمد بن منصور التميمى
٢٠١- محمود شكرى الألوسى
٢٠٢- محمود على الداود
٢٠٣- محمد كرد على
٢٠٤- أبو مخرمة
٢٠٥- مسعود الندوى
٢٠٦- المسعودى
٢٠٧- مصطفى الدباغ
٢٠٨- مصطفى غالب
٣٠٩- المقدسى
٢١٠- المقرئى
٢١١- »
- أربعة قرون فى تاريخ العراق الحديث
دليل الخليج
الأحكام السلطانية
النجوم الزاهرة
سياسة الفاطميين الخارجية
بهضة الشعوب الإسلامية
ابن تيمية
تاريخ المذاهب الإسلامية
مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية
المملكة العربية السعودية بين الأمس واليوم
فى سبيل الحكم
تحفة المستفيد
كتاب التوحيد
مختصر تفسير ابن كثير
كتاب المسائل التى خالف فيها رسول الله
أهل الجاهلية
مختصر زاد المعاد
معجزة فوق الرمال
بيان نشر فى مؤتمر المسجد بمكة المكرمة
سنة ١٣٩٥ هـ
الأمة العربية
افتتاح الدعوة الزهراء (مخطوط)
تاريخ نجد
الخليج العربى والعلاقات الدولية
الإسلام والحضار العربية
قلادة النحر
محمد بن عبد الوهاب
مروج الذهب
قطر ماضيها وحاضرها
الحركات الباطنية فى الإسلام
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
اتعاظ الحنفى
السلوك فى معرفة الدول والملوك

- | | | |
|--------------------------------|------------------------|------|
| الخطط | » | ٢١٢- |
| الحسن الأعصم | » | ٢١٣- |
| تاريخ المملكة العربية السعودية | منير عجلاني | ٢١٤- |
| مجمع الأمثال | المهداني | ٢١٥- |
| معجم الأنساب | » | ٢١٦- |
| سفر نامه ترجمة الخشاب | ناصر خسرو | ٢١٧- |
| كلشن خلفا ترجمة موسى كاظم | نظمي زاده مرتضى | ٢١٨- |
| جلاء العينين | نعمان خيرالدين الالوسي | ٢١٩- |
| نهاية الأرب في فنون الأدب | النويري | ٢٢٠- |
| سيرة ابن هشام | ابن هشام | ٢٢١- |
| الإكليل | المهداني | ٢٢٢- |
| عقيدة الشيعة | هوايت دونالدش | ٢٢٣- |
| مفرج الكروب | ابن واصل | ٢٢٤- |
| جريدة العجائب | ابن الوردى | ٢٢٥- |
| اليمن الكبرى | الويسى | ٢٢٦- |
| Travels in Arabia | Wellested | ٢٢٧- |
| معجم البلدان | ياقوت | ٢٢٨- |
| غاية الأمانى | يحيى بن الحسين | ٢٢٩- |
| تاريخ اليعقوبى | اليعقوبى | ٢٣٠- |

فهرس الأعلام

ملاحظات :

- ١ - تحاشيا للاطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب وفي قائمة المراجع .
- ٢ - ولم أضمن هذه الفهارس الأسماء التي وردت في قوائم الأئمة خلال عهد آل نبهان وبعدهم بعمان ، ولا الأئمة العلويين باليمن اكتفاء بورود هذه الأسماء في هذه القوائم الطويلة .
- ٣ - رتبت هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (إبن-ال) .

حرف الألف

- | | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| أبو حمزة الشارى : ٣٩٢ | أبان بن سعيد : ٥٢٥ |
| أبو ذر الغفارى : ٤٢٤ | ابراهيم بن أحمد المنقور : ٦٥ ، |
| أبو زيد الهللى : ٥٠٧ | ٧٦ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، |
| أبو السرايا بن المنصور : ٤٢٧ | ١٥٨ ، ١٥٧ |
| أبو سعيد الجنبى : ٣١٣ ، ٥٦١ ، | ابراهيم بن تاج الدين : ٤٣٢ ، ٤٥٥ |
| ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، | ابراهيم الجزار : ٣٩٦ ، ٤٢٧ |
| ٥٨٥ | |
| أبو سعيد بهادرخان : ٧٢٤ | ابراهيم بن حمد الجاسر : ٨٠ |
| أبو طاهر سليمان : ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، | ابراهيم الحامدى : ٤٨٠ ، ٤٨١ |
| ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، | ابراهيم بن سليمان الباهلى : ٣٩٥ |
| ٥٧٩ | ابراهيم بن العباس : ٦٩٠ |
| أبو طالوت : ٥٣١ | ابراهيم بن عبد الله : ٣٥ |
| أبو العباس السفاح : ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، | ابراهيم بن عبد الله بن طلحة : |
| أبو العباس المبرد : ٣٦٠ | ٣٩٥ ، ٣٩٦ |
| أبو القاسم المنصور : ٤٢٦ | ابراهيم بن عفيصان : ٧٤ |
| أبو عبد الله المهدي (الامام) : ٤٤١ | ابراهيم بن صالح : ٦٨ ، ٧٢ |
| أبو عبد الله العينى : ٥٢٢ | ابراهيم بن محمد بن زياد : ٤٠٤ |
| أبو عبيدة بن الجراح : ٣٨٣ | ابراهيم محمد بن يعفر : ٤١٤ |
| أبو عبيدة السكونى : ٧٠ | ابراهيم بن موسى الطالبي : ٣٩٦ |
| أبو الفتح الديلمى : ٤٣١ | ابراهيم بن يحيى حميد الدين : ٤٧٧ |
| أبو فديك : ١٠٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ | أبو تمام : ٦٩٠ |
| أبو القاسم بن حوشب : ٤٤١ | أبو بكر السقاف : ٥٠٣ ، ٥٠٤ |
| أبو محمد الفاتكى : ٣١٥ | |
| أبو العباس السفاح : ٣٣ | |

أحمد بن محمد بن خليفة : ٦٠٢
 أحمد بن محمد بن يحيى : ٥٨
 أحمد بن محمد المنقور : ٦٥ ، ٦٦
 أحمد بن محمد بن مبارك : ٦٥
 أحمد بن محمد (آل بسام) : ٦٤
 أحمد بن محمد السديري : ٥٩٥
 أحمد ناصر بن معمر : ٦٦
 أحمد نعمان : ٤٧٩
 أحمد الوداعي : ٤٨٧
 أحمد بن يحيى : ٥٧ ، ٤٣٦ ،
 ٤٧٣ ، ٤٧٥
 أحمد بن يحيى المرتقى : ٤٣٣
 ادريس بن شايح : ٧٢
 ادريس بن عبد الله : ٤٥
 أروى بنت أحمد الصليحي : ٤١٨ ،
 ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٣٨
 اسحق بن ابراهيم : ٤٠٤
 اسحق بن بى خبيصة : ٥٣٦
 اسحق بن العباس : ٤١٤
 اسحق بن موسى بن عيسى : ٣٩٦
 السرى بن منصور : ٣٠٣
 أسعد بن ابراهيم بن جعفر : ٤١٤ ،
 ٤١٦
 اسكندر : ٤٦٢ ، ٥١٥
 أسماء بنت شهاب : ٤١٨
 اسماعيل الصفوى : ٧٣٥ ، ٧٣٦
 اسماعيل بن طغتكين : ٤٤٧
 اسماعيل بن العباس : ٤٥١
 أسيد بن الأخنس : ٥٢٦
 الأسود العنسى : ٣٨٤ ، ٣٨٥
 الأشرف بن المنصور : ٤٣٦
 الأشعث بن الجاورد : ٥٢٦
 الأشعث بن قيس : ٣٨١ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٦
 آشور بانيبال : ٦٨٠

أبو الغارات بن المسعود : ٤٣٩
 أبو موسى الأشعري : ٢٨ ، ٣٨٢
 أبو ندى الأول بن قتادة : ١٨٩
 أبو ندى الثانى بن قتادة : ١٨٩ ،
 ٤٠٣
 أحمد بن اسماعيل الهاشمى : ٣٩٦
 أحمد بن الأشرف بن رسول : ٤٥١
 أحمد بن أويس : ٧٢٥
 أحمد بن أبى سعيد الجنائى : ٥٧٢ ،
 ٥٧٣ ، ٥٧٩
 أحمد باشا : ٥٨٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢
 أحمد بأناعمة : ٥٠٨
 أحمد بن جابر : ٦٦٢ ، ٦٦٣ ،
 ٦٦٥
 أحمد الجلائرى : ٧٢٦ ، ٧٢٧
 أحمد حسن البكر : ٦٠٧ ، ٦٠٨
 أحمد بن حسن : ٥٨٨ ، ٥٨٩
 أحمد بن الحسين : ٤٥٥ ، ٤٥٦
 أحمد بن الحسين بن القاسم : ٤٥١
 أحمد بن دريد : ٣٦٠
 أحمد بن راشد المعلا : ٦٣٨
 أحمد بن سعيد : ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١٤٠ ، ٢٠٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٦
 أحمد بن سليمان : ٤٠٨
 أحمد الطويل : ٥٨٤
 أحمد بن عبد الكريم : ٤٨٧
 أحمد بن عبد الله ابن معمر : ٨٦
 أحمد بن آل على ثانى : ٦١٩ ، ٦٢٠
 أحمد بن آل على خليفة : ٦١٩
 أحمد بن على بن مشرف : ٦٥
 أحمد بن سعيد : ٢٦٧
 أحمد بن صالح : ٦٠
 أحمد بن ماجد : ٤٥٨ ، ٤٥٩
 أحمد بن محمد الأشيقرى : ٦٤

بكر صدقى : ٦٠٣
بكر بن وائل : ٥٢٣ ، ٦٨٦
بلعرب بن سلطان بن صدقى : ٢٨١
٣٢١ ، ٣٢٧
بلقيس : ٥٨١
بهاء الدين عثمان : ٧٣٠
البهلول محمد بن يوسف : ٥٨٣ ،
٥٨٧
بو سفنجة ميرزا : ٧٣٢
بيرام خواجة : ٧٢٧
بير بوداق : ٧٢٧

حرف التاء

تاوندو خاتون : ٧٢٦
تركى بن سعيد : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
٣٣٧
تركى بن عبد الله : ٧٣ ، ٧٤ ،
٧٥ ، ٩٦ ، ١١٨ ، ١٤٥
تميم بن سعيد : ٤٣٦
توبة بن تمر الحضرمى : ٥٠٨
توران شاه : ٤١٠ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤
توفيق السويدى : ٦٠٥
توينى بن عبد الله : ١٤٤
تيمور لنك : ٧٠٣ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ،
٧٣٧
تيمور بن فيصل : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
٣٣٩ ، ٣٤٠
توجو : ٧٢١
توفيق باشا : ٥٢٦
توجورت اوزال : ٤٨٢

حرف الثاء

ثانى بن محمد : ٦١٦

الاصمعى : ٦٨٩
أم فاتك : ٤٠٨
أنوشتكين : ٧٠٥
أنور السادات : ٢٢١ ، ٢٢٢
أنيش الفاتكى : ٤٠٧
أوس بن ضمج : ٣٩٢
أويس بن ولد : ٧٢٥
أوغورلى : ٧٣١
أوكتاي : ٧١٠ ، ٧١٣
اباس باشا : ٥٨٨
أيد بن ضريحة : ٩١
أيوب بن جعفر : ٣٩٥
أيوب بن يحيى الثقفى : ٣٩٠

حرف الباء

بايدوخان : ٧٢٣
بابر : ٧٠٣
باذان : ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
بايسنقر ميرزا بن يعقوب : ٧٣٠
البدري بن أحمد : ٤٢٩ ، ٤٣٦ ،
٤٧٦ ، ٤٧٧
بدر الدين بن رسول : ٤٥٠
بدر الكثيرى : ٤٩٠
بدر بن سيف بن أحمد : ٣٤٥ ، ٣٥٠
البراء بن عازب : ٣٨٨
براك بن غريب الخالدى : ١٠٨ ،
٥٩٤
برسباى : ٤٦٣
بركات (الشريف) : ١١١
بركات بن محمد بن اسماعيل : ٢٨٣
بسر بن أرطاه : ٣٨٨
بشر بن المغيرة : ٣٦٠
بطاين بن عريعر : ٥٣
بغا الكبير : ٣٥

جوهر الصقلي : ٤٢١ ، ٥٥٣ ،
٥٧٦ ، ٥٧٧

جوهر المعظمي : ٤٣٩

الجوهرة بنت عبد الله بن جعفر :
٨٧ ، ١٢٥

جياش بن نجاح : ٤٠٦ ، ٤٠٧

جيفر : ٢٦١ ، ٢٩٩

جيهان شاه : ٧٢٨ ، ٧٢٩

حرف الحاء

حابس بن سعيد الطائي : ٣٨٧
حاتم بن أحمد الهمداني : ٤٢١ ،
٤٢٢

حاتم الهمداني المغلس : ٤٢١

الحارث الحميري : ٣٨١

حارثة بن قدامة السعدي : ٣٨٩

حازم بن خزيمه : ٣٠٧

حامد سعيد : ٣٣٦

الحجاج بن يوسف : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
٦٩٤

حذيفة بن محض : ٢٥ ، ٣٠١

حذيفة بن اليمان : ٤٢٤

حريث بن مسعود : ٥٧١

حسام الدين التوريزي : ٤٥٢

حسان بن الجراح : ٥٧٧

حسن أوزون : ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٥

الحسن الادريسي : ١٨٤

الحسن الأعصم : ٥٧٣ ، ٥٧٤ ،

٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩

حسن باشا : ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩١

الحسن بن حوشب : ٤٤٢

الحسن بن سعيد : ٣١٦

الحسن الصباح : ٦٩٩ ، ٧١٤

حسن عبد الله بن عبد الله : ٦٦

ثنيان أبا الخيل : ٧٣
ثويني بن سعيد : ٣٣٣ ، ٣٣٥

حرف الجسيم

جابر بن زيد : ٢٨٠

جابر بن عبد الله : ٤٢٤ ، ٦٦١

جابر بن المبارك : ٦٦١ ، ٦٦٢ ،
٦٦٤

الجارود بن بشر : ٥٢٧

جرير البجلي : ٢٨ ، ٦٨٦

جبلة بن الأيهم : ٤٤٩

جلال الدين منكبرتي : ٧٠٨ ، ٧١٠ ،
٧١١

جلال الدين على بن عثمان : ٧٣٢

جعفر بن إبراهيم : ٤٢٤

جعفر الحسني : ١٨٧

جعفر الصادق : ٥٥٩

جعفر بن علي الهاشمي : ٤١٣

جعفر بن عمر : ٤٩٠

جعفر الموصلي : ٦٩١

جعفر الهجري : ٥٧٨ ، ٥٨٠

جعفر بن ورقاء الشيباني : ٥٦٧

جعلان التركي : ٥٤٥

جلال الدين بن خوارزم شاه : ٧٠٨

جلال الدين على بن عثمان : ٧٣٠

جلندي بن سعيد : ٢٨٢ ، ٣٠٧

جلندي بن مسعود الجلندي : ٣٠٨ ،
٣١٠

جلوى بن تركي : ٧٥ ، ٧٧

جميل المدفعي : ٦٠٣

جندب بن عمر الروسني : ٣٨٧

جنكيز خان : ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ،

٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ،

٧٠٩

حميدان بن تركي : ٦٦
 حمد بن ابراهيم : ٧٣
 حمد حسين بن طوق : ٨٥
 حمد بن خليفة : ٦٢١
 حمد السليمان : ٧٥
 حمد بن عبد الله آل ثاني : ٦١٩
 حمد العبد الله آل يحيى : ٧٧
 حمد بن عيسى بن خليفة : ٦٠٣
 حمد بن ناصر : ٦٦
 حمدوية بن عيسى : ٤٢٧
 الحميدى بن فيصل : ٧٥
 حماس بن القلبيب الهمداني : ٤٢٢
 حمورابي : ٣٦٣ ، ٦٨٠
 حمير بن الحارث : ٤١٣

حرف الخاء

خالد بن سعود : ١١٨ ، ١٦٣
 خالد بن سعيد : ٢٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥
 خالد بن العاص : ٣٠
 خالد بن عبد الله القسري : ٦٩٤
 خالد بن عبد العزيز : ١١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥
 خالد بن الوليد : ٢٥ ، ١٢٧ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥
 خردلة بن سماعة : ٣١٨
 الخريب بن راشد : ٩١
 الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٣٦٠ ، ٦٨٩
 خليل حفيد جهانكيز : ٧٣٠
 خليل بن شاذان : ٢٨٣ ، ٣١٧
 خليفة بن حمد الثاني : ٦١٩ ، ٦٢٠
 خليفة بن سليمان : ٦٠٣
 خليفة بن شخبوط : ٦٣٢

الحسن بن علي : ٣٤ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
 حسن بن علي بن غائض : ١٨٥
 حسن علي بن جيهان شاه : ٧٢٩
 حسن بن الكثيري : ٥٠١
 حسن العمرى : ٤٧٩
 حسن بن محمد بن عبد الوهاب : ٨٩
 حسن بن مشعاب : ٧٢
 حسن بن مهنا : ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩
 حسين (الشريف) : ١٨٣ ، ١٨٤
 ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤
 ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠
 ٢٠٢ ، ٢٠٥
 حسين الأهوازي : ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٦١

حسين بن أويس : ٧٢٥
 الحسين بن سلامة النوبى : ٤٠٤ ، ٤٠٥
 الحسين بن عبد القادر : ٤٣٠
 حسين بن علاء الدولة : ٧٢٥
 الحسين بن علي الطالبي : ٣٩٧
 الحسين بن علي بن اسكندر : ٥٧٧
 حسين بن القاسم : ٤٩٠
 حسين بن محمد بن عبد الوهاب : ٨٩

حسين محمد الكسبي : ٤٧٤
 الحصين بن نعيم : ٣٩٢
 الحطم : ٢٧ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
 حفص بن الوليد : ٥٠٨
 حكمت سليمان : ٦٠٣
 حمد بن ابراهيم بن بسام : ٧٣
 حمدان بن الأشعث : ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧
 حماد البربري : ٣٩٦

رجاء بن الجذامي : ٣٩٥
رحمة بن مطر : ٣٣٧ ، ٦٢٨
رديف : ٥٩٩
رستم : ٤٤٩
رستم حفيد أوزن : ٧٣٠
رشيد باشا : ٥٩٦
رشيد عالي الكيلاني : ٦٠٤
رشيد بن محمد : ٧٢
ريحان بن صالح : ٥٤٢ ، ٥٤٣

حرف الزاي

زائد بن معن : ٣٩٤
زامل السليم : ٩٨ ، ٩٩
زامل العبد الله : ٧٧
زايد بن خليفة : ٦٣٢ ، ٦٣٣
زايد بن سلطان : ٤٨٢ ، ٤٨٣
٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦
٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٥

زبيدة : ٣٤
الزبير بن العوام : ٣٨٦
زكروية : ٥٦٤ ، ٥٦٥
زهري بن جراح الثوري : ٧٠
زياد بن ابراهيم : ٤٠٤
زياد بن الربيع : ٥٢٦
زياد بن عبد الله الحارثي : ٣٣
زياد بن لبيد : ٢٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥
زياد بن أبيه : ٦٩٣
زياد بن المهلب بن أبي صفرة : ٣٠٣
زيد بن الخطاب : ٦٤ ، ٨٤ ، ١٢٢
زيد على (الامام) : ٤٢٥ ، ٤٢٩
زيد بن كهلان بن سبأ : ٤٤٩
زيد بن علي الوشكي : ٤٧٦
زيد بن محسن : ١١١
زيد بن مرجان : ٨٧

خليفة بن عبد الله : ٥٠١
خميس بن سعيد : ٢٨٥
خواجه مرجان : ٥٧٦
خوارزمشاه : ٧٠٦
خورشيد باشا : ١٦٣ ، ١٧٨
الخيزران : ٣٤
خير بن نعيم : ٥٠٨

حوف الدال

داود باشا : ٥٩١ ، ٥٩٣
داود بن علي : ٣٩٤
داود بن يوسف بن رسول : ٤٥١
٤٥٢
دجين بن عريعر : ٥٣
داوس بن محمد بن عبد الله : ٨٦
دغيم بن فايز : ٨٧
دهام بن داوس : ١٣٨ ، ١٣٩
دياب بن نبهان : ٦٣١

حرف الراء

راشد بن حميد النعيمي : ٦٣٨
راشد الدريبي : ٧٣ ، ٩٤
راشد بن سالم الخروصي : ٣٨٥
٣٣٩
راشد بن سعيد : ٦٣٦
راشد الكبير : ٧٣
راشد المكتوم : ٦٤٠
الربيع بن حبيب الفراهيدي : ٣٦٠
الربيع بن زياد : ٥٢٩
الربيع العامري : ٤٦٠
الربيع بن عبد الله الحارثي : ٣٩٥
٥٢٩
ربيعة بن مانع : ٥٢

حرف السين

سابور بن أبي طاهر : ٥٧٢ ، ٥٧٣ ،
 سالم بن ثويني : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
 ٣٣٧
 سالم بن حمود : ٣٣٩
 سالم بن ربيع : ٤٨١ ، ٥٠٢
 سالم بن السبهان : ٩٧ ، ٩٨
 سالم بن سلطان : ٣٣٣
 سالم الصباح : ٢١١ ، ٦٥٢
 سالم الصارمي : ٣٢٧
 سبأ بن أبي السعد : ٤٣٩
 سبأ المصيلحي : ٤١٨ ، ٤١٩
 سبتوي : ٧١٢
 سرجون : ٦٨٠
 سرور (الشريف) : ١١٦ ، ١٩٠
 سرور بن مساعد : ١١٦ ، ١٤٠
 السري بن عبد الله : ٥٣٦
 سعد بن أبي وقاص : ٦٨٦ ، ٦٨٧
 سعد بن زيد : ٩٦
 سعد الدين باشا : ٥٩٢
 سعدون بن غرير : ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٧
 سعدون بن عريعر : ٥٩ ، ٥٩٤
 سعدون بن محمد بن براك : ٥٩٤
 سعود بن سعيد : ١١٥
 سعود الثالث : ١١٨ ، ١٦٤
 سعود بن عبد العزيز : ٧٤ ، ١١٨
 ١٣٩٠
 سعود بن عبد العزيز (الملك) :
 ١٣٩ ، ١٨٥ ، ٢٦٣ ، ٥٩٤
 ٦٢١
 سعود بن فيصل : ٩٦ ، ٢٤٤ ، ٥٩٥
 سعود الكبير : ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٨ ،
 ١٥٠

سعود بن محمد بن مقرن : ١١٧ ،
 ١١٨
 سعيد بن أبي سعيد الجنبلي : ٥٦٠
 ٥٦٦
 سعيد بن أحمد : ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٣
 سعيد باشا : ٥٩١
 سعيد بن تيمور : ٢٧٤ ، ٣٣٤
 سعيد بن دادوية : ٣٩٠
 سعيد الحاجب : ٥٤٥
 سعيد بن السرح الكناني : ٣٩٦
 سعيد بن سلطان : ٢٧٤ ، ٢٧٥
 سيد بن طحنون : ٦٣٢ ، ٦٣٣
 سعيد بن نجاح : ٤٠٦ ، ٤٠٧
 سعيد بن الاحول : ٤١٨
 سفيان بن عمرو العقيلي : ٥٣٤
 سفيان بن المهلب : ٥٣٦
 السلال (عبدالله) : ٢١٥ ، ٤٣٦ ،
 ٤٧٩
 سلامة بن سويط : ١٠٨
 سلامة شخبوط : ٦٣٤
 سلطان بن أحمد : ٢٦٧ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٦ ، ٣٣٥
 سلطان بن بجاد : ١٩٦
 سلطان بن صقر : ٦٣٧
 سلطان بن صقر آل ثاني : ٦٣٧
 سلطان بن سيف : ٢٦٦ ، ٢٨٠ ،
 ٣٢١ ، ٢٨٢
 سلطان بن سيف الثاني : ٢٦٦ ، ٣٢٢
 سلطان بن مرشد : ٢٥٧ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣١
 سلطان بن أحمد : ٣٣٥ ، ٣٣٦
 سلمان بن حمد بن خليفة : ٦٠٢ ،
 ٦٠٣

حرف الشين

- شاه ولد : ٧٢٥
 شارخ الفوازن : ١٥٤
 شبرويه : ٣٨٠
 شخبوط بن سلطان بن زايد : ٦٣١ ،
 ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤
 شرحبيل بن يعفر : ٣٧٣
 شرف الدين بن محمد : ٤٣٤ ، ٤٦٢
 شريح بن عامر : ٦٨٦
 شعلان أبو الجون : ٦٠١
 شعيب البارقي : ٣٩٣
 شكيب أرسلان : ٤٧٢
 شمس المعالي : ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠
 شهاب الدين أحمد بن يحيى : ٦٤
 شهاب الدين أحمد العسكري : ٦٤
 شهر بن باذان : ٣٨٢ ، ٣٨٥

حرف الصاد

- صالح جبر : ٦٠٤
 صالح بن داود : ٥٣٦
 صالح بن شريف : ٣٩٢
 صالح بن عثمان : ٨٠
 صالح بن علي : ١٤٥
 صالح بن قرناس : ٧٩
 صافي البصري : ٥٧٢
 الصباح بن جابر : ٦٥٤ ، ٦٦١
 صباح بن المبارك : ٦٥٤ ، ٦٦١
 صغار العبد : ٣٦٠
 صدام حسين : ٦٠٧
 صعصعة بن صوحان : ٣٦٠
 صفى الدين : ٥٨٣
 صقر بن زايد : ٦٣٣
 صقر محمد القاسمي : ٦٣٩

سلمان الفارسي : ٤٢٤

- سليم (السلطان) : ٤٢ ، ٤٣ ،
 ٤٤ ، ٣٢٠
 سليمان بن أبي سعيد الجنابي : ٥٤٩
 سليمان أغا (أبو ليلة) : ٥٩١ ،
 ٥٩٢
 سليمان باشا الصغير : ٥٩١ ، ٥٩٣
 سليمان بن طرف : ٤٠٤
 سليمان باشا الكبير : ٥٨٨ ، ٥٩١
 سليمان بن عبد الله الجميري : ٤١٧
 سليمان بن عبد الله بن زامل : ٧٩
 سليمان بن عبد الوهاب : ١٣٤
 سليمان بن عنتر التجنبي : ٣٩٢
 سليمان بن عفيصان : ٦١٦
 سليمان بن علي : ٩٠ ، ٤٩٠
 سليمان القانوني : ٦١٥ ، ٥٨٧
 سليمان بن موسى الباهلي : ٨٩
 سنان باشا : ٤٦٦
 سنجر الشعبي : ٤٥٥
 سيحاربيب : ٦٨٠
 السمح بن مالك : ٣٨٩
 سميدع بن وعلة : ٣٨٧
 سنبر بن الحسين : ٥٧٣
 سوناي : ٥٦٥
 سويد بن مقرن : ٢٥
 سبيويه : ٦٨٩
 سيحان بن صوحان : ٣٠١
 سيف بن أحمد : ٤٤٦
 سيف بن بكر : ٥٣٦
 سيف بن ذي يزن : ٣٨٠
 سيف بن سلطان : ٢٦٦
 سيف بن عزار : ٧٩

عائشة خاتون : ٥٩٠
عائض : ١٩٧
عادلة خاتون : ٥٩٠ ، ٥٩٣
عاصم بن عروة : ٥٣٢
عامر بن داود : ٤٦٣ ، ٤٦٥ ،
٤٨٧
عامر بن طاهر : ٤٥٦ ، ٤٥٧
عامر بن عبد الوهاب : ٤٥٧ ، ٤٦٢
عامر الهمداني : ٣٨٢
عباد بن عباد الجندى : ٣٠١
عباد بن عبد الله : ٥٣٢
العباس بن عمر الشهابي : ٤١٣
العباس العنوي : ٣١٣
العباس بن المجاهد : ٤٥١ ، ٤٥٢
العباس بن المكرم : ٤٣٨ ، ٤٣٩
عبد الاله : ١٩١
عبد الحميد (السلطان) : ٦٥٦
عبد الرحمن الايراني : ٤٧٩ ، ٤٨٠
عبد الرحمن بن زهران : ٦٦
عبد الرحمن عارف : ٦٠٧
عبد الرحمن بن عبد الله خميس : ٦٥
عبد الرحمن الخافقي : ٣٨٩
عبد الرحمن بن فيصل : ٩٧ ، ٩٨ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٦٤
عبد الرحمن بن محمد : ٧٥ ، ٧٨
عبد الرحمن النقيب : ٦٠٠
عبد الرحيم ابراهيم الحميري : ٤١٣
عبد السلام عارف : ٦٠٧
عبد العزيز (الامام) : ٧٤
عبد العزيز حسن الحضري : ٥٠٨
عبد العزيز الحصين : ١١٥ ، ١١٦
عبد العزيز بن حمد : ٧٩ ، ١٥٢
عبد العزيز بن حمد بن معمر : ٧٨

صلاح الدين الصباغ : ٦٠٤
صلاح الدين الايوبي : ٤١٠ ، ٤٢٠
٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦
الصلت بن مالك الازدي : ٣١٠ ،
٣١٢
الصلت بن مالك الخروصي : ٢٨٠

حرف الضاد

الضحاك بن مالك الازدي : ٣٩٠

حرف الطاء

طاهر بن أبي هاله : ٣٨٢
طاهر بن الحسين : ٣٢
طاهر بن عامر : ٤٥٠
طاهر بن معوضه : ٤٥٦
طحنون بن زايد : ٦٣٣
طحنون بن شخبوط : ٦٣١ ، ٦٣٢
طرفه بن العبد : ٥٢٤
طريف بن حاجز : ٢٥
طغتكين الايوبي : ٤٤٦ ، ٤٤٧
طغرليك : ٦٩٩
ابن الطفيل : ٤١٧
طلال بن عبد الله بن رشيد : ١٧٩ ،
١٨١

طليحة بن خويلد : ٢٤ ، ٢٦ ،
طنج بن جف : ٥٧٦
طهماسب : ٥٨٥
ابن طولون : ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٧٦
طوسون بن محمد علي : ١٤٩ ،
١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣
١٥٤

حرف العين

عائشة (ام المؤمنين) : ٣١ ،
٣٩٧ ، ٥٣٨

عبد الله بن حاتم : ٤٢٢
 عبد الله بن جحيلان : ١٥٣
 عبد الله بن الحسن بن أحمد : ٤٣٦
 عبد الله بن حسين : ١٩١ ، ١٩٣ ،
 ٢٠٠ ، ١٩٩
 عبد الله بن حسين العمري : ٤٧٥
 عبد الله بن حمزة : ٤٣٢ ، ٤٤٩
 عبد الله بن خاص الأزدي : ٣١٥
 عبد الله بن راشد : ٤٩٠
 عبد الله بن الربيع المدان : ٣٩٤
 عبد الله بن رشيد : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠
 عبد الله بن الزبير : ٩٣ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ،
 ٥٣٥ ، ٦٩٣
 عبد الله بن زهران : ٦٥
 عبد الله بن سالم : ٦٦٢ ، ٦٦٣
 عبد الله بن سالم الصباح : ٦٥٣ ،
 ٦٦٢
 عبد الله بن سعود بن عبد العزيز :
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥
 ١٥٦ ، ١٥٩
 عبد الله بن سعود بن فيصل : ١٥٣
 عبد الله بن سليمان النوفل : ٣٩٥
 عبد الله شريف : ٥٢٦
 عبد الله بن عائض : ٧٩
 عبد الله بن العباس : ٥٣٣
 عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد :
 ٣٩٠
 عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل :
 ٨١
 عبد الله بن عبد الوهاب المشرمي :
 ٦٥٠
 عبد الله بن علي بن مهدى : ٤١٠
 عبد الله بن علي بن الرشيد : ١٧٨
 عبد الله بن عمير : ٤٢١

عبد العزيز آل سعود : ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨
 ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧
 عبد العزيز بن عبد الرحمن : ١٩٥
 عبد العزيز بن عبد الله بابطين : ٨٤
 عبد العزيز بن محمد بن رشيد : ٨٧
 عبد العزيز بن محمد بن سعود : ٧٦
 ٨٨ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠
 ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
 ٢١٠ ، ٢١٤
 عبد الفتاح اسماعيل : ٥٠٢ ، ٥٠٣
 عبد القادر العديلي : ٦٥
 عبد القوى مكاوي : ٥٠٢
 عبد العزيز بن مروان : ٣٩٢
 عبد العزيز بن مساعد : ١٧٠
 عبد الكريم قاسم : ٦٧٤
 عبد الله بن أباض : ٣٠٤
 عبد الله أبو بطين : ٧٩
 عبد الله بن أبي ربيعة : ٣٨٦ ، ٣٨٧
 عبد الله بن أبي سرح : ٣٩٢
 عبد الله بن أحمد : ٤٧٤
 عبد الله بن أحمد بن معمر : ٨٦
 عبد الله بامصفر : ٥٠٨
 عبد الله آل خليفة : ٦٠٤
 عبد الله بن اسحق : ٤٠٤ ، ٤٠٥
 عبد الله باشا الاول : ١١٨
 عبد الله باشا الثاني : ١١٨ ، ٥٩٤
 عبد الله الثالث : ١١٨
 عبد الله بن ثنيان : ٧٤ ، ١١٨ ،
 ١٦٥
 عبد الله بن ثور : ٢٨
 عبد الله الجلندي : ٣٠٠
 عبد الله جلوي : ١٧٠ ، ١٧١

عبد الوهاب الزياتي : ٦٠٦
عبد الوهاب بن سليمان بن علي :
٩٠

عبد الوهاب الشواف : ٦٠٨
عبد الوهاب بن طاهر : ٤٥٧ ، ٤٥٨
عبد الوهاب طلعت : ٢٠١
عبيد الله بن رشيد : ٧٥

عبيد الله بن زياد : ٣٩٨
عبيد الله بن العباس : ٣٨٨ ، ٤٣٦
عبيد الله المهدي : ٤١٥ ، ٤١٧

عبيدة بن الزبير : ٣٩٠
عتاب بن أسيد : ٢٧

عتبة بن أبي سفيان : ٣٩٠

عتبة بن غزوان : ٦٨٧

عثمان باشا الأعرج : ٥٨٩

عثمان بن أبي العاص : ٣٠٠ ، ٥٢٩

عثمان بن حميد بن عبد الله بن
معمر : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٢٥

عثمان بن عبد الجبار : ٦٥

عثمان بن العاص : ٢٧ ، ٢٢٩

عجلان : ١٠٠ ، ١٧١ ، ١٧٢

عريعر بن دجين بن سعدون : ١٠٨
٥٩٤

عرفجة بن هرثمة : ٢٥

عزان بن تميم الخروص : ٣٠٩ ،
٣١٠

عزان بن حجيلان : ١٥٣

عزان بن خضر : ٣١٠

عزان بن قيس : ٣٣٧

العزیز بالله الفاطمي : ٥٧٧ ، ٥٧٨

عطية بن الأسود : ٥٣١ ، ٥٣٢

ابن عفالق : ٨٩

عقيل بن أبي طالب : ٤٤١

عقيل بن ابراهيم : ٧١

عبد الله بن عون : ٤١٨

عبد الله بن العيوني : ٥٨٢ ، ٥٨٧

عبد الله الفائز أبو الخيل : ٧٨

عبد الله بن فيصل : ٧٥ ، ٩٧ ،
١٦٤

عبد الله بن قاسم بن ثاني : ٦١٨ ،
٦١٩

عبد الله بن لهيعة : ٥٠٨

عبد الله بن مالك الحارثي : ٣٦٢

عبد الله بن محمد بن ابراهيم : ٣٩٤

عبد الله بن محمد الأحسائي : ١٢٤

عبد الله بن محمد بن سعود : ١٥٢ ،
١٥٤

عبد الله بن محمد بن مسعود : ١٥٢

عبد الله بن محمد بن معمر : ٨٦ ،
١٠٣

عبد الله بن مصعب : ٣٩٥ ، ٥٣٦

عبد الله بن المقفع : ٦٩١

عبد الله بن المهدي : ٤٤٦

عبد الله بن المهدي بن القاسم : ٤٦٦

عبد الله بن ناعمة : ٥٠٨

عبد الله الهمداني : ٤١٧

عبد الله بن يحيى : ٣٢ ، ٤٧٦

عبد الله آل يحيى السليم : ٧٧

عبد الله بن يحيى الصالح : ٧٧

عبد الله يحيى الكندي : ٣١ ، ٣٩٣

عبد الله بن يوسف : ٧٨

عبد الملك بن مروان : ٣١ ، ٣٠٣

عبد المجيد (السلطان) : ٤٦٧ ،
٣٨٦

عبد الناصر (جمال) : ٤٧٧ ،
٤٧٨

عبد النبي بن علي : ٤٠٩ ، ٤١٠ ،
٤٢٢

علاء الدين الجلائرى : ٧٢٦
 عكاشة بن ثور : ٣٨٢
 عكرمة بن أبى جهل : ٢٥ ، ٣٠١ ، ٣٨٦
 علاء الدين خوارزمشاه : ٧٠٧
 علاء الدين بن تكش : ٧٠٥
 العلاء بن الحضرمى : ٢٧ ، ٢٨
 علاء الدين عطا : ٧٢١ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦
 علاء الدين بن العلقمى : ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٩
 على بن ابراهيم بن بخيت : ٤١٧
 على بن أحمد البريكى : ٥٩٤
 على بن الأسطل : ٦٣
 على باشا الأول : ٥٩١
 على بهادر : ٧٢١
 على بن حاتم الهمدانى : ٤٢٢
 على بن حسين : ١٩١ ، ١٩٣ ،
 على بن حوشان : ٧٣
 على بن خليفة : ٦١٩
 على بن داود بن رسول : ٤٥١
 على الدفعى : ٤٦٧
 على بن الربيع بن المدان : ٣٩٤
 على رضا : ٢٩١
 على بن سليمان بن العباس : ٣٩٥
 على شاه : ٧٢١
 على بن عبد الله باناعمه : ٥٠٨
 على بن عبد الله آل ثانى : ٦١٩
 على بن عبد الله صالح : ٤٨٢ ، ٥٠٦
 على بن عبد الله العيونى : ٥٨٦ ، ٥٩٠
 على بن عمر بن نهيان : ٣١٦
 على بن الفضل : ٤١٤ ، ٤١٥ ،
 ٤٢٦ ، ٤١٦
 على بن قطن : ٢٥٧

على بن محمد : ٤١٧ ، ٤١٨ ،
 ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٦ ،
 ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣
 على بن محمد الادريسي : ١٨٤
 على بن محمد الصليحي : ٤٠٦ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٩ ، ٤٣٨
 على بن مهدى : ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،
 ٤٣٥ ، ٤٠٩
 على ناصر : ٥٠٣ ، ٥٠٥
 عمار بن ياسر : ٣٨٢
 عمارة اليمنى : ٤٣٢
 عمر أحمد طويل : ٥٨٧
 عمر بن أبى الفضل الهمدانى :
 ٤١٩
 عمر بن الأسطل : ٦٣
 عمر بن حزم الأنصارى : ٣٨٣
 عمر بن الخطاب اليعصبى : ٣١٨
 عمر الخيام : ٦٩٩
 عمر بن رسول : ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،
 ٤٥١ ، ٤٥٣
 عمر بن عبد العزيز : ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٠٣
 عمر بن عبد الله الأنصارى : ٣٨٣
 عمر بن عبد الله الحضرمى : ٣٠٣ ،
 ٣٩١
 عمر بن عبد المجيد : ٣٩٤
 عمرو بن العلاء : ٦٨٩
 عمر بن على : ٤٤٩
 عمر بن عوض القميطى : ٤٩٠
 عمر بن نيهان : ٢٨٥ ، ٣١٥ ، ٣١٩
 عمر باشا : ٩٢
 عمران بن محمد بن سبأ : ٤١٩
 عمرو بن العاص : ٣٥ ، ٣٠ ، ٢٦١
 عمرو بن العلاء : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
 ٦٨٩
 (م ٥١ - التاريخ ج ٧)

الفرات بن سالم العيسى : ٣٩٤
فروة بن عمرو الجذامي : ٢٣
فروة بن مسيك المرادي : ٣٨١
الفضل بن عبد الله بن علي : ٥٨٨
فضل بن علي العبدلي : ٤٨٤ ، ٤٩١

الفضيل الورتلاني : ٤٧٤ ، ٤٧٥
الفلاح بن المحسن النبهان : ٣١٦
فهد بن سلطان : ٩٦
فهد بن سويلم : ٩٦
فهد بن عبد العزيز : ١١٨ ، ٢٢٥
٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٦١١

فهد بن غشيان : ٩٦
فؤاد (الملك) : ١٩٨ ، ٢٠١
فوزان بن حميدان : ٧١
فولاذ بن أسبان : ٧٢٨
فيصل (الثاني) : ٦٠١
فيصل بن تركي : ٧٤ ، ٧٥ ، ١٧٨
١٧٩ ، ٣٤٢ ، ٦١٦

فيصل الدرويش : ٢١٠ ، ٢١٢
فيصل بن سعود : ١١٨ ، ١٤٦
فيصل بن عبد العزيز : ١١٨ ، ٢١٨
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥

فيصل بن علي : ٣٦٦
فيصل بن مساعد : ٢٢٣

حرف القاف

قابوس (السلطان) : ٢٧٥ ، ٢٧٧
٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٥٣
٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٦٤٠
قاسم باشا : ٥٧٧
القاسم بن عمر الثقفي : ٣٩٠

عياض بن غنم : ٦٨٧ ، ٦٩١
عيسى بن جعفر الحسيني : ١٨٨
عيسى بن سلمان : ٦٠٣ ، ٦٠٧
عيسى بن عبد الله بن شاذان : ٢٧٩
عيسى بن علي خليفة : ٦٠٣ ، ٦٠٦
عيسى بن عمرو : ٦٨٩
عيسى بن موسى : ٥٧٢
عيسى بن نهيان : ٦٣١

حرف الغين

غازي بن يفصل : ٦٠٠
غالب (الشريف) : ١٤١ ، ١٤٢
١٩٠
غالب بن علي : ٢٨٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
غالب القعيطي : ٥٠١
غالب بن محسن الكثيري : ٥٠٩
غالب بن مساعد : ١١٢ ، ١٢١
غانم بن كاسر : ١١١
غريز بن علي العيوني : ٥٨٨
الغرور بن سويد : ٥٢٧
غسان بن عبد الله : ٢٨٦
الخطير بن عطاء : ٣٩٤
غوث بن سليمان : ٥٠٨

حرف الفاء

فاتك بن جياش : ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
فاتك بن محمد : ٤٠٦
فاتك بن منصور : ٤٠٦
الفاتكي : ١٨٨
فاسكودي جاما : ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٥٩٢
فخر الدين بن علي : ٤٥٠
الفراء : ٦٩٥٠

كيلان مصطفى : ٥٨٧

كوهر خان : ٧٣٣

حرف السلام

للا حسين : ٥٨٤

لقيط بن مالك الأزدي : ٣٠١

لهيعة بن عيسى : ٥٠٨

لويس التاسع : ٧١٣

حرف الميم

مازن بن غضوبة : ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،

٣٧٩ ، ٣٦٥

المأمون : ٤٢٨ ، ٤٢٩

ماجد بن عرعر : ٥٩٥

ماجد بن ختيلة : ٢١٢

ماجد بن سعيد : ٣٣٥ ، ٣٥٣

ماركوبول : ٢١٧

مالك بن الأشتر : ٣٨٨

مالك بن أيفع : ٣٨١

مالك بن حنظلة : ٨٠

مالك بن نويرة : ٢٥ ، ٢٧

مالكولم جون ميد : ٦٥٨

مانع بن عثمان : ٥٣

مانع بن عصفور : ٥٩١

مبارك بن صالح : ٧٦ ، ٦٥٦ ،

٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ،

٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣

متعب بن الرشيد : ١٨١

المثنى بن حارثة : ٦٨٤ ، ٦٨٥ ،

٦٨٦

المحسن بن أحمد : ٤٦٧

محسن العيني : ٥٠٥

القاسم بن محمد : ٤٣٤ ، ٤٦٦

قاسم بن آل ثاني : ٦١٧ ، ٦١٨

القاسم بن يحيى : ٤٤٥

قانسوره الغوري : ٤٦١ ، ٤٦٢

قتادة (الشريف) : ١٨٨

قثم بن العباس : ٥٣٦

قدامة بن مظعون : ٥٢٦

قرة محمد بن بيرام : ٧٢٦ ، ٧٢٨

قرة يوسف : ٧٢٨

قطب الدين بن ملكشاه : ٧٠٥

قطرى بن الفجاءة : ٣٠٤ ، ٦٢٢

٦٢٣

القعيطى اليافعى : ٥٠٩

قنعرز سلطان : ٥٨٤

قيس بن أحمد : ٣٥٠

قيس بن سعيد بن عبادة : ٣٨٨

قيس بن هبيرة : ٣٨٧ ، ٦٨٦

حرف الكاف

كافور الأخشيدي : ٤٠

كامل شبيب : ٦٠٤

كركوك : ٦٨٣

الكسائي : ٦٩٠

كسرى : ٣٨٥

كشاجم : ٥٤٩ ، ٥٧٨

كعب بن سوار : ٣٦٠

كمال التركي : ٤٦٣

الكميت بن زيد : ٣٧٤ ، ٦٩١

كنفير بن مالك : ٣٩١

كهلان : ٣٩١

كوجك حسن : ٥٨٧

كودة أحمد : ٧٣١ ، ٧٣٣

كيرال : ٣١٩

كيزروف : ٦٥٩

محمد بن خليفة : ٦٠٢
 محمد الديباج : ٣٤
 محمد بن راشد العرينى : ١٣٦
 محمد بن رجاء : ٥٤٢ ، ٥٤٤
 محمد بن زياد : ٣٩٧ ، ٤٨٩
 محمد بن زيد الحارثى : ٣٩٤
 محمد بن سبأ رزيق : ٤٤٠ ، ٤٤١
 محمد بن سعود : ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٧
 محمد بن سليمان بن على : ٧٠
 محمد بن سويلم العرينى : ١٢٦
 محمد بن سلوم الفرضى : ٦٥
 محمد بن سيرين : ٥٢٦
 محمد بن شخبوط : ٦٣١
 محمد بن شرف الدين : ٤٧٠ ، ٤٧٣
 محمد بن عائض : ١٨٥
 محمد بن العيد المحسن : ٨١
 محمد بن عبد الرحمن بن سعود :
 ١٧٠ ، ١٧١
 محمد بن عبد العزيز : ٨٠
 محمد بن عبد العزيز بن مانع : ٧٩
 محمد بن عبد الله الأنصارى : ١٠٨
 محمد بن عبد الله الخليلى : ٢٨٥ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٠
 محمد بن عبد الله الدوسرى : ٩٠
 محمد بن عبد الله بن رشيد : ٩٦
 ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٧٩
 محمد بن عبد الله بن الوزير : ٤٣٥
 محمد بن عبد الله بن زياد : ٤٠٤ ،
 ٤٣٤
 محمد بن عبد الله بن مالك : ٣٩٤
 محمد بن عبد الله بن مانع : ٧٩
 محمد بن عبد المحسن بن على :
 ١٧٨
 محمد بن عبد الملك الزيات : ٧٢٢

محسن بن فضل : ٤٩٦
 محمد بن ابراهيم الحضرمى : ٥٠٨
 محمد بن ابراهيم بن طباطبا : ٤٢٧
 محمد بن ابراهيم بن يعفر : ٤١٤
 محمد بن ابراهيم الهاشمى : ٣٩٥
 محمد بن ابراهيم أبو الخليل : ٧٨
 محمد بن أبى الغارات : ٤٣٧
 محمد بن أبى القاسم السلمى : ٣١٦
 محمد بن أحمد بن اسماعيل : ٦٥
 محمد بن أحمد بن عبد الله : ١٠٧
 محمد بن أحمد العيونى : ٥٨٨
 محمد بن أحمد العقدى : ٥٩٠
 محمد بن أحمد بن سعيد : ٢٨٠
 محمد بن أحمد بن معمر : ٨٦
 محمد بن اسماعيل بن القاسم : ٤٣٤
 محمد الادريسي : ١٨٤
 محمد بن براك : ٥٩٤
 محمد بن بيرام : ٧٢٩
 محمد بن ثان : ٦١٦ ، ٦١٧
 محمد الجابرى : ٦٠٢
 محمد بن جعفر الحسينى : ٤٠
 محمد بن جفير : ٢٥٧
 محمد بن جناح : ٣٠٦
 محمد بن حاتم الهمدانى : ٤٢٢
 محمد بن الحارث (الشريف) :
 ١١١
 محمد بن الحسن : ٣٠٧
 محمد بن حسن الجمل : ٧٦
 محمد بن حسين بن عثمان : ٥٣
 محمد بن (خرفاش) : ٨٧ ، ٨٩
 محمد بن حمد الشارق : ٦٣٩
 محمد بن حمد بن عبد الله : ٧٥
 محمد بن خالد بن برمك : ٥٠٥
 محمد خان شرف الدين : ٥٨٤

- محمد بن عبد الوهاب (الشيخ) :
٦٥ ، ٦٦ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،
١٣٧
- محمد عبد الوهاب بن عبد الله : ٨٩
محمد عبده (الامام) : ١٤٣
محمد بن عفالق : ٧٨
محمد بن عفان الازدى : ٣١٠
محمد بن عفيصان : ٧٦
محمد على باشا : ٤١ ، ٦٩ ، ٧٤ ،
٧٥ ، ٧٩
- محمد بن على بن عبيد : ٨٩
محمد بن على الوشلى : ٤٣٣ ،
٤٥٨
- محمد بن على بن عيسى : ٤٩٦
محمد على علوية : ٤٧٣
محمد بن على بن رشيد : ٨٧
محمد بن على الادريسي : ١٨٤
محمد بن عمر نيهان : ٣١٤
محمد بن عون : ١٩١
محمد الفاتح : ٤٦٤ ، ٧٣٣
محمد بن الفضل : ٥٨٨
محمد بن فضل : ١١٠
محمد بن القاسم : ٤٣٤
محمد المدني : ١٢٤
محمد المجموعى : ١٢٤
محمد مصطفى المراغى : ٢٠١
محمد ميرزا : ٧٣٠ ، ٧٣٣
محمد بن نافذ باشا : ٥٩٥
محمد بن ناصر بن عامر : ٤٤٤
محمد بن الناصر : ٤٣٣
محمد بن ناصر بن معمر : ١٣٦
محمد ناصر الدين : ٧٣٣
- محمد يحيى حميد الدين : ٤٣٥ ،
٤٦٩
محمد بن يعفر : ٤١٣
محمد بن يوسف : ١٠٦
محمد بن يوسف الثقفى : ٣٩٠
محمد بن يوسف بن وجيه : ٣١٥
محمود الثانى : ٥٩٥
محمود الجائفى : ٤٧٩
محمود سليمان : ٦٠٤
محمود غازان : ٧٢٢ ، ٧٢٣
محمود بن ولد : ٧٢٥
محمود بن شاه ولد : ٧٢٦
المختار بن أبى عبيد : ٦٩٣
المختار بن عوف الازدى : ٣٢
مخزوم بن الفلاح : ٣١٦
مدحت باشا : ٥٩٥
مراد (حفيد جاهنكير) : ٧٣٠
مرعى بن حسين بن سرحان : ٥٠٩
مرة بن الوليد : ٣٦٠
مروان بن الحكم : ٣١ ، ٣٨٩ ،
٥٢٦
مروان بن محمد : ٣٢ ، ٣٩٣
المسعود أبو القاسم بن رسول : ٤٥١
مسعود العبدى : ١٠٦ ، ٥٣٤ ،
٥٣٥
مسعود بن عوف الكلبى : ٣٩٠
المسعود بن المكرم : ٤٣٨
مسعود بن يمانى الكنانى : ٤٩٠
المسعود يوسف بن الكامل : ٤٤٧ ،
٤٤٨
مسلم بن عقبة المرى : ٣٠ ، ٣٩٢
مسلمة بن عبد الملك : ٦٩٤
مسيلمة الكذاب : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
٨٣ ، ٨٤ ، ٣٠١

منصور بن فاتك : ٤٠٦ ، ٤٠٧
 المنصور بن الفضل : ٤١٩
 المنصور بن الناصر : ٤٣٢
 منصور بن يزيد الحميري : ٣٩٥
 المنصور بن يوسف بن رسول : ٤٥١
 منير الأسطل : ٥٧
 المهاجر بن أبي أمية : ٢٥ ، ٢٧ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٥
 المهدي بن الحسين : ٤٥٥
 مهدي بن علي : ٤٠٩
 المهلب بن أبي صفرة : ٣٦٠
 المهلهل بن ربيعة : ٧٠
 مهنا بن جعفر اليعمدي : ٣١٠
 مهنا بن سلطان : ٣٢٢
 مهنا بن ناصر : ٥٩٦
 موسى بن ربيعة : ٥٢
 موسى بن عامر : ٨٩
 موسى بنت وطبان : ١٢٦ ، ١٢٧
 المؤيد الرسولي : ٤٥٤
 ميمون المبارك : ٤٤٢
 ميمون بن هارون : ٦٩٠
 ميمونة بنت الحارث : ١٢٢

حرف النون

نابليون : ٥٩٧
 الناخوذة : ٤٦٣
 نادر شاه : ٢٦٦
 الناصر بن طغتكين : ٤٤٧
 ناصر بن عبدالرحمن السحيمي : ٦٧
 ناصر بن عبد الله بن معمر : ٨٦
 الناصر بن محمد : ٤٣٣
 ناصر بن مرشد : ٢٥٧ ، ٢٦٢ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
 ٣٢٥

مشاري بن سعود : ١١٨ ، ١٦٣
 مشاري بن معمر : ٧٨
 مصعب بن الزبير : ٥٣٢ ، ٥٣٥ ،
 ٦٩٣
 مصطفى جلبي : ٧٣٢
 مطهر بن علي : ٤٩٦
 المطهر بن محمد (الوزير) : ٣١٥
 مظفر الدين : ٤٤٦
 المظفر بن سليمان : ٣١٦
 المظفر بن عمر : ٤٥٣ ، ٤٥٤
 معاذ بن جبل : ٣٧٥
 معازة : ٣٦١
 معاوية : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٠٢ ، ٣٨١
 ٣٨٢ ، ٤٢٤ ، ٦٩٣
 معز الدين جاهنكير علي : ٧٣٠
 معمر بن عمر بن نبهان : ٣١٥
 معن بن حاتم الهمداني : ٤٢٢
 معن بن زائدة الشيباني : ٣٩٤ ،
 ٤٨٨
 المغيرة بن أبي العاص : ٥٢٧
 المغيرة بن شعبة : ٣٨٦ ، ٣٨٨ ،
 ٦٨٦
 الفضل بن أبي البركات : ٤١٩
 المكرم الصليحي : ٤٠٧ ، ٤١٨
 المكعب : ٥٢٧
 ملكشاه : ٧٠٥
 من الله الفاتكي : ٤٠٧
 المنذر بن ساوي : ٥٢٤ ، ٥٢٥
 منصور الباهلي : ٦٤
 منصور البهوقي : ٧٩
 المنصور بن جعفر الخياط : ٥٤٥
 منصور (الشريف) : ١١٥
 المنصور بن الحسن بن زاذان : ٤١٥
 ٤١٧
 منصور أبو الخيل : ٧٣

هشام بن القبيب : ٤٢٢
 هشام بن عبد الملك : ٥٠٨ ، ٦٩٤
 هولكو : ٤٥٤ ، ٥٨٩ ، ٧٠٢ ،
 ٧١٤ ، ٧١٦ ، ٧١٧
 ٧٢٣ ، ٧٢٤
 الهيصم بن عبد الرحمن الهمداني
 ٣٩٦ ، ٥٥٧

حرف الواو

وائل بن حجر الكندي : ٢٣ ، ٣٨١
 ٣٨٢ ، ٥٠٧
 الوارث بن كعب اليمحدي : ٣١٠
 واصل بن عطاء : ٦٩٠
 وطبان بن موسى بن طوق : ٧٦
 الوليد بن عمر : ٣٩٠
 الوليد بن يزيد : ٥٠٨
 وهرز : ٣٨٠
 وهيب باشا : ١٩٢

حرف الياء

ياسر بن عمار : ٣٨٢
 ياسين الهاشمي : ٦٠٣
 ياقوت التغزي : ٤٤٦
 ابن يامن : ٥٢٥
 يحيى بن الأشرف بن رسول : ٤٥٠
 يحيى بن الحسين : ٤٢٨ ، ٤٣٠
 يحيى بن حسن سرحان : ٥٠٩
 يحيى بن خالد البرمكي : ٣٩٦
 يحيى بن زياد : ٥٢٦
 يحيى بن سلامة : ٧٦
 يحيى السليم : ٦٩
 يحيى بن عبد المحسن : ٤٣٢
 يحيى بن عياش : ٥٨٣ ، ٥٨٧

نافع بن الأزرق : ٣٠٤
 نافع بن عقبة : ٥٣٧
 نبهان بن عمر بن نبهان : ٣١٤
 نبوخذ نصر الثاني : ٦٨٠
 نجاح : ٤٠٦ ، ٤٠٧
 نجدة الخارجي : ١٠٦ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٢
 نجدة بن عويمر : ٤٣١ ، ٥٣١
 نزار بن المستنصر : ٧١٤
 نصر آل مدكور : ٥٩٥ ، ٦٠٢
 نصر بن الأزدي : ٢٩٧
 نصر الدين الطوسي : ٧١٤
 نصوح باشا : ٥٨٧
 نظام الملك : ٦٩٩
 النعمان بن بشير : ٣٩٠
 نعمان بن طلال : ٢٣
 نعمان بن عبد الله الحضرمي : ٥٠٨
 النعمان بن بشير : ٦٩٣
 النعمان بن المنذر : ٥٢٤
 نعيم بن طلال : ٢٣
 نعيم بن عيد كلال : ٣٧٧
 نعيم بن وضاح الأزدي : ٤١٢
 نفيس : ٤٠٥ ، ٤٠٦
 نور الدين زنكي : ٤٤٥
 نور الدين حمزة : ٧٣٠
 نور الدين السالمي : ٢٨٥ ، ٣٣٩
 نوري السعيد : ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧

حرف الهاء

الهادي بن يحيى : ٤٢٥
 هارون الرشيد : ٣٤ ، ٤٣٠ ، ٦٩٥
 هارون بن غريب : ٥٧٢
 هذيل بن مدركة : ٥٧٢
 هرثمة : ٤٢٧

يعلى بن منيه : ٣٨٣ ، ٣٨٦
يعفر بن عبد الرحيم : ٤١٣ ، ٤١٤
يعقوب (حفيد جاهنكير) : ٧٣١
يوحنا المعدادان : ٧١٧
يوسف بن أبى الساج : ٥٦٩
يوسف بن عبد الله : ٦٦٤
يوسف بن عمر الثقفى : ٢٩٠
يوسف بن عمر بن رسول : ٤٥١ ،
٤٥٤
يوسف بن محمد بن المتوكل
اسماعيل : ٤٣٠
يوسف بن وجيه : ٣١٤ ، ٣١٥
يونس بن حبيب : ٦٨٩
يونس بن حسن بن سرحان : ٥٠٩
يونس بن عطية : ٣٩٢ ، ٥٠٨

يحيى بن محمد حميد الدين : ٤٦٩
٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣
يحيى بن محمد السراجى : ٤٥٥
يحيى بن ميمون : ٥٠٨
يزيد بن بوجير : ٣٩٠
يزيد بن جرير القسرى : ٣٩٠ ،
٣٩٦
يزيد بن عبد الملك : ٥٠٨ ، ٦٩٤
يزيد بن مرخان : ٧٧
يزيد بن معاوية : ٣٨٨ ، ٣٩٠ ،
٦٩٣ .
يزيد بن منصور الحميرى : ٣٩٥
يزيد بن المهلب : ٦٩٤
يعرب بن بلعرب : ٣٢٢
يعلى بن أمية : ٢٧

فهرست البلدان والأماكن

حذفنا من الكشف البلدان التي عقدت لها فصول خاصة ، وكثر ورودها في كثير من صفحات الكتاب ، مما يجعل إيرادها هنا قليل الفائدة .
وهذه البلدان هي :

البحرين أو الأحساء - البصرة - بغداد - الحجاز - حضرموت -
صنعاء - عدن - العراق - عمان - الكويت - مصر - نجد - اليمن .

حرف الألف

آمد : ٧٣٠
أبين : ٣٩٨ ، ٥٢٢
أبو ظبي : ٦٢٧
أبو عريش : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٨
الأبلة : ٦٨٥
إبرا : ٣٢٣ ، ٣١٨ ، ٢٥٧
أبها : ٢٣١
أترار : ٧٠٧ ، ٧٠٨
الأحمدي : ٦٥٢
الأخضر : ٢٠٠
أذربيجان : ٧١٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٦ ،
٧٢٨
أريل : ٧١٢
أردبيل : ٧٣٥
أرمينية : ٦٨٢ ، ٦٨٧
الأزبكية : ١٣٧
أزكى : ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
استانبول : ٦٥٨
أشيقر : ٦٤ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧١
أصفهان : ٥٥٢ ، ٧٩٩
أفغانستان : ٣٣٨ ، ٥١٩
الافلاق : ١٥٨
الاندلس : ٣٨٩ ، ٥٠٨ ، ٥٩٢
الموت : ٧١٤

أم الروس : ٦٥٢

أم سعيد : ٦٢٢

أم العصافير : ٩٦

أم القوين : ٦٢٧ ، ٦٣٨

الأخبار : ٥٧٢

أندونيسيا : ٣٧٨ ، ٣٩٢ ، ٥٠٩

أوال : ٤١١ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٧٣

أوغندا : ٢٧١

ايران : ٢٤٥ ، ٦٠٩ ، ٦١١

ايطاليا : ١٥٧ ، ٣٧٥

حرف الباء

باب المنذب : ٣٧٣ ، ٤٨٤
بابل : ٦٨٨
الباطنة : ٣١٢
باكستان : ٢٩٦
بيان : ٨٦
البحرين : ٢٨ ، ٣٠
بخاري : ٧٠٥ ، ٧٠٩
البرتغال : ٣٢٤ ، ٤٥٨ ، ٥٩٣
بريدة : ٥٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
١٠٨ ، ١٧٣
بريم : ٤٨٤
بريطانيا : ٣٢٣ ، ٣٢٤
البصرة : ٣٠ ، ٧٠

تهامة : ٣٤ ، ٣٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣٧٣
تهامة عسير : ٣٦ ، ٤٠٦
تيريم : ٤٩٠
تيماء : ٥١ ، ٩١ ، ١٤٠ ، ١٧٩ ، ١٩٧
تونجي : ٣٤٧

حرف الثاء

ثرمدا : ١٣٨

حرف الجيم

جاكرتا : ٢٢٣
جالديران : ٥٨٥
جبل شمر : ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٩١ ، ٩٢
الجبيلة : ٤٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٢
جدة : ٢٢٩ ، ٤٧٨
جرش : ٢٨
الجزائر : ٤٦٤
الجزيرة : ٦٨٤
جلجل : ١٠٣
جلفار : ٢٦٢ ، ٦٣٩
جلولاء : ٦٨٦
جنابة : ٥٦٢
الجند : ٣٩٨ ، ٤٤٢ ، ٧٠٥
جعلان : ٥٩٢
جنيف : ٦٢٠
الجهرة : ٦٥٢
جواردور : ٣٥٢
جواثا : ٤١٨
جوداراما : ٨٠
الجوف : ٤٨ ، ٥٠ ، ١٥٣ ، ١٩٧
جيزان : ٢٣١ ، ٤٧٧

البكيرية ٦٢ ، ٦٥ ، ١٣١
بكين : ٣٧٦
بلحاف : ٤٨٤
بلخ : ٧٠٥
بلوخرستان : ٢٩٨ ، ٣٤٩
بليدة : ١٠٣
بمباي : ٣٠٦
بمنات : ٣٧٣
بندر عباس : ٦٢١
بهلاء : ٢١٧ ، ٢٤٥
بوبيان : ٦٥٠
بهلاء : ٢٥٨
البوريمي : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
بوشهر : ٤٥٧ ، ٥٢٥
البوصير : ١٣٠
بولندا : ٧١٢
بئر أحمد : ٤٨٤
بيحان : ٤٨٤
بيروت : ٤٩٤
بيرديره : ٦٣٥

حرف التاء

تايلاند : ٥٠٩
تبريز : ٧٢٣ ، ٧٢٤
تدمر : ١٥٦
تربة : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧
ترجان : ٧٣٣
تركستان : ٧٠١
تركيا : ١٧ ، ١٤٧ ، ١٦٢ ، ١٩٥ ، ٤٥٨
تعز : ٤٣٣
تكريت : ٦٠٠
تلعفر : ٧٣٥
تنجانيقا : ٢٥٩

حرف السين

السالمية : ٦٥٢
 سامراء : ٢٥٧ ، ٦٩٦
 سبيع : ٤٩
 سجستان : ٣٠٢ ، ٦٩٤
 سدير : ٤٨ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ٩٦ ،
 ١٣٩ ، ١٧٣
 سرمدا : ٨٨
 السروات : ٣٦
 سعد : ٢٥٧
 سفالة : ٣٤٧
 سلانيك : ١٦٥
 سمذ : ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٣
 سلمية : ٣٢٦
 السلمانية : ٦٨٢
 سمائل : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ،
 ٢٥٨ ، ٢٩٤
 سمرقند : ٧٠٥ ، ٧٠٦
 سميح : ٦٤١
 سنخافورة : ٥٠٩ ، ٥٩١
 السودان : ٦٧٤
 سوقطرة : ٤٨٤
 سومطرة : ٣٨٨
 السويس : ١٤٧ ، ٢٤١ ، ٤٦٥
 السوق : ٣٥٠
 سيراف : ٤٤٢
 السينية : ٦٣٨

حرف الشين

الشارقة : ٦٢٧ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧
 شبام : ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٤٢
 الشبيبة : ١٥١
 الشحر : ٣٩٨ ، ٤٨٩

حرف الذال

ذخار : ٤٤٢
 ذمار : ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٥٧
 ذو الجار : ٥٥ ، ٥٣٢

حرف الراء

رأس تنوره : ١٩٥
 رأس الخيمة : ٢٦٢ ، ٣٠٧ ، ٣٢٥
 ٦٢٩
 رأس الرجاء الصالح : ٢٦١ ، ٥٩١
 رابغ : ٢٠١
 رداع : ٤٣٠
 الرس : ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٤٢٨
 الرستاق : ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٣٢٣
 الرصافة : ٦٩٥
 الرقة : ٦٨٧
 الرمل : ٥٧٧
 الرها : ٦٨٧
 روديسيا : ٢٧١
 روسيا : ١٦٢ ، ٥١٩ ، ٥٩١
 روضة سدير : ٩٦ ، ١٠٣
 الرياض : ٤٩ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢١٧
 ريدان : ٣٧٣
 الريان : ٦٢٢
 الري : ٧٠٩ ، ٧١٠

حرف الزاي

الزيارة : ٦١٦ ، ٦٢٢
 زبيد : ٢٨ ، ٣٩٧
 زنجبار : ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ،
 ٣٣٦

ظفير : ١١١
الظهران : ٢٢٨ ، ٢٤٠
حرف العين
العارض : ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ،
٨٩ ، ١٠٨
عبادان : ٤٣٢
عبري : ٢١٨
العنزة : ٤٠٨
عتيبة : ٩٦ ، ٦٩ ، ٤٩
عجمان : ٦٣٠
العريش : ٦٢٢
عسير : ١٤١ ، ١٦٢ ، ١٧٤ ،
١٧٧ ، ١٩٧ ، ٤٢٣
العقبة : ٢٠١
عقدة : ٩١ ، ٩٧
العقارب : ٤٨٤
عقريا : ٨٧
العقير : ١٧٦ ، ١٧٧
العقيلة : ٦٤ ، ٦٦
عكا : ٥٩٤
عكاظ : ٥٥
العمارية : ٨٧
العنبرة : ٣١٥
عنيزة : ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥
٧٧ ، ١٧٣ ، ١٧٩
العوالق : ٤٨٤
عين بزاحة : ٢٤
عين التمر : ٥٧٢ ، ٥٧٣
عين جالوت : ٥٩٠ ، ٧١٩
عين زبيدة : ٣٣ ، ٤٠
عين شمس : ٥٧٦
العيون : ٥٠ ، ٦٤ ، ٤٦٤

الشعرا : ١١٢
شمر : ٤٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٩١ ، ٩٦ ،
١٣٩ ، ١٤٥
شقرا : ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٥
شهباز : ٢٧٢
الشويخ : ٦٥٠ ، ٦٥١
شيراز : ٦٢١ ، ٧٢٣

حرف الصاد

الصبرة : ٦٣٩
الصبيحة : ٤٨٤
صبيا : ٢٣١
صحار : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤
٥٩٢
صعدة : ٣٦ ، ٤٣٣ ، ٤٢٦
صنعاء : ٣٦
الصهبة : ١٤١
صور : ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٥
الصومال : ٣٢٧ ، ٣٧٨ ، ٥٢٤
الصين : ٣٧٨

حرف الطاء

الطائف : ٣٣ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ٢٠١
الطفرة : ٦٢٨
الطور : ٤٨٤
طوس : ٧٠٩
طويق : ٨٣
طيسفون : ٦٨٥

حرف الظاء

ظفار : ٢٥٠ ، ٢٩٠ ، ٣٥٦

القصيم : ٤٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ،
٩٨ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٧٩

قطر : ٩٩

القطيف : ٨٧ ، ١٤٠ ، ٢٢٨ ،
٥٣١ ، ٥٦٢

قفار : ٩١

قلعة الحزم : ٢٦٨ ، ٢٦٩

قلعة خولان : ٣٨٩

قلعة همدان : ٣٨٩

قلعة يحصب : ٣٨٩

قلهات : ٢٥٦

قم : ١٠٧

قنا : ٩١

القنفذة : ١٥٠ ، ٢٠١

حرف الكاف

كاظمة : ٦٥٢

الكدراء : ٤٠٧ ، ٤٠٨

كراتشي : ٦٧١

الكرخ : ٦٩٥

كربلاء : ١٢٠ ، ٦٩٢

کردستان : ٣٣٨ ، ٦٨٢

كركوك : ٦٨٣ ، ٧٣٥

كرمان : ٣٠٢

كلكتا : ٢٢٣

كمران : ٤٦١

كندة : ٣٩١

كنيسة القليس : ٤١١

الكوفة : ٦٩٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥

كوكبان : ٤٣٠

الكونغو : ٣١ ، ٢٧١

كوريا موريا : ٢٥٠

كوجرات : ٣٢٧

كيران : ٤٨٤

العبينة : ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٨ ، ١٠٣

حرف الغين

غزالة : ٨١

غزنة : ٧٠٥ ، ٧٠٦

الغطخط : ٦٤ ، ٢١٢ ، ٢١٣

غمدان : ٤١١

حرف الفاء

الفجيرة : ٢٤٩ ، ٦٢٩ ، ٦٣٩

فخ : ٣٥

فدك : ٩١ ، ٩٣

فرنسا : ٢١٦ ، ٢٥٨

الفسطاط : ٢٥٧ ، ٣٩٢

الفلبين : ٥٠٩

فلسطين : ١٨٤

فيلكه : ٦٥١

فيد : ٨١

الفيوم : ٣٩٢

حرف القاف

القادسية : ٦٨٦

القاهرة : ٢٥٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩

قبرص : ١٧٢

قبتان : ٣٧٥ ، ٣٧٦

قرطبة : ٣٨٩ ، ٤٠١

قربات الملح : ٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٥١

القرم : ٧١٢

القسططينية : ٣٩ ، ٣٠٩ ، ٤٦٤

قشم : ٢٧٢

قشعم : ٥٩٢

القصب : ٦٤

حرف اللام

لبنان : ٥٠٧

لحج : ٤٣٣ ، ٤٨٤

الliche : ٤٧٠

لك : ٣٨٢

ليبيا : ٣٩٢

الليث : ٢٠١

حرف الميم

مارب : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤١١

ماردين : ٧١٢

المجر : ٧١٢

مجنة : ٥٥

المجمة : ٩٦

المحرق : ٦٠١

مخا : ٤٠٢

المختارة : ٥٤٥

المدائن : ٤٢٨

المذنب : ٦٨ ، ١٣٠

مرباط : ٣٩٨

المردة : ٥٢

مرج دابق : ٣٦٥

مرج راهط : ٣٨٩

المزاحمية : ٢١٣

المزيخرة : ٣٩٨ ، ٤١٦

المسيجدة : ٨١

مسقط : ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٠

٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٢ ، ٢٥٩

٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧

٢٩٨ ، ٢٧٢

مسكان : ٦٥١

مسكة : ١٣٠

المصك : ١٧٢ ، ١٧٠

مضيرة : ٢٥٠

مطرح : ٢٥٩ ، ٢٩٨

مطير : ٢١٢

المعافر : ٤٤٧

معرة النعمان : ٩٢ ، ٥٦٤

المعفر : ٤٠٥

معين : ٣٧٦ ، ٣٧٧

مقديشو : ٣٤٧

المقرانة : ٤٥٧

مكران : ٢٩٨ ، ٣٣٨

المكيلا : ٤٨٤

الملايو : ٤٩١

مئبار : ٣٦٠

ملهم : ٦٤

المليدات : ٨٧

المليحة : ٦٣ ، ٦٤

ممبسة : ٣٢٦ ، ٣٢٨

المنامة : ٦١٢

المنصورة : ٤٤٦

منغوليا : ٧٠١

منفلوط : ٣٩٢

منفوحة : ٨٢ ، ١٠٦ ، ١٩٤

مهرة : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢١٩ ، ٢٩٥

موسكو : ٧١٢

الموصيل : ٥٣

الموصل : ٦٩١ ، ٧١٢

ميدي : ١٥٨ ، ١٩٨

ميلندى : ٤٥٨

حرف النون

نجران : ٢٥ ، ٢٨ ، ١٤١ ، ٣٨٢

٤٧١ ، ٣٨٤

النجف : ٣٤٣ ، ٥٩٨

نخل : ٢٥٦ ، ٢٥٧

واحة خرمة : ١٦٨ ، ١٩٦	نزوى : ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
وادي حنيفة : ٤٩ ، ٦٤ ، ٨٤ ، ٨٥	٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥
وادي الدواسر : ١٥٣ ، ١٧٩ ، ٦٥٣	النعيمة : ٥٣
وادي الدم : ٨٤	نصيبين : ٧١٢
وادي الصفراء : ١٤٩	النوبة : ٣٥ ، ٤٤٤
وادي فاطمة : ١٨٩	نياسا : ٢٧١
وادي القرى : ٩٣	نيس : ٢١٦
وادي النعمان : ٣٤	نيسابور : ٧٠٥
واسط : ٤٣٢	نينوى : ٥٨٠ ، ٦٩١
الوشم : ٤٥ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١٧٣ ، ٢٢٧	حرف الهاء
الوصيل : ٤٨	هجر : ٣٦ ، ١٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١
الوطية : ٨٨	٢٢٧ ، ٥٤٧ ، ٥٦٩
حرف الياء	هراة : ٧٠٩
اليابان : ٦٧٣	هرمز : ٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣
يافا : ٥٩٦	الهفوف : ١٧٦ ، ٢٢٨
يافع : ٤٤٢ ، ٤٨٤	الهلالية : ١٢٠
اليمامة : ٣٤ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧	همدان : ٣٤ ، ٤٢١ ، ٤٣٥ ، ٧١٠
٥٣٤ ، ٥٣٥	الهند : ٤٠٧
اليونان : ١٤٦ ، ٢٨٩	هولندا : ٣٢٣
	حرف الواو
	واحة تربة : ١٩٦

رقم الايداع ١٩٧٦ لسنة ١٩٩٢

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes,
On History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands



دكتور أحمد شلبي

7

ISLAM AND MUSLIM COUNTRIES
THE ARAB PENINSULA AND IN IRAQ,
FROM THE RISE OF ISLAM UP TO THE
PRESENT TIME .

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and
Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.

— تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دارالعلوم
(جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبودج .
— رار الولايات المتحدة الأمريكية كما رار أكثر دول أوروبا
وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
— درس مجموعة من اللغات الأجنبية وعلم الإعجازية
والاندونيسية .

— استغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ
ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، وقد
حاصره مستنداً ورائراً وعاراً في جامعة الأزهر ،
وعين سمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة
العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الاسلامية ،
ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات
الدبلوماسية .

— مؤلفاته تزيد عن خمسين كتاباً ظهرت الطبعة الثانية
والعشرون من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

- ١ — موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة مجلدات
- ٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ — مقارنة الأديان في أربعة أجزاء .
- ٤ — كيف نكتب بحثاً أو رسالة .
- ٥ — المكتبة الاسلامية لكل الاعمار : ١٠٠ جزء من
السيرة والتاريخ وقصص القرآن للأطفال والشباب
والسيدات والرجال .

ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS — ٦

HISTORY OF MUSLIM EDUCATION — ٧

— كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجم أكثر
مؤلفاته الى الأوردية ، والتركية ، والاندونيسية ، والماليزية
والفرنسية ، والفارسية .